بلزاك

النسيبة بت



النص كاملاً

النص كاملاً

للمؤلف

في سلسلة ماريان

- الجلد المسحور
- الزنبقة في الوادي
- النسيبة بِتْ
- الأب غوريو
- الناعقون

ماريان

روائع الأدب والفكر منقولة إلى العربية

الطبعة الأولى ١٩٨٨

بلزاك

النسيبة بت

ترجمة
شهيد صقر

مراجعة
هنري زغيب

عويدات

النسيبة بيت

تقديم
بيار باربريس

مثل معظم عناوين كتب بلزاك، «النسيبة بِتْ» عنوان متواضع كأنه يشير إلى قصة صغيرة حميمة أو خاصة. وهكذا لا يلجأ بلزاك إلى العنوان الملحمي بل يرغب في الأسماء الشخصية والإيماءات العائلية والمحليّة والأخلاقية أو الساخرة التي تبدو في الغالب كأنها تتعدّى لعيّنات صغيرة في وسط الواقع والحياة: «الأب غوريو»، «كوديسّار الشهير»، «الأوهام الضائعة»، «رجل عظيم من الريف في باريس»، «حطر الشعودة (انطلاقة في الحياة)»، «ربة وحي الإقليم». لكن عند القراءة ينقلب غالباً كلّ شيء فنشعر كأننا أمام لوحة جدارية أو أمام ملحمة. وانطلاقاً من هذا العنصر الأساسي للواقعية التي برزت نظريتها بدءاً من عام ١٨٣٠ في ملحوظة في الطبعة الأولى لكتاب «مشاهد من الحياة الخاصة»: التفصيل. لم نعد هنا أمام رؤية خاطفة لباريس، من فوق، فبعد الفراغ من قراءة الكتاب تروح الرؤية تعلو وينكشف عالم بأكمله وينشأ. هذا من الطوابع المميِّزة لبلزاك، إنه ينطلق عادة من مشروع أقصوصة وعند التنفيذ يجنح عمله إلى اتخاذ أبعاده

الحقيقية. أما «مدام بوفاري»، مثلاً، يمكن أن يقرأ - وهذا شكلٌ من أشكال فهمه - من دون أن يتعدى حجمه حجم شخصية السيِّدة بوفاري وصورة للعالم تكون في أفضل حالاتها ساخرة وبلا معنى. أما «النسيبة بِتْ» وهذا معناها - فتؤدّي إلى تحديد الذهل والإحاطة به، هذا الذهل الذي وإن كان يفقد من قوته الإيحائية ولا يشكل سداً للعصور يمكن الركون إلى ظله للاستغراق في الحلم، لا يُعدم كونه، يشبه الكارثة التي وقعت ما بين ١٨٤٦ و١٨٤٨، شيئاً شبه بصدع من صدوع التاريخ.

I

إن الأقارب الفقراء يفترضون طبعاً أن لهم في مكان ما أقارب أغنياء، وصلاة بعضهم مع البعض الآخر تنشىء خطاً من خطوط قوى «الحياة الخاصة». فما هي الحياة الخاصة؟

هل أن اللصوص والقتلة هم المجرمون الحقيقيون، بل المجرمون الوحيدون؟ عام ١٨٢٢ وفي فانكلور، وصف الفتى، بلزاك (البالغ عندها ثلاثاً وعشرين سنة) «مدام دارنيز» وهي أم غيورة ومستبدة قضت على ابنتها أوجيني كما أهلكت السيّدة بلزاك ابنتها لورانس. وبعد سنتين، وعند إعادة قراءتها لأنه اعتبر أنه بات في إمكانه نشرها، سماها «نبذة عن حياة خاصة». ما سبق يمكن اعتباره ظهوراً للفكرة الرئيسيّة في موضوعات بلزاك.

عام ١٨٢٣، وفي «أنّيت والمجرم»، يندّد الأب مونتيفير في

موعظته بـ «الجرائم الخفية» التي ترتكب كل يوم في عالم الناس وفي الحياة الخاصة.

«أنت، فسرت القوانين لمصلحتك وربحت دعوى غير عادلة وقوّضت أركان عائلة. أنت خنت وطنك وبعته. أنت وعدت زوجتك بالإخلاص والشرف فهجرتها. أنت تذرّعت بسقطات زوجك فتبرّأت أمامه وأمام نفسك لتمارسي حياة فالتة... أنت تواريت مساء عندما توفي عمك فصوّبت نظرك إلى الغاب، مؤتمن إرادته، وإذ تناولت الوصية التي طلب العجوز الساذج الذي ركن لصدقك المزعوم فوجدتها مكلفة ورميتها طعماً للنار فتلفت على الفور. مع ذكرى الإنسان البار هلكت الأعمال الصالحة التي كان سينشرها، والذي لطف أمل القيام بها واقعة وفاته.

«إنها هفوات!... ومع هذا تبدون للناس حكماء وشرفاء. تركبون العربات، تذهبون إلى القداس، لم تشهروا أفلاسكم في وجه أحد، إلا الله! وهذه بسيطة! فالله دائن متساهل! لا يتكلم!... لكن سيتكلّم يا أخوتي، نعم سيتكلّم وسيف نقمته في يده وثورة غضبه كامنة في عينيه!... ربّما بدأ يتكلم، لأن وجدانكم يزأر! إني متأكد من ذلك!...

وهل تعتقدون أن هذه الملامح حادة أكثر مما يجب؟ ولكن ثمة هنا من أوحى، عبر مناورات بارعة، إلى أحد العجائز بأن أبناء أخوته لا يحبونه؛ وبعد عشر سنين فضّ وصيّة أضاع بها مستقبله من أجل دخل لا يتعدّى حفنة من المال خلال لحظات

عابرة من حياته. ولكن ثمة هنا من أوصد بابه أمام أقارب فقراء أو قليلي النبل بحجة أنهم مزعجون. لكنَّ واحداً منكم ذهب إلى القضاة، دفع بزوجته الجميلة إلى القضاة ملتمساً مرضاتهم فزيَّنت لهم حججاً بلبلت العدالة. ومن فرط المساعي لفلفتم عملاً عاطلاً. أنت، هناك، لو تمكنت بنظرة أن تميت، في هولندا الجديدة، رجلاً على شفير الهلاك دون أن تعلم الأرض بذلك، ولو كانت هذه الجريمة المنقوصة، تقول لنفسك، ستدرُّ عليك ثروة طائلة، لكنت الآن في قصر هو ملكك وتتنقَّل في عربة فخمة وتجلس لتقول: أحصنتي، أرضي، ورصيدي المصرفي! ولا تتردَّد في القول: رجل شريف مثلي!».

إن أسلوب هذا الروائي البالغ من العمر أربعاً وعشرين سنة والذي يبذل جهداً للتأثير أسهل، ما يزال دون المستوى المطلوب؛ لكنَّنا نعرف أشياء كثيرة في هذا التعداد ليس فقط لجهة الموضوع بل لجهة أبطال الروايات الممكنة: المقطع الشهير عن المثقف في كتاب «الأب غوريو». كذلك، فكرة آخر روايات بلزاك الكبيرة، حتى لا نقول موضوعها. الأقارب الفقراء سيصبحون «مشهداً من الحياة الباريسية»، بينما الأب غوريو الذي ينتمي للوهلة الأولى إلى هذا الفرع سينتهي في آخر المطاف ليصبَّ مع «كوبسك» و «الكولونيل شابير» و «التحريم» في خانة «مشاهد من الحياة الخاصة». ومهما يكن من أمر قيمة هذا التوزيع الذي أثاره بلزاك في داخل المقاطع الكبيرة في «الملهاة الإنسانيَّة» فإن كل شيء، يشير بوضوح إلى أن موضوع الأقارب

الفقراء مرتبط ارتباطا وثيقاً بهذه الرواية وبالعلاقات الإجتماعية كما يلحظها بلزاك ويحاول أن يفسرها ويكتبها منذ محاولاته الأولى ومنذ أن بدأت كتاباته تقول وتعني ما هو العالم الحديث.

في المرحلة التالية: عام ١٨٣٤. عندما أقدم على إجراء التنقيحات المطبعيّة لكتابه «الأب غوريو» لمجلة «لاروفو دو باري»، أدخل بلزاك شخصية مدام دو بوسيان، وهي ابنة عمّ ثريّة للطالب الفقير راستينياك، عبر شخصية ثانية تدعى مدام دو مارسيلاك لا أثر لها في المخطوطة. كتب يقول:

«بعدما هزت فروع شجرة العائلة، اعتبرت السيدة العجوز أن الفيوكنتسه دو بوسيان مؤهلة أن تكون الأقل سوءاً بين الأشخاص الذين في إمكانهم تقديم العون لابن أخيها من بين النسل الأنانيّ للأقارب الأغنياء». نحن في عالم النبلاء،لكن العلاقات التي يحسب لها حساب من الآن وصاعداً هي العلاقات المالية التي تلغي أو تبعثر العلاقات المنبثقة من الولادة. في «أنيّت والمجرم» استوى الأقارب الفقراء مع الأقارب الباهتي المحتد: مما يعتبر تنازلاً للمسرح الكلاسيكي - وإذا لم يتمكن سان برو من التقرب من جولي عند روسو فذلك ليس نتيجة فقره بقدر ما كان بسبب أصله المتواضع. فالفتاة العريقة الأصل لا تتزوج شاباً من العامة. ولكن بعد مرور الزمن أصبح للمال وحده، في فرنسا الثورية، قدر ينشىء القيم ويصنفها بعد أن يفرضها فرضاً. منذ ذلك الحين توقفت مسألة النبالة والعاميّة عن

كونها المحرّك في حبك العقدة لرواية تريد أن تقول الأشياء الأساسية عن العلاقات الإجتماعية الجديدة التي لم يكن يحكي عنها إلاّ لماماً. عند نهاية «ملكية تموز». إذ انهارت الأرستقراطية في الواقع كما في الرواية البلزاكية لتتيح المجال للبورجوازيين المنتصرين، وإذ أصبح كاميزو الصغير في «سيزار بيروتو» حيث صوّره بلزاك شخصاً يطبِّق الصناديق، وزيراً للتجارة وعضواً في المجلس في فرنسا في «ابن العم بونس»، وإذ أصبح سيليستان كروفيل، الذي كان وكيلاً تجارياً في «ملكة الورود»، عمدة دائرته، وإذ تخلي سيدة «فوبور سان جرمان» الكبيرة مكانها «للمرأة المناسبة»، امرأة التجارة والصيرفة والإدارة، وإذ يضطر مكسيم دو تراي، المتأنق العتيق (الأب غوريو) إلى الالتحاق بخدمة السلطة البورجوازية لكي يعيش، وإذ أصبح راستينياك، الطالب المعدم الذي كان خصمه (مازلنا في الأب غوريو) إذ أصبح وزيراً من وزراء لوي فيليب فأرسله إلى أرسيس لانجاح المرشح الرسمي (نائب أرسيس)، وإذ انتهت الطبقات الوسطى التي هدّدتها البروليتاريا والتي أصبحت سلطتها موضع نقاش عند المنظرين السياسيين (انظر كلمة الإهداء في «القرويون») إذ انتهت بتملكها للبلاد معتبرة أن كلّ شيء (وحتى الأعمال الفنية: «ابن العم بونس») بضاعة للبيع، نازعة عن كل من ليس بورجوزاياً حقوقه، أصبح طبيعياً أن يتحول موضوع الأهل الفقراء إلى موضوع أدنى أو إلى موضوع أعلى من مواضيع سلطة المال الكبرى. إن تحليل ماركس معروف: المواطن مات، ولم

يعد هناك سوى الفرد والحياة الخاصة. عام ١٨٤٦ أبانت تهكميّة كروفيل والأب الصغير ريفي وازدراء كلّ قيمة عند ممثلي طبقة ما زالت للأمس تعتبر «تقدمية»، ليس فقط في الحياة بل في القانون العرفي والايديولوجيا الموضّحة، أنه لا قيمة إلاّ لما أعلنه بلزاك في خريف ١٨٣٠ «الحسابات الدقيقة للشخصية». منذ ذلك الحين أصبح موضوع الأهل الفقراء واحداً من النقاط التي تصدّت لها الفكرة الجديدة: الإنسانية الثورية تنزوي في عالمها الخاص. ثم تبلورت المواقف وسدّت المنافذ وأصبحت الصلات العائلية هي الإطار المحتوم والعالم الصغير للعلاقات الإنسانية ـ عكس ما تصوّرته وأكدته مثالية هوغو التي أدّت خدمات كثيرة للعمل والعائلة والوطن والمدرسة ـ وكر أفاعٍ: العائلة البلزاكية هي المكان الذي لا يمكن النفاذ منه.

II

رواية «النسيبة بِتْ» تشكّل كذلك لوحة للحظة من التاريخ الفرنسي.

منذ فترة طويلة دخلت الأرستقراطية في النظام: لقد لاحظنا في «البال دي سو» ١٨٣٠ أن الكونت دو فونتين، بطل الفوندي، يضع أولاده في العائلات البورجوازية والمجالس الإدارية. إن حمل الدوقة دو بري السلاح عام ١٨٣٢ ليس إلا عراك كرامة أخضعه بلزاك لتحليل لا يرحم عام ١٨٣٩ في

«الأميرة الباريسية» (أول عنوان لأسرار أميرة كادينيان). وفي نهاية ملكية تموز توضحت الأمور: فالنبالة التي لم تبداستياء مع زوال مستقبلها السياسي الخاص سواء انخرطت مباشرة في خدمة الملكية البورجوازية (راستينياك عينّ وزيراً ـ ماكسيم دو تراي وكيلاً، القصور تقترع بأوامر من حاكم الولاية) وسواء رضيت أم قامت بدور الرأسمالية والإتجار البحت: ها إن الدوق هيروفيل، راعي جوزيفاني «النسيبة بث» يعمل في سكة الحديد ويكتسب منها معاشه. اهو انضمام إلى الحقيقة وانتصار لإيجابية ما؟ أهو انضمام نافلي الأمس. إلى نظام أعلى؟. أن تصبح بورجوازياً لا يعني أنك ستصير شخصاً مفيداً وأكثر إنسانيّة. التوحيد يحصل في الأسفل والأرستقراطية الحقيقية في «النسيبة بث» تسير وراء نعش هيلو العجوز مع أخ مونتوران الذي سبق أن خاصمه في معركة الثوار الملكيين. أن تصريحات بلزاك الشديدة ضد خادمات المنازل وضد الغيرة الشعبيّة لم تسفر عن شيء. روايته تتكلّم أوضح بلزاك، دون غنائية أو الفساد والإفتراء في نظام لم يعد يحمله شيء، نظام غير قادر على إصلاح نفسه يسير بطريقه في دائرته الخاصة، أما في خارجه فلا وجود لأية قوى معارضة وفاعلة وبالتالي فلا بديل منه. الجزائر هي مثل واضح للعيان تبعاً لهذه التحليلات الرهيبة التي كانت لتقود «الروائي العزيز» إلى السجن في ظروف أخرى. لم يقتنع بلزاك مطلقاً بمهمة فرنسا في الجزائر، فبدءاً من ١٨٣٠ اشتمّ رائحة الاتجاريّة وفي عام ١٨٤٣ وفي «بداية في الحياة» أزال من الأذهان

أوهام عمليّة عسكريّة وسياسيّة لم تحصل إلا لنجدة انتهازيين بائسين (أوسكار هوسون). هذه المرة برزت بوقاحة تجارة التهريب وعمليات ابتزاز المال من أهل البلد، التي مارستها بأشكال متشابهة أوروبا التي أخضعها نابوليون. وكما هو متوقع انكشفت إحدى الفضائح المتهم بها موظف كبير، لكن ما لبثت السلطة أن طوّقت القضية واكتفت بملاحقة صغار الموظفين. وهناك ما هو أفضل من ذلك، إذ أنهم أوفدوا، لإصلاح الإدارة في الجزائر، مارنيف الذي يودّون إبعاده لإنقاذ إحدى العائلات الغنية ! حُبكت العقدة حسب مشيئتهم. هذا نوسنجان الذي كان بالأمس نابوليون الماليّة وكان نبيّ الوقائع الجديدة يتربّع في دار الدولة ليساوم ربما على ديون هيلو في مقابل امتيازات يطمع بها. لا يشير النص مطلقاً أنه يمكن التعدّي لسيّئات القوى اللاأخلاقية بقوى أخلاقية بل فقط بقوى لا أخلاقية غيرها. كما يعبّر عن ذلك نوسنجان وكما يلاحظه بيانشون في نهاية روايتنا: «لم يعد هناك دين في الدولة». وهكذا تبرز من جديد الحياة الخاصة.

III

عام ١٨٤٦، أعاد بلزاك إلى الأذهان ـ بعدما عصرنها أحد مواضيعه الروائية التي خبرها: إنه موضوع الحب الوهمي والعنيد مع هذا، حب فتاة لبطل ساحر. منذ ١٨٢٢ وفي «فان ـ كلور» تعلّقت أوجيني أرنويز بحب هوراس لاندون الغامض

فكان ذلك مناسبة للفرار من عالم الأمومة القاسي. وبرغم رهافة حسها وتصميمها راحت تريـد المحبوب زوجاً، لكنّ الأمور جرت على غير ما تشتهي فتخلى الحبيب عن أوجيني لمصلحة شاعرة ساحرة ومخلوقة شفافة حتى قيل عنها أنها فورنارينا. عام ١٨٣٠ في «المجـد والتعاسـة» («بيت الهرّة التي تلفّ المكب») ارتمت اوغوستين كيّوم في أحضان الرسام تيودور دو سوفيرفبو الـذي أطلعها على عالم الرهافة والفن والشعر مع ذلك لم تلق سوى الإخفاق والهجر. عام ١٨٣٣ حصل لأوجيني غرانديه المصير ذاته مع ابن عمها شارل الذي لم يكن إلاّ وصوليّاً. يبدو واضحاً أن بلزاك أثار بذلك ذكرى حادثة عائليّة معيّنة، ففي ١٨٢١ هامت أخته لورنس الروائية النشيطة بأوغوست لوبواتيفان دو لوكرافيل صاحب المصنفات المختلفة حيث كان يعمل معه أونـوري في «الأدب البضاعي»؛ الزواج لم يتمّ (تصدّى له أونوري: فكيف يسمح لها بالزواج من كـاتب!) لكن لورنس كان لا بدّ هي أيضاً أن يهجرها زوجها مونتزيكل السيّء الطالع. إن البطلة عند بلزاك المهيأة دائماً بالرغم من صغـر سنها أن تكون واقعيّة أكثر منها متهكّمـة وفي الوقت ذاتـه نشيطة وسـاحرة كـما أنه بالإمكان إدراجها في خانة سرعة العطب كما في خانة السخرية. إن أورتنس هيلو في حبهـا لونسيسـلاس ليست إلاّ من هذا النسيج حيث يزيل بلزاك عنها طابعها الخاص ليؤنسنها بالقياس الى سيسيل كاموزو في «ابن العم بونس» التي ليست إلاّ بلهاء وتحوز على احترام أمها لها. أورتنس هي ابنة النبيلة أدلين التي

آمنت هي أيضاً بالزواج. وهكذا نلتقي مجدداً هذا الموضوع - الشرك، موضوع الحريّة الواهمة داخل النظام. وبالطبع فالشابة ثم المرأة هما اللتان تعبران أفضل تعبير دون شك، ليس عن خطأ الحب، بل عن خطأ الاعتقاد أن الحب كافٍ لصياغة العالم. ولاستكمال الصورة تهيم أورتنس بأحد الفنانين. وأكثر من ذلك فهو بولوني!... لكن مايقصدهبلزاك ليس فقط تلك الحالة القصوى والبليغة، بل ليصفى بعض الحسابات.

في «بيت الهرة التي تلفّ المكب» يظهر تيودور دو سوميرفيو شخصاً متردداً لا يمكن الركون إليه. بعد أشهر كتب بلزاك مقالاً طويلاً بعنوان «الفنانون» أحاط بجوانب الموضوع قائلاً: الفنان ليس تابعاً ولا يمكن أن يطلب إليه التزام «الفضائل» المتعارف عليها في التقليد البورجوازي: هذا الدفاع عن الفنان، على الأقل على الصعيد النظري، الموجّه ضد القيم والممارسات الليبرالية، كان يمكن أن يفضي إلى المفهوم البودليري للشاعر الذي لم تستوعبه أمه ولا زوجته. أما في حقل الرواية فالأمر مختلف؛ الفنان قد لا يحمل للحياة أو للشباب الباحث عن توسيع مداه، إلاّ خيبات الأمل. للفنان الحق في حياة يضع قواعدها، لكن الحياة في مسيرتها لها حقها هي الأخرى: إنها بيّنة واحدة من بيّنات لا تحصى عن ميّزة هي بالضرورة معقدة ومتناقضة في عالم حيث المطلق محكوم عليه بأن يكون هداماً والحسّ بالواقع محكوم عليه بالإنقطاع عن المطلق. بالغ بلزاك في إقامة الدعاوى ضد هؤلاء الرجال الغواة والخطرين على

الآخرين كما على أنفسهم: لوسيان دو روبامبري في «الأوهام الضائعة» (١٨٣٦ ـ ١٨٣٩) ولوستو في «ربة الشعر الأقليم» يقدّمان المثل الصارخ عن الميوعة والتردد بل وحتى الجبن. يكره بلزاك الفنان الذي يطمئن إلى الكسل ويظن نفسه قطب الكون وينتحل الحق باللامسؤولية. لقد أغاظه جول ساندو كثيراً، كذلك «عباقرة» آخرون قدموهم إليه. و «شاتيرتون» لفيني ظهرت له عام ١٨٣٥ كدجل ثقافي. إن قراءة الرواية على هذا النحو هيّنة: فبعض الفنانين، بالرغم من انحسار القيم التي يتمتعون بها، لا همّ لهم سوى تجميع أوهام العالم في ذواتهم. أما بالنسبة إلى بولونيا ففي الأمر واقعة آنية (اللاجئون السياسيون) ليست إلاّ بناء مدماك في العلاقات مع عائلة هانسكا. لكن ليس في وسعنا أن نتجنّب البحث صبيحة عام ٤٨ في الدّور الذي يتعهده الموضوع البولوني في المأساة ـ الملهاة المقبلة، وفي صفحات فلوبير في «التربية العاطفية» وبعد ذلك، وهذا واضح، في نهاية «أوبو ملكاً». إن بولونيا كالفن والفنانين تشكل جزءاً من هذا الفولكلور الثوري في القرن التاسع عشر والذي لم يقدم له بلزاك أي تساهل. إن امرأة أو فتاة في الثلاثين ماذا يمكنها أن يأملا في هذه التركيبة؟.

IV

«النسيبة بث» هي إذاً، وتكراراً، رواية المرأة. باشرها بلزاك عام ١٨٣٠ («مشاهد من الحياة الخاصة») ومختلف

الأقاصيص التي أعطت «إمرأة الثلاثين») وسرعان ما نال إعجاب عدد كبير من جمهور النساء الذي أحس أنه فهم. ولم يفت سانت بوف، في مقال شهير نشره عام ١٨٣٤، التشديد بخبث على خاصيّة المخدع وعلى دور المرشد والأمين «لأخصب روائيينا». كانت النساء البلزاكيات في حينه نساء عاثرات الزيجة يطمحن الى السعادة. وهذا الموضوع وهذه الشخصيات استمرت مع السيدة مورتسوف في «الزنبقة في الوادي» (١٨٣٦) في نطاق أوسع من القصص الممتدة بين (١٨٣٠ - ١٨٣٢) حتى فيرونيك كراسلان («كاهن القرية» ١٨٣٩ - ١٨٤١) ودیناه دو لابودري («ربة شعر الأقليم» ١٨٤٨). ادلين وأبنتها تختمان هذا النهج دون أن تضيفا جديداً. بعكس بت...

- عام ١٨٣٢ ظهرت الآنسة كامار العانس بين «العازبات» (العنوان الأول لـ «كاهن تور») ثم خصوصاً وعام ١٨٣٦. روز كورمان «الفتاة العانس» التي أعطت عنوانها لأول رواية لبلزاك ظهرت في مسلسل. غير أن هاتين الشخصيتين لم تكونا مركزتين في عالم التأليف البلزاكي. ثم تطورتا حسب وجهتين متباينتين تمام التباين: الآنسة كامار كائن جاف وصورة نافلة عن العقم الإجتماعي *(كان بلزاك لا يزال يرى بطلته عبر مذهب سان سيمون القائل بالنفع الإجتماعي) لكن روز كورمان تمثل عكس الآنسة كامار هذه المخلوقة المرهفة الحس التي تعيد إلى الأذهان بعض ملامح السيّدة فوكي في «الأب غوريو». لم يتوغّل بلزاك قط في كشف «العانس» الجافة والمقيتة أو العانس الشبقه. إن

بث هي غير ذلك، ليست كاريكاتورية وهي تستعير ملامحها من أم الروائي ومربيته السيدة برونيول (هي الأخرى عشيقة فنان) وهذا ما استبان اليوم. وهل بث مجرد فظاعة نفسية؟ لا يمكن انكار قوادتها النفسية، خصوصاً قدرتها على التمتع بواسطة شخص آخر، فاليري، التي تقربها من فوتران. لكن تجب العودة إلى ليزبت وشخصيتها الفاعلة، غير أن هذا النموذج النسائي ينتهي بالإخفاق كما قال بلزاك لأنه تفوّق كثيراً... كيف ولماذا؟ يشدّد بلزاك طويلاً على ظهور ليزبت فيشر ويشرحها وإن لم يبررها. إنها قروية فوجيّة (من منطقة الفوج في فرنسا) وعاملة في الزركشة القيطانيّة ووصيفة باحثة عن دخل لمدى الحياة - أي إنها ساعية للعيش كما يقال اليوم - فليزبت قد احتلت موقعها الاجتماعي والاقتصادي ولم تغتنم فرصة التغيير التاريخي الكبير الذي دفع بمجموعة بشرية من الريف لإشغال مهن جديدة في باريس. فحيث نجحت أدلين وغيرها لم تعش ليزبت إلاّ في الظلّ خاملة منزوية. هل كان ذلك بسبب بشاعتها؟ أجل. وهكذا يحلّ رسم تخطيطي محل آخر لكن بلزاك يضع بانتباه شخصيته في مفترق مجموعتي قوى أو معطيات تفسيرية. إن الأفواج القادمة من الريف الفرنسي تتباين وتتمايز؛ لذا لا مكان إلا للمهرة من الناس أو القادرين أو الموهوبين الذين ينجحون بينما الآخرون يتساقطون. فرنسا الثوريّة تلجأ دون رحمة إلى اختيار نخبة الجماهير القرويّة، عائلة فيشر المناصرة تقود معركة ضد الحلفاء في ١٨١٤ لكن دورها لم يكن إلاّ ثانوياً، لأن بشاعة

بث كغلظة العم فيشر، إن لم يعبّرا عن طبيعتهما فعن موقفهما. هل أن عائلة هيلو أصيبت في كرامتها؟ وكيف عوملت بث؟ وهل أدلين بريئة؟ وهل تجربة الإذلال التي عصفت بها لا تؤدي إلى هذا القانون الأساسي عن المذلّة التي كانت بث أولى ضحاياها؟ ما هي أسس الواقعية والموضوعية لسعادة السيّدة هيلو الجذابة والخلوقة؟ وبث البشعة ألا يمكن أن تكون سعيدة في عالم ليس بشعاً ولم يشوّه كلّ ما يلمسه؟ هذا البعد الإجتماعي ـ التاريخي للرواية يقف حاجزاً في وجهها ويمنعها من التلوُّن بمسحة ماورائية. بث هي أكثر من طبيعة ونفس، إنها شرط. ذلك ينطبق بالضبط مع المسخ الآخر الذي فيه لا يمكن، حتى بعد الإجهاد، التوصل إلى كشف أي انعكاس لشعاع من دوستوفسكي.

V

من الممكن أن يلاحظ المرء أن بعض مشاكل البارون هولو شبيهة بمشاكل من هو أعظم وأشهر منه، عنيت الشاعر فكتور هوغو. إلا أن ذلك يبقى ثانوياً والمهم هو غيره، أنه في حضور شخصية معبرة.

هذه الشخصية (أو ما يحتمل لها) تبدو قادمة من البعيد. ففي مخطوطة «الأب غوريو» راحت السيّدة فوكي، في غضبها على التاجر السابق لأنه صدّها، تشيّع عنه بأنه فاسق مزمن «قوّض نفسه بملاحقته لصغريات الفتيات». بعدما شطب بلزاك

هذه الجملة: «المحتاج إلى الفتيات الصغيرات»، عاد وكتب في النص المطبوع: «الذي يتمتع بأذواق غريبة». أنه بالطبع نقد ذاتي يؤكد أن بلزاك كان له ما يقوله عن «الرجال الشهوانيين». «النسيبة بِتْ» هي الرواية الأكثر شهوانية عند بلزاك، قبل كل شيء، بواقعيتها وبالشكل الذي جرت فيه تسمية الأشياء بمسمّياتها ليس فقط بالاستذكار بل بعرض الوقائع: نتبيّنها في إصابة مارنيف بمرض السفلس وفي نقائصه (ادعت زوجته أنها «هُجرت» بعد ثلاثة أيام من عقد قرانها و «لأسباب مرعبة»)؛ وفي الطريقة التي هزّت بها مدام مارنيف فستانها عندما أصبحت سيّدة زوجها، وفي فاليري أيضاً التي تشكو لبتّ ما يتوجّب عليها أن تقوم به كعمل سخرة لمدة «ساعتين مع كروفيل»؛ وفي براعة فاليري وقدرتها (والتي «تتفوّق» على نفسها في شارع دوفان لتخلص إلى السيطرة على كروفيل)؛ وفي تساؤل جوزيفا عن «المرأة ـ النموذج» عند هيلو: «ماذا تفعل لك إذاً؟»، وفي اعترافات كروفيل عن «اختلاقات» فاليري التي قال عنها هيلو أنها: «تحوّل العجوز إلى شابٍّ فتي»؛ وفي تعجب كارابين مما قاله البرازيلي: «في الليل عندما التقيتها ثانية. ـ كلمة «التقيت» محتشمة [...] سأحتفظ بها!». هذا التعجب الذي يجلي موقف طلاب مدرسة فوكير الداخلية عام ١٨٣٥ الذين ذهلوا مما صدر عن «فتيات» جارهم العجوز: «أما زلت تراهم؟ عظيم يا أب غوريو!»، وفي عودة الموضوع العزيز على قلب بلزاك، المتمثل في إقدام فورمانينا على قتل رافايل وبمداعبات إمرأة تؤدي «بربة

الشعر إلى الإغماء»؛ وفي موقف أدلين التي تتساءل عمّا تفعل هؤلاء النساء؛ وفي كثير غيرها... وسواء كان ذلك في سرّ الزواج أم في خزي الحياة الفاسقة فإن بلزاك يوضّح صراحة ويصنّف لكلّ موقف مكانا في الرواية ينسجم مع الممارسات الجنسيّة أو مع وقائع الحب الطبيعي. لكن هناك ما هو أفضل من هذه الواقعية: ذلك أن بلزاك يخالف المثاليين الرومنطيقيين المفكّرين والبورجوازيين الذين يتطرّقون إلى موضوع الحب على أنه آية عجيبة بينما يعتبره بلزاك جهنّمًا حقيقية وساحة تلهو فيها دون رحمة، قوى العدوان والتفرقة واللاإنسانية والتهديمية، هذه التي تقود المجتمع البورجوازي. لقد أبقى هوغو حب ماريوس وكوزيت، ليلة زفافهما في «البؤساء»، على مستوى مطمئن وثابت. بالطبع هناك استثناء جان فالجان وخروجه على قانون الحياة الكبير، إلا أن ذلك نتيجة طبيعية يجب تفهمها. إنها فلسفة بورجوازيّة وليبرالية. في «النسيبة بِث» يظهر الحبّ على العكس وكأنه الهدّام الأكبر. هكذا تفهم شخصية فاليري التي تقضي وهي في حواراتها مع بت، على مختلف عاشقيها. ونفهم شخصية ونسيسلاس الذي لا يشتغل لأنه «يعشق» زوجته ويجعلها تحبل، ونفهم شخصيّة هيلو الذي يحتاج إلى «أشياء». إنك لا تلقى أبداً في الرواية أن الحب الجسدي يرافقه أبسط إشارة مشاركة أو فرح. فالهوس الجنسي عند هيلو ـ وإن كررنا ذلك ـ ليس أبداً صورة أو لغة تساؤل ما ورائية. أهو حالة سريريّة أم ظاهرة أخلاقية؟.

VI

«النسيبة بث» رواية السلطات الجديدة، من هنا تبدو معبّرة عن الحياة الباريسية، والحياة السياسية، وهي أيضاً ـ وهنا غالباً أريد لها أن تصنّف ـ مأساة العائلة ومأساة الفرد وهنا تعبيرها عن الحياة الخاصة. إن صعود مكانة كروفيل وانتصار المال والتداخلات واستراتيجية السلطة ولعبة المعارضة السلالية وحضور الشعب وراء نعش العجوز الشجاع بعد تحية العامل الشاب، كل هذا يكشف بالتأكيد صفحة عريضة عن وجه التاريخ، تاريخاً يشكل من الآن وصاعداً تاريخاً «واقعياً» لمؤرخي فرنسا بقدر ما هو تاريخ لفرنسا التي اتسمت بالصبغة البلزاكية التي استقت مراجعها من عالم الرواية ذاته الذي يحدّد الأبعاد ويفسّر فرنسا لوي فيليب الباهتة الباردة التي تقلّصت صورتها أقلّ بكثير من الصورة الأدبيّة. غير أن نسيج بلزاك الذي يجمع دائمًا بين التاريخي والخاص، بين المجموعة، والفرد، بين مشاكل الفرد ومشاكل المواطن، يجد هنا تحققاً إضافيّاً. ألم يكن البارون هيلو «حالة» جسمانية ونفسية؟ وهل «النسيبة بث» رواية طبيعية، أو دراسة كلاسيكية أخرى؟ وهل أطال بلزاك فقط لائحة الدروس الأخلاقية والمخبريّة التي يزدهي بها التراث «الفرنسي»؟ والمسخ هيلو، ألم يكن مرجعاً عن «جموح العواطف»؟ يظهر ثبات بلزاك هنا واضحاً بتفسيره النظري الذي يعرضه مرة أخرى عن الجموح العاطفي كتجربة في استخدام الذات. إن الحب، «فجور العقل» و «متعة النفوس العظيمة»

واللذة المبتذلة» المبيعة «في مكان معينّ»، يشكلان وجهين متمّمين لحاجة و «السعي» ليس إلاّ «فسقاً ناتجاً عن المجتمع». والفاسقون ليسوا إلاّ « سعاة في سبيل الكنوز». ما قيمة القول؟ ليس ذلك دون معنى أن يُقدّم هيلو كأحد قدامى ملحمة القوة الأمبراطورية التائهين اليوم في مصالحهم وفي المجتمع السياسي. فمنذ «الجلد المسحور» توضحت الفكرة: الرغبة بمختلف أشكالها هي أحد المحصّلات الفاسدة في الحياة الإجتماعية. إنه مجتمع التحليل والأنانية يدفع الإنسان إلى «الظهور» (هنا يلتقي بلزاك مع ستاندال) والباطل. بالنسبة إلى إنسان «الطبيعة» لايصير الإنفعال العاطفي وليس فيه ما هو كامن حتى يصير مأساوياً. الشهوة صحيحة بالقدر الذي تعبّر عن حاجة مرتبطة بالتكوين ولا تمكن ممارستها وكفايتها إلاّ بحسب قوانين عالم مقسّم ومؤسس على قوانين التقسيم، تنحرف الشهوة عن مسارها وتحرف غيرها بقدر ما تهتاج، إنها تصل عندها إلى تدمير الفرد المشتهي. وأكثر من ذلك فهي تدمّر موضوعها. صرح بلزاك مراراً بأن قتل الرغبة والانفعالات العاطفية يؤدي إلى قتل الإنسان والحياة الإجتماعية وهو، مثل فورييه، حلم بلملمة شمل الإنفعالات وإعادتها إلى الوحدة الفردية والإجتماعية متصالحين وربطها بركب عربة الجانب الإيجابي. وهذا لن يكونه ممكناً إلاّ في الطوباويات («طبيب الريف» و «كاهن القرية») أو بفلتات في هذه المجموعات المحدّدة والمتميّزة التي تتمثل في ندوة «الأوهام الضائعة» أو في صداقة رجل لرجل عند بعض الأبطال حيث

تستبعد المرأة بشكل مقصود. لكن عند وصف الواقع المعيش يستمر المسلك ذاته: إن المجتمع الذي يتعذّر عليه أن ينسب إلى الشهوة مواضيع جديرة بها كما يتعذّر عليه أن يمنحها الوسائل التي تريحها بشكل إيجابي، يأسر الشهوة ويحولها قوة مدمّرة. معنى ذلك في الخلاصة: لا للإرادة ولا للشهوة. الأمثولة معروفة فهي تعطي مثلاً («العقلاء» والمعتدلين مع اعترافها تماماً بوجاهة دوافع الذين يشتهون. («بيت الهرة التي تلف المكب» و «ذكريات زوجتين صبيتين»). إن قصة هيلو تندرج في هذا المسار من الإنفعالات العاطفية كما يولّدها مجتمع من الوهم والإستلاب وموافقة الآخرين وبمعنى ثان وبآخر المطاف بمجتمع الإنقياد الذاتي لقانون الموافقة والإستلاب. يبدو هيلو وعلى طريقته، ذلك الساعي إلى المطلق، وهذا ما يضعه على مئة ذراع فوق القصص الباريسية الصغيرة، عن الزنى والفضيحة والأريكة. إن هيلو، على طريقته وبدوره، يلهث وراء «الجلد المسحور». مع ذلك ففي هذه الرواية المعبّرة عن نهاية حياة، عنصران يمتازان بالجدّة ويشيران أنّ الزمن قد مشى. أول الأمر، هيلو ليس إلا سلبياً وهدّاماً. بلتازار كلايس («البحث عن المطلق») كان قبل ذلك المحطم عائلته لكنه كان أيضاً بطل مغامرة مثيرة وإيجابية. رفايل دو فالونتان («الجلد المسحور») يموت في ظروف غامضة لكنه كان الوجه الأشد نقداً ومطلبيّة وتعبيراً لشباب ١٨٣٠. لوي لمبر مات مجنوناً لكنه كان نبياً. دافيد سيشار انتهى بالتراجع أمام طموحاته كمخترع لكنه كان ضحيّة اختناق اقتصادي على يد

التروست كوانتت («الأوهام الضائعة»). حتى الآن هناك، عند بلزاك، وجهان لأهل الأهواء: إنهم يبدّدون أنفسهم ومحيطهم، لكنهّم يحققون شيئاً أو يتنبأون ببعض المشاريع. هذه بالضبط حالة الأب غراندي. لكن الآن، نرى هيلو قد سُجن، ثم يسجن نفسه في رغبة عقيمة جداً. ليس بطلاً في شيء. يتقهقر ويسقط دون أن يكون له يوماً موقف ولا رسالة بطل. كيف نفهم هذا التدرج؟ ربما التعب والإنهاك اللذان أصابا بلزاك بحيث أن انفعالاته ورغباته تتفاعل أكثر فأكثر مع شعوره بالواقع يفلت منه؟ لكن قد يكون هذا على الأخص نتيجة لتطور المجتمع البورجوازي. منذ زمن طويل والقوة التي تحمله وتحرّكه تتفرّع في الوقت ذاته إلى إيجابية وسلبية. إيجابية: إن عالماً يتعمّر ويحرّك الطاقات ويصحّح الطموحات؛ هذا المجتمع كان وليد الثورة في مواجهة الحالمين بالعودة إلى النظام السابق ومواجهة المتطفلين أو العاجزين، وكان وجهاً للحداثة المحرّكة؛ إضافة إلى أنه يحمل في تضاعيفه قوى الشباب والثورة؛ ها هو بوسكيه منظم نورماندیا («العانس») كذلك ميشال كريستيان، بوبينو الصغير الذي يسمّر صناديقه وز. ماركاس الذي يحلم بأن يكون رجل دولة. سلبية: المصالح تصبح فائقة السلطة، الأحرار المنتصرون يُروِّقون الشباب كما حصل في «عهد الإصلاح»، لكن بلزاك كان يرى أيضاً الوجهين الضدّين معاً في روايته التي إذا اعتبرت وجهاً من وجوه الأزمة البورجوازية فهي أيضاً وجه لبعض الشبيبة البورجوازية. في بداية ٤٨ لم يسر الأمر على هذا

المنوال. لم تعد البورجوازية صاحبة المبادرات بل تجمدت وسكنت ولم تعرض أي رؤية مستقبلية مدروسة بل التفاهة واستمراريّتها المبتذلة والبليدة والوقحة. في «النسيبة بِتْ» لا وجود لهؤلاء الطموحين من ذوي الأسنان الطويلة بل وجوه شابّة مثل راستينياك. فقط هذا البارد ففكتوران هيلو، رجل الحذر والتعقل والاحتراف، الذي لم يظهر بطلاً يتصدّى لأبيه. هنا نفهم أن رواية الرغبة قد فقدت أحد بعديها. كيف يمكن أن نسهّل العيش في مجتمع لا يحوي إلا السلبيات لبطل يتسم بطابع رئيس الملائكة؟ إن رؤساء الملائكة ينتمون إلى الماضي («الجنود القدامى»)، ومن هنا نفهم موقف العامل الشاب الذي فُتن بوجه الماريشال العجوز والذي يعتقد أنه يمثّل وجهاً من وجوه المستقبل. لقد خدعته هو الآخر الأسطورة النابوليونية وأوقعته في الشرك. لن يؤدّي ذلك إلى تضخيم جمهور الذين يستجيبون إلى المخلّص بعد الانقلاب الثاني من كانون الأول؟ الرغبة لا مستقبل لها: هذا ما يفهم مما كتبه بلزاك عام ١٨٤٦. كان للبورجوازية قبل ذلك طلائعها وأبطالها. ليس لها سوى ماض بوجهين (حربي وذو أمجاد لكنه عاجز، كريم لكنه معرّض للشبهات مع قدامى الأمبراطورية المحالين على التقاعد أو انضووا تحت لواء لوي فيليب) وحاضر ساكن لا يسجّل ولا يوحي في أي مكان ولا بأيّ شكل أي صورة لمستقبل. منذ ذلك الحين، وهذه أول مرة عند بلزاك، نشعر وكأننا ندور على أنفسنا من غير هدف، ولا تعود أي فلسفة تتصدى لصيرورة

الشخصيات.

لكن يجبّ أن نذهب أبعد لنبصر جيّدا كيف يُطبق الشرك على بشر افتقدوا طليعتهم التي استمرت طويلاً معهم. يبدو أن كروفيل قد عثر على الجواب والحل البورجوازي العمليّ لمشكلة الأهواء: على خلاف هيلو الذي يبذر أمواله ونفسه، يستهلك رأس المال والدخل، بينما كروفيل يضبط وينظّم رغبته بأسلوب الحانوتيّ الحكيم. لا يكرس لها إلا قسمًا من مداخيله، يفتح حساباً للطائشين فيكرّس لهم مثلاً أرباحه في سكة الحديد ويحذر جيّداً ألمساس برأس ماله. هذا مبدأ أساسي من الحياة البورجوازية وهذا على سبيل المثال ما توجّه له دائمًا فكتور هوغو. يمكن أن يعيش المرء هكذا وقتاً طيباً ويصبح مليونيراً. إلا أن كروفيل يبدو، وحتى ثلثي الرواية، وكأنه يرشد هيلو، المحشور بشكل واضح في نظام وظائفي، ويعرض جواباً عملياً لحماقاته؛ وها أن كروفيل ذاته يسقط بدوره في الشرك فينهار وينهشه المرض بعد فاليري، مما يؤكد أن هذه التأشيرة إلى التحطيم الجسدي هي أشد حسمًا وذات دلالات. كروفيل هو أيضاً أصيب بالهلع لقد تزوّج فاليري: التزم بروته. المغزى واضح: لا حلّ أبداً داخل العالم كما يتبدّى. قبل ذلك وفي ١٨٣١ التقى رافايل وهو برفقة إحدى المومسات بائع الأثريات هذا الذي، قبل أن يقدّم له الجلد المسحور، عرض عليه بإسهاب فلسفة إدخار الذات. لا حكمة داخل هذا العالم لولا حكمة فيكتوران السلبية، إن فشل كروفيل، وكون أن بلزاك لم يشأ له النجاح، لا يجنح إلى

مقصدأخلاقي (كل شيء يعود إلى العائلة) لا ولا إلى ضرورات العقدة: إنما هو سقوط آخر للبورجوازية والبيّنة على عجزها عن ضبط الأشياء وتدبير الذات فقط شخصية من الدرجة الثانية مثل كاردو في «بداية في الحياة» يقوم دفعة واحدة بالإعتناء بثروته المادية وبأنشاد «الأم كوديشون» وتدبير شؤون أبناء إخوته، وباختصار العمل على مختلف الجبهات. أن الحانوتيّين لا يتقدّمون ولا يستمرّون إلا في بقائهم حانوتيّين للتزيين ومن الدرجة الثانية. فإنهم إذا تبوّأوا مركز الصدارة وتحوّلوا إلى شخصيّات مكتملة كبيروتو ستنهشهم الساحقات المصرفيّة. كذلك كروفيل، بسبب ترقيته الخياليّة، واجه قدراً أكثر مأساويّة من كل هؤلاء «الكاميزو» مع راقصاتهم الذين رأيناهم في خلفية قصص أبطال أكثر شباباً. إنها آلية لا رحمة فيها هي في أساس ولادة البورجوازية ونهش أبنائها.

نسجّل حول هذه النقطة اختفاء الموضوع الفلسفي الظاهر سابقاً، لا حلّ ولن يكون حلّ بديل ولا وجود لخيار آخر ولو كان نظرياً. قيل أن بلزاك لم يعد يكتب الروايات الفلسفية لأنه ابتداء من العام ١٨٣٦ كان يكتب لصفحات الجرائد وأن هذا النوع من الكتابة كان يفسّر منذ هذا التاريخ نموّ المواضيع الباريسية. ولكن كان كل شيء يتقدّم معاً ويستقر. لم تكن المسألة فقط مسألة الجمهور. بل مسألة طبيعة. إنها طبيعة جديدة للواقع الذي يشكّل الجمهور قسماً منه. لا وجود في أي مكان

للوي لامبير. ولا وجود كذلك لميشال كريستيان. لا وجود إلا لقوة ضخمة لا تدري ماذا تفعل لذاتها والتي لا يمكن التعبير عن مستقبل آخر لها بواسطة إيديولوجية أن «النسبية بتْ» هي، عشية ١٨٤٨، وليس عند بلزاك وحده، بؤس الفلسفة وموتها.

بيار بربريس



السيدة ماريف وليرت

السيئات

١

ما أغرب مطارح الهوى!

في أواسط تموز ١٨٣٨ كانت إحدى العربات الموضوعة حديثاً في السير، تجوب شارع الجامعة مقلّة رجلاً متوسط القامة في لباس قائد الحرس الوطني.

في هذا الجمع من الباريسيين الذين يقال أنهم بالغو الذكاء، ثمة من يعتقد أن،في لباسه العسكري متميّز،عن الذين يرتدون ثياباً مدنيّة عادية، مفترضين في النساء ذوقاً منحرفاً يجعلهن يتأثرن بسرعة لدى رؤ ية قبعة مريّشة أو بزّة عسكرية.

كان وجه هذا الكابتين، المنضوي في الفوج الثاني، ينبض ثقة بالنفس، بل اكتفاء بالنفس، مما يؤلّق بريق بشرته المحمرة فيلمع وجهه المتوسط الانتفاخ. وإلى هذه الهالة التي تتوّج بها الثروة التجارية جبين الحانوتيين الذين اعتزلوا، كنت تشعر بأن الرجل هو أحد نواب باريس أو على الأقل أحد الملحقين السابقين بدائرة المدينة. وأؤكد لك أيضاً أن شريطة جوقة الشرف لا تبارح صدره المنتفخ على الطريقة البروسية.

هذا الرجل المتأنق القابع بفخر واعتزاز في إحدى زوايا عربته يجول بنظره في المارة الذين غالباً ما يتلقون بسمات حلوة موجهة إلى عيون تائهة، غائبة.

توقفت العربة في الجزء من الشارع الممتد بين شارع بلشاس وشارع بورغونيا، على باب بيت كبير بني حديثاً على قطعة من ملعب دارة احترموها فظلت قائمة بشكلها البدائي في آخر الحديقة التي اجتزئت إلى النصف.

وقد امكن معرفة عمر الكابتين البالغ خمسين سنة، من الطريقة التي قبل بها خدمات سائس العربة ليؤمن له الترجل منها ومن بعض ما قام به من حركات متثاقلة هي، في انكشافها، صنو فعل الولادة. ثم نقل الضابط قفازه إلى يده اليمنى ودون أن يسأل الحاجب شيئاً، توجه نحو فسحة مدخل الطبقة الأرضية من الفندق وكأنه يقول: «إنها ملكي!».

إن حجّاب باريس ثاقبو النظر لا يستوقفون أبداً الناس المتأنقين المتزيين بالأزرق والمتثاقلين في خطاهم. بكلمة: أنهم يعرفون الأغنياء.

يشغل هذه الطبقة الأرضية بكاملها السيد البارون. هيلو أفري، الانتاندان المنسق في ظل الجمهورية، وقد شغل سابقاً منصب مدير عام مديرية الجيش ثم أصبح مدير إحدى أهم إدارات وزارة الحربية ثم مستشار الدولة فضابطاً كبيراً في جوقة الشرف، الخ... الخ...

هذا البارون هيلو أضاف إلى اسمه آفري، أي اسم المكان الذي ولد فيه، حتى يتميّز عن أخيه الجنرال هيلو الذائع الصيت، قائد فوج الرماة في الحرس الأمبراطوري.

كان الكونت الأخ الأكبر قد أوكل إليه أمر تربيةأخيهالمتوسط والاعتناء به، فمنحه، مسترشداً بحكمة أبيه، وظيفة في الإدارة العسكرية حيث بفضل خدماتهما المضاعفة استحق البارون ثناء نابوليون فعين البارون هيلو منذ ١٨٠٧ مدير عام ماليه الجيوش في إسبانيا. وبعدما قرع الجرس قام الكابتين البورجوازي بجهود لترتيب ثيابه، وكانت قد تصرّمت من الخلف والأمام تحت تأثير اهتزازات بطنه البيضاوي الشكل. وإذ لحظ أن أحد الخدم العاملين هناك رآه، تبعه هذا الرجل العظيم والواثق من نفسه. فاقترب الخادم واعلن وهو يفتح باب الصالون:

ـ السيد كروفيل.

وإذ تناهى هذا الإسم، المتناغم جداً مع هيئة من يحمله، إلى سمع امرأة شقراء كبيرة الجسم، ما زالت محتفظة برونقها، بدت وكأنها تلقت صدمة كهربائية فنهضت واقفة وخاطبت بحماسة ابنتها التي تطرز على بعد خطوات منها:

ـ أورتنس، يا ملاكي، توجهي إلى الحديقة مع ابنة عمك بيت.

وبعدما حيّت أورتنس الكابتين بتهذيب خرجت مصطحبة آنسة عانساً جافة يبدو عليها أنها أكبر سناً من البارونة مع أن

هذه تكبرها بخمس سنوات.
ـ الأمر يتعلق بزواجك، همست ابنة العم بِتْ في أذن ابنة عمها أورتنس دون أن تظهر انزعاجها من الأسلوب الذي سلكته البارونة في إبعادهما، فهي تكاد لا تحسب لذلك حساباً وعلى افتراض احتاج ذلك إلى شرح فان ثياب هذه النسيبة كانت كفيلة بتقديم هذا الشرح.

وكانت بِتْ العانس ترتدي فستاناً من صوف غنم المارينوس بلون عنب فورنتيا، قصته وشرائط حاشيته تعود إلى عهد الأصلاح، مع ياقة مطرزة لا تساوي أكثر من ثلاثة فرنكات، وتضع على رأسها قبعة من القش المحاك بقشر الساتان الأزرق المطرز بالقش كما هي حال قبعات بائعات سوق «الهال». حذاؤها مصنوع من جلد الماعز ويذكر شكله بصانع أحذية من الدرجة الأخيرة. مما يجعل الشخص الغريب يتردد في إلقاء التحية على ابنة العم بِتْ كواحدة من أهل هذا البيت، لأنها في حالة شبيهة بعاملة خياطة بالأجرة اليومية. مع ذلك لم تخرج العانس دون أن تلقي تحية خجولة بل وعطوفة على السيد كروفيل الذي بادلها إياها بتحية رمزية. وقال:

ـ ستأتين غداً: دون شك، آنسة فيشر؟

فسألته بِتْ:
ـ أليس من زوار عندك؟
فأجاب:

ـ أولادي وأنت لا غير.

ـ حسناً، أجابت، اعتمد عليّ.

ـ ها أنذا رهن أشارتك يا سيدتي، قال الكابتين قائد الميليشيا البورجوازية وهو يحيي من جديد البارونة هيلو.

ثم ألقى نظرة على السيدة هيلو كنظرة «تارتوف» إلى «المير»، أو كممثل من الريف يعتقد أنه من الضروري ترك البصمات البارزة لدى القيام بأداء مثل هذا الدور سواء في، بواتييه أو في كورتنس.

ـ إذا سمحت أن تلحق بي يا سيدي إلى مكان آخر حيث سنكون مرتاحين إلى مناقشة موضوعنا أكثر مما نحن في هذا الصالون، قالت السيدة هيلو وهي تشير إلى غرفة مجاورة هي بمثابة صالة للعب. هذه الغرفة لا يفصلها عن الصالون الصغير سوى ستار، ويطل الممشى المقابل على الحديقة. وقد تركت السيدة هيلو السيد كروفيل وحده بعض الوقت لانها رأت أنه من الضروري إغلاق الممشى وباب الصالون الصغير حيطة من أن يسترق أحد السمع إلى أحاديثهما. كما احتاطت للأمر وأغلقت باب الصالون الكبير وهي تبتسم لابنتها وابنة عمها اللتين لجأتا إلى كوخ في آخر الحديقة، ثم عادت تاركة باب غرفة اللعب مفتوحاً حتى تنتبه فوراً عندما يفتح أحدهم باب الصالون الكبير.

وفي ذهابها وإيابها، وإذ كانت في منأى من العيون، كانت

أفكار البارونة تطفو على سيمائها ولو شاهدها أحد لخاف من اضطرابها. وعند عودتها من باب مدخل الصالون الكبير إلى غرفة اللعب احتجب وجهها تحت تحفظ حصين تبدو حتى النساء الأكثر صرامة وكأنهن يأمرنه بأن يطاوعهن فيطيع.

خلال هذه التحضيرات التي أقل ما يقال فيها أنها غريبة، كان الضابط يتفحص أثاث الصالون. وعند رؤيته الستائر الحريرية المصبوغة أصلاً باللون الأحمر والتي انقلبت إلى البنفسجي بفعل الشمس وبريت على ثناياها بفعل الاستعمال، وسجادة زالت ألوانها وأثاثاً نُزع لونه الذهبي بينما حريره الموشى قد تفلتت شرائطه الواحدة تلو الأخرى، توالت على وجهه المفلطح، وجه التاجر الحديث النعمة، خواطر الاحتقار، فالرضى، فالأمل.

بعد ذلك جلس حيال المرآة، المعلقة فوقها ساعة دقاقة، وإذ كان يتفحص شخصه أعلمه حفيف الفستان بقدوم البارونة فعاد للتو إلى مكانه. وبعدما ارتمت على أريكة كانت تعتبر دون شك جميلة جداً عام ١٨٠٩، أشارت البارونة إلى كروفيل ليأخذ مكاناً على أريكة، ذراعاها تنتهيان بمجسمات اسطورية تفتت دهانها تاركاً الخشب أعزل من اللون.

هذه الاحتياطات التي تأخذينها يا سيدتي، كان من الممكن أن تكون فأل خير لـ...

- ... عاشق، تابعت البارونة مقاطعة الحارس الوطني.

ـ الكلمة خفيفة، أجاب وهو يضع يده اليمنى على قلبه مجولاً عينيه اللتين تكادان دائمًا تضحكان المرأة عندما يطالعها فيهما مثل هذا التعبير البارد. عاشق! عاشق! قولي بالأحرى: مسحور مفتون!

٢

من حمي
إلى حماة

ـ اسمع يا سيد كروفيل، تابعت البارونة. التي بلغت بها الجدية حد عدم معرفة الضحك، أنت في الخمسين من العمر، يعني عشر سنين أقل من السيد هيلو، أنا أعلم ذلك، ولكن يجب تبرير حماقات امرأة في سني أما بسحر جمالها أو بشبابها الفتي أو بشهرتها أو بتقديرها أو بإحدى المفاتن التي تسحرنا إلى درجة نفقد معها تذكر عمرنا، إذا كنت تحصل على دخل يبلغ خمسين ألف ليرة، فإن سنك هي في كفة من الميزان ودخلك في كفة وهما يتعادلان. وهكذا يتبين لك أنك لا تملك شيئاً مما تلح المرأة في طلبه.

ـ والحب، قال هيلو الحارس الوطني وهو ينهض من مكانه ويتقدم، الحب الذي. . .

ـ لا يا سيدي، هذا عناد! قالت البارونة مقاطعة حتى تنتهي من هذه السخافة.

ـ نعم، عناد وحب، أجاب، ولكن هناك شيء أفضل، أنها الحقوق...

ـ أية حقوق؟ صرخت السيدة هيلو التي بدت رائعة في تحديها واحتقارها له. وتابعت بالنبرة نفسها: الظاهرأننا لن ننتهي من هذا. وأنا لم أطلب منك المجيء هنا للكلام على ما أدى إلى طردك من هنا رغم ما يربط بين عائلتينا.

ـ ظننت...

ـ أيضاً! ألا ترى يا سيدي، من طريقة كلامي المستهتر عن العشيق والعشق وعما هو مجرد إحراج للمرأة، إنني واثقة تمام الثقة بالبقاء فاضلة؟ أني لاأخشى شيئاً، ولا حتى أن يظن بي لجلوسي معك وحدنا. هل هذا سلوك امرأة ضعيفة؟ إنك تعلم جيداً لماذا رجوتك القدوم.

ـ لا يا سيدتي، تابع كروفيل، بأعصابٍ باردة، ثم أرخى شفتيه وجلس مكانه.

فقالت البارونة وهي تتطلع إلى كروفيل:

ـ حسناً، سأتكلم باختصار لأضع حداً لتعذيبنا المتبادل. فرد عليها كروفيل بتحية ساخرة لو رآها وكيل تجارة لأدرك فوراً أنها من عادات أمثاله. قالت البارونة:

ـ ابننا اقترن بابنتك.

ـ وماذا لو كانا سيتزوجان بعضهما بعضاً من جديد؟

ـ لما كان هذا الزواج أجابت البارونة، أعرف ذلك. ومع ذلك لن يكون لديك داع للتشكي. أن ابني ليس فقط من المحامين البارزين في باريس بل أنه تبوأ مركز نائب منذ سنة ووضعه في المجلس هو من النجاح بحيث يجعلنا نعتقد أنه سيعين وزيراً في وقت ليس ببعيد. لقد سجّل اسم فيكتوران مرتين كمقدّم مشاريع قوانين فائقة الأهمية وباستطاعته، إذا أراد، أن يصبح مدعياً عاماً في محكمة التمييز. ذكرت لك ذلك حتى أقفل عليك ما قد تسمعني إياه من أن صهرك لا يملك ثروة.

فأجاب كروفيل:

ـ صهر علي أن أمد له يد العون، وهذا ما يؤسفني يا سيدتي. فمن الخمسمئة ألف فرنك التي تؤلف مهر ابنتي طارت مئتان، والله وحده يعلم كيف... هل لدفع ديون السيد ابنك أم لتجهيز بيته بأفخم الأثاث؟ هذا البيت المقدر بخمسمئة ألف فرنك ولا يدخّل أكثر من خمسة عشر ألف فرنك، لأنه هو يشغل القسم الأجمل منه، وما زال مديوناً عليه بمئتين وستين ألف فرنك؟.

بالكاد يغطي الانتاج فوائد الديون، لذا وهبت ابنتي في هذه السنة بالذات مبلغ عشرين ألف فرنك حتى تغطي مصاريفها.

اما صهري الذي يتقاضى، كل ما يقال، ثلاثين الف فرنك من المحكمة، فهو يتركها ليدخل المجلس النيابي...

ـ هـذا ايضاً لا يمت بصلة إلى حديثنا ويبعدنا عن الموضوع، ولكن حتى نفرغ من هذا كله، فما رأيك إذا شغل ابني منصب وزير ومنحك وسام جوقة الشرف وعينك مستشار مديرية باريس أنت العطار السابق، فهل يبقى ماتشتكي منه؟.

ـ ها نحن وصلنا إلى بيت القصيد! كنت عطاراً وحانوتياً، وبائع عجين اللوز وماء البرتقال وزيت الدماغ، لذا تشرفت بتزويج ابنتي الوحيدة من ابن السيد البارون إيلو آفري لتحصل ابنتي على لقب بارونة. الذي يعادل عـرش ملك لويس الخامس عشر! هذا جيد جداً... اني أحب سلستين كما تحب الأبنة الوحيدة، أحبها ما وسعني حتى أني لم ألد لها لا أخاً ولا أختاً قانعاً بمتاعب الترمل في باريس (وأنا في عز شبابي يا سيدتي). وليكن في علمـك أنه بـالرغم من حبي الشـديد لابنتي فلن أتساهل، أنا التاجر القديم. في ثروتي ولن أتنازل عنها لابنك الذي لا اقتنع بجدوى مصاريفه.

ـ يا سيدي تعرف أن السيد بوبينو العطار السابق في شارع لومبارد هو الآن على رأس وزارة التجارة.

ـ أنه صديقي يا سيدتي فانا، سلستان كروفيل وكيل سابق لوالد سيزار بيروتو اشتريت مؤسسة بيروتو حمي أوبينو حيث كان يُشغل وظيفة وكيل بسيط في هذه المؤسسة، وهو بالذات قد ذكرني بذلك نظراً لتواضعه (أنها فضلية له يجب ذكرها) مع الناس المرتاحين إلى وضعهم والذين يصل مدخولهم إلى ستين

ألف فرنك.

ـ حسناً! يا سيدي إذاً فالأفكار التي تصفها بكلمة ريجانس لم تعد دارجة في عهد يقدر الرجال تبعاً لقيمتهم الشخصية؟ وهذا ما أخذته في الاعتبار عندما ارتضيت زواج ابنتك وابني.

ـ لا تعرفين كيف تم هذا الزواج!.. صاح كروفيل. آه من حياة الشباب الملعونة! فلولا سلوكي المنحرف لكانت سلستين اليوم، الفيكونتيسا بوبينوا.

قالت البارونة بانفعال:

ـ مرة أخرى يجب ألّا نتوح على أعمال. صارت وانتهى الأمر. فلنتكلم عن موضوع شكواي من تصرفك الغريب. كان بامكان ابنتي اورتانس أن تتزوج، وزواجها ارتبط بكامله بك، إذ كنت اقدر فيك مشاعر النبل واعتقد أنك ستعدل مع امرأة لم يحتل قلبها غير صورة زوجها وستفهم حرصها على الا تستقبل رجلاً قد يعرض سمعتها. وكنت أظنك ستهتم أشد الإهتمام بصون شرف العائلة، المرتبط أنت بها، وبتشجيع زواج اورتانس من السيد المستشار «لوباس». ولكنك انت يا سيدي من أجهض هذا الزواج

ـ سيدتي، أجاب العطّار السابق، لقد تصرفت من منطلق الرجل الشريف. جاء من يسألني إذا كان المهر البالغ مئتي ألف فرنك سيدفع نقداً فاجبت بالحرف الواحد.. «أنا لا أكفل

ذلك»، فصهري الذي جمع له آل هيلو هذا المبلغ كبائنة رجل مدين، واعتقد أنه إذا حصل أن توفي هيلو آفري في الغد، فستصبح أرملته بلا رغيف خبز». هذا ما قلته يا سيدتي الجميلة.

وهل كنت ستتكلم هكذا يا سيدلو أني تخليت من أجلك عن واجباتي؟

ـ ما كان أمكنني قول ذلك يا عزيزتي «آدلين»، لأنك كنت ستجدين المهر في حقيبتي.

وعلى الفور قرن القول بالفعل وأنزل كروفيل الغليظ ركبته حتى الأرض وقبّل يد السيدة هيلو التي رآها مستغرقة بسبب كلماته في سكون الاستفظاع، هذا الاستفظاع الذي حسبه هو تردداً.

ـ لا! لا أشتري سعادة ابنتي مقابل... لا ـ انهض يا سيد او استدعي الخدم.

نهض العطّار السابق بصعوبة وقد أثار هذا الموقف غضبه مما أعاده إلى التزام مكانه متصنعاً وضعاً معتبراً، كما هي الحال عند معظم الرجال، أنه، بتصرفه هذا، ستتفتق الفضائل التي وهبته إياها الطبيعة. ثم كتّف يديه على الطريقة النابوليونية حانياً هامته رانياً إلى الأفق البعيد كما يفعل الرسّام عندما يرسم نفسه ـ ثم انتفض يقول:

ـ الاحتفاظ به! الاحتفاظ بالإيمان من أجل فا....

ـ من أجل زوج يا سيدي، زوج يستحقها، أكملت السيدة هيلو مقاطعة حديث كروفيل حتى لا تسمح له بأن يلفظ كلمة لا ترغب في سماعها.

فقال:
ـ اصغي إلي يا سيدتي، لقد أرسلت في طلبي وتريدين أن تتبلغي مبررات سلوكي، أنك تثيرين أعصابي حيث الأعماق بتصرفاتك الفوقية، باحتقارك وازدرائك لي! قد يظن الناظر إلينا أنني عبد! أنني أكرر: ثقي بي! لي الحق بأن... بأن اغازلك... لأن... لكن، لا، أني أحبك ما يكفي لكي ألوذ بالصمت.

ـ تكلم يا سيدي، سأبلغ بعد أيام عامي الأربعين ولست غبية في احتشامي حتى لا أصغي إلى كل شيء تتلفظ به...

ـ والآن، هل لك ان تعاهديني، كوني اعتبرك امرأة شريفة ـ لسوء حظي ـ بألاّ تسميني أو تصرحي بأني أفضيت لك بهذا السر؟

ـ إذا كان هذا شرط الإفصاح فإني أقسم بألاّ أتعرض، حتى أمام زوجي، لذكرك عند الكلام على مصدر ما سوف تسربه إلي.

ـ اني واثق تماماً بذلك لأن الأمر يعنيكما فقط أنتما الاثنين.

للحال شحُبَت السيدة هيلو.

ـ آه! إذا كنت ما زلت تحبين هيلو فإنك ستبتئسين هل تريدني أن أكف عن الكلام؟.

ـ تابع يا سيدي لأن الأمر يتعلق بتبرير تصرفاتك الغريبة تجاهي. واستمرارك في تعذيب امرأة في سني ترغب في تزويج ابنتها ومن ثم تلقى ربها بسلام...

ـ أرأيت؟ أنك تعيسة...

ـ أنا، أيها السيد؟

ـ نعم أيتها المخلوقة الجميلة النبيلة! لقد تعذبت أكثر مما يجب...

ـ أيها السيد كُفَّ عن الكلام واخرج! أو كلمني بما يناسب،

ـ أتعلمين يا سيدتي كيف تعارفنا أنا والسيد هيلو؟... عند خليلتينا، يا سيدتي.

ـ أو! سيدي!

ـ عند خليلتينا يا سيدتي.

كرر كروفيل ذلك بصوت متهدج وهو يغير مجلسه، محركاً يده اليمنى بإشارة ذات معنى

ـ حسناً وبعد أيها السيد؟ قالت البارونة ببرودة، والسيد في ذهول من أمره.

إن الغواة من ذوي الدوافع الصغيرة لا يدركون النفوس العظيمة.

٣

جوزيفا

قال كروفيل وهو يتحدث كرجل تهيأ لرواية قصة :

- إني مترمل منذ خمس سنوات، لم أقدم على الزواج ثانية وذلك لمصلحة ابنتي التي أعبدها، كما لم أشأ أن أقيم علاقات معاشرة في منزلي بالرغم من وجود سيدة جميلة جداً تمسك دفتر حساباتي وقد استخدمت لها عاملة صغيرة في سنها الخامسة عشرة على قسط عالٍ من الجمال لتقوم بتدبير منزلها. وإني اعترف بأني تتيمت بغرامها. كما أني استقدمت خالتي بعدما رجوتها أن تعيش مع هذه المخلوقة الساحرة وتسهر عليها حتى تستمر في انضباطها ما استطاعت في هذا الجو المكفهر!... وتبين أن هذه الصغيرة موهوبة في الموسيقى فاستدعيت لها أساتذة تلقت على أيديهم دروساً في هذا الحقل، وتمنيت أن أكون أباً ومحسناً لها، وأن ترك لي أن أتكلم على سجيتي فإني وَددت لو أكون حبيبها، فاحصل بضربة حجر على عصفورين: عمل صالح وصديقة مخلصة. تمتعت بالسعادة لخمس سنوات كان للصغيرة صوت سامر نادر. وقد كلفتني الفي فرنك في السنة مخصصة فقط لتنمية موهبة الغناء عندها. لقد سحرتني بموسيقاها وأثارت مشاعري فأمنت لها ولابنتي مقصورة خاصة في مسرح «الايطاليين» كنت أتردد

عليها تارة مع سلستين وطوراً مع جوزيفا.

ـ ماذا؟ هذه المغنية الشهيرة؟...

ـ نعم يا سيدتي، تابع كروفيل بفخر، أني مدين لجوزيفا الذائعة الصيت بكل شيء وأخيراً، وعندما بلغت سن العشرين عام ١٨٣٤ وكنت متيقناً من تعلقها الدائم بي، أصبحت مستضعفاً أمامها ولكن رضيت أن أوفر لها بعض التسليات فعرفتها بممثلة صغيرة تدعى جاني كادين التي تشبهها في المصير. هذه الممثلة هي أيضاً مدينة في كل شيء إلى راعٍ رعاها اعتنى بها وهذا الراعي كان البارون هيلو...

ـ أني أعلم هذا يا سيدي، قالت البارونة بصوتٍ هادىء ودون أي انفعال.

ـ آه! صاح كروفيل وهو أكثر ذهولاً. حسناً ولكن هل تعلمين أن هذا الرجل الشرير قد أحاط جاني كادين بعنايته وهي في الثالثة عشرة؟.

ـ حسناً وماذا بعد يا سيد؟

ـ وبعدما بلغت كل من جاني كادين وجوزيفا العشرين، تابع كروفيل، راح البارون يمثل دور لويس الخامس عشر مع الآنسة رومنس، منذ ١٨٢٦، وكنت حينئذ في عمر يقل اثنتي عشرة سنة عما انت فيه اليوم.

ـ لي يا سيدي من الأسباب والظروف ما يجعلني اترك لهيلو حريته.

ـ سيدتي، كذبتك هذه كافية لتمحو لك كل الخطايا التي ارتكبتها، ولتفتح لك أبواب السماء، تابع كروفيل حديثه بنعومة أخجلت البارونة التي احمرّ وجهها، قولي هذا أيتها السيدة الرائعة للآخرين وليس للأب كروفيل الذي، اعلمي جيداً، اشترك في مآدب مختلفة مع زوجك الماجن، فأنا، والحال هذه، أعرف ما أنت كلما رشف رشفتين محدثاً باسهاب عن مثالياتك. أوه! إني أعرفك جيداً... أنت ملاك طاهر. أن تردد فاسق في الاختيار بينك وبين فتاة في العشرين فأنا لا أتردد أبداً.

ـ سيدي!

حسناً سألوذ بالصمت.. لكن اعلمي أيتها المرأة القديسة أن الأزواج أن ثملوا مرة لا يتورعون عن التشهير بنسائهم أمام خليلاتهم اللواتي يضحكن كالفاجرات.

عندها انهمرت دموع الحشمة من بين رموش السيدة هيلو واستوقفت الحارس الوطني في الوقت المناسب، فلم يعد يخطر له أن يستقيم مجدداً في مكانه.

ـ أتابع، قال. توطدت علاقاتنا أنا والبارون بفضل غانيتينا. فالبارون، كمعظم الفاسدين، رجل لطيف وطيب. أوه! لقد ارتحت له هذا الوقح! لا، كان له اختلاقاته... وبعد فلنتخلّ عن هذه الذكريات... لقد تآخينا... حاول هذا الفاسق أن يغويني ويعظني بأفكار سان سيمون عن النساء. ولكن كما ترين كنت أحب صغيرتي برغبة الزواج منها، لو لم أخشَ أن أرزق أولاداً. كما ترين، كنا أبوين صديقين. فهل

يعقل ألّا نفكر في تزويج أولادنا؟ وبعد ثلاثة أشهر من زواج ابنك بسلستين أقدم هيلو، (لا أعرف كيف أتلفظ باسمه هذا السافل! لأنه خدعنا نحن الاثنين يا سيدتي! . .) أقدم هذا الدنيء على اختطاف صغيرتي جوزيفا. هذا الفاسد كان يعرف أن مستشار دولة شاباً، وفناناً، قد خلعاه من قلب جاني كادين التي تتصاعد نجاحاتها وتتعاظم، فاستولى على محبوبتي الصغيرة. ولا بد أنك لاحظتيها في مسرح «الإيطاليين» حيث تمكن البارون من إدخالها. ان بعلك ليس حكيماً مثلي، أنا المتزن كقطعة موسيقية.

كان قد ألزم نفسه بنفقةٍ لجاني كادين لا تقل عن ثلاثين ألف فرنك في السنة. واعلمي أنه أكمل خرابه لجوزيفا، هذه يا سيدتي فتاة يهودية تدعى «ميراح»، وهو جناس تصحيفي لكلمة «حيرام»، وهو اصطلاح إسرائيلي للتعرف إليها لأنها فتاة تهجرت من ألمانيا والتحريات التي أجريتها تثبت أنها الفتاة الطبيعية لمصرفي يهودي ثري. المسرح، وخاصة توجيهات كل من جاني كادين والسيدة شودز ومالاكا وكارابين حول طريقة معاملة العجزة، أثارت فيها غريزة اليهود القدامى المتكالبين على الذهب والجواهر، على العجل الذهبي مما حدا هذه المغنية الصغيرة أن تكون جشعة وقصدها الوحيد أن تصبح ثرية جداً، فهي لا تبدد شيئاً مما ينفق في سبيلها. دربّت نفسها بهيلو الذي جردته من كل ماله ونتفت ريشه وحلقت له على الصفر! وبعدما شقي هذا

التعيس في إبعاد كلير والماركيز اسكرينيون، هذين المتيمين بجوزيفا، عدا المعجبين الكثر المجهولين، تبين له أن دوقاً ثرياً جداً قد اختطفها. يدعي هذا النبيل الكبير أنه يستحوذ وحده على قلب جوزيفا، مع أن عالم الجواري يتحدث عنها والبارون لا يدري لأنه يعيش في الدائرة الثالثة عشرة حيث العاشق، كالزوج ، آخر من يعلم . هل أدركت الآن حقوقي،إن زوجك أيتها السيدة الجميلة حرمني سعادتي واغتباطي الوحيد منذ ترملي. نعم! فلو لم أكن سيء الطالع لما تعرفت على هذا العجوز النتن ولكنت احتفظت بجوزيفا، فلو ترك الأمر لي لما سمحت لها بأن تتعاطى المسرح مما سيحكم عليها بأن تبقى في كنفي ملكاً لي، مغمضة العينين وديعة سلسة. آه! لو شاهدتها لثماني سنوات خلت: إنها رقيقة تضج بالحياة ذهبية البشرة كالأندلسيات، سوداء الشعر لامعة كالساتان، رموش عينيها داكنة وطويلة تسدد سهاماً، فضلاً عن فخامة في الإيماء الحركي، وتواضع كتواضع الفقراء ونعمة كنعمة الشرفاء ولطافة كالظبية الوحشية. وبسبب سقطات هيلو أصبح هذا الجمال وهذه الطهارة شركاً للذئاب وفخاً لقطع المئة فلس. وتتوجت هذه الصغيرة ملكة الفسق. ها هي الآن تمازح، كما يقال، هي التي ما كانت تعرف شيئاً، ولا حتى هذه اللفظة!

ـ هنا مسح العطّار السابق عينيه اللتين انحدرت منهما بعض الدموع التي تنم عن صدق في الاحساس، مما أثار السيدة هيلو التي استفاقت من شرودها الذي تاهت في رحابه.

٤

تحَنان مفاجىء عند العطار

ـ وبعد أيتها السيدة، هل في الإثنتين والخمسين يمكن أن نستعيد كنزاً بهذا المقدار؟ في هذه السنّ يتطلب الحب ثلاثين ألف فرنك في السنة. اطّلعت على هذا الرقم عن طريق زوجك. أمّا أنا فاحب سلستين كثيراً لدرجة بحيث لا يمكن أن أسعى لافلاسها. وعندما رأيتك في السهرة الأولى التي أقمتها لنا لم أستطع أن أتصوّر هذا الفاجر هيلو يحتفظ بجاني كادين، أن لك من المهابة ما يؤهلك أن تكوني امبراطوّرة. لم تبلغي الثلاثين مع ذلك تبدين شابة جميلة. أقسم بشرفي أنني صعقت ذلك اليوم وحدثت نفسي قائلاً: «لو لم تكن لي جوزيفا ولو تخلى الأب هيلو عن زوجته فستكون هذه كخاتم في إصبعي»، (أوه، ! عفواً. إنها تعابير مستمدة من وضعي السابق، مهنة العطارة تعاودني من وقت لآخر وهذا ما يشكل عائقاً للطموح إلى النيابة). وأيضاً عندما خدعني البارون بنذالتهالمعهودة عاهدت نفسي أن استولي على امرأته لا على غيرها، لأننا نحن الحمقى لا نمس خليلات بعضنا البعض، لأننا نعتبرهن مقدسات، إنها عدالتنا. وبهذه الطريقة لن يكون ما يقوله، ولا لأحد لقد

طردتني من بيتك كالكلب الأجرب فتفوهت بالكلمات الأولى التي عبرت عن صراحتي لك بحبي: هذا التصرف ضاعف من حبي وعنادي، وأن أردت، أقولها بصراحة: «ستكونين لي».

ـ وكيف؟

ـ لا أدري، لكن هذا سيتم. هل لاحظت يا سيدتي كيف أن عطاراً سابقاً أحمق لا يحوي رأسه سوى فكرة واحدة هو أقوى من مفكر محشوٌ رأسه باحمال الفكر، لقد افتتنت بك، أنك انتقامي! أخاطبك صراحة واطرح بين يديك مشاعري، أني قررت. وأنت ما زلت مصرة على ألاّ تكوني لي وتتحدثين معي ببرودة الثلج، اكاشفك بنياتي. نعم! ستستقرين في ملعبي يوماً ما... أوه ! لو بلغت الخمسين لظللت خليلتي. وهذا ما سيحصل، لأني أتوقع أي شيء من زوجك.

هنا ألقت السيدة هيلو على هذا البورجوازي المتقن الحساب، نظرة ثابتة وجلة جعلته يعتقد أنها أصيبت بمس من الجنون. فقال كاشفاً الحاجة إلى تبرير الخشونة في المقاطع الأخيرة من حديثه:

ـ أنت أردت ذلك، لقد أذللتني باحتقارك لي.

ـ أوه! بنيّتي بنيّتي! صاحت البارونة بصوت من تنازع الحياة.

واستطرد كروفيل:

ـ آه! لقد سدّ عليّ تفكيري! ففي اليوم الذي حُرمتُ

جوزيفا ثارت أعصابي واستشطت غيظاً كنمرة خطفت جراؤها. كنت مثلك أنت الآن ـ ابنتك هي الوسيلة للاستئثار بك. نعم، نعم كنت السبب في منع زواج ابنتك!... ولن تزوجيها دون مساعدتي! فمهما تكن درجة جمال الآنسة أورتنس فلن تستغني عن مهر...

ـ إيه! صحيح! قالت البارونة وهي تمسح دموعها.

ـ حسناً! حاولي أن تطلبي من البارون عشرة آلاف فرنك، تابع كروفيل الذي استقام في مكانه وانتظر مدة كممثل يسجل وقتاً لغاية ما. إذا كان هذا المبلغ في حوزته فسيقدمه إلى التي ستحل محل جوزيفا.

قال هذا وهو يضغط على وسطه، وهل يتوقف عن غيه بعدما سار أشواطاً في مساره؟ أنه يحب النساء أكثر مما يجب (وملكنا يقول: لكل شيء مركز وسطي مضبوط). ثمّ هناك غروره! أنه رجل وسيم! سيصيركم جميعاً على الحصير في سبيل متعته. هوذا أنت أيتها السيدة على شفير دخول المستشفى، ألم تلحظيأنه بعدما قاطعت زيارتكم لم تجددوا فرش الصالون؟ أن كلمة «ضيق» تتقيؤها كل هذه الخرق الممزقة. فمن هو الصهر الذي لن تخيفه مظاهر هذا البؤس وبراهينه كنت أعمل حانوتياً واشتهرت في هذه المهنة. ليس مثل عين بائع باريسي بمقدورها أن تعلم كيف يكشف الثراء الحقيقي والثراء الزائف أنت لا تملكين فلساً. هذا ما يستبان من أيّ شيء، حتى من ثوب،

خادمتك. هل تريدين أن أكشف لك أسراراً رهيبة ما زالت مغلقة عليك؟

ـ كفى! كفى! قالت السيدة هيلو التي طفحت بالبكاء فتبلل منديلها بالدموع.

ـ حسنا! أن صهري يمدّ اباه بالمال، وهذا ما عزمت على الإفصاح عنه، لكني سأسهر على مصالح ابنتي... كوني مطمئنة.

ـ أوه! همي الوحيد أن أزوج ابنتي ثم مرحباً بالموت! قالت المرأة التعيسة التي فقدت عقلها.

ـ حسناً! هاك الوسيلة.

وكانت السيدة هيلو تتطلع إلى كروفيل بامل مما أثر بسرعة في سيمائه وكان مفروضاً بهذه الحركة أن تحنن كروفيل فيتخلى عن مشروعه السخيف.

٥

كيف يمكن تزويج الفتيات الجميلات اللواتي هنّ بلا ثروة

ـ ستكونين جميلة حتى بعد عشر سنين، تابع كروفيل وهو ثابت في مكانه. تساهلي وكوني خيرة معي فتتزوج الآنسة أورتنس. لقد منحني هيلو الحق، كما صارحتك، بأن أساوم دون مراعاة أحد وهو لن يغضب أبداً. فلثلاث سنوات خلت قمت بجردة لأمـوالي فوجدت أني حصّلت ربحاً قدره ثلاثمئة ألف فرنك إضافة إلى ثروتي الثابتة. إني أضع هذا الربح في تصرفك.

ـ اترك المكان يا سيد، اتركه ولا تظهر أبداً أمام بصري. أنا لست مضطرة إلى معرفة سر تصرفك الخسيس إزاء مسألة تفشيل زواج أورتنس... نعم خسيس... تابعت بعدما لاحظت حركةً قام بها كروفيل. فكيف تلقي بمثل هذا الثقل البغيض على قلب فتاةٍ طيبة وجميلة، على مخلوقةٍ بريئة! فلولا هذا السر الذي تكتمه والذي يطعن قلبي لما كنت تحدثت معي أو دخلت بيتي. أن اثنتين وثلاثين سنة قضيتها بالاستقامة والشرف لن تسحق تحت ضربات السيد كروفيل.

ـ عطّار سابق، خلف سيزار بيروتو في «مؤسسة ملكة الورود» شارع سان تونوره، قال كروفيل بسخرية واستهزاء. ملحق سابق بالعمدة،كابتين في الحرس الوطني، فارس في جوقة الشرف. . . تماماً مثل سلفي.

ـ يا سيدي، أن السيد هيلو الذي لم يلتفت لغير زوجته ربما له ان يمل امرأته بعد استقرار دام عشرين سنة. ولكنك تدرك جيداً يا سيد انه أحاط أعماله الخيانية بالسرية والإبهام بحيث أني جهلت أنه خلفك على قلب الآنسة جوزيفا.

ـ أوه! صاح كروفيل، لم تدركي بعد كل خفايا اللعبة. هذه العصفورة تكلفه أكثر من مئتي ألف فرنك منذ سنتين.

ـ آه! لننته من كل هذا يا سيد كروفيل. لن أتخلّ من أجلك عن السعادة التي تشعر بها أم عندما تعانق أولادها دون تأنيب ضمير وعندما ترى أن عائلتها تحترمها وتقدرها وتحبها. إذاك ساعيد إلى الخالق وديعته التي لم تلوثها يد فاسق.

ـ فليكن، قال كروفيل والمرارة الجهنمية تتمدد على وجه الواحد من أولئك المدّعين عندما يتتالى فشلهم في مثل هذه المشاريع. لا، أنت لا تعرفين الشقاء في آخر درجاته، لا تعرفين الخزي. . . العار. . . حاولت أن أنيرك وأنقذك أنت وابنتك! . . . لقد تأثرت بالغ التأثر بدموع امرأة أحبها: أن ذلك لمخيف! كل ما في وسعي أن أعدك به يا عزيزتي أدلين هو إنني لن افعل شيئاً يضر بك أو بزوجك. لكن أطلب منك الاّ ترسلي

في طلبي هذا كل شيء

ـ ما العمل فصاحت السيدة هيلو:

إلى الآن، استطاعت البارونة أن تقاوم ببسالة الارباكات الثلاثة التي جثمت على صدرها بعد هذه الشروحات: لقد عانت من كونها امرأة وأماً وزوجة. وبالقدر الذي كان فيه والد زوجة ابنها يظهر عجرفة وعدوانية كانت تستقوي وتقاوم وتتصدى لوحشية هذا الحانوتي، لكن ما إن راح يتصرف بطيبة، وسط غيظه كعاشق مصدود وحارس وطني مذلول، حتى تراخى توترها، ففركت يديها وغرقت في الدموع، وباتت من الإنهيار الأبله بحيث تركت كروفيل يركع ويقبل يديها.

ـ يا إلهي! ماذا ينتظرني! قالت وهي تمسح دموعها. هل تقدر أم أن تتحمل رؤية ابنتها تذبل وتتلاشى أمامها؟ كيف سيكون مصير مخلوقة بهذا القدر من الجمال؟؟ رأيتها غارقة في الدموع ذات يوم وهي تجوب الحديقة كئيبة دون أن تكتشف سبب كابتها.

ـ إنها في الحادية والعشرين، قال كروفيل ـ

ـ أيجب وضعها في الدير؟ في أزمات كهذه غالباً ما يقف الدين عاجزاً أمام الطبيعة، وأتقى الفتيات تربية يفقدن عقولهن. كفى! انهض أيها السيد! ألم تلحظ أن كلّ شيء قد انتهى الآن بيننا؟ أنك تدخل الرعب في نفسي وأنك قضيت على آخر امل عندي.

ـ وماذا تقولين إذا أحييت فيها الأمل بالحياة؟.

تطلعت السيدة هيلو نحو كروفيل بانفعال شديد مسّ هدوءه لكنه كبت شفقته بسبب ما وجهته إليه عندما قالت «أنك تدخل الرعب في نفسي!»، الفضيلة لا تتجزأ بل تشكل كلاً متكاملاً، اكثر مما يجب. وهي تجهل التلاوين والأمزجة التي بواسطتها يتحايل المرء ويناور في الأوضاع الزائفة.

قال كروفيل:

ـ هذه الأيام لا يمكن أن يتم زواج ابنة فاتنة كالآنسة أورتنس دون مهر. أن ابنتك على قسط من الجمال يخيف الأزواج، إنها بالضبط كحصان أصيل يتطلب عناية وتربية مكلفة لاجتلاب كثير من الطلاب وأي زوج يجرؤ أن يتمشى متأبطاً امرأة كهذه؟ الجميع سيلحقونها ويشتهونها ويتمنون لو كانت زوجتهم ومثل هذا النجاح يقلق الكثيرين ممن لا يريدون ان يكون عندهم عشاق يجب قتلهم ذلك بان الزوج، في النهاية، لا يقتل أكثر من عشيق واحد. لا يمكنك والحالة هذه أن تزوجي ابنتك إلّا عن طريق إحدى هذه الوسائل: بمساعدتي وهذا ما لا ترغبين فيه! أو أن تقعي على عجوز في الستين ثري، دون أولاد ويريد أن ينجب، هذا صعب التحقيق لكن من جدّ وجد، هناك الكثيرون من الذين يرغبون بمثيلات جوزيفا أو جاني كادين فلماذا لا تلاقين واحداً يقدم على مثل هذه الحماقات وبالوجه الشرعي؟... لو لم يكن عندي سلستين وحفيدانا الصغيران

لكنت تزوجت من أورتنس. أما الوسيلة الأخيرة فهي الأقرب منالاً . . .

رفعت السيدة هيلو رأسها والتفتت إلى العطّار السابق وهي مضطربة.

- باريس مدينة يتواعد للقاء فيها كل الشباب النشيطين الذين يفرحون كالنبتات البرية على الأرض الفرنسية. أنها تعج بالمواهب القادرة على فعل أيّ شيء. وبعد فماذا عن هؤلاء الصبية؟ . . . (كان خادمك في زمانه على هذه الحال وعرف منهم الكثير! . . . فماذا يعرف عن تيّه أو أوبينو من عشرين سنة. كان هذان يتعثران في متجر بيروتو لا يحملان أي رأسمال، بل رغبة في جمعه تعادل برأيي أفضل رأسمال!.. فالرساميل قد تتلف وتفنى أمّا الأخلاق فلا تبلى! . . . ماذا كنت أملك! . . . الشجاعة والرغبة في بلوغ هدفي. تيّه يقدر اليوم بأكبر الشخصيات المعروفة وبوبينو العطّار الصغير الأكثر ثراء في شارع لومبارد انتخب نائباً ثم عُينّ وزيراً). وبعد فان أحد هؤلاء المرتزقة قد يكون هو الوحيد في باريس المؤهل للزواج بابنتك الساحرة دون أي فلس لأن جميع هؤلاء يتحلون بالشجاعة. السيد بوبينو اقترن بالآنسة بيروتو دون أن يرجو من ذلك مالاً. ان هؤلاء المجانين! يؤمنون بالحب إيمانهم بحظهم وبمواهبهم! . . . ابحثي عن رجل نشيط يعشق ابنتك فيتزوجها دون أن يلتفت إلى حاضرك، مع ذلك ستعترفين بأنه لا ينقصني

الكرم حتى من أجل الأعداء، ذلك بأن نصيحتي هي في غير صالحي.

ـ آه! يا سيد كروفيل! ليتك تصبح صديقي وتتخلى عن أفكارك السخيفة!...

ـ سخيفة! سيدتي، لا تدمري نفسك على هذا الشكل، اسمعي... أني أحبك وستسعين إليّ! أريد أن أقول يوماً لهيلو: «لقد سلبتني جوزيفا وأنا استأثرت بزوجتك». أنها شريعة السن بالسن القديمة! وسألاحق تنفيذ مشروعي شرط ألاّ أتوقع أن انجح. وهاك السبب!

قال ذلك وهو يركز في مكانه متطلعاً إلى السيدة هيلو.

٦
(الكابتين يخسر المعركة)

وبعد استراحة قصيرة تابع كروفيل:

ـ لن تحظى بعجوز ولا بشاب عاشق، لأنك تحبين ابنتك كثيراً ولن ترمي بها إلى فاجر عجوز. ولا تتحملين أيتها البارونة هيلو، يا أخت القائد الذي كان يأتمر بامرته رماة القنابل القدماء

في الحرس القديم، أن تختاري الرجل النشيط من أي مكان؛ لأنه ربما كان عاملاً بسيطاً كأي ثري مليونير تلتقينه في هذه الأيام بينما كان يعمل مصلّحاً فنياً في مرآب للسيارات قبل عشر سنين، أو مراقب عمّال بسيطاً، أو رئيس عمّال بسيطاً في معمل. وإذ ترين ابنتك مدفوعة بسنها العشرين قد ترتكب ما يلطخ سمعتك، سوف تقولين لنفسك: «من الأفضل لي أن أكون أنا السبب في تلويث سمعتي وإذا رضي السيد كروفيل أن يحتفظ بالسر فإني سأكسب مهر ابنتي البالغ مئتي ألف فرنك مقابل ارتباط لفترة عشر سنين مع بائع القفازات القديمة ـ الأب كروفيل!...» أني أزعجك وما أقوله هو حقاً لا أخلاقي أليس كذلك؟ لكن إذا لو كنت مثلي فريسة الهوى الذي لا يقاوم، لاقنعت نفسك، من أجل الاستسلام لي، بشتى الحجج التي تختلقها النساء العاشقات لتبرير استسلامهن. وها هي مصلحة أورتنس تتكفل بتوفير هذه الحجج لك ولضميرك....

ـ ما زال لأورتنس خال...

ـمن؟ الأب فيشر؟ أنه يتدبر أموره وهذا أيضاً سقط في فخّ البارون الذي جال بمشاطه على معظم خزائن المال التي استطاع أن ينال منها.

ـ الكونت هيلو..

ـ أوه! زوجك استهلك مدّخرات القائد السابق أخيك وجهّز بها بيت المغنية. بعد هذا هل تكونين راضية بمغادرتي لك

دون بصيص امل؟.

ـ وداعاً أيها السيد. من السهل على الرجل أن يشفى من حب امرأة في سني. ثم أن الله يحمي التعساء . . .

نهضت البارونة لتلزم الكابتين بالانصراف وقادته إلى الصالون الكبير.

ـ هل كتب على السيدة هيلو أن تقيم بين هذه البقايا؟ قال ذلك ثم أشار إلى قنديل قديم وثريا مهشمة الطلاء وخيوط سجادة متلفة تضاف إليها رثاثة الثراء التي حوّلت هذا الصالون الكبير الأحمر والذهبي إلى جثة الأعياد الأمبراطورية.

ـ تطلع جيداً يا سيدي، أن بريق الفضيلة يشع كل هذا. لا رغبة عندي في حيازة فرش رائع على حساب هذا الجمال الذي تمحضني إياه والذي يفرض بي أن أقيم منه «شركاء للذئاب» أو «فخّاً ترمى فيه قطع المئة فلس».

عض الكابتين على شفتيه متأسفاً إذ تذكر التعابير التي هجا بها للتو طمع جوزيفا.

ـ ولمن هذا العناد؟

في هذه اللحظة كانت البارونة قد قادت العطار السابق إلى عتبة الباب.

وأضاف ماطا شفتيه مط رجل فاضل ومليونير:

ـ أما فاسق! . . .

وقالت له البارونة:

- إذا كنت انت محقاً يا سيدي فسيكون لعنادي في الفضيلة بعض الفضل. هذا كل شيء وتركت الكابتين بعدما حيته كما يحيون شخصاً مزعجاً يريدون التخلص منه، واستدارت بخفة فلم تره مسمراً في مكانه.

وعادت لتفتح الأبواب التي كانت قد أوصدتها ولم تتمكن من ملاحظة حركة كروفيل المهدّدة التي ودعها بها. كانت تسير بنبل واعتزاز وكأنها شهيدة في الكوليزه. لقد استهلكت قواها فتراخت بكليتها على أريكة في الصالون الصغير كامرأة على وشك أن تصاب بمكروه، جلست مركزة عينيها على الكوخ المتداعي حيث تهزر ابنتها مع ابنة عمها بث.

منذ أيامها الأولى لزواجها حتى هذه اللحظة حافظت البارونة على حبها لزوجها كما هي حال جوزفين في حبها لنابوليون. إنه حب إعجابي، حب أمومي، ، حب مستسلم وحتى لو تجاهلت ما فعله لها كروفيل فانها تعلم علم اليقين ان زوجها يخونها منذ اكثر من عشرين سنة. لكنها اسدلت على عينيها ستاراً من الرصاص وبكت بصمت وبعدها لم تتلق مطلقاً أي كلمة تجرح شعورها. وإذ عادت إلى سلوك الطريق الملائكية اللطيفة، استحقت تقدير زوجها وأحست بجو من العبادة يخيم حولها.

أن العطف الذي تحمله امرأة لزوجها والاحترام الذي تحيط

به يتسرّبان كالعدوى إلى جميع أفراد العائلة. أورتنس ترى في أبيها نموذجاً تاماً في حبه الزوجي، وهيلو الإبن الذي تربى على الأعجاب بالبارون وتقديره، حيث أن كل واحد كان ينظر إليه على أنه أحد العمالقة الذين يصنفون في الصف الثاني بعد نابوليون، كان يعرف أنه مدين بمركزه لاسم والده ومكانته واعتباره. وإلى ذلك، فالانطباعات الطفولية ما زالت تؤثر فيه وهو إلى الآن يخاف أباه؛ وحتى لو ارتاب في أمر الانحرافات التي أوردها كروفيل، فإن احترامه لأبيه سيمنعه من التشكي منها، فضلاً عن أنه سيصفح عنها لأسباب مستمدة من الأسلوب الذي يسلكه الرجال حيال هذا الموضوع.

والآن أصبح من الضروري شرح الأخلاص اللامتناهي الذي تتمتع به هذه المرأة الجميلة والنبيلة وهذه قصة حياتها في كلمات.

٧

ما أجملها حياة لامرأة

في قرية واقعة على أطراف تخوم اللورين، في سفح جبال الفوج، كان يعيش ثلاثة أخوة من عائلة فيشر، ثلاثة فلاحين

بسطاء انخرطوا في جيش الريف أثر استدعائهم بقرار جمهوري.

عام ١٧٩٩ تخلّ الأخ الأوسط أندريه، المترمّل ووالد السيدة هيلو، عن ابنته لتعيش في كنف أخيه الأكبر، بيار فيشر الذي جرح عام ١٧٩٧ وأصبح عاجزاً عن الخدمة، فقام ببعض المشاريع الجزئية في النقل الحربي برعاية المنسّق العام هيلو درفي.

بالصدفة التقى هيلو، الذي جاء إلى ستراسبورغ، عائلة فيشر. وكان يومها والد أدلين وأخوه الاصغر متعهدين العلف في الألزاس.

أدلين، وقد بلغت ست عشرة سنة، تمكن مقارنتها بالسيدة الذائعة الصيت مدام دوباري التي هي من اللورين.

كانت آية في الجمال الصاعق. صنعتها الطبيعة بعناية فائقة وبذلت لها أفضل ما عندها. الفرادة، النبل، الضيافة، الرقة، الأناقة، وجلد خارق الجمال، ولون صقل في ذلك المشغل المجهول حيث يعمل القدر

النساء اللواتي من هذا النوع يتماثلن في ما بينهن. فبيانكا كابلا التي يعتبر رسمها أحد أهم أعمال برونزيو وفينيز لجان كوجان التي يعود أصلها إلى ديان بواتييه الشهيرة، والسنيورا أولمبيا المعروض رسمها في دوريا، وأخيراً وليس آخراً، مدام دوباري، مدام تاليال، الآنسة جورج، السيدة رُيكامييه، كل هؤلاء النساء حافظن على جمالهن برغم السنين وانفعالاتهن الوجدانية ومن حياتهن المليئة بالملذات المتطرفة. وأن لفي القامة

والهيكل، وطبع الجمال تماثلاً غريباً يدفعك إلى الاعتقاد بوجود تيار افروديتي تخرج منه جميع الهـة الجمال، بنات الموجة المالحة نفسها.

كانت أدلين فيشر، أحدى جميلات هذه المجموعة الألهية، تمتلك صفات هؤلاء النساء اللواتي ولدن ملكـات. شعرهاالأشقر الذي نسجته أمنا حواء من خيوط إلهية وقامتها الهيفاء العالية، وعظمة سيمـائها وتـدويرات وجهها المهيبة تستوقف جميعها، الرجال المعجبين كالهواة الشاخصين أمام رفايل، وإذ رآها هيلو المنسق اتخذها كزوجة شرعية وسط دهشة آل فيشر الذين تربوا على قاعدة إبداء الأعجاب لرؤسائهم .

كبيرهم جندي منذ ١٧٩٢، جرح جرحاً خطراً عند الهجوم على خطوط ويسمبورغ، يعبد الأمبراطور نابوليون وكل ما يتصل بالجيش.

أما أندريه وجوهان فيتحدثان باحترام عن المنسق هيلو الذي يعمل بحماية الأمبراطور والذي يقدرانه كثيراً لأنهما مدينان له بمصيرهما، فهو عندما رأى فيهما الفطنة والاستقامة استقدمهما من القوافل العسكرية يوظفهما في إدارة مصلحة الطوارىء. الأخوان فيشر أديا خدمات خلال حملة ١٨٠٤. أما في زمن السلم فقد أوجد لهما مؤونة علف في الألزاس، دون أن يعلم أنه سيكلّف في ما بعد تجهيز حملة ١٨٠٦

هذا الزواج كان بالنسبة إلى هذه القـروية الشـابة كيـوم

الصعود، انتقلت أدلين أثره من وحول الضيعة إلى جنة البلاط الأمبراطورية دون تمهيد.

في هذا الوقت كان هيلو المنسق قد استدعي لدى الأمبراطور بعد أن مُنح لقب البارون والحق في الحرس الأمبراطوري. وكان لهذه الريفية من الشجاعة ما جعلها تتثقف حباً لزوجها التي سحرت به.

وفي المقابل كان المنسق هيلو الرجل نسخة جوابية على أدلين المرأة. ينتسب إلى نخبة الرجال الظرفاء. مثقف، أشقر، العين زرقاء نارية ذات تموجات لا تقاوم، قامة ممشوقة. واستطاع أن يلفت النظر بين وسيمي الأمبراطورية. وأنه رجل غزوات، ومشبع بأفكار حكومة المديرين في ما يتعلق بالنساء، انقطع عن مهنته مدة طويلة بسبب تعلقه الزوجي.

منذ البداية نظرت أدلين إلى البارون وكأنه إله معصوم عن الخطأ. وكانت مدينة له بكل شيء: الثروة، إذ حصلت على أعربة ودارة وكل رفاهية ذلك الزمان والسعادة، إذ كان الجميع يظهرون لها محبتهم علناً. واللقب، إذ حظيت بلقب البارونة. وأخيراً الشهرة، إذ دعيت «مدام هيلو الجميلة». وقد أوتيت شرف رفض مدائح الأمبراطور الذي قدّم لها هدية مجلجلة بالألماس. وكان الأمبراطور يميزها دائماً إذ يسأل من وقت إلى آخر: «أما زالت السيدة هيلو الجميلة عاقلة؟». وكان عارفاً تماماً أنه قادر على الانتقام ممن يفوز حيث فشل هو.

لا حاجة، إذا، بالمرء إلى ذكاء كثير ليفهم مبررات الشغف الذي كان يتميز به حب السيدة هيلو. تتمتع بذوق سليم رفيع ساهم في تمتين ثقافتها. بين الناس، كانت تتكلم قليلاً لا تنمّ على أحد ولا تعمل على أظهار نفسها: بل كانت تفكر في كل شيء وتصغي وتتخذ من النساء الشريفات نموذجاً.

في ١٨١٥ تبع المنسق هيلو أثر أمير ويسمبورغ، أحد أصدقائه المخلصين، وعمل كمنظم للجيش المرتجل الذي بهزيمته انتهت النابوليونية في واترلو.

وفي ١٨١٦ نبذته حكومة فلتر ولم يُعد إلى سلك المعتمدية الا عام ١٨٢٣ لأنهم احتاجوا إليه في حربهم مع إسبانيا.

وفي ١٨٣٠ ظهر من جديد في الإدارة كربع وزير أثر إحداث دوائر جديدة في عهد لوي فيليب، في تقسيمات نابوليون القديمة.

فمنذ وصول الفرع الأوسط إلى العرش حيث كان هيلو مساهماً نشيطاً، بقي مديراً لا يستغنى عنه في وزارة الحربية. بعد ذلك رقّي إلى رتبة ماريشال بحيث أن الملك لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك إلا إذا عينه وزيراً أو والياً على فرنسا.

بين عامي ١٨١٨ ـ ١٨٢٣ لم يشغل البارون أية وظيفة اللهم إلا خدمة النساء بحرارة ونشاط. وترد السيدة هيلو أولى خياناته إلى أواخر عهد الأمبراطورية. وهكذا تكون البارونة قد حكمت بلا شريكة طيلة اثنتي عشرة سنة. وبقيت بعدها تتمتع

بالعطف المتأصل الذي يكنه الأزواج لنسائهم عندما يستسلمن إلى دور الصاحبات اللطيفات الفاضلات. وكانت تعلم أنه لا يمكن أي منافسة أن تصمد أكثر من ساعتين فيوجه كلمة تأنيب، لكنها كانت تغمض عينيها وتصمّ أذنيها قاصدة تجاهل سلوك زوجها خارج البيت.

وانتهت بأن أخذت تداري هكتور مثلما تداري أم ولدها المدلل.

قبل ثلاث سنوات من الحوار الذي فرغنا من سماعه، شاهدت أورتنس في مسرح «المنوعات» والدها بصحبة جاني كادين، فصاحت: «هوذا أبي»!.. وإنك مخدوعة يا ملاكي، أنه في حضرة المارشال». أجابت البارونة التي رأت بأم عينها جاني كادين. إلا أنها، عوض أن ينقبض قلبها لمرأى جمال غريمتها، قالت في سريرتها: «هذا الهكتور السيء يجب أن يكون سعيداً».

كانت تشقى، وتستسلم سراً إلى نوبات عصبية مخيفة، ولكن عندما تشاهد هكتور تتذكّر دائماً سني السعادة الأثنتي عشرة وتفقد القدرة على تمتمة أية شكوى.

كانت تتمنى من كل قلبها أن تكون مؤتمنة على أسراره، لكنها لم تجرؤ قط على أن تقدم له انطباعاً بمعرفتها طيشه، وذلك احتراماً له. هذه المبالغات في اللطافة لا تكمن إلا عند هؤلاء الفتيات الجميلات اللواتي يعرفن كيف يتلقين الضربات دون أن يعدْنها الآن في عروقهنّ بقية من دم الشهداء الأول. أما الفتيات

بنات العائلات الكبيرة الأسم، فإنهن يتساوين مع أزواجهن فيعذبنهم ويسجّلن، كما تسجل النقاط في علبة البليار، تساهلهن بكلمات لاذعة وبروحية ثأرٍ شيطانية ثم يؤمنّ تفوّقا عليهم أو حقاً في مجابهتهم.

٨

أورتنس

كان للبارونة معجب شغوف في شخص سلفها الجنرال هيلو، قائد الرماة المشاة في الحرس الوطني والذي استحق رتبة ماريشال في أيامه الأخيرة.

وبعدما قاد، ما بين ١٨٣٠ ـ ١٨٣٤، قسمًا من الجيش في المقاطعات البريتانية، مسرح مآثره في عامي ١٧٩٩ ـ ١٨٠٠ ـ جاء ليستقر في باريس بالقرب من أخيه الذي يكنُّ له عطفاً أبوياً.

كان هذا العسكري العجوز يحسّ بالدفء بالقرب من زوجة أخيه. وكان يعتبرها أرفع النبيلات وأطهر مخلوقات جنسها. لم ايرغب بالزواج لأنه لم يجد أدلين ثانية. بحث عنها دون جدوى في

عشرين بلدة وعشرين ريفاً. أما أدلين من جهتها، وحتى لا تتهاوى وتسقط في نفس هذا الجمهوريّ العجوز المخلص الذي قال عنه نابليون: «أن هيلو الشجاع هو أعند وأصلب الجمهوريين لكنه لن يخونني أبداً»، فإنها كانت مستعدة لمكابدة ما هو أقسى مما تكابد. وكانت أدلين تبدي إعجاباً فائقاً بهذا العجوز الذي بلغ الاثنتين والسبعين وهزم في ثلاثين معركة وجرح سبعاً وعشرين مرة في واترلو. وكان بالإضافة إلى عاهاته العديدة لا يسمع إلا باستعمال البوق.

وطالما كان البارون هيلو أفري شاباً وسيماً لم يكن لمحظيّاته تأثير على ثروته. ولكن بعد الخمسين غدا الأمر صعباً مع الحسناوات. ففي هذه السن يتحول الحب عند العجائز إلى رذيلة، وتختلط به أعمال غرور خرقاء. وهكذا لاحظت أدلين أن زوجها أصبح شديد الحرص على أناقته، وراح يصبغ شعره وسالفيه ويشد خصره وصدره بالأحزمة والرباطات. كان يريد البقاء جميلاً مهما كلف الأمر.

هذا التعبد للذات ـ وهو عيب كان، بالأمس، يستهزىء به وصل به إلى حد التفاصيل الدقيقة. واكتشفت أدلين أن المال الذي يصب في جيوب العشيقات إنما ينبع من عندها. وخلال ثماني سنوات تبدّدت ثروة ضخمة بكاملها مما أكره البارون، إثر زواج الإبن هيلو، على الاعتراف لزوجته أن رواتبه تشكّل منذ سنتين كل الثروة المتبقيّة.

ـ أين سيقودنا هذا التصرف؟ أجابت أدلين.

ـ اطمئني، أجاب مستشار الدولة، سأوفّر لك مكافآت رتبتي وأتدبر أمر زواج أورتنس وأمر مستقبلها عن طريق القيام بأعمال تدعمنا في حياتنا. أن إيمان هذه المرأة بقوة زوجها ومقدرته العالية ومؤهلاته وشخصيته هدّأ من اضطرابها العابر.

هكذا نستطيع الآن أن نفهم بوضوح طبيعة مشاعر البارونة ودموعها بعد ذهاب كروفيل.

منذ سنتين والمسكينة تعرف أنها في قعر الهاوية، ولكنها كانت تظن نفسها وحيدة فيه. كانت تجهل كيف تم زواج ابنها، وتجهل علاقة هكتور بجوزيفا الطامعة، وتأمل ألّا يكشف أحد مأساتها. وإذا كان كروفيل يتكلم بهذه الخفة عن تبذير البارون، فمن المحتمل أن يفقد هكتور اعتباره. استشفت البارونة من أحاديث العطار السابق أن في الأفق تـواطوءاً مخزياً تمّ على أساسه زواج ابنها الشاب. وفتاتان تائهتان كانتا كاهنتي هذا العرس، في أحد احتفالات الفسق، وسط تهتك عجوزين سكيرين!

ـ هكذا ينسى اورتنس! قالت البارونة، مع أنـه يراها كل يوم، هل يبحث لها عن زوج عند خسيساته؟.

كانت الأم التي هي أقوى من المرأة تحدث نفسها في هذه اللحظة، وإذ رأت أورتنس ضاحكة مع ابنة عمها بِث ضحكة صبية لا مبالية علمت أن هذه الضحكـات الحادة والعصبيـة ليست إلا أمارات رعب تعادل في رعبها أحلامها الدامعة عندما

كانت تتمشى وحدها في الحديقة.

تشبه أورتنس والدتها، لكن شعرها مذهب، ومتموج في طبيعته، وكثيف حتى الدهشة، مع لمعة عاجية.

يرى الرائي إليها، أنها ثمرة زواج شريف وحب نبيل أشد النبالة وطاهر أشد الطهارة. أنها حركة منفعلة على صفحة الوجه، أنها فرح في التقاسيم ومرح في الشباب، أنها طراوة في الحياة وغنى في الصحة، هذه جميعها ترتج خارجاً عنها محدثة شعاعات كهربائية. أورتنس هذه تدير الرؤوس. عندما تحدّق، بعينيها الزرقاوين ازرقاق البحر، السابحتين في سائل يعبئهما بالطهارة والبراءة، إلى أحد المارة، ترتعد فرائصه دون وعي منه. مع ذلك فلا ترى كلفاً يمسّ لونها ولو كان للكلف شرف منح الشقراوات بياضهن العاجيّ. ممتلئة الجسم دون أن تكون بدينة. قامة هيفاء، نبلها يناهز ما عليه أمها، تستحق لقب ألهة، غالى الأدباء في وصفها. فكل من شاهد أورتنس في الشارع لم يتمكن من حبس دهشته فيصرخ:

[- يا إلهي! الفتاة الساحرة!.

وبراءتها جعلتها تستفسر من أمها وهي تطأ عتبة البيت:

- ما بهم هؤلاء يا أمي يصرخون جميعاً، : الفتاة الساحرة! عندما تكونين في صحبتي ألا تظهرين أنك تفوقينني جمالاً؟.

- كان الرجال لا يزالون يفضلون البارونة، وهي في سنها

السابعة والأربعين، على ابنتها وذلك على الأقل لدى .هواة ما بعد المغيب لأنها لم تفقد شيئاً من محاسنها. وهي ظاهرة نادرة، في باريس خصوصاً، حيث أثارت «نينون» في الماضي فضيحة وبدت أنها تسلب البشعات حصتهن من الجمال.

ومن تفكيرها في ابنتها عادت البارونة إلى التفكير في الأب، فرأته متساقطاً، يوماً بعد يوم، حتى أسفل الدرك الاجتماعي، وربما طرد ذات يوم من الوزارة. ومجرّد التفكير في سقوط معبودها، مصحوباً برؤيتها المشوشة عن المآسي التي تنبأ بها كروفيل، كان من الايلام بحيث أفقد المسكينة وعيها.

٩

طبع فتاة عانس

كانت النسيبة بِث، التي تتحدث معها أورتنس، تنظر بين الوقت والآخر لتعرف متى يمكنها الرجوع إلى الصالون. لكن ابنة عمها كانت تزعجها بالأسئلة إلى حد أنها لم تلحظ شيئاً عندما فتحت البارونة الباب.

كانت ليزبت فيشر، الأصغر بخمس سنوات من مدام

هيلو، بعيدة من أن تكون جميلة مثل ابنة عمها. لذلك أصيبت بغيرة شديدة من أدلين. وكانت الغيرة هي أساس هذه الشخصية الملأى بالغرابات. قروية من «الفوج» في كل ما تحتمل هذه الكلمة من معنى، هزيلة، سمراء، شعرها أسود لماع، حاجباها كثيفان متصلان، ذراعاها طويلتان قويتان، رجلاها سميكتان، بعض التواليل يتوزع في وجهها الطويل الشبيه بوجه القرود، إنها لصورة مقتضبة لهذه العذراء.

كانت العائلة التي تعيش حياة مشتركة قد ضحت بالفتاة التافهة في سبيل الفتاة الجميلة وبالثمرة الفجة في سبيل الزهرة الفوّاحة. تشتغل ليزبت في الأرض بينما ابنة عمها تتغنج وتتدلل، وقد حصل ذات يوم أن وجدت أدلين وحدها فأقدمت تريد أن تنزع أنفها اليوناني الشكل الذي تتمنى أي امرأة أن تحوز مثله. ورغم أنها عوقبت على هذا التصرف الشنيع فقد ظلت تمزق فساتين المحظية وتتلف ياقاتها.

أثر زواج أدلين، خضعت ليزبت للأمر الواقع كما خضع أخوة نابوليرن وأخواته أمام بريق العرش وقدرة القائد الفائقة. لكن أدلين الطيبة واللطيفة تذكّرت ليزبت في باريس فاستدعتها عام ١٨٠٩، بهدف تزويجها وانتزاعها من بؤسها.

وأمام عقبات تزويج هذه الفتاة، ذات العينين السوداوين والحاجبين الفحميين، بالسرعة التي كانت تتوخاها أدلين، أقدم البارون على إعادة النظر في أحوالها وخاصة الذاتية منها نظراً لأنها لا تعرف القراءة ولا الكتابة. وسلّم مهمة تعليمها إلى المطرزين

في البلاط الأمبراطوري الأخوة بون الشهيرين.

النسيبة، التي لُقبت ببتّ اختصاراً لأسمها ترقت إلى عاملة في تطريز أسلاك المعادن الذهبية والفضية. ولأنها نشيطة كالجبليين كان لها من الشجاعة ما أهّلها لتعلّم القراءة والكتابة والحساب بفضل تشجيع البارون الذي أفهمها ضرورة اكتساب المعلومات الكافية لتأسيس مشغل للتطريز. صمّمت على جمع ثروة فتبدلت كلياً خلال سنتين. وعند حلول العام ١٨١١ كانت القرويّة قد تميّزت بلطافتها ومهارتها وذكائها مما قدمها على بنات جنسها في هذه المجالات.

إن مطرزات الذهب والفضة تشمل النسيج المقصّب على كتف العسكريين وعلاقات سيوفهم وزخارف بزّاتهم، وكل هذه المجموعة الضخمة من الأشياء اللامعة التي تتلألأ على الثياب الفخمة للجيش الفرنسي كما على الثياب المدنية.

والأمبراطور - وهو من هواة التأنق - طلب توشية كل ما يُخاط لخدمه وحاشيته، بالذهب والفضة وكانت امبراطوريته تشمل حينذاك مئة وثلاثين مقاطعة. هذه المهمات التي أوكلت إلى الخياطين، أصحاب الثراء، أو المليئين منهم أو إلى أصحاب المراتب العالية، كانت تؤمن ثروة مؤكدة لهؤلاء.

وفي الوقت الذي أوشكت بتّ، العاملة الماهرة في محلات بون حيث كانت تدير الشغل، على إنشاء مؤسسة خاصة،

انفجر الوضع في الأمبراطورية وتهددّت بالإنهيار. وغصن الزيتون، غصن السلام الذي رفعه آل بوربون، أرعب ليزبت فتخوفت من تدهور وضع هذه التجارة التي سينحصر مدى نشاطها في ست وثمانين مقاطعة بدلاً من مئة وثلاثين، ناهيك بالخفض الهائل في عدد أفراد الجيش.

ومع استمرار قلقها الناتج عن مختلف ظروف الصناعة رفضت ليزبت عروض البارون الذي ارتاب في سلامة عقلها فاعتقد أنها أصيبت بمس من الجنون. وقد بررت ظنه هذا عندما تخاصمت مع السيد ريفا مالك محلات بون حيث كان يسعى البارون لاشراكها فيها ففضلت ان تبقى عاملة بسيطة. وهكذا عادت عائلة فيشر إلى وضعها البائس الذي كان قد انتشلها منه البارون هيلو.

بعدما أصابت كارثة فونتينبلو الأخوة فيشر الثلاثة انخرط هؤلاء مكرهين في الفرق غير النظامية عام ١٨١٥ حيث قتل الأخ الأكبر والد ليزبت. أما والد أدلين فقد حكم عليه أحد المجالس الحربية بالموت ففر إلى ألمانيا ومات في تريف عام ١٨٢٠، بينما قصد جوهان، الأخ الأوسط، باريس ملتمساً عون ملكة العائلة التي يقال أنها تأكل في صحون من الذهب أو الفضة ولا تظهر أبداً في أماكن عامة دون أن تزيّن رأسها وعنقها بحبات من الماس كبيرة كاللوز يتعاظم قدرها لأنها هدية من الأمبراطور. وكان جوهان فيشر الذي بلغ الثالثة والأربعين قد

تسلم مبلغاً قدره عشرة آلاف فرنك ليشرع في جمع العلف في فرساي، وكان هيلو قد حصل على تنفيذ هذا المشروع من وزارة الحربية بطريقة سرية بواسطة أحد أصدقاء القائد القديم المعتمد في الجيش، الذي احتفظ به في هذه الوزارة.

هـذه المصائب التي حلت بـالعائلة، بـالإضافـة إلى نكبة البارون هيلو وإيمان بت بضآلة قدرها في هذا الخضم الواسع من الرجال والمصالح والأعمـال المنتشرة في بـاريس المجنونـة، قد جثمت على قلب بِتْ وسحقته. بعدها فقدت هذه الفتاة قدرتها على المنافسة وعدلت عن مقارنة نفسها بنسيبتها بعدما عـانت مختلف عقد التفوق؛ غير أن الرغبة في ذلك ظلّت مدفونة في أعماق نفسها كجرثومة الطاعون التي تفقس وتتفشى في المدينة إذا ما فُك طرد الصوف المشؤوم حيث تكون مسجونة.

من وقت إلى آخر كانت تحدّث نفسها قائلة: «نحن، أدلين وأنا، من أصل واحد، والدانا أخوان، هي تسكن في فندق وأنا أعيش في سقيفة». بيد أنها، في كل سنة، ولمناسبة عيد مولدها وعيد رأس السنة، كانت البارونة تغدق الهدايا عـلى ليزبت، والبارون من جهته يعاملها معـاملة حسنة ويؤمن لهـا حطب الشتاء. دعاها القائد العجوز هيلو يوماً إلى العشاء بينما حصتها على العشاء محفوظة عند ابنة عمها وكانوا يسخرون منها أحياناً إلا أنهم لم يكونوا يخجلون بها. وأخيراً تأمن لهـا استقلال ذاتي في باريس حيث كانت تعيش على هواها.

كانت ترتعد من أي شكل من أشكال العبودية. لقد عرضت عليها ابنة عمها أن تسكن عندها... فليزبت كانت تمسك جيداً بزمام الخدمة المنزلية. في مرات عديدة، توصل البارون إلى حلحلة مسألة تزويجها حيث كانت معجبة بذلك في أول الأمر لكن سرعان ما رفضت إذ كانت تتقزز لدى سماعها بعض المآخذ: كالنقص في الثقافة وجهلها لأمور كثيرة وعدم امتلاكها الثروة. بعد الفراغ من ذلك حدّثتها البارونة في أمر العيش مع عمها حتى تتدبّر البيت كبديلة لخادمته التي تتقاضى أجراً عالياً، فأجابتها بأن هذه الطريقة ستبعد عنها الزواج أكثر من أي طريقة أخرى.

كانت أفكار النسيبة بِتْ تصطبغ بفرادة خاصة نلحظها لدى الذين لازموا الطبيعة وأصابوا تطوّراً متأخّراً، أو لدى البرّيين الذين يفكرون أكثر بكثير مما يتكلمون. اكتسب ذكاؤها الفردي، عن طريق تبادل الأحاديث في المشغل مع العمال والعاملات، جرعة من تعابير الباريسيين اللاذعة.

هذه الفتاة التي تشبه في طباعها الكورسيكيين شبهاً غريباً رغبت في حماية رجل ضعيف، ولكن من فرط عيشها في العاصمة غيرتها هذه سطحياً. وراح الصقل الباريسي يترك صدأه على نفسها القوية.. ولو وجدت في أي وضع آخر لكانت بدت مرهوبة الجانب، بفضل إحساسها المرتجف العميق مثل جميع المنذورين للعزوبية الحقيقية. وكان من الممكن،

لو كانت شريرة، أن تزرع الخلاف في أشد العائلات تماسكاً. في أوائل حياتها وعندما كانت تتدغدغ ببعض الآمال التي لم تفاتح بها أحداً، راحت ترتدي المشدات وتلتزم بالموضة مما جعلها تشعر ولو لحظة بالجمال حيث رآها البارون أنها قابلة للزواج. كانت ليزبت تمثل السمراء اللاذعة في الرواية الفرنسية القديمة. فنظرها الثاقب ولونها الزيتي وقامتها الهيفاء تقدر أن تحرّك ضابطاً متقاعداً... غير أنها اكتفت، على حدّ تعبيرها وهي تضحك باعجابها بنفسها.

وانتهت بأن استمرأت حياتها بعدما أزاحت متاعبها المادية، لأنها كانت تتعشى يومياً في المدينة، بعد نهار عمل يبدأ عند شروق الشمس. لم يكن يشغلها سوى تدبير أمر ايجارها وترويقتها، وما زاد على ذلك فإنها تحصل على لباسها وعلى كثير من المؤن الضرورية كالسكر والبن والخمر وغيرها.

عام ١٨٣٧، وبعد سبع وعشرين سنة من الحياة التي ضمّن نصفها كلٌّ من عائلة هيلو وعمها فيشر، لم تسلك بت المنقادة نهجاً واضحاً؛ فأبت أن تشارك في مآدب الغداء الكبيرة، مفضلة المودة والألفة اللتين تسمحان لها بتكوين مقام مستقل، وبتجنب عذابات جرح الشعور. وفي أي مكان، سواء عند الجنرال هيلو، أوعند كروفيل أوعند المحامي هيلو أوعند ريفا خلف آل بون، الذي تصالح معها فاحتفى بعيدها، أوعند البارونة، كانت بِتْ تبدو كأنها واحدة من أهل البيت.

وأينما حلّت، كانت تعرف كيف تتملّق الخدم فتدفع لهم من وقت إلى آخر بعض البخشيش بعد أن تتجادل معهم لبعض الوقت قبل أن تغادرهم إلى الصالون. هذه الألفة التي وضعت نفسها فيها بين الناس استمالت بها عطفهم، الضروري للطفيليين.

وكان الجميع يقولون:

ـ أنها فتاة شجاعة وطيبة!

أن لطافتها ـ وهي بلا حدود عندما لا تفرض عليها فرضاً بالإضافة إلى سذاجتها المصطنعة كانتا ضرورة لهذا الوضع الذي تعيش فيه.

وأخيراً توصلت إلى فهم الحياة إذ رأت نفسها أنها غير مسؤولة وأن الناس هم الذين يدبرون أمورها، وإذ كانت ترغب في خلق جوّ من الفرح لجميع الناس، كانت تمازح الشباب الذين تعاطفت معهم، وتكشف رغائبهم وتتبناها وتتولىّ التشفع لهم، وتبدو لهم كأمينة أسرار وفيّة لأنه لم يكن لها الحق في زجرهم. ونظراً لرصانتها المطلقة استحقت ثقة الكهول بها، خاصة وهي تتمتع، مثل نينون، بصفات الرجولة.

الأسرار تتجه عادة نحو ما هو سافل أكثر مما هو قيّم، ففي المسائل السريّة. نلجأ إلى مرؤوسينا أكثر مما نلجأ إلى رؤسائنا حيث يصبح المرؤوسون شركاء في أفكارنا التي نحتفظ بها. وكان

المرء يحسب هذه الفتاة الطيبة من التبعية بحيث أنه حكم عليها بالصمت المطلق. وقد لُقّبت ابنة العم، بكرسي الاعتراف، لكل العائلة.

كانت البارونة وحدها تحذر ابنة عمها التي نالت منها قسطاً من المعاملة السيئة في طفولتها لأنها بِث كانت أشرس منها برغم صغر سنها. لذلك لم تتخذها سميرة. فضلاً عن ان البارونة ما كانت لتسلم أسرار مشاكلها البيتية إلا إلى الله.

وقد يكون من الضروري أن نلاحظ أن مسكن البارونة احتفظ برونقة في عيني النسيبة بث التي لم تصعق كما صعق العطار من الضيق البادي على الارائك البالية. والأغطية المسودّة والحرير المفجّج. أن ما نحسه في أثاث المنزل الذي نعيش فيه لا يختلف عما نحسّه في ذواتنا.

فلو تفحصنا أنفسنا باستمرار، كما يفعل البارون، لترسخ في ذهننا أننا في تغير بسيط دائم. عندها يتصور الآخرون، ونحن في شبابنا، أن شعرنا يميل إلى لون فراء حيوان الشنشيلّا وأن تجاعيد تعلو جبهتنا، وإننا ابتلعنا عدداً من القرع الضخم. هذا المسكن الذي يبدو مشعّاً في نظر بِث، بنيران الأنتصارات الأمبراطورية، كان يتألق باستمرار.

مع الزمن اكتسبت بِث عادات العانس، وهي عادات مستهجنة. فمثلاً كانت تفضل أن تتماشى الموضة مع عاداتها على أن تخضع هي لنواميس الموضة. فإذا أعطتها البارونة قبعة

جديدة وجميلة أو فستاناً مفصلاً على ما هو عليه الذوق العصري، تتدخّل بِتْ للحال فتتناول أي قطعة وتعمل بها مقصّها لتغيّرها على مزاجها فتفسدها لتضع منها طقمًا مستمداً من النماذج الأمبراطورية أو من نماذج ثيابها القديمة في اللورين. فالقبعة الثمينة تتحوّل إلى خرقة والفستان إلى ثوب رث.

كانت بِتْ عنيدة كالبغلة الحرون؛ تريد أن ترضي نفسها معتقدة أنها بذلك تكون ساحرة، غير أن هذا كان يظهرها سخيفة مضحكة، مما حدا بكثيرين أن يتجنبوا دعوتها إلى منازلهم في الحفلات الساهرة.

هذه الروحية النزوية والمستقلة ، هذا التمرد البري ، كانت شغل البارون الشاغل ، فقد تمكن على فترات من استدراج اربعة طلاب زواج (موظف في ادارته ونقيب في الجيش ومدير التموين الغذائي وكابتين متقاعد) رفضتهم جميعهم كما رفضت مطرزاً اصبح بعد ذلك من الأغنياء . بسبب هذه التصرفات استحقت لقب « العنزة » الذي كان البارون قد خلعه عليها وهو يبتسم هازئاً . غير أن هذا اللقب لم يكن ينطبق الا على الغرابات السطحية أو على تلك المتغيرات التي نعرضها على بعضنا البعض في سلوكنا الأجتماعي . هذه الفتاة اذا ما روقبت جيداً ، تبدو كأنها لا تريد أن تظهر الا الوجه الشرس للقروية . وقد واظبت على أن تبقى الولد الذي صمم على جدع أنف ابنة عمته والتي قد تقدم في حالات من انعدام التوازن على قتلها بسبب نوبة هستيرية منبعثة من غيرة متأصلة في صدرها . لم

تتوصل بت الى أخضاع طبعها السريع الحركة ، الذي به ينتقل مواطنو الريف والبريون من الشعور الى العمل ، الا بالمعرفة وقوانين المجتمع .

في هذا يكمن الفرق كل الفرق فيميز الانسان الطبيعي من الانسان المتحضر . فالبري المتوحش لا يتمتع الا بالأحاسيس بينما المتحضر يتزود بالأحاسيس والأفكار .

عقل المتوحشين يتلقى ـ اذا جاز التعبير ـ الانطباعات ، أنه ينتمي بكليته الى الاحساس الذي ينتابه بينما تهبط الافكار عند المتحضر الى القلب فتؤثر فيه وتشحنه بآلاف الرغائب وبأعداد من الأحاسيس . هذا هو سبب التفوق العابر ، عند الولد ، على أهله والذي ينقطع مع تلبية رغبته بينما يستمر هذا السبب عند الانسان جار الطبيعة .

النسيبة بثْ ، تلك المتوحشة من سكان اللورين ، كانت تنتسب الى هذه المجموعة من الطباع المشتركة بين الناس ، والتي في امكانها أن تفسر سلوك البشر خلال الثورات . فلو لم تتصد بِثْ منذ بدء التحولات في حياتها لذوق العصر وعاداته ولو تزينت كما الباريسيات بما يطابق الدرجة لكان حضورها مهيباً ومشوقاً ، لكنها حافظت على صلابة قرارها ولم تتزحزح . لا وجود للنساء في باريس أن لم تكن انيقات . وهكذا ، فأن شعرها الأسود وعينيها الجميلتين القاسيتين ، وصلابة خطوط وجهها وجفاف لون بشرتها ، أسبغت عليها منظراً مستهجناً حتى أنها أحياناً كانت

تبدو كقردة في ثياب امرأة يسوقها صغار « السافوا » في نزهة .

كانت بِتْ معروفة جداً لدى العائلات التي تربطها بروابط القربى مع العائلة حيث تعيش ، لكنها قصرت نشاطها الأجتماعي ضمن هذا الأطار واعتزلت . تصرفاتها هذه لم يستغربها أحد فكانت تتبدد خارجاً في خضم الصخب الباريسي في الشارع حيث لا يلتفت الشباب الا الى الجميلات .

١٠

عاشق بِتْ

في هذه الأثناء كانت أورتنس تقهقه نتيجة النصر الـذي حققته ضد عناد ابنة العم بت: فقد فاجأتها تدلي باعتراف طلبته منها قبل ثلاث سنوات. مهما تكن العانس كتومة، فـإن ثمة شعوراً سيظل يجعلها تقطع الصيام عن الكلام، وهو الغرورا

فمنذ ثلاث سنوات وأورتنس الشديدة الفضول في بعض المواضيع، تزعج ابنة عمتها بأسئلة مفعمة ببراءة خالصة: أنها تريد أن تعرف لماذا بِتْ لم تتزوج.

كانت أورتنس على علم بقصة طلاّبها الخمسة المرفوضين،

وكانت تظن أن لبت قصة حب دفينة.

وكانت تقول: «نحن الفتيات» عندما تتحدث عنها وعن ابنة عمها. ابنة العم بت أجابت، في أوقات عديدة، بلهجة مازحة: «من قال لك إنني دون عاشق؟» هذا العاشق أكان حقيقياً أم وهمياً أصبح موضوع مداعبات ساخرة ولطيفة.

أخيراً وبعد سنتين من هذه الحرب الصغيرة، وفي آخر مرة قدمت فيها ابنة العم بتّ، بادرتها أورتنس بالقول:

ـ ماذا عن أحوال عاشقك؟

ـ بالطبع جيّدة، أجابت بِتْ، لكن هذا الشاب الطيب يشقى قليلاً. فسألتها البارونة ضاحكة:

ـ آه! أنه رقيق أليس كذلك؟.

ـ أظن ذلك، أنه أشقر... فبنت فاحمة مثلي لا يمكنها أن تعشق إلا أشقر

قالت أورتنس: بلون القمر.

ـ لكن ما به؟ وماذا يعمل؟ هل هو أمير؟.

ـ أنه أمير الآلة كما أنا أميرة المِكب. أن فتاة مسكينة مثلي أيكون في وسعها أن تحب من يملك بيشاً وسندات على الدولة، أو دوقاً أو والياً أو اي أمير ساحر من أخبار الجنّ؟

صاحت أورتنس وهي تبتسم:

ـ أوه! أرغب في رؤ يته. هه

ـ تريدين أن تريه لتتبيني كيف علق هذا الذي أحب عنزة عجوزاً؟

وعلقت أورتنس وهي تنظر إلى أمها:

ـ لا بد أن يكون موظفاً قديماً مسخاً بلحية تيس ماعز؟.

ـ حسناً، أن هذا ما يخدعك يا آنستي.

وسألتها أورتنس بلهجة تحد:

ـ لـك إذاً عاشق؟

فأجابتها بِتْ بلهجة لاذعة؟:

ـ ذلك صحيح قدر ما أنت الآن دون عاشق!

ـ حسناً! إذا كان لك عاشق يا بِتْ، فلماذا لا تتزوجينه؟ قالت البارونة وهي تشير بحركة إلى ابنتها. أنه مدار تساؤ ل من ثلاث سنوات، وصار عندك متسع من الوقت لدراسته، وإذا ظلّ مخلصـاً لك طوال الوقت الماضي فلا يجوز أن تمددي وضعاً يضنيه ويتعبه أنها مسألة ضمير. وإذا كان فتياً آن له أن ـ يمسك بعصاً الشيخوخة.

حـدقت ابنة العم وبت ملياً في البارونة وإذ لاحظتها في ضحك أجابتها:

ـ أن نتزوج يعني تزويج الجوع والعطش. هو عامل وأنا

عاملة، فإذا انجبنا أطفالاً سيكونون بالطبع عمالاً... لا، لا، ستتحابّ بالروح... هذا اخف كلفة!

ـ لماذا تخفينه؟ سألت أورتنس.

ـ أنه في ملابس خفيفة، قالت العانس ضاحكة.

ـ اتحبينه؟ سألت البارونة.

ـ آه! أظن ذلك! أحبه لذاته، أنه ملاك. إني أحمله في قلبي منذ أربع سنوات.

ـ إذا كنت تحبينه لذاته، قالت البارونة بجديّة، وإذا كان موجوداً حقيقة فلا شك أنك مجرمة في حقه، أنت لا تقدرين معنى الحب.

ـ أننا ندرك هذه الحالة فـوررؤ يتنا النور!... قالت بِت

ـ لا! هناك نساء يعشقن لكنهنّ أنانيات مثلك!...

أخفضت ابنة العم رأسها وكان لا بدّ أن يرتجف من يقع نظرها عليه لكنها كانت تتطلع في مكبها.

ـ عندما تعرّفيننا بعاشقك المزعوم سيكون في إمكان هكتور أن يعينه ويحلّه في وضع يسهّل له جمع الثروة.

ـ هذا لا يمكن أن يحصل، قالت ابنة العم بِت

لماذا؟ه

ـ أنه مثل أن تقولي: بولوني، لاجيء .

ـ فصاحت أورتنس:

ـ متآمر!.. يا لحظك! هل حدثت معه مغامرات؟.

ـ لكنه ناضل من أجل بولونيا. كان استاذاً في معهد للرياضة حيث بدأ طلابه بالثورة، ولما كان الدوق الكبير كونستنتان قد عينه هناك فلم يعد له ما يرجوه من أمنيات.

ـ أستاذ ماذا؟

ـ استاذ الفنون الجميلة!...

ـ وهل وصل إلى باريس بعد الهزيمة؟

ـ عام ١٨٣٣ قطع ألمانيا مشياً على قدميه.

ـ كم هو مسكين هذا الشاب! وكم عمره؟..

ـ كان له على الأكثر أربع وعشرون سنة عند نشوب الثورة المسلحة والآن لا يزيد عن التاسعة والعشرين.

قالت البارونة:

ـ يصغرك بخمس عشرة سنة.

ـ ممّ يعتاش؟

ـ من مواهبه.

ـ آه! هل يعطي دروساً خصوصية؟..

ـ لا، قالت ابنة العم بِتّ، بل يتلقّى دروساً قاسية! .

ـ واسمه الأول، هل هو جميل؟.

ـ ونسيسلاس!

ـ أي خيال لهن هؤلاء العوانس! صاحت البارونة. أن الطريقة التي تتحدثين بها تجعلينا نصدّق يا ليزبت.

ـ ألا ترين معي يا أمي أن هذا البولوني قد خلق للجلد وبثّ هذه تذكره بحلاوة وطنه.

هذه الفكرة أثارت ضحك النساء الثلاث وراحت اروتنس تنشد: « ونسيسلاس ! يا معبود نفسي ! » بديلاً عن نشيد آخر، أو، ماتيلد . . .

بعد ذلك خيّمت هدنة لبعض الوقت . . .

ـ هؤلاء الفتيات يعتقدن انهن وحدهن المحبوبات، قالت بتّ وهي تنظر الى اورتنس التي عادت فجلست بالقرب منها.

وقالت اورتنس إذ رأت نفسها وحيدة مع ابنة عمها:

ـ بيني لي ان ونسيسلاس هذا ليس قصة (conte « كونت » في الفرنسية) فأهبك مقابل ذلك شال الكشمير الأصفر.

ـ لكنه كونت ! (لقب).

ـ كل البولونيين يحملون لقب كونت !

ـ لكنه ليس بولونياً. إنه من لي . . . فا . . . ليت . . . .

ـ ليتوانيا ؟

ـ لا . . .

ـ ليفوني ؟ . . . .

ـ هذا بالضبط !

ـ وما اسمه الكامل ؟

ـ تمهلي، أريد ان اطمئن إلى انك تحفظين سراً.

ـ أوه، يا ابنة العم، سأكون خرساء . . .

ـ كالسمكة ؟
ـ كالسمكة ! . . .
ـ بحياتك الأبدية ؟ . . .
ـ بحياتي الأبدية !
ـ لا ، بسعادتك على هذه الأرض ؟
ـ نعم .
ـ حسناً ، إنه يدعى ونسيسلاس ستينبوك !
ـ احد جنرالات شارل الثاني عشر كان يحمل الاسم نفسه.
ـ هذا جده عم أبيه ! لقد استقر أبوه في ليفوني بعد وفاة ملك أسوج لكنه خسر ثروته أثر معركة ١٨١٢ ومات تاركاً الولد المسكين ، عن عمر لا يناهز الثمانية ، دون موارد . غير ان الدوق الكبير كونستنتان ، وضعه في حمايته لأنه يحمل اسم ستينبوك ، ثم ادخله المدرسة . . .
أجابت اورتنس :
ـ قدّمي لي البيّنة على وجوده وستنالين شالي الأصفر ، ! آه ! هذا اللون خلُق خصيصاً كمسحوق لابراز جمال السمراوات .
ـ هل تحفظين سري ؟
ـ سأبوح لك بأسراري .
ـ حسناً ، سأصطحب البينة عندما اعود في المرة المقبلة .
ـ قالت اورتنس : البينة في محبوبك .

١١

بين عانس وصبية

ظلت ابنة العم بت ، فريسة اعجابها بالكشمير منذ دخولها الى باريس ، وخلبتها فكرة حيازة الكشمير الأصفر الذي أهداه البارون الى زوجته عام ١٨٠٨ والذي حسب العرف انتقل من الأم الى ابنتها عام ١٨٣٠ .

لقد بَلي الشال منذ عشر سنين ، لكن هذه القماشة الثمينة المحفوظة دائمًا في علبة من خشب الصندل ، كانت تبدو كفرش البارونة جديدة في نظر هذه العانس . لذا حملت في حقيبتها هدية كانت عازمة على تقديمها الى البارونة في يوم مولدها ، وكانت بتّ مقتنعة بأن هذه الهدية قادرة على تقديم الدليل بوجود العاشق الخارق .

إنها عبارة عن خاتم من الفضة يشتمل على ثلاثة تماثيل صغيرة مسنَّدة ومغطاة بالأوراق ، حاملة الكرة . وترمز هذه الشخوص الثلاثة الى الأيمان والرجاء والمحبة ، تتكىء أقدامهم على مسوخ متشابكة تموج بينهم رمزٌ للأفعى . وفي ١٨٤٦ ، بعد التقدم الحاصل في فن الحفر الخشبي ، لن يدهش هذا التمثال

أحداً . ولكن هذه الرائعة التي لم تذهل أحداً ، أدهشت في هذه اللحظة الشابة الخبيرة في المجوهرات وهي تقلّب بين يديها هذا الطابع ، فقد اقتربت بتّ وقدّمته لها قائلة :

ـ والآن كيف تجدين ذلك ؟

تنتمي هذه التماثيل ، بخطوطها ولباسها وحركتها ، الى مدرسة رافاييل ؛ أما لجهة تنفيذها فتذكّر بمدرسة البرونزيين الفلورنسيين التي ينتمي اليها بنفنيتو شلّيني وجان دي بولونيه وغيرهما . وأجاد عصر النهضة الفرنسي في صنع المسوخ التي ترمز الى الأهواء الشريرة . ثمة شريط يصل الرؤوس الثلاثة وعلى الفسحات القائمة بين رأسين نلحظ الحرف « W » ورسم شاموا وكلمة «Fecit» .

وسألت أورتنس :

ـ من الذي حفر هذا ؟

ـ من ،! إنه عاشقي ، أجابت ابنة العم بت . في ذلك عمل لعشرة اشهر فهل في إمكاني تحصيل ما يكفي لشرائه ؟ لقد أفهمني ستنبوك أن أسمه هذا يعني بالألمانية حيوان الصخور أو شاموا الذي به يوقع اعماله ... آه ! سأحصل على شالك ....

ـ وما السبب ؟

ـ أيمكنني أن أشتري هكذا جوهرة أو أوصي عليها ؟ مستحيل ؛ يبقى انه أهداني أياها . من يمكنه أن يقدّم غير

العاشق هدية في هذه القيمة ؟

تحفظت أورتنس ، بنفاق ، ربما أخاف ليزبت لو انها ادركته ، على اظهار كامل اعجابها مع انها لم تخف تأثيرها الذي ينعكس على الذين يحملون نفساً منفتحة على الجمال عندما يقع بصرهم على رائعة منزهة عن العيب كاملة وغير مرتقب وجودها .

ـ حقاً ، انها لحسنة .

ـ نعم انها لكذلك ، أجابت العانس ؛ غير اني افضل الكشمير الليموني . وبعد يا صغيرتي فإن عاشقي ينفق وقته في هذا الفن . فمنذ قدومه الى باريس صنعت يداه اربعة نماذج مثل هذه الكتلة التي بين يديك . هذه هي ثمرة جهود اربع سنوات من الدرس والعمل . تتلمذ على يد عمال الصب والقالب والصاغة . . . وأي شيء في هذا ! . . . آلاف ومئات مروا على هؤلاء . يقول لي سيدي انه سيصبح شهيراً وثرياً في أشهر قليلة .

ـ يعني انك ترينه ؟

ـ وهل أُغني في الطاحون ؟ أما زلت تعتقدين ان ذلك قصة خيالية ؟ قلت لك الحقيقة ، وأنا أضحك .

ـ وهل يحبك ؟ سألت أورتنس بحماسة .

ـ يعبدني ! أجابت ابنة العم بجديّة . اسمعي يا صغيرتي ، لم يعرف من النساء إلا الشاحبات وعديمات الطعم اللواتي لم

يغادرن الشمال قط ؛ أما أن أكون أنا ، الفتاة السمراء الهيفاء الفتية فهذا ما يحرك قلبه ويدفئه . لكن استحلفك الكتمان ! لقد وعدتني .

ـ سيكون مصير هـذا كمصير الخمسة الأخرى ، قـالت بلهجة ساخرة وهي تتأمل الختم .

ـ ستة ، يا آنستي ، تركت واحداً منها في اللورين . بإمكانه أن يسقط لي القمر ، حتى في هذه الأيام .

ـ هذا التمثال يفعل لك أكثر : انه يحمل لك الشمس .

ـ أين يمكن أن نستبدل هذا بنقود ؟ سألت ابنة العم بت ، يلزم الكثير من الأراضي للاستفادة من الشمس .

هذا المزاح المتبادل احدث ضحكات التي ضاعفت من قلق البارونة ، مما دفعها الى مقارنة مستقبل ابنتها بحاضرها حيث تراها مستسلمة للفرح والدعابة اللذين توفّرا لها في هذا العمر .

ـ لكن ، حتى يقدم لك تحفاً يلزمها ستة أشهر عمل ، فمن المفروض أن يترتب عليه التزامات ضخمة ؟ سألت أورتنس التي اغرقتها هذه التحفة في تفكير عميق .

ـ آه ! تريدين أن تطلعي على أشياء كثيرة دفعة واحدة ! أجـابت ابنـة العم بت . لكن ، أصغي . . . سـأقحمـك في مؤامرة .

ـ ستؤدي بي الى اللقاء مع عشيقك ؟

ـ آه ! تتمنين رؤيته ! لكن إفهمي جيداً ، إن عانساً مثل

بتّ التي عرفت كيف تواري عاشقاً لمدة خمس سنوات بإمكانها أن تبعده عن الأنظار جيداً . . . الأفضل أن تتركينا بسلام ، ترين يا أورتنس اني لا املك هرّاً ولا نَغْراً ولا كلباً ولا ببغاء . ينبغي لأمرأة مثلي ان تقتني أي شيء تحبه أو تزعجه ؛ وهكذا . . . أعطيت بولونياً .

ـ هل له شاربان ؟

ـ طويلان كهذا ، قالت البارونة وهي تطلعها على مكوك معبأ بالخيوط الذهبية .

كانت بت تحمل معها شغلها الى المدينة وتستمر في العمل في انتظار الغداء .

ـ إذا استزدت من الأسئلة فإني أؤكد لك انك لن تحصلي على شيء ، انك في الحادية والعشرين وثرثارة أكثر مني ، انا التي بلغت الأثنين والأربعين ، وحتى الثلاث والأربعين .

ـ ها أنذا أصغي ، إني من خشب ، قالت اورتنس .

ـ صنع حبيبي مجموعة من برونزية بعلو عشر بوصات ، تابعت بتّ . إنها تمثل شمشون يمزّق أسداً . ، ثم طمرها في التراب لتصدأ قليلاً حتى يظن أنها قديمة قِدم شمشون . هذه الرائعة معروضة عند أحد بائعي السلع القديمة حيث متاجره تصطف في ساحة كارّوسيل المجاورة لمسكني . فلو تحدّث والدك الى بوبينو وزير التجارة والزراعة أو الى الكونت راستينياك عن هذه المجموعة بصفتها أروع عمل قديم شاهده صدفة في

تجواله ، فالأرجح عندئذٍ ان تهتم مثل هذه الشخصيات بهذه السلعة أكثر من اهتمامها بعلّاقات للسيوف ، وبذلك يمكن ان تتأمن ثروة العشيق سواء أقدموا على شرائها أم قصدوا هذه القطعة النحاسية الملعونة وتفحّصوها . هذا الصبي الطيب يدّعي أن الناس سيكونون مقتنعين بعراقة هذه الحماقة وأنهم سيدفعون ثمناً غالياً لاقتنائها . أما إذا أقدم أحد الوزراء واشترى هذه المجموعة فسيظهر ليثبت أنه الصانع ، وسيكون منتصراً بالطبع ، وكأنه نال حظوة أو مركزاً رفيعاً فيتباهى ويتفاخر .

فسألتها أورتنس :

ـ وكم يطلب ثمناً ؟

ـ ألفاً وخمسمئة فرنك ! . . . لا يمكن البائع ان يتخلى عنه بأقل لأنه يترتب على ذلك عمولة .

قالت أورتنس :

ـ أن أبي يشغل منصب مفوض الملك ويلتقي كل يوم هذين الوزيرين ويمكنه ان يلبي طلبك ، سأكلفه ذلك . سترفلين بالغنى أيتها الكونتسة ستنبوك !

ـ لا ، ان رجلي هذا خامل ، يقضي أسابيع بكاملها في معالجة الشمع الأحمر دون أن يخطو خطوة الى الأمام . آه ! ينفق حياته في متحف اللوفر أو في المكتبات لمشاهدة أدوات الختم ونسخها . إنه رجل متسكّع .

واستمرت بنتا العم في المزاح . كانت أورتنس تضحك

وكأنها تجهد نفسها في ذلك ، لأنها كانت مأخوذة بحب طال كل الفتيات ، انه حب المجهول ، حب مشوش تمحورت وتجسمت أفكاره حول وجه قذفه القدر كزهرة بعثها الجليد ، تكونت على ذرارة قش معلقة في الهواء بجوار متن شباك .

فمنذ عشرة شهور جعلت من عاشق ابنة عمها الخيالي كائناً واقعياً ، وذلك لأنها ، مثل أمها تؤمن بأن ابنة عمها ستقضي حياتها في عزوبية دائمة ، ومنذ ثمانية أيام أصبح هذا الطيف يدعى الكونت ونسيسلاس ستينبوك . فالحلم تجسد والبخار تصلّب في شاب في الثلاثين من العمر .

والختم الذي تمسكه بيدها والذي هو نوع من البشارة حيث تتفجّر العبقرية كالضوء ، صارت له قوة التعويذة . شعرت أورتنس بسعادة عظيمة جعلتها تبدأ بتصديق حقيقة هذه القصة . وراح دمها يغلي وهي تضحك كالمجنونة لتصرف ابنة عمها عن حقيقة شعورها .

١٢

السيد البارون هكتور هيلو أفري

قالت بت :

ـ يبدو لي ان باب الصالون مفتوح ، فلنذهب ونرى ما إذا كان السيد كروفيل قد ذهب . . .

ـ أمي مكتئبة منذ يومين ، فالزواج الذي كان موضوع بحث قد فشل . . .

ـ وما الأهمية في ذلك ؟ فقالت بتّ : كل شيء يمكن أن يُرفأ ! المقصود (استطيع ان اقول لك ذلك) مستشار في البلاط الملكي . هل أنت راغبة بلقب السيدة الرئيسة ؟ أتركيني اذا كان الأمر يعني السيد كروفيل ، فقد يسر لي شيئاً ، وسأكون في الغد مطلعة عما إذا كان في هذا المشروع أمل ! . . .

ـ اتركي لي الختم يا ابنة عمي وأعدك بألا أطلع أحداً عليه . . . عيد أمي لن يكون قبل شهر من الآن ، سأعيده اليك ، في الصباح . . .

ـ لا ، أعيديه إليّ . . . تلزمه علبة خاصة بالمجوهرات . . .

ـ لكن ، سأريه لأبي حتى يتحدث الى الوزير بشأنه لأن السلطات لا يجوز ان تجازف بل يجب ان تكون على بيّنة من كل أمر تقدم عليه .

ـ حسناً ، إحذري أمك ، هذا كل ما أطلبه منك ؛ لأنها لو علمت بحبي ستهزأ بي .

ـ إني أعدك بذلك .

وصلت الفتاتان الى باب الصالون في الوقت الذي أغمي على البارونة . غير أن صراخ أورتنس كان كافياً لإيقاظها .

أسرعت بتّ لإحضار بعض الأملاح . وعندما عادت وجدت البنت وأمها متعانقتين والأم تهدىء من روع ابنتها هامسة :

ـ لا شيء ، لا شيء ! إنها نوبة عصبية ـ أنه أبوك ، أضافت إذ علمت بقدوم البارون من طرقته ، لا تحدثيه عن ذلك أبداً .

نهضت أدلين لتستقر أمام زوجها قصد اصطحابه الى الحديقة بانتظار الغداء فتحدثه عن الزواج الذي لم يتمَّ وتشرح له الخطوات المستقبلية القادمة وتحاول أن تدلي في ذلك ببعض الآراء .

بدا البارون هكتور هيلو بثياب برلمانية ونابوليونية ، ويتميز الأمبراطوريون (أي أولئك المتمسكين بالامبراطورية) بسهولة بفضل تقوّسهم العسكري ، وثيابهم الزرقاء المزررة بالذهب حتى الأعلى وياقاتهم من نسيج التافتا الأسود ، ومشيتهم السلطوية التي اكتسبوها خلال قيامهم بممارسة عمل القيادة الجائرة التي تتطلبها الظروف السريعة حيث يتواجدون .

وليس هناك ما يشعرك بالشيخوخة عند البارون : بصره صحيح الى حدٍّ انه يقرأ دون نظارات ؛ ووجهه المستطيل ، المحاط بالشعر الأسود ، يُبرز بشرةً أحيتها الرخاميات التي تشير الى الانفعالات الدموية ، وبطنه المشدود بحزام يحافظ ، كما قال بريّا سافاران ، على جلاله . كثير من الارستقراطية وكثير من البشاشة ساهمتا في ستر الفسق الذي كان له فيه مع كروفيل

جولات مغرية . كان هكتورّ واحداً من الرجال الـذين تبرق عيـونهم لدى مشـاهدتهم امـرأة جميلة والذين يبتسمـون لكـل الجميلات حتى اللواتي يذهبن في طريقهن دون أمل في عودة أو لقاء .

ـ هل ألقيت كلمتك يـا صديقي ؟ قـالت أدلين عنـدما لاحظت القلق بادياً على جبينه .

ـ لا ، أجاب هكتور ، لكن ارهقني سماع الكلمات لفترة ساعتين دون الوصول الى طرح التصويت . . . كانت المناقشات حادة بين المتكلمين حيث كانت الخطب كأحمال الخيالة لا تغني عن أكل ولا تطرد الأعداء ! . . . فضّلوا الكلام على العمل وهذا ما لا يغيظ له إلا قليلاً ، وهذا ما ابلغت به الماريشال عند مغادرتي له . يكفيني ما لقيته من ازعاج على مقاعد الـوزراء فلنتمازح الآن . . . صباح الخير ايتها العنزة ، صباح الخير يا عنيزة !

وأخذ ابنته بعنقها وأحاطها بذراعه ، وأجلسها على ركبتيه ، وأراح رأسها على كتفه ليتمتع بشعرها الذهبي على وجهه

وقالت البارونة في نفسها :

انه مرهق ومتضايق ولا أُريد أن أزيد في ازعاجه ، فلننتظر .

ـ هل ستبقى معنا هذا المساء ؟ . . . سألته بصوت مرتفع .

ـ لا ، يا أولادي . سأترككم بعد الغداء ، فلو لم يكن هذا

اليوم للعنزة ولأولادي ولأخي لما شاهدتموني بينكم . . .

تناولت البارونة الجريدة وأطلعت على نشاط المسارح حيث قرأت في زاوية الأوبرا تعليقاً على « روبير الشيطان » . ستغني جوزيفا التي تخلت عنها الأوبرا الايطالية الى الأوبرا الفرنسية ، في دور اليس ، لمدة ستة أشهر . كان البارون يراقب وجه زوجته وهي تقرأ الجريدة . أخفضت أدلين عينيها وخرجت الى البستان حيث تبعها .

ـ ماذا هناك يا أدلين ؟ قال ذلك وهو يأخذها بخصرها ويشدها اليه بقوة :

ـ ألا تعلمين اني احبك اكثر من . . .

ـ أكثر من جاني كادين وجوزيفا ؟ قاطعته الزوجة بحزم .

ـ ومن ابلغك ذلك ؟ سأل البارون ، الذي ترك زوجته وتراجع خطوتين .

ـ تسلمت في هذا الشأن رسالة مغفلة ، أحرقتها ، يبلغونني فيها ، يا صديقي ، أن فشل زواج أورتنس يعود الى العوز المالي الذي نحن فيه الآن . انني كزوجة ، يا عزيزي هكتور ، لم أقدم على البوح بأي حرف بالرغم من معرفتي التامة بعلاقاتك بجاني كادين ، وإني أسألك : هل شكوت مرة من ذلك ؟ لكن كأم لأورتنس ، لي عليك قول الحقيقة .

بعد لحظات من الصمت الذي أخاف زوجته وضاعف من دقات قلبها ، أرخى هيلو ذراعيه وتناولها وشدها الى قلبه وقبلها

في جبينها قائلاً لها بقوة عظيمة مؤثرة :

ـ إنك ملاك يا أدلين وأنا رجل بائس . . . .

ـ لا ! لا ، أجابت البارونة وهي تضع يدها بسرعة على شفتيه لتمنعه من أن يقول شيئاً عن نفسه .

ـ نعم ، لا املك فلساً في هذه اللحظات ، أقدمه الى اورتنس . لذلك فإني تاعس . ولكن بما انك تفتحين لي قلبك فإني سأفرغ فيه احزاني التي ستجهز عليّ . . . واذا كان عمك فيشر في هذه الضائقة فأنا الذي وضعته هذا الموضع عندما وقع لي سندات سحب بمبلغ خمسة وعشرين ألف فرنك ! كل هذا من أجل امرأة تخدعني وتسخر مني عندما لا أكون معها ، وتلقبني بالهر العجوز المصبوغ ! أوه . . . من المرعب حقاً ان يبذّر الانسان ماله في سبيل عمل معيب عوض أن ينفقه في سبيل عائلته . إني أعدك في هذه اللحظة بألا أعود مطلقاً الى هذه الاسرائيلية الكريهة .

ـ لا تقلق ، هكتور ، قالت الزوجة الطيبة المنكسرة الروح ، متناسية ابنتها عندما رأت الدموع تترقرق في عيني زوجها ، هاك مجوهراتي الماسية ، أنقذ عمي قبل أي شخص آخر .

ـ تقدر ماساتك اليوم بعشرين ألف فرنك على الأكثر . وهذا لا يكفي الأب فيشر ، احتفظي بها من أجل أورتنس سأقابل الماريشال في الغد .

ـ يا صديقي المسكين ! صاحت البارونة وهي تأخذ بيدي هكتور وتقبلهما .

أدلين تعرض ماساتها فيقدمها الأب لأورتنس . ورأت في ذلك عملاً نبيلاً ولم تستطع المقاومة . وفكرت « انه السيد ، بإمكانه أن يأخذ كل شيء هنا ومع هذا يترك لي ماساتي إنه إله » . هذا ما كان يجول في خاطر هذه الزوجة التي حصلت بسلاستها على اكثر مما كانت ستحصل عليه بغضب الغيرة .

الباحث في الأخلاق لا ينكر ان الناس الفاسدين الـذين تربوا تربية عالية هم عادة اكثر لطفاً من الفاضلين فالفاسدون عليهم ان يكفروا عن جرائم ارتكبوها ، لـذلك يستمـطرون السمـاح بتساهلهم حيـال أخطاء قضـاتهم وهكذا يـظهرون ممتازين . وبالـرغم من وجود اشخـاص طيبين بـين الفاضلين فالفضيلة تعتقد انها رائعة بذاتهـا ومعفية من الجهـد ثم ان الاشخـاص الفاضلين حقيقـة ، ويجب هنا استثناء الخبثاء ، تراودهم كلهم شكوك خفية ، حول وضعهم ؛ يعتقدون انهم مخدوعون في سوق الحياة هذه ويتحدثون أحياناً بفظاظة كما يفعل البعض الـذي يظن نفسه مغموراً .

وهكذا راح البارون ، الذي انبه ضميره لخراب عائلته ، يبذل كل ذكائه ولطافته وطاقات اغرائه أمام زوجته وولديه وابنة العم بت .

وعنده لاحظ قدوم ابنه وسيليستين كروفيل التي ترضع هيلو

الصغير ، تظاهر بالانشراح تجاه كنته وأغدق عليها المجاملات التي لم تألفها سيليستين المغرورة ، فلم يسبق لابنة ثرية كهذه ان كانت على مثل فظاظتها وتفاهتها .

حمل الجدُّ حفيده وقبّله ، واكتشف حلاوته وظرافته وكلمه بكلام الرضّع ، تنبأً بأن هذا الصغير سيفوقه عظمة ، وكال المدائح لابنه هيلو ثم أعاد الطفل الى النورمندية البدينة المكلفة أمر العناية به .

للحال تبادلت سيليستين والبارونة نظرات تريد أن تقول : « كم هو رائع هذا الانسان ! » والواقع كانت الكنة تقف بجانب أب زوجها ضد تهجمات ابيها عليه .

وبعدما ظهر البارون كعم لطيف وكجد يذوب كالسكر ، اصطحب ابنه الى الحديقة ليطلعه على ملاحظات عميقة الدقة حول الموقف الواجب اتخاذه في المجلس النيابي في صدد قضية طرأت هذا الصباح . أدهش بعدُ نظره في التفكير ، المحامي الشاب ، الذي مس الحنانُ قلبه وهو يحدثه بلهجة صديق وخاصة ما أبداه من احترام قصد منه وضع ابنه في مستواه .

السيد هيلو الأبن شاب أفرزته ثورة ١٨٣٠ : ذهنية سياسية متبجحة ، أجلال قوي تجاه آماله ، حسود من شهرة الآخرين يدلي بعبارات مطاطة بدل التعابير الصارمة لكنه مُهاب ليستعيض بالعجرفة عن الكرامة .

هؤلاء الناس هم نعوش متجولة تحمل فرنسيّ الأمس .

ويتحـرك الفـرنسي مـرات ليُلقي بضـربـاتـه عـلى الغـلاف الانكليزي لكن الطموح يمسكه عن ذلـك فيرضى بـالمصير المْحتوم ، ويجلّل القماش الأسود النعش بصورة مستمرة .

ـ آه ! هوذا أخي ! قال البارون هيلو وهو يهمّ باستقبال الكونت على عتبة الصالون وبعدما عانق هيلو الخليفة المحتمل للمرحوم مونتكورني ، اصطحبه شابكاً معه ذراعه معرباً له عن عاطفته واحترامه .

هذا الوالي الفرنسي الذي اعتـذر عن حضور الجلسـات بسبب حجمه ، يعلو هامته رأس أصقعته السنون ، ويجلله شعر رمادي ما زال كثيفاً ، رغم ضغط القبعة ، صغير ، مربوع ، اصبح جافاً لكنه ما زال يحمل سنيّه العديدة بمرح ملحوظ وكأنه يحتفظ بنشاطه المكثف المحكوم عليه يوماً بالراحة ويوزع وقته بين المطالعة والنزهات ، تتراءى عاداته السلسة على سيماء وجهه وفي مجلسه ، وفي حديثه المفعم بالآيات الـرشيدة . لا يحدثك مطلقاً عن الحرب أو عن المعارك ؛ يعرف كيف يكون عظيًا عندما يكون بحاجة الى العظمة .

في الصالون يصرف وقته في مراقبة مستمرة لرغبات النساء .

ـ كلكم في نشوة ، قال ذلك إذ رأى الحيوية ، التي أشاعها البـارون في هذا الاجتمـاع العائـلي الصغـير ، تغمـر نفـوس الجميع . مع ذلك ، فأورتنس لم تتزوج . أضاف هيلو العجوز بعدما قرأ في وجه امرأة أخيه علامات الكآبة .

ـ لاحقون على هذا ، قالت بت في أذنه بصوت جهوري .

ـ هوذا أنت أيتها البذرة السيئة التي لم تزهر ! أجابها وهو يضحك .

كان يحب بت كثيراً لأن بينهما تطابقاً وتشابهاً كبيرين .

خرج من بين العامة ، دون أن يتعلّم لكن لشجاعته الفضل في ثروته العسكرية ولذوقه السليم القدرة على الاحتفاظ بدعابة روحه . ستنتهي حياته الجميلة والمشعّة وسط هذه العائلة حيث بثّ كل عواطفه دون أن يرتاب يوماً هذا الرجل المجبول بالشرف وصاحب اليدين الناصعتين ، بطيش أخيه الذي ما زال مكتوماً .

لا أحد تمتع أكثر منه بجوّ هذا الاجتماع حيث لم يطرأ في يوم من الأيام ما يعكر الصفاء ، وحيث الأخوة والأخوات يتحابون ، وسيليستين معتبرة في هذا كأحد أفراد العائلة . وكان هيلو الكونت الصغير يسأل من وقت الى آخر عن أنقطاع الأب كروفيل عن زيارتهم .

ـ أبي يسكن الآن في الريف ! أجابت سيليستين بصوت عالٍ .

أما الآن فسيقولون له أن العطار السابق قد سافر .

هذا الاجتماع الحقيقي للعائلة أثار في ذهن السيدة هيلو فكرة : « هذه هي السعادة الفضلى ، ومن في إمكانه أن يختطفها منا ؟ »

وإذ رأى الجنرال أن أدلين محطُّ توجهات البارون ، استغرب ذلك مازحاً ، الى درجة أن البارون تخوّف من السخرية فتحول بمجاملاته الى كنته التي كانت ، في ولائم الغداء ، موضوع ثناء وأطراء وعناية متوخياً منها عودة الأب كروفيل والعمل على نزع أيّ شعور بالضغينة .

ان من يشاهد هذه العائلة ، سيجد صعوبة في تصديق كون الأب على شفير الافلاس والأم يائسة والأبن في قمة القلق على مستقبل أبيه ، والأبنة مهتمة بسرقة عاشق لها من ابنـة العم بتّ .

١٣

اللوفر

عند الساعة السابعة . استغل البارون انشغال اخيه وابنه والبارونة وأورتنس في لعب الهويست تركهم ليحضر عشيقته في الأوبرا وقد اصطحب معه ابنة العم بت ، التي تسكن في شارع دواينّه والتي كانت تتذمر من عزلة هذا الحي المقفر لكي تجد عذراً للانصراف بعد العشاء .

ولا بد ان يقر الباريسيون جميعهم بأن حذر العانس ، عقلاني وفي محله . أن وجود هذه المجموعة من المساكن على طول شارع اللوفر يشكل إحدى المخالفات التي يحب الفرنسيون أن يقترفوها بحق الذوق الرفيع حتى تستكين أوروبا اليهم ولا تعود تخشاهم . قد يكون لنا في ذلك ، ودون علم منا فكر سياسي عظيم .

لا يمكن احداً أن يتهمنا بأننا خارج الموضوع لأننا نهتم بوصف زاوية من باريس الحالية ، إذ لا يمكن ان نعيد تركيب صورتها في وقت لاحق وابناء اخوتنا سيرون دون ريب اللوفر وقد انتهى الشغل منه ، وسينكرون أن بربرية كهذه قد عمّرت

لفترة ست وثلاثين سنة في قلب باريس تجاه القصر حيث ثلاث من الأسر المالكة استقبلت نخبة فرنسا وأوروبا على مدى الست والثلاثين سنة الماضية .

فمن الوصلة المؤدية الى جسر كاروزيل حتى شارع المتحف يلاحظ كل شخص قادم الى باريس عشرات المساكن وقد تداعت واجهاتها ، ولم يتمكن مالكوها من اجراء أي ترميم . وهذه المساكن ليست إلا انقاض الحي القديم المقوّض منذ قرّر نابوليون انهاء اللوفر .

الشارع وطريق « دواينّه » المسدود هما المنفذان الداخليان الوحيدان على هذا المجمّع السكني المظلم والمقفر حيث السكان كالأشباح نظراً لقلتهم حتى وعدم وجودهم . الممر المبلط ، المخفوض كثيراً عن طريق شارع المتحف المعبدة ، هو في مستوى أرضية شارع فروادمانتو . ان تعلية جدار الساحة قد دفن وراءه المساكن التي غلفتها ظلال أبدية القتها عليها مخازن اللوفر الكبرى ، وصبغتها الريح الشمالية بالسواد . والتقت العتمة والسكون والهواء الجليدي والأقبية الأرضية العميقة في جعل هذه البيوت كأقبية الكنائس ، مثل مقابر حيّة .

عندما تمرّ في وسط هذا الحي الماثت في عربة مكشوفة وتجيل نظرك في شارع « دوانيه » الصغير تتقزز نفسك وتتساءل عمّن بإمكانه أن يعيش في هذا الجو ، وتحصل على الجواب في المساء حيث يتحوّل هذا الشارع الى مهلكة فتتحرر مفاسد باريس من كل قيد تحت ستار الظلام .

هذه المشكلة المخيفة بذاتها ، تصبح مرعبة عندما ترى أن أشباه البيوت هذه قد زنّرتها المستنقعات لجهة شارع ريشيليو وطرقات مزبدة لجهة شارع التويليري ، وحدائق صغيرة ومساحات واسعة من الحجارة المصقولة بالأضافة الى الركام لجهة شارع اللوفر القديم .

ارتأى هنري الثالث ومقربوه الذين يفتشون عن لباسهم ، وعشاق مارغريت الذين يبحثون عن رؤوسهم ، أن يرقصوا رقصة السارابندا القديمة في ضوء القمر في هذه الفلوات التي تشرف عليها قبة كنيسة ما زالت شامخة وكأنها تظهر للناس أن الدين الكاثوليكي ما زال حياً في فرنسا وقادراً على المقاومة والخلود .

منذ أربعين سنة واللوفر يصيح من كل أشداق جدرانه الحبلى وشبابيكه المفججة : « استأصلوا هذا التالول من وجهي » !

لا بد ان تكونوا ادركتم مدى الأفادة من هذه المهلكة وضرورة التعبير الملح ، عن القران المخلص بين القبح والجمال الذي تتميز به ملكة العواصم باريس . وقد يبدو أن هذه الانقاض الباردة التي اصيبت في احشائها جريدة الحقوقيين بمرض قضى عليها ، والتخشيبات الكريهة في شارع المتحف وسور عارضي السلع المزخرفة القديمة هي أمدّ عمراً وأكثر تقدماً من الأسر الثلاث التي تعاقبت على الحكم .

فبدءاً من العام ١٨٢٣ اقدمت ابنة العم بت ، مدفوعة بقيمة الأيجار البخسة لهذه المساكن المحكوم عليها بالزوال ، على التعاقد من أجل إشغال سكن هناك برغم الأنذار الذي وجهته السلطة المحلية بوجوب الانسحاب قبل هبوط الليل . هذه الحاجة تنسجم مع العادة القروية التي حافظت عليها والقاضية بأن تأوي الى الفراش مع غياب الشمس وتستيقظ مع شروقها ، مما يوفر للريفيين إدّخارات ملحوظة من الأضاءة والتدفئة . لذا سكنت في أحد البيوت التي عادت تطل الى الساحة بفضل تهديم الدارة المشهورة التي كان يشغلها كامباسيريس .

١٤

حيث نرى النساء الجميلات يتمرغن تحت أقدام الفاسقين ، مثلما المخدوعون ينساقون أمام اللصوص

في الوقت الذي اوصل البارون هيلو ، ابنة عم زوجته الى بيتها وودعها قائلاً : الى اللقاء يا ابنة العم ! » كانت تسير امرأة فتية ، صغيرة ، هيفاء القامة ، جميلة، متأنقة يفوح منها عطر اختير بعناية ، بين العربة والجدار وتدخل هي الأخرى الى البيت نفسه .

بادلت السيدة ، البارون ودون سابق تصميم نظرة متفحصة ابن عم المستأجرة ؛ لكن الفاسق استشعر في ذلك انطباعاً مثيراً . ثم أدخل بتؤدة أحد قفازيه في يده ليزيد من جلال هيئته ، ويتمكن من ملاحقة المرأة الفتية بنظراته وقد ارتدت فستاناً يموّجه بلطافة شيء غير تنانير الكرينولين المخيفة .

وقال البارون في نفسه : « هي ذي امرأة لطيفة أنا مستعد لاسعادها لأنها بلا شك تستطيع ان تسعدني » .

عندما بلغت هذه المجهولة فسحة الدرج الموصل الى المسكن الواقع في الشارع ، رمت باب العربة بنظرة من طرف عينها ، دون أن تستدير لترى البارون مسمّراً في مكانه اعجاباً تلتهمه الرغبة والحشرية . إنها كالزهرة التي تتنشقها الباريسيات بشغف ، حينما يلتقينها في طريقهن . بعض النساء الفاضلات والجميلات الملتزمات بواجبهن ، يعدن الى مآويهن مقطبات الوجوه ما لم يجمعن باقتهن الصغيرة خلال النزهة .

تسلقت المرأة الدرج بسرعة وللحال انفتح شباك شقة الطبقة الثانية وأطلت المرأة ولكن بصحبة سيد منتوف الجمجمة ، قليل الغضب في العينين ، وهما علامتان تدلان على هوية الزوج .

وقال البارون في نفسه : « ما انعمها وما اذكاها ! » ها هي بعملها هذا تدلني على مسكنها . إن ذلك مثير خاصة في هذا الحي ، فلأحاذر » .

وعندما صعد الى العربة . رفع المدير رأسه . فأنسحب الزوجان بسرعة وكأن وجه البارون قد أثار فيهما الرهبة الميثولوجية ، الكائنة في رأس ميدوز . وفكّر البارون : « كأنهما يعرفانني . لو صح ذلك لبطل كل عجب » .

وعندما اجتازت العربة طلعة الطريق المعبدة في شارع المتحف انحنى قليلاً ليرى هذه المجهولة فوجدها تعود الى الشباك وتحمّر خجلاً لأنه فاجأها وهي تتأمل سقف العربة الذي يستره عنها وتراجعت بسرعة الى الوراء . وقال البارون في نفسه :

« سأعرف من هي بواسطة العنزة » .

أثار منظر مستشار الدولة ، كما سنلاحظ ، شعوراً عميقاً في نفس الزوجين .

ـ إنه البارون هيلو ، فمكتبي يقع في اتجاهه ! صاح الزوج وهو ينصرف عن شباك الغرفة .

ـ إذاً ، يا مارنيف الفتاة العانس المقيمة في الثالث في طرف الساحة والتي تعيش مع ذاك الفتى ، هي ابنة عمه . اليس من السخف ألا نفهم هذا إلا اليوم وبالصدفة ؟

ـ الآنسة فيشر تعيش مع رجل ! كرّر الموظف . إنها نميمة خسيسة . فلنكفّ عن الكلام بهذه الخفة عن ابنة عم مستشار الدولة الذي إذا شاء أمطرت في الوزارة أو صحت . ما بك ؟ تعالي للغداء ، إني انتظرك منذ أربع ساعات .

١٥

بيت مارنيف

تزوجت السيدة مارنيف ، المرأة فائقة الجمال والأبنة الطبيعية للكونت مونتكورني أحد ابرز قادة نابوليون ، من موظف صغير في وزارة الحربية بمهر يبلغ عشرين ألف فرنك . وقد

توصل هذا الموظف المكتبيّ ، بفضل ما لماريشال فرنسا من رصيد في فترة الستة اشهر الأخيرة من حياته ، الى رتبة لم يكن يرتقبها وهي موظف أول في مكتبه ، وفي الوقت الذي كان مارنيف سيعين. نائب رئيس ، توفي الماريْشال وانقطعت من الجذور آمال مارنيف وزوجته.

غير ان ضآلة ثروة السيد مارنيف بدّدت مهر الآنسة فاليري فورتان أن في دفع الديون المترتبة على الموظف أم في اقتناء ما يلزم لفتى يهتم بتجهيز مسكن. والسبب الأهم في ذلك مطالب المرأة الجميلة التي اعتادت عند امها مباهج لم ترغب في التراجع عنها ، مما ألزم الأسرة بحسم مدخرات من الأيجار. أن موقع شارع دواينه (Doyenné) الذي لا يبعد كثيراً عن وزارة الحربية والمركز الباريسي ، قد راق السيد والسيدة مارنيف اللذين ما زالا منذ أربع سنوات تقريباً يسكنان بيت الآنسة فيشر.

ينتمي السيد جان بول ستانيسلاس مارنيف الى ذلك النوع من الموظفين الذين يقاومون ارهاق الحياة بمقدرة يوفرها لهم انحلال الاخلاق. حقق هذا الانسان الهزيل ، بلحيته وبشعره الدقيقين ، ووجهه الكوكبي الشكل ، الممتقع اللون ، المتعب ذي العينين اللتين تعلوهما حاجبان محمومران مطقّمين بنظارة ، وبهيبته الهزيلة ووقفته الأهزل ، النموذج الذي يتخيله كل منا للرجل المحال على المحاكمة بتهمة الاعتداء على الاخلاق العامة.

تبدو الشقة التي تشغلها هذه العائلة نموذجاً لكثير من الأسر الباريسية وتكشف المظاهر الخداعة للرخاء الزائف الذي ينتشر في كثير من البيوت .

أما الصالون فيزيد الى الصورة القاتمة صباغ بؤس لّماع : الأثاث مغلف بالمخمل العتيق ، بالشخوص الجبسية المطلية بالبرونز الفلورنسي والثريا السيئة الترصيع برؤوس شماعدين من البلور المذاب قد اعتني فقط بابراز الوانها ؛ والسجادة التي سعرها البخس يفسر كمية القطن التي اضافها الصانع اليها والتي اصبحت ماثلة للعيان ، وحتى البرادي ينبئك دمقسها الصوفي بانه لم يمض على روعته بعد ثلاث سنوات . كل شيء ينشد للبؤس كمستعطٍ في ثيابه الرثة على باب كنيسة .

وغرفة الطعام التي تسيء ترتيبها خادمة واحدة فقط تذكّر بالشكل المفشي لغرف الطعام في فنادق المقاطعات : كل شيء فيها وسخ عديم الترتيب .

غرفة السيد التي تشبه الى حد بعيد غرفة طالب ، مفروشة بأثاث ذابل وبالٍ كشخصه ، تُقدَّم لها العناية مرة واحدة في الأسبوع . هذه الغرفة المخيفة حيث كل شيء ، ينبو عن مكانه وحيث الجوارب العتيقة تتدلى على الكراسي القاتمة اللون المشدودة بشعر ذنب الحيوانات ، تنبيء عن الرجل الذي لا يبالي بتدبير منزله ويعيش خارجه ، في القمار أو المقاهي وما الى ذلك .

غير أن غرفة السيدة شذت على ما هي عليه غرفة السيد

من تهاون مذلّ يسيء الى الشقة الرسمية حيث الدخان والغبار استوليا على البرادي فصفرّاها ، وحيث الولد المتروك لذاته يُسلس القياد للعبه في أي مكان .

أن غرفة فاليري وحجرتها الواقعتين في الجناح الذي يجمع من جهة واحدة البيت المبني على واجهة الشارع الى هيكل المسكن المسند الى طرف الساحة بالملكية المجاورة ، والمبطنتين بالقماش الفارسي الملون والمفروشتين بأثاث من خشب الباليساندر البنفسجي والمبسطتين بالسجاد المخملّي الوبر تستشعران هذه المرأة الفاتنة ، ولنقل الخليلة التي تحب التبذير على حساب غيرها . على رداء المدفأة المخملي ترتفع الساعة الدقاقة بطرازها العصري . كما نشاهد رفاً مزدحماً بمزارعاتٍ مصنوعات من البورسلين الصيني الفاخر . فالسرير وأدوات الزينة ومساحيقها الرخيصة وشكل عيشهما المعزول ، كلها ساهمت في الاشارة الى تحركات النهار ونزواته .

ومع أن ذلك يندرج في الواقع في المرتبة الثالثة من الثروة والأناقة حيث كل شيء يعود تاريخه الى ثلاث سنوات ، فإن اناقته اكيدة لولا انها ملطخة بالمسحة البورجوازية . ان الفن ، والتمييز الذي يتقطر من الأشياء التي يعرف الذوق ان يمتلكها ، كانا ناقصين هنا تماماً . ولو نظر دكتور في العلوم الاجتماعية الى المكان لتعرف الى العشيق من خلال بعض تلك المجوهرات النافلة التي يصعب الحصول عليها إلا من نصف الأله هذا ، الغائب دائمًا والحاضر دائمًا عند المرأة المتزوجة .

العشاء الذي جهزه الزوج والزوجة والولد والذي تأخر أربع ساعات عن موعده ، كان وحده كفيلاً بتفسير الأزمة المالية التي تعانيها العائلة، لأن الطاولة هي المقياس الحراري الأكيد لوضع الأسر الباريسية .

شوربا بالأعشاب وماء الفاصوليا وشريحة لحم بقر سابحة مع البطاطا في الماء الأشقر عوضاً عن المرق ، وطبق من الفاصوليا وكرز من النوع الرديء ، كل هذا قدم على الطاولة وأكل في صحون وأطباق مثلّمة كما هي حال الأدوات الفضية الباهتة اللون الخفيفة الرنة . هل تليق هذه الوجبة بالمرأة الفاتنة ؟ بالطبع كان البارون بكى لو شَهِد هذه الحالة .

قناني المشروب المكمّدة لم تغطِّ بشاعة لون الخمر التي ابتاعوها بالليتر من بائع الخمر على الزاوية ، محارم السفرة ما زالت في الخدمة ودون بدل منذ أسبوع أو اكثر .

وأخيراً فإن كل شيء كان ينم عن بؤس بلا كرامة ، وعن استهتار الزوج والزوجة بالعائلة .

المراقب الأقل ملاحظة كان استنتج ، لو رآهما ، ان هذين الكائنين قد بلغا هذه الحالة المزرية حيث حاجة العيش فرضت عليهما لصوصية محبّبة لديهما .

والجملة الأولى التي خاطبت بها فاليري زوجها كشفت عن سبب تأخير العشاء الذي يعود في الأرجح الى أخلاص الطباخة صاحبة العلاقة .

ـ لا تـرغب « سامـانـون » Samanon في تسلم سنـدات السحب إلا مقابل حسم خمسين في المئة، وتطلب ككفالة تفويضاً بمرتباتك .

إن البؤس الذي ما زال سرياً منه مدير وزارة الحربية والذي يتستر وراء راتب مقداره اربعة وعشرون ألفاً عدا المكافآت، قد بلغ مرحلته النهائية بالنسبة الى الموظف .

ـ لقد قُمْتِ بدور مدير لي ، قال الزوج وهـو ينظر الى زوجته .

ـ اعتقد ذلك ، أجابت دون أن تتخوف من كلامه المستقى من لغة الكواليس .

ـ ماذا سيحلّ بنا ؟ أردف مارنيف يقول : سيفاجئنا المالك غداً بمطالبته بالايجار . وأبوك الذي يموت دون كتابة الوصية ! والله ! إن جماعة الامبراطورية يحسبون انفسهم خالدين جميعـاً كالامبراطور !

فقالت :

ـ مسكين أبي ! لم يرزق أولاداً غيري . وكم أحبني ! ربما أتلفت الكونتيسا الوصية . كيف أتصوره ينساني وهو الذي كان يمدنا من وقت لآخر بثلاثة أو أربعة سندات بمبلغ ألف فرنك في كل مرة ؟

ـ مـا زال يتوجب علينـا أربعة أقسـاط ، ألف وخمسمئة

فرنك ! فهل تكفي امتعتنا لذلك ؟ « هذه هي المسألة ! » يقول شكسبير .

- الى الوداع يا هرّي ، قالت فاليري التي لم تتناول الا لقمات قليلة من اللحم الذي فصلت عنه الخادمة المرق لتقدمه الى جندي شجاع عائد من الجزائر . وأضافت : يجب استعمال الادوية الكبرى للأمراض الكبرى !

- الى اين يا فاليري ؟ صاح مارنيف وهو يقطع على زوجته طريقها :

- اني قاصدة المالك ، أجابت وهي تصفف جدائلها تحت قبعتها الجميلة . وأنت عليك أن تسعى في ترتيب علاقة جيدة مع تلك الفتاة العانس ، اذا كانت ابنة عم المدير .

١٦

سقيفة الفنانين

أن جهل المستأجرين القاطنين في بناء واحد لأوضاعهم الاجتماعية المتبادلة يشكل أحد العوامل الثابتة القادرة أكثر من غيرها على وصف طريقة الحياة الباريسية ، لكن من السهل أن تدرك كيف ان مستخدماً يذهب في الصباح الباكر من كل يوم الى عمله ، ويعود الى البيت للعشاء، ثم يخرج ليلياً ، وكيف ان

امرأة مستسلمة إلى ملذات باريس ، يمكن ان لا يعلما شيئاً عن فتاة عانس تقطن الطابق الثالث في طرف فناء بنائهما ، خاصة عندما تكون لهذه الفتاة تصرفات الآنسة فيشر .

ليزبِتْ ، في هذا البناء ، كانت تـذهب لتبتاع الحليب والخبز دون أن تُعلِم أحداً وتنام مع مغيب الشمس . فهي لم تكن تتسلم قط رسائل ولا تُزار لأنها لم تهتم بالجيرة ولم تراعِ أصولها .

كان ذلك أحد الأمثلة عن هذا الوجود المغفل ، كما هي الحال في كثير من المساكن ، حيث علم بعد أربع سنوات بوجود سيد عجوز في الطابق الرابع عرف فولتير ، وبوجون ، ومارسيل ، وصوفي ارنو ، وفرانكلين وروبسبيير !

أما ما اعلنه السيد والسيدة مارنيف عن ليز بِتْ فيشر فقد توصلا اليه بسبب عزلة الحي والعلاقات التي أقاماها لشدة ضيق حالتهما مع الحرس الذين يتظاهرون دائماً باللطف خوف تعرضهم لأي طارىء قد يُخِلّ بالمحافظة على كرامتهم . غير أن كبرياء هذه الفتاة العانس وصمتها وتحفظها أثارت كلها في نفوس الحراس احتراماً مبالغاً فيه وعلاقات باردة تنم عن شعور غير معلن بالانزعاج صادر عن أحساس بعقدة الفوقية .

كان الحراس يعتقدون أنهم مساوون لمستأجر يدفع إيجاراً قدره مئتان وخمسون فرنكاً . وبما ان اعترافات ابنة العم بت الى

ابنة عمها الصغيرة اورتنس كانت واقعية ، تفهم كيف ان احدى الحاجبات استطاعت أن تشي في احد أحاديثها مع آل مارنيف ، بالآنسة فيشر ، معتقدة انها تغتابها فقط .

وعندما تسلمت الفتاة العانس شمعدانها الصغير من يدي الحاجبة ، السيدة أوليفييه تقدمت لترى ما اذا كانت شبابيك السقيفة فوق شقتها مضاءةً.

في هذا الوقت من تموز كان الليل معتماً في طرف الساحة بحيث أن الفتاة العانس لا تستطيع أن تأوي الى فراشها من دون ضوء .

- أوه ، اطمئني ، ان ستانبوك في حجرته ، ولم يغادرها اليوم ، قالت بخبث السيدة أوليفييه للآنسة فيشر .

لم تجب العانس بشيء. في هذا ، ما زالت في عاداتها القروية ، تهزأ بأقاويل الناس البعيدين عنها . والقرويون لا يهتمون إلا بقريتهم ، وهي لا تتمسك إلا برأي ذلك المحيط الصغير الذي تعيش فيه ، إذاً صعدت بكل تصميم ليس الى مسكنها ، بل إلى تلك السقيفة . هاكم لماذا فعلت ذلك :

عقب الأكل وعند التحلية كانت قد دسّت في حقيبتها بعض الفواكه والحلويات لعشيقها وقامت بتقديمها له . وقد فعلت ذلك كما تفعل عانس عندما تحمل لكلبها بعض المشهّيات . وجدته يعمل في ضياء قنديل صغير يزيد بهاؤه عندما يمر عبر كرة ملأى

بالماء . إنه بطل أحلام أورتنس ، شاب اشقر شاحب يجلس على منضدة العمل ، المـوزعة عليهـا أدوات الحفر والشمـع الأحمر والأزاميل والقواعـد المرقّقـة والنحاس المـذاب لاستخدامـه في القوالب . ويرتدي قميصاً ويحمل قطعاً صغيرة من الشمع مجهزة للتقولب يتأملها بدقة شاعر منكبٌّ على عمله .

ـ خذ ، يا ونسيسلاس ، هذا ما حملته لك ، قالت ذلك وهي تضع محرمتها على زاوية من زوايا منضدة العمل .

ثم رفعت من حقيبتها بانتباه شديد المشهيات والفواكه .

أنت طيّبة جداً ، يا آنستي ، أجاب هذا المنفي المسكين بصوته الحزين .

ـ هذا ما ينعشك ، يا ولدي المسكين ، إنك بعملك هذا تسخن دمك . انت لم تولد لمثل هذه المهنة القاسية .

نـظر ونسيسلاس ستـانبـوك الى الفتـاة العـانس بـدهشـة مستغربة .

ـ كُلْ ، تابعت بحدّة ، بدل أن تتأملني كأحد شخوصك عندما ينال إعجابك .

وإذ تلقى هذه الصفعة الكلامية توقف ذهول الفتى لأنه عرف فيها مرشده النسوي الذي اثار دائمًا استغرابه بحنانه ، اذ هو لم يلقَ طوال حياته إلا القسوة والتصلب في المعاملة . ومع أن

ستانبوك يبلغ التاسعة والعشرين من العمر فيبدو عليه ، كمعظم الشقر، إنه أصغر من ذلك بخمس أو ست سنوات ، ويكتشف ان فتوته تتبدّد تحت ضغط المتاعب ، ومصاتب المنفى ، وأن نضارة الشباب هذه ، إذا قوبلت بذلك الوجه القاسي والجاف ، ستوحي أن الطبيعة قد أخطأت عندما خصصتهما بجنسيهما . ثم نهض وارتمى مستلقياً على اريكة من طراز لويس الخامس عشر ملبّسة بمخمل « أوترخت » الأصفر ، وكأنه يريد أن يأخذ قسطاً من الراحة . في هذه الأثناء تناولت الفتاة العانس خوخة رنكلود وقدمتها بلطف إلى صديقها .

ـ شكراً ، قال وهو يتناول الثمرة .

ـ هل أنت متعب ؟ سألته وهي تعطيه ثمرة أخرى .

ـ ليس العمل ما يضنيني ، بل الحياة .

ـ ما هذه الأفكار ! اجابته بمرارة . اليس عندك ملاك حارس يسهر عليك ؟ تابعت وهي تقدم له الحلويات وترقبه يأكل بشهية . انظر : عندما كنت اتعشى عند ابنة عمي ، فكرت فيك . . .

ـ قال وهو يرمي ليزبِث بنظرة مداعبة وشاكية في آن واحد . .

ـ اعرف اني لولاك لمت من زمان . ولكن الفنانين . يا

انستي العزيزة ، في حاجة إلى الترفيه . . .

ـ آه ! عدنا ! صاحت وهي تقاطعه واضعة قبضتيها على مقويها ومثبتة في وجهه عينيها المتوقدتين . تريد أن تذهب وتخسر صحتك في بؤرباريس النتنة كما هي حال كثير من العمال الذين ينتهون بالموت في المستشفى ! لا ، لا ، إجمع ثروة وعندما تحصل على مداخيل ثابتة ستلهو على مزاجك وسيتوفر لك ما يسمح بدفع نفقات الطبابة والملذات . كم أنت فاسق يا ولدي !

اخفض ونسيسلاس ستانبوك رأسه وهو يتلقى هذه الرشقات القارسة والمصحوبة بنظرات نافذة كاللهب المغناطيسي .

لو تمكن النمام الأكثر لذعاً من رؤية بداية اللقاء لأدرك كذب الإفتراءات التي اطلقها الزوجان اوليفية عن الآنسة فيشر . كل شيء ، في نبرة حديثهما وحركاتهما ونظراتهما ، ينطق بطهارة حياتهما السرية . كانت العانس تكشف عن حنان امومي خشن ولكنه حقيقي . وكان الشاب كأبن مطيع يتحمل طغيان أمه .

هذا الرباط الغريب بدا كأنه نتيجة لأرادة صلبة تؤثر باستمرا على طبع مستضعف ، أو على رخاوة خاصة بـ « السلاف » **slaves** الذين ، رغم شجاعتهم البطولية في ساحات المعارك ، يتمتعون بسلوك مفكك لا يصدق ، وبأخلاقية مائعة ، على الفيزيولوجيين الأهتمام بها كما يهتم الحرثيون

بالعمل الزراعي .

وسألها ونسيسلاس بكآبة :

ـ وعلى افتراض مت قبل ان اغتني ؟

ـ تموت ؟ ... صاحت العانس . أوه ! لن أتركك ابداً تموت . عندي من الحياة ما يكفي لأثنين وسأمدك بدمي إذا لزم الأمر .

عند سماعه هذا الكلام المدهش ، العنيف ، البسيط رطبت الدموع جفنيه . واضافت لزبت ، متأثرة :

ـ لا تحزن يا صغيري ونسيسلاس ، اصغ اليّ . لقد رأت ابنة عمي اورتنس ، على ما اعتقد ، في ختمك من الجمال ما أثار فيها الأعجاب . تروَّ ، سأعمل على تسويق مجموعتك البرونزية مما سيصفي حساباتنا وبعدها ستتصرف بالطريقة التي تحلو لك ، وستتمتع بالحرية ! لا تهتم ولا تفكر إلا في الضحك ! ...

ـ لن أتمكن أبداً من ايفائكِ دينكِ يا آنستي ، أجابٌ هذا المنفي المسكين .

ـ ولماذا ؟ سألت القروية الفوجية وقد انحازت الى هذا الليفوني Livonion ضد ذاتها .

ـ لأنك لم تمدني فقط بالغذاء والمسكن والعناية وقت

الضيق ، بل وهبتني القوة ! لقد جعلتني ما انا . صحيح انك غالباً ما كنت معي قاسية فآلمتني . . .

ـ صاحت العانس هل ستعود إلى حماقاتك عن الشعر والفنون ، وإلى طقطقةأصابعك وانت تتحدث عن الجمال المثالي وعن جنونك في الشمال ؟ الجمال لا يساوي الصلابة ، والصلابة هي أنا ! في رأسك أفكار ؟ تشرفنا ! انا ايضاً في رأسي افكار .

ما نفع مخزون انفسنا ما لم نتصرف ولو بجزء منه ؟ فالذين يتمتعون بالفكر ليسوا اكثر تقدماً من الذين يفتقدونه إذا أدرك هؤلاء كيف يتصرفون . . . عليك أن تشتغل حتى تغرق في أحلامك . ماذا انجزت مذ غادرتك ؟

ـ ماذا قالت ابنة عمك الجميلة ؟

ـ من قال لك إنها جميلة ؟ سألت ليزبت بانفعال وبنبرة زأرت منها غيرة نمر .

ـ لكن ، انت نفسك .

ـ قلت ذلك حتى استطلع تعابير وجهك ! هل لك رغبة في مطاردة الفساتين ؟ تحب النساء ، حسناً ! أذب منهن شيئاً واسكب رغباتك في البرونز ، فتتمكن عندها من الاستغناء عنهن لبعض الوقت وعن الحب العابر وخصوصاً عن ابنة عمي ، يا صديقي العزيز . ليست هذه طريدة قريبة المنال ، يلزمها رجل لا يقل دخله عن ستين ألف فرنك . . . إنه حاضر .

أوه ! سريرك لم يرتب ! قالت وهي تتطلع من خلال الغرفة الأخرى . آه ! لقد نسيتك يا هري الصغير ! . . .

للحال نزعت الفتاة النشيطة معطفها وقبعتها وقفازيها وشرعت في ترتيب السرير الصغير بخفة ورشاقة ، كخادمة محترفة .

هذا المزيج من السرعة والقساوة وحتى الطيبة ، يفسر سلطان ليزبت على هذا الانسان الذي منه خلقت شيئاً لنفسها . الا توثقنا الحياة برباط بواسطة تعاقب جيدها ورديئها ؟

لو التقى هذا الليفوني السيدة مارنيف محل ليزبت فيشر لوجد في راعيته هذه لطفاً كان سيودي به إلى طريق موحل فاسد حيث يخبط في الظلام . وما كان ليعمل ولا كان الفن سيتفتح فيه . ومع رثائه لشراسة طمع الفتاة العانس فأن عقله كان يرشده إلى تفضيل الذراع الحديدية على الحياة الخاملة والخطرة التي سلكها العديد من مواطنيه .

هاكم الحادث الذي كان سبب زواج الأنوثة الصلبة والذكورة المستضعفة ، هذا الزواج الشاذ والشائع ، كما يقال في بولونيا .

١٧

قصة منفي

عام ١٨٣٣ كانت الآنسة فيشر تنشغل أحياناً في الليل عندما يكثر عليها العمل ، فاحست برائحة الحامض الفحمي ، وسمعت نواح شخص ينازع الحياة . وكانت رائحة الفحم والحشرجة صادرتين من سقيفة فوق غرفتين تؤلفان شقتها . افترضت أن فتىً ، سكن حديثاً في هذه السقيفة المعروضة للإيجار منذ ثلاث سنين ، قد انتحر .

صعدت بسرعة وخلعت الباب بقوة مستخدمة دفع ثقلها ، فعثرت على المستأجر يتقلب على فراش الميدان ينازع اختلاجاته . اطفأت فيشر المدفأة .

بعدما فتح الباب وزادت كمية الهواء في الحجرة ، أنقذ المنفي ، وحالما القته ليزبت على الفراش كالمريض وغفا ، تمكنت من التعرف على اسباب الانتحار الكامن في مقر هاتين الغرفتين

المدقع حيث خلتا من الأمتعة على انواعها الا من طاولة ملعونة وفراش الميدان وكرسيّين .

بسطت على الطاولة ورقة مكتوبة اخذت تقرأها :

« أنا الكونت ونسيسلاس ستانبوك ولدت في « بـريني » Prenie من أعمال « ليفوني » Livonie .

« يجب الا يتهم أحد بموتي ، فاسباب انتحاري هي في كلمات كوستيسكو : انتهت بولونيا ! « ان ابن الاخ الاصغر لقائد. الملك شارل الثاني عشر ، لن يلجأ ابداً الى التسول . نشأتي الضعيفة حرمتني الخدمة العسكرية ، شهدت أمس آخر إنفاق لمئة تالير (نقد الماني) حملتها من « دريسد » Dresde إلى باريس . أترك خمسة وعشرين فرنكاً في درج الطاولة كدفعة مستحقة للمالك عن الإيجار .

« ليس لي أهل ، وموتي لا يعني أحداً . أرجو مواطني الا يتهموا الحكومة الفرنسية لم يعترف بي حتى الآن كلاجىء ، ولم أطلب شيئاً ولم التق بأي منفيٍ ، لا أحد في باريس يعلم بوجودي .

« سأموت على الدين المسيحي . فليغفر الله لآخر شخص من آل ستانبوك ! ونسيسلاس » .

تأثرت الآنسة فيشر شديد التأثر بنزاهة هذا المحتضر الذي يحرص على دفع ما يستحق عليه . فتحت الدرج ورأت خمساً من قطع المئة فلس .

ـ كم هو مسكين هذا الفتى ! لا أحد في هذا العالم يهتم به .

عادت إلى منزلها وأخذت شغلها وتوجهت من جديد إلى السقيفة لتسهر على راحة الشاب القادم من ليفوني .

يمكننا أن نتصور كم كانت دهشة المنفي في أول يقظة له ، عندما شاهد امرأة على وسادته فظن أنه مازال مستمراً في أحلامه . لكن ليزبت التي تطرز بالزخارف الذهبية أحدى القطع تعهدت بحماية هذا المسكين الذي ابدت اعجاباً قوياً به وهو غاط في نومه . وعندها أفاق الكونت الفتي إفاقة كاملة أخذت ليزبت تشجعه وتطرح عليه الاسئلة لتعرف كيف تساعده حتى يكسب عيشه .

وبعدها روى ونسيسلاس قصته أضاف انه توصل إلى هذه المرتبة بفضل موهبته في الفنون ، لقد تنبه دائماً لمؤهلاته في النحت ، غير أن الوقت الضروري للتحصيل كان يبدو بعيد بالنسبة إلى انسان لا يملك مالاً بل ويشعر في هذه اللحظة بانحطاط يمنعه من استعادة نشاطه الحرفي أو مباشرة عمل النحت العظيم .

لقد أشكل على ليزبت فيشر فهم ما جاء في كلامه وأجابته بأن باريس تحوي كثيراً من الموارد بحيث أن أنساناً يتسلح بارادة شجاعة لابد أن يكسب فيها عيشه لم يحصل مطلقاً أن ذوي النيات الحسنة قد هلكوا وهم يخزنون بعضاً من رصيد الأناة

والأمل .

ـ أنا ، لست الا قروية فقيرة . مع ذلك توصلت إلى تكوين استقلالي ، أضافت وهي تنهي حديثها . اصغ الّي ، اذا اردت أن تعمل بجد فأني اعترف انني أدخر بعض المال ويمكنني أن أقرضك شهراً بعد شهر المال الضروري لسد حاجياتك وليس للعربدة أو التطواف من أجل شهواتك ! كلفة الغداء في باريس تبلغ خمسة وعشرين فلساً في اليوم ، وأنا احضر فطورك مع فطوري كل يوم صباحاً . سأجهز غرفتك بما تحتاجه من أثاث وسأتكفل بدفع تعويضات ما تراه ضرورياً لتعلّمك . ستسلمني مقابل ذلك أقراراً واضحاً بالمال الذي انفقه في سبيلك، وعندما تثري تعيده الّي ، لكن إذا لم تجتهد لتحسين وضعك فاني سأعتبر نفسي متحللة منك وسأتخلى عنك وعن التزاماتي نحوك .

ـ آه ! صاح هذا البائس الذي مازال يستطعم صراعه مع الموت . المنفيون من جميع البلدان لهم الحق في السعي إلى فرنسا كالنفوس التي تسعى لتمرمن المطهر إلى الجنة . إنها لأمة فريدة تجد فيها من يعينك ، وتلقى في أي مكان وحتى في هذه السقيفة نفوساً كريمة تحنو عليك ! ستكونين كل شيء لي ايتها المحسنة العزيزة وسأكون خادمك المطيع ! كوني صديقتي ، قالها مصحوبة بحركات مجاملة ولطف مألوفة عند البولونيين .

ـ أوه ! لا ، أنا غيورة جداً وستشقى بسببي ، لكن سأكون مسرورة لو كنت رفيقة لك مثلاً .

أجاب ونسيسلاس :

ـ اوه ! لو تعلمين بأي نهم كنت أنادي أي مخلوق كان ، حتى لو كان طاغية ، شرط ان يقبل بي ، وينقذني من فراغ باريس ! لقد اسفت على سيبيريا حيث سينفيني الامبراطور لو عدت . . . كوني عنايتي الأهية . . . سأجتهد واشتغل ، سأصبح أفضل مما توصلت إليه يوماً ، أنا لست فتىً عاطلاً .

ـ هل تفعل ما أقوله لك ؟

ـ بالتأكيد ! . . .

ـ حسناً ! سأتولى أمرك كولدٍ لي ، قالت والفرح يغمر قلبها . هاأنذا مع صبي ينهض من نعشه . فلنبدأ . سأنزل لتحضير ما يلزم وأنت ارتد ملابسك وانتظر مني طرقة على السقف من مسكة مكنستي فتأتي لنتناول الفطور .

١٨

حادثة جرت مع عنكبوت وجد في نسيجه ذبابة مغرية لكنها كبيرة عليه

في الغد ، توجهت الآنسة فيشر بشغلها إلى الصناع حيث حصلت على معلومات بشأن النحت . ولكثرة ما سألت ، نجحت في اكتشاف مشغل فلوران وشانور ، المحل الخاص حيث تجري عملية الصهر وصقل البرونز الثمين والفضيات النادرة والفخمة . اصطحبت إليه ستانبوك بصفة متدرب نحات ، غير أن هذا الاقتراح بدا غريباً أول الأمر . رأتهم ينفذون في هذا المشغل نماذج لمشاهير الفنانين دون اطلاع احد على عملية النحت .

توصلت الفتاة العانس ، بفضل مثابرتها وعنادها ، الى الحاق متبناها بالعمل كرسام مزين . تعلم ستانبوك بسرعة كيف يقولب أدوات التزيين وقد ابتكر الجديد منها ، ذلك بانه موهوب .

وبعدما أنهى في خمسة أشهر اتقان الحفر تعرف بستيدمن Stidmann الشهير ، النحات الابرز في مشغل فلوران .

في عشرين شهراً تفوق ونسيسلاس على معلمه ، لكن في ثلاثين شهراً تبددت الادخارات التي كدستها العانس قطعة قطعة خلال ست عشرة سنة . الفان وخمسمئة فرنك ذهباً مبلغ كانت معتمدة عليه لتوظفه في سندات دخل مدى الحياة والآن ما هو المقابل؟ سند سحب وقعه بولوني . لذلك اضطرت ليزبت إلى العمل كما كانت في صباها حتى تؤمن نفقات هذا الليڤوني .

وعندما رأت أنها تحمل ورقة بين يديها مقابل قطعها الذهبية جنت وأسرعت لتستشير السيد ريفا rivet ، مستشار وصديق أول وامهر عاملة منذ خمس عشرة سنة .

عند علمهم بما حدث انتهر السيد والسيدة ريفا ليزبت واتهماها بالجنون وشنعا باللاجئين الذين بسعيهم لاعادة بناء امتهم يهددون الأعمال ويعرضون السلام للخطر ، وحثاها على طلب ما يسمى تجارياً « ضمانات » .

الضمان الوحيد الذي يمكن أن يعرضه هذا المقدام هو حريته . قال السيد ريفا .

السيد أشيل ريفا شغل منصب قاضٍ في محكمة التجارة .

ـ ليس أمر الأجانب سهلاً بينما المواطن الفرنسي يمضي خمس سنوات في السجن ثم يخرج دون أن يدفع ديونه ولا يكون مكرها على شيء سوى بضميره الذي يقضّ عليه مضجعه ، فالاجنبي لا يخرج من السجن أبداً . اعطني سندك وحوّليه باسم ماسك دفاتري فيحتج به ويلاحقكما أنتما الاثنين وتحصل مواجهة

ثم حكم يقضي بالأكراه الجسدي وعندما يصير كل شيء حسب الأصول سيوقع لك سند الضد . وهكذا تسري الفوائد وتتسلحين بمسدس محشو ومسدد إلى رفيقك البولوني .

خضعت العانس للأصول وقالت للبولوني الا يتضايق من هذه الاجراءات التي تهدف إلى اعطاء الضمانات لمرابٍ حتى يقتنع بمدهما ببعض المال . هذا الاجراء يعود في اخراجه إلى عبقرية قاضي محكمة التجارة . ثم اشعل الفنان غليونه بورق مدموغ لأنه يدخن كالمصابين بالسويداء أو الذين يتمتعون بالقدرة على التنويم المغناطيسي .

في يوم مشوق اطلع السيد ريفا الآنسة فيشر على ملف وقال لها :

- سترين ونسيسلاس ستانبوك مكبل اليدين والرجلين بحيث يمكنك أن تزجيه في سجن كليشي للديون خلال اربع وعشرين ساعة ولما تبقى له من أيامه .

شعر قاضي محكمة التجارة في ذلك اليوم بارتياح عكسه يقينه بارتكابه أسوأ عمل جيد . أن يحصل عمل الخير في باريس فذلك يفترض أن في الأمر ظروفاً متعددة يندرج هذا العمل الفريد في أحدها .

كان المقصود من ارباك الليفوني في حبائل الأجراءات التجارية ، الوصول إلى أداء المتوجب ، لأن التاجر كان يعتبر ونسيسلاس ستانبوك نصاباً محتالاً . فطيبة القلب والنزاهة

والشاعرية ليست جميعها في نظره الا مصائب مرضية .

راح ريفا ، اهتماماً منه بمصلحة الآنسة فيشر التي ، خدعها ، في نظره ، احد البولونيين ، يسأل عن الصناع الأغنياء الذين تخرج من عندهم ستانبوك . كان ستيدمان الذي بلغ بالفن الفرنسي قمة الكمال والذي يعاونه أمهر فناني الصياغة الباريسية الذين اتينا على ذكرهم ، في حجرة شانور عندما قدم المطرز للحصول على معلومات بشأن اللاجىء البولوني المدعو ستانبوك .

- بماذا تلقب المدعو ستانبوك ؟ صاح ستيدمان بسخرية . هل تتلمذ على يد فتىً ليفوني ؟ اعلم ايها السيد انه فنان كبير . يقال إني اعتبر نفسي الشيطان ، مع ذلك فهذا الفتى المسكين لا يعلم أنه سيصير يوماً الهاً . . .

- آه ! رغم انك تتكلم برفع كلفة مع انسان له شرف تولي منصب قاضي محكمة السين . . .

- اعذرني ، ايها القنصل ! . . . استدرك ستيدمان وهو يضع مقلب يده على جبهته .

- أنا سعيد بما صرحت به . يعني أن هذا الفتى قادر على العمل وتوفير المال . . .

- اكيد ، قال شانور العجوز ، لكن يجب أن يعمل كثيراً . وكان جمع الكثير لو بقي عندنا .

ماذا تريد ؟ الفنانون يكرهون التبعية .

ـ يعون جيداً قدرهم وقيمتهم ، أجاب ستيدمان . لا ألوم ونسيسلاس أذ شق طريقه بمفرده وحاول أن يركز اسمه ويتدرج في سلم العلى ، إنه حقه ! مع ذلك فأني اعترف بأني خسرت الكثير عندما غادرني.

ـ هذا ما توقعته ! صاح ريفا ، هذه هي ادعاءات الشباب لدى خروجهم من البيضة الجامعيـة . . . المطلوب أن تبـدأوا بتوفير بعض المداخيل ثم تسعون إلى المجد !

ـ قـد تعـاني اليـد الأمـرين في جمـع الثـروات ! أجـاب ستيدمان . مجدنا هو المسؤول عن جمع الثروة .

ـ ليس باليد حيلة ! قال شانور محدثاً ريفا ، لا نستـطيع تربيطهم .

ـ سيقرضون الخناق اذا ! قال ستيدمان معلقاً .

ـ كل هؤلاء ، قال شانور موجهاً كلامه لستيدمان ، لهم من الأناقة اكثر مما لهم من المـوهبة . يبـذرون بسخاء ، حـولهم غاداتهم ، يرمون المال من الشبـابيك ، لا يجـدون متسعاً من الوقت للقيام بـاعمالهم ، وبـالتالي يهملون طلبـاتهم . العمال العاديون الذين لا يعدلونهم قدراً يثرون بينما هم يشتكون من شظف الأزمان ، لكنهم لـو سعوا حقيقـة لكدسـوا جبالاً من ذهب . .

قال ستيدمان :

ـ تذكرني ايها الأب العجوز لومينبون بذلك المكتبي من ايام

ما قبل الثورة . كان يقول : «آه ! لو كان في استطاعتي أن أحبس مونتسكيو وفولتير وروسو المعدمين في حجرة السلم واحتفظ بألبستهم الداخلية في «الكومود» حتى ينكبوا على تأليف الكتب التي توفر لي الثروة ! » . لو كان من السهل صنع أعمال رائعة كما نصنع المسامير لكان السماسرة صنعوها ... اعطيني الف فرنك ! صمت ! .

عاد ريفا الطبيب مرتاحاً إلى الآنسة فيشر التي تتناول غداءها عنده كل يوم اثنين حيث يستطيع أن يلتقيها .

ـ اذا تمكنت من إيجاد عمل له فستكونين سعيدة اكثر منك حكيمة لأنك ستستوفين الفوائد والمصاريف والرأسمال . هذا البولوني موهوب ويمكنه أن يكسب عيشه ؛ لكن عليك أن تحجزي على ثيابه وحذائه ، وتمنعيه من مزاولة الرقص في حي نوتردام دي لوريت ، إملي عليه إرادتك . لا تجبني ! .

دون هذه الاحتياطات ، سيتلكأ نحاتك هذا ، ولو تعلمين ماذا تعني كلمة «تلكأ» عند الفنانين ! أهوال ، لا أقل ! لقد علمت للتوّ أن مبلغ ألف فرنك لا يكفي لأكثر من يومٍ واحد .

هذا الحادث العارض كان له أثر مخيف على نفسية كل من ونسيسلاس وليزبت .

كان من أمر المحسنة بِث أن غمست لقمة عيش المنفي في مرارة شراب الابسنت الراشح عن عظاتها المستمرة واللاذعة ، وذلك حينما تيقنت من أن مالها قد سوي في صك تراضٍ بعدما

ساورتها شكوك بالخسارة المؤكدة . لقد انقلبت ليزبت من أم رضية إلى زوجة أب شرسة تقسو على ابنها المسكين فتربكه وتؤنبه لأنه لا يشتغل بالسرعة المطلوبة ولأنه وضع نفسه في موقف صعب . لم تكن تستطيع أن تصدق ان نماذج من الشمع الأحمر ، والشخوص ، ومشاريع التزيين ، والتجارب ، يمكن ان يكون لها ثمن . ثم ما لبثت ان غضبت من نفسها ومن فظاظتها وحاولت أن تمحو اخطاءها بأحاطته بالدراية اللازمة واللطافة الدمثة والعناية الرؤوف .

وبعدما شقي هذا الفتى المسكين لوجوده في تبعية امرأة متسلطة افتتن بملاطفاتها والحاحها الأموي الصادر فقط من المظهر ومن مادية الحياة . تصرف كأمرأة تعفو في اسبوع ، عن المعاملة السيئة بسبب مصالحة عابرة .

سيطرت الأنسة فيشر على نفس هذا الفتى سيطرة مطلقة .

ان حب التسلط الذي كمن في صدر العانس ظل نواةً حتى نما بسرعة . تمكنت من إرضاء كبريائها وحاجتها للعمل : الم تتفرد بمخلوق خاص بها تنتهره وتقوده وتثني عليه وتسعده دونما منافسة ؟ الجيد والرديء في طبعها يسيران جنباً إلى جنب في علاقاتها فإذا ما حصل مرة واشقت هذا الفنان المسكين فإنها في المقابل تلجأ إلى اسلوب اللطافة الشبيه بفرح زهور الحقول ؛ كانت تسر اذ تراه مكتفياً بمسكنه . لقد وهبته حياتها وستانبوك مطمئن الى ذلك وكمثل النفوس الكبيرة ، نسي هذا الفتى شر

هذه الفتاة التي كانت قد قصت عليه حياتها وكأنها بذلك تعطيه تبريراً لوحشيتها .
لم يذكر من أعمالها الا الخير .

ذات يوم غضبت العانس من ونسيسلاس الذي يتلكأ في عمله ، فرمته بسهام شراستها وقالت له :

ـ أنت في عهدتي . إن كنت حقاً رجلاً شهماً فعليك ابراء ذمتك نحوي بأسرع ما يمكن .
للحال التهب في داخله دم آل ستانبوك وشحب وجهه .
ـ يا ألهي ! بعد قليل لن يبقى لنا ما يكفينا للعيش سوى الثلاثين فرنكاً التي اكسبها ، انا الفتاة المعذبة .
تجابه المعدمان ، الغاضبان من هذه المبارزة الكلامية ، بشكل جدي . وللمرة الأولى لام الفنان المسكين محسنته لانتزاعها اياه من ذاك الموت ودفعه مكرهاً في حياة ولا أسوأ ، ثم تحدث عن الهرب .
الهرب ! ... صاحت العانس آه ! السيد ريفا كان على حق ! ثم شرحت باقتضاب للبولوني كيف تستطيع أن تودي به إلى السجن المؤبد في فترة لا تتجاوز الاربع والعشرين ساعة وقع ذلك في نفسه موقع الصاعقة . وراح ستنبوك بعدها في سوداوية داجية وصمت مطبق .
في اليوم التالي ، ليلاً ، واذ لاحظت عليه ليزبت مؤشرات انتحار ، صعدت عند مكفولها وقدمت له الملف . وابراءً من

الدين حسب الأصول .

ـ خذ ، يا ولدي ، سامحني ! قالت وعيناها مغرورقتان بالدموع . كن سعيداً ، غادرني ؛ لقد ازعجتك ما يكفي : لكن عدني بأنك ستتذكر احياناً الفتاة التي جعلتك تستطيع أن تعيش . ما بالأمر حيلة : انت سبب لكثير مما ارتكبت من أخطاء عن سوء نية : بأمكاني أن اضع حداً لحياتي لكن ، ماذا سيحل بك من دوني ؟ . . . هذا أحد مبررات الحاحي لرؤ يتك تصنع أشياء قابلة للعرض والبيع . أنا لا اطالبك بمالي . تصرّف كما يحلو لك . . انني اتخوف من خمولك الذي تعده احلاماً ونظرياتك التي تنفق في سبيلها ساعات كثيرة وانت تنظر إلى السماء . إني أرغب في أن أراك وقد حفزتك النخوة للعمل .

قبل ذلك بنبرات متقطعة ونظرةٍ حزينة ودموع ساخنة وموقف مخلص نفذت كلها إلى ذات هذا الفنان الشريف ، فأمسك محسنته وشدها الى صدره وقبلها في جبهتها . وقال لها بنوع من المرح :

ـ احتفظي بهذه القطع . لماذا تسجنينني في كليشي ؟ الست هنا حبيس عرفان الجميل ؟

أنتج ونسيسلاس في تلك الحقبة من حياتهما المشتركة والسرية والتي استمرت خلال الستة أشهر الماضية ، الختم الذي احتفظت به اورتونس ، والمجموعة المودعة عند بائع العتقيات ، وساعة دقاقة خرجت الآن من يديه بعدما فرغ من تثبيت آخر برفع في هذا النموذج .

تمثل هذه الساعة الساعات الأثنتي عشرة ، مرموزاً اليها بشكل بديع بوجوه نساء متحلقات في رقصة سريعة ومجنونة بحيث أن ثلاثة ازواج من المتحابين القابعين على كومة من الأزهار والأثمار ، لا تقدر ايقاف هذه الوجوه الا ما كان من أمر الوجه الرامز الى نصف الليل والذي تخرق دثاره واحتفظت برقعه يد الحب المتماسك . يتركز هذا العمل على قاعدة مستديرة ذات ابتكار مدهش حيث تحرك حيوانات غريبة الأطوار . فم ضخم متثائب يشير الى الرقم ، حيث أن كل واحد يرمز الى أحد الهموم اليومية المعتادة .

من السهل الآن ادراك تعلق الآنسة فيشر تعلقاً خارقاً بهذا الليفوني ؛ تطلب له السعادة وتراه يتهاوى ويذبل في سقيفته . يمكن تبين هذا الموقف المخيف . كانت اللورينيّة تحيط هذا القادم من الشمال بحنان الأم وغيرة المرأة وروحية المتوحشة مما دعاها الى اختلاق ما يدفعه الى تحاشي كل جنون وكل تهتك وذلك بحجبها المال- باستمرار . أرادت أن تحتفظ وحدها بضحيتها لكنها لا تعي فظاظة هذه الرغبة المهووسة لأنها اعتادت الحرمان منذ صغرها . كانت تحب ستانبوك الى درجة تبعدها عن التفكير في الزواج امنه ، وتحبه الى حد يستحيل عليها معه ان تتخلى عنه لأمرأة أخرى ؛ ما كانت تعرف ان لا تقنع الا بدور الأم وفي الوقت نفسه يجن جنونها عندما يخطر ببالها دور غير ذلك .

هذه التناقضات وهذه الغيرة الشرسة وهذه السعادة في

امتلاك رجل هزت كلها بعنف وفوضى قلب هذه الفتاة . كانت هذه العاشقة لأربع سنوات خلت تدغدغ احلامها في إدامة هذه الحياة التي لا جدوى منها ولا مخرج بحيث أن استمرارها يحتم فقدان من تدعوه ولدها .

إن الصراع بين عقلها وغرائزها أحالها إلى ظالمة جائرة. كانت تثأر من هذا الفتى لما ليس فيها من فتوة وثراء وجمال ؛ وفي كل ثأر ، وبعد أن تتحقق من اخطائها ، تعود لتبذل له وداعات وحناناً لا متناهيين . لا تقدم التضحية لمعبودها الا بعد أن تسطر جبروتها بضربات من بأسها . كانت هذه « عاصفة » شكسبير مقلوبة على وجهها الآخر ، « كاليبان » معلم « آريال » « ويروسبيرو » .

أما هذا الفتى التعيس بافكاره السامية ، هذا الحالم ، الخامل ، فكانت تتراءى في عينيه ، كما في عيون الأسود المسجونة في حديقة النباتات ، الصحراء التي بسطتها ومهدتها راعيته في أرجاء نفسه . فالعمل الشاق الذي تلح عليه به لم يرض حاجات قلبه . فضجره اصبح مرضاً جسدياً ، ينازع الحياة دون قدرة في السؤال ودون معرفة في كسب المال من جنون غالباً ما يكون ضرورياً .

في أيام المحنة ، حيث الشعور بحالته البائسة يضاعف من غيظه ، كان ينظر إلى ليزبت كالمسافر الظمآن الذي يجتاز ساحلاً قحلاً وينظر الى الماء الأجاج .

كانت ليزبت تطيب الثمار المرة لهذا الفقر المدقع وهذا الاعتزال في باريس فتستطاب كما تستطاب الملذات . كان يتهيأ لها وهي مرتعبة ، أن أي انفعال سيقضي على عبدها وينزعه منها . كانت أحياناً تؤنب نفسها وهي تضغط بقساوتها وتوبيخها على هذا الشاعر ليصير نحاتاً كبيراً يصنع الأشياء الصغيرة ويوفر لها الوسائل الضرورية لتتجاوز الحالة المرتهنة التي يتخبط فيها .

وهذه الوجودات الثلاثة ، على اختلاف شقائها الحقيقي جداً : وجود الام البائسة ، وعائلة مارنيف ، والمنفي المسكين ، ستجد نفسها في اليوم التالي وقد تأثرت كلها بالهوى الساذج الذي اصاب اورتنس وبالخاتمة الغريبة التي سيعثر عليها البارون لحبه البائس لجوزيفا .

١٩

كيف يتم الفراق في الدائرة الثالثة عشرة

كان مستشار الدولة يهم بدخول الاوبرا عندما استوقفه منظر معتم لهيكل شارع لوبلتيه Lepelletier حيث لم يشهد دركاً او اضواء أو عمال تنظيفات ولا حواجز لاحتواء الجماعات . نظر

الى لوحة الاعلانات ورأى شريطاً ابيض تلمع في وسطه هذه العبارة الجوهرية :

« انقطاع عن العمل لتوعك في الصحة » .

للحال اسرع الى جوزيفا التي تسكن في الجوار مثل كل الفنانين المتعاقدين مع الأوبرا شارع شوشا chauchat

ـ يا سيد ، ماذا تطلب ؟ سأله الحاجب اذا رأى الاستغراب يعلو محياه . فاجابه البارون بقلق :

ـ الم تعد تعرفني ؟

ـ بالعكس ، يا سيدي ؛ فلاني تعرفت على حضرتك اسألك : الى اين ؟ رجفة قاضية أقرست البارون .

ـ ماذا حصل ؟ تساءل البارون .

ـ اذا دخلت يا سيدي البارون الى شقة الآنسة ميراح فانك لواجد الأنسة هيلوييز بريزتو والسيد بيكسيو والسيد ليون لورا والسيد لوستو والسيد فورنيسي والسيد ستيدمان ونساء عابقات بعطر الباتشولي يحتفلن بالبيت الجديد . . .

ـ حسناً ! اين هي اذن ؟ . . .

ـ الآنسة ميراح ! . . . لا أعلم إن كنت أفعل خيراً إذا قلت لك .

عندها دس البارون قطعتي المئة فلس في يد الحاجب .

ـ حسناً ، إنها تسكن الآن في شارع الفيليفاك ، في فندق ،

يقال أن الدوق إيروفيل قد وهبا إياه-، أجاب الحاجب بصوت مخفوض .

وبعدما طلب رقم هذا الفندق استقلّ البارون عربة أوصلته أمام أحد البيوت الحديثة الرائعة بأبواب ذات مصاريع حيث تلقاك الفخامة بدءا من فانوس الغاز .

ظهر البارون بثيابه الزرقاء وربطة عنقه وصدرته البيضاويين وبنطلون من القماش النانسكيني وجزمة ملمّعة ، كمدعوٍّ متأخّر أمام عيني بواب جنة عدن الجديدة.هيبته ووقاره وطريقة مشيته ، كل شيء فيه يعزز هذا الرأي .

عندما رن الحاجب الجرس ظهر خادم في الواجهة .

سمح هذا الخادم ، الجديد كالفندق ، بدخول البارون الذي قال له بصوت مصحوب بحركة سلطوية :

ـ أحمل هذه البطاقة الى الآنسة جوزيفا . . .

أخذ البارون يتفحص الغرفة ورأى نفسه في قاعة الإنتظار المليئة بالأزهار النادرة، وأثاثها لا تقل كلفته عن أربعة آلاف قطعة من المئة فلس. وعندما رجع الخادم طلب من السيد الدخول الى الصالون بانتظار الإنتهاء من الأكل ليتناولوا القهوة ومع أن البارون عرف فخامة هذه الامبراطورية، التي تشكل بالتأكيد احدى المعجزات والتي كلفت إبتكاراتها الفنية مبالغ جنونية. بقي مسحوراً ومذهولاً في هذا الصالون الذي تطل شبابيكه الثلاثة على حديقة فائقة الروعة. انها احدى

الحدائق المصنوعة في مدة شهر حيث نقلت اليها الأتربة والزهور ، وبساط الحشيش كأنه حصيلة عمليات كيميائية .

كان يتأمل بأعجاب ليس فقط التحف الأثرية والمذهبات والمنحوتات الأغلى ثمناً في مجموعة الطراز المسمى بومبادور ، والأقمشة الرائعة ، بل ايضاً ما تتفتق عنه موهبة الأمراء والأمراء دون سواهم في الاختيار والقدرة على الدفع ثم الأهداء : لوحتان لكروز واتنتان لفاتو ورأسان لفان ديك ، ومنظران لروسدال ، وإثنان لكاسبر والكثير غيرها من التحف الفنية لأشهر الفنانين، وأخيراً مئتا الف فرنك من اللوحات المؤطرة بالبراويز التي يقدر ثمنها بسعر اللوحة .

ـ آه ! فهمت الآن ايها العزيز ؟ قالت جوزيفا التي قدمت على رؤوس اصابعها من باب أخرس ، على سجاد عجمي ، وأمسكت المعجب بها في احدى شطحاته المذهلة حيث كانت اذناه تطنان إلى حد لم يكن يسمع معه الا رنات الكارثة .

أن كلمة « العزيز » الموجهة الى هذه الشخصية ذات المركز الرفيع في الأدارة ، والتي تلخص جرأة هذه المخلوقات التي تذل الشخصيات مهما علا قدرها ، سمرت البارون في قدميه . كانت جوزيفا متأنقة جداً لهذا الاحتفال اذ كانت ترفل بثياب يجللها بياضها وصفارها حيث تألقها الزاهي يطغى في هذا الجو من الفخامة المجنونة كالجوهرة النادرة

ـ اليس هذا جميلاً وتابعت جوزيفا : لقد وضع الدوق هنا

كل أرباح شركة توصيته التي بيعت اسهمها بأسعار خيالية . ليس ساذجاً ، دوقي الصغير ! لا يقدر على تحويل الفحم الى ذهب الا كبار نبلاء الماضي . حمل الي الموظف المختص ، قبل العشاء سند التملك لتوقيعه ، وهو يحوي إبراء بالثمن . وبما ان الحاضرين هم كلهم من كبار السادة . كأسكرينيون وراستينياك وماكسيم ولونوتكسور وفورنوي ولاجنسكي وروشفير وبالفارين ومصرفيين كنيسانجن وتيامو انطونيو ، ومالاكا وكارابين وشونتز ، فانهم يرأفون بتعاستك . نعم ، يا عجوزي ، أنت مدعو لكن شرط أن تشرب في الحال مقدار قنينتي نبيذ مجري وشمبانيا «وكاب » حتى تصبح في مستواهم نحن جميعاً هنا ، يا عزيزي ، حاضرون حتى نلغي انقطاع العمل عن الأوبرا ، لكن مديري ثمل كالشياع (الة موسيقية) لا تصدر عنه الا أصوات النشاز : غاق ! غاق ! . . .

ـ أوه ! جوزيفا ! صاح البارون .

ـ كم هو ساذج الشرح ؛ أجابت وهي تبتسم . إصغ ، هل تساوي أنت الستمئة الف ـفرنك قيمة الفندق وما يحتويه من أثاث ؟ هل تستطيع أن توقع لي سنداً بثلاثين ألف فرنك قدمها لي الدوق في بوق من ورق ابيض ؟ انها لفكرة رائعة !

ـ أي فسق هذا ! قال مستشار الدولة الذي ما كان في مثل هذه الساعة من الغضب قد تورع بين مقايضة ماسات زوجته ليحتل مكان الدوق ايروفيل اربع وعشرين ساعة .

ـ انها حالتي ، في أن اكون فاسقة ! قالت معقبة على كلامه . آه ! كيف تنظر الى الأشياء ! لماذا لم تنشىء شركة توصية ؟

يا الهي ! يا هري المسكين ، عليك أن تقدم لي الشكر لأنني تخليت عنك في الوقت الذي تستطيع معه ان تلتهم معي مستقبل زوجتك ومهر ابنتك و . . . آه ! إنك تبكي . الامبراطورية تذهب ! . . . ساحيي الامبراطورية !

ثم جلست بشكل مأساوي وقالت :

ـ يدعونك هيلو ! أما انا فلم أعداعرفك ! . . ودخلت .

سمح الباب المشقوق قليلاً لدفق من اشعة النور بالمرور مصحوباً ببريق صوت تصعيدي معربد محمل بروائح مائدة من الطراز الرائع .

أطلت المغنية الممتهنة من الباب لترى هيلو مغروساً على قدميه وكأنه تمثال من البرونز . تراجعت خطوة ثم ظهرت وخاطبته قائلة :

ـ لقد تركت خرق شارع شوشا لهيلوييز بريزتو بيكسيو الصغيرة واذا أردت أن تسترجع قبعتك القطنية او ساحبة جرموقك أو حزامك فاني اشترطت عليها بأن تعيدها لك .

هذه السخرية المرعبة كان من تأثيرها ان جعلت البارون يخرج كما لا بد خرج لوط من عموره ، لكن دون أن يلتفت وراءه ، كما فعلت السيدة .

٢٠

تخسر واحدة ، تلقى واحدة

عاد هيلو الى بيته غاضباً وهو يتحدث مع نفسه فوجد العائلة تلعب بهدوء لعبة الويست ، التي شهد بدايتها . وقد حددوا الفيش الواحدة بفلسين .

عندما رأت المسكينة أدلين زوجها لاحظت ان في الجو مصيبة مخيفة ، أو مذلة مهينة فناولت اورتنس اوراقها وقادت هكتور الى الصالون الصغير حيث كان كروفيل ، قبل خمس ساعات ، يتنبأ بالمصير اليائس .

ـ ما بك ؟ قالت وهي ترتجف

ـ أوه ! سامحيني ؛ لكن اسمحي لي بأن اطلعك على هذه الفضائح . ثم زفر غضبه لمدة عشر دقائق أجابته بعدها امرأته الشجاعة قائلة :

ـ لكن ، يا صديقي ، مثل هذه المخلوقات لا تتحسس الحب ! هذا الحب الطاهر والمخلص الذي تستحقه ؛ كيف يمكنك ، أنت الانسان النافذ البصيرة ، أن تدعي منافسة مليون ؟

ـ عزيزتي ادلين ! صاح البارون وهو يجذب اليه زوجته ويشدها الى صدره . بعملها هذا كانت البارونة تصب بلسمًا على جراح انانيته الدامية .

ـ بالتأكيد ، جردي الدوق هيروفيل من ثروته ، فلا تتردد هي بعدها في الاختيار !

ـ يا صديقي ، أردفت ادلين تقول ، باذلة الجهد الأخير ، اذا كنت مضطراً لاتخاذ خليلة ما ، لماذا لا تقتدي بكروفيل الذي يختار النساء اللواتي لا يتطلبن كثيراً ، ومن طبقة تجد سعادة مديدة في ما يقدم اليها ولو كان قليلاً . بذلك نكون جميعاً رابحين . تأكد اني ادرك الحاجة ، لكن لا أفهم شيئاً في الغرور .

ـ أوه ! انك لزوجة طيبة ورائعة . اني عجوز احمق ، لا استحق ملاكاً مثلك كرفيق لي .

ـ اني ببساطة ، جوزفين نابوليوني انا أجابت ومسحة من الحزن العميق تصبغ هامتها . .

ـ لا ! ان جوزفين لا توازيك قيمة ، تعالي ، أريد أن العب الويست مع أخي وأولادي ، يجب أن أعود الى دوري كرب عائلة ، وأزوج ابنتي اورتنس وأطمر الى الابد الفساد والفسق . . .

هذه الطيبة مست بقوة شعور أدلين وقالت :

ـ هذه المخلوقة لها من الذوق الرديء ما يجعلها تنتقي اياً

كان وتفضله عليك .

آه ! لن اتخلى عنك في مقابل ذهب الأرض كله . كيف يمكن صرف النظر عنك والسعادة كل السعادة أن تكون أنت المحبوب ! . . .

النظرة التي كافأ بها البارون تعصب زوجته له ، تبنتها في الرأي القائل إن الدعة والطاعة هما السلاح الأقوى للمرأة غير انها خدعت في ذلك . ان المشاعر النبيلة اذا ما دفعت الى المطلق تؤدي الى نتائج شبيهة بالتي تؤدي اليها المفاسد الكبيرة . هذا بونابرت صار امبراطوراً لأنه اطلق الرصاص على الشعب على بعد خطوتين من المكان حيث فقد لويس السادس عشر رأسه وعرشه لأنه لم يسمح بهدر دم شخص يدعى « مسيو سوس » .

في اليوم التالي ارتدت اورتنس ، التي اودعت الختم تحت مخدتها حتى لا ينفصل عنها خلال رقادها ، الثياب باكراً ، ورجت أباها حتى يصحبها في الحديقة عندما ينهض من نومه .

عند التاسعة والنصف ، تنازل الأب ولبى رغبة ابنته وقدم لها ذراعه فتأبطته وسارا معاً على طول الأرصفة عبر جسر « الرويال » الى ساحة « كاروزيل » .

ـ فلنتظاهر اننا نتنزه ، يا ابي ، قالت اورتنس وهما يمران عبر كشك لاجتياز هذه الساحة الضخمة . .

ـ نتنزه هنا ؟ . . سأل الأب ساخراً .

ـ من المفروض فينا زيارة المتحف ، وهناك ، قالت وهي

تشير الى التخشيبات المسندة الى جدران البيوت المنتصبة في زاوية قائمة على شارع دواينه . هاك باعة العتقيات ، واللوحات . . . .

ـ ابنة عمك تسكن هناك . . .

ـ أعرف ذلك جيداً ؛ لكن يجب ان لا تعلم بوجودنا . . .

ـ وماذا تريدين أن تفعلي؟ قال البارون وهو على ثلاثين خطوة تقريباً من نوافذ السيدة مارنيف التي فجأة، راح يفكر فيها .

قادت اورتنس والدها امام واجهة محل في زاوية مجموعة من البيوت التي تمتد على طول معارض اللوفر القديم تجاه فندق « نانت » . دخلت الى هذا المحل تاركة أباها منشغلاً في النظر الى نوافذ السيدة الصغيرة الجميلة التي طبعت البارحة رسمها في قلبه وكأنها كانت تقصد تضميد الجرح الذي سيتلقاه . ولم يستطع الا ان يضع نصيحة زوجته موضع التنفيذ .

وقال في نفسه :

ـ فلنلاحق البورجوازيات الصغيرات . هذه المرأة الصغيرة ستنسيني بسرعة تلك الجوزيفا النهمة . هاكم ما حصل مزامنة في المحل وخارجه .

لاحظ البارون ، وهو يتفحص شبابيك جميلته الجديدة ، الزوج الذي ينظف رداءه بالفرشاة ويترصد التحركات وكأنه ينتظر شخصاً ما في الساحة .

خوفاً من أن يرى، ويعرف فيما بعد ، أدار البارون

العاشق ظهره الى شارع دواينه ، متخذاً وضعاً معيناً يعينه في القاء نظرة من وقت الى آخر . كان من شأن هذه الحركة ان وضعتهوجهاً لوجه مع السيدة مارنيف القادمة من ضفاف النهر لتعود الى مسكنها .

شعرت فاليري برعشة اذ تلقت نظرة ذهول من البارون بادلت اياها بغمزة حذرة .

ـ امرأة فاتنة ! صاح البارون . لأجلها ترتكب الحماقات .

ـ إيه ! يا سيد ، أجابت وهي تستدير كامرأة اتخذت قراراً عنيفاً ، انت السيد البارون هيلو ، اليس كذلك ؟ .

زادت دهشة البارون اكثر فأكثر وقام بحركة تأكيدية .

ـ حسناً ! وبما أن الصدفة زاوجت لمرتين نظراتنا واذ لي شرف تمتعي بسعادة إثارة اهتمامك فاني أقول لك : عوض ان ترتكب الحماقات من الافضل ان تعمل العدل . إن مصير زوجي مرهون بك .

ـ وكيف ذلك ؟ سأل البارون برقة متناهية .

أجابت وهي تبتسم :

ـ إنه موظف في أدارتك ، في الحربية ، قسم السيد لوبران ، مكتب السيد كوكي .

ـ أشعر أني مستعد يا سيدة . . . سيدة . . . ؟

ـ سيدة مارنيف .

ـ يا سيدة مارنيف لتجاوز العدل اكراماً لعينيك

الجميلتين . . . لي في المبنى الذي تسكنين فيه ابنة عمٍ أتوقع زيارتها في يوم قريب ، تعالي واعرضي لي طلبك .

ـ أعذر لي جرأتي ، يا سيدي البارون ، ولكن ستدرك بأي حال تجاسرت وتحركت هكذا ؛ اني دون حماية .

ـ آه ! آه !

ـ أوه ! يا سيدي ، انك تسيء الظن ، قالت وهي تخفض نظرها احس البارون كأن الشمس احتجبت .

ـ إنني في يأس ، لكنني امرأة شريفة . فقدت منذ ستة أشهر ملجأي الوحيد ، المارشال مونتكورني .

ـ آه ! أنت ابنته .

ـ نعم ، يا سيدي ، لكنه لم يعترف بي اطلاقاً .

ـ حتى يتمكن من أن يترك لك قسمًا من ثروته .

ـ لم يترك لي شيئاً ، يا سيدي ، لأننا لم نعثر على أية وصية .

ـ أوه ! يا صغيرتي المسكينة ، لقد فوجىء المارشال بانفجار الدماغ . . .

لا عليك ، ثقي بي ، يا سيدتي ، نحن مدينون بشيء لأبنة احد فرسان الأمبراطورية . حيت السيدة مارنيف البارون بلطف مفتخرة بنجاحها كما افتخر هو بنجاحه .

ـ ترى ، من أين هي قادمة في هذا الصباح المبكر ؟ تساءل

وهو يفكر في حركة فستانها المتماوجة التي طبعت فيها لطفاً مبالغاً فيه . من الحمام ؟ لا اظن ، فوجهها بادي التعب والذبول . وزوجها في انتظارها . انه لأمر لا يفسر ، مما يدعو الى التفكير .

٢١

رواية الفتاة

بعدما دخلت السيدة مارنيف الى بيتها عاد البارون الى المحل ليطلع على ما تفعله ابنته . ولما كان يتطلع باستمرار الى نوافذ السيدة مارنيف وهو يسير اصطدم بفتىً ذي جبهة شاحبة وعينين براقتين يرتدي سترة الصيفية من قماش المارينوس الأسود وبنطلوناً من النسيج المحيك وينتعل حذاء ، لفافته من الجلد الأصفر . ثم رآه يعدو في اتجاه منزل السيدة مارنيف حيث دخل .

لاحظت اورتنس بسرعة وهي تتمشى في المحل ، المجموعة الشهيرة المعروضة للعيان على طاولة مركزة في وسط بهو الباب .

ولولا الظروف التي اكتنفت معرفتها بهذه الرائعة ، لكانت صعقت حقاً وأظهرت من الحماسة ما تثيره الأعمال العظيمة .

لا تحمل أعمال العباقرة العظيمة ، الرتبة ذاتها من التألق ،

والروعة البادية لكل العيون حتى للجاهلة منها .

وهكذا فأن بعض لوحات رافايل كلوحة « التجلي » الشهيرة وعذراء فولينيو وصدرانيات ستانز في الفاتيكان لا تثير الأعجاب فجأة مثل « عازف الكمان » في معرض سيارا ، او رسوم دوني « ورؤيا حزقيال » في معرض بيتي أو « حمل الصليب » في مقصورة بوركيز أو « زواج العذراء » في متحف بريرا في ميلانو ، ليس للقديس « يوحنا المعمداني وهو يخطب » أو للقديس « لوقا يسرح شعر العذراء » في اكاديمية روما ، السحر الذي لرسم ليون العاشر ولعذراء دريسد . مع ذلك فأن للكل القيمة ذاتها . وهناك اكثر من ذلك ! « الستانزيان » ، « والتجلي » والتدرجية في الألوان ولوحات الفاتيكان الثلاث تندرج في درجة متدنية من الروعة والكمال . لكن هذه الأعمال الرائعة تطلب من المتفرج المدقق الأكثر ثقافة نوعاً من التوتر ، ودراسة معمقة لفهم كل دقائقها ؛ بينما « عازف الكمان » « وزواج العذراء » « ورؤيا حزقيال » تنفذ الى القلب دون استئذان ومن باب العينين الواسع وتتخذ فيها مستقراً ؛ انك تحب استقبالها بلا عناء ، وإن لم تكن قمة في الفن فهي قمة في إدخال السعادة الى القلوب .

يكشف هذا الواقع ان عالم الآثار الفنية هو ايضاً ، شأنه شأن عالم العائلات ، مسرح لمصادفات الولادة . فهنا وهناك أولاد موهوبون ، يولدون جميلين ولا يؤذون امهاتهم ، يبسم لهم كل شيء ويلقون النجاح في كل شيء . وأخيراً فأزهار العبقرية

لا تقل شبهاً عن أزهار الحب .

الالمعية هي طابع الأعمال الأولى . إنها ثمرة نزق حية جريئة في موهبة فتىً ، هذا النزق يتجلى في ما بعد في ساعات الفرح ؛ لكن الالمعية لا تخرج حينئذ من قلب الفنان ؛ فبدلاً من أن ينفثها في أعماله كبركان يقذف بحممه ، ترتد اليه وتصير مرهونة بالصدف والحب والخصومة وغالباً الغضب واكثر من ذلك كله لتوجيهات المجد الذي يعمل الفنان للأحتفاظ به .

كانت مجموعة ونسيسلاس هذه بالنسبة الى ما بعدها من أعمال كحال « زواج العذراء » بالنسبة لمجموعة أعمال رافايل ، كما كانت الخطوة الأولى لموهبته في أناقة لا تجارى ، مع مرح الطفولة وتمامه المحبب ، ومع قوته الكامنة تحت عضلاته الوردية والبيضاء المنقطة بغمازات تتجاوب بسرعة الصدى مع ابتسامات الأم .

يقال ان الأمير اوجين قد استعد لدفع اربعمئة الف فرنك ثمناً لهذه اللوحة التي تقدر بمليون في بلد محروم من فن رافايل . وهذا المبلغ لا يفرض حتى في مقابل أجمل الجدرانيات التي قيمتها الفنية تفوق بكثير هذه القيمة .

تمالكت اورتنس اعجابها وهي تفكر في مبلغ ادخاراتها ، ثم سألت البائع بخفة ودون مبالاة :

ـ كم ثمن هذا ؟

ـ ألف وخمسمئة فرنك ، أجاب البائع وهو يغمز الفتى

الجالس في زاوية على كرسي صغير .

ذهل هذا الفتى لدى رؤيته رائعة البارون هيلو النابضة بالحياة .

عندئذ تعرفت اورتنس على الفنان من الأحرار الذي يتماوج على وجهه المتقع بسبب ما يعانيه من الألم . ورأت في عينيه الرماديتين شرارة فجرها سؤالها ثم نظرت الى وجهه الهزيل والمشدود كوجه راهب غارق في الزهد . لقد فتنها هذا الفم المتورد ، المتقن رسمه ، وهذه الذقن الدقيقة ، والشعر الكستنائي ذو الخيوط الحريرية السلافية .

- إذا رضيت بألف ومئتي فرنك فسأطلب منك أن ترسله الي .

- إنه قديم يا آنسة ، تدخل البائع الذي ظن ، شأنه شأن كل زملائه ، أنه قال ذروة ما يجب قوله في محل العتقيات .

أجابت اورتنس بلطف :

- أعذرني يا سيدي ، انه من صنع هذه السنة وقد جئت بالضبط لأطلب منك ، اذا اتفقنا على السعر ، ان ترسل لنا الفنان لأننا قد نؤمن له طلبات ذات أهمية .

- اذا قبض الألف ومئتي فرنك فماذا يكون نصيبي ، أنا البائع ؟ قال الحانوتي بسذاجة .

- آه ! صحيح ، عقبت على كلامه وقد تسرب من وجهها تعبير ينم عن احتقار .

ـ خذيه ! سأسوي حسابي مع البائع ، صاح الليفوني دون وعي منه :

ثم أضاف وهو مأخوذ بسحر جمال اورتنس وبما ظهر فيها من حب للفنون :

ـ إني صانع هذه المجموعة وأتردد منذ عشرة أيام ثلاث مرات في اليوم ، لأرى ما إذا كان احدهم يكتشف قيمتها ويبتاعها . انك اولى معجباتي ، خذيها ! .

ـ تعال يا سيدي أنت والبائع فالبيت ليس ببعيد ... هذا كارت والدي .

واذ رأت البائع يدخل الى غرفة ليغلف المجموعة بالقماش ، أضافت بصوت مخفوض والدهشة تغمر الفنان التائه في حلم :

ـ لمصلحة مستقبلك يا سيد ونسيسلاس لا تطلع أحداً على هذا الكارت ولا تعلن اسم المشتري الى الآنسة فيشر ، إنها ابنة عمنا .

كلمة « ابنة عمنا » هذه أثارت في الفنان انبهاراً رأى من خلاله الجنة واحدى بنات حواء النازلات من علٍ .

كان يحلم بابنة العم الفاتنة التي كلمته عليها ليزبت بالقدر الذي تحلم فيها اورتنس بعاشق ابنة عمها . وعندما دخلت تأوه

قائلاً في قرارته : « لو تكون كذلك ! » من هنا نفهم نظرات العاشقين المتبادلة . لقد كانت لهيباً . ذلك بأن العشاق الفاضلين لا ينطوون على اي خبث .

٢٢

أتركوا للفتيات حرية التصرف

سأل الأب ابنته :

ـ بحق الشيطان ماذا تفعلين هناك ؟

ـ أنفقت نقودي البالغة الفاً ومئتي فرنك ، تعال .

ثم تناولت ذراع ابيها الذي ردد :

ـ الف ومئتا فرنك ! .

ـ وحتى الف وثلاثمئة . . . لكنك ستقرضني الغرف اليس كذلك ؟

ـ وعلى ماذا . . . وفي هذه الدكانة . . . انفقت هذا المبلغ ؟

فاجابت الفتاة السعيدة :

ـ وعلى ماذا ؟ اذا كنت قد وجدت عـريساً ، فليس المبلغ بالشيء الكثير .

ـ يا بنيتي ، زوج في هذه الدكانة ؟ .

ـ اسمع يا ابي، هل تمنعني من الزواج بفنان عظيم ؟

ـ لا يا ابنتي ؟ الفنان العظيم اليوم ، هو أمير بلا لقب . انه المجد والثروة أرفع حسنتي المجتمع ، بعد الفضيلة .

اجابت اورتنس :

ـ مفهوم وما رأيك في النحت ؟

ـ فرع رديء ، قال هيلو وهو يهز رأسه . يلزمه رعاية ضخمة بالأضافة الى موهبة عالية ؛ لأن الدولة هي المشتري الوحيد . إنه فن بلا منفذ ، لا يبني المقامات الرفيعة ولا يجمع الثروات الطائلة ولا يعمر القصور أو يحصل على إقطاعيات . لا يمكننا أن نأوي الا اللوحات الصغيرة ، والوجوه الأصغر ، لذا صار الفن مهدداً بالتصغير .

ـ لكنه فنان عظيم لا يتوانى عن ايجاد المخارج . . . تابعت أورتنس .

ـ هذا هو حل المشكل .

ـ وسيكون مدعواً !

ـ وأيضاً، افضل !

ـ وهو نبيل !

ـ ياه ! . . .

ـ كونت !

ـ وينحت !

ـ لا يملك ثروة .

ـ ويعتمد على ثروة الآنسة اورتنس هيلو؟ قال البارون هازئاً ومصّوباً الى عيني ابنته نظرة محقق .

اجابت اورتنس أباها بلهجة هادئة :

ـ هذا الفنان العظيم ، كونت وينحت، وقد رأى للتوّ ابنتك للمرة الأولى في حياته يا سيدي البارون . أمس ، ربما لاحظت وانت في غرفتك كيف أغمي على امي . هذا الاغماء ، الذي حل بها على حساب إعصابها ، مصدره بعض الحزن المتأتي من زواجي الذي لم يحصل ، فقد ذكرت لي انك ، لكي تتخلص مني . . .

ـ إنها تحبك كثيراً الى حد يمنعها من استعمال عبارة . . .

ـ قليلة البرلمانية ، تابعت اورتنس وهي تضحك ؛ لا لم تلجأ الى تلك العبارة ، لكنني اعرف ان فتاة في سن الزواج ولم تتزوج تشكل عبئاً ثقيلاً على اكتاف الأهل الشرفاء . إنه لو تقدم لي شاب مقتدر يكتفي بمهر من ثلاثين الف فرنك نكون جميعاً سعداء ! وأخيراً رأت أنه من المناسب أن اتهيأ للحشمة في قدري الآتي وأتجنب الفوضى في الاحلام . . . مما يعني توقف زواجي وانعدام المهر .

ومع أن الأب أحس ولو قليلاً بسعادة هذا البوح فإنه اجابها بمذلة تنخر أعماقه :

ـ أمك امرأة ممتازة ونبيلة وصالحة جدا .

ـ قالت لي امي انك اجزت لها بيع ماساتها من أجل

تزويجي ، لكن ما اريده هو ان تحتفظ بماساتها واعثر بدوري على زوج . وأني موقنة أني وجدت هذا المزعوم الذي يتناسب مع مخطط والدتي . . .

ـ هناك ! . . . في ساحة كاروزيل ! . . . في صبيحة واحدة .

ـ اوه ! يا ابي ، الشر يأتي من ابعد ، أجابت بخبث .

فقال متوسلاً بغنج ساترا قلقه :

ـ اصغي يا بنيتي فلنصارح أبانا الطيب كل شيء ولقاء وعد منه بسرية مطلقة ، اوجزت اورتنس لأبيها أحاديثها مع ابنة العم بت . وعند رجوعهما اطلعته على الختم الشهير كبينة على بصيرة حدسها أعجب الأب ، في أعماق دواخله ، ببراءة الفتيات اللواتي تحركهن الغريزة ، معترفاً ببساطة التصميم الذي اوحاه هذا الحب المثالي ، لهذه الفتاة البريئة ، في ليلة واحدة .

ـ ستطلع على التحفة التي اشتريتها . سيحملونها الينا ، والعزيز ونسيسلاس سيصحب البائع . . . يفترض بصانع هذه المجموعة أن يجمع ثروة ؛ لكن إحصل له ، بنفوذك ، على مشروع صنع تمثال ، ثم على مسكن في المعهد . . .

ـ ما اشد حماستك ! لكن اذا ترك لك التصرف ، فانك تتزوجين في المهل القانونية ، اي في أحد عشر يوماً . . .

فاجابت وهي تضحك :

ـ وهل انتظر أحد عشر يوماً ؟ عشقته في خمس دقائق كما

عشقت انت امي من النظرة الأولى ! وهو يحبني كأننا تعارفنا منذ سنين . نعم ، لقد قرأت عشرة مجلدات حب في عينيه ، وأنت وامي ستوافقانني عليه كزوج عندما تتعرفان عليه كعبقري ! النحت هو أول الفنون ! صاحت وهي تصفق بيديها وتقفز اصغ ! سأصارحك بكل شيء .

ـ هناك بعد أشياء أخرى ؟ . . . سألها الأب وهو يضحك .

هذه البراءة الكاملة والثرثارة جعلت البارون يركن اليها مطمئناً

ـ اعتراف لا أهمية كبيرة له . أحببته دون معرفة به ، لكنني جننت من تلك الساعة التي رأيته فيها .

ـ جنون زائد قليلاً ، اجاب البارون الذي غمره فرح مشهد هذا الانفعال الساذج .

ـ لا تعاقبني على ثقتي . إنه لجميل أن نصرخ في قلب الأب : « أحب ، واني سعيدة بالحب ! » . سترى ونسيسلاس ! أي جبهة ممسوحة بالحزن ! . . . عينان رماديتان تلمع فيهما شمس العبقرية ! . . . وكم هو متميز ! ما رأيك ؟ هل ليفوني بلاد جميلة ؟ . . . وهل ابنة العم بِث تقدم على الزواج من هذا الفتى وهي في سن أمي ؟ . . . إن هذا لجريمة ! كم أنا غيورة مما لاشك انه فعلته من أجله ! أتصور انها لن تكون سعيدة لزواجي .

ـ يا ملاكي ، يجب الا نخفي شيئاً عن امك .

ـ يجب اطلاعها على هذا الختم مع أني قطعت وعداً بالا اخون ابنة العم التي تخشى دعابات أمي .

ـ تظهرين عناية بالختم بينما تسلبين ابنة العم بثّ عشيقها .

ـ وعدي كان منصباً على الختم وليس على الصانع .

هذه الحادثة ، بكل ما فيها من بساطة في التعامل الابوي ، تنسجم مع موقف العائلة المغلق بالأسرار . واذا محض البارون ابنته ثقته ، قال لها انها منذ اليوم يجب ان تركن الى حكمة ابويها وحذرهما .

ـ تعلمين يا بنيتي انه ليس من اختصاصك انت ألتأكد من ان عاشق ابنة عمك يحمل لقب « كونت » ومعه الأوراق المطلوبة ، وسلوكه يوفر الضمانات . . . أما ابنة عمك فقد ابعدت خمسة طلاب لها حين كانت أصغر بعشرين سنة من الآن ، فلا أظن أنها ستكون عثرة وسأتكفل بذلك .

ـ استمع لي يا ابي . اذا كنت تحب أن تراني متزوجة فلا تحدث ابنة عمي عن حبنا الا في اللحظة التي يتم توقيع عقد زواجنا . . . فمنذ ستة أشهر وأنا أسألها عن هذا الموضوع ! . . . وما لاحظته أن فيها ما يصعب تفسيره . . .

ـ ماذا ؟ قال الأب الذي انشغل باله .

فاجابت اورتنس مبتسمة :

ـ لم تكن تعجبني نظراتها ، عندما كنت اغور في الحديث عن معشوقها ، قم أنت تحرٌ معلوماتك وخلني أقود قاربي . ثقتك بي يجب أن تطمئنك .

ـ قال السيد : « دعوا الأطفال يأتون الي ! » . وأنت من الذين يأتون ، أجاب البارون بمسحة من السخرية خفيفة .

٢٣

لقاء

بعد الغداء أعلن قدوم التاجر والفنان والمجموعة . غير أن الاحمرار الذي علا سريعاً وجه ابنتها هز لأول وهلة البارونة التي سرعان ما تنبهت لارتباك اورتنس ونظراتها الملتمعة التي كشفت لها السر الذي يكاد يكتمه هذا القلب الفتي .

بدا الكونت ستانبوك . المطقم بالأسود ، للبارون فتى مميزاً جداً .

ـ هل تصنع تمثالاً من البرونز ؟ سأله وهو ممسك بالمجموعة .

وبعدما أبدى اعجابه باتقان صنعها ، ناول البارون البرونز الى زوجته التي لا تعرف شيئاً عن الحفر أو النحت .

ـ اليس ذلك جميلاً يا أمي ؟ همست اورتنس في أذن امها .

ـ تمثال ! . . . يا سيدي البارون ، ليس ذلك صعباً بالقدر الذي يتطلبه إحكام صنع رقاص كهذا .

كان التاجر منهمكاً في وضع نموذج الشمع للساعات الأثنتي عشرة التي يحاول الحب ايقافها ، على خزانة غرفة الطعام .

قال البارون مأخوذاً بجمال هذا العمل : ـ أترك لي هذا الرقاص ، أريد أن أطلع وزيري الداخلية والتجارة عليه

وسألت البارونة ابنتها : من يكون هذا الفتى الذي تهتمين به كثيراً :

ـ أن فناناً له من الثراء ما يكفي لاستغلال هذا النموذج ، يمكنه أن يجني مئة الف فرنك ، قال تاجر العتقيات بجدية عندما رأى عناق نظرات الفتاة والفنان . يكفي بيع عشرين نسخة بثمانية الاف الواحدة . لأن كل نسخة تكلف الف ريال لصنعها ؛ ولكن اذا رقمت كل نسخة واتلف النموذج فسيجد بسهولة عشرين هاوياً فخورين كونهم الوحيدين الذين يقتنون هذا العمل العظيم .

ـ مئة الف فرنك ! صاح استنبوك وهو ينقل نظره مداورة من التاجر الى اورتنس الى البارون ثم البارونة .

ـ نعم ، مئة الف فرنك ! كرر التاجر ، ولو كنت مليئاً ، لكنت اشتريته بعشرين الف فرنك ؛ لأنه اذا تلف النموذج فيعني ذلك أن الملكية تعود لمن يحوز نسخة عنه . . . لكن أتصور

أن أحد الأمراء سيقدم على دفع ثلاثين أو اربعين الف فرنك مقابل هذه الرائعة ليزين بها داره . لم يحصل في تاريخ الفن من أبدع رقاصاً يأتلف في الوقت ذاته مع ذوق البورجوازيين والعارفين ، وهنا يكمن حل هذه الصعوبة يا سيدي . . .

ـ هذه لك سيدي ، قالت اورتنس وهي تعطي ست قطع ذهباً للتاجر الذي انسحب

ـ لا تحدث احداً عن هذه الزيارة ، قال الفنان للتاجر على عتبة الباب . فاذا سئلت الى اين حملنا المجموعة ، فسم لهم الدوق هيروفيل ، الهاوي الشهير الذي يقطن في شارع « فارين » .

هز التاجر برأسه مستجيباً .

سأل البارون الفنان عندما عاد :

ـ ما اسمك ؟

ـ الكونت ستانبوك .

ـ هل تحمل اوراقاً ثبوتية تعرّف عنك ؟ . . .

ـ نعم يا سيدي البارون ، انها باللغة الروسية والألمانية لكنها غير مصدقة . . .

ـ هل تشعر بالقدرة على صنع تمثال من تسع أرجل ؟

ـ نعم يا سيدي .

ـ حسناً ! اذا رضي الأشخاص الذين ساستشيرهم ، عن اعمالك فقد احصل لك على مشروع تمثال للماريشال مونتكورني

الذي سيقام على قبره في «لاشيز» أن وزارة الحربية والضباط القدامى في الحرس الامبراطوري يعرضون مبلغاً ضخماً، ومن حقنا اختيار الفنان .

- اوه ! يا سيدي ، انها الثروة ! . . . قال ستانبوك الذي ظل مذهولاً لكثرة ما ناله من نشوة وسعادة دفعة واحدة .

- اطمئن ، اجاب البارون بلطف ، اذا ابدت الوزارتان اللتان سأعرض عليهما مجموعتك وهذا النموذج ، اعجاباً بأعمالك ، فتأكد ان الثروة تسير في طريقها القويم . . .

ضغطت اورتنس على ذراع ابيها حتى آلمته .

- احضر لي اوراقك ، ولا تقل شيئاً لأحد عن مشاريعك ، ولا حتى لأبنة عمنا بِث .

- ليزبت ؟ صاحت السيدة هيلو وقد أدركت النتيجة دون الوسائل .

- يمكنني أن اظهر لك معرفتي بصنع تمثال نصفي للسيدة . . . أضاف ونسيسلاس . وإذ صعق بجمال السيدة هيلو أخذ الفنان يوازن بين الأم وابنتها .

- لا عليك يا سيدي فالحياة بدأت تبسم لك ، قال البارون المأخوذ كلياً بمظهر الكونت ستانبوك المميز . وانك ستعلم بعد حين ان كل عمل ثابت لابد أن يحظى بمكافأة .

ناولت اورتنس المحمرة خجلاً ، الفتى ، صرة جزائرية

احمرار اورتنس بتلاوين خفرة يسهل التعرف اليها .
ـ أهذا كان أول مال تتلقاه صدفة عن أعمالك ؟ سألته البارونة .
ـ نعم ، سيدتي ، عن أعمالي في الفن ، اذ سبق لي ان حصلت على نقود عن أتعابي كعامل .

ـ حسناً ! ارجو أن تكون نقود ابنتي بشير خير وسعادة !
ـ خذها بلا تردد ، أضاف البارون عندما رأى ونسيسلاس لا يزال يمسك الصرة دون أن يضغط عليها . سيسدد هذا المبلغ احد الاسياد الكبار او ربما أحد الامراء الذي سيعيده بالتأكيد باكثر من حقه ليمتلك هذا العمل الرائع .
ـ أوه ! صعب علي ، يا أبي ، ان اتخلى عنه لاي كان حتى لو كان الامير الملكي ،
استطيع ان أصنع للانسة مجموعة اخرى أجمل من هـ .
ـ لن تكون هذه ، اجابت أورتنس .
وأذ خجلت لاعتبارها أنها تكلمت كثيراً انسحبت الى الحديقة .
قال ستانبوك :
ـ سأحطم القالب والنموذج لدى عودتي
ـ تعجل ! احضر لي اوراقك ، وستسمع اخباري اذا كنت عند حسن ظني بك يا سيدي .
عندما سمع الفنان هذا الكلام اضطر الى الرحيل . وبعدما

ودع السيدة هيلو واورتنس التي قدمت خصيصاً لتتلقى تحية الوداع ، راح يتنزه في التويلري خائر القوى ودون ان يجرؤ على الدخول الى سقيفته حيث ستقحمه تلك المستبدة بالاسئلة لتنتزع منه السر .

راح عاشق اورتنس يتصور المجموعات والتماثيل بالمئات ، أحس في نفسه قدرة على النحت ، كقدرة « كانوفا » الذي كان مثله ، والذي ، مثله ، كاد ان يهلك من العمل .

لقد غيره حب اورتنس واصبحت في نظره هي الوحي المنظور .

ـ آه ! هذا هو ! قالت البّارونة لابنتها ، ماذ يعني ذلك ؟

ـ حسنا يا أمي العزيزة ، لقد رأيت عشيق ابنة عمنا بت ، الذي ، كما ارجو ، قد صار لي .. لكن أغمضي عينيك وتجاهلي . يا الهي ! انا التي أرادت أن تخفي عنك كل شيء وقد بحت لك بكل شيء . . .

ـ الى اللقاء يا أبنائي ، صاح البارون وهو يقبل ابنته وامرأته ، من المحتمل أن أقصد « العنزة » وسأطلع منها على امور كثيرة تخص هذا الشاب .

ـ لكن حذراً يا أبي .

ـ أوه ! بنيتي ! صاحت البارونة بعدما انتهت اورتنس من القاء قصيدتها حيث كان النشيد الاخير حادثة هذه الصبحية ،

بنيتي العزيزة ، إن اكبر خادعة في الارض كانت وستظل في السذاجة !

الاحاسيس الحقيقية لها جذورها في الغرائز . تصوروا شرهاً أمام صحن من الفاكهة ، انه لن يتردد مطلقاً في تناول أفضلها وحتى دون ان ينظر اليها . أتركوا للفتيات المهذبات حرية اختيار أزواجهن ، فأذا كان لهن ان تخترن الزوج الذي يردن ، فلن ينخدعن الا نادراً . الطبيعة معصومة عن الخطأ . عمل الطبيعة في هذا المجال يسمى : الحب من اول نظرة . في الحب ، النظرة الاولى هي ببساطة النظرة الثانية .

أن رضى البارونة ،المتستر بهيبة الام ، ليعدل رضى الابنة ؛ ذلك ان أفضل الطرق الثلاث التي تحدث عنها كروفيل لتزويج اورتنس يبدو انه في سبيله الى النجاح ، خصوصاً أنه ينسجم مع رغبات الام التي رأت في هذه الحادثة جواباً من العناية الالهية على صلواتها الحارة .

٢٤

حيث الصدفة، التي غالباً ما تولد قصصاً حقيقية، تدير الأمور بمهارة فائقة، لذلك لا يمكن أن تستمر

اضطر حبيس الانسة فيشر في النهاية للعودة الى مسكنه وفي ذهنه ان يخفي فريح حبه بلباس فرح الفنان، المنتشي بنجاحه الاول.

ـ حققت النصر! بعت مجموعتي من الدوق هيروفيل الذي سيؤمن لي أشغالاً، قال ذلك وهو يرمي بالالف ومئتي فرنك ذهباً على طاولة العانس، التي اجابت: لقد شد بيديه، كما نذكر ذلك جيداً، على صرة اورتنس، والصقها على قلبه.

ـ حسنا! إنه لشيء مفرح، لاني أتفانى في العمل. إنك ترى يا بني ان المال يأتي متمهلاً. من المهنة التي اخترت، فهذا أول مبلغ تتلقاه بعد خمس سنوات امضيتها وأنت تعمل بجد ونشاط! هذا المبلغ يكاد لا يكفي ما يتوجب عليك تسديده عما انفقته عليك منذ توقيع السند الذي يعترف بمدخراتي

التي انفقتها ايضاً في السبيل ذاته لكن كن مطمئنا . أضافت بعد ان أحصت المال ، هذه النقود ستنفق في مصلحتك لقد ضمنا حياتنا لفترة سنة . يمكنك الان وفي سنة ان تفي ما عليك وتجمع مبلغاً محترماً ، اذا سارت الامور على هذا المنوال .

وقالت وبعدما تأكد ونسيسلاس من نجاح خدعته راح ينسج القصص عن الدوق هيروفيل .

ـ أريدك ان ترتدي ، كما هو دارج ، كل شيء بالاسود وأن تجدد ملابسك الداخلية ، لانه يتوجب عليك ان تظهر بمظهر المتأنق تجاه حماتك ومن ثم فانه يلزمك شقة تفرشها جيدا تكون اكبر وانسب من سقيفتك المرعبة . كم تبدو سعيداً الان ! لست أنت ذاتك ، أضافت وهي ترمقه بنظرات فاحصة .

ـ لكن قالوا ان مجموعتي هي عمل رائع .

ـ حسنا إذاً اعمل تحفاً اخرى ! اجابت هذه الفتاة الفجة الناشفة المصوب تفكيرها كله نحو الايجابيات ، وغير القادرة على فهم فرح النصر او الجمال في الفنون . لا تهتم كثيراً بما بعت بل اعد اشياء اخرى للبيع . لقد انفقت مئتي فرنك ، دون ان تحسب حسابا لجهدك ووقتك ، في سبيل هذا الشيطان شمشون . رقاصك يكلف أكثر من الفي فرنك لانهاء تنفيذه . إصغ الي ، لو اقتنعت مني لتوجب عليك إنهاء حفر هذين الصبيين الصغيرين وهما يتوجان الصبية بزهر الترنجان . هذا العمل سيذهل الباريسيين بالتأكيد ساعرج على السيد كراف ،

الخياط ، قبل ان أزور السيد كروفيل . . . اصعد الى غرفتك واتركني أغير ملابسي . .

في الغد ، توجه البارون ، الذي جن بالسيدة مارنيف ، لرؤية ابنة العم بت التي ذهلت وهي تفتح الباب لتجده أمامها ، لانه لم يسبق له يوماً ان خصها بزيارة . وهذا ما دفعها ان تقول في نفسها : « هل اورتنس راغبة في عشيقي ؟ . . » لانها علمت ، في السهرة عند السيد كروفيل ، بايقاف الزواج من مستشار البلاط الملكي .

ـ كيف هذا يا ابن العم ، أأنت هنا ؟ إنك تأتي لاول مرة في حياتك لتراني ، اؤكد ان ذلك ليس لجمال عيني .

ـ حقاً جميلتان ، إن لك أجمل عينين رأيتهما .

ـ لماذ أتيت ؟ ألم تلاحظ أنني اخجل من استقبالك في كوخ قذر كهذا .

كانت تستخدم أولى هاتين الغرفتين اللتين يتألف منهما مسكنها كغرفة استقبال ، وغرفة طعام ومطبخ ومشغل دفعة واحدة . أثاث بيتها لا يختلف عن أثاث العمال الميسورين : كراسي من خشب الجوز الداكن والمقشش ، طاولة صغيرة للاكل من الجوز ايضاً ، طاولة للعمل ، رسوم مزخرفة في براويز من الخشب المسود ، برادي الموسلين على الشبابيك ، خزائن كبيرة من خشب الجوز . مُسِحَ البلاط جيداً ، وهو يلمع من شدة الحرص على النظافة ، كل هذا دون ذرة من الغبار لكنه

مليء بالانفاس الباردة ، إنها لوحة حقيقية لتيربورغ لا ينقصها شيء ، حتى لونها الرمادي على ورقة مائلة الى الازرقاق وقد تحولت الى ما يشبه قماش الكتان . أما الغرفة الثانية فيبدو انها لم تطأها قدم غير قدمها .

شمل البارون كل شيء بطرفة من عينه ورأى بصمات الرتابة في كل شيء ، بدءاً من مدفأة الحديد الصلب حتى الاواني المطبخية ، فأصيب بالغثيان وهو يقول في نفسه : اهذه اذا هي الفضيلة ؟

ـ لماذ جئت ؟ اجاب بصوت عال . إنك فتاة محتالة وستتوصلين الى كشف ذلك ، ومن الافضل ان ابوح لك به ، صاح وهو يجلس ويرقب عبر الساحة بعدما فتح ستار الموسلين المبسط . في المبنى أمرأة رائعة الجمال . . .

ـ السيدة مارنيف ! أو ! كل شيء واضح ! قالت وقد علمت كل ما يدور . وجوزيفا ؟

ـ هيهات ! يا ابنة العم ، لا جوزيفا بعد الان . . لقد طُردت كالخادم تماماً .

ـوتريد أن . . سألت ابنة العم وهي تتأمل البارون بكرامة فتاة محتشمة تثور للشرف قبل الاوان بربع ساعة .

ـ بما ان السيدة مارنيف هي على ما يرام وهي زوجة موظف فيمكنك أن تلتقي بها دون انتنعرضي للشبهات . أريد منك ان توطدي معها علاقات الجيرة . اوه ! كوني مطمئنة ،

ستكون مقدرة جدا ومحترمة لابنة عم السيد المدير.

في هذا الوقت سمع حفيف فستان مصحوب بطرقات خطوات إمرأة تنتعل مداساً مرقفاً . توقفت الضجة على فسحة الدرج أمام المدخل . وبعد طرقتين على الباب أطلت السيدة مارنيف .

ـ ساعحيني يا آنستي على هذا الاقتحام ، لم اجدك بالامس عندما جئت لزيارتك ، نحن جارتان ولو علمت قبلاً انك ابنة عم السيد مستشار الدولة لطلبت منك التوسط لديه . عندما رأيت سيدي المدير يؤم منزلك سمحت لنفسي بالمجيء لان زوجي ياسيدي حدثني عن عمل له سيتوقف البت فيه على الوزير .

كانت تتلعثم ويبدو عليها التأثر . بعدما صعدت الدرج بسرعة وببساطة .

ـ لا حاجة لك بالتوسل يا سيدتي الجميلة ، أنا من عليه ان يلتمس منك نعمة رؤ ياك .

ـ حسنا ! لو رأت الانسة ذلك مستحباً ، فأني أدعوك : قالت السيدة مارنيف .

ـ هيا يا ابن العم ، سألحق بك . قالت ابنة العم بت بحذر .

كانت الباريسية تتكل على زيارة السيد المدير وذكائه الى حد انها لم تزين نفسها فقط استعداداً لذلك بل زينت بيتها . فمنذ

الصباح كانت تنسق الزهور التي اشترتها بالتقسيط . ساعد مارنيف زوجته في تنظيف الاثاث وإضفاء جو من الفخامة على الأشياءالصغيرة بازالة الغبار والغسل بالصابون والفرشاة . رغبت فاليري في خلق جو مليء بالتألق لترضي السيد المدير الى حد يمنحها الحق بأن تكون صارمة وتجعله يدفع غالياً ثمن امنيته بتوسلها أساليب الفن العصري . لقد اطلقت حكمها على هيلو . والباريسيات اذا ماحشرن في ضيق شديد لفترة اربع وعشرين ساعة يقلبن وزارة بكاملها رأسا على عقب .

ابن الامبراطورية هذا ، المعتاد الطراز الامبراطوري ، كان عليه ان يتجاهل تماماً اساليب الحب العصري ، والاهتمامات المستجدة ومختلف الحوارات المبتكرة من العام ١٨٣٠ بحيث ان هذه المرأة المستضعفة انتهت بالاقتناع باعتبار نفسها ضحية رغبات حبيبها ، أو راهبة تضمد الجراح او ملاكاً يتفانى في سبيل الآخرين .

هذا الفن الجديد في الحب يستهلك الكثير من كلام الانجيل في سبيل خدمة الشيطان . الهوى في الحب استشهاد . نهد الى المثالية ، الى اللانهاية ، كلا العاشقين يريد ان يتعالى بالحب . كل هذه العبارات الجميلة بحجة خلق دفع للواقع الحاضر وأثارة الانفعال في مهاويه ومساقطه ، لا تمت للماضي بصلة . إن هذا التزلف ، طابع عصرنا قد نخر اساليب الغزل بالسوس نخراً . يتصور المحبان انهما ملاكان ويتصرفان كأبليسين

أذا قدرا .

ليس للحب المتبادل الوقت بأن يحلل نفسه فمنذ العام ١٨٠٩ كان الحب يسير بخطىء ناجحة كنجاح الامبراطورية . وقد عاد هيلو الوسيم عاشقاً للنساء ، طيب خاطر بعض صديقاته القدامى اللواتي سقطن . كالنجوم المطفأةفي سماء السياسة وبعدما رأى نفسه مكبلاً بحبائل جني كادين ومثيلات جوزيفا .

جهزت السيدة مارنيف كل مداركك لاقطاتها بعدما علمت بسوابق المدير التي أخبرها اياها زوجها مطولا بناء على معلومات استقاها في المكاتب . مهزلة الشعور العصري تمكنت من نفح غبطة التجديد في نفس البارون . فاليري اتخذت قرارها ، والتجربة التي قامت بها ، بكل طاقتها ، في هذه الصبحية استجابت لكامل آمالها .

بفضل هذه المناورات العاطفية ، الخيالية والرومنطيقية ، حصلت فاليري ، لزوجها ودون ان ترتبط بشيء ، على وظيفة نائب رئيس وعلى صليب جوقة الشرف .

هذه المعمعة لم تمر دون حفل غداء في مطعم صخرة الكانكال الشهير ، او حضور مسرحيات او كثير من الهدايا كالطرحات والشالات والفساتين والمجوهرات .

الشقة في شارع دوانيه لا ترضي ، لذا ساهم البارون عن طريق الحيلة في فرش واحدة جميلة ، في شارع فانو ، في بناء جميلة تحوي ستين قطعة ذهب من جهته أجاب الفنان على

عصري بديع .

حصل السيد مارنيف على منحة واجازة لمدة خمسة عشر يوماً في شهر واحد ليتفرغ الى تسوية مصالحه في بلده . وعزم على القيام برحلة قصيرة الى سويسرا ليطلع فيها على أحوال النساء .

لم ينس البارون هيلو الشخص الذي لاذ به رغم اهتمامه بالتي طلبت رعايته . إن وزير التجارة ، الكونت پوپينو ، يهوى الفنون : لقد عرض مبلغ الفي فرنك للنسخة الواحدة عن مجموعة شمشون شرط ان يتلف القالب بعد ذلك حتى لا يبقى الا نسخته ونسخة الانسة هيلو . أثارت هذه المجموعة اعجاب احد الامراء الذين اطلعوا على نموذج للرقاص فأوصى على واحد على ان يكون الوحيد ، وعرض ثلاثين الف فرنك .

وبعدما استشير الفنانون ومن بينهم ستيرمان ، اعلنوا أن صانع هذين العملين في وسعه ان ينحت تمثالا ، مما أقنع الماريشال امير ويسمبورغ ، وزير الحربية ورئيس لجنة الاكتتاب لاشادة نصب تذكاري للماريشال مونتكورني ، باجراء مشاروات اتخذ على اثرها قراراً بتسليم التنفيذ لستانبوك .

رغب الكونت راستينياك ، نائب مستشار الدولة ، بعمل للفنان الذي بسم له المجد على هتاف اخصامه وتهاليلهم . حصل من ستانبوك على مجموعة الصبيين . اللذين يتوجان فتاة صغيرة ، مقابل وعد بمشغل في مخزن رخام الدولة الواقع في الكروكايو .

وكان له النجاح الا انه النجاح على الطريقة الباريسية ، النجاح المجنون الذي يسحق . الذين لا اكتاف لهم ولا ظهور تحملهم . وهذا ما يحصل غالباً . كانت الصحف والمجلات تتحدث عن الكونت ونسيسلاس ستانبوك دون ان يرتاب هو او الانسة فيشر بالامر .

كل يوم ، وبعد ان تخرج الانسة فيشر للغداء ، كان ونسيسلاس يذهب لزيارة البارونة ويمضي عندها ساعة او ساعتين ، باستثناء اليوم الذي تأتي فيه بِث لزيارة ابنة عمتها هيلو .

هذه الحال استمرت أياماً . وبعدما تأكد البارون من صفات الاحوال الشخصية لستانبوك وارتاحت البارونة لطبعه واخلاقه وشمخت اورتنس بحبها المفضل وبمجد طالبها ، لم يترددوا جميعا في التحدث عن هذا الزواج ، واذ كان الفنان في غمرة من السعادة لم تتورع السيدة مارنيف عن اذاعة سر دفع بكل شيء الى دائرة الخطر .

٢٥

مخطط مارنيف

كانت ليزبت ، التي يرغب البارون هيلو بأن توثق علاقاتها مع السيدة مارنيف لتطلع عن كثب على احوال هذه الاسرة ، قدتعشت الى مائدة فاليري التي من جهتها كانت تود ان تدس أذناً لها في عائلة هيلو فنشطت بملاطفة العانس . فكرت فاليري في ابلاغ الانسة فيشر إقامة احتفال في الشقة الجديدة حيث يجب ان تسكن .

إن العانس ، السعيدة بالحصول على بيت أضافي حيث ستتناول غداءها والاسيرة بهوى مارنيف ، قد عاملتها هذه بالعطف والمحبة . لم يقدم أي شخص من الذين توطدت علاقاتهم معها على بذل ما بذلته من أجلها .

في النتيجة انوجدت السيدة مارنيف إزاء السيدة فيشر التي أحاطتها بكامل عنايتها كما كانت ابنة العم بت إزاء البارونة والسيدة ريفا وكروفيل وكل الذين استقبلوها الى موائدهم للعشاء . أثارت عائلة مارنيف عطف ابنة العم بت عندما كشفوا لها شدة عوزهم . وفي كل مرة كانوا يزينون لها أحاديثهم

بالألوان الجميلة : فهم محاطون بأصدقاء مغرضين وجاحدين ، وبالأمراض ، والأم ـ مدام فورتان ـ التي اخفوا عنها حقيقة بؤسها فماتت وهي لا تزال تعتقد أنها ترفل بالرخاء بفضل تضحيات عظيمة الخ . . .

ـ إنهم مساكين ! قالت لأبن العم هيلو ، إنك على حق في الاهتمام بهم ، يستحقون ذلك لأنهم نشيطون وصالحون ! بالكاد أن يعيشوا بالألف ريال من وظيفة نائب الرئيس ، لأنهم راكموا بعض الديون إثر وفاة الماريشال مونتكورني ! إنه لمن الخزي ان ترضى الدولة لموظف له زوجة وأولاد ، أن يعيش في باريس بمرتبات لا تتعدى الألفين واربعمئة فرنك .

إن تلك المرأة الفتية التي تشعرها بمظاهر الصداقة فتبوح لها بكل شيء وتستشيرها ، وتثني على أعمالها ، وتبدو كأنها رك الأنقياد لها ، قد حظيت في وقت قصير بمحبة مخلصة من ابنة العم لم يحظ بها غيرها من أهل العانس .

من جهته أبدى البارون اعجاباً بالسيدة مارنيف لتهذيبها وتربيتها وعاداتها ، مما لم يشاهده عند جني كادين او جوزيفا اواصدقائهما ، فهام بها في شهر ، هيام عاشق عجوز ، هياماً اخرق لكنه يبدو أنه منطقي .

ولم يكن يلاحظ عندها سخرية ولا عربدة ولا مصاريف جنونية ولا انحلال أخلاق ولا احتقاراً للأشياء الاجتماعية ولا هذا الاستقلال المطلق الذي كان سبباً لكثير من المآسي سواء

عند الممثلة أو عند المغنية المحترفة . ومعها كان ايضاً في منجاة من شراهة الغواني الضارية ، والشبيهة بعطش الرمال .

أن السيدة مارنيف التي اصبحت صديقته وامينة اسراره ، كان تتعبه قبل أن تقبل منه أقل الأشياء .

اني استحسن أي وظيفة ، أي مكافأة وأي شيء يمكنك أن تحصله لنا من الدولة ؛ لكن لا تشرع في إفساد أمرأة تدعي حبها والا لا أؤمن بك . . . وان كنت أحب ذلك ، أضافت وهي ترمق القديسة تريز التيتسترق النظر إلى السماء .

كل حضور كان قلعةً تنقل أو ضميراً يغتصب . كان البارون المسكين يقوم بمناورات لتقديم مبلغ زهيد ، مفاخراً بالتقاطه أخيراً بفضيلة ما وتوصله الى تحقيق احلامه . في هذه الأسرة البدائية (كما يقول) كان البارونيعتبسرالها اكثر منه في بيته .

كان السيد مارنيف ابعد كثيراً من ان يخطر في باله ان جوبيتر وزارته يشتهي أن يهبط على زوجته بسيل من الذهب ، فارتضى ان يكون خادماً لرئيسه المهيب .

إن السيدة مارنيف البالغة من العمر ثلاثة وعشرين سنة ، البورجوازية الأصل ، الورعة ، الزهرة المخفية في شارع دواينة ، تجهل التحلل الأخلاقي والفساد العهري اللذين يثيران الآن في نفس البارون مشاعر التقزز والانكار ، لأنه لم يكن يستشعر حلاوات الفضيلة المتوثبة دائماً وقد أذاقته إياها فاليري الوجلة كما

جاء في اغنية ، «على طول النهر» .

لا أحد يعجب لو علم أن فاليري عـرفت ، اذ طرحت المسألة للحديث بين هكتور وبينها ، السر عن الزواج المرتقب للفنان الكبير ستانيوك من اورتنس .

بين عاشق لا يتمتع بحقوق وامرأة لم تقرر بعد أن تصبح خليلة تدور صراعات شفـويـة وأخلاقية حيث الكلام يفضح أحياناً التفكير كما يحصل في مبارزة بالسيوف أن يمتص سيف التدريب حيوية سيف المبارزة . الرجل الأكثر تبصراً يقلد إذذاك السيد توران .

بزواج إبـنته سيتمتع البارون بكامل حرية التصرف والتحرك ليلبي رغبات معشوقته فاليري التي كانت تصيح اكثر من مرة «لا اقبل ان نرتكب غلطة من أجـل رجـل لا ضمان منه بـأن يكون بكليتـه لنـا!»

لقد سبق للبارون ان اكـــد بالحلفان اكثر من مرة منذ خمس وعشرين سنة ، ان كل شيء انتهى بينه وبين زوجته .

ـ يقال أنها تتمتع بقسط كبير من الجمال ! قالت السيدة مارنيف ، أريد براهين !

ـ ستتسلمينها ، قال البارون وهو يشعر بالسعادة من هذه الأرادة التي بها تعلن فاليري تورطها .

ـ طبعاً ! يجب الا تبتعد عني ابداً ، أجابت فاليري .

مما اضطر هكتور الى كشف مشاريعه قيد التنفيذ في شارع

فانو ليظهر لفاليري صدق نواياه إذانه يخطط لمنحها نصف حياته التي تعود لأمرأة شرعية ، على افتراض أن النهار والليل يقتسمان بالتساوي وجود الناس المتحضرين . تحدث عن فراق متأدب لزوجته لأنه سيتركها وحدها . في الوقت الذي يتم توقيع عقد زواج ابنته ، عندها ستمضي البارونة كل وقتها عند اورتنس أو عند الصبية هيلو . كان متأكداً من إطاعة زوجته له .

ـ منذ ذلك الحين ، يا ملاكي الصغير ، يا حياتي الحقة ، إن أسرتي الحقيقية ستكون في شارع فانو .

ـ يا الهي ، كيف أنك تتصرف بي ! . . . وزوجي ؟

ـ هذا الركيك ؟

ـ الواقع انه كذلك اذا قيس بك . . . أجابت وهي تضحك .

٢٦

فضول رهيب

بعدما علمت السيدة مارنيف بقصة الكونت ستانبوك تملكتها رغبة شديدة في رؤيته . ولعل ذلك للحصول منه على بعض الجواهر ، طالما انها مازالت تقطن واياه تحت سقف واحد .

هذا الفضول ازعج كثيراً البارون مما جعل فاليري تقسم

على ان لا تنظر ابداً الى ونسيسلاس . بعدها حصلت على طاقم شاي ثمين كمكافأة على التخلي عن رغبتها هذه ، لكنها حفظت رغبتها في اعماق قلبها وكأنها مسجلة على مفكرة .

ذات يوم ، اذ طلبت من ابنة العم بِتْ زيارتها لتناول القهوة معاً في غرفتها ، استدرجتها للكلام على موضوع حبيبها ، حتى تعلم ما اذا كان في امكانها أن تراه دون مخاطرة .

ـ يا صغيرتي ، أجابت ، وكانت الاثنتان تتناولان النداء بكلمة « صغيرتي » ، لماذا لم تقدمي الي حبيبك بعد ؟ الا تعلمين أنه اصبح مشهوراً في سرعة ؟

ـ هو ! مشهور ؟

ـ لا يحكى الا عنه ! . . .

ـ آه ! باه ـ صاحت ليزبت .

ـ سيصنع تمثال أبي ، وسأكون له مفيدة لنجاح عمله ، ذلك أن السيدة مونتكورني لا يمكنها مثلي أن تقرضه مصغراً سليمًا وعملاً رائعاً أنجزه سان عام ١٨٠٩ قبل معركة فاكرام وسلمه الى أمي . انه مونتكورني الشاب الوسيم .

مازال سان واوكيستان يحتفظان بعرش الرسم المصغر في الامبراطورية . ثم سألت ليزبت السيدة مارنيف قائلة :

ـ تكلمي ، هل سيصنع تمثالاً ؟ . . .

ـ من تسع أرجل ، أوصت عليه وزارة الحربية . آه ! هذا ما حصل . من اين أنت قادمة ؟ وهل كان لابد أن اعلمك

بهذه المستجدات ؟ ستمنح الحكومة الكونت ستانبوك مشغلاً ومسكناً في شارع الكرو كايو ، في مخزن الرخام . وقد يصبح البولوني مديراً بمرتب قدره الفا فرنك .

ـ كيف تعرفين كل ذلك بينما أنا لا اعرفه ؟ قالت أخيراً ليزبت بعدما خرجت عن استغرابها .

فقالت السيدة مارنيف بلطف :

ـ اصغي الي ، يا صغيرتي ، هل تشككين بصداقتي واخلاصي ومهما كانت البينة ؟ هل تريدين أن نكون كأختين ؟ هل تقسمين بألا تكتمي سراً عني فابادلك ذلك وتقومين بدور الجاسوس من أجلي كما أكون لك جاسوسة لصالحك ؟ . . . أتريدين أن تؤكدي لي بالحلفان بالا تبيعيني أبداً لا الى زوجي ولا الى السيد هيلو والا تعترفي مطلقاً بأني أنا التي صرحت لك بذلك ؟

توقفت السيدة مارنيف التي قامت بدور مهيج ثيران المصارعة بعدما أثار منظر ابنة العم بث الخوف في نفسها .

لقد بدت على هيئتهامعالم الرعب ، فجحظت عيناها السوداوان الغائرتان كعيني النمر وبدا وجهها كالوجوه التي نتخيلها في العرافات . ضغطت على اسنانها خوفاً من أن تصر لكن تشنجاً مخيفاً هز اعضاءها فارتجفت ثم أدخلت يدها المعقوفة بين طاقيتها وشعرها لتمسكه وتسند رأسها الذي اصبح ثقيلاً ؛ لقد اشتعلت ! دخان الحريق الذي عاث بها يبدو وكأنه ينفث

من ثنايا وجهها كالحمم التي يقذفها بركان ثائر . كـان ذلك مشهداً خلاباً .

قالت بصوت كأنه صاعد من قعر بئر :

ـ حسناً ! ولماذا احجمت عن الكلام ؟ سأكون لك كما كنت له . أوه ! لقد وهبته كل دمي . . .

ـ تحبينه اذاً ؟ . . .

ـ كأنه ولدي . . .

ـ حسناً ! اجابت السيدة مارنيف وهي تتنفس الصعداء . بما انك لا تحبينه الا بهذا القصد فيعني انك سعيدة جداً ، لأنك تريدين له السعادة ؟

أجابت ليزبت بحركة سريعة من رأسها كالمجنونة .

ـ سيتزوج في شهر من ابنة عمك .

ـ اورتنس ؟ صرخت العانس وهي تصفع جبهتها وتنهض .

ـ آه ! انك تحبين هذا الفتى إذا؟

ـ يا صغيرتي ، بيني وبينه العلاقة علاقة حياة حتى الموت ، اذا كان لك ارتبـاطاتـك فأني أعـدك ان اكتمها في سـري . سقطاتك ستكون فضائلي . اني بحاجة الى سقطاتك !

ـ اذاً تعيشين معه ؟ صاحت فاليري .

ـ لا ، أردت أن اكون أماً له . . .

ـ آه ! ما عدت أفهم شيئاً . على هـذا الأساس لا انت

مخدوعة ولا مهانة ، ومن المفترض أن تكوني سعيدة باقدامه على هذا الزواج الفاضل . انه في الطريق اليه ، الآن ، انتهى كل شيء وعلى خير لك . الفنان يزور كل يوم السيدة هيلو بعد أن تخرجي للعشاء . . .

قالت ليزبت في سرها :

ـ أدلين ! أوه ! يا أدلين سأدفعك ثمن كل هذا ساجعلك ابشع مني ! . . .

ـ لكنك تبدين شاحبة كالمائتة ! هناك شيء ما اذا ؟ . . . اوه ! ما اغباني ! . . . لاشك أن الأم وابنتها ترتابان منك وتعتقدان انك ستنصبين العراقيل في وجه هذا الحب ؛ لكن اذا لم تكوني قد عشت مع هذا الفتى ذلك يصبح مغلقاً علي اكثر مما هو سواد قلب زوجي . . .

ـ أوه ! لا تعرفين . . . لا تعرفين ماذا تكون هذه الدسيسة ! إنها الضربة الأخيرة والقاتلة ! أصبت من جرائها برضوض في نفسي ! انك تجهلين أني منذ ان درجت في الحياة ضحيت نفسي لادلين ! كانوا يقدمون لي اللكمات ويقدمون لها دلال المداعبات ! كنت ابدو في ثيابي كقذرة بينما كانت ترفل بثياب كسيدة القصور . نكشت البستان ونزعت قشور الخضرة بينما لم تتحرك أناملها الا لترتيب قطع القماش والمناشف ! . . . تزوجت البارون وقدمت الى بلاط الامبراطور لتنعم بالشهرة بينما بقيت في قريتي حتى ١٨٠٩ أنتظر زوجاً مدة اربع سنوات ؛ لقد

لشلوني من هذا الواقع لكن لاشتغل كعاملة ويقترحون علي موظفين وضباطاً برتبة كابيتين شبيهين بالحجاب ! . . . حصلت خلال ست وعشرين سنة على كل بقاياهم . . . وما حصل معي يشبه الى حد بعيد ما جاء في العهد القديم حيث كان الفقير يملك حملاً يسعده بينما الغني يملك القطعان وعينه في نعجة الفقير حتى سلبها منه ! . . . دون أن يشعره بذلك أو يطلبها منه . إن أدلين تختلس سعادتي ! أدلين ! . . . أدلين ، سأراك في الوحل أحط مني قدراً ! اورتنس التي أحببت خذلتني . . . البارون . . . لا ، أن ذلك مستحيل . والآن لـنر ، أعيدي على مسمعي الأشياء التي يمكن أن تكون حقيقته .

ـ خففي من روعك يا صغيرتي . . .

ـ فاليري ، يا ملاكي ، سأهدأ ، أجابت وهي تستقيم في مكانها . شيء وحيد قد يعيد لي صوابي : ان تقدمي لي البرهان ! . . .

ـ لكن ابنة عمك اورتنس تمتلك مجموعة شمشون ، وهاك رسماً لها منشوراً في أحدى المجلات ؛ سددت ثمنها من ادخاراتها والبارون اهتم بصهره العتيد ففتح له ابواب الشهرة وحصل هذا على كل ما يريد .

ـ الماء ! . . . الماء ! . . . طلبت ليزبت بعدما صوبت نظرها على الرسم حيث قرأت في اسفله . « مجموعة تخص الآنسة هيلو افري » . الحقيني بالماء ! إن رأسي يشتعل ، صرت

مجنونة ! . . .

أتت السيدة مارنيف بالماء بينما رفعت العانس طاقيتها ونفضت شعرها ووضعت رأسها في الوعاء الذي تحمله صديقتها الجديدة وغطسته مراراً عدة فتوقف الاشتعال الذي ظهر. واستعادت سلطانها على ذاتها بعد هذه المعالجة التبريدية.

ـ لا كلام ، قالت للسيدة مارنيف وهي تتمسح ، لا كلام على كل ما جرى . . . لاحظي ! . . . أنا هادئة ونسيت كل شيء ، اني افكر في شيء آخر .

ـ غداً ستكون في شارنتون ، قالت السيدة مارنيف في سرها وهي تتطلع الى العانس .

ـ ما العمل ؟ اجابت ليزبت . الافضل يا ملاكي الصغير ، ان الوذ بالصمت وأحنى رأسي واتوجه الى القبر كما يجري الماء الى الساقية . ماذا عساي افعل ؟ أريد أن أحيل أدلين وابنتها والبارون الى غبار . لكن ما قدرة قريبة فقيرة في مواجهة عائلة غنية ؟ . . . . إنها قصة العين والمخرز .

ـ نعم ، انك على صواب ، يجب أن تهتمي فقط بتأمين اكبر قدر ممكن من وسائل عيشك انها الحياة في باريس .

ـ وسألقى حتفي بسرعة ، لو أني فقدت هذا الولد الذي اعتنيت به عناية الأم وحسبت اني سأقضي معه طوال حياتي .

اغرورقت عيناها بالدموع وتوقفت . ان الشعور المرهف في هذه الفتاة المخلوقة من الكبريت والنار ، هز مشاعر السيدة

مارنيف .

ـ حسناً ! ها انا القاك ! وانه لعزاء فعلاً وسط هذه المصيبة الكبرى .

سوف نتحاب كثيراً ، ولماذا نتخلى عن بعضنا ؟ لن أنافسك ابداً . أنا ، لن القى حباً من أحد ! . . . كل الذين رغبوا بي ، أرادوا الزواج مني طمعاً بحماية ابن عمي ان نمتلك قدرة للصعود الى الجنة والتوسل بها لتحصيل القوت والماء والثياب الرثة والسقيفة ، فذلك هو الإستشهاد عينه يا صغيرتي ! لقد يبست من اجله .

توقفت عن الكلام فجأة وسددت الى عيني السيدة مارنيف الزرقاوين نظرة سوداء نفذت الى نفس هذه المرأة الجميلة وكأن حد خنجر قد خرق قلبها .

اذا الكلام ؟ صاحت موجهة التأنيب الى نفسها . آه ! لم أتكلم قط اكثر مما تكلمت الآن ، هيا ! . . . من حفر حفرة لأخيه وقع فيها ! . . . اضافت بعد استراحة مستخدمة التعابير الطفولية . كما ارشدتني بحكمتك ، من الأفضل أن نكبت الشر ونؤمن ما استطعنا من وسائط العيش .

ـ أصبت ، قالت السيدة مارنيف التي أخافتها هذه النوبة والتي لم تعد تذكر انها فاهت بمثل تلك الحكمة . اعتقد انك استوعبت الحقيقة يا صغيرتي . هيا ، الحياة لم تعد طويلة ، وعليك ان تستغليها قدر الامكان ، وان تستعملي الأخرين

لملذاتك . . . هذا ما استقريت عليه ، انا ، رغم صغر سني ، ربيت تربية ولد مدلل ثم تزوج ابي عن طموح وأهملني بعدما كنت معبودته وبعدما أحاطني بعناية وتربية كما تحاط بنات الملوك . إن امي التي كانت تهدهدني باجمل الاحلام توفيت من الكمد عندما تزوجت من موظف صغير بمرتب الف ومئتي فرنك ، عجوز فاسق بارد بلغ من العمر تسعاً وثلاثين عاماً ، فاسد كسجن الاشغال الشاقة ، لم يجد في الا ما وجدوه فيك : اداة للثروة ! . . . بعدها وجدت ان هذا الانسان الدنيء هو أفضل الرجال . لقد تركني حرة عندما اختار زاوية هذا الشارع المليئة بالنساء القبيحات . واذا تفرد بمعاشاته فلا يسألني عن الطريقة التي أحصل بها بعض المداخيل .

توقفت بدورها وكامرأة شعرت أن سيلاً من الصداقة الحميمة قد استدرجها وانتباه ليزبت المشدود اليها قد اضعفها فرأت انه من الضروري أن تطمئن اليها قبل أن تبوح لها بآخر خفاياها .

ـ انظري يا صغيرتي الى اي حد . ثقتي بك ! تابعت السيدة مارنيف التي أجابتها ليزبت باشارة مطمئنة جداً .

وغالباً ما يقسم المرء بعينيه وبحركة من رأسه ابلغ مما يؤدي اليمين في المحكمة .

٢٧

مسارات قصوى

استطردت السيدة مارنيف وهي تضع يدها على يد ليزبت وكأنها تثبتها في ايمانها :

ـ عليَّ كل مظاهر الشرف والفضيلة . اني متزوجة وسيدة نفسي ، حتى مارنيف عندما يغادر البيت صباحاً الى الوزارة ويرغب في وداعي فيرى باب الغرفة مقفلاً ، يتركني بهدوء . يحب ولده أقل مما أحب أنا احد الاولاد الرخاميين الذين يلعبون على حافة أحد النهرين في التويليري . اذا لم أحضر الى العشاء ، يتناول طعامه مع الخادمة لأن الخادمة هي كلها له . كل مساء ، وبعد العشاء ، يخرج ولا يعود الا منتصف الليل أو بعده . لسوء حظي اصبحت دون خادمة منذ سنة وهذا يعني أنني ارملة منذ هذا التاريخ . . . لم اعرف سوى عشق راحة . . . سعادة واحدة . . . انه برازيلي ثري رحل منذ سنة . كانت غلطتي الوحيدة ! ذهب ليبيع امتعته وكل منقولاته ! ويفعل أي شيء ليستقر في فرنسا . ماذا سيجد في فاليري عند العودة ؟ جيفة ! باه ! سيكون هو المخطىء لا أنا ، لماذا يتأخر الى هذا الحد ؟

ربما غرق مركبه كما حل بفضيلتي فغرقت .

ـ فجأة قالت ليزبت :

ـ الوداع ، يا صغيرتي ، لن نتخلى ابداً بعضنا عن بعض . احبك واحترمك ، اني لك ! يغريني ابن عمي حتى اسكن في بيتكم العتيد شارع فانو ، لكني لم اكن ارغب في ذلك لأني أدركت جيداً قصد معروفه الجديد . . .

ـ اعرف انك كنت تراقبينني .

ـ هذا هو سر كرمه ، أجابت ليزبت . في باريس ، نصف اعمال الخير ليست سوى مضاربات ، كما ان نصف نكران الجميل ليس سوى انتقام ! . . . يعاملون قريبة فقيرة كما يعاملون الجرذان الذين يوقعون بهم بفضل قطعة لحم . سأقبل عرض البارون لأنني صرت أرى هذا البيت مقيتاً . آه ! إن لنا انا وانت من الحكمة ما يعيننا على اسكات من يؤذينا وقول ما يلزم قوله . لا أسرار بيننا بل صداقة لا تزول . . .

ـ صداقة ضد كل المحن . . . السيدة مارنيف ، وقد اسعدها ان تحظى بأمرأة تحترمها الى هذا الحد ، وبكاتمة اسرار ، وبنوع من العمة الشريفة .

واضافت : ـ الم تلاحظي ان احوال البارون سالكة في شارع فانو . . .

ـ أرى جيداً ، سيدفع في سبيل ذلك ثلاثين الف فرنك ! لا

أعلم من اين حصل على ذلك ، فجوزيفا الفنانة المحترمة قد نظفت جيوبه . أوه ! لقد احسنت الاختيار ! يختلس البارون من أجل التي تحفظ قلبه بين يدين صغيرتين بيضاوين ناعمتين كيديك .

ـ حسناً ! اجابت السيدة مارنيف باطمئنان الفتيان الذي ليس الا طيشاً . خذي يا صغيرتي ما ترينه مناسباً لسكنك الجديد . . . هذه الكومود ، هذه الخزانة ذات المرايا ، هذه السجادة أو هذه الطنفسة . . .

تمددت عينا ليزبت تحت تأثير فرح جنوني . ما كانت تتجرأ قبلاً وتتصور ان تتلقى هدية كهذه .

ـ انك تؤدين من أجلي في لحظة مالم يفعله أهلي في ثلاثين سنة ! . . . لم يسألوني اطلاقاً ان كنت في حاجة الى الرياش ! في أول زيارة له ، منذ اسابيع ، تظاهر البارون بقرف الاثرياء عند مشاهدته البؤس الذي يلازمني . حسناً ! اشكرك يا صغيرتي ، إني لمقدرة لك ذلك ، سترين في ما بعد كيف يكون تقديري .

رافقت فاليري ابنة العم بت حتى استراحة الدرج حيث تعانقتا .

وما ان اصبحت المرأة الحسناء وحيدة حتى قالت في نفسها : « كم تفوح منها رائحة النمل ! . . . واكيداً لن اقبلها كثيراً في المستقبل ! ولكن ، مع هذا ، يجب ان احترس ، وان اداريها ،

فستكون مفيدة جداً لي ، وستجعلني اكسب ثروة » .

السيدة مارنيف تمقت التعب والجهد . انها كالقطط المتراخية . التي لا تنهز الا مدفوعة بالحاجة الضرورية . الحياة بالنسبة اليها يجب ان تكون لذة ، واللذة يجب ان تحصل دون أي مشقة .

انها تعشق الزهور شرط ان يحملوها اليها . لا تفكر في حضور المسرح دون مقصورة جيدة خاصة بها وعربة تقلها ذهاباً واياباً . هذه الميول ـ ميول الغواني ـ ورثتها فاليري عن امها التي غمرها مونتكورني بالخيرات عندما كان يقيم في باريس حيث ، خلال عشرين سنة ، رأى العالم ساجداً عند قدميه وبما ان امها كانت مبذرة فقد بددت كل شيء وقضت على كل شيء في هذه الحياة الفخمة التي ضاعت ملامحها منذ سقوط نابوليون .

كبار الامبراطورية ضاهوا في جنونهم كبار الأسياد القدامى . في ظل التجديد بقي النبلاء يتذكرون انهم ضربوا وسُلبت أموالهم ؛ ولو استبعدنا حالتين أو ثلاثاً شاذة ، فإن طبقة النبلاء أصبحت مقتصدة ، حكيمة ، متيقظة وأخيراً بورجوازية ودون مقام رفيع . لقد استهلك عام ١٨٣٠ عامَ ١٧٩٣ . في فرنسا القاب كبيرة ولكن دون بيوت كبيرة ، إلا اذا حدثت تغيرات سياسية يصعب ترقبها . كل شيء ينطبع بطابع الشخصية . ثروة أحكم الحكماء هي الثروة التي تخدم لمدى الحياة . لقد قضوا في ظلّ التجديد على نظام العائلة .

إن قدرة البؤس الضاغطة ، التي عضت فاليري حتى

العظم ، في اليوم الذي ، وحسب تعبير مارنيف ، اسقطت هيلو في الشرك ، قد دفعت بهذه الزوجة الفتية الى اتخاذ جمالها كوسيلة للربح . وهكذا ، راحت منذ أيام تحس بالحاجة الى ان تكون في قربها ، على غرار امها ، صديقة مخلصة . فأئتمنها على ما يجب أن يبقى سراً على وصيفتها ويمكن أن تعمل وتذهب وتجيء من أجلها وأخيراً تكون نفساً متفانية راضية في الحياة بقسمة غير عادلة . مذاك وقد أدركت ، كما أدركت ليز بِتْ ، مقاصد البارون من توطيد علاقتها مع ابنة العم بِتْ .

وبعدما تلقت النصائح من العقلية الباريسية المولدة التي تجلس على أريكة ترقّب بفانوسها في زوايا النفوس المظلمة ، الأحاسيس والتعقيدات ، قررت ان تجعل من نفسها شريكة الجاسوس .

الارجح ان هذا الفضول الشديد كان مخططاً له لقد ادركت جيداً طبع الفتاة الشرسة ، المغرمة حتى الهوس والتي تريد أن تلوذ بها . أضافة الى ذلك ، فان الحوار الذي تم بينهما يشبه الحجر الذي يرميه المسافر في هوة ليتبين عمقها . والسيدة مارنيف تخوفت اذ وجدت دفعة واحدة قزما وريشار الثالث في هذه الفتاة الضعيفة والوديعة والضعيفة الجانب ظاهرياً .

٢٨

تحول بِتْ

في لحظة عادت بِتْ فاصبحت نفسها . في لحظة حطمت طبعها الكورسيكي والوحشي الوشائج المزيلة التي ربطته فاذلته فاستعاد قدرته الخطيرة كشجرة افلتت من أيدي ولد اناخها اليه ليسرق ثمارها الفجة .

كل من يراقب العالم الاجتماعي يلاحظ دائمًا باعجاب خصائل التمام والأكتمال وسرعة الأدراك عند الطبائع العذراء .

وللعذرية كما لكل العاهات ، طاقاتها الخاصة وعظمتها اللاقطة . ان الحياة التي اكتمنت قواها ، اتخذت في الشخصية العذراء مقاومة وديمومة لا حساب لها . والدماغ اغتنى بمجموع مواهبه المختزنة . حينما يحتاج الناس العفيفون الى اجسادهم او نفوسهم فليجأون الى العمل أو الى التفكير ، سيجدون الفولاذ في عضلاتهم والعلم محقوناً في عقلهم وقوة شيطانية أو سحر الارادة الاسود .

فتحت هذا التحليل ، يمكن للسيدة العذراء ، ان لم نعتبرها للحظة سوى رمز ، ان تزيل بعظمتها كل النماذج الهندية ،

والمصرية واليونانية . العذرية ، ام الأشياء العظيمة ، تمسك بيديها الجميلتين البيضاوين مفتاح العالم العلوي . وأخيراً فان هذا الاستثناء العظيم والرهيب يستحق كل الأوسمة التي تمنحها اياه الكنيسة الكاثوليكية .

في لحظة اصبحت بث « الموهيكان » الذي لا مرد لشركه ، وكتمانه لا يخرق ، وقراره السريع مبني على كمال كامن في الاعضاء . هي الغضب والثار بلا هوادة ، كما هي الحال في ايطاليا وآسبانيا والشرق ، هذان الاحساسان اللذان تضاعفا بالصداقة والحب المطلق الى الابد لم يعرفا الا في البلدان المغمورة بالشمس . لكن ليزبت بقيت فتاة من اللورين ، أي انها عزمت على الخداع والمراوغة .

لم تتبن عن طيبة خاطر هذا الجزء الأخير من دورها فقامت بمحاولة مفردة لا يدعمها سوى جهلها المطبق . تصورت السجن كما يتصوره الأطفال فخلطت بين العزلة السرية والسجن . فالعزلة السرية هي أعلى درجات السجن وهذا النوع هو امتياز للقضاء الجنائي .

عندما تركت السيدة مارنيف ، اسرعت ليزبت الى السيد ريفا فوجدته في غرفته .

ـ حسنا ! ايها السيد ريفا الطيب . خاطبته بعدما وضعت المزلاج في باب الغرفة ، لقد أصبت ، البولونيون ! . . . أوغاد . . . انهم بشر لا ايمان فيهم ولا قانون عندهم

ـ بشر يريـدون ان يضـرمـوا النار في اوروبـا ، قال ريفـا المسالم ، ان يهدموا التجارة والتجار من أجل وطن ، يقال عنه انه مستنقع يعشش فيه اليهود الماكرون ، دون اعتبار الكوزاك والقرويين هؤلاء ؛ الوحوش الكاسرة المصنفة خـطأ في الجنس البشري . يتنكر هؤلاء البولونيون للعصر الحالي . نحن لسنا برابرة ! انتهت الحـرب يا آنستي العـزيزة مـع انتهاء الملوك . عصرنا هو عصر انتصار التجارة والصناعة والحكمة البورجوازية التي جميعهاخلقت هـولندا نعم ، تابع بحماسة ، نحن في عصر تحصل فيه الشعوب على أي شيء عن طريق التطور الشرعي للحريات وباللعبة المسالمة للمؤسسات الدستورية ؛ هذا ما يجهله البولونيون واتمنى . . . تقولين ، يا جميلتي ؟ أضاف اذ قاطع نفسه بعدما رأى ان عاملته لا تدرك تحليله السياسي العالي .

ـ هذا هو الملف . أجابت بِث ، اذا كنت لا أريد أن أخسر الألفين ومئتي فرنك فيتوجب ايداع هذا القذر في السجن .

ـ آه ! لقد أوضحت لك ذلك جيداً ! صاح عراف حي سان دين .

ان عائلة ريفا وريثة الأخوة بون ، ظلت قاطنة في شارع « الكلمات العاطلة » في قصر لانجي الذي شيدته هذه العائلة الشهيرة في زمن كان الاسياد الكبار يتحلقـون حول اللوفر

اجابت ليزبت :

ـ يظهر اني منحتك نعيًا بقدومي الى هنا ! . . .

ـ اذا لم يفاجئنا شيء ، فسيكـون في السجن من الرابعـة صباحاً ، قال القاضي وهو يتفقد روزنامته ليتـأكد من مـوعد شروق الشمس ، لكن بعد الغد لأنه لا يمكن سجنه دون انذاره بتوقيفه بناء على توصية مـع عدم التعـرض للضغط الجسدي وهكذا . . .

قالت بِث :

ـ إنه لقانون أحمق ، فالمدين ينفذ بالنهاية .

ـ ان القانون بجانبه ، أجاب القاضي وهو يبتسم . دعينا من ذلك ، خذي واستمعي كيف . . .

ـ في ما يخص ذلك سآخذ السند ، قالت بِث وهي تقاطع القاضي ، واضعه بين يديه قائلة له انني اضطررت للإقتراض وان المقرض طلب هذه الصيغة . انا أعرفه هذا البولوني ، لن يبسط السند ، فقط سيشعل بها غليونه !

ـ آه ! لا بأس ! لا بأس ! يا آنسة فيشر . حسناً ! هوني عليك ، المشكل سيقفل . لكن لحظة ! ليست الغاية أن نزج برجل في السجن بل الغاية من هذا الاجراء القضائي الوصول الى استيفاء المال . فمن سيدفع لك مالك ؟

ـ الذين يعطونه مالاً .

ـ آه ! نعم ، نسيت أن وزير الحربية كلفه تشييد نصب تذكاري لأحد زبائننا . آه ! كانت العائلة تخيط بزات عسكرية للقائد مونتكورني تسود سريعاً بدخان المدافع . أي باسل هذا الرجل ! كان يسدد ما عليه في موعد الاستحقاق.

ان ماريشالا فرنسيا أمكنه انقاذ فرنسا أو بلاده ، يدفع في وقت الاستحقاق ، سيبقى دائما أجمل ثناء في فم تاجر .

ـ حسناً ! ستتسلم السبت يا سيد ريفا شراباتك المسطحة . بالمناسبة سأترك شارع دواينه الى شارع فانو .

ـ حسناً تفعلين ، ما كان هذا المكان يليق بك ؛ فهو ـ واقولها رغم قرفي من كل ما يشبه المعارضة ـ يهين اللوفر . نعم اتجاسر واقولها : يهين اللوفر ! ويهين ساحة الكاروسيل . اني احب لويس فيليب كثيراً ، وهو معبودي . انه الممثل المهيب ، الصحيح ، للطبقة التي نشأت عليها السلالة المالكة ولن أنسى ما قام به من أجل التجارة القيطانية عندما أعاد تأسيس الحرس الوطني .

ـ عندما اسمعك تتحدث هكذا فأني اتساءل لماذا لا تكون نائباً في البرلمان .

ـ أخاف تعلقي بالأسرة الحاكمة ، فأعدائي السياسيين هم أعداء الملك ؛ آه ! انها صفة نبيلة ، وعائلة رائعة ؛ وأخيراً ، تابع يقول وهو يستمر في محجته ، ان الأخلاق والاقتصاد هي

مثالنا ! لكن انهاء اللوفر يشكل احد الشروط التي على أساسها تخلينا عن التاج والمخصصات الملكية التي لم تحدد مدتها ، وافقنا على ذلك شرط الا يترك قلب باريس في حالة محزنة . . . ذلك لأني أريد أن أرى وسط باريس في حالة مغايرة . الحي الذي تعيشين فيه يقزز النفس . قد يهلكونك فيه بين يوم وآخر . . . حسناً ! هوذا السيد كروفيل الذي عين رائد فرقته ، وارجو ان نكون نحن من سيزوده برافعة كتفه .

ـ سأذهب اليوم لتناول العشاء عنده وسأرسله اليك .

اعتقدت ليزبت انها تمتلك هذا الليفوني اذا عمدت على قطع الاتصالات بينه وبين العالم الخارجي . واذ أنه لا يشتغل ابداً فالفنان مصيره الأهمال كأنسان دفن في قبو صغير حيث تأتي وحدها لتراه . مازال لها يومان لترتع في السعادة لأنها تأمل بتوجيه ضربات قاضية الى البارونة وابنتها .

سلكت ليزبت ، لتصل الى بيت السيد كروفيل ، الذي يسكن في شارع سوشايس ، جسر « كاروزيل » ورصيف فولتير ورصيف اورسي وشارع بالشاس وشارع الجامعة وجسر الكونكورد وجادة الماريني .

هذه الطريق اللامعقولة رسمتها لها العواصف الجياشة التي هي الد اعداء الساقين وفي الوقت الذي كانت تسير على الأرصفة كانت تتطلع على الضفة اليمنى من نهر السين وهي تتباطأ لغاية في نفسها . تقديرها كان صائباً . لقد تركت

ونسيسلاس وهو يغير ملابسه معتقدة انه تحلل منها وان العاشق سيسلك الطريق الاقصر حتى يبلغ بيت البارونة .

وبينما كانت تسير على طول درابزين رصيف فولتير وهي تلتهم النهر التهاماً ، بينما تتنقل افكارها على الضفة الثانية ، شاهدت الفنان يطل عبر بوابة التويليري ليصل الى جسر الروايال . هناك لحقت بالخائن واستطاعت ان تتبعه دون أن يحس بوجودها لأن العشاق لا يتلفتون وراءهم الا نادراً ؛ صحبته حتى منزل السيد هيلو حيث دخل اليه كمن الف زيارته .

هذا البرهان الأخير الذي اكد مزاعم السيدة مارنيف أخرج ليزبت من صوابها وصلت عند الرائد الذي عين حديثاً وهي في حالة من الغضب العقلي قد يؤدي الى ارتكاب الجرائم ، فوجدت السيد كروفيل في انتظار السيد والسيدة هيلو الشاب ، في قاعة الاستقبال . لكن سيليستان كروفيل يمثل حديث النعمة الباريسي ببساطة وسذاجة الى حد انه من الصعب ولوج داره دون تأدية المراسم المفروضة . إن سيليستان كروفيل هو وحده عالم قائم بذاته ، لذا فانه يستحق اكثر من ريفا أوسمة لوحة الشرف بفضل أهميته في هذه المأساة العائلية .

٢٩

في حياة السيد كروفيل وآرائه

هل لاحظتم كيف اننا في طفولتنا كما في بدآيات الحياة الاجتماعية ، نصنع لانفسنا وبمحض ايدينا نموذجاً لنا ، غالباً دون معرفة منا ؟ .

هكذا ، يحلم مؤتمن على مصرف ، عندما يلج صالون معلمه ، بأن يحصل على صالون مماثل

واذا اثرى ، بعد عشرين سنة ، فلن يفرش صالونه بالطراز الرائج في ايامه ، بل بالطراز الرجعي الذي كان بالامس يستحوذ عليه .

لا نفهم مختلف الحماقات المتأصلة في الغيرة الباطنية . ونجهل كل التصرفات الخرقاء الناتجة عن الخصومات الخفية التي تدفع بالناس لتقليد النموذج الذي انتقوه وإرهاق قواهم حتى يكونوا ضياء قمر .

تولى كروفيل منصب ملحق لأن رب عمله كان ملحقاً ، ومنصب رائد لأنه رغب بأن يتقلد شارات سيزار بيروتو المرصوفة على كتفيه .

وقد دهش كروفيل ايضاً بالروائع التي انجزها المهندس كرازرو في وقت كان معلمه في أعلى درجات السلم من الثروة . وعندما تيسرت له الأمور وقرر تجميل شقته توجه مغمض العينين وباسط اليدين الى كراندو المهندس الذي صار الى النسيان التام .

لا احد يعرف الى متى ستستمر الأمجاد التي انطفأت والتي مازال يدعمها الاعجاب المتخلف . أعاد كراندو للمرة الألف صالونه الأبيض والمذهب والمشدود بالقماش الدمقسي الأحمر قدم الرياش المصنوع من خشب الباليساندر المزهر والمحفور كما تحفر الأعمال العادية للصناعة الباريسية فخراً حقيقياً على الريف في معرض المنتوجات الصناعية . كانت المصابيح ، ومتكآت الأذرع والثريا والرقاص وحافظة الرماد ، تنتمي كلها الى الأسلوب المحاري .

على الطاولة المستديرة الراكدة في وسط الصالون ، لوحة رخام مرصعة بمختلف انواع الرخام الايطالي والقديم المستورد من روما حيث تصنع انواع من الخرائط المعدنية الشبيهة بنماذج النحاتين . وكانت هذه الرخامة محط اعجاب دائم لجميع البورجوازيين الذين يستقبلهم كروفيل .

ان رسوم كل من المرحومة السيدة كروفيل ، وكروفيل ، وابنته وصهره ، التي رسمها بيار كراسو ، الرسام الشهير عند البورجوازيين ، تغطي الجدران وقد علقت جميعها والبراويز التي

كلف الواحد منها الف فرنك ، تنسجم مع كـل هذا الشراء الذي ، دون ريب ، كان سيجعل اي فنان حقيقي يهز كتفيه استهزاء .

ولا مرة ضيع الذهب ادنى فرصة لاظهار غبائه . ولو ان التجـار المتقاعـدين خطوا بغـريـزة الاشيـاء الكبيـرة التي تميـز الايطاليين ، لوجدنا اليوم في باريس لا مدينة بندقية واحدة بل عشر بندقيات . حتى في ايامنا هذه يوحي تاجـر ميلاني الى الديومو لتطلى العذراء العظيمة بالذهب وتتوج القمة ، ويدفع عن قناعه خمسمئة الف فرنك . لقد امر كانوفا في وصيته ، اخاه ان يبني كنيسة بأربعة ملايـين . وأضاف اخوه شيئاً منه على هذا المبلغ .

هل يفكر بورجوازي بـاريسي (وكلهم يحملون في قلبهم ، مثل ايفا ، حباً لمدينتهم باريس) يوماً بأن يشيد قبب الأجراس التي مازالت تفتقدها ابراج نوتردام ؟ تكفي المبالـغ التي تحصل عليهـا الدولـة من المواريث المتروكة دون ورثة .

كان في الامكان انجاز تجميل باريس بالمبالغ التي صرفت في حماقات من الكرتون المحجر أو الطين المـذهب أو المنحوتـات المزيفة التي يقتنيها منذ خمس عشرة سنة الأفراد أمثال كروفيل .

في طرف الصالـون حجرة رائعـة تتناسق فيهـا الطاولات والخزائن .

غرفة النوم ، العجمية بكاملها ، كانت تؤدي ايضاً الى الصالون . خشب الأكاجو الأحمر يغزو بكل مجده وعظمته غرفة الطعام هذه حيث لوحات المناظر السويسرية ذات الأطارات الثمينة تزين الجدران . آن الأب كروفيل الذي يحلم برحلة الى سويسرا يحرص على اقتناء هذا البلد بالرسوم حتى الساعة التي يذهب لمشاهدته على حقيقته .

إن كروفيل ، الملحق السابق ، حامل الأوسمة ، الحارس الوطني قد استعاد بأمانة ، كما نراه ، كل مظاهر العظمة عند سلفه اليائس أو حتى فيما يتعلق بالرياش منها هنا ، حيث في ظل التجديد سقط واحد ، وآخر منسي ارتفع لا بلعبة الثروة بل بقوله الأشياء . في الثورات كما في العواصف البحرية ، تنزلق القيم الصلبة الى القعر بينما تطفو الأشياء الخفيفة على السطح . لقد اصبح سيزاربيروتو الملكي محط انظار المعارضة البورجوازية بينما تمثلت البورجوازية المنتصرة في كروفيل .

تحتل هذه الشقة المستأجرة بالف ريال والتي تغص بجميع الامتعة المألوفة والجميلة التي يؤمنها المال ، الطابق الأول من قصر قديم بين الساحة والحديقة كل شيء يبقى فيها مصاناً ومحفوظاً كما تحنط مغمدات الاجنحة ، ذلك ان كروفيل لا يلجأ اليها الا قليلاً .

هذه المحلة الفخمة تشتمل على محل الاقامة الشرعي لهذا البورجوازي الطموح . ويخدمه في حياته طباخة وخادم ويستعين

بآخرين أضافيين ويطلب غداءه بعظمة وأبهة من عند شويفي عندما يحتفي بقدوم اصدقاء سياسيين أو بعض الناس البارزين أو عندما يستقبل عائلته .

إن مقر وجود كروفيل الفعلي الذي كان سابقاً في شارع نوتردام دي لوريت ، عند الآنسة هيلوييز بريزتو ، قد نقل ، كما رأينا ، الى شارع شوشا .

كل صباح كان التاجر السابق (كل البورجوازيين المعتزلين يتلقبون بالتاجر السابق) يمضي ساعتين في شارع سوسايس حتى يخلو الى أعماله ويمنح ما تبقى من وقته لزايير مما أوقعها في ارتباك شديد

كان اورسمان كروفيل يتعامل مع الانسة هيلوييز بجدية وضبط للحسابات ؛ فهي تدين له كل شهر بقيمة خمسمئة فرنك سعادة . وكان كروفيل ينفق فوقها على عشائه وعلى كل حاجة اضافية .

كان هذا الاتفاق المقسط يبدو اقتصادياً لعشيق المغنيّة المطرود .

كان يقول ، في هذا الصدد ، للتجار الأرامل الذين يحبون كثيراً بناتهم انه من الأفضل ان تستأجر الأحصنة مشاهرة من ان تمتلك اسطبلاً خاصاً .

وكما لاحظنا ، جير كروفيل حبه الشديد لابنته الى ملذاته . ووجدت لا اخلاقية وضعه مبرراً لها في اسباب اخلاقية عليا .

ثم ان العطار السابق كان يحصل من هذه الحياة على دهان خارجي لامع : دهان التفوق .

كان كروفيل يطرح نفسه كرجل بعيد النظر واسع الافق وكسيد كبير نبيل وكانسان كريم ، لا تزمت في افكاره . . . وكل هذا لقاء زهاء اثني عشر الى خمسة عشر الف فرنك شهرياً ليس ذلك نتيجة حنكة سياسية بل نتيجة عجرفة بورجوازية كأحد كبار عصره وخاصة لجهة مسلكه في معاشه .

يعتقد كروفيل انه تجاوز ، في هذا ، بيروتو الطيب، بمئة ذراع .

٣٠

تابع ما قبله

ـ حسناً ! صاح كروفيل وهو يستشيط غضباً عند رؤيته ابنة العم بِث ، انت اذاً من يزوج الآنسة هيلو من الكونت الشاب الذي ربيته خصيصاً من أجلها ؟

ـ يبدو ان ذلك يغيظك ؟ اجابت ليزبت وهي تثبت عيناً ثاقبة على كروفيل أية مصلحة لك في منع ابنة عمي من

الزواج ؟ ذلك انك أفشلت، كما قيل لي ، زواجها من ابن السيد لوباس . . .

ـ أنت فتاة صالحة ، وكتوم حسناً ! اتعتقدين أني سأغفر يوماً للسيد هيلو جريمته في خطف جوزيفا مني ؟ . . . وخاصة ليحيل هذه المخلوقة الشريفة ، التي قد اتزوج منها في أواخر ايامي ، الى ساقطة ومهرجة وفتاة اوبرا . . . لا ، لا ! ابداً .

ـ مع ذلك فانه انسان طيب ، قالت ابنة العم بِتْ .

ـ لطيف ! لطيف جداً ! اكثر من اللزوم ! لا اريد له الشر ؛ لكن أتمنى ان أثأر لنفسي ، وسأفعل . انه الهاجس الذي لا يفارقني !

ـ بسبب رغبتك هذه لم تعد تأتي لزيارة السيدة هيلو؟

ـ ربما . . .

ـ آه ! كنت اذاً تغازل ابنة عمي ؟ قالت ليزبت وهي تبتسم ، كنت أشك في ذلك .

ـ وعاملتني ككلب . وأسوأ من ذلك ، كخادم . وقد أعبر بشكل أفضل لو قلت : كمعتقل سياسي . لكن سأنجح ، قال وهو يطبق قبضة يده ويصفع جبينه .

ـ المسكين ! فظيع للرجل ان تخونه زوجته بعدما تطرده عشيقته ! . . .

ـ جوزيفا ! صاح كروفيل ، أهملته جوزيفا ، ابعدته ، طردته ؟ برافو ! جوزيفا ! جوزيفا ! لقد ثأرت لي ! سأرسل لك جوهرتين تعلقينهما في أذنيك يا حلوتي السابقة ! . . . لا اعرف شيئاً عن هذا لأني بعدما رأيتك عند ذلك اليوم حيث رجتني ادلين الرائعة للمرة الثانية أن أتركها وشأنها ، توجهت الى آل لوباس في كورباي ، ومن هناك اعود الآن احتالت علي هيلوييز لترسلني الى الريف وقد عرفت سبب مكائدها : تريد أن تحتفل ، من دوني ، ببيتها الجديد في شارع شوشا مع الفنانين والظرفاء والمثقفين . . . لقد خدعت ! لكني اصفح لأن هيلوييز تمازحني وترفه عني . كم هي طريفة هذه الفتاة ! اليك القصاصة التي وجدتها أمس مساء :

« يا عزيزي الطيب ، نصبت خيمتي في شارع شوشا . اتخذت الاحتياطات اللازمة ليعينني الاصدقاء في مسح البلاط . كل شيء يسير على ما يرام . تعال متى أردت . اكار تنتظر ابرهيمها » .

تمدني هيلوييز بالأخبار فهي تعرف المتشردين على أطراف اصابعها .

ـ لكن ابن عمي تلقى بارتياح هذا الهم ، أجابت ليزبت .

ـ مستحيل ، قال كروفيل وهو يتوقف في مشيته الشبيهة برقاص الساعة .

ـ لقد بلغ هيلو من العمر مبلغاً ، قالت ليـزبت مبديـة ملاحظة خبيثة .

ـ أعرفه ، لكننا نتماثل في بعض الوجوه : لا يستطيع هيلو ان يتخلص من عشقه . يظن ان في وسعه العودة الى زوجته . ان ذلك شيء جديد بالنسبة اليه ، الوداع ايها الثأر . تبتسمين يا آنسة فيشر ؟ . . آه ! انك تعرفين شيئاً ؟ . . .

ـ اني أهزأ بافكارك ، أجابت ليزبت . بلى ان ابنة عمي مازالت جميلة تلهب العواطف ؛ فلو كنت رجلاً لعشقتها .

ـ من شرب فسيشرب ! صاح كروفيـل ، انك تسخـرين مني ! هكذا يكون البارون قد وجد بعض العزاء .

احنت ليزبت رأسها للموافقة . تابع بعدها كروفيل يقول :

ـ آه ! انه لسعيد بأن يحل ، بين ليلة وضحاها ، واحدة محل جوزيفا ، لكني لم استغرب لأنه قال لي ذات مساءٍ على العشاء انه في فتوته كان يحتفظ بثـلاث عاشقات كي لا « ينقطع » : واحدة في طريقها الى الرحيل ، والمالكة سعيدة ، والتي يغازلها تهيئة للمستقبل . ولا بد انه كان يمسك احتياطاً بشابة لعوب في حوض السمك خاصته ! انه يفوق لويس الخامس عشر أوه ! انه سعيد أن يكون رجـلاً وسيمًا ! مـع ذلك فقـد هرم ، ذلـك ظاهر . . ولا بد ان يكون قد تعلق بأمرأة من بـين صفوف العاملات .

ـ أوه ! لا ، أجابت ليزبت .

ـ آه ! قال كروفيل ، افعل المستحيل لامنعه من ان يثبت قدميه . كان متعذراً عليّ ان استعيد منه جوزيفا ، ان النساء من هذا النوع لا يتطلعن ابداً الى حبهن الأول . وعلى كل حال ، العودة ليست من الحب في شيء ، كما يقولون . لكن يا ابنة العم بِث ، اني مستعد للسخاء ، يعني اني مستعد لانفاق خمسين الف فرنك من أجل انتزاع عشيقة هذا الرجل الوسيم منه ، ولأثبت له ان أباً سميناً بكرش رائد وبجمجمة عمدة باريس المقبل ، لا يترك احداً ينشل له عشيقته من غير ان يرد لـه التحية .

ـ ان وضعي ، أجابت بِث ، يفرض علي أن أسمع كل شيء وأن لا أعرف شيئاً يمكنك ان تتحدث معي دون دجل ، لن أعيد ابداً اي كلمة مما تريد ان تودعه سري . ولماذا أخرج عن قانون مسلكي ؟ لن يعود احد ويثق بي .

ـ أعلم ذلك ، أجاب كروفيل ، انت جوهرة العوانس . . . اصغي ! لعنك الله ، هناك حالات شاذة . خذي . لم يسبق قط ان وفرت لك العائلة بعض المداخيل . . .

ـ إن لي من الكرامة ما يمنعني من تحميل أي شخص أية تكاليف .

ـ آه ! اذا اردت ان تساعديني حتى أثأر لنفسي فاني ساضع

باسمك عشرة الاف فرنك كدخل لمدى الحياة . أفصحي لي يا ابنة العم الرائعة ،أفصحي عمن حلت محل جوزيفا وستحصلين على ما يضمن دفع ايجارك وترويقتك الصباحية والقهوة اللذيذة التي تحبينها كثيراً ، ويمكنك ان تختاري البن العدني الصافي . . . آه ! كم هو لذيذ هذا البن العدني الصافي !

ـ لا أحفل كثيراً بالعشرة آلاف فرنك هذه التي تؤمن دخلاً بخمسمئة فرنك تقريباً ، الا اذا تمكنت من كامل السر ، ذلك انه ، كما تلاحظ يا سيد كروفيل فان البارون يعاملني معاملة ممتازة ، لقد تكفل بدفع كامل الايجار . . .

ـ نعم ، ولفترة طويلة ! اعتمدي عليه في اكثر من ذلك ! صاح كروفيل . من أين يحصل البارون على المال ؟

ـ آه ! لا اعرف مع ذلك فأنه ينفق اكثر من ثلاثين الف فرنك على الشقة التي خصصها لهذه السيدة الصغيرة . . .
ـ سيدة ! كيف ذلك ، أليست امرأة في المجتمع ؟ كم هو سعيد ، هذا القذر ! لا يهتم الا بنفسه !

ـ إمرأة متزوجة ، وكما يجب .

ـ حقاً ! صاح كروفيل وهو يفتح عينين مثارتين بالرغبة بهذه العبارة السحرية : « امرأة كما يجب » .

ـ نعم ، أجابت بِث ، مواهب ، موسيقية ، ثلاث وعشرون

سنة ، وجه جميل بريء ، بشرة بيضاء وساحرة ، أسنان كاسنان الكلب الفتي ، عينان كالنجوم ، جبهة رائعة . . . وقدمان ولا اصغر .

ـ والاذنـان ؟ سأل كروفيل الذي انتعش بتعابير الحب هذه .

ـ اذنـان كنموذج ، أجابت بِث .

ـ ويدان دقيقتان ؟ . . .

ـ بكلمـة : إنها إمـرأة جـوهـرة ، شـريفـة ، محتشمة ، ولطيفة ! . . . نفس رائعة ، ملاك ، تتصف بكل المميزات لأن أباها ماريشال فرنسي . . .

ـ ماريشال فرنسي ! صاح كروفيل الذي قام بقفزة غريبة على ذاته ، يا الهي ! تباً له . . . آه من هذا القذر ، الوغد ! . . . الأسم السافل ! . . . عفواً ، بِث ، لقد جننت ! . . . مستعد ان انفق مئة الف فرنك على ما اعتقد .

ـ حسناً . . . قلت لك انها إمرأة شريفة وفاضلة . ولقـد رتب البارون الوضع كما يجب .

ـ اقول لك انه مفلس . . .

ـهنالك الزوج ، الذي سنده البارون . . .

ـ سنده من اين ؟ قال كروفيل وهو يضحك ضحكة مرة .

ـ لقد عين نائب رئيس . أحس الزوج بالغبطة والارتياح خاصة وقد وعد بالصليب . . .

ـ على الحكومة أن تأخذ حيطتها وتحترم الذين تمنحهم الأوسمة دون أن تسرف لجهة الصليب ، قال كروفيل بلهجة من تأثر سياسياً . ولكن بماذا يتمتع هذا البارون الداهية ولا يتمتع به سواه ؟ يبدو لي اني اعدله قدراً ، أضاف وهو يتمرى في مرآة ثم يستقيم في مكانه . غالباً ما قالت لي هيلوييز .

ـ وفي الحالات التي لا تكذب فيها النساء انني مدهش .

ـ أوه ! النساء يعشقن الرجال السمان . اذا ما خيرت بينك وبين البارون فاني افضلك . السيد هيلو لطيف ، وسيم ، ذو قوام ، لكنك انت رجل صلب . ثم . . . إعلم انك تبدو اكثر سوءاً منه !

ـ عجباً ! كل النساء ، حتى التقيات ، يعشقن الذين يتوافر فيهم هذا الشكل ! صاح كروفيل وقد اقترب ، من شدة ابتهاجه ، ليلف قامة بِث بذراعه .

ـ الصعوبة ليست هنا . تدرك جيداً ان امرأة ترى كثيراً من الحسنات في من تلوذ به ، لا تخونه من أجل تفاهات ، وهذا ما يكلف اكثر من مئة وبضعة آلاف فرنك ، لأن السيدة الصغيرة

سترى زوجها رئيس مكتب في سنتين منذ الآن . . . إنه البؤس الذي يرمي بهذا الملاك الصغير المسكين في الهاوية .

كان كروفيل يذرع الغرفة طولاً وعرضاً ، بغضب شديد .

ـ لعله متمسك جداً بهذه المرأة ؟ سأل كروفيل بعد لحظة استحالت فيها رغبته المصفوعة الى نوع السعار . .

ـ أحكم أنت بنفسك ! أجابت ليزبت . لا اعتقد انه وصل بعد الى مبتغاه ! قالت وهي تطقطق ظفر ابهامها تحت احد الواح الخشب ؛ لكن قدم حتى الآن هدايا بأكثر من عشرة آلاف فرنك .

ـ أوه ! ستكون اضحوكة حلوة ، صاح كروفيل ، لو وصلت قبله !

ـ يا إلهي ! لقد أخطأت اذ عرضت لك أخبار الآخرين ، أجابت ليزبت وعلامات الأسف تبدو علَيها مع شعورها بتوبيخ الضمير .

ـ لا اريد ان احرجّ عائلتك واشعرها بالخجل . سأضع في الغد باسمك مبلغاً لمدى الحياة بمعدل خمسة في المئة ، فتحصلين على دخل بستمئة فرنك لكن ، تصرحين لي بكل شيء : الأسم ، ومحل أقامة المعشوقة . يمكنني ان اعترف لك اني لم الق يوماً إمرأة « كما يجب » ، واكبر طموحاتي أن أتعرف على واحدة

منهن . حوريات محمد لسن شيئاً بالمقارنة مع اللواتي اتخيلهن من نساء المجتمع إنها أمنيتي وجنوني .

الى حد ان البارونة لن تبلغ الخمسين سنة في نظري قال وقد التقى دون علم منه مع أحد المفكرين الأكثر رقة في القرن الماضي . خذي يا ليزبت الطيبة ، قررت أن أضحي بمئة ، بمئتين . . . فلنصمت ! هوذا أولادي أراهم مقبلين في الساحة . أقسم بشرفي اني لن ابوح بكلمة مما صرحت به أمامي لأني أريد الا يفقد البارون ثقته بك . وبالعكس تماماً ، يجب أن يعشق هذه المرأة أجمل العشق ، يا معاونتي !

ـ أوه ! إنه متيم بها . لم يعرف يوماً كيف يعثر على أربعين الف فرنك من اجل ابنته ، بينما وجد المبلغ بسرعة من أجل عشقه الجديد .

ـ وتعتقدين أنها تبادله الحب ؟

ـ في عمره . . . أجابت العانس .

ـ أوه ! كم أنا أحمق ! صاح كروفيل . أنا الذي يتسامح بفنان لهيلوييز ، بالضبط كما فعل هنري الرابع عندما تسامح مع غبرييلا معشوقته وبلكارد معاونه المفضل الذي يكن لغبرييلا الأخلاص والحب . آه ! يا للشيخوخة يا للشيخوخة ! صباح الخير يا سيليستين ، صباح الخير يا جوهرتي ، وولدك ! آه ! إنه

هنا ! لقد بدأ يشبهني . صباح الخير يا هيلو ، يا صديقي ، هل أنت على مايرام ؟ . . . سيتم بعد حين زواج آخر في العائلة .

قامت سيليستين وزوجها بحركة مشيرين الى ليزبت ثم أجابت الابنة أباها بوقاحة :

ـ أي زواج هذا ؟

قال كروفيل :

ـ إنه زواج اورتنس ؛ لكنه لم يتقرر بعد . أعود للتو من بيت لوباس حيث علمت ان الآنسة ببوبينو ستكون للشاب المستشار في البلاط الملكي في باريس الذي يرغب الحصول على مركز الرئيس الأول في المقاطعة . . . هيا الى العشاء .

٣١

آخر محاولة لكاليان مع آربيل

عادت ليزبت ، الساعة السابعة ، الى بيتها في عربة لأنها مستعجلة للقاء ونسيسلاس الذي كانت غافلة عنه منذ عشرين يوماً والذي حملت له قفة مليئة بالفواكة التي نضدها كروفيل بنفسه اذ تضاعفت شفقته على ابنة العم بِتْ

صعدت الى السقيفة بسرعة افقدتها النفس فوجدت الفنان منهمكاً في انهاء زخرفة علبة يـرغب في اهدائهـا الى العزيـزة اورتنس .

إطار غطائها مزدان بما يشبه زهر الأورتنسيا حيث يسرح الحب ويمرح ؛ وحتى يتمكن هذا العاشق المسكين من تغطية تكاليف هذه العلبة المصنوعة من كربونات النحاس الطبيعي ، صنع لكل من فلوران وشانور شمعداناً مع تخليه عن ملكيـة هذين العملين الرائعين .

ـ إنك تشتغل كثيراً منذ أيام ، يا صديقي ، قالت ليزبت وهي تمسح جبهته المغطاة بالعرق وتقبلها . يبدو لي هذا النشاط خطراً في شهر آب . الحقيقة ان صحتك قد تتأثر بذلك . . . خذ هذا الـدراقن والخوخ من السيـد كروفيـل . . . لا تهتم كثيراً ، لقد اقترضت الفي فرنك حتى لا تسقط في الضاقة ، يمكننا ايفاؤ ها اذا بعت رقاصك ! . . . مع ذلك فأني أشك في امر مسلفي لأنه أرسل للتـو هذه الـورقة الملصق عليهـا هذا الطابع .

ـ لمن تزخرف هذه الأشياء الجميلة ، تابعت ليزبت وهي تتناول أغصان الأورتنسيا المصنوعة من الشمع الأحمر الذي تخلى عنه ونسيسلاس ليأكل الثمار .

ـ لتاجر حلى .

ـ أي تاجر ؟

ـ لا أعلم ، إنه ستيدمان الذي رجاني ان أنسق له ذلك لأنه في عجلة من أمره .

ـ وهذه الاورتنسيا ، قالت بصوت مقعر . كيف حصل انك لم تعالج يوماً الشمع من أجلي ؟ هل كان صعباً عليك ان تبتكر لي خاتماً أو علبة حلى أو أي تذكار آخر ! قالت وهي ترمقه بنظرات غاضبة لم يتلقها لحسن حظه لأن عينيه كانتا مخفوضتين . وتقول انك تحبني !

ـتشككين في ذلك آنستي؟.

ـأوه! أي حرارة في كلمة آنستي!. . . أنظر، لقد كنت تفكيري الوحيد منذ أن رأيتك تحتضر. . . وعندما انقذتك، اعتبرتك ملكي، لم اكلمك اطلاقاً عن هذا الالزام، لكن التزمت تجاه ذاتي وقلت حينها: «أريد أن أسعد هذا الصبي وأغذيه لأنه وضع نفسه في تصرفي!» وبعدا لقد نجحت في بناء ثروتك!

ـوكيف؟ سأل هذا الفنان المسكين وهو في غمرة من السعادة وفي سذاجة لم تشعره بما يدبر له من مكائد.

ـلك ذلك، أجابت بِتْ.

لم تستطع ليزبت أن تمنع نفسها من الرغبة الوحشية في النظر الى ونسيسلاس الذي يتأملها بحب بنوي يفيض حباً لأورتنس،

مما أوقع بِتْ في الخديعة. واذ أبصرت، لأول مرة في حياتها، مشاعل عاطفة الحب الجياشة في عيني رجل، اعتقدت انها هي التي أشعلتها.

ـالسيد كروفيل أوصى لنا بمئة الف فرنك لتأسيس محل تجاري اذا، كما قال، اردت الزواج مني، ان لهذا الطيب أفكاراً فريدة في مراميها... ما رأيك؟

شحب وجه الفنان شحوب وجه ميت ثم نظر الى محسنته نظرة باهتة كشفت كل ما جال ويجول في خاطره وظل فاغر الفاه، ساهياً كالأبله.

ـلم يصارحني أحد بأني قبيحة حتى انكره، قالت وضحكة مرة تعلو ثغرها

ـيا آنستي، أجاب ستانبوك، لن تكون محسنتي يوماً بشعة في نظري، إن لي تجاهك عاطفة جامحة، لكن لم أبلغ الثلاثين، و...

ـوانا بلغت الثالثة والاربعين! ابنة عمي التي ناهزت الثامنة والاربعين مازالت تثير العواطف الهستيرية؛ لكنها جميلة، هي!

ـخمس عشرة سنة تفصلنا عن بعضنا البعض يا آنستي! أي أسرة سنبني! علينا أن نتروى ونفكر ملياً في الأمر. عرفاني لك بالجميل سيعدل دون شك ما بذلته من أجلي. مع ذلك فأموالك ستعاد اليك خلال أيام معدودة.

ـمالي! صرخت العانس. أوه تعاملني كما لو كنت مرابية عديمة القلب!

ـعفواً، أجاب ونسيسلاس، لكنك تحدثينني عن مالك غالباً... لن أنسى انك خلقتني، فلا تهلكيني.

ـتريد أن تتخلى عني، اني الحظ ذلك، قالت وهي تهز برأسها. من نفخ فيك قوة الجحود، أنت الذي يشبه ورقة ملوكة؟ هل ضعفت ثقتك بي، انا ملاكك الحارس؟ انا التي يا ما امضت الليالي تشتغل من اجلك؟ انا التي امدتك بمدخرات حياتها! انا التي، خلال اربع سنوات، تقاسمت معك الخبز، خبز عاملة طيبة، وأقرضتك كل شيء حتى شجاعتها؟

ـكفى! كفى! يا آنستي! قال وهو يخر على ركبتيه باسطاً لها يديه، لا تزيدي على ذلك كلمة! سأحدثك بعد ثلاثة أيام وسأصارحك بكل شيء؛ اتركيني، قال وهو يقبل يديها، اتركيني أتمتع بسعادتي، اني عاشق ومعشوق.

ـحسناً! كن سعيداً، يا ولدي، قالت وهي تنهضه.

ثم قبلته في جبهته وشعره، بجنون يتملك من حكم عليه بالموت وهو يتذوق نسيم آخر صبيحة.

ـآه! أنت أنبل وافضل المخلوقات، انك تتساوين بالتي أحب، قال الفنان المسكين.

ـما زال عندي لك من الحب القدر الذي يجعلني ارتعد خوفاً

على مستقبلك، أجابت بلهجة قاتمة. شنق يهوذاً نفسه!... كل الجاحدين يصيرون الى نهاية سيئة! انك تتخلى عني ولن تفعل شيئاً ذا قيمة. فكر اننا، من دون ان نتزوج- لأني اصبحت عانساً، ولن اخنق زهرة شبابك بيدي اللتين تشبهان جذوع الكرمة- ولكن من دون ان نتزوج، الا نستطيع ان نبقى معاً؟ عندي عقلية تجارية، وفي وسعي ان أحصل ثروة في عشر سنين، لأني مقتصدة، بينما مع المرأة الفتية ستأتي على كل شيء وتبدد كل شيء ولا تشتغل أنت الا من اجل اسعادها. السعادة لا تولد الا الذكريات. عندما أفكر فيك تظل يداي ترتجفان لساعات كاملة... إبق، معي يا ونسيسلاس... اني استوعب كل شيء: ستكون لك عشيقاتك، نساء فاتنات كمارنيف الصغيرة التي تريد أن تراك والتي ستوفر لك السعادة التي لا تستطيع ان تعثر عليها معي. ثم تتزوج عندما أؤمن لك دخلاً بثلاثين الف فرنك.

-أنتِ ملاك يا آنستي، لن أنسى أبداً هذه اللحظة، أجاب ونسيسلاس وهو يمسح عينيه.

-هوذا انت كما اريدك يا ولدي، قالت وهي ترمقه بنشوة السكرى.

الغرور يتملكنا كلنا بقوة الى حد ان ليزبت اعتقدت انها حققت انتصاراً. قامت بتنازل كبير عندما عرضت عليه السيدة مارنيف! احست بأشد اختلاج في حياتها، وشعرت بالفرح يغمر

قلبها. بعدها، كان يحلو لها أن تبيع نفسها للشيطان حتى تحظى بمثيل تلك الساعة.

ـلقد التزمت، أجاب الفنان، وأحب إمرأة لا يمكن أن توازيها امرأة أخرى. لكنك اليوم وستبقين دائمًا الأم التي افتقدتها.

هبطت هذه العبارة كالأنهيار الثلجي، على البركان المشتعل. جلست ليزبت وتأملت بوجه قاتم، هذا الشباب، هذا الجمال المتفرد، هذه الجبهة، جبهة فنان، هذا الشعر الرائع، كل ما تشتهيه غرائز إمرأة مكبوتة، ثم بللت عينيها للحظة دموع قليلة كانت للحين جافة. كانت تبدو كذلك التماثيل النحيفة التي كان نحاتو القرون الوسطى ينصبونها على المقابر.

ـلن ألعنك، أنت، قالت وهي تنهض بسرعة، لست الا ولداً. فليحفظك الله! ثم نزلت وحبست نفسها في شقتها.

ـتحبني هذه المخلوقة المسكينة، قال ونسيسلاس في نفسه. لقد كانت فصيحة جداً! إنها مجنونة.

٣٢

الثأر الذي لم يتم

في اليوم التالي، وفي الساعة الرابعة والنصف صباحاً، وفي الوقت الذي كان استانبوك يغط في نومه، سمع طرقاً على باب

سقيفته. نهض وفتح فرأى رجلين يدخلان بثيابهما الرثة يصحبهما ثالث يستدل من ملبسه انه «مباشر» بائس.

ـأنت السيد ونسيسلاس، كونت ستانبوك؟ قال له الأخير.

ـنعم، سيدي.

ـأدعى كراسي، يا سيد، وأنا خلف السيد لوشار، رقيب التجارة...

ـوبعد؟

ـأنت موقوف يا سيدي ويجب أن تلحق بنا الى سجن كليشي... تفضل وغيّر ملابسك لقد اتخذنا الترتيبات اللازمة كما ترى... لم اصطحب حارساً بلدياً، هناك عربة تنتظرنا تحت.

ـقضيتك مرتبة بشكل لائق... لذلك نأمل في الاعتماد على مرؤتك. وقال احد الرجلين:

ارتدى ستانبوك ثيابه ونزل الدرج يمسكه بكلٍ ذراع حارس ثم أدخل العربة وأقلع السائق دون أن يعطى أمراً، كالعارف الى اين يتجه. بعد نصف ساعة، وجد الاجنبي المسكين نفسه مسجوناً حقاً دون أن يتمكن من رفع التماس أو احتجاج، من فرط قوة المفاجأة.

في الساعة العاشرة استدعي الى قائم السجن حيث وجد ليزبت غارقة في الدموع ثم اعطته مالاً يساعد على سير العيش

في السجن ويؤمن غرفة تكفيه لمتابعة عمله.

ـيا بني، لا تعلم أحداً بتوقيفك فيقضي ذلك على مستقبلك، يجب إخفاء هذه الفضيحة، سأطلق سراحك ريثما يتوافر لي المبلغ... كن مطمئناً. اكتب لي على ورقة كل ما تحتاجه لشغلك حتى أحمله اليك. أو أموت أو تكون بعد حين حراً.

ـأوه! إني مدين لك بحياتي مرتين! لأني سأفقد اكثر من الحياة لو اعتقدوا اني انسان فاسد.

خرجت ليز بِتْ والفرح يهز قلبها ، كانت تود لو تستطيع ، وهي محتفظة بفنانها خلف القضبان ، أن تفشّل زواجه من اورتنس عندما تخبرها انه متزوج وقد حصلت له زوجته على إعفاء ، فرحل الى روسيا .

حتى تنفذ ليز بت مخططها توجهت، نحو الساعة الثالثة، الى لبارونة مع ان ذلك اليوم لم يكن موعد تناولها العشاء عندها. الا انها كانت تريد ان تستمتع بالعذابات التي ستقع ابنة عمها فريسة لها في الوقت الذي اعتاد ونسيسلاس الحضور.

ـجئت للعشاء يا بِتْ؟ سألت البارونة وهي تخفي انزعاجها.

ـبالطبع، نعم.

ـحسناً! أجابت اورتنس، سأذهب وأوصيهم بالدقة في الوقت، لأنك لا تحبين الانتظار.

أشارت اورتنس الى والدتها مطمئنة أياها؛ لأنها عزمت أن تقول للحاجب ان يطلب من السيد ستانبوك، عندما يجيء،

العودة من حيث جاء. لكن الحاجب كان قد خرج فاضطرت اورتنس ان توصي بذلك وصيفتها التي صعدت الى غرفتها لتحضر شغلها وتبقى في غرفة الانتظار.

ـوعشيقي؟ قالت ابنة العم بِتْ موجهة كلامها الى اورتنس عندما عادت، لم تعودي تحدثينني عنه.

ـللمناسبة، ماذا حل به؟ إنه الآن شهير. يفترض أن تكوني سعيدة، همست اورتنس في اذن ابنة عمها، لا يتحدثون الا عن السيد ونسيسلاس ستانبوك.

ـاكثر مما يلزم، أجابت بصوت عالٍ. انه يتضايق. ولكن يقولون ان الامبراطور نيقولا منحه اعفاء، من اجل ان يكسب ولاءه...

ـآه! باه! أجابت البارونة.

ـكيف علمت بهذا؟ سألت اورتنس التي أصيبت بتشنج في قلبها.

فاجابت بِتْ الرهيبة: ـاكثر الاشخاص قرباً اليه، الشخص المرتبط به برباط مقدس، زوجته... هي التي كتبت تقول له ذلك امس. يريد الرحيل؛ آه! سيكون احمق اذا ما غادر فرنسا الى روسيا...

نظرت اورتنس الى امها وقد تدلى رأسها؛ ولم يكن للبارونة ما تفعله سوى ان تهتم بابنتها التي أغمي عليها وابيض لونها فأصبح كبياض تطريز خمار كتفيها.

ـليز بت! قتلت ابنتي!. . . صرخت البارونة. لقد خُلقت لشقائنا!

ـآه! اما هذا؟ ما هو خطأي في ذلك يا أدلين؟ سألت اللورينة وهي تنهض متخذة وضعاً دفاعياً لم تعره البارونة اي انتباه وهي في خضتها هذه.

فاجابت ادلين

ـلقد اخطأت. اقرعي الجرس!

في هذه اللحظة فتح الباب فالتفتتْ المرأتان معاً لتبصرا ونسيسلاس ستانبوك الذي فتحت له الطباخة في غياب الوصيفة.

ـاورتنس! صرخ الفنان الذي قفز نحو تجمع النساء الثلاث. قبّل ونسيسلاس خطيبته في جبهتها تحت بصر الأم، لكن برفق جعل البارونة تبقى هادئة. كان ذلك دواء ضد الأغماء وملحاً مفضلاً على الأملاح الانكليزية. فتحت اورتنس عينيها لترى ونسيسلاس ويعود اليها لونها. بعدها بلحظة عادت اورتنس الى حالتها الطبيعية.

ـهذا اذا ما كنت تخفينه عني؟ قالت ابنة العم بِتْ وهي تبتسم لونسيسلاس وكأنها كشفت الحقيقة بسبب حيرة قريبتيها كيف سلبت مني عشيقي؟ قالت لأورتنس وهي تصحبها الى الحديقة.

روت اورتنس لابنة عمها قصة حبها. لما اقتنع والداها ان بِتْ لن تتزوج ابداً أجازا لستانبوك هذه الزيارات. الا ان اورتنس ظنت، لبراءتها، ان امتلاك المجموعة ولقاء صاحبها كانا بمحض الصدفة.

ثم عاد ستانبوك فوراً الى القريبتين ليقدم الشكر الجزيل الى العانس للسرعة في اطلاقه. اجابت ليزبت ونسيسلاس على طريقة اليسوعيين، بأن الدائن لم يقطع الا وعوداً غامضة، وكانت لا تتوخى اطلاقه الا في الغد، وان المقرض الخجول من دناءته قد قرر أن يسبقها في ذلك. ثم بدت الآنسة سعيدة فهنأت ونسيسلاس على سعادته.

ـأيها الولد الشرير! قالت له على مسمع من اورتنس وامها، لو اعترفت لي قبل أمس بحبك لابنة عمي اورتنس وحبها لك لوفرت علي كثيراً من الدموع. اعتقدت انك تخليت عن صديقتك العجوز، عن مربيتك، بينما، على العكس، ستكون ابن عمي؛ من الآن وصاعداً الروابط العائلية التي، وان تكن ضعيفة، تكفي المشاعر التي نذرتها لك.

ثم طبعت قبلة على جبهة ونسيسلاس بينما ارتمت اورتنس بين ذراعي ابنة عمها وغرقت في الدموع.

ـ انا مدينة لك بسعادتي ، لن انسى ذلك ابداً . . .

ـ يا ابنة العم بِتْ ، أجابت البارونة وهي تعانق ليزبت

خلال نشوتها حيث كانت ترى الأشياء وقـد سويت ، إننـا ، البارون وأنا ، مدينان لك ، وسنسدد ما علينا ، تعالي نتحدث عن بعض الأعمال في الحديقة .

قامت ليزبت في الظاهر بدور ملاك العائلة الصالح ، أذ رأت نفسها معبودة كروفيل وهيلو وأدلين وأورتنس .

ـ نريدك أن تكفي عن العمل ، قالت البارونة . لو افترضنا انك تكسبين اربعين فلساً في اليوم ، عدا ايام الآحاد ، مما يجمع مبلغاً من ستمئة فرنك في السنة . حسناً ! الى أي مبلغ ارتفعت مدخراتك ؟

ـ الى اربعة آلاف وخمسمئة فرنك ! . . .

ـ كم أنت مسكينة ! قالت البارونة .

ثم رفعت يديها الى السماء ، من فرط ما شعرت بالأشفاق ، وهي تفكر في ما كابدته من مشقات واحتجبت عن ملذات من أجل هذا المبلغ الذي جمعته في ثلاثين سنة . أما ليزبت التي احست بمس في شعورها من جراء دهشة البارونة فرأت في ذلك تحقيراً من حديثة النعمة ، ابنة عمها . واكتسب حقدها جرعة محترمة من الضغينة في اللحظة التي تزيل ابنة عمها كل احتراس وحذر تجاه قساوة طفولتها .

ـ سنزيد هذا المبلغ عشرة آلاف وخمسمئة فرنك ، تابعت

أدلين ، وسنضع الكل باسمك كمنتفعة وباسم اورتنس كمالكة حق الرقبة ، بذلك تحصلين على دخل من ستمئة فرنك .

بدت ليزبت حينها في أوج سعادتها . عندما عادت ، والمحرمة على عينيها منهمكة في حقن دموع الفرح ، أخبرتها اورتنس كيف راحت النعم تنهال على ونسيسلاس ، حبيب العائلة كلها .

٣٣

كيف يتم الكثير من عقود الزواج

عندما وصل البارون وجد العائلة مكتملة ، لأن البارونة كانت قد عاملت الكونت ستانبوك لدى تبادل التحية ، معاملة الأبن وحددت ، شرط موافقة زوجها ، موعد الزواج بعد خمسة عشر يوماً . وعندما أطل في الصالون ، أسرعت اليه زوجته وابنته وأحاطتاه لتحدثه أحداهما في أذنه ولتقبله الاخرى .

ـ لقد ذهبت بعيداً في الزامك لي بهذا الشكل ، يا سيدتي ، قال البارون بقسوة . الزواج لم يحصل بعد ، قال وهو يرمق ستانبوك الذي رآه يشحب .

حدث الفنان البائس نفسه قائلاً : « لابد انه علم بتوقيفي » .

ـ تعالوا يا ابنائي ، أضاف الأب وهو يصحب ابنته وصهر المستقبل الى الحديقة وراح ليستريح معهما على مقعد في الكوخ نبت عليه الطحلب .

ـ يا سيدي الكونت ، هل تحب ابنتي قدر ما أحببت انا امها ؟ سأل البارون ونسيسلاس .

ـ واكثر يا سيدي ، قال الفنان .

ـ كانت الأم ابنة قروي ولا تملك فلساً .

ـ اعطني الآنسة اورتنس كما هي عليه الآن وحتى دون مهر . . . أي جهاز . . .

ـ اني لأصدقك : قال البارون وهو يبتسم ، اورتنس هي ابنة البارون هيلو آفري ، مستشار الدولة ومدير الحربية وضابط كبير في جوقة الشرف وأخ الكونت هيلو المتمتع بالمجد الأبدي ، والذي سيتقلد بعد قليل رتبة ماريشال فرنسا ، وهي تحمل مهراً !

قال العاشق الفنان :

ـ صحيح أبدو طموحاً ومغامراً ، سأتزوج من العزيزة اورتنس ولو كانت ابنة عامل بسيط .

ـ هـذا ما أردت معـرفته ، أجـاب البـارون . إذهبي يـا أورتنس واتركيني اتحدث مع السيد الكونت، بالطبع تلاحظين انه يحبك باخلاص .

ـ أوه ! يا أبي ، اعلم جيداً انك تمازحنا ، أجابت الفتاة المغمورة بالسعادة .

ـ يا عزيزي ستانبوك ، قال البـارون . بأسلوب راقٍ من الضخامة وهيئة مستهابة من السحر عندما اختلى بالفنان ، لقد قطعت لأبنتي مئتي الف فرنك كمهر ، لم يتلق هذا المسكين منها فلساً واحداً ولن يحصل على شيء منها ابداً كذلك فمهر ابنتي لن يقل عن مئتي الف فرنك ستعترف بانك تسلمتها . . .

ـ نعم ، يا سيدي البارون . . .

ـ مهلاً ، قال مستشار الدولة ، تفضل واصغ لي . لا يمكن أن نطلب من صهر ، الاخلاص الذي لا حق لنا بانتظاره من إبن . ان ابني يعلم ما بامكاني عمله وما أهـيئه لمستقبله : سيتبوأ منصب وزير ويحصل بسهولة على المئتي الف فرنك . أما اليك أنت ايها الشاب فامرك مختلف ! تتسلم ستين الف فرنك مسجلة بخمسة في المئة على جدول دائني الدولة باسم زوجتك . يقتطع هذا المبلغ دخل مخصص لليزبت ، لكنها لن تعيش طويلاً ، لأنها مصدورة كما أعلم . لا تبح بهذا السر لأحد ولتمت هذه الفتاة المسكينة بسلام . اما ابنتي فستكون لها خزنة تحوي عشرين

الف فرنك حيث تضع فيها أمها مبلغ ستة آلاف فرنك من قيمة ماساتها .

ـ سيدي ، أنك تحملني فوق طاقتي . . . قال ستانبوك وهو في ذهول .

ـ أما المبلغ الباقي المقدر بمئة وعشرين الف فرنك . . .

ـ كفى يا سيدي ، قال الفنان ، أنا لا اريد الا عزيزتي اورتنس . . .

ـ أتريد ان تصغي الي أيها الفتى المتحمس ؟ أما في ما يعود الى المئة والعشرين الف فرنك فليست معي ، لكنك ستتسلمها . . .

ـ سيدي ! . . .

ـ ستتسلمها من الحكومة بشكل توصيات أحصل عليها لك . خذ كلامي على محمل الثقة . ستؤمن مشغلاً في مخزن الرخام . أعرض بعضاً من التماثيل الرائعة وسأتكفل بانتسابك الى « المجمع » المراجع العليا تحنو علينا أنا وأخي مما يجعلني أتوسم خيراً عندما أطلب لك أعمالاً للنحت في فرساي بمقدار ربع المبلغ . وأخيراً تتسلم بعض التوصيات من مدينة باريس عن طريق مجلس العمدة وبعدها ستتوافد عليك الطلبات التي تضطرك أن تستعين بغيرك . هكذا اكون قد برأت ذمتي . استشر نفسك وقواك اذا ما كان يناسبك هذا المهر المسدد بهذه الطريقة .

ـ أشعر بالقوة اللازمة لتأمين ثروة لزوجتي بنفسي حتى لو حرمنا كل ما ذكرت !

ـ هذا ما أحبه ! صاح البارون ، الشباب الذي لا يهاب شيئاً !

انا نفسي كنت لاواجه جيوشاً من اجل امرأة ! هيا ، قال وهو يضع يده في يد النحات ، ان لك رضاي . الأحد المقبل نبرم العقد والسبت الذي يلي حيث يوافق الاحتفال بعيد زوجتي ، نتم الزواج في الكنيسة .

ـ كل شيء يسير على مايرام ، قالت البارونة لابنتها الملتصقة بالنافذة ، ان زوج المستقبل وأباك يتعانقان .

عندما عاد ونسيسلاس الى منزله مساء وجد تفسيراً للغز الذي اكتنف اطلاق سراحه عندما تسلم من البواب علبة كبيرة مختومة تحوي ملعقه مع ابراء اصولي ، محرر في ذيل الحكم ومرفق بالرسالة الأتية :

« عزيزي ونسيسلاس .

« جئت هذا الصباح ، الساعة العاشرة لأراك وأقدمك الى صاحب سمو ملكي يرغب التعرف اليك . عندها علمت ان الأنكليز اقتادوك الى جزرهم الصغيرة ، المسماة عاصمتها «قصر كليشي » .

« للحال ذهبت لأرى ليون دو لورا الذي قلت له وأنا في ضحك ، انك لا تستطيع أن تترك الريف حيث انك مدين بأربعة آلاف فرنك قد تعرض سمعتك للشبهات اذا لم تقابل السمو الملكي . لحسن الحظ ، كان هناك بريدو العبقري ، العارف بامر بؤسك واخبارك يا بني ، جمع الأثنان المبلغ ومن ثم توجهت لأسدد ما عليك لهذا البدوي الذي ارتكب جريمة التعرض للعبقرية عندما سجنك . واذا كان علي ان أحضر ظهراً الى التويليري ، لم احتمل أن أراك من دون أن تتنشق الهواء الطلق . أنا أدرى بك أيها الطيب ، لقد كفلتك تجاه صديقي لكن عليك ان تراهما في الغد .

« ان ليون وبريدو لا يريدان استرداد مالهما ، بل يرغب كل منهما بمجموعة . انهما على صواب . هذا ما يدور في ذهن من يحسب نفسه خصمك ، بينما هو في الواقع رفيق لك ،

« ملاحظة : ابلغت الأمير انك لن تعود من رحلتك الا في الغد ، فأجاب : فليكن غداً »

رقد الكونت ونسيسلاس بين الشراشف الحريرية التي تصنعها لنا الالهة « حظوة » ، تلك العرجاء الملكية التي يعتبر اهل العبقرية انها تمشي ببطء اشد من بطء العدالة والثروة ، لأن جوبيتير اراد ان لا تضع عصابة على عينيها .

والآن أصبح من الضروري شرح كيف توصل البارون هيلو

الى تجميع ارقام مهر اورتنس وتلبية النفقات المخيفة للشقة الفخمة حيث ستقطن السيدة مارنيف . إن تصوره المالي يحمل طابع الموهبة التي تقود المبذرين والعاشقين الى المستنقعات حيث تهلكهم المخاطر الكثيرة . لا شيء يكشف بطريقة أفضل ، القوة الفريدة التي تدسها النقائص والتي تعود اليها التجارب التي تتطلب قوة يقوم بتأديتها من وقت الى آخر الطامحون والشهوانيون وكل زبانية الشيطان .

٣٤

نموذج متعصب

صباح اليوم السابق ، لقي العجوز ، جوهان فيشر ، نفسه ، ان لم يسدد ثلاثين الف فرنك سحبها ابن أخيه ، مضطراً الى اعلان افلاسه ما لم يمده البارون بها .

هذا العجوز الوقور الأشيب البالغ سبعين عاماً يثق وثوقاً اعمى بهيلو الذي كان ، بالنسبة لهذا البونابرتي ، فيضاً من الشمس النابوليونية . كان يتمشى بهدوء مع موظف المصرف في غرف الأنتظار في الطابق الأرضي الصغير المستأجر بثمانمئة فرنك ، حيث يدير مختلف مشاريع الحبوب والعلف .

ـ امـارغـريت على خطوتين من هنا .

يعرف الرجل المرتدي الثياب الرمادية والمضفور بالشرائط الفضية ، نزاهة الالزاسي العجوز ، الى حد انه اراد ان يعهد اليه بمبلغ ثلاثين الف فرنك نقداً . لكن العجوز أجبره على البقاء لأن الساعة الثامنة لم تحن بعد .

توقفت عربة في الشارع فانطلق العجـوز يمد يـده بيقين المتيقن ، الى البارون الذي سلمه ثلاثين سنداً مصرفياً .

ـ ابتعد مسافة ثلاثة ابواب وسأقول لك السبب] قال فيشر العجوز : خذ ايها الفتى ، أضاف وهو يعد السنـدات لممثل المصرف الذي واكبه حتى الباب .

عندما غاب موظف المصرف عن الأنظار أعاد فيشر العربة حيث ينتظر ابن اخته المهيب ، مساعد نابوليون الأيمن ، وقال له وهو يقرّبه منه : ـ أتريد ان يُعرف في مصرف فـرنسا انـك سـددت عني الثـلاثـين الف فـرنـك عن طـريق تطهير السنـدات ؟ ـ هذا كثـير جداً أن احصـل عـلى تـوقيـع رجـل مثلك ! . . .

ـ قـال الموظف الكبـير فلنتمشى الى حديقتـك أيها الأب فيشر ؟ أنت رجل عنيد ، أضاف وهو يجلس تحت عريشَة ويرمقه من رأسه حتى قدميه .

ـ وضعت في المصرف ما يكفيني لمدى الحياة ، أجاب العجوز الجاف ، الهزيل العصبي المزاج ، الثاقب النظر ، بفرح ظاهر .

ـ هل الحرارة تؤذيك ؟ . .

ـ بالعكس .

ـ ما قولك في أفريقيا ؟ .

ـ بلاد رائعة ! . . توجه اليها الفرنسيون بقيادة عريف صغير .

ـ حتى ننقذ أنفسنا يفترض بنا ان نرحل الى الجزائر .

ـ وأشغالي ؟ . .

ـ يشتري محلاتك التجارية موظف في الحربية اعتزل دون ان يجد مصدراً للعيش ؟ ـ ماذا نفعل في افريقيا ؟

ـ نجهز مؤن الجيش من حبوب وعلف احضرت لك المهمة المصدّق عليها تحصل على توريداتك في البلاد على اساس سبعين أقل من الاسعار التي نعتمدها في حساباتنا .

ـ من سيسلمني هذه التوريدات ؟ . .

ـ الغزوات ،الضرائب، الخلفاء ،في الجزائر (بلد ما زال غير معروف كثيراً رغم وجودنا مع اننا دخلنا اليه منذ ثماني سنوات) كميات ضخمة من

الحبوب والعلف . لكن عندما تخص هذه المواد الغذائية العرب نأخذها منهم تحت سيل من الحجج ، ثم عندما تصير في حوزتنا يبذل العرب جهوداً لاسترجاعها . نحارب كثيراً من اجل الحبوب ، لكن لا تعرف بالضبط الكميات التي تسرق في الجانبين . ليس هناك متسع من الوقت لكيل القمح بالهكتوليتر كما هي الحال في السوق أو وزن العلف كما في شارع « دانفير » . الزعماء العرب ، كذلك فرساننا الجزائريون ، يفضلون المال فيبيعون هذه المواد الغذائية بأسعار بخسة . حاجات الأدارة الحربية هي ثابتة وتجري صفقات باسعار باهظة محسوبة على اساس صعوبة توفير المؤن وما يلاقيه النقل من صعوبات ومخاطر هذه هي الجزائر من الوجهة التموينية . إنها فوضى مربكة يخفف من حدتها الإشكال الذي تسقط فيه كل إدارة مولودة حديثاً . لا يمكن ان تتوضح الرؤية قبل عشر سنين على الأقل بالنسبة إلينا نحن الأداريين ، وإن كان للأفراد عيون أشد بصيرة . أرسلك اذاً الى هناك لتجمع ثروة لك ، اضعك في المكان المناسب كما فعل نابوليون ووضع على رأس المملكة ماريشالا فقيراً حيث تتأمن حماية التهريب السري . إني في حالة افلاس يا عزيزي فيشر . تلزمني مئة الف فرنك من هنا الى نهاية السنة . . .

ـ لا أرى ما يسيء إذا جمعتها من البدو ، عقب الالزاسي بهدوء . هذا ما يحصل في ظل الامبراطورية . . .

ـ سيأتي مالك مؤسستك ليراك هذا الصباح وليستدرك مبلغ عشرة آلاف فرنك ، أجاب البارون هيلو . أليس هذا ما يكفيك لترحل الى افريقيا ؟

ـ اتى العجوز بحركة تعني الموافقة

ـ أما في ما يتعلق هناك فكن مطمئنا ، أجاب البارون سأستوفي رصيد ثمن مؤسستك . إني بحاجة اليه .

ـ كله لك ، حتى دمي ، قال العجوز .

ـ أوه ! لا تخشى ، شيئاً ، أجاب البارون وهو يظن ان لخاله من الذكاء أكثر مما له في الواقع ، فاعمالنا الضريبية لا يجوز ان تربك نزاهتك لأن كل شيء يعود الى السلطة وانا الذي بسط السلطة هناك ، لذلك فإني راكن اليها ، هذا ، ايها الأب فيشر ، سرّ في الحياة والموت إني اعرفك ، لقد حدّثتك دون لف ولا دوران ؟

ـ قال العجوز : سأذهب وهل هذا يدوم ؟

ـ سنتان ! تحصّل مئة الف فرنك تكون ملكا لك لتعيش بسعادة وبحبوحة في بلاد « الفوج » .

ـ سيصير ما تريد شرفي هو شرفك ، قال بهدوء العجوز الصغير .

ـ هكذا احب ان تكون الرجال . لكن لن ترحل قبل ان

ترى حفيدتك السعيدة قد تزوجت . ستصبح كونتسّا .

إن الضريبة وغزوة الغزوات وما يسدده الموظف عن محلات فيشر لا يمكنها ان تجمع حالاً ستين ألف فرنك من اجل مهر اورتنس، بخمسمئة ألف فرنك تقريباً . والأربعين الف فرنك التي انفقت او انها في سبيل إنفاقها من أجل السيدة مارنيف. وأخيراً من اين حصل البارون على الثلاثين الفاً التي جاء بها الآن ؟ اليك كيف :

قبل ذلك ببضعة أيام ، توجه هيلو ليؤمن على نفسه بمبلغ مئة وخمسين الف فرنك ، ولثلاثة اعوام عند شركتي تأمين على الحياة . وقد تزود بعقد التأمين الذي دفع قسطه ثم دار بينه وبين البارون نوسنجان ، النائب الفرنسي ، الحديث الآتي ، في العربة التي يستقلها عند خروجه من جلسة مجلس النواب وهما عائدان ليتناولا الغذاء معاً :

ـ أيها . البارون ، إني بحاجة الى ستين الف فرنك وإني اطلبها منك . تتبنى اسماً مستعاراً افوض له لمدة ثلاث سنوات مقدار ما يتوجب لي من رواتب وقد ارتفع الى خمسة وعشرين الف فرنك في السنة ، أي خمسة وسبعين الف فرنك . ستقول لي : قد تموت » .

أومأ البارون موافقاً .

ـ هاك عقد تأمين بمئة وخمسين ألف فرنك يمكن ان يحول

لك لغاية ثمانين الفاً ، أجاب البارون وهو يتناول ورقة من جيبه .

ـ وماذا لو طيّروك من الوظيفة ؟ ... ! قال البارون المليونير وهو يضحك .

أما البارون الثري الآخر فأصابه القلق من هذا التساؤل .

ـ تأكد انو انا ما عملت هلملاحظة إلا حتى نبهك انو بقلبي في الك تقدير وبعطيك المبلغ . انت مربوط منيح ، لأنك ماضي للمصرف .

ـ أزوج ابنتي وانا دون ثروة كأكثرية الذين يستمرون في الأدارة في عهد جاحد حيث خمسمئة بورجوازي مرتاحين في مقاعدهم لن يعرفوا أبداً كيف يكافئون الناس المخلصين كما فعل الامبراطور .

ـ ! انت عندك جوزيفا ! أجاب عمدة فرنسا ، وها الشي بيفسر الحالي اللي انت فيا ! بينا تنا ، الدوق هيروفيل عمل معك خدمة كبيرة انو خطفلك هالعاهرة غصب عنك . عم اشعر انو بقدر اشفق عاحالتك اللي بتحزن . أضاف وهو يعتقد انه يستشهد بشعر فرنسي : اسمعلي يا صديقي : قطاع علاقاتك المعترة وانا بقلّك انك بترتاح .

تمت هذه الصفقة الفاسدة على يد مراب صغير يدعى فوفيف ، احد العملاء الذين يقيمون امام المصارف الكبيرة

كالسمكة الصغيرة التي تبدو وكأنها طوع كلب البحر .

وعد هذا الرجل البارون هيلو ، إذا كان يطمع بالتقرب من هذه الشخصية الكبيرة لينال عنده الحظوة التي ينشدها ، بأن يّحول له سندات بمبلغ ثلاثين الف فرنك لمدة تسعين يوماً ، ملتزماً بتمديدها أربع مرات ودون أن يضعها في التداول .

كان على خلف فيشر ان يدفع اربعين ألف فرنك ليحصل على المحل بالاضافة الى وعد بمؤن العلف في مخزن قريب من باريس .

إنها الورطة المخيفة ، حيث العواطف دفعت بانزه الرجال حتى الآن واكثر المهرة العاملين في الادارة النابوليونية الى الابتزاز لتصفية الربا ، والربا لتوفير ما يلزم لعواطفه ولتزويج ابنته .

عِلم التبذيرهذا وهذه الجهودالتي بذلت ، كانت ليظهر هيلو عظيمًا أمام السيدة مارنيف وليكون جوبيتير هذه الفراشة البرجوازية . لا يمكن ان يبذل المرء في سبيل تحصيل ثروة شريفة اكثر مما بذله البارون من نشاط وذكاء وجرأة ليكون الأول في إدخال رأسه في وكر للزنابير : كانت تكفيه أشغاله المتشعبة ، كان يستعجل باعة السجاد ويهتم بالعمال ويدقق في اصغر تفاصيل اسرة شارع فانو . كرس نفسه بكاملها للسيدة مارنيف
بالرغم من تأمين حضور جلسات المجالس لقد فرّغ نفسه ، وعائلته لا تدري باهتماماته هذه .

٣٥

تتلاقى نهايات القصص العادية في سياق هذه الرواية الحقيقية والمخيفة اخلاقياً

أحست إدلين ، التي ذهلت عندما علمت بانقاذ عمها ورأت مهراً يندرج في العقد ، بارتباك وسط السعادة التي احدثها زواج اورتنس الذي يتم وسط هكذا شروط مشرّفة . لكن عشية زواج ابنتها الذي اعده البارون في وقت يتوافق معه امتلاك السيدة مارنيف لشقتها في شارع فانو . أوقف هكتور استغراب زوجته عندما أدلى امامها بهذا البلاغ الوزاري :

ـ أدلين ، هذه ابنتنا قد تزوجت فانتهى بذلك قلقنا حول هذا الموضوع حان الوقت لنعتزل العالم ثلاث سنوات فقط . بعد في وظيفتي انهي بعدها المدة المطلوبة مني للاعتزال . لماذا نستمر في نفقات لا جدوى منها : يكلفنا إيجار الشقة ستة آلاف فرنك ، في بيتنا أربعة خدم ، وننفق على معاشنا ثلاثين الف فرنك في السنة . عليّ ان أفي بالتزاماتي لأني تنازلت عن مرتباتي لثلاث سنوات في مقابل المبالغ الضرورية لمشروع أورتنس ولما كان يستحق لعمك . . .

ـ آه ! حسناً فعلت يا صديقي ، قالت وهي تقاطع زوجها وتقبله في يديه .

هذا الاعتراف وضع حدّاً لمخاوف أدلين .

أجاب وهو يرفع يديه ويطبع قبلة على جبين زوجته :

ـ عندي بعض التضحيات البسيطة اطلبها منك . لقد عثروا لي في شارع « بلومي » في الطبقة الأولى ، على شقة جميلة جداً ، لائقة ومزخرفة باطر خشبية رائعة لا تكلف سوى الف وخمسمئة فرنك حيث لا تحتاجين الا لوصيفة واحدة واكتفي انا بخادم صغير .

ـ نعم يا صديقي .

ـ وهكذا عندما ندير بيتنا بهذه البساطة محتفظين بالمظاهر فلن تنفقي اكثر من ستة آلاف فرنك في السنة ، عدا مصروفي الخاص الذي اتكفل به . . .

قفزت الزوجة المخلصة من شدة فرحها الى عنق زوجها معبرة عن سعادتها المطلقة .

ـ أيُّ سعادة تغمرني عندما تبدو لي على نحو يضاعف حبي لك ! وأي رجل أعمال أنت ، قادر على خلق الموارد . . .

ـ نستقبل عائلتنا مرة في الاسبوع ، اما انا فنادرا ما أتناول عشائي في البيت ، كما تعلمين . . يمكنك دون مجازفة ان تتناولي

عشاءك مرتين في الاسبوع عند فيكتوران ومرتين عنداورتنس ، واعتقد ان في امكاني ان اعيد العلاقات بين كروفيل وبيننا الى سابق عهدها فنتعشى عنده مرة في الاسبوع، هذه الوجبات الخمس ، بالاضافة الى وجبتنا ، تغطي الاسبوع ، مفترضين بعض الدعوات خارج العائلة .

ـ قالت ادلين : سأقوم ببعض المدخرات .

ـ آه ! صاح الزوج ، انت جوهرة النساء .

ـ أيها الزوج الرباني الصالح ! أباركك حتى آخر زفرة لأنك زوجت عزيزتنا اورتنس على افضل الطرق .

هكذا بدأ تقليص بيت السيدة هيلو الجميلة ، وبتعبير آخر بدأ هجرها الإحتفالي الذي وعد به زوجها السيدة مارنيف .

تصّرف الأب كروفيل السمين ، المدعو بالطبع الى حفل توقيع عقد الزواج ، وكأن المشهد الذي بدأت به هذه القصة لا علم له به ، وكأنه لا ظلامة عنده ضد البارون هيلو . ظهر سيليستان كروفيل محبوباً لأنه تصرف بوحي من مهنته العطارة التي شغلها قديماً ، لكنه ما لبث ان بدأ بالتسامي والترفع مزهواً بكونه رائداً . وقال انه سيرقص في العرس .

ـ سيدتي الجميلة ، خاطب السيدة هيلو بلطف ، الناس امثالنا يعرفون كيف ينسون اي شيء كان . لا تقصيني عن بيتك بل تكرمي يوماً بزيارة مع اولادك لتضفي واياهم البهجة على

بيتي . اطمئني ، لن ابوح لك بشيء ، مما يجيش في قلبي . لقد تصرفت كالأبله وخسرت كثيراً

ـ المرأة الفاضلة يا سيدي ، لا تصغي لهذه الأحاديث التي تلمح اليها واذا وفيت بكلامك ، تأكد بأني سأكون سعيدة عندما أرى الانقسامات العائلية المحزنة ، وقد زالت . . .

ـ ها انت ! ايها الوجه المقطب ، قال البارون هيلو وهو يشد كروفيل بالقوة الى الحديقة ، تتجنبني في اي مكان حتى في منزلي . وهل لزام على هاويين عتيقين من هواة الجنس اللطيف الجميل ان يتخانقا من اجل تنورة ؟ هيا هيا ، ان مثل تلك الخناقات جديرة بالبقالين !

ـ يا سيدي ، انا لست رجلاً وسيمًا مثلك ووسائلي القليلة في الاغواء تمنع علي تعويض خسائري بالسهولة التي تجري بها امورك . . . .

ـ أي سخرية هذه ! أجاب البارون .

[ـ انها سخرية مسموحة للخاسرين من الرابحين] انتهت المحاورة التي بدأت على هذا المنوال بمصالحة تامة . لكن كروفيل اصر على انه يحتفظ بحقه في الثار .

والسيدة مارنيف رغبت بأن تكون مدعوة الى حفل زواج الآنسة هيلو ، غير ان مستشار الدولة اخطر الى دعوة جميع موظفي دائرته حتى نواب الرئيس ليتاح له رؤية خليلته العتيدة

في صالونه .

قامت البارونة ، المدبرة المنزلية الصالحة ، بعملية حساب خلصت منها الى ان الحفلة الساهرة لن تكلف اكثر من غداء بينما تسمح باستقبال عدد اكبر ، وقد اثار حفل زواج اورتنس ضجة كبرى .

وقف الماريشال امبرويسمبورغ والبارون نوسنجان بجانب اورتنس بينما وقف الكونت راستينياك والكونت بوبينو بجانب ستانبوك كشهود للعقد . واخيراً ومنذ بروز شهرة الكونت ستانبوك كان لا بد للمرموقين من اعضاء التجمع البولوني المهاجر من ان يتعرفوا عليه ، مما أوجب على الفنان دعوتهم الى عرسه .

وقد تمثل كل من مجلس الدولة والادارة التي ينتمي اليها البارون وفرقة الجيش التي تستقبل بالتحية الكونت فورزيم بمندوبين رؤساء . اصبح عدد الذين لا بد من دعوتهم ، ينوف على المئتين وبدا واضحاً بعد هذا ان مصلحة السيدة مارنيف تحتم عليها الظهور في كامل عزها في وسط هذا الجمع .

منذ شهر والبارونة تكرس ثمن ماساتها من اجل ابنتها بعدما احتفظت بأجملها لخزنتها . حصلت على خمسة عشر الفا من هذه الصفقة وامتصت خزنة اورتنس منها خمسة آلاف ، ولكن ماذا يشكل مبلغ عشرة الاف فرنك في فرش شقة عروسين ، اذا ما تطلعنا الى متطلبات الفخامة العصرية ؟ لكن

السيد والسيدة هيلو الابن والأب كروفيل والكونت فورزيم قد قاموا بتقديم الهدايا الثمينة لأن العم العجوز كان قد اقتطع مبلغاً احتياطياً ثمناً للأواني الفضية .

بفضل هذه الأعانات وغيرها كان من المفروض ان تطمئن اية باريسية متطلبة الى مكان استقرار الأسرة الناشئة في شقة اختارتها في شارع سان دومينيك ، قرب اسبلاناد الانفاليد . كل شيء كان على تناغم تام مع حبهما الصافي ، الصادق والمخلص .

وأخيراً وصل اليوم العظيم ، إنه ليوم عظيم ايضاً بالنسبة للأب واورتنس وونسيسلاس: قررت السيدة مارنيف الاحتفاء بالبيت الجديد غداة استسلامها وزواج العاشقين . من لم يشهد ، ولو مرة واحدة في حياته ، حفلة زفاف راقصة ؟ يستطيع كل واحد ان يسترجع ذكرياته ويبتسم بالطبع عندما يتراءى امامه هؤلاء الأشخاص المهندمون الذين لا تنقصهم اي اناقة إن في ثيابهم أم في وجوههم وتصفيف شعورهم . واذا كان لأي واقع اجتماعي ان يبرهن على تأثير المحيط ، فما من واقع كهذا يستطيع ان يشكل برهاناً اقوى على تأثير محيطه فيه . في الواقع ، إن تأنف البعض ينعكس على الآخرين غير ان الناس الذين اعتادوا الملابس المناسبة يبدون كأنهم ينتسبون الى فريق الذين حسبوا لاحتفال العرس حساباً في حياتهم . وأخيراً فلنتذكر

هؤلاء الناس الوقورين، هؤلاء العجزة الذين لا يبالون بشكليات الحياة فاحتفظوا بثيابهم السوداء التي هي لكل يوم ، والمتزوجين العتاق بوجوههم التي تنبىء بتجربة حياتهم الحزينة والتي يباشرها الفتيان بدورهم ، والملذات والرغبات القائمة هنا كغاز الحامض الفحمي في نبيذ الشمبانيا ، والصبايا الحسودات ، والنساء المهتمات بنجاح ، زينتهن ، والأهل الفقراء الذي يتعارض شكلهم المزري مع الناس المترفين . والشرهون الذين لا يفكرون الا في العشاء والمقامرون في المقامرة . الجميع كانوا هناك ، الأغنياء والفقراء ، الحاسدون والمحسودون ، الفلاسفة والموهومون ، الكل متحلقون كالنباتات في سلة حول زهرة نادرة : العروس . حفلة رقص الزفاف : انها العالم بصورة مصغرة .

٣٦

العروسان

في اشد اللحظات حماسة ، اخذ كروفيل البارون بذراعه وهمس في اذنه بشكل طبيعي جداً ـ الله ! ما اجمل هذه السيدة الصغيرة المتشحة باللون الوردي والتي ترشك بسهام نظراتها . . .

ـ من ؟

زوجة نائب الـرئيس الذي تسنـده انت الله وحده يعلم كيف ! إنها السيدة مارنيف

ـ كيف عرفت هذا ؟

ـ عجبا يا هيلو ! احاول ان اغفر لك سيئاتك نحوي اذا ما قدمتني اليها في بيتها مقابل استقبالك عند هليوييز . كل الناس يسألون من تكون هذه المخلوقة الساحرة ؟ هل انت على ثقة من ان احد موظفيك لن يفسر الطريقة التي صارت فيها المصادقة على تعيين زوجها ؟ . . . أوه ! أيها الغنيج السعيد ، إنها أفضل من وظيفة . . . . آه ! سأمر يوماً بمكتبه . . . هذا هو الواقع ، فلنكن اصدقاء « باسينا » ؟ . . .

ـ اكثر من اي يوم مضى ، قال البارون للعطار ، وأعدك بأن اكون ولداً صالحاً . خلال شهر سأرتب لك غداء مع هذا الملاك الصغير يا رفيقي القديم . أنصحك بأن تتصـرف مثلي وتتخلى عن الشياطين . . .

تركت ابنة العم بِث ـ القاطنة في شـارع فانـو في شقة صغيرة جميلة في الطابق الثالث ـ تركت الحفل الراقص الساعة العاشرة لتعود وتتفحص اسهم الالف مئتي فرنك والموزعة في حسابين ، ملكيـة رقبة أحـدهما تعـود الى الكونتسّـا ستانبـوك والأخرى الى زوجة هيلو الشاب . والآن نفهم كيف استطاع السيد كروفيل ان يتحدث الى صديقه هيلو عن السيدة مارنيف

ويكشف سراً يجهله الناس جميعاً ، لأن السيد مارنيف كان غائباً فلم يدر به سوى ابنة العم بِتْ والبارون وفاليري .

ارتكب البارون خطأ ، عن قلة احتراس ، بطلبه من السيدة مارنيف الظهور متبرجة اكثر مما هولازم لزوجة نائب الرئيس ، مما أثار غيرة النساء من تبرج فاليري سرى الهمس بين الحاضرين من تحت المراوح لأن الضيق الذي مرّت به عائلة مارنيف كان قد شغل المحلة وحدا الموظف لأن يطلب الاعانات في الوقت الذي شفق البارون بالسيدة . مع ذلك لم يدر هكتور كيف يخفي نشوته وهو يرقب نجاح فاليري المحتشمة ، المتأنقة والمحسودة والتي خضعت لتجربة دقيقة يحذرها كثير من النساء إذ يدخلن للمرة الأولى في عالم جديد .

بعدما أمّن البارون زوجته وابنته وصهره في عربة وجد الفرصة سانحة حتى ينسحب تاركاً لابنه وكنته مسؤولية رب العائلة في البيت . صعد الى عربة السيدة مارنيف وقادها الى شقتها ، لكن السيدة كانت صامتة وغارقة في التفكير ومسحة من السوداوية تعلو وجهها .

ـ أرى ان سعادتي تجعلك حزينة يا فاليري ، قال لها وهو يجذبها اليه داخل العربة.ديا صديقيْ كيف لا تريد من امرأة مسكينة ان لا تكون دائمة التفكير وهي ترتكب الاثم للمرة الأولى في حياتها ؟ وحتى لو كان شطط زوجها يعيد اليها حريتها ؟ اتعتقد أني بلا احساس ؟ بلا ايمان أو معتقد ؟ هذا

المساء فرحت انت الفرح الأشد وقاحة واظهرتني للملأ في صحبتك اظهاراً ولا ابشع حقاً ، اي طالب كان ، كان سيكون اقل غروراً منك . والنساء مزقتني بمدد هائل من الغمزات والكلمات اللاذعة ! أية امرأة لا تتمسك بصيتها لقد اخفتني . آه ! إني بكليتي لك ، هيا ! ليس لي ما يبرر خطيئتي سوى ان اكون أمينة لك . ايها الوحش ! قالت وهي تضحك وتستسلم للقبلات ، إنك تعلم جيداً ماذا تفعل . السيدة كوكي ، زوجة رئيس المكتب ، تقدمت وجلست بالقرب مني لتتأمل تخريجات ثوبي . «هل هذا من إنكلترا ؟ هل كلفك ذلك غالياً يا سيدتي ؟ لا اعرف عن ذلك شيئاً ، هذا ما أجبتها به . هذه التطاريز ورثتها عن امي ولست شديدة الثراء حتى ابتاع مثيلاً لها ! » .

وانتهت السيدة مارنيف ، كما نرى ، بافتتان وسيم الامبراطورية العتيق افتتانا خلابا اعتقد معه انه يجعلها ترتكب اول آثامها ، وانه اوحى اليها من العواطف ما انساها الواجبات المترتبة عليها . لقد تذكرت مارنيف السّفيه عندما هجرها بعد ثلاثة أيام من زواجها ولأسباب مخيفة . من وقتها ظلت أرصن فتاة ، وسعيدة جداً لأن الزواج كان يبدو لها شنيعاً من هنا كان حزنها الحالي .

ـ ماذا يحصل لو كان الحب كالزواج ؟ . . . قالت وهي تذرف الدموع .

هذه الأكذوبات المغناجة التي تطلقها كل النساء تقريبا عندما يكنَّ في وضع فاليري ، كانت تجعل البارون يتخيل انه مقبل على اطايب الجنة. وفي الوقت الذي كانت فاليري تقوم ببعض المناورات كان الحبيبان : الفنان وأورتنس ، ينتظران بفارغ صبر ، البارونة لتمنح بركتها وتطبع آخر قبلة على وجنتي ابنتها .

في الساعة السابعة صباحاً ، والبارون في أوج سعادته لأنه وجد الصبية الأكثر طهارة والشيطان الأكثر حنكة ، عاد ليرفع عن السيد والسيدة هيلو الشاب الأرهاق الذي وضعهما فيه هؤلاء الراقصون والراقصات الغرباء تقريباً عن البيت ، انتهوا بالاستيلاء على حلبة الرقص كما يفعلون في كل مرة واستسلموا الى رقصات « الكدريل » الأخيرة التي لا نهاية لها بينما لاعبو « البويوت » يتشبثون بطاولاتهم والأب كروفيل يربح ستة آلاف فرنك .

والصباح حملت صحف باريس في زاوية « محليات باريس » المقالة الآتية : « أقيمت في كنيسة القديس توماس داكان هذا الصباح ، صلاة الاحتفال بزواج السيد الكونت ستانبوك والانسة أورتنس هيلو ابنة البارون هيلو افري مستشار الدولة ومدير وزارة الحربية وابنة اخ الكونت الشهير فورزيم .

« جمع هذا الاحتفال كثيراً من الناس وقد تميز هذا الجمع الغفير بحضور بعض الشخصيات الفنية المشهورة ، أمثال :

ليون دولورا ، جوزف بريدو ، ستيدمان ، بيكسيو ووجهاء إدارة الحربية ومستشارية الدولة وكثير من اعضاء المجلسين ، وأخيراً رؤساء المهاجرين البولونيين ، الكونت باز والكونت لاجنسكي وغيرهما . . . السيد الكونت ونسيسلاس ستانبوك هو ابن ابن اخ القائد الشهير شارل الثاني عشر ، ملك اسوج والكونت الذي كان قد ساهم في الانتفاضة البولونية ، جاء يبحث عن ملجأ في فرنسا حيث وردته رسائل تقدير على شهرته الحقة وموهبته الفذة » .

هكذا وبالرغم من العوز المضني الذي يجتازه البارون أفري ،لاينقصه أي شيء مما يتطلبه الرأي العام ، حتى الشهرة وفرتها الجرائد لزواج ابنته الذي توازن الاحتفال به مع زواج هيلو الابن من الآنسة كروفيل . هذا الاحتفال خفف من عبء المقاصد التي حافظت على الوضع المالي للمدير ، كذلك فأن المهر الذي خصص لابنته فسّر الضرورة التي وجد فيها والتي الجأته الى الاستدانة .

هنا تنتهي ، بشكل او بآخر ، مقدمة هذه القصة وهذه الحكاية هي ، بالنسبة الى المأساة التي تتممها ، ما هي البوادر بالنسبة الى العرض ، وما هو كل عرض بالنسبة الى كل تراجيديا كلاسيكية .

٣٧

خواطر أخلاقية في اللاأخلاقية

في باريس ، عندما تقرر امرأة ان تتاجر بجمالها فذلك ليس سبباً كافياً لكي تجمع ثروة . ان المرء يستطيع ان يصادف في باريس مخلوقات بديعة ، ذكية جداً ، تعيش في ضحالة فظيعة ، وتنتهي بشكل سيء حياتها التي بدأتها بالملذات .

واليكم السبب : ان تكريس المرأة نفسها لمهنة غانية ـ هذه المهنة المعيبة ـ بقصد جني الفوائد مع الاحتفاظ بثوب الزوجة البورجوازية الشريفة لا يكفي .

لا تصل الرذيلة بسهولة الى الانتصارات التي تتوخاها وهي تتشابه من هذه الوجهة مع العبقرية ، فالاثنتان ، تحتاجان الى توافر ظروف ملائمة ولو نحن استبعدنا الثورة ومراحلها الغريبة لما كان الامبراطور ، ولما اعتبر سوى طبقة ثانية لفابير . إن الجمال المعروض دون معجبين ، دون شهرة ، دون صليب الفضيحة الذي يعدل الثروات المبددة ليس الا كوريج الرسام في مخزن للحبوب ، والعبقرية التي تحتضر في سقيفتها .

تضطر أي غانية في باريس ان تعثر أولا على ثري يتوله بها ليمنحها ما تستحق . عليها بالأخص ان تحتفظ بأناقة عالية تشكل بالنسبة لها العلامة الفارقة ، وتختلق صيغاً من المناورات الكلامية والحركية لتبجل الرجال وتثني على انانيتهم وتتمتع بروحية صوفي ارنولد التي توقظ بلادة الأغنياء ، واخيراً يتوجب عليها ان تثير الاعجاب والرغبة لدى الفاسقين اذ تتظاهر باخلاصها لأحدهم الذي يصبح بفضل سعادته محط غيرة الآخرين وحسدهم . هذه الشروط التي يدعوها هذا النوع من النساء « الحظ » تتحقق بصعوبة في باريس ، مع انها مدينة مليئة بأصحاب الملايين ، والعاطلين عن العمل والضجرين وأصحاب النزوات . لا شك ان العناية الألهية قد حافظت بقوة على اسر الموظفين والبورجوازية الصغيرة حيث تضاعفت على اقل تقدير الحواجز بسبب البيئة التي يجري فيها تطورهم .

مع ذلك فاننا نجد الكثير من امثال السيدة مارنيف في باريس لأهواء صادقة وللضرورة معاً ، من هؤلاء النساء من ينسقن دفعة واحدة كالسيدة كولفيل التي تعلقت طويلاً بأحد اشهر خطباء جبهة اليسار ، المصرفي كيلر ، ومنهن من يندفعن بكبريائهن كالسيدة دو لابودري التي كادت أن تظل شريفة بالرغم من هربها مع لوستو ، هؤلاء تجذبهن متطلبات التأنق والتبرج وأولائك تضطرهن استحالة تأمين العيش للأسرة بمرتبات ضئيلة جداً . إن شحّ الدولة او المجالس ، إذا اردت ، تؤدي

الى الكوارث وتحدث المفاسد . وفي هذه الظروف تشفق القلوب على مصير الطبقات العاملة التي تبدو وكأن اصحاب الفبارك يشدون على خناقهم ، غير ان الدولة تبدو قاسية اكثر مئة مرة من الصناعي الجشع ، إنها تدفع ، عبر معالجاتها ، الاقتصاد الى الفوضى والعبث في الصناعة بقدر ما تعمل تقبض . أما الدولة فماذا تعطي الكثير من الشغيلة الوضيعين والمخلصين ؟ .

الانحراف عن الطريق القويم هو بالنسبة الى المرأة المتزوجة ، جريمة لا تغتفر ، لكن هناك درجات في هذا الموضوع . فبعض النساء اللواتي ما زلن على مسافة ، من الفساد ، يخفين آثامهن ويبقين عفيفات ظاهرياً كاللتين أتينا على ذكر مغامرتيهما ، بينما البعض الآخر يجمعن الى خطاياهن خزي المضاربة. السيدة مارنيف هي من بعض وجوهها نموذج عن هؤلاء المتزوجات الفاسقات الطموحات اللواتي يقتنعن منذ البداية بالفسق مع كل. نتائجه ، واللواتي قررن جمع الثروة عن طريق اللهو ودون رقيب على الوسائل ، وهؤلاء جميعهن ، كالسيدة مارنيف ، يقوم أزواجهن بدور المشغل والمتواطىء اللابسون هؤلاء المكيافيليون تنورة هن النساء الأكثر خطراً ، ومن بين كل الأنواع الباريسية العاطلة ، هن الأسوأ إن الغانية المعلنة ، الحقيقية ، كالجوزيفات والشونتزيات .وغيرهن يحملن في صراحة وضعهن ، إنذاراً مضيئا كفانوس البغايا الأحمر هنا تتوضح لأي رجل غاية ذهابه الى مثل هذه البؤر ، لكن حلاوة

الشرف والتظاهر بالفضائل والمناورات الاحتيالية التي تتغاوى بها إمرأة متزوجة لا تترك مجالاً الا لرؤية حاجات الأسرة البسيطة حتى والتافهة ، وتتصدى ظاهرياً للحماقات ، هذه كلها تؤدي الى الهلاك البطيء لكنها تفتقر اذا تشعبت ونظر اليها ، كل واحدة على انفراد دون وضع تفسير لها . إنه سجل النفقات البشع الذي يبتلع الثروات وليست النزوات الفرحة عندما رب عائلة يفلس ، وحتى رضى الغرور لا يؤاتيه في الفقر والبؤس .

هذا الكلام سيتسدد كالسهم الى قلوب كثير من العائلات . نشاهد مثيلات مارنيف في كل الطبقات الاجتماعية حتى وفي البلاط ، لأن فاليري هي واقع مؤلم ، ولكن للأسف ان هذا الوصف لن ينقذ أحداً من تلك العادة المستهجنة في حب الملائكة البريئي الوجوه الباسمين بلطف وغنج ، الحالمين برقة ، الحاملين قلوباً هي خزنة حديدية .

٣٨

حيث نرى تأثير آراء كروفيل

بعد ثلاث سنوات تقريباً من زواج اورتنس ، وفي عام ١٨٤٠م ، عاد البارون هيلو أفري الى صوابه فتراصن لينقطع عن

ملذاتـه ، حسب تعبير الجـراح الأول للملك لويس الخـامس عشر ، وكانت السيدة مارنيف قد كلفته مرتين أكثر مما كان ينفق في سبيل جوزيفا . لكن فاليري ، المتأنقة دائما ، كانت تتصنع ببساطة إمرأة نائب رئيس ، وتحتفظ بـالترف لمـلابس نومهـا وملابس الجلوس في البيت . كانت تضحي بخيلائها كباريسية من اجل حبيبها هكتور . وعندمـا تخرج الى عـرض مسرحي كانت تظهر دائما في اجمل قبعة وفي اعـلى درجة من التبـرج والتأنق ، كان البارون يصطحبها في عربة ذات حجرة مختارة .

كانت الشقة القائمة في شارع فانو ، في الطابق الثاني من مبنى حـديث واقـع بـين سـاحـة وحـديقـة ،تتنفس الفضيلة والشرف . كان الترف يبدو في السجاد العجمي المفروش وفي الرياش الفخم المتناسق جداً ، بينما غرفة النوم ، على العكس من ذلك ، يظهر عليها الافراط في التبذير ، البرادي المطرزة ، الكشمير ، السجف المرخيـة المصنوعـة من الديباج ، مدخنـة زخرف أشكالها ستيدمان ، ومصغر لمرفأ دنكرك مرهق بالآيات العجيبة . ما كان هيلو ان يقتنع بوجود فاليري في مسكن يقل بذخاً وجمالا عن مستنقع جوزيفا المرصع بالذهب والجواهر .

الصالون فرش بالدمقس الاحمر ، وغرفة الـطعام بخشب السنديان المحفور ، كان ذلك بفضل البارون الذي استعجل في وضع كل شيء في محله المناسب من الترتيب والتنسيق خلال ستة أشهر اضاف خلالها الترف المتين الى الترف العابر عندما

ابتاع الرياش الغالية الثمن ، كالأواني الفضية التي جاوزت فاتورتها الأربعة وعشرين الف فرنك . اكتسب منزل السيدة مارنيف في أقل من سنتين شهرة لجماله ، وكذلك فاليري ذاتها التي تميزت سريعاً كامرأة محبوبة وظريفة المجلس .

وتبريراً لتغيير وضعها سرت اشاعة مفادها انها حصلت من أبيها الطبيعي « الماريشال مونتكورني » على ارث ضخم .

وفي نظرة مستقبلية على حياتها ـ أضافت فاليري الرياء الديني الى الخبث الاجتماعي . كانت تتردد بشكل منتظم ودقيق الى قداديس الآحاد حيث كانت تتثبت في الطهارة والقداسة ، وتجمع التبرعات لأنها انتسبت الى صف المحسنات ، وتتناول القربان المقدس وتقوم بالاحسان في محلتها . لكن من جيب هكتور .

كل شيء عندها كان يسير على ما يرام . وهكذا فان كثيراً من الناس كانوا يؤكدون طهارة علاقاتها متذرعين بعمر مستشار الدولة الذي راحوا ينسبون اليه ميلا محض افلاطوني للطافة روح مدام مارنيف وسحر اساليبها وذكاء حديثها .

كان البارون ينسحب في نصف الليل تقريباً مع كل الناس ويعود بعد ربع ساعة . سر هذا السر العميق يكمن في هذا : كان السيد والسيدة اوليفييه حاجبي هذا المنزل ، وقد توصلا الى ذلك بفضل سعي البارون صديق المالك الذي طلب منه بواباً فأرسل بطلبهما وانقذهما من مسكنهما القاتم والمزري في

شارع دوايني ونقلها الى مسكن مريح وجميل في شارع فانو. وقد شغلت السيدة أوليفييه في الماضي وظيفة قيمة على بياض عائلة شارل العاشر وتخلت عنها مع سقوط الملكية. وهي ام لثلاثة اولاد: البكر موثق عقود، كان موضوع عبادة الزوجين اوليفييه وقد توسطت له مدام مارنيف فاعفي من الخدمة العسكرية لواحد من تلك الاسباب الصحية التي تعرف اللجان الطبية ان تكتشفها عندما يهمس لها بذلك وزير نافذ ما. لذلك فان الزوجين اوليفييه كانا على اتم استعداد لبذل أي شيء في سبيل البارون او المدام. ماذا يستطيع الناس ان يقولوا؟ لا شيء. يتساهل الناس كثيراً مع سيدة صالون للهو. اضف الى ذلك ان السيدة مارنيف قد جمعت الى كل ميزاتها نفوذها السري. وهكذا اعتاد كلود فينيون، الذي تبوأ مركز أمين سر الماريشال أمير ويسمبورغ والذي يطمح الى الانتساب لمستشارية الدولة بصفة رئيس مكتب تقديم العرائض، ان يؤم هذا الصالون الذي يغشاه بعض النواب المرحين والمقامرين.

تألف مجتمع السيدة مارنيف بروية حكيمة، ولم يلتق فيه الا اهل الفكر والعادات المتشابهة، المهتمين بمساندة بعضهم البعض، وباعلان فضائل ربة الدار، تلك الفضائل اللانهائية.

احفظوا هذه الحكمة: الرفقة هي الرباط المقدس الحقيقي في باريس، فالمصالح لا بد ان تنفصل في يوم او آخر اما اهل

الفسق فيتفاهمون دائماً

منذ الشهر الثالث من استقرارها في شارع فانو اخذت السيدة مارنيف تستقبل السيد كروفيل الذي اصبح عمدة دائرته وضابط جوقة الشرف .

تردد كروفيل طويلا ، وكان الأمر يتعلق بالتخلي عن اللباس المشهور للحرس الوطني الذي كان يتخفر به في التويليري متخيلا نفسه مساوياً للأمبراطور في فنونه العسكرية ، لكن السيدة مارنيف نصحته بارتياد الطموح فكان هذا اقوى عنده من الغرور.

رأى العمدة ان صلاته بالآنسة هيلوييز بريزتو اصبحت متعارضة مع مركزه السياسي . وقبل ارتقائه الى عرش البورجوازي كانت غرامياته تحاط بالسرية التامة لكن كروفيل ، كما نتوقع ، كان قد دفع الثمن الذي يخوله الانتقام من انتزاع جوزيفا منه قدر ما يريد الانتقام وقد دفع الثمن باكتتابه ستة آلاف فرنك كدخل باسم فاليري فورتان ، الزوجة المنفصلة ملكيتها عن السيد مارنيف .

كشفت فاليري المتمتعة ، ربما عن طريق أمها ، بعبقرية خاصة بالمرأة التي تبيع الحب ، هذا الخطيب المضحك من الوهلة الأولى .

إن عبارة « في حياتي لم احصل على سيدة مجتمع » التي قالها كروفيل لليزبت وحملتها ليزبت الى العزيزة فاليري قد اسقطت بوضوح في الصفقة التجارية التي عاد لها منها مبلغ ستة آلاف

فرنك كدخل من خمسة في المئة . عندها لم تتوان فاليري لحظة عن الظهور مظهر المتأنقة الساحرة في عيني الوكيل التجاري الذي سبق له ان عمل في خدمة سيزار بيروتو .

كان كروفيل قد تزوج زواج مصلحة عندما اقترن بابنة طحان في « بري »، وهي ابنة وحيدة ، أدخلت ثلاثة ارباع أرثها في ثروته ، ذلك ان باعة المفرق يثرون ، في معظم الأحيان ، اقل بأعمالهم من مصاهرتهم للدكان او للاقتصاد الريفي . إن عدداً لا يستهان به من المزارعين والطحانين ومربي الماشية في ضواحي باريس يطمعون لبناتهم بأمجاد مكتب صيرفة ويرون في بائع مفرق او بائع مجوهرات أو صرّاف صهراً مفضلا على كاتب او محام لا يطمئنون الى ارتقائه الاجتماعي فهم يخافون ان يزدري بهم لاحقاً هؤلاء البارزون في البورجوازية .

ماتت السيدة كروفيل المرأة القبيحة المبتذلة والحمقاء ولم تقدم لزوجها أية متعة سوى متعة الأبوة . وقد ماتت في وقتها .

في اول عهده بمهنته التجارية، قام هذا الفاسق ، الملجوم بواجبات مركزة ، بدور « تانتال » . ولئن كان على علاقة بالنساء الباريسيات « كما يجب » حسب تعبيره ، فقد كان يرافقهن مع تحيات الحانوتي وهو يتأمل لطفهن وطريقة اقتدائهن بالعصرنة وبكل مؤثرات ما نسميه « العراقة » ان يرتقي الى احدى حوريات الصالون ، فهذا اقصى ما كان يبتغيه منذ فتوته ، وما يكبته في داخله .

الحصول على حظوة السيدة مارنيف لم يكن ، إذا ، بالنسبة اليه دفعاً وحماسة لمخيلته بل ايضاً مظهر كبرياء وزهو وانانية . وتنامى طموحه مع نجاحاته واستمتع عقلياً بملذاته وما ان تكبل العقل حتى تحرر القلب فتضاعفت السعادة الى عشرة امثالها . كما ان السيدة مارنيف حثت كروفيل الى مساع لم يكن يدري بوجودها ، ذلك ان لا جوزيفا ولا هيلوييز احبتاه بينما كانت تعتبر السيدة مارنيف ان من الضروري خداع هذا الرجل الذي وجدت فيه مدداً أزلياً .

إن خداع الحب المأجور هو اكثر سحراً من الواقع . الحب الحقيقي يشتمل على مخاصمات كمخاصمات العصافير تنتهي بجروح في الجسم ، لكن الخصام من أجل الاستقلال هو ، على العكس من ذلك ، نوع من مداعبة حبّ الذات عند المخدوع . هكذا ، وبسبب من ندرة اللقاءات ، بقيت الرغبة عند كروفيل متمنطقة بثوب العاطفة، وكان يصطدم دائما بالفضيلة الصلبة الممتنعة عند فاليري التي تتظاهر بعذاب الضمير وتتكلم عما يمكن ان يفكره فيها والدها حيث هو ، في فردوس الابطال .

كان على كروفيل ان ينتصر على نوع من البرودة ، اوهمته هذه الثرثارة الرقيقة انه بالفعل ينتصر عليها وقد تظاهرت باستسلامها لعاطفة هذا البورجوازي الجامحة ، غير انها استعادت ، كمخجولة ، كبرياء المرأة البريئة والفاضلة كأنكليزية لا اكثر ولا اقل . وكانت تسحق كروفيل دائما ، بوطأة

كرامتها ، لأن كروفيل كان قد صدق على الفور انها فاضلة.إن فاليري تتمتع بمميزات من اللطف والحنان تجعلها أمرا ملحاً لكل من كروفيل والبارون .

في حضور الناس كانت تظهر للجمع المفتون بمظهر البريئة المحتشمة والحالمة والعفيفة التي لا تؤاخذ ، والظريفة التي تسمو بلطفها ورقتها وبراعة التوليد في حديثها : لكنها في حقيقتها كانت تتجاوز العاهرات في فسقها ولهوها وخصوبة الاختلاقات .

يحلو هذا التضاد كثيراً لشخص من نوع كروفيل ، فهو سعيد بكونه المؤلف الوحيد لهذه الكوميديا ، ويظنها ممثلة على المسرح لمتعته وحده ، فيروح يضحك لهذه المخادعة الممتعة وهو يتأمل الممثلة باعجاب .

٣٩

الوسيم هيلو وقد تحطم

امتلكت فاليري البارون هيلو وأجبرته على إظهار شيخوخته بعد إحدى مدائحها الرقيقة فيه التي يمكن استخدامها في وصف الروح الشيطانية عند هؤلاء النساء .

يحصل أحياناً ، عند التنظيمات المتميزة ، ان ينكشف الوضع على حقيقته كالمكان المحاصر الذي يظهر رباطة جأش لمدة طويلة وعندما أدركت فاليري قرب انحلال وسيم الامبراطورية ، رأت من الضروري استعجال هذا الانحلال

ـ لماذا تزعج نفسك يا عزيزي المتذمر ؟ قالت له بعد ستة أشهر من زواجهما السري المزدوج الخيانة الى مَ تطمح ؟ تريد ان تغدر بي ؟ أما انا فسأجدك أكثر حسنا ان لم تتبرج اترك من أجلي شعرك المستعار هل تظن ان لمعان جزمتك وحزامك المطاطي وحوزتك المتينة وذؤابتك المزيفة هي ما احبه فيك ؟ ثم انك كلما طعنت في السن قل خوفي ان تنتزعك مني امرأة أخرى .

كان البارون يؤمن بالصداقة الربانية بقدر ما يؤمن بحب السيدة مارنيف التي ينوي ان يقضي حياته معها ، فعمل بهذه النصيحة الخاصة وانقطع عن صباغ شعره .

وبعدما سمع هكتور الوسيم والكبير كلامها المؤثر ، ظهر ذات صباح مجللا بالشيب ، وقد اثبتت السيدة مارنيف لعزيزها هكتور انها رأت أكثر من مئة مرة الخط الابيض الذي يظهر عند نمو الشعر بعد الصباغ .

ـ شعرك الأشيب يتناسب كثيراً مع وجهك ، قالت له وهي ترمقه ، يجعله اكثر نعومة . إنك افضل بكثير ، إنك أكثر سحراً .

وهكذا انتهى البارون بان نزع عنه صدرته الجلدية ومشده وتخلص من كل زينته وترهل بطنه واستبانت السمنة . وتحولت السنديانة الى برج ، واصبحت حركاته المتثاقلة اكثر رعباً بان معها البارون اكثر هرماً وخاصة عندما راح يقوم بدور لويس الثاني عشر .

احتفظ حاجباه بسوادهما فذكرا بشكل مبهم بالوسيم هيلو كما تذكر انهيارات جدران الاقطاعيين ، اذ تحتفظ بقطع منقوشة ، بما كانت عليه القصور في عهدهم الذهبي .

هذا التنافر جعل نظره نشيطا وفتياً واكثر فرادة في هذا الوجه الاسمر الذي ازهرت فيه منذ زمن تلاوين فارقة . وقد بدت أيضاً بعض الخطوط المشدودة في التجاعيد وكأنها تولد عصيانا للجهود المبذولة في سبيل الحب ، ضد الطبيعة . حالة هيلو تمثل انهياراً بشرياً حيث الرجولة تبرز بأنواع من الدغل في الاذنين والأنف والأصابع ، محدثة ما يحدثه الطحلب النابت على الآثار شبه الأبدية للامبراطورية الرومانية .

كيف استطاعت فاليري ان تحتفظ بكروفيل وهيلو جنباً الى جنب في الوقت الذي يريد الرائد الحقود ان يسجل انتصاراً مدوياً على هيلو؟

دون الاجابة حالا عن هذا السؤال الذي ستجيب عنه الدراما ، يمكن الملاحظة ان ليز بت وفاليري قد اخترعتا آلة غريبةيساعددورها القادر في بلوغ هذه النتيجة .

أصيب مارنيف بمس من الجنون عندما رأى زوجته وقد أضفى عليها الوسط الذي تتبوأه ، حسناً وبهاء تماماً كالشمس في نظام كوكبي ، وبدا امام الناس وكأنه شعر ان نيرانه تشتعل من أجلها . هذه الغيرة ضايقت السيد مارنيف وعكرت مزاجه ورفعت من اسهم فاليري رفعاً عجيباً ، وكان مارنيف يسجل مع ذلك ، ثقته بمديره الذي بدأ ينحل في حلم مفرط يكاد يكون مضحكاً . الشخصية الوحيدة التي كانت تزعجه كانت كروفيل دون غيره

إن مارنيف الذي حطمته المفاسد الفاجرة الخاصة بكبريات العواصم والتي وصفها الشعراء الرومان والتي من اجلها فقدت الحشمة العصرية اسمها ، قد غزت البشاعة وجهه واصبح كوجه الشمع في مشرح العلوم الطبيعية . لكن هذا المرض المتجول ، المرتدي أجمل الثياب ، كان يؤرجح ساقيه النحيلتين في بنطلون أنيق وصدره النحيل المغطى بالقماش الأبيض ، وقد عطره المسك الذي يزيل رائحة النتن من الفساد البشري .

وضعت فاليري زوجها مارنيف في اجواء الثروة ، والرتبة الجديدة ، ودرجة الصليب فتناغم معها كلها واستتب له الأمر ، غير ان بشاعة النقيصة التي تلفظ انفاسها وتنتعل الكعبيات الحمراء اخافت كروفيل الذي لم يتحمل بسهولة نظرات نائب الرئيس ، فمارنيف أصبح كابوس العمدة .

واذ انتبه الى السلطة العجيبة التي اعطته اياها ليز بت وزوجته ، راح يتسلى بها ويلعب كما لو كانت آلة موسيقية . وبما

ان ورق اللعب اصبح المورد الوفير لهذه النفس المنهكة قدر نهك الجسد ، راح « ينتف ريش » كروفيل ويجرده من ماله . وكان كروفيل يظن نفسه مضطراً الى مسايرة الموظف المحترم لأنه يخونه !

عندما رأى البارون ، كروفيل كصبي صغير مع هذه المومياء القبيحة ، السافلة التي كان فسادها بالنسبة الى العمدة رسائل مختومة ، ورأى خاصة فاليري تحتقره الى حد بعيد وتهزأ به كمن تهزأ . ببهلول ، تسرب الى نفسه اعتقاد راسخ انه في منأى من كل خصومة ، ظل يدعوه باستمرار الى العشاء .

كانت فاليري ، التي يحميها عاشقان وزوج غيور ، قد لفتت الأنظار وأثارت الرغائب والميول، في الدائرة التي يمتد اليها سناؤها

هكذا ، ومع احتفاظها بالمظاهر ، استطاعت في ثلاث سنوات تقريباً ان تحقق اصعب شروط النجاح الذي تبحث عنه الغانيات ، ونادراً ما يبلغن اليه يساعدهن على ذلك القفز فوق الفضائح ، والجرأة وعلنية حياتهم وكماسة صقلها شانو ورصعها بدقة هكذا جمال فاليري الذي لم يطمره شارع داوينه والذي يقدر بأكثر من قيمته ويحدث الغصة والأسى في القلوب ! . . . كان كلود فينيون يعشق فاليري خفية .

هذا التفسير الاستذكاري ، الضروري عندما نعود بالناس الى ثلاث سنوات في الماضي ، هو كرصيد فاليري . وآلان لنعود الى رصيد شريكتها ليزبت .

٤٠

احد جروح باريس السبعة

تحتل ابنة العم بت في بيت مارنيف مركز قريبة شغلت مركز مرافقه وإمرأة مهام ، لكنها كانت تجهل الاذلالات المضاعفة التي غالبا ما تكدر المخلوقات الناعسة فتقبل بأوضاعها المتشابكة .

تمثل كل من ليز بت وفاليري المشهد المؤثر لهذه الصداقات المتينة جداً والمستبعدة بين النساء ، التي يذمها الباريسيون ويغتابونها ؟ فالتضاد القائم بين طبيعة اللورينة الذكرية والجافة وطبيعة فاليري الساحرة والموحية ، انصب في خدمة الذم والافتراء . وقد اعطت السيدة مارنيف ، دون ان تدري ثقلاً لهذه الثرثرات وذلك بما اظهرته من عناية بصديقتها ، في سبيل مصلحة زواجية ادت كما سنرى ، الى ضمان انتقام كامل لليزبت .

حصل عند ليز بت تطور هائل ، وفاليري التي تريد ان تنسق ثيابها وتلبسها على الموضة ، استفادت من ذلك كثيراً .

نحفت قامة ليز بت تحت المشد ، وراح شعرها يلمع بتأثير مادة « الباندولين » وارتضت بالفساتين كما خرجت من يد الخياطة

وانتعلت المداس الأنيق والجوارب الحريرية الرمادية التي جميعها صممتها مخيلة فاليري وسدد ثمنها من تعهد بها .

ولو رآها شخص لم يرها منذ ثلاث سنوات لما عرفها وهذه الماسة السوداء والأندر بين الماسات والتي صقلتها يد فنان ماهر ورصعت بها حجراً كريما يناسبها ، لاقت تقديراً من بعض الموظفين الطامعين بهذه الدرة النفيسة .

من رأى بتّ للمرة الأولى كان يرتعد تلقائياً لمنظر هذه القصيدة المتوحشة التي عرفت فاليري كيف تبرزها عندما أحاطت بشكل فني بالعصابات السميكة وجهها الزيتونّي ، حيث تلمع عينان سوداوان متناسقان مع شعرها وقد ابرزا حسنات قامتها الرشيقة .

حافظت بت على صلابتها كما حافظت عذراء كراناش وفان أيك وعذراء بيزنطيا عندما تحطمت براويزها . إنها شخص من الكرانيت والبازالت والبورفير يمشي على قدمين .

في ما تبقى لها من وقت بعد قضاء مشاغلها وحاجاتها كانت بت تظهر بحضورها الساحر وتحمل معها الفرح الى أي مكان حلّت به لتناول الغداء . كان البارون يدفع إيجار الشقة الصغيرة المفروشة ، كما نعرف ، بأمتعة غرفة صديقتها فاليري وصالونها الصغير .

وكانت تقول :

بعدما بدأت حياتي كعنزة جائعة ، سأنهيها كلبوءة .

واستمرّت في تحضير الأعمال الصعبة في التطريز عند السيد ريفا فقط لأنها لا تريد ، كما قالت ، أن تهدر وقتها . ومع ذلك فحياتها كلها ، كما سنرى ، كانت منشغلة بالعمل ، على جري عادة الناس القادمين من الريف والقائلين أنه لا يجوز التخليّ عن كسب العيش . وهم في هذا يشبهون اليهود .

كلّ صباح كانت ابنة العم بت تذهب بنفسها الى السوق الكبيرة مع الطباخة مع مطلع الشمس وفي مخططها أن دفتر المصروف الذي أفلس البارون هيلو يجب ان يغني العزيزة فاليري . ان كل سيدة بيت قد عانت منذ ١٨٣٨ النتائج المشؤومة للمذاهب المناهضة للحياة الاجتماعية التي نشرها الكتاب المحرّضون في الطبقات الدنيا .

في كل الأسر ، مصيبة الخدم هي اليوم أشد المصائب المالية .

وباستثناء حالات شاذة ونادرة تستحق جائزة « مونتيون » ، يكون الطباخ والطباخة عادة السارقين العائليين ، السارقين المرتهنين ، الوقحين ، وقد اضطرت الدولة أن تكون ، عن طيبة خاطر ، مخزّن الأشياء المسروقة عندما نمت المنحنى البياني للسرقات المتساهل به عند الطباخات حسب المزاج القديم في حكاية « ممسك السلة » . وبينما كانت الطباخات قديماً يرصدن مبلغ اربعين فلساً لورقة يانصيب توخياً للربح أصبحن اليوم

يوّفرن المبالغ في صندوق خاص .

ويعتقد المتزمتون الطهريون انهم ، بتجاربهم الداعية الى حب البشر ، ينقذون أخلاق الشعب من التدهور !

بين طاولة الأسياد والسوق وطّد الناس امتيازهم السريّ ، ومدينة باريس ليست من المهارة ما يسمح لها بجباية حقوق الدخل التي يجب ان تقتطع من حقوقهم قبل أي شيء آخر . فبالأضافة الى الخمسين في المئة التي يحمّلونها للمؤن الغذائية ، يستحثون الصانعين على تقديم الهدايا الثمينة . لذلك يرتعش التجار الرفيعي المستوى أمام هذه القوة الخفية فيسدّد رصيدها صانعو العربات والمجوهرات والخياطون دون نقاش .

من يجرؤ على مراقبة الخدم يسمع منهم الشتائم أو يصادف الحماقات المكلفة ، بتصنعهم الرعونة والطيش ؛ يجمعون اليوم المعلومات عن أسيادهم كما كان يفعل هؤلاء بأولائك .

إن الضرر الذي بلغ القمة والذي تحرّكت ضده المحاكم ، دون جدوى ، لتعاقبه بقسوة ، لا يمكن أن يزول إلا بقانون يلزم الخدم المرتهنين بسجل العامل فيتوقف الضرر فوراً . على كل خادم أن يستحصل على كتيّب فيضطر الأسياد الى تسجيل أسباب الطرد ويجد عندها التدهور الاخلاقي قوة تكبح فلتانه .

الناس المهتمون بالسياسة العليا يجهلون الى اين يمكن أن يصل فساد الطبقات الدنيا في باريس : إنه يوازي الغيرة

والحسد . اللذين يلتهمان هذه الطبقات . بقيت الاحصاءات صامتة في صدد العدد المخيف للعمال البالغين عشرين سنة والذين تزوجوا بطباخات بلغن الأربعين والخمسين . وقد جمعن الثروات عن طريق السرقات . وترتعد فرائص المتأمل من وجهة نظر مثلثة ، في الانحطاط الاخلاقي في السلالة في الأسر العاطلة وفي المبلغ الذي بلغه الأجرام .

أما الضرر المالي الصرف الذي احدثته السرقات داخل البيوت فإنه ضخم على الصعيد السياسي : ذلك ان غلاء المعيشة قد تضاعف فتوقف الفائض في كثير من الأسر . الفائض ! ... إنه نصف تجارة الدول كما إنه الرفاهية في الحياة . الكتب والأزهار هي بالنسبة لكثير من الناس ضرورية كالخبز .

كانت ليز بت التي تدرك هذه الداهية التي اصابت البيوت الباريسية ، تفكر في ادارة منزل فاليري ، وفاء بالوعد الذي تبادلا فيه القسم بأن يكونا ، على الدهر ، اختين .

على هذا استقدمت من أقاصي الفوج قريبة من جهة الأم وطباخة سابقة لمطران نانسي وعانساً تقية ، في عفة مفرطة . ولما كانت ليز بت تتخوّف من قلة خبرتها في باريس وخاصة من النصائح الرديئة التي تفسد كثيراً من استقامتها الطرية ، فإنها كانت ترافقها الى السوق الكبيرة وتسعى لتعوّدها كيفية الشراء .

يجب التعرف على السعر الحقيقي للأشياء لاكتساب احترام

البائع والتنقيب عن الأطعمة البائتة ، كالسمك ، لأنها لا تكون مرتفعة الثمن ، ومجاراة معرفة قيمة السلع الاستهلاكية ، فيتوقع ارتفاع اسعارها ليشتري بالاسعار المنخفضة . هذه الروح في التدبير المنزلي هي الأكثر ضرورة في باريس للأقتصاد العائلي .

وبما ان فاتورن كانت تتقاضى رواتب جيدة ، فضلاً عن انهم اغرقوها بالهدايا ، فقد احبت هذا البيت كثيراً وشعرت بالسعادة للتسوّق بالرخص . بعد وقت قصير بدأت تتنافس مع ليز بت التي وجدتها وقد اتقنت العمل وثبّتت معرفتها فيه ، فطلبت منها بألا تذهب الى السوق إلا أيام تستقبل فاليري زواراً . وهذا ، بالمناسبة ، كان يحصل غالباً .

بدأ البارون بالمحافظة على أدق اللياقات ؛ لكن غرامه بالسيدة مارنيف كان قد أصبح اكثر اندفاعاً وأشد تعلقاً ، حتى إنه رغب في التخلي عنها في أقرب فرصة . فبعدما كان يتناول العشاء أربع مرات في الأسبوع وجد ارتياحاً بأن يأكل عندها دون انقطاع . بعد ستة أشهر من زواج ابنته كان يدفع الفي فرنك في الشهر كنفقة على معاشه ، وكانت السيدة مارنيف تدعو الى مائدتها الأشخاص الذين يرغب العزيز البارون باستضافتهم . كان الغداء يتحضر لستة أشخاص ، كما كان في وسع البارون أن يصطحب ، على غير استعداد ، ثلاثة آخرين .

حققت ليز بت ، عبر تدبيرها الاقتصادي ، معجزة ، لأنها حافظت على جلال المآدب بمبلغ ألف فرنك في الشهر ، وسلمت

السيدة مارنيف الألف الآخر .

٤١

آمال ابنة العم بِتْ

نفقات تبرج فاليري يدفعها كروفيل والبارون وتحصل الصديقتات ، بالأضافة الى ذلك ، على ألف فرنك في الشهر . وهكذا جمعت هذه المرأة الطاهرة والبريئة مئة وخمسين ألف فرنك من توفيراتها . جمعت مداخيلها وأرباحها الشهرية فرسملتها وغذّتها بالأرباح الضخمة الناتجة عن سخاء كروفيل الذي ، عن طريقه ، كان يشرك رأسمال دوقته الصغيرة ، في أعماله المالية الناجحة . وكان كروفيل ، يدرّب فاليري على مصطلحات البورصة ومضارباتها ، وككلّ الباريسيات ، تفوّقت بسرعة على معلّمها .

وكذلك ليز بت ، التي لم تصرف فلساً واحداً من الألف ومئتي فرنك . إذ أن نفقات الأيجار والتجمّل كانت تُدفع دون ان تضطر الى سحب أي مبلغ من جيبها . حصلت هي الأخرى على رأسمال صغير من خمسة الى ستة آلاف فرنك وهبها إياه كروفيل بصفة أبوية .

ومع هذا فإن حب البارون وحب كروفيل كانا حملاً ثقيلاً على فاليري . في اليوم الذي أستأنف فيه رواية هذه الدراما ، صعدت فاليري عند ليز بت لتخلوَ الى مراثيها الرقيقة ، إنها أنواع من السجائر المنفوثة في جلسات النميمة حيث يخدّر النساء مصائب حياتهن الصغيرة .

ـ ليز بت ، يا حبي ، عليّ أن أمضي ساعتين هذا الصباح مع كروفيل ، ان ذلك لمرهق حقاً ! أوه ! كم أتمنى لو استطيع أن أرسلك مكاني !

ـ لسوء الحظ لن يكون هذا ، قالت ليز بت وهي تبتسم . سأموت عذراء .

ـ أن استسلم لهذين العجوزين ! تمر لحظات أخجل بها من نفسي ! آه ! ماذا لو رأتني أمي !

ـ تحسبينني كروفيل ، أجابت ليز بت .

ـ قولي لي ، يا عزيزتي بت الصغيرة ، إنك لن تحتقريني ؟ . . .

ـ آه ، لو كنت جميلة لكان لي ما كان لي من مغامرات ! . . صاحت ليز بت ، ها قد برأتك .

ـ لكنك ما كنت أصغيت إلا لقلبك ، قالت السيدة مارنيف وهي تتنهد .

ـ باه ! أجابت ليز بت ، مارنيف رجل ميّت ، وقد سهوا عن دفنه والبارون هو مثل زوجك بينما كروفيل يعبدك ويستميت في حبك . تبدين لي ، كسائر النساء ، في الطريق الصحيح .

ـ لا ، ليس من هنا ، ايتها العزيزة التي اعبد ، يصدر الألم . لا تريدين أن تصغي إليّ .

ـ أوه ! بلى ! صاحت اللورينة ، لأن ما تخفينه يشكّل جزءاً من انتقامي . ماذا تريدين ؟ . إني أسعى اليه .

ـ أحببت ونسيسلاس حتى الهزال ، ولم أفز برؤيته ، قالت فاليري ، وهي تمط ذراعيها ؛ اقترح عليه هيلو ان يأتي الى العشاء هنا لكنه رفض ! لا يعرف انه معبود هذا الانسان الوحش ! من تكون زوجته ؟ لحم جميل ! نعم ! إنها رائعة ، لكن أنا ، لديَّ إحساسي المرهف : إني الأسوأ !

ـ إطمئني يا صغيرتي ، سيأتي ! قالت ليز بت بالطريقة التي تخاطب بها المرضعات الأطفال الذين عيل صبرهم ، أنا أريد ذلك . . . .

ـ لكن ، متى ؟

ـ الأرجح هذا الأسبوع .

ـ إسمحي لي بأن أقبلك .

كما نرى ، فإن هاتين المرأتين ليستا في الواقع إلا واحدة ؛ كل تصرفات فاليري ، حتى الطائشة منها ، كل ملذاتها ، كل حردها تتقرر جميعها بعد مشاورات مدروسة بينهما .

إن ليز بت التي تتألم ، من هذه الحياة الفاجرة ، كانت تسدي نصائحها لفاليري في كل شيء وتلاحق مسار انتقامها بمنطق لا يرحم .

كانت تعبد فاليري وقد اتخذتها كابنة وصديقة ومحبوبة ؛ وجدت فيها طاعة أولاد الأباء المختلفي الجنسية ، وميوعة الشهوانية ؛ كانت تهزر معها كل صباح بلذة لا تعادلها لذة التحدث الى ونبسيسلاس ، ويمكنهما أن يضحكا على سجيتهما من تصرفاتهما الماكرة ومن غباء الرجال ويحسبان معاً فوائدهما المتضخمة بثرواتهما الخاصة .

ومن ثمّ وجدت ليز بت في هذه العلاقة كما في صداقتها الجديدة مرعىً لنشاطها أخصب من حبها المتيّم لونسيسلاس . فمتع غضبها المشبع تحتل في قلبها العاطفة الأشد أضطراماً والقوة الأكثر حميّة . الحب في بعض وجوهه ذهبٌ بينما الحقد هو حديد منجم الشعور الكامن فينا .

وأخيراً فإن فاليري ، وهي بكامل مجدها ، قدمت لليز بت هذا الجمال الذي تهيم به ، كما نهيم ـ كل ما لا نتمتّع به ، إنه جمال أكثر مرونة من جمال ونسيسلاس الذي كان ، بالنسبة اليها ، بارداً ، فاقد الحس .

بعد مضي ثلاث سنوات ، بدأت ليز بت تلمس تقدُّم التدمير الباطني الذي من أجله حرقت حياتها ونذرت ذكاءها . كانت ليز بت تفكّر والسيدة مارنيف تنفذ . السيدة مارنيف الفأس وليز بت اليد التي تحرّك الفأس . وكانت هذه اليد تقوّض بضربها المتسارع هذه العائلة التي تتراءى لها يوماً بعد يوم ، أكثر مقتاً ، لأننا نحقد أكثر فأكثر ، كما نحبّ كلَّ يومٍ أكثر من يوم ، عندما نحب .

الحب والحقد شعوران يتغذيان بعضهما من بعض ، لكنَّ الحقد يتمتع بعمرٍ أطول . الحب يقتصر مداه على قواه المحدودة ، يستمد قدراته من الحياة والسخاء . الحقد يشبه الموت والبخل ، إنه في بعض وجوهه تجريد نشيط ، يتجاوز الكائنات والأشياء .

إن ليز بت التي انخرطت في البيئة التي تتلاءم معها ، كشفت عن كل قدراتها ؛ كانت تدير الأمور على طريقة اليسوعيين ، بقدرة خفية . انبعاث شخصيتها كان كاملاً . وجهها يشرق بالألق . كانت ليز بت تحلم بأن تكون سيّدة الماريشال هيلو .

حدث هذا المشهد ، حيث الصديقتان تتناجيان ، دون تحفظ ، أقلّ أفكارهما دون مواربة في التعبير ، إبّان العودة من السوق حيث ذهبت ليز بت لتحضر حاجات عشاء خفيف .

إن مارنيف ، الذي كان يطمع بمركز السيد كوكي ، قد

استقبله مع سيدتـه الفاضلة ، وفـاليري تمنّت لـو تتباحث في موضوع استقالة رئيس المكتب مع هيلو في المساء ذاته ، بينما ليز بت ارتدت ثيابها لزيارة البارونة حيث ستتناول عشاءها.

ـ هل تعودين الينا لتقدمي الشاي يا عزيزتي بت ؟ قالت فاليري .

ـ أتمنى ذلك . . .

ـ كيف ، تتمنين ذلك ؟ وهل ستنامين مع أدلين لتلعقي دموعها وهي نائمة ؟

ـ إذا كان ذلك ممكناً ! أجابت ليز بت وهي تضحك ، لن أقـول لا ، إنها تكفرٌ عن سعـادتها ، وأنـا سعيدة ، وأتـذكرّ طفولتي ، لكل دوره . هي ستكون في الوحل ، وأنا سأكون كونتسًا دو فورزيم ! . . .

٤٢

إلى أيِّ حدٍّ يقلِّص المتهتكون نساءهم الشرعيات

توجّهت ليز بت الى شارع بلومي حيث كانت تتردد منذ زمن ، كمن يتردد لحضور مسرحية ، حتى تأخذ منه حاجتها من العواطف .

تتألف الشقة التي اختارها هيلو لزوجته من غرفة انتظار كبيرة ، وصالون وغرفة نوم مع حجرة تبرّج . غرفة الطعام محاذية للصالون ، غرفتان للخدم ومطبخ تقع كلها في الطابق الثالث ويكتمل معها هذا المسكن الذي يليق أيضاً بمستشار دولة ، ومدير في الحربية .

عندما اضطرت البارونة الى فرش صالونها وغرفتها وغرفة الطعام ببقايا رفاهيتها الثمينة ، اختارت الأفضل من أنقاض القصر في شارع الجامعة .

وكانت المسكينة ، على كل حال ، تحب هذه الشواهد الخرساء على سعادتها التي تحمل ، بالنسبة اليها ، بلاغة قد

تكون معزية . كانت تلمح في ذكرياتها أزهاراً كما تلمح على سجاداتها الأنجم الوردية التي لا يكاد يراها الآخرون .

الدخول الى غرفة الانتظار الواسعة حيث اثنتا عشرة كرسياً وبارومتر ومدفأة كبيرة وسجق طويلة ، من قماش الكاليكو الأبيض المطرز بالأحمر ، يذكّر بغرف الوزارات ، المقيتة فينقبض القلب منها ، وتستشعر بالوحدة التي تحيا فيها هذه المرأة . الحزن وكذلك المتعة يكوّنان هذا الجو . لأول نظرة على الداخل نعرف ايهما المهيمن . الحب أم اليأس . كانت أدلين تجلس في غرفة نومها الضخمة والمفروشة بأجمل رياش جاكوب ديمالتر المصنوعة من خشب الأكاجو المرقّش والمزدان بالزخرف الامبراطوري ، وهذه البرونزيات التي وجدت الأسلوب المناسب لتكون أكثر برودة من نحاسيات لويس السادس عشر ! وكم ترتعش عندما ترى هذه المرأة القابعة على أريكة رومانية . متصنعة الفرح ، محتفظة بمهابتها الامبراطورية كما عرفت كيف تحتفظ بفستانها المخملي الأزرق الذي خبأته عندها . هذه النفس الساعية دعمت الجسد وحافظت على الجمال .

كانت البارونة ، في أواخر السنة الأولى لإقصائها الى هذه الشقة ، تقدّر تعاستها في كل مداها . ـ عندما أبعدني هكتور الى هنا وضعني في حياة أروع مما كان يجب أن تكون عليه قروية ساذجة ، هذا ما حدّثت نفسها فيه . يريدني على هذه الحال ! فلتكن مشيئته ! أنني البارونة هيلو وإمرأة أخ ماريشال فرنسا ، لم

ارتكب أي إثم ، لقد تدبَّر ولداي امرهما ، وبإمكاني أن أنتظر الموت متلفلفة بحجب طهارتي الزوجية التي لم تدنس ، وفي شفافية سعادتي المتلاشية .

كانت صورة هيلو التي رسمها دوبير لوفيفر عام ١٨١٠ في لباس المفوض المنسق في الحرس الامبراطوري ، معروضة فوق منضدة عملها حيث كانت أدلين ، عندما تعلم بقدوم زائر ، تمسك بيديها كتاباً عن السيد المسيح ، تتلو فيه صلاتها العادية . مادلين ، هذه الطاهرة التي لا غبار عليها ، كانت تسمع صوت الروح القدس المدوي في حمرائها .

ـ سألت ليز بت الطباخة التي جاءت تفتح الباب :

ـ مارييت ، يا بنيتي ، كيف حال عزيزتي أدلين ؟ .

ـ أوه ، حسنة ظاهرياً يا آنستي ؛ لكنها ، والأمر بيننا ، إذا ثابرت على أفكارها فلا بد أن تهلك ، همست مارييت في أذن ليز بت . في الحقيقة ، أن عليك ان تتعهديها لتنهض الى حياة أفضل . بدءاً من أمس طلبت السيدة أن أقدّم لها صباحاً مقدار فلسين من الحليب وفلس واحد من الخبز ؛ وفي الغداء سمكة أو قليلاً من لحم البقر البارد نقلي منه ليبرة واحدة في الأسبوع ، هذا طبعاً عندما تتناول غداءها بمفردها هنا . . . تريد ألا تنفق أكثر من عشرة فلوس في اليوم على معيشتها . ليس ذلك معقولاً . لو تحدثت عن مخططها الى السيد الماريشال فمن

المحتمل أن يختلف مع السيد البارون ويحجب عنه ميراثه ؛ ما من بديل غيرك مؤهل بسلاسته لأصلاح ذات البين . . . .

قالت ليزبت :

ـ غريب هذا ! ولماذا لا تتوجهين بكلامك الى ابن عمي ؟

ـ آه يا آنستي العزيزة ! لم يدخل الى بيته منذ أكثر من خمسة وعشرين يوماً ، أي مقدار الوقت الذي لم نرَ لك فيه وجهاً ! ومنذ ذلك الحين منعتني السيدة ، تحت طائلة الطرد ، أن أطلب المال من سيدي . أما بالنسبة إلى العقاب . . . آه ! فالسيدة المسكينة معاقبة بما يكفيها ! للمرة الأولى يهملها سيدي كل هذه المدة . . . في كل مرة تسمع طرق الباب تنطلق الى الشباك . . . بعدها ومنذ خمسة أيام ، لزمت اريكتها ولم تغادرها . تطالع ! وكلما ذهبت لزيارة سيدتي الكونتسا تقول لي : « يا مارييت ، إذا قدم سيدك ، قولي له انني في البيت ثم ارسلي البواب في طلبي ، وسينال جزاء تعبه » .

ـ مسكينة ابنه عمي ! إن ذلك يصدع قلبي . كل يوم أحدّث ابن عمي بشأنها . يجيب : « انت على صواب يا بت ، إني رجل بائس ، وزوجتي ملاك ، وأنا وحش : سأذهب غداً . . . » ويظلّ عند السيدة مارنيف ؛ هذه المرأة التي تهدم حياته فيعبدها ؛ لا يعيش إلا بالقرب منها . سأعمل ما أستطيع ! لو لم أكن هناك ولو لم تكن معي ماتورين لكان

البارون قد ضاعف نفقاته ؛ وبما انه لا يملك شيئاً تقريباً فمن المحتمل أن يغور عقله . يا مارييت فمادلين قد تموت بموت زوجها ، إني متأكدة من ذلك . أعمل ما وسعي لوصل الطرفين ، وردم الهوة ومنع ابن عمي من استهلاك الكثير من المال .

ـ آه ! هذا ما قالته السيدة الطيبة ؛ إنها تعرف جيداً التزاماتها نحوك ، كانت تقول أنها ظلت مدة طويلة تسيء فهمك .

ـ آه ! ألم تقل لك شيئاً آخر ؟

ـ لا يا آنستي . إذا أردت إسعادها ، حدثيها عن سيدي ، فستجدينها سعيدة لو التقته كل يوم .

ـ هل هي وحدها ؟

ـ أعذريني ، الماريشال هناك . أوه ! ! إنه يأتي كل يوم وتبلغه دائماً أنها ترى السيد صباحاً ، وإنه يعود متأخراً ليلاً .

سألت ليزبت :

ـ هل هناك عشاء لذيذ الليلة ؟

ترددت مارييت في الجواب ولم تهتم لنظرة اللورنية . فجأة فُتح باب الصالون وخرج الماريشال هيلو بسرعة ، إضطرته لأن يحيّي بت دون أن يلتفت اليها ، ثم تساقطت منه بعض

الأوراق . جمعت بتّ الأوراق وأسرعت على الدرج ، لأنه من غير المفيد الصراخ إثرَ أصمّ ؛ لكنها تباطأت ولم تلحق به ، فعادت لتقرأ بلهفة ما جاء في الأوراق مكتوباً بقلم رصاص :

« أخي العزيز ، أعطاني زوجي نفقة فصل واحد ؛ لكن ابنتي أورتنس كانت بحاجة ماسة لها فأقرضتها كامل المبلغ الذي ربما كفاها لتخرج من ضيقها . هل تقرضني بضع مئات من الفرنكات ، لأنني لا أريد أن أطلب اليه مالاً مرة ثانية ؛ كلمة تأنيب واحدة منه ستؤلمني أكثر مما احتمل » .

ـ آه ! قالت ليز بت في نفسها ، في أي فاقة هي إذاً . حتى أذلّت كبرياءها الى هذا الحد .

٤٣

العائلة المكدّرة

دخلت ليز بت وفاجأت أدلين تبكي فقفزت الى عنقها تشدها اليها .

ـ أدلين ، عزيزتي ، علمت كل شيء ! .. خذي ، سقطت هذه الورقة من الماريشال ، عندما كان مضطرباً ويعدو

ككلب السلاقي . . . إن هكتور المقيت لم يسلمك مالاً منذ . . . ؟

ـ أجابت البارونة :

ـ بل يعطيني اكثر من اللازم ، لكن اورتنس كانت بحاجة إليه ، و . . .

ـ وليس عندك ما تقدّمينه لنا على العشاء ، قالت بت وهي تقاطع ابنة عمها . الآن فهمت ارتباك ماربيت التي تحدّثت معها عن الحساء . تتصرفين كولد يا أدلين ! إسمحي لي بأن أعطيك مدخراتي .

أجابت ادلين وهي تمسح دمعة :

ـ شكراً . يا عزيزتي بت ، هذا الضيق ليس إلا عابراً ، وأتدبر أمري في المستقبل . فمن الآن وصاعداً لن تتعدى نفقاتي ، بما فيها الإيجار ، الألفين واربعمئة فرنك في السنة ، وسأحصل عليها . ما يهمني يا بت ألاّ تصل كلمة واحدة الى هكتور . هل هو على ما يرام ؟

ـ أوه ! فرح كعصفور البرقِش ، لا يفكر إلا في ساحرته فاليري .

كانت السيدة هيلو تنظر الى صنوبرة كبيرة فضية عبر حقل شباكها وليز بت لا تستطيع ان تقرأ شيئاً مما يمكن أن تعبّر عنه عينا ابنة عمها .

ـ هل قلت له أن هذا اليوم هو اليوم الذي نتعشى فيه جميعنا هنا ؟

ـ نعم ، لكن للأسف ! السيدة مارنيف تحضر عشاء فخماً وهي ترجو أن تتحدّث في موضوع استقالة كوكي ! وهذا ما يتصدّر كل شيء ! إصغي إليّ يا أدلين : تعرفين شراستي في موضوع الاستقلال ، إن زوجك ، يا عزيزي ، سيهلك دون ريب . اعتقدت اني قادرة ان أكون مفيدة لكم جميعاً عند هذه المرأة.لكنها مخلوقة ، لا حدود لفجورها ، وقد تحصل من زوجك على أشياء ربما زجته في وضع يسيء الى كرامة العائلة كلها .

قامت أدلين بحركة من تلقى ضربة خنجر في قلبه .

ـ بل أنا متأكدة من ذلك يا عزيزتي أدلين . يجب أن أحاول توضيح كل شيء ، فلنفكّر في المستقبل ! الماريشال كَبرٌ في السن ومع ذلك سيعيش طويلاً بعد لأنه يعتني بنفسه ، وعندما يموت تحصل أرملته على معاش من ستة آلاف فرنك . بهذا المبلغ ، أتكفّل بأعالتكم جميعاً ! المطلوب منك أن توظّفي تأثيرك على هذا الطبيب لاقناعه بزواجنا . لا أبغي من ذلك ان أكون زوجة الماريشال فذلك لا يهمني على الاطلاق . ستتوفّر لكم عيشتكم . أرى ان أورتنس غير مكتفية والدليل انك تمدينها بالمال .

عندها ظهر الماريشال ، وكان قد قام سريعاً بجولته بحيث كان يمسح جبهتهُ بمنديله ، وهمس في أذن امرأة أخيه :

ـ سلمت الفي فرنك الى ماربيت .

أحمّرت أدلين حتى جذور شعرها ورطبت دمعتان رموشها التي ما زالت طويلة ، وضغطت بهدوء على يد العجوز الذي عبرّت سحنته عن سعادة حبيب محظوظ .

ـ أريد يا أدلين ، أن تحضري هدية بهذا المبلغ مقابل إيفائه لي ، تختارين بنفسك ما يطيب لك وما تفضلينه .

ثم تناول يد ليز بت التي مدتها اليه وقبّلها وهو في نشوة من سعادته . وقالت ادلين لليز بت وهي تبتسم ابتسامة عريضة :

ـ إنه وعد .

في هذه اللحظة وصل هيلو الأبن وزوجته .

ـ وهل يتعشى أخي معنا ؟ سأل الماريشال باقتضاب شديد .

تناولت أدلين قلمًا وكتبت على قصاصة ورق هذه الكلمات :

« أنتظره ، وعدني هذا الصباح بأن يتعشى هنا ، لكنه إن لم يأت فلأن الماريشال قد استبقاه لأنه رازح تحت عبء أعمال كثيرة » .

ثم عرضت له الورقة . كانت قد اخترعت هذه الطريقة لمخاطبة الماريشال وحضرّت كمية من قصاصات الورق ، مع قلم على منضدة عملها .

ـ أعرف ، أجاب الماريشال ، أنه مرهق في العمل بسبب الجزائر .

في هذه اللحظة دخل ونسيسلاس واورتنس واذ رأت البارونة انها محاطة بعائلتها رمت الماريشال بنظرة لم يدرك مغزاها الا ليزبت .

كانت السعادة قد اضفت الجمال على الفنان الذي تهيم به زوجته . امتلأ وجهه واظهرت قامته الأنيقة المحاسن التي يشحنها الدم في رجال الشهامة الحقيقيين . إن مجده المبكر وشهرته والأطراء الزائف الذي يرمي به الناس الفنانين كما نتبادل تحية الصباح او نتكلم على الطقس ، قد اشعرته بقيمته التي تتلاشى في الغرور عندما تزول الموهبة . وكان صليب جوقة الشرف يتمم في نظره صورة الرجل العظيم الذي ظنه انه اصبحه .

بعد ثلاث سنوات على زواجها ، كانت اورتنس مع زوجها كالكلب مع سيده ، تجيب على حركاته بنظرة تبدو كأنها تساؤل ، تركز نظرها دائما عليه كبخيل على كنزه ، وتثير الشفقة بتضحيتها المفتونة . نتعرف فيها على عبقرية وإرشادات امها . جمالها الذي لم يتبدل بدأ يمسه التلف المنبثق من الظلال الرقيقة لحزن خفي .

عندما رأت ليزبت ابنة عمها تدخل تذكرت ان ظلامتها المكبوتة منذ زمن ستحطم قشرة هذا الكتمان . فمنذ الأيام الأولى لشهر العسل اعتبرت ليزبت ان المداخيل الصغيرة لهذه الأسرة غير كافية لحب عظيم .

تبادلت اورتنس وامها ، وهما في عناق ، من الفم الى الأذن ومن القلب الى القلب ، بعض الجمل التي اكتشفت سرها بت عندما هزتا برأسيهما . قالت أدلين في سرها : « ادلين » سوف تشتغل ، مثلي ، كي تعيش . اريد ان تطلعني على ما تنوي عمله . . اصابعها الرشيقة ستدرك ما هو العمل الشاق عندما تصبح كأصابعي »

في الساعة السادسة انتقلت العائلة الى غرفة الطعام ومد غطاء مائدة هكتور .

ـ اتركيه : قالت البارونة لماربيت ، يصل سيدك متأخرا احيانا .

ـ أوه : سيحضر ابي ، قال هيلو الابن لأمه ، لقد وعدني في المجلس عندما غادرنا .

٤٤

العشاء

إن ليزيت ، كالعنكبوت في وسط نسيجها ، تراقب سيماء الجميع . بعد ان حضرت ولادة كل من أورتنس وفكتوران قرأت في وجهيهما الاملسين كالمرآة نفسيهما الفتية وفي بعض

نظرات وجّهها فكتوران الى امه ، أوجست ليز بت في الامر شراً يكاد ان يطال ادلين ، ويتردد فكتوران في كشفه .

كان المحامي الشاب حزيناً في قرارة نفسه ، وإجلاله الكبير لأمه تفجر في الألم الذي يرمقها به .

ومن جهتها كانت أورتنس ترزح تحت عبء همومها الخاصة . ومنذ خمسة عشر يوماً وليز بت تعرف انها تعاني اول متاعبها التي تخلقها قلة المال في نفس البررة او في نفوس النساء اللواتي كانت الحياة دائمة الابتسام لهن من قبل اللواتي يخفين غمهنّ كذلك علمت بت من اللحظة الأولى ان الأم لم تعط شيئاً ابنتها . إن ادلين اللطيفة اضطرت الى السقوط حتى الكلام المعسول الذي توحيه الحاجة الى المستلفين .

لقد اضفى قلق أورتنس وهاجس اخيها وسوداوية البارونة على الغداء حزنا عميقاً خاصة اذا تمثلنا الجو البارد الذي يلقيه حجم الماريشال العجوز . •

ثلاثة اشخاص كانوا يحيون المشهد : ليز بت ، سيليستين ونسيسلاس . إن حب اورتنس انمى في الفنان الحماس البولوني ، وحيوية الهذر والصخب المحب الذي يميز فرنسيي الشمال . إن روحه وهيئته يشيران كفاية انه يؤمن بنفسه وان اورتنس الطيبة ، الأمينة على نصائح امها كانت تحجب عنه كل عذاباتها العائلية . قالت ليز بت لابنة عمها الصغيرة وهما

خارجتان من غرفة الطعام : ارى انـك مرتـاحة . لأن امـك انتشلتك من ضيقك عندما مدتك بمالها .

ـ أمي ! أجابت أورتنس في ذهول . اوه مسكينـة انت يا أمي ، انا التي عليها ان تمدها بـالمال ! لا تعلمين ياليز بت! ! بي ظن مقيت بأنها تشتغل في الخفاء .

بعد ذلك اجتازتـا الصالون الكبير المعتم ، دون مشاعل ، وهما تتبعان مارييت التي تحمل قنديل غرفة الطعام الى غرفة نوم ادلين .

أثناء ذلك لمس فيكتوران ذراعي كل من ليزيت وأورتنس اللتـين ادركتـا معنى هـذه الحـركـة ، فتركتا ونسيسـلاس ، سيليستين ، الماريشال والبارونة يذهبون الى غرفة النوم وتجمعتا ومعهما فيكتوران ، على فرحة الشباك .

ـ قالت ليزبت : ما الأمر يا فيكتوران ؟ أراهن ان مصيبة قد اتاها ابوك .

ـ اجاب فيكتوران : نعم ، إن مرابياً يدعى فوفينـا له بذمة والدي مبلغ ستين الف فرنك كسندات سحب ويريد ان يلاحقه ! رغبت في ان احدث أبي في المجلس عن هذا الموضوع المؤسف لكنه لم يتقصد فهمي وكـاد ان يتجنبني . هـل من الواجب ان ننبىء والدتنا ؟

ـ قالت ليزبت : لا . . لا . . . عندها ما يكفيها من المتاعب

وقد يكون ابلاغها ، الضربة القاضية ، يجب مداراتها . لا تعرف في اي حالة هي ، لولا عملك لما وجدت اليوم غداء حاضراً هنا .

ـ آه ! يا إلهي ! نحن وحوش يا فيكتوران ، قالت أورتنس لأخيها ، إن ليز بِتْ تعلمنا ما يتوجب علينا ان نكتشفه : آه ! يخنقني ! العشاء .

ولم تكمل أورتنس بل وضعت منديلاً على فمها لتطويق شهقتها بالبكاء وراحت تبكي .

ـ قلت لڤوڤينا حتى يلتقيني في الغد ، ولكن هل يكتفي بكفالتي الرهنيّة ؟ لا اعتقد ذلك . هؤلاء الناس يريدون المال نقداً ليستفيدوا من الحسومات .

ـ فلنبع ايرادنا ! قالت ليز بِتْ لأورتنس . ما مقداره ؟

ـ خمسة عشر او ستة عشر الف فرنك ، عقب فيكتوران ، يلزمنا ستون .

ـ لا يا ليزبت ، احتفظي بثروتك الصغيرة . صاحت أورتنس وهي تعانق ليز بِت بحماسة قلب طاهر : [ـ عزيزتي ، ابنة عمي ! وقال فيكتوران بعدما شد على يد اللورنية . سأرى في الغد ماذا في جعبة ذلك الرجل ، واذا اقنعت زوجتي بما انا عازم عليه سأعرف كيف اوقف الملاحقات او اؤخرها ، ان ارى هذا ينال من اعتبار ابي . . . فهذا امر

معيب . ماذا سيكون موقف وزير الحربية ؟ رواتب والدي مرتهنة منذ ثلاث سنوات ولن تتحرر قبل كانون الأول ، لذلك لا يمكن ان تكون موضوع كفالة . فوفينا هذا جدد احدى عشر مرة سندات السحب ، فتصوروا كم دفع ابي من فوائد ! يجب ردم هذه الهاوية .

ـ قالت اورتنس بمرارة :

ـ لو تستطيع السيدة مارنيف ان تتخلى عنه !

ـ قال فيكتوران : آه : فليحفظنا الله منها ! إن ابي قد ينتقل الى عالمه الآخر بعد حين وإذاك تكون التكاليف الباهظة الثمن قد انفقت .

أي تغيير حصل في نفس هؤلاء الابناء الذين كانوا يكنون احتراماً عميقاً لوالدهم حيث كانت امهم تربيهم على محبته المطلقة ! وآلان اطلقوا حكمهم عليه .

واستطردت ليزبت : لولاي لتحطم ابوكما اكثر مما هو عليه .

ـ تعالوا ندخل ، قالت أورتنس ، فأمي مرهفة الحس وقد تظن شيئاً وكما قالت العزيزة ليزبت فلنخفف عنها كل شيء ولنتظاهر بالفرح !

ـ فيكتوران ، انت لا تدري الى اين سيقودك والدك مع ميله الجارف الى النساء ، قالت ليز بت . يجب ان تفكر في تأمين

مداخيل ، بالعمل على تزويجي من الماريشال ، يجب ان تكلموه كلكم هذا المساء ، سأرحل باكراً قصداً .

دخل فيكتوران الى الغرفة .

ـ وبعد ! يا صغيرتي الطيبة ، قالت ليز بت بصوت منخفض مخاطبة ابنة عمها الصغيرة ، وكيف ستتصرفين انت ؟

ـ تعالي غدا نتناول العشاء معاً فنتحدث ، أجابت أورتنس. لا اعرف ماذا افعل . انت تعرفت على صعوبات الحياة ويمكنك تقديم النصح لي .

وبينما كانت العائلة مجتمعة تحاول اقناع الماريشال بالزواج ، وليزبت تعود الى شارع فانو وقع حادث من الحوادث التي تثير عند النساء كالسيدة مارنيف ، قدرة الرذيلة ، دافعة اياهن على كشف جميع مصادر الفسق . نذكر على الأقل هذا الواقع الثابت : حياة الناس في باريس معبأة تماماً بالعمل حتى ان الناس الفاسدين لا يستطيعون إثبات الشر بالغريزة . وكل ما في الأمر انهم يدافعون عن انفسهم بالرذيلة ضد الاعتداءات .

٤٥

عائد ذو دخل

كان صالون السيدة مارنيف يغص بالزبائن والكل منهمكين بلعبة « الويست » عندما قدم الخادم وهو مجند متقاعد رشاه البارون ليعلن : « السيد البارون مونتيس دو مونتيجانوس ! » تلقت فاليري هزة عنيفة في قلبها ، لكنها انطلقت بسرعة نحو الباب وهي تصرخ : ـ ابن عمي ! اقتربت من البرازيلي لتدس في أذنه هذه العبارة : فلتكن قريباً لي لا غير او ينتهي كل شيء بيننا ! » .

ـ وبعد ! تابعت بصوت عال وهي تقود البرازيلي الى المدفأة ، يعني يا هنري انك لم تغرق كما بُلِّغت ، لقد بكيتك طيلة ثلاث سنوات . . .

ـ صباح الخير يا صديقي ، قال السيد مارنيف وهو يمد يده الى البرازيلي الذي يشير شكله الى برازيلي حقيقي وميليونير .

البارون هنري مونتيس دو مونتيجانوس الذي منحته الطبيعة الاستوائية شكلا ولوناً يؤهلانه لدور عطيل مهاب بسبب الكآبة التي تمسح وجهه . وطبعه الذي يتحلى بالنعومة والحنان يعده

للاستغلال الذي تمارسه النساء الضعفاء على الرجال الأقوياء .

الاستخفاف الذي يبديه وجهه والقوة العضلية التي تشهد بها قامته المنتظمة لا يتحديان الا الرجال والأطراء الموجه الى النساء اللواتي يستشعرنه بكثير من النشوة يشعر الناس الذين يمدون ذراعهم الى عشيقاتهم ، بتبجح مفرح .

لقد بدا كأنه رسم رائع ، ببنطلونه الأسود وسترته الزرقاء المزرّرة بأزرار من الذهب الخالص ، ينتعل جزمة رقيقة ملمعة بالفرنيش الأصلي ويضع في يديه قفازات متناسقة . لم يكن للبارون من البرازيلي سوى ماسة كبيرة مقدّرة بمئة الف فرنك تلمع كالنجمة على ربطة عنق فاخرة من الحرير الأزرق تحيط بها صدرة بيضاء مسدولة بطريقة تسمح برؤ ية قميص من القماش الأسطوري النعومة وجبهته المحدبة الأطراف كالشهوانيين ، إشارة الى العناد في ولعه ، يعلوها شعر فحمي كثيف كالحرج البكر تلمع تحته عينان صافيتان شقراوان تجعلنا نعتقد ان ام البارون قد خافت يوماً وهي حبلى به ، من نمر اميركي .

هذا النموذج الرائع للجنس البرتغالي في البرازيل ، اسند ظهره الى المدخنة في وضع ينم عن تمرس بالعادات الباريسية ، القبعة في يد ، واليد الأخره مسندة على مخمل طاولة صغيرة . انحنى صوب السيدة مارنيف ليتحدث معها بصوت منخفض وهو لا يهتم الا قليلا بهؤلاء البورجوازيين المقيتين الذين ، في رأيه ، يزعجون الصالون بحضورهم غير المناسب .

إن بداية هذا المشهد وطريقة تركز جلوس هذا البرازيلي ، إضافة الى مزاجيته ، أحدثت كلها حركتين فضولتين ممزوجتين بالجزع متماثلتين في نفس كروفيل والبارون اللذين أبديا التعبير ذاته والشعور نفسه .

بدت هذه الحركة المستوحاة من هاتين العاطفتين الواقعيتين هزلية بتزامنها ، بحيث انها تضحك الناس الظرفاء لكشفهم فيها معنى من المعاني .

إن كروفيل ، البورجوازي والحانوتي ، برغم كونه عمدة باريس ، ظل لسوء الحظ في مكانه مدة اطول من شريكه ، بينما البارون استطاع ان يدرك مكنونات كروفيل العفوية .

كان ذلك سهمًا آخر في قلب العاشق العجوز الذي عزم ان يحصل على استيضاح من فاليري .

ـ هذا المساء ، حدث كروفيل نفسه أيضاً وهو ينظم أوراقه يتوجب علي ان أضع نهاية لذلك . . . .

ـ معك ورقة كبة ! . . . صرخ في وجهه مارنيف ، وها انت تتخلى عنها .

ـ آه ! عفواً ، أجاب كروفيل وهو عازم على تناول ورقته . يبدو لي ان ذاك البارون مغامراً ، تابع محدثاً نفسه . ما همّ ان بقيت فاليري مع سيدي البارون ، بنوع من التوفيق الذي لا يحالف الا الحلوات ، شديدة الأناقة ، لحسابي ، فيكون بذلك

انتقامي . ولدي الوسائل للتخلص منه ، لكن لم الحيلة مع هذا القريب! . . إنه بارون رفيع المستوى ولا اريد ان اكون مغفلاً ، بل اريد ان أكشف صلة القربى بينهما .

ذلك المساء كانت فاليري يشع صدرها الأبيض المشدود في تخريم كبير الفتحات . ترتدي فستاناً مخملياً اسود يبدو انه مستعد ان يزل في كل لحظة عن كتفيها ، وتضع على رأسها تخريما مزداناً بزهور منسقة كالعناقيد . ويطل ذراعاها النحيفان والممتلئان في الوقت ذاته من اكمام مشبكة أطرافها بالتخريمات . كانت تشبه تلك الثمارالمنضدة بغنج في صحن رائع يثير الشهية في حد السكين .

ـ فاليري ، همس البرازيلي في اذن الصبية عدت لك وانا على إخلاصي ، مات عمي وازدادت ثروتي ضعفي ما كانت عليه قبل رحيلي . قررت ان اعيش واموت في باريس بالقرب منك ولأجلك .

ـ بصوت منخفض يا هنري ! أرجوك !

ـ آه ! آه ! أتريدين ان اجبر على قذف هؤلاء الناس من النافذة ، اريد التحدث اليك هذا المساء ، خاصة بعدما صرفت يومين في البحث عنك . سأبقى الأخير ، أليس كذلك ، ابتسمت فاليري لابن خالها المزعوم وقالت له : لا تنسى انه يتوجب عليك ان تكون ابن اخت أمي التي تزوجت من ابيك إبان معركة جونو في البرتغال . »

ـ أنا ، مونتيس دو مونتيجانوس حفيد احد فاتحي البرازيل ، أكذب !

ـ بصوت منخفض ، او لا نتلاقى ابداً . . .

ـ ولماذا ؟

ـ بدأ مارنيف يشعر بعاطفة نحوي . . . مثل المشرفين على الموت الذين تتملكهم جميعاً رغبة اخيرة . . .

ـ هذا الخادم ؟ . . قال البرازيلي الذي يعرف مارنيف ، سأدفع له . . .

ـ أي عنف هذا ! . . .

ـ آه ! ماذا ! من ايڤ لك كل هذا البذخ ؟ . . . قال البرازيلي وهو يجول بنظره على عظمة الصالون وما فيه من ترف ، وقد لاحظها اخيراً .

راحت فاليري تضحك حتى القهقهة .

ـ أي لهجة رديئة هذه يا هنري !

عندها تلقت نظرتين ملتهبتين بالغيرة اصابتاها في الصميم لتجبراها على التطلع الى هاتين النفسين المعذبتين .

كان كروفيل يلعب مع مارنيف كشريك له ضد البارون والسيد كوكي ، وقد تعادل الشوط بسبب الشرود المتتالي لكروفيل والبارون اللذين راكما الأخطاء فوق بعضها البعض .

لقد باح هذان العجوزان العاشقان في لحظة ، بالعاطفة التي نجحت فاليري في إجبارهما على سترها منذ ثلاث سنوات ، لكنها لم تتمكن من اطفاء البهجة في عينيها لسعادتها برؤية الرجل الذي كان اول من جعل قلبها يخفق اذ كان موضوع حبها الأول ان حقوق هؤلاء المحظوظين الفانين تعيش قدر ما تعيش النساء اللواتي عليهن اكتسبوا هذه الحقوق .

بين هذه العواطف الثلاث المطلقة حيث تدعم احداها ، وقاحة المال والأخرى حق الامتلاك ، والأخيرة تدعمها الفتوة والقوة والثروة والأولوية ، ظلت السيدة مارنيف هادئة ، وحرة التفكير كما كان القائد بونابرت عندما كان مقره في مانتو وكان عليه ان يرد على جيشين ، مع عزمه على إبقاء حصاره على المكان قائمًا .

٤٦

في اي عمر يشعر الرجال الموسرون بالغيرة

إن الغيرة التي رجّت وجه هيلو جعلته مريعاً كالمرحوم الماريشال مونتكورني الذاهب في مهمة قيادة الخيالة الى موطن

روسي . لم يعرف مستشار الدولة ، الرجل الوسيم ، الغيرة ابداً تماماً كما يجهل « مورا » الشعور بالخوف . ظن نفسه انه متيقن دائماً من النصر،عزا فشله ، الأول في حياته ، مع جوزيفا الى عطش للمال ، كان يقنع نفسه بأن المليون قد غلبه وليس السقيط ، مشيراً بذلك الى الدوق هيروفيل . شراب الحب ، والدوخات التي يسببها هذا الشعور المجنون فتدفق منه كالسيول ، اندفعت وصبت في قلبه خلال لحظة واحدة .

ترك طاولة لعب « الويست » واتجه صوب المدخنة ، وعندما حط أوراقه ليسلط نظره المثير عن البرازيلي وفاليري ، لاحظ مرتادو الصالون تخوفا ممزوجاً بالفضول يغذيه عنف مهدد ان ينفجر بين لحظة وأخرى

نظر القريب الزائف الى مستشار الدولة وكأنه يتفحص قطرميزاً صينيا .مستحيل ان يستمر هذا الموقف دون ان يفضي الى نتيجة منكرة .

يخاف مارنيف البارون هيلو بقدر ما يرتاب كروفيل من مارنيف ، لأنه لا يهتم بأن يقضي وهو في وظيفة نائب رئيس ، يتشبث المحتضرون بالحياة كما يتعلق المحكومون بالأشغال الشاقة ، بالحرية . يريد هذا الانسان الوصول الى مركز رئيس مكتب مهما كان الثمن . وإذ تخوف جديا من هيئة كروفيل ومستشار الدولة . قام وهمس في اذن زوجته ، وفي ظل دهشة

الحاضرين انسحبت فاليري الى غرفة نومها مع البرازيلي وزوجها .

ـ هل باحثتك السيدة مارنيف يوماً بابن العم هذا ؟ سأل كروفيل البارون مستفسراً .

ـ أبداً ! أجاب البارون وهو ينهض يكفي لهذا المساء . ثم اضاف : خسرت ليرتين ذهبيتين وهاكم المبلغ .

رمى بالقطعتين الذهبيتين على الطاولة وعاد ليجلس على الأريكة بشكل فسره الجميع كانذار بالرحيل . السيد والسيدة كوكي غادرا المكان بعدما تبادلا بعض الكلمات وكذلك فعل كلود فينيون ، مما حفز البسطاء الباقين على الاقتداء بهم .

بقي البارون وكروفيل وحدهما دون ان ينبسا بكلمة . لكن هيلو الذي تجاهل كروفيل سار على رأس قدمه ليستسرق السمع على باب الغرفة ، ثم قفز قفزة غريبة الى الوراء لأن السيد مارنيف فتح الباب بوجه هادىء ، وبدا عليه انه استغرب بقاء شخصين لا غير فخاطبهما قائلا :

ـ والشاي !

ـ أين هي فاليري إذاً ؟ أجاب البارون الغاضب .

ـ زوجتي ، عقب مارنيف صعدت عند الآنسة ابنة عمك ، وستعود حالاً .

ـ ولماذا زرعتنا هنا وذهبت عند هذه العنزة البلهاء ؟ .

ـ لكن ، قال مارنيف ، يبدو ان الآنسة ليز بته عادت من زيارة للسيدة البارونة . زوجتك وهي تشعر بعسر هضم فطلبت ماثورين الشاي الى فاليري التي ذهبت لتتفقد الآنسة ابنة عمك .

ـ واين العم ؟ . . .

فقال البارون

رحل !

ـ هل تعتقد ذلك ؟ '

فأجاب مارنيف بابتسامة مجفلة : ـ وضعته في العربة ! سمع هدير عربة في شارع فانو .

خرج البارون الذي لم يقم وزناً لمارنيف وصعد عند ليز بت سرت في خاطره فكرة من الفكر التي يوعز بها القلب عندما يلتهب بالغيرة . ونظراً لخساسته . اعتقد مارنيف ان في الأمر تواطؤا دنيئاً بين الزوجة وزوجها .

واستفسر مارنيف اذ رأى نفسه وحيداً مع كروفيل : [ـ ماذا حلّ بهؤلاء السيدات والسادة ؟

ـ عندما تأفل الشمس تبيت معها الطيور ، اختفت السيدة مارنيف فرحل المعجبون بها . اقترح عليك لعبة البيكي ، أضاف

كروفيل الذي صمم البقاء .

هذا ايضاً كان يعتقد ان البرازيلي ما زال في البيت . وافق السيد مارنيف . العمدة كان اشد رقة من البارون ، ويمكنه ان يظل في هذا المسكن إلى ما لا نهاية وهو يلعب مع الزوج الذي كان يكتفي ، منذ إقفال الدور العامة ، بالألعاب القصيرة ، والبسيطة .

صعد البارون هيلو بسرعة عند ابنة عمه بت ، لكنه وجد الباب . موصدا ، وقد استغرقت تحضيرات فتحه ما يمكن المرأتين الماكرتين من ابتكار مشهد عسر الهضم المعالج بالشاي . كانت ليز بت تتألم كثيراً فتثير أشد المخاوف لدى فاليري التي لم تعر انتباها لدخول البارون المستشيط غيظاً . ليس المرض سوى ستار تقيمه النساء بينهن وبين عاصفة من عواصف المشادة.

تطلع هيلو بسرعة البرق في كل مكان ولم يلحظ في غرفة نوم ابنة العم بت أي مكان قادر ان يخفي البرازيلي .

ـ عسر هضمك يا بت ، يشرف عشاء زوجتي ، قال وهو يتفحص العانس التي لم تكن تشكو شيئاً على الاطلاق ، والتي تحاول ان تقلد انين اوجاع المعدة وهي ترشف الشاي .

ـ من حسن الحظ ان العزيزة بت سكنت في منزلي ! ولولاي لكانت قضت نحبها . . . ـ يبدو عليك انك تظنني في احسن حالاتي ، قالت ليز بت مخاطبة البارون . واذا كان الأمر كذلك . . .

ـ لماذا ؟ تساءل لبارون ، تعلمين اذاً سبب زيارتي ؟

ثم استرق النظر الى باب حجرة التزين حيث نزع المفتاح .

ـ وهل تتكلم الاغريقية ؟ .. أجابت السيدة مارنيف وقد بدت عليها ملامح مؤثرة من الحنان والاخلاص النادرين .

ـ لكن هذا من اجلك ، يا ابن عمي العزيز ، نعم ، الحق عليك اذا كنت انا في هذه الحال التي تراني عليها ، قالت ليز بت بعصبية . لفت هذا الصراخ نظر البارون الذي نظر الى العانس بذهول عميق .

ـ انت تعلم ان كنت أحبك وتابعت ليزبيت: انا هنا ، وحسبي هذا دليلا . استنفد القوى الأخيرة من حياتي في السهر على رغباتك كما على رغبات عزيزتنا فاليري . يكلف بيتها اقل من بيت مماثل اذا ما اردنا ان نديره بالمستوى ذاته . لولاي يا ابن عمي لكنت مضطراً الى دفع ثلاثة او اربعة آلاف فرنك بديلاً عن الألفين التي تدفعها حالياً في الشهر .

ـ أدرك ذلك ، أجاب البارون الذي فقد صبره ، إنك تعينينابأمور كثيرة ، أضاف وهو يعود بالقرب من السيدة مارنيف ليلف عنقها بذراعه ، اليس كذلك يا عزيزتي الصغيرة ؟ . . .

ـ بشرفي ، قالت فاليري ، اظنك مجنوناً . . .

ـ وبعد ، انك لا تشك في تعلقي بك ، أجابت ليز بت ،

لكن احب ايضاً ابنة عمي ادلين ، وقد وجدتها غارقة في دموعها . لم ترك منذ شهر . لا ، يجوز ذلك . تترك ادلين المسكينة بلا مال . كادت ابنتك أورتنس ان تختنق لما علمت انه لولا اخوك لما تناولنا العشاء ! لم يكن اليوم عندكم خبز . لقد اتخذت ادلين القرار البطولي بأن تكتفي ذاتياً . قالت لي : « سأفعل مثلك ! » . عصرت هذه العبارة قلبي عصراً ، بعد العشاء وإذ كنت استعيد ما كانت عليه ابنة عمي عام ١٨١١ وما صارت عليه في ١٨٤١ ، أي بعد ثلاثين سنة ! توقف الهضم في معدتي . . أردت ان اتغلب على الألم ، لكن بعد وصولي الى هنا تفاقم الوجع ولم يعد يطاق . . .

ـ لاحظت يا فاليري قال البارون : الى اي نهاية سيقودني الولع بك ! . . . حتى ارتكاب الجرائم العائلية .

ـ اوه ! لقد كنت على حق في بقائي دون زواج فصاحت ليز بت بفرح وحشي : إنك إنسان طيب وممتاز وادلين ملاك طاهر ، وهذه هي مكافأة الاخلاص الأعمى . فقالت بلطف السيدة مارنيف وهي ترمق هكتور بنظرة نصفها حنان والنصف الآخر مرح ، وهكتور يتفحصها كما يتفحص قاضي التحقيق الظنين : [ـ ملاك عجوز !]

ـ وقال البارون : زوجة مسكينة : منذ تسعة اشهر وانا لا أمدها بالمال بينما أحصل عليه من اجلك يا فاليري مهما كانت

التضحيات ! لن تتوقعي يوماً ، حباً بهذا القدر ، وأي الم تعطينني اياه في المقابل !

ـ ألم ؟ أجابت . وما هي السعادة في نظرك ؟

ـ ما زلت غافلاً عن طبيعة صلاتك مع المزعوم ابن عمك الذي لم تحدثيني عنه ابداً ، تابع البارون دون ان يعير انتباها الى العبارات التي رمتها فاليري . عندما دخل ، أحسست وكأنني تلقيت طعنة في قلبي . أي غبي انا ! لا ، لست غبياً . لقد قرأت ما جال في عينيك وفي عينيه . كانت تنطلق من حاجبي هذا القرد شرارات ترتد عليك ، حيث نظرتك . . . أوه ! لم تنظري الي يوماً هكذا ، ابداً ! هذا السر الغامض يا فاليري ، سينكشف . . . انت المرأة الوحيدة التي عرفتني بالغيرة ، لا تستغربي ما أصارحك به . . . لكن سراً آخر غامضاً قد تمزقت غشاوته وبدا لي انه فضيحة . . .

ـ هيّا ! هيا ! قالت فاليري .

ـ هذا السر هو ان كروفيل ، هذا المكعب المليء باللحم والتفاهات ، يُعبك ، وتتلقين ملاحظاته بارتياح ، مما جعل هذا الابله يتفاخر بولهه امام كل الناس .

ـ وغير هؤلاء الثلاثة ! الا تلاحظ آخرين ؟

ـ قال البارون : ربما كان هناك آخرون !

ـ إن عشقني كروفيل فهذا حق له كرجل ، وإن تجاوبت مع عاطفته فذلك من عمل مدللة او ابتكار امرأة تسعى باستمرار الى إثارة الرغبات فيك . . . وبعد ! أحببني بسيئاتي أو أتركني لو اعدت إلي حريتي فلن تعود الى هنا لا انت ولا السيد كروفيل ، وسأتقرب من ابن عمي حتى لا افقد عاداتي الساحرة التي تفترضها بي . الى اللقاء يا سيدي البارون هيلو . ونهضت ، لكن مستشار الدولة اخذها بيدها وأجلسها . فالعجوز لا يستطيع ان يجد بديلاً لفاليري التي اصبحت حاجة له اشد إلحاحاً من ضرورات الحياة ، وفضل ان يظل في القلق من ان يتلقى اي بينة على خيانة فاليري .

ـ عزيزتي فاليري ، ألا تشعرين بما اعانيه ؟ انا لا اطلب منك الا تبرير موقفك فهات حججك المقنعة . . .

ـ حسناً ! إنتظرني في الأسفل لأنك لا تريد ، كما اظن ، ان تحفل بمختلف العوارض التي تستوجبها حالة ابنة عمك . عندها انسحب هيلو بهدوء . فصاحت ابنة العم بت :

ـ أيها الفاجر العجوز ! الا تسألني عن اولادك ؟ . . . ماذا ستفعل من أجل ادلين ؟ اول ما اباشره في الغد أني سأحمل لها مدخراتي .

ـ يجب على الأقل ان يمد الرجل زوجته بالخير ، قالت السيدة مارنيف وهي تبتسم . ودون ان يغتاظ البارون من لهجة

ليز بَت التي لقنته درساً قاسياً كما فعلت به جوزيفا ، انصرف والسرور باد على محياه لأنه يتجنب سؤالا مزعجاً .

وما ان أحكم وضع المزلاج في الباب حتى خرج البرازيلي من حجرة التزيين حيث كان ينتظر ، وعيناه مغرورقتان بالدموع وحالته تثير الشفقة . من الواضح ان مونتيس قد سمع كل شيء .

٤٧

المشهد الأول لملهاة نسائية رفيعة

- أنت لاتحبني يا هنري ! انا ادرك ذلك ، قالت السيدة مارنيف وهي تخفي جبينها بمنديل وتغرق بالدموع .

إنها صيحة الحب الحقيقي ، وصخب يأس المرأة مقنع الى حد انه ينتزع العفو الكائن في اعماق قلوب المحبين ، خصوصاً اذا كانت المرأة صبية جميلة ولباسها المقور في الأعلى يبرز مفاتن جسد حواء المثيرة .

- لكن لماذا لا تهجرين كل شيء من أجلي إن كنت تحبينني ؟ سألها البرازيلي .

ـ لماذا ؟ .. قالت وهي ترفع راسها لتنظر الى هنري وتشمله بنظرة مثقلة بالحب . لأنني متزوجة يا عزيزي . ولكن نحن في باريس ولسنا في السباسب أو في سهول اميركا الجنوبية المعشوشبةأو في متاهاتها . لا يا هنري يا حبي الأول والوحيد ، اصغ إلي . إن زوجي هو الآن مجرد نائب رئيس بسيط في وزارة الحربية ويطمح ان يشغل منصب رئيس مكتب وضابط جوقة الشرف ، فهل اجرؤ على الحد من طموحاته ؟ للأسباب نفسها التي ترك لنا من اجلها الحرية المطلقة (مضى علينا حتى الآن اربع سنوات ، اتذكر ذلك ايها الخبيث ؟) يفرض علي مارنيف هذه الأيام هيلو . لا يمكنني ان اتحرر من هذا الأداري الكريه الذي يلهث كالفقمة ويعلو منخاراه زعانف وله من العمر ست وثلاثون سنة والذي ، منذ ثلاث سنوات كبر سنه عشرة اعوام عندما عزم ان يكون شاباً . اني امقُت كل هذا حتى ولو حصل مارنيف في الغد على منصب رئيس مكتب وضابط جوقة الشرف .

ـ ما الزيادة التي سيحصل عليها زوجك ؟

ـ الف ريال فاجاب البارون مونتيس :

ـ سأمنحه اياها كدخل لمدى الحياة ، ولنغادر باريس وننصرف . . .

ـ الى اين ؟ قالت فاليري وهي تصطنع احدى تبرطماتها الحلوة التي تزدري بها النساء الرجال الذين يركن اليهم . باريس

هي المدينة الوحيدة حيث يمكننا ان نعيش بهناء اعلق على حبك آمالاً كبار وأخاف من ان يذبل لو انعزلنا في صحراء ، اسمع يا هنري ، انت الرجل الوحيد ، في هذا الكون ، الذي نال حبي ، سجل ذلك في جمجمتك النمرية هذه .

تقنع النساء دائما ، الرجال الذين أحلنهم الى خراف ، بأنهم أسود ويتمتعون بطبع فولاذي .

- والآن اسمعني جيداً ، لم يبق للسيد مارنيف من الحياة سوى خمس سنوات ، إنه مصاب بالغنغرينة حتى نخاع عظامه ، من اصل اثني عشر شهراً يمضي سبعة اشهر في تناول المخدرات والمسكرات وهو في قميص الفلانيلة . وكما يقول الطبيب فإنه معرض في اي لحظة لضربة مقضب لأن أي مرض يراه الأصحاء بسيطاً يكون بالنسبة اليه قاتلاً لأن دمه قد فسد وحياته قد اصيبت في الصميم . منعته من تقبيلي منذ خمس سنوات لأنني أرى ان مرض الطاعون متمثل فيه ! في يوم ، وهذا اليوم ليس ببعيد ، سأترمل ، وبعد ! فأنا التي طلبني رجل يمتلك دخلاً بمبلغ ستين الفاً وانا سيدته كما اني سيدة قطعة السكر هذه . إني اصارحك بأنك ستسقط في الفاقة كهيلو وستصاب بالجذام كمارنيف أما اذا غلبتني فأنت الذي اختاره زوجاً لي ، انت وحدك الذي احب واريد ان احمل اسمه ، واني مستعدة ان امنحك كل طاقات حبي التي تتمناها .

ـ حسنا ! هذا المساء . . . .

ـ لكن يا ابن مدينة الريو يا نمري القادم الّي من غابات البرازيل البكر ، قالت وهي تتناول يده لتلاطفها وتقبلها ، إحترم قليلاً المخلوقة التي ستتخذها يوماً زوجة لك . . . هل سأكون زوجتك يا هنري ؟ . . .

ـ نعم ، قال البرازيلي الذي إقتنع بثرثرة العاطفة المجنونة ثم خر على ركبتيه . وقالت وهي تمسك بيديه الاثنتين وترمقه في اعماق عينيه .دون ان تحول نظرها عنه : اطلب منك يا هنري ان تتعهد هنا ، وبحضور ليز بت صديقتي المفضلة الوحيدة ، بل اختي ان تتزوج مني في آخر سنة ترملي .

ـ اتعهد بذلك .

ـ ليس ذلك كافياً ، أريد ان تحلف بتراب امك وخلاصها الأبدي . احلف بالسيدة العذراء وبكل معتقداتك الكاثوليكية !

كانت فاليري تعرف ان البرازيلي يتمسك بقسمه وإلا سقط في اعماق انتن حقارة اجتماعية . اعلن البرازيلي قسمه الاحتفالي وانفه يكاد يلامس صدر فاليري الأبيض ، وعيناه مسحورتان . كان منتشيا من الغبطة كما ينتشي من التقى عشيقته بعد فترة انقطاع مئة وعشرين يوماً !

ـ حسناً ! والآن ، هدىء من روعك . إحترس جيداً

واحترم في السيدة مارنيف زوجة المستقبل للبارون مونتيجانوس. اطلب الا تنفق فلساً من أجلي، إني امنعك من ذلك. لا تتحرك من مكانك، إبق ممدداً على هذه الأريكة الصغيرة ريثما اعود بنفسي لأبلغك متى تستطيع مغادرة حجرتك... في الغد سنتناول الغداء معاً، تتوجه كل يوم في الساعة الأولى وكأنك تأتي لزيارتي ظهراً. لا تخف شيئاً، يطيعني الحجاب ويحترمونني مثل الابن بالنسبة إلى الوالدين... أنا الآن منصرفة إلى بيتي لأقدم الشاي. وبحركة منها رافقتها ليزبت حتى استراحة الدرج. وهنا همست فاليري في إذن العانس: ـ هذا الأسمر جاء مبكراً سنة قبل الأوان! تأكدي اني أموت قهراً إن لم انتقم لك من أورتنس!..

ـ إطمئني يا جنيتي الصغيرة اللطيفة، قالت العانس وهي تطبع قبلة على جبينها. الحب والانتقام اللذان يطيران معاً، لا يركنان للضعف والاستسلام. تنتظرني أورتنس في الغد. وهي في عوز شديد أما ونسيسلاس فمستعد ان يقبلك الف مرة حتى يحصل على الف فرنك.

٤٨

مشهد جدير بالعرض

عندما ترك فاليري ، نزل هيلو الى الرواق حيث اطل فجأة على السيدة اوليفييه .

ـ السيدة اوليفييه ؟ . . .

وإذ سمعت السيدة اوليفييه هذا النداء الحاسم ورأت الحركة التي رافقت حديثه معها ، خرجت من رواقها واتجهت في الساحة الى المكان الذي قادها اليه البارون .

ـ تعلمين انه اذا كان لأحد ان يسهل يوماً لأبنك الحصول على محاماة ، فهذا الأحد هو انا . بفضلي ، اصبح الكاتب الثالث عند الكاتب العدل ، وبفضلي هو يكمل دراسة الحقوق .

ـ نعم يا سيدي البارون ، وبامكان السيد البارون اذا اراد ان يعتمد على عرفاننا له . لا يمر يوم لا اصلي لله من اجل إسعاد السيد البارون .

ـ لا اريد كلاماً ايتها المرأة الطيبة بل بيّنات .

ـ تساءلت السيدة اوليفييه : ـ ماذا افعل ؟

ـ وصل هذا المساء رجل في عربة ، هل تعرفينه ؟

عرفت السيدة اوليفيه جيداً مونتيس . وكيف تنساه ؟ كان السيد مونتيس يدس في يدها مئة فلس في شارع دواينه ، كل مرة يخرج صباحاً من البيت في ساعة متأخرة .

ولو كان البارون توجه بسؤاله الى السيد اوليفييه لكان من الممكن ان يتوصل الى معرفة كل شيء . لكن اوليفييه كان نائماً . في الطبقات الدنيا لا تتقدم المرأة على الرجل فقط بل وتتحكم به دائماً تقريباً . لقد اتخذت السيدة اوليفييه قرارها منذ زمن في حال الصدام بين محسنيها وكانت تنظر الى السيدة مارنيف وكأنها الأقوى بين هاتين القدرتين .

ـ إذا كنت اعرفه ؟ . . . أجابت ، لا . ورباه لا ، لم اره مطلقاً ! . . .

ـ كيف ! لم يكن ابن عم السيدة مارنيف يأتي لزيارتها عندما كانت تسكن في شارع دوانيّة؟ . . .

ـ آه ! إنه ابن عمها ! . . . صاحت السيدة اوليفييه . ربما أتى ، لكنني لم اتعرف به . في المرة القادمة سأكون متيقظة جداً يا سيدي .

ـ قليلاً وينزل ، قال هيلو بحماسة وهو يقطع الكلام على السيدة اوليفييه .

ـ لكنـه رحل ، عقبت السيـدة اوليفييه التي فهمت كـل شيء . العربة ليست هنا .

ـ أرأيته يرحل ؟ .

ـ كما أراك ، وقال لخادمه : « الى السفارة ! »

هذه اللهجة وهذه التأكيدات انتزعت من صـدر البارون زفرة ابتهاج فتناول يد السيدة اوليفييه وهزها بقوة .وهو يضغط عليها .

ـ شكراً ايتها العزيزة السيدة أوليڤييه، لكن ليس ذلك كل شيء ! والسيد كروفيل ؟ . .

ـ السيد كروفيل ؟ ماذا تعني ؟ لا افهم .

ـ اسمعيني جيداً ! إنه يحب السيدة مارنيف . . .

ـ فقالت وهي تشبك يديها : غير ممكن ! سيدي البارون ، غير ممكن !

ـ يحب السيدة مارنيف ! كرر البارون بلهجة آمرة . كيف يحصل ذلك ؟ لا اعلم شيئاً ، لكن اريد ان اطلع على ذلك وبامكانك ان تحصلي على المعلومات الكافية بهذا الشأن . واذا تمكنت من تسليمي خيوط هذه المكيدة فسترين إبنـك الموثق الأول للعقود .

ـ سيدي البارون لا تأكل لحمـك بيدك تـرو . السيدة

تحبك ولا تحب غيرك ، وصيفتها تعلم ذلك جيداً ونحن نتحدث عنك بأنك اسعد رجل على الأرض لأنك تعلم ما تستحق السيدة وتقدرها حق قدرها . . . آه ! إنها الكمال بذاته . . . تنهض الساعة العاشرة كل يوم فتتناول فطورها بعدها تمضي ساعة كاملة في التزين والتبرج الآن نحن في الساعة الثانية . عندها تسير الى التجوال فتتنزه في التويليري على مرأى ومسمع من كل الناس ، ثم تعود في الساعة الرابعة ، أي في الوقت الذي تصل فيه انت . . . أوه ! كل شيء يسير بانضباط كرقاص الساعة . لا تكتم سراً على وصيفتها ، وهذه لا شيء عندها تخفيه عني . . . ولو كان للسيدة ارتباطات مع السيد كروفيل لكنا اطلعنا عليها .

صعد البارون عند السيدة مارنيف ووجهه مشع وهو مقتنع بانه المحبوب الوحيد لهذه الفاسقة المقيتة والخداعة بل الساحرة واللطيفة كجنية البحر .

شرع كروفيل ومارنيف بشوط آخر من لعب الورق . كان كروفيل يخسر كما يخسر كل من وجه عقله خارج اللعبة . كان مارنيف يغتنم فرصة شرود العمدة الذي كان على بينة من اسبابه ، ليحقق ربحاً عليه ، دون تردد : يختار الأوراق المناسبة ، يبعد التي لا حاجة له بها ويطلع على اوراق خصمه فيلعب على المكشوف وبطريقة اكيدة ومحققة .

كانت الفيشة مسعّرة بعشرين فلساً واستطاع مارنيف ان

يختلس بهذه الطريقة من العمدة مبلغ عشرين فرنكاً حتى عودة البارون .

ـ ما هذا ! قال مستشار الدولة الذي ذهل إذ لم ير أحداً ، وحدكما ؟ أين الجميع؟

ـ ان طبعك السمح قد ابعد الناس كلهم ! أجاب كروفيل .

ـ لا ، كان ذلك بسبب وصول ابن عم زوجتي ، علق مارنيف . اعتقد هؤلاء السيدات والسادة ان فاليري وهنري كان عندهما ما يتساران به بعد غياب ثلاث سنوات ، فانسحبوا خفية . . . لو كنت هنا لأوقفتهم ، لكن لسوء الحظ وبسبب انحراف صحة ليز بت التي تقدم الشاي دائما عند العاشرة والنصف قد عرقل كل شيء

ـ إذا فليزبت هي حقيقة معتلّة ؟ تساءل كروفيل الغاضب .

ـ قيل لي ذلك ، عقب مارنيف بلا مبالاة مستهترة كامنة في الرجال الذين لا يحسبون حساباً للنساء .

كان كروفيل يتطلع الى ساعة الحائط حيث استنتج ان البارون ربما أمضى اربعين دقيقة عندليز بت وان الارتياح البادي عليه قد جرّم بقوة كلًّا من هكتور وفاليري وليزبت .

ـ قال البارون جئت للتو من زيارتها . إنها تتألم كثيراً . انها فتاة مسكينة .

ـ يظهر ان آلام الآخرين تريحك يا صديقي العزيز لأنك تعود ووجهك يهلّ بالابتهاج ! هل ليز بت هي في خطر الموت ؟ يقال ان ابنتك ترثها . لقد تبدلت كثيراً في هذا الوقت القليل ، تركتنا بوجه « مور فونيز » وعدت بوجه « سان پرو » ! . . . أود ان أرى وجه السيدة مارنيف !

ـ ماذا تعني بهذا الكلام ؟ . . . سأل السيد مارنيف كروفيل وهو يجمع اوراقه ويضعها امامه .

اشتعلت العينان المطفأتان لهذا الرجل الذي شاخ وهو في السابعة والأربعين ، واصطبغت وجنتاه الرخوتان الباردتان ببعض اللون ، وفتح قليلا فمًا فارغاً ذا شفتين سوداوين غشاهما الزبد الأبيض . هذا الرجل العاجز الغاضب الذي تتمسك حياته بخيط رفيع ، والذي ، في مبارزة لا يجازف بشيء في الوقت الذي يخسر كروفيل كل شيء ، هذا الرجل اخاف العمدة .

ـ أقول ، أجاب كروفيل ، اني اود ان ارى وجه السيدة مارنيف خصوصاً ان وجهك انت ، حالياً ، ليس بالشيء المرغوب . كن على ثقة انك بشع مرعب يا عزيزي مارنيف .

ـ هل تعرف انك لست مهذباً ؟ .

ـ إن رجلاً يربح ثلاثين فرنكا في خمس واربعين دقيقة لا يبدو لي ابداً مريحاً .

ـ آه : لو رأيتني ، تابع نائب الرئيس ، قبل سبع عشرة سنة . . .

ـ كنت لطيفاً ؟ سأله كروفيل .

ـ وهذا ما سبب هلاكي ، ولو حذوت حذوك لكنت شيخاً او عمدة .

ـ بالطبع ، قال كروفيل وهو يبتسم ، انت ناضلت كثيراً ، واخترت الأسوأ بين العنصرين اللذين تكسبهما من التعاطي مع رب التجارة ، الا وهي المخدرات !

وانفجر كروفيل بالضحك . وإذا كان مارنيف يغضب لشرفه المعرض للخطر فمن كان يتلقى بهدوء هذه المداعبات التافهة التي كانت كمدد للحوار بين كروفيل وبينه .

ـ لقد كلفتني حواء غالياً ، صحيح ، لكن وربي ، ان تكون حياتي قصيرة ولذيذة ، فهذا شعاري .

ـ فقال كروفيل : أفضلها طويلة وسعيدة .

٤٩

المشهد الثاني لملهاة نسائية رفيعة

دخلت مارنيف ورأت زوجها يلعب مع كروفيل والبارون والثلاثة وحدهم في الصالون . من النظرة الأولى لوجه صاحب المقام العالي في البلدية ، ادركت جميع الأفكار التي خضت احاسيسه ، فاتخذت قرارها حالاً .

ـ مارنيف ، عزيزي ! قالت وهي تتكىء على كتف زوجها وتدس اناملها الرشيقة في شعر رمادي قبيح دون ان تتوصل الى تغطية رأسه به وهي تعيد هذا الشعر الى الامام . لقد صار الوقت متأخراً بالنسبة اليك ، يجب ان تذهب الى النوم . عليك في الغد ان تطهر جوفك كما قال الطبيب ، ورين ستحضر لك من الأعشاب شراباً ساخناً ابتداء من الساعة السابعة . . اذا كنت تريد الحياة فاترك الآن هذه اللعبة . . . .

قال مارنيف مخاطباً كروفيل :

ـ فلنحددها بخمس نقاط .

ـ فأجاب كروفيل : معي نقطتان .

ـ وسألت فاليري : كم يستغرق ذلك من الوقت ؟

ـ اجابت فاليري : إنها الآن الحادية عشرة . والحقيقة يا سيد كروفيل يبدو كأنك تنوي قتل زوجي . استعجلوا .

أضحكت هذه الصياغة الانشائية التي تحمل في طياتها اتجاهين في المعنى كلا من كروفيل وهيلو وحتى مارنيف ذاته ، ثم راحت فاليري تدردش مع هكتور . وهمست في اذنه .

ـ اخرج ، يا عزيزي ، وتنزه في شارع فانو ، وعد عندما ترى كروفيل منصرفا .

ـ أفضل ان اخرج من الشقة وأدخل في غرفتك عن طريق باب حجرة التزيُّن ، بلغي رين حتى تفتحه لي .

ـ رين منهمكة في معالجة ليزبت .

ـ لو توجهت عند ليزبت ؟

كل شيء ينذر فاليري بالخطر ، انها تتوخى حديثاً تفسيرياً مع كروفيل ولا ترغب في ان يسمعها هيلو ، وهو في غرفتها . ومن جهة اخرى كان البرازيلي ينتظرها عند ليز بت . قالت لهيلو :

ـ في الحقيقة ، إنكم ايها الرجال اذا تولتكم نزوة من النزوات تحرقون البيوت حتى تدخلوا اليها . حالة ليز بت لا تسمح باستقبالك .... اتخاف ان تصاب بالرشح في الشارع ؟ . . . هيا . . . او وداعاً !

ـ الوداع ، ايها السادة . قال البارون بصوت عال .
وإذا اصيب في كرامته كعجوز اراد هو ان يثبت ان في امكانه ان يتعالى وهو ينتظر في الشارع ظهور الزهرة ، ثم خرج .

ودّع السيد مارنيف وزوجته بحنان ظاهري وهو يأخذ بيديها . ضغطت فاليري بشكل ذي معنى على يد زوجها وكأنها تقول : « انقذني من كروفيل » .

فقال مارنيف عندها .
ـ ليلة سعيدة يا كروفيل . ارجو الا تطيل الوقت مع فاليري . آه اني غيور ! لقد مستني الغيرة متأخرة ، لكنها متمكنة مني . . . وساعود لأرى ان كنت ذهبت .

ـ اجابه كروفيل: سنتحدث في بعض الشؤ ون العملية، ولكن لن اطيل

ـ اخفض صوتك ! ـ ماذا تريد مني ، قالت فاليري بلهجة على وتيرتين وهي ترمق كروفيل بشكل امتزج فيه السمو بالاحتقار .

وإذ تلقى هذه النظرة المتعالية اصبح كروفيل الذي بذل من اجل فاليري الخدمات الجلى التي يتفاخر بها ، وضيعاً ومنصاعاً .

ـ هذا البرازيلي . . .

لكن كروفيل الذي استهاب نظرة فاليري المحدقة فيه والتي

تنم عن احتقار ، توقف عن الكلام .

ـ وبعد ؟ . . . قالت فاليري .

ـ ابنْ ألعم هذا . . .

ـ ليس ابن عمي . انه ابن عمي امام الناس وامام مارنيف وحتى لو كان عشيقي لما كان لك رأي في الموضوع . إن حانوتيا يشتري امرأة لينتقم لنفسه من رجل هو ادنى مرتبة ، في اعتباري ، من الذي يشتريها حباً بها . لم تتوله بي بل كنت تنظر الي كعشيقة للسيد هيلو واقتنيتني كمسدس لتقتل به خصمك . كنت جائعة فارتضيت .

ـ لكن الصفقة لم تنفذ ، أجاب كروفيل وهو يستعيد لغة التجار .

ـ آه ! فهمت ، تريد ان يتأكد البارون هيلو انك استأثرت بعشيقته وأنك ربحت عليه تحديك في اختطافه جوزيفا منك . . . لا شيء يبرهن سفالتك أفضل من ذلك . . . تصرح انك تحب امرأة وتعاملها كدوقة فهل تريد ان تذلها وتعرضها للشبهات ؟ إنتبه يا عزيزي ، إنك على صواب : هذه المرأة لا توازي جوزيفا . هذه الآنسة لها من الشجاعة ما يجعلها تتصدى للعار الذي لحق بها بينما انا ، المخادعة ، استحق الجلد في مكان عام . عجباً ! تحتمي جوزيفا بذكائها وثروتها ، اما انا فعقلي الوحيد فهو كرامتي ، ما زلت بورجوازية محترمة وفاضلة ،

اما إذا أفشيت ذلك فماذا يبقى ؟ ولو كنت املك ثروة لهان الأمر وحلت المشكلة ! لكن لا املك الآن سوى دخل لا يتعدى الألف فرنك ، اليس كذلك ؟

- بل واكثر من ذلك ، قال كروفيل ، لقد ضاعفت مدخراتك منذ شهرين في « الأورليون » .

- حسناً ! لكن اعادة الاعتبار في باريس تبدأ في دخل يوازي الخمسين الف فرنك ، وأنت لا تملك ما يكفي للتعويض عن المركز الذي سأفقده . وما حيلتي ؟ ان تعين مارنيف رئيس مكتب فتبلغ رواتبه ستة آلاف فرنك ، صار له في الخدمة سبعة وعشرون سنة وفي ثلاث سنوات يستحق لي ، إذا توفي ، مبلغ خمس عشرة مئة كمعاش تقاعدي . اما انت الذي غمرته بالطيبة وملأته بالسعادة فلا تدري كيف تنتظر : وتقول ان هذا حب !

فقال كروفيل :

- ربما بدأت معك بالحساب الا اني منذ ذاك صرت كلبك . تضعين قدميك على قلبي ، تسحقينني تذلينني ، واحبك كما لم أحب في حياتي احداً . احبك يا فاليري مثلما احب سيليستين ! من اجلك اصبح قادراً على كل شيء .. إسمعي ! بدلاً من ان تأتي مرتين في الأسبوع الى شارع دوفان تعالي ثلاث مرات .

- فقط ! إنك تستعيد شبابك يا عزيزي .

فقال دون أن يرد على وقاحتها :

- إسمحي لي بطرد هيلو وإذلاله فتتخلصي منه .
لا تستقبلي هذا البرازيلي ، كوني بكل كيانك لي فلا تندمي سأمنحك أولاً قيداً كدخل بثمانية آلاف فرنك ولكن على مدى الحياة ، وبعد مرور خمس سنوات سأحيل اليك ملكية رقبتها . .

- دائما في الصفقات ! البورجوازيون لن يتعلموا العطاء أبداً ! تريد ان تقيم محطات حب في حياتك بتسجيل قيود دخل؟ . . . . آه، أيها الحانوتي، يا تاجر المراهم! تصنف كل شيء ! قال لي هكتور ان الدوق هيروفيل منح جوزيفا دخلاً بثلاثين الف فرنك ليرة في فرن عطار للحبوب ! إني افضل من جوزيفا بست مرات ! آه ! ان أكون محبوبة ! قالت وهي تجعد خصلات شعرها وتقف امام المرآة تتفحص نفسها . إن هنري يحبني ويقضي عليك كالذبابة بأشارة من عيني . اوه ! إنك تملك لتلبية رغبات طيشك ثلاثمئة الف فرنك بالاضافة الى ثروتك وما تدفنه من مال تفكر دائما في تضخيمه
- من اجلك يا فاليري . فإني اعرض عليك نصف مالي ! قال وهو يخرُّ على ركبتيه .

- هاي ! أما زلت هنا ! صاح مارنيف القبيح وهو في لبّاس النوم . ماذا تفعل ؟

- يستغفرني يا صديقي ، على إهانة بدرت منه نحوي . لم

يستطع ان يحصل على شيء مني فحاول ان يشتريني ....

تملكت كروفيل رغبة في الهبوط الى القبو عن طريق فتحة باب السقف كما يحصل في المسرح .

- إنهض يا عزيزي كروفيل ، قال مارنيف وهو يبتسم ، إنك مثير للسخرية .لا أرى على سحنة فاليري ما هو خطر علي .

- هيا الى النوم وارقد مطمئناً ، قالت السيدة مارنيف .

وفكر كروفيل : « ما اذكاها ! ما اروعها ! إنها تخلصني » . عندما عاد مارنيف الى سريره أخذ العمدة يدي فاليري وقبلهما تاركاً عليهما من بصمات دموعه .

- كل ثروتي باسمك !

- هذا هو الحب ، أجابته بالهمس في اذنه حسناً ، سأبادلك حباً بحب هيلو هو الآن في الشارع ينتظر ، حتى يصعد الى هنا . ان اضع شمعة على احدى نوافذ غرفة نومي . أسمح لك بأن تعلمه بأنك المحبوب الوحيد . بالطبع لن يصدقك أبداً . خذه الى شارع دوفان وقدم له البراهين وارهقه بها ، إني اسمح لك بذلك بل آمرك بأن تفعل إن هذه الفقمة تضايقني وتتعبني . أبقِهِ في شارع دوفان طوال الليل ، أقتله على نار خفيفة وانتقم لنفسك من اختطاف جوزيفا . قد يموت هيلو إثر ذلك لكننا ننقذ زوجته واولاده من دمار رهيب . السيدة هيلو تشتغل لتكسب قوتها ! .

- أوه ! السيدة المسكينة ! ربي إن ذلك لمخز ! صاح كروفيل

الذي استقامت عنده المشاعر الطيبة .

ـ إن كنت تحبني يا سيليستان ، همست فـاليري في اذن كروفيل التي لامستها شفتاها ، فتمسك به او أهلك ! او إن ظنون مارنيف كثيرة وهكتور يحمل مفتاح الباب ويأمل بالعودة!

شد كروفيل السيدة مارنيف بين ذراعيه وخرج وهو في غمرة من السعادة . صحبته فاليري برفق حتى استراحة الدرج ، ثم ، وكامرأة مسحورة بالحب ، نزلت حتى الطابق الأول ومشت حتى اسفل استراحة مدخل المبنى .

ـ فاليري حبيبتي ! عودي ، ولا تعرضي نفسك للشبهات امام اعين الحجاب . . عودي يا حياتي ، يا ثروتي ، كل شيء هو لك . . . أدخلي يا دوقتي !

ـ السيدة أوليفييه ! صرخت بلطف فاليري عندما طرق الباب .

فقالت اوليفييه منذهلة :

ـ كيف ! سيدتي ، انت هنا !

ـ ضعي المزاليج في اعلى الباب الكبير وفي اسفله ولا تفتحي لأحد .

ـ أمراً وطاعة يا سيدتي ..

بعدما سويت المزاليج روت السيدة اوليفييه محاولة الرشوة

التي سمح بها لنفسه الموظف الكبير .

ـ لقد تصرفت كالملاك يا عزيزي اوليفييه ، سنتحدث عن ذلك في الغد .

بلغت فاليري الطابق الثالث بسرعة البرق وطرقت ثلاث طرقات على باب ليز بت وعادت الى بيتها حيث املت اوامرها على الآنسة رين ، لأنه لم يحصل ان فوتت امرأة فرصة وصول مونتيس ما من البرازيل .

٥٠

كروفيل ينتقم لنفسه

ـ لا ! لا يفقه مثل هذا الحب سيدات المجتمع ! قال كروفيل وهو يحدث نفسه . بأي إشراقة من نظراتها كانت تكر على الدرج فتضيئه ، لقد سحبتها ورائي ! الوداع يا جوزيفا ! جوزيفا ايتها التافهة ! ماذا أقول ؟ تافهة . . . يا الهي ! سأكون قادراً على التحديق بهذا في اي يوم في التويليري . . . لا ! إذا لم تعتني فاليري بتربيتي فلن اكون شيئاً . . انا الذي يتأنى كثيراً ليظهر مظهر السيد النبيل . . . آه ! ما هذه المرأة ؟ تهز كياني هزاً

عندما تطل علي بنظراتها الباردة . . . أي لطافة ! أي روح ! لم ألق يوماً من جوزيفا مثل هذه الإرتعاشات. أي كمال مخبأ انت ! آه ! حسنا لقد استرجعت عافية رجولتي .

في الظلمات الحالكة في شارع بابيلون لمح هيلو الكبير المحني الظهر قليلا وهو يسير في محاذاة الواح خشب منزل قيد البناء . فاتجه اليه بسرعة وبخط مستقيم .

ـ صباح الخير ايها البارون ، لقد جاوزت الساعة نصف الليل يا عزيزي ! بحق الشيطان ماذا تفعل هنا ؟ . . . تتمشى تحت رذاذ المطر اللطيف . . . هذا سيىء في سننا . اتحب ان أزودك بنصيحة؟ فلنأو إلى منازلنا، لأنكَ ـ والأمر بيننا لن ترى ضوءاً في النافذة .

عندما سمع البارون العبارة الأخيرة شعر بأن عمره ثلاث وستون سنة ، وبأن معطفه قد تبلّل . التفت إليه وسأله :

ـ ومن قال لك ؟

ـ فاليري ! عزيزتنا فاليري التي تريد ان تكون لي وحدي . نحن متكاتفان ايها البارون ونتبادل أحاديث الغزل متى تشاء . لا يجوز ان تغضب لأنك تعلم اني كنت اشترط دائمًا ممارسة حقي بالتحدي . لقد صرفت ثلاثة أشهر لأنتزاع جوزيفا مني بينما اخذت فاليري في . . . لنصرف النظر عن هذا . والآن اريدها بكاملها لي لكن ذلك لا يمنع ان نبقى صديقين .

] ـ كروفيل لا تمزح ، أجاب البارون بصوت مخنوق بالغيظ ، إنها مسألة حياة او موت .

ـ إني اعجب كيف تتلقى ما اصارحك به ! . . . ايها البارون ، الا تذكر ما قلته لي يوم زفاف أورتنس : « وهل البالغون مثلنا يتخاصمون على تنورة؟ » .

كان بامكان كروفيل ان يكمل كلامه مدة طويلة الا ان البارون لم يكن يصغي اليه .

توقف المنتصر إذ رأى على ضياء الغاز وجه خصمه وقد فقد لونه .

كان ذلك ضربة صاعقة نزلت على البارون بعد تصريحات السيدة اوليفييه وبعد آخر نظرة تلقاها من فاليري . واخيراً صاح البارون :

ـ يا إلهي ! كانت باريس تضم كثيراً من النساء .

ـ هذا ما قلته لك عندما اقصيت عني جوزيفا .

ـ عجباً يا كروفيل ، مستحيل . . قدّم لي البراهين ! . . . هل تحمل مثلي مفتاحاً ؟

وعند وصول البارون الى البيت أدخل المفتاح في القفل لكنه وجد الباب ما زال موصداً وحاول ان يهزه دون طائل .

ـ لا تثر الضجة في هذا الليل ، قال كروفيل بهدوء . خذ ايها البارون ، انا احمل مفاتيح افضل من التي معك .

ـ البراهين ! البراهين ! صاح البارون الذي اغاظه ألم حتى الجنون .

ـ رافقني سأزيدك منها . أجاب كروفيل .

وحسب تعليمات فاليري قاد البارون نحو الـرصيف عبر شارع مبلوران ربورتان . انصاع البارون السيىء الطالع وذهب كما يذهب التجار عشية كل يوم حيث يتوجب عليهم تقديم ميزانياتهم ، وهام في تخميناته حول اسباب فسق فاليري المكبوت في اعماق قلبها واعتقد انه ضحية خدعة تدبر له في الخفاء .

وعندما كان يجتاز الجسر الملكي رأى نفسه في الفراغ وقد تلاشت قواه وتشوشت افكاره بأزماته المالية ، فكاد يستسلم لفكرة جالت في خاطره بأن يقذف بكروفيل الى النهر ويرمي بنفسه بعده .

٥١

منزل السيد كروفيل

عندما وصل كروفيل الى شارع دوفان الذي لم يكن قد توسع في ذلك الوقت ، توقف امام باب مستدير يفتح على ممشى طويل مرصوف بالبلاط الأبيض والأسود وبشكل باحة مغمدة وعلى طرفه درج ورواق تضيئهما ساحة داخلية نجد كثيراً مثلها في باريس . وهذه الساحة تظهر الحد الفاصل بينها وبين العقار المجاور كما تظهر الميزة الفريدة لقسمة غير عادلة .

كان لبيت كروفيل الصغير الذي يملكه ، ملحق ذو سقف مزجج ، مبني على الأرض المجاورة .

كان هذا المكان الذي تقع على كثير مثله في باريس يستخدم كمحل او كخلفية حانة او كمطبخ لأحدى الحانات الواقعة في الشارع . استبعد كروفيل هذه الغرف الثلاث عن الايجار ، وحولها « كراندو » الى بيت اقتصادي صغير يجري التسلل إليه عن طريقين : الأولى بواسطة حانة بائع مفروشات أجرّه إياها كروفيل بسعر مخفوض ومشاهرة حتى يتمكن من معاقبته لدى

إفشائه اي سر من أسراره ، والثانية عن طريق باب مخفي بطريقة ذكية في حائط الممشى حتى انه لا يكاد يرى .

تتألف هذه الشقة الصغيرة من غرفة طعام وصالون وغرفة نوم مضاءة من عل ، بقسم منها من عند الجيران والقسم الآخر من عند كروفيل ، لذلك كان يتعذر على من يبحث عنها ان يجدها .جميع المستأجرين ، تقريباً ، ما عدا تاجر المفروشات ، يجهلون وجود هذه الجنة الصغيرة .

كانت الحاجبة ،التي تقبض من كروفيل لتكون متواطئة معه ، طباخة ماهرة . لذلك كان في وسع العمدة ان يدخل الى بيته الاقتصادي الصغير ويخرج منه ساعة يشاء خلال الليل دون ان يحذر اي تجسس او مراقبة .

في النهار إذا جاءت امرأة متبرجة كما تتبرج الباريسيات اللواتي يهبطن الى السوق ليتبضعن ، ومزودة بالمفتاح المناسب فهي ليست معرضة لأي خطر لدى قدومها عند كروفيل وهكذا تجيل نظرها في البضاعة المعروفة للتصفية وتبتاع منها ثم تدخل الى الحانة وتغادرها دون ان تثير اي ظن إذا صادفها شخص ما .

عندما أضاء كروفيل المشاكي العمودية في الصالون الصغير انذهل البارون من البذخ الأنيق المعروض على ناظريه . أطلق العطار السابق يد كراندو ، المهندس المعماري المتميز بابتكاراته في

أسلوب البومبادور الذي يتطلب كلفة بمبلغ ستين الف فرنك .

ـ أريد ، خاطب كروفيل كراندو ، ان تصاب دوقة بالذهول اذا اتت في زيارة الى هنا .

كان همه ان يحصل على أجمل جنة عدن باريسية حتى يستحوذ فيها على أنثاه ، إمرأة العالم ، فاليري ، دوقته .

ـ في المكان سريران ، قال كروفيل لهيلو وهو يطلعه على أريكة حيث سحب سريراً كما يسحب درج « كومود » . هذا هو الأول ، والآخر موجود في الغرفة . يمكننا اذا ان نمضي الليل هنا .

ـ البراهين ! قال البارون بالحاح .

حمل كروفيل شمعدانا وصحب صديقه الى غرفة النوم حيث رأى هيلو ، على ديوان لشخصين ، قميص نوم رائعة تعود ملكيتها الى فاليري التي ارتدتها في شارع فانو لتتفاخر بها هناك قبل ان تستعملها في بيت كروفيل الصغير .

تباهى كروفيل بفرش مكتبه واخذ يفتش فيه ، حيث حظي برسالة ناولها للبارون

خذ ، إقرأ .

قرأ مستشار الدولة هذه الفصاحة المكتوبة بقلم رصاص وقد جاء فيها : « انتظرتك دون نتيجة ايها الجرذ العجوز امرأة

مثلي لا تنتظر عطاراً قديماً . لم اجد عشاء ولا سكائر . عليك ان تسدد مالي » .

ـ قال كروفيل :

ـ اليس هذا هو خطها ؟

ـ يا إلهي ! قال هيلو وهو يجلس مثقلاً بالإرهاق تعرفت على كل ما هو لها . هذه هي قبعتها وخفاها آه ! منذ متى هذا ؟ . . .

قام كروفيل بحركة مشيراً انه أدرك ما يقصد البارون وتناول إضبارة بيان حساباته من درجه .

ـ هاك ، يا عزيزي ! سددت حسابات المقاولين في كانون الأول ١٨٣٨ ، وفي تشرين الأول قبل هذا التاريخ بشهرين دشنت هذا البيت الصغير والفخم .

أحنى مستشار الدولة رأسه وقال :

ـ كيف تصرفت أيها السعدان ؟ إني على معرفة بأمر تصريف وقتها ساعة فساعة .

ـ والنزهه في التويليري . . . قال كروفيل وهو يفرك يديه متهللاً .

وغير ذلك ؟ أجاب هيلو المخبول .

ـ تأتي عشيقتك المزعومة الى التويليري حيث تزعم انها

تمضي الوقت من الساعة الأولى حتى الرابعة لكنها تخطف الزمن وتتسلل الى هنا بين هذين الحدين . إنك ولا شك مطلع على موليير؟ حسنا ايها البارون ، لا اوهام في كتابك .

وإذ لم يستطع هيلو ان يشكك بشيء غرق في سكون مخيف . المصائب تدفع الرجال الأقوياء والأذكياء الى الفلسفة . كان البارون في صراع معنوي مع ذاته كانسان أضل طريقه ليلاً في الأدغال .

ارتج بال كروفيل لهذا الصمت المهيب وللتغيير الذي طرأ على هذه السحنة الذابلة ، وهو لم يكن يريد الموت لزميله .

ـ كما سبق واعلنت لك يا عزيزي اننا متكاتفان ونتبادل كلام الغزل . . . أتريد مغازلة النساء ؟ . . . فلنر من الأشطر ! تساءل هيلو محدثا نفسه : ـ لماذا ، من اصل عشر نساء سبع على الأقل هن فاسقات ؟

٥٢

رفيقان من اخوية الرفاق الكبرى

كان البارون مضطرب الذهن لا يستطيع ان يجد حلاً لهذه المشكلة. الجمال هو أرفع السلطات البشرية . كل سلطة دون تصد او عراقيل ، تقود الى الافراط والجنون . والاستبداد هو جنون السلطة اما عند النساء فالاستبداد هو النزوة .

ـ ليس عندك ما تشكو منه .يا زميلي العزيز ، زوجتك الفاضلة اجمل النساء على الاطلاق .

ـ استحق هذا القدر ، قال هيلو مخاطباً نفسه . أنكرت زوجتي وتركتها تعاني المرارة ، انها ملاك ! أوه ! كم أنت طيبة يا ادلين لقد نلت ثأرك مني ! إنها تعاني وحدها في صمت ! إنها جديرة بالعبادة وتستحق حبي ، يتوجب علي . . . ذلك انها ما زالت ساحرة ، رخامية الجسد وقد عادت الى صباها ، لكن هل صادف احد امرأة اسفل واكثر دناءة وفجوراً من فاليري ؟

ـ إنها إمرأة تافهة ونذلة تستحق الجلد في ساحة شاتيلي .

ـ كيف العمل حتى تكون من المحبوبين ؟ . . . تساءل هيلو دون ان يعير انتباها لكروفيل .

ـ إنها لحماقة منا ان نسعى الى الحب يا عزيزي هيلو ، فنحن علينا ان نسعى فقط لمن يأوينا ويتحمل متاعبنا . فالسيدة مارنيف هي ادهى مئة مرة من جوزيفا .

ـ وجشعة ! لقد انفقت عليها مئة واثنتين وتسعين فرنكا ! . . . صاح هيلو .

ـ وكم سنتيا ؟ سأله كروفيل بخبث الرأسمالي الذي رأى ان المبلغ ضئيل .

ـ أرى جيداً أنك لا تحبها قال البارون باكتئاب عميق .

قال كروفيل :

ـ أما انا فيكفيني ، انها سلبتني اكثر من ثلاثمئة ألف فرنك !

ـ أين كل هذا ؟ قال البارون وهو يمسك رأسه بين يديه .

ـ لو كنا ارتضينا ان نكون هؤلاء الصبية الذين يشتركون في نفقة مضاجعة غادة ماجنة بكلفة فلسين ، لكنا انفقنا عليها اقل بكثير .

ـ إنها فكرة ! أجاب البارون بسرعة ، لكنها كانت ستكيدينا دائما ، ما رأيك في هذا البرازيلي ؟ . . .

ـ آه ! أيها الأرنب العجوز ، إنك على صواب ، عوملنا كالمساهمين ! . . . كل هؤلاء النساء شركات مساهمة !

ـ إذاً هي حدثتك عن ضوء الشباك ؟ .

ثم تابع كروفيل وهو يستقيم في مكانه :

ـ أيها الطيب ، لقد اختلستنا : فاليري هي . . . لقد اوعزت الي حتى ابقيك هنا . . . لقد استوعبت كل شيء . . . إنها تخفي البرازيلي عندها . آه ! سأتنكر لها لأنك لو كبلت يديها لما أعدمت وسيلة لخداعك برجليها ! إنها فاجرة ماكرة !

ـ إنها دون الغانيات العاملات بالأجرة . كان لجوزيفا وجني كادين وجهة حق عندما خدعتانا فهما تتاجران بمفاتنهن ! .

ـ قال كروفيل :

ـ وهذه تتظاهر بالقداسة والحشمة . إصغ يا هيلو ، عد الى زوجتك لأن اعمالك ليست على ما تشتهي خاصة وان حديثاً قد سرى عن بضعة سندات مقيدة لحساب مراب صغير يدعى فوفينا ، اختصاصه اقراض الغانيات . اما في ما يتعلق بي فها قد شفيت من النساء تماماً . ما حاجتنا ، ونحن في هذه السن ، للنساء الفاجرات اللواتي ، بصراحة ، لا يستطعن الا خداعنا ؟ لقد شبت وزرعت أسنانا مزيفة سأرتب نفسي لتكديس المال ، فالمال لا يضلل ابداً والثروة تزيد بالفوائد بينما النساء يقضمنها باسنانهن الحادة ما استطعنا . معك يا زميلي العزيز ، ايها

المتواطىء السابق ، يمكنني ان أرضى بوضع عبثي بل فلسفي ، لكن ما العمل مع برازيلي يحمل من بلاده المستعمرة مواد غذائية مشبوهة ؟ .

قال هيلو : اشرح هذا الكائن ـ المرأة هي كائن غامض يصعب الكشف عن اسراره

أجاب كروفيل :

ـ أنا اشرح هذا الكائن نحن طعنا في السن ، اما البرازيلي فما زال شاباً وسيمًا .

ـ نعم ، صحيح ، اعترف بذلك ، لقد هرمنا لكن يا صديقي كيف نتخلى عن رؤية هذه المخلوقات وهي تتعرى وتلف شعرها وترمقنا بابتساماتها الرقيقة من خلال اصابعها عندما تثبت مجاعد الشعر ، وتتظاهر بالبشاشة في حضورنا وتروي الأكاذيب وتدّعي ذبول حبنا تجاهها عندما ترانا منهمكين في متاعبنا فتفقدنا رشدنا بالرغم من كل شيء ؟

ـ نعم وربي ! هذا اجمل شيء في الحياة . . . صاح كروفيل آه ! عندما يبتسم لك وجه صبيح ويناجيك : « عزيزي ، لو تعلم كم انك لطيف ومحبوب ! شخصيتي تختلف عن الأخريات من النساء اللواتي يهمن بصغار الشباب ، المدلاة لحاهم كتيوس الماعز ، وبالظرفاء المدخنين وبالغلاظ الشبيهين بالخدم ! فشبابهم يحفزهم على السفالة ! . . . انا التي ترتاب انت بغنجها ودلالها ، أفضل على هؤلاء الصبية ، الخمسينين الذين احتفظ

بهم طويلاً وهم يدركون صعوبة العثور على امرأة فينظرون الينا نظرة تقدير وإعجاب ، لهذا السبب أحبك ايها الفاجر ! . . . . »

ويرافق هذه الاعترافات ما يصدر عنها من تظارف ولطافة وغير ذلك . . .

ـ يُفضِّل الكذب احياناً على الحقيقة ، قال هيلو وهو يتذكر بعض المشاهد المحببة التي اثارتها إيمائيات كروفيل وهو يمثل دور فاليري . نكون ، والحالة هذه ، مجبرين على اختلاق الكذب وزركشة ثياب المسرح بالبرق .

ـ لقد غرقنا في بحر هؤلاء الدجالات ! قال كروفيل بفظاظة .

ـ فاليري جنية تحولك من عجوز هرم الى انسان فتي .

ـ آه ! نعم ، تابع كروفيل ، إنها سمكة تزلق من بين يديك ، لكنها بين الأسماك أجملها . . . بيضاء تذوب كالسكر ! . . .

ـ أوه ! إنها طريفة وفكهة جداً ! صاح البارون الذي نسي زوجته .

رقد الزميلان وهما على افضل ما تكون الصداقة بعدما استعادا حسنات فاليري الواحدة تلو الأخرى وتموجات صوتها وتخابثاتها وتمايلاتها ودعاباتها والتماعات عقلها وقلبها ، لأن هذه الفنانة تتميز ، وهي غارقة في الحب ، بانطلاقاتها الاعجابية تماماً كما هي حال المغنين الصادحين الذين يتجلى جمال شدوهم يوماً

إثر يوم . نام الاثنان على ارجوحة ذكرياتها التجريبية والشيطانية المغشاة بالضباب ، والمضاءة بنيران الجحيم .

في اليوم التالي وفي الساعة التاسعة تحدث هيلو بأنه سيتوجه الى الوزارة . وكروفيل كان عليه ان ينهي بعض أشغاله في الريف . خرجا معاً ومد كروفيل يده الى البارون قائلاً :

ـ زال الحقد اليس كذلك ؟ ذلك اننا ما عدنا نفكر لا انا ولا انت بالسيدة مارنيف .

ـ أوه ! لقد انتهى كل شيء ! أجاب هيلو بمهابة ورصانة .

٥٣

سكيران حقيقيان ساخطان

عند الساعة العاشرة والنصف كان كروفيل يصعد درج السيدة مارنيف ، اربعاً اربعاً ، فوجد المخلوقة السافلة والمعبودة في لباس تعر من أكثر الألبسة غواية في العالم وهي تتناول فطوراً شهياً رقيقاً بصحبة ليزبت والبارون هنري مومنتيس دو مونتيجانوس .

رغم الصدمة التي تلقاها كروفيل لدى رؤ يته البرازيلي طلب

الى السيدة مارنيف ان تتفرغ دقيقتين لمقابلته ، فانسحبت وإياه الى الصالون .

ـ فاليري يا ملاكي ، قال كروفيل العاشق ، لم يبق للسيد مارنيف ان يعيش طويلاً ، فإذا اردت ان تكوني أمينة لي فاننا سنتزوج فور وفاته فكري في ذلك . لقد انقذتك من هيلو . . . ثم هل ترين ان هذا البرازيلي يمكن ان يتوازى مع عمدة باريس ، الرجل الذي من أجلك يجترح القدرات ليتبوأ أعلى المراتب والذي يملك حتى الآن دخلاً يزيد على الثمانين الف ليرة ؟

ـ أفكر في ذلك . سأكون في شارع دوفان الساعة الثانية ونتداول في الامر . لكن كن حكيمًا ولا تنسى التحويل الذي وعدتني به البارحة . وعادت الى غرفة الطعام يتبعها كروفيل الذي يتباهى لأنه عثر على الوسيلة التي يمكنه من ان يستأثر بفاليري . الا انه ابصر البارون هيلو الذي قدم اثناء هذا الحديث القصير ليحقق الهدف ذاته .

وكما فعل كروفيل طلب مستشار الدولة جلسة مواجهة نهضت السيدة مارنيف لتعود الى الصالون وهي تبتسم للبرازيلي وكأنها تقول له : ـ إنهما مجنونان ! لم يبصراك على ما يبدو ؟

قال مستشار الدولة :

ـ فاليري ، بنيتي ، ابن العم هذا هو ابن عم اميركي . . .

ـ أوه كفى ! صاحت وهي تقاطع البارون . إن مارنيف لم

يكن يوماً ولن يكون ولا يمكن ان يكون زوجي . فالرجل الأول والوحيد الذي احببته قد عاد دون إشعار . . . ليس ذلك خطأ مني ! لكن حدق جيداً في هنري وفي شخصك، ثم سائل نفسك فيما اذا كانت امرأة ، وخاصة عندما تحب . تستطيع حينذاك ان تتردد عزيزي ، انا لست امرأة مرتهنة . يجب ان تحسم الحكاية منذ الآن ، فبامكانك ان تكون انت وكروفيل صديقين لنا ، لكن شرط ان تعتبر ان كل شيء حسم بيننا لأني بلغت السادسة والعشرين ، وها انا راغبة ان أكون في المستقبل قديسة وامرأة كريمة وممتازة . . . كما هي حال زوجتك .

ـ هذا اذاً ؟ قال هيلو ، آه ! أتصور ، عندما بدأت حياتي معك كيف استقبلتني كالحبر الأعظم ، عندما رحلت الى هذه العائلة ويداي محملتان بالخيرات ! . . . إذاً لن يترقى زوجك ابداً الى رئيس مكتب او ضابط في جوقة الشرف . . .

ـ هذا ما نتوقعه ! قالت السيدة مارنيف وهي ترمق هيلو بنظرات مختلفة .

ـ يجب الا يؤدي بنا ذلك الى الخصام ، تابع هيلو وهو في حالة ميؤوس منها . سأعود هذا المساء لنسوي امورنا .

ـ عند ليزيت ، اليس كذلك ! . . .

ـ حسناً ! قال العاشق العجوز فليكن اللقاء عند ليزيت ! . . .

نزل هيلو وكروفيل معاً دون ان يتلفظا بعبارة واحدة حتى في

الشارع ، لكن بعدما وطأت اقدامهما الرصيف تقابلت نظراتهما وضحكا ضحكات الألم والحزن .

ـ قال كروفيل :

ـ نحن عجوزان مجنونان ! . . .

ـ لقد عزلتهما ، قالت السيدة مارنيف لليزبت وهي تستقيم على الطاولة . لم احب ابداً ولن أحب سوى هذا النمر الأميركي ، أضافت وهي ترشق هنري مونتيس بنظراتها ليز بت ، ياعزيزتي ، الا تعلمين ؟ . . لقد صفح هنري عن الذنوب التي ارتكبتها والتي اسقطتني فيها الفاقة .

ـ هذه غلطتي ، قال البرازيلي ، كان يتوجب علي ان ارسل لك مئة الف فرنك . . . .

ـ عزيزي الطيب ! صاحت فاليري ، كان علي ان اشتغل لأكسب قوتي ، لكني لا املك يدي عاملة . . اليس ذلك صحيحاً يا ليزبت ؟ .

ثم غادرهما البرازيلي وهو يشعر بأنه اسعد انسان في باريس .

عند الظهر كالعادة كانت فاليري وليز بت تتحدثان في غرفة النوم الرائعة حيث كانت هذه الباريسية الخطرة تنتهي من آخر لمسات التبرج التي تحرص المرأة ان تعطيها بذاتها لنفسها .

بعد ان وضعت المزاليج وأرخيت السجف ، روت فاليري ادق تفاصيل ما حدث معها مساء وليلاً وصباحاً .

ـ هل انت مرتاحة يا جوهرتي ؟ قالت لليزبت وهي تنهي حديثها . ماذا تتوقعين ان أكون يوماً ، السيدة كروفيل ام السيدة مونتيس ؟ ما هو رأيك ؟

ـ لم يبق لكروفيل في هذه الحياة اكثر من عشر سنين . لفرط ما هي حياته خلاعية فاسقة ، اجابت ليزبت . اما مونتيس فانه شاب . سيترك لك كروفيل دخلاً بثلاثين الف فرنك تقريباً . ولينتظر مونتيس وعلى الأرجح سيكون سعيداً إذ يبقى الولد المدلل وصغير الأسرة . وهكذا يمكنك ، وانت في الثالثة والثلاثين من عمرك وتحتفظين بجمالك ، ان تتزوجي هذا البرازيلي فتقومين بدور مهم بدخل من ستين الف فرنك ، خاصة وانت بحماية « ماريشالة » . . . .

ـ نعم ، لكن مونتيس برازيلي ، ولن يصل في حياته هنا الى شيء

ـ نحن في عصر السكك الحديدية أجابت ليزيت ، حيث يتوصل الأجانب الى تبوء المراكز الرفيعة في فرنسا .

ـ سنبحث في ذلك بعد ان يقضي مارنيف ، ولم يبق له طويل وقت حتى يعاني نزعه الأخير .

ـ هذه الأعراض المرضية التي تعاوده هي مثل ندم الجسد، هيا قالت ليزبت، ساذهب عند اورتنس .

ـ حسناً ! إذهبي يا ملاكي ، أجابت فاليري ، وآتيني بفناني ! الا تلاحظين انه في ثلاث سنوات لم نتقدم بعد شبراً واحداً انه

عار علينا نحن الاثنين ! ان هنري وونسيسلاس يحتلان كل مشاعري . أحدهما هو حبي والآخر لمباهاتي وتفاخري .

ـ كم انت ساحرة هذا الصباح ، قالت ليزبت وهي تعانق جسد فاليري وتقبلها في جبينها اتمتع بكل ملذاتك وثروتك واناقتك . . . لم اشعر بالحياة الا مع اليوم الذي تآخينا فيه .

ـ انتظري ايتها النمرة ، شالك ليس في موضعه . . . الم تتعلمي بعد كيف يوضع الشال رغم كل تعليماتي خلال السنوات الثلاث ، وتريدين ان تكوني السيدة الماريشالة هيلو . . .

٥٤

نظرة اخرى في اسرة شرعية

انتعلت ليزبت مداساً مرقطاً وجوارب من الحرير الرمادي واتشحت بفستان من القماش المشرقي الرائع وربطت شعرها بعصابة تحت قبعة نسائية جميلة من المخمل الأسود المبطن بالساتان الاصفر ، وقصدت شارع سان دومينيك عبر جادة الأنفاليد ، متسائلة عما اذا كان وهن عزيمة اورتنس سيسلمها

هذه النفس الجبارة وعما اذا كان التبدل سيلوي من قدرة حب ونسيسلاس .

يشغل كل من اورتنس وونسيسلاس الطابق الأرضي في بناء واقع في محلة حيث شارع سان دومينيك يطل على سطيحة الانفاليد .

هذه الشقة التي كانت حتى الآن منسجمة مع شهر العسل بدت كأنها تشحب وتذبل مذكرة بخريف عمرُ الرياش . ولم يقدر العروسان الأشياء حق قدرها وكأنها لا قيمة لها ، يبددان المال دون معرفة او إرادة منساقين بحبهما المتبادل . لم يعيرا اهتماما كافياً للمستقبل الذي سيقضي بعد زمن سكينة ام العائلة .

ابصرت ليزبت ابنة عمها أورتنس وقد فرغت من إلباس الطفل ونسيسلاس الذي حمل للتو الى الحديقة .

ـ وقالت اورتنس التي قدمت بذاتها لتفتح الباب لابنة عمها :

ـ صباح الخير يا بت .

كانت الطباخة قد توجهت الى السوق بينما كانت الوصيفة ومربية الأطفال في الوقت نفسه ، تقوم بعملية الغسل والصبونة .

ـ صباح الخير يا بنيتي العزيزة ، واجابت ليزبت وهي تعانق

اورتنس . ثم همست في اذنها : امــا زال ونسيســلاس في مشغله ؟ .

ـ لا ، إنه يتحادث مع ستيدمان وشانور في الصالون .

ـ هل يمكننا ان نتكلم على انفراد ؟

ـ إتبعيني الى غرفتي .

هـذه الغرفـة المفروشـة بالسجـاد العجمي وذات الأزهار الوردية مع اوراق خضراء على قاع ابيض والتي تخرقها باستمرار أشعة الشمس ، قد بهتت وامتدت يد الزمن الى جمالها . فمنذ زمن والسجف لم تغسل لتتألق ببياضها.نشم فيها رائحة دخان سيكار ونسيسلاس الذي ، ما إن أصبح سيداً كبيراً في الفن ، حتى اخذ ينفض رماد تبغه على أذرع الأرائك وعلى اجمل الأشياء الجميلة ، كانسان محبوب يتحملون منه اي شيء ، وكرجل ثري لا يتمسك بالاعتبارات البورجوازية .

ـ وآلان لنتكلم عن مشاغلك قالت ليز بت لابنة عمها التي رأتها تغرق في إحدى الأرائك وتلتزم الصمت . لكن مابك ؟ أراك ممتقعة اللون يا عزيزتي .

ـ ظهر مقالان جديدان لا يشرفان ونسيسلاس بل يغرقانه في مساقط الفشل ، اطلعت عليهما واخفيتهما عنه لأنه ، بمعرفته بهما ، ستثبط عزائمه واخاف من ان ينهار كلياً . لم تلق رخامة الماريشال مونتكورني الا الصدى السيء ، اللهم الا ما يعود الى النقوش الصغيرة حيث نال إطراء مبطنا بالخبث الجاف نظراً

لموهبته في زخرفة النقوش . وقد زاد الأمر سوءا إذ تدعم هذا الرأي عندما رجوت ستيدمان ليصارحني بالحقيقة حيث فقدت كل أمل عندما اعترف بان رأيه الخاص لا يتعارض مع آراء الفنانين والنقاد والجمهور وقد قال لي في الحديقة قبل الترويقة « اذا لم يتمكن ونسيسلاس من عرض عمل رائع في السنة المقبلة ، عليه ان يهجر النحت ويتفرغ للتماثيل الصغيرة والتعابير الغزلية البريئة واعمال الحلي والصياغة الرفيعة ! » أثار بي هذا القرار اعنف المتاعب لأن ونسيسلاس لا يوافق ابداً عليه انه مرهف الحس ويتمتع بافكار جميلة جداً .

ـ لا يستطيع ان يسدد داثنيه بالافكار هلكت وانا اقول له ذلك المال وحده يحل هذه المشاكل ولا يمكن الحصول عليه الا باعمال مصنوعة قادرة على نيل رضى البورجوازيين الراغبين في الشراء . وعندما يكون الأمر مرتبطاً بكسب العيش فمن الأفضل ان يحتفظ النحات على طاولة عمله بنموذج مصباح او منفضة سجائر او طاولة دون المجموعات او التماثيل ، لأن كثيراً من الناس يرغبون في ذلك بينما هواة المجموعات هم قلة ويطول انتظارهم كما يطول انتظار اموالهم .

ـ إنك على صواب يا عزيزتي ليزبت ! صارحيه بذلك ، انا لا املك الشجاعة ، خصوصاً انه كان يقول لستيدمان منذ وقت قصير انه اذا تفرغ للتزيين والنحت الصغير فعليه ان ينخلى عن المؤسسة وعن الابتكارات الفنية الضخمة ، ولن نحصل على

الثلاثمئة الف فرنك عن طريق الأعمال التي اوكلت فرساي، ومدينة باريس ،والوزارة صنعها اليه . هذا ما ستنزعه منا هذه المقالات المقيتة التي دسها المغرضون والمنافسون متوخين انتزاع زبائننا منا .

ـ وليس هذا ما كنت تحلمين به يا عزيزتي الصغيرة! قالت بت وهي تطبع قبله على جبين اورتنس ، إنك تحلمين برجل نبيل يهيمن على الفن ويتصدر النحاتين . . . لكن هذا ضرب من الشعر ، ألا ترين معي ذلك؟ هذا الحلم يتطلب دخلاً من خمسين الف فرنك وانت لا تملكين سوى الفين واربعمئة . هذا ما دمت على قيد الحياة . وسيصل الى ثلاثة آلاف بعد وفاتي . واغرورقت عينا أورتنس بالدموع فلعقتها بت بنظراتها كما تلعق الهرة الحليب .

٥٥

الاشياء التي تصنع كبار الفنانين

هذه باختصار حكاية شهر العسل ، والقصة ربما لن تكون بلا فائدة على الفنانين .

إن العمل الأخلاقي والاصطياد في طبقات الذكاء العليا يشكلان وجهاً من وجوه نشاطات الانسان . إن الذي يستأهل المجد والعظمة في الفن ـ ويقصد بهذا التعبير ، جميع مولدات الفكر ـ هو على وجه التخصيص ، شجاعة لا ترتاب العامة بوجودها وربما جرى توضيحها للمرة الأولى هنا .

إن ونسيسلاس الذي ولد مطبوعاً على الحلم والشعر ، ودفع الى العمل تحت تأثير ضغط البؤس الهائل ، وتجمد ، بهيمنة من بت ، في وضعية الأحصنة التي يزودونها بكمامات للأعين لمنعها من التلفت يمنة او يسرة حيث كانت ضربات هذه الفتاة القاسية التي تمثلت فيها الضرورة ـ ذلك القدر الذي من الدرجة الثانية ـ ، تلسعه لسعاً. هذا الانسان الذي ولد شاعراً وحالماً انتقل من النظريات الى التنفيذ متجاوزاً الوهاد ودون ان يحسب للمسافات الفاصلة بين قطبي الفن حساباً .

الفكر والحلم والتقاط الأعمال الرائعة هي اهتمامات ممتعة . إنها تدخين سيجار يتهلل ـ بالفرح ، إنها ممارسة حياة الفجور وفقاً للنزوات ويظهر العمل في فرح الطفولة وفي الغبطة المجنونة للأجيال ، مع الألوان العابقة بطيب الزهرة وعطارات الثمرة المذاق طعمها مسبقاً . هذه هي الرؤ ية ومتعها .

من يتمكن من رسم مخططه بالكلمة هو رجل فذ. جميع الفنانين والكتاب يتمتعون بهذه الملكة . لكن وتربية طفل بهمة ونشاط وحمله الى النوم بعد إرضاعه الحليب كل مساء وتقبيله

صباحاً بقلب ام لا ينضب ولا يكل ولحسه بوسخه وإبدال اجمل ستراته اكثر من مئة مرة ، فيمزقها دون انقطاع وكذلك عدم التنكر والنفور من متاهات هذه الحياة المعتوهة التي نولد منها العمل الحيوي الرائع الذي يتحدث نحتاً الى العيون كلها ، وأدباً الى الأذهان كلها ورسماً الى الذكريات كلها وموسيقى الى القلوب كلها ، هذا هو التنفيذ واعماله . على اليد ان تكون السباقة في كل لحظة والمتهيئة لأطاعة العقل عند كل حركة . لكن العقل ليس دائم الاستعداد للخلق ، كما ان الحب ليس دائماً.

هذه العادة في الابداع وهذا الحب الذي لا يتعب ، حب الإمومة والذي يضيع الأم (هذه التحفة الطبيعية التي كم فهمها رافايل جيداً) هذه الأمومة العقلية التي يصعب الحصول عليها ، يمكن ان تضيع بسهولة فائقة . الالهام هو فرصة العبقرية لا يعدو على حد شفرة بل يجوب الفضاء طائراً بحذر الغربان ويقظتها ولا يلف رأسه بشال ليمسك به الشاعر . شعره شعلة ، ينساب في طيرانه كطيور النحام البيضاء والوردية متلافياً أي مضايقة . إنه يأس القناصين . العمل نضال دؤوب ترتاب منه كما تهيم به اروع واقوى البنى التي تتصدع فيه احيانا . قال احد اكبر شعراء هذا العصر وهو يتحدث عن هذا النشاط المخيف : ـ أغشاه بيأس وأغادره بأسى .

فليعلم الجهلة ذلك ! إن الفنان إن لم يرتم في عمله ، كما

فعل كورتيوس عندما ارتمى في الهاوية او كالجندي في معقله لا يفكر بما يحيط به ، وإن لم يعمل في ملجأه كعامل منجم مطمور تحت الأنهيارات ، وان تأمل الصعاب فقط دون ان يذللها الواحدة تلو الأخرى على طريقة العشاق المتيمين الذين ، بهدف الاستئثار بأميراتهم ، يصارعون افتتانهم المتولد ـ يبقى العمل ناقصا ومبتوراً ويهلك في قاع المشغل حيث يصبح الانتاج مستحيلاً ويحضر الفنان انتحار موهبته .

ها إن روسيني العبقري الموازي لرافايل لنا المثل الصارخ ، في شبابه تلّوع بالعسر والفاقة بينما نعم بالتراث في عمر متقدم .

هذا هو مبرر مثل هذه المكافأة وهذا النصر منح اكاليل الغار للشعراء الكبار والقادة العظماء .

إن ونسيسلاس ذو الطبيعة الحالمة كان قد بذل قدرات هائلة في العطاء والتثقف والعمل تحت رعاية ليز بت الجائرة التي كانت تستحثه . ثم هطل عليه الحب والسعادة فاحدث فيه ذلك ردة فعل وعاد الطبع الحقيقي الى الظهور وعاد الخمول واللامبالاة وميوعة سكان سارمان ترسم في داخله ملامح الرخاوة التي كانت قد طردتها عصا معلم المدرسة .

٥٦

تأثير شهر العسل في الفنون

أحب الفنـان زوجته في الأشهـر الأولى لزواجهـما فاطلق ونسيسلاس واورتنس العنان لنـزواتهما الصبيـانية في إطـار من الشرعية والسعادة والجنون . كانت اورتنس الأولى التي اعفت ونسيسلاس من اي عمل متفاخرة بانتصارهـا على غريمها ، النحت إن مداعبات المرأة كافية لطرد ربة الالهام وكسر صلابة الشغيل مهما كانت قاسية وضارية ووحشية وصمود الشغيل العنيد .

ما ان طوى الزمن ستة او سبعة أشهر حتى نسيت اصابع النحات كيفية الامساك بالإزميل وعندمـا استشعر ونسيسـلاس بالحاجة الى العمل لدى قدوم أمير ويسمبورغ ، رئيس لجنة الاكتتاب ، ليطلع على التمثال ، نطق بأرفع عبارة يتلفظ بها المتسكعون : ـ سأباشره ! ثم هدهد اورتنس بالكلام ، والمشاريع الـرائعة لفنـان مدمن عـلى التدخـين تضـاعف حب اورتنس لشاعرها ، وكانت تتوقع ان يكون تمثال الماريشال مـونتكورني رائعة فذة . يجب ان يكون نموذج البسالة ومثالية الفروسية آه يجب ان نحس لدى رؤيتنا هذا التمثال على مختلف انتصارات

الامبراطور وأي تنفيذ ! قلم الرصاص طيع يتبع خطى الكلام .

وقبل ان يولد التمثال ، ولد الطفل ونسيسلاس الفاتن .

وكل مرة كان يهم فيها ونسيسلاس لمعالجة الصلصال وتحقيق النموذج التمهيدي للتمثال ، كانت تعترضه مصادفات ، فتارة يستدعى الى مشغل فلوران وشارون لترصيع الوجوه في رقاص الأمير ، وطوراً يكون الجو عكرا ومكفهرا ، واليوم اعمال تفرض التجوال الكثير وغداً عشاء مع العائلة ، فضلاً عن انحراف العبقرية واعتلال الجسم . واخيراً الأيام التي يمضيها كالأطفال يلهو مع زوجته ، معبودته .

لقد اضطر الأمير ويسمبورغ ان يظهر امتعاضة لعدم الحصول على النموذج يهدد بالعودة عن قراره . وتمكنت لجنة الاكتتاب من رؤية الجبس إثر مناقشات صاخبة والف معاتبة . كان ستانبوك يعود من كل يوم عمل والتعب باد عليه ، متبرماً من هذا العمل المضني ومن انحطاط في جسده .

خلال السنة الأولى كانت الأسرة تتمتع بيسر واضح . الكونتسا ستانبوك المتيمة بزوجها ، الغارقة في فرح الحب المشبع ، انهالت بالشتيمة على وزير الحربية الذي قصدته لتواجهه وتنبهه الى ان الأعمال الكبيرة لا تنتج كالمدافع وان على الدولة ان تكون مثل لويس الرابع عشر وفرنسوا الأول وليون العاشر الذين نذروا انفسهم من اجل العبقرية . كانت اورتنس الطيبة تعتقد انها امام النحات اليوناني فيرياس فتواجه ونسيسلاس

بجبـز اومومي لامرأة تمضي بحبها الى اقصى درجات العبادة .

ـ لا تحشر نفسك يا عزيزي ، قالت اورتنس لزوجها ، إن مستقبلنا رهن بهذا التمثال ، خذ الوقت الكافي واصنع طرفة رائعة .

كانت اورتنس تتردد عـلى المشغل فيتـوقف ستانبـوك عن العمل ليحدث زوجته وحبيبته عن التمثال فيغرق في وصفـه دون نحته . وهكذا استغرق صنع هذا العمل ، القمة بنظره ، ثمانية عشر شهراً .

عندما انسكب الجبس في قالبه وتحقق النموذج رأت اورتنس الروعة في هذا العمل خاصة وانها شهدت جهود زوجها الجبارة ومعاناة صحته للأنهاك الذي يضني النحات وذراعيه وجسده . إن اباها الذي يجهل النحت والبارونة التي لا تقل جهلاً عنه في هذا الميدان ، صاحا اعجاباً بالعمل الرائع ، ثم صحبا وزير الحربية المنفعل لحماسهما ، لمشاهدة العمل ، فأبدى ارتياحاً لهذا الجبس المعزول في مكان أنيق امام قماشة خضراء .

ولكن يا للأسف فعند عرضه عام ١٨٤١ ، ارتفع استنكار جماعي في فم الجمهور الغاضب من هذا الصنم فور دفعه على قـاعدتـه ، واستقبله بالاستهجـان والسخريـة . وعندمـا رغب ستيدمان ان يوضح لصديقه ونسيسلاس اتهم بالغيرة واعتبرت اورتنس ان مقالات الجرائد ليست الا صيحات الحسد .

استطاع ستيدمان ، هذا الشـاب الفاضـل ، ان يستكتب

الصحافة مقالات تشير الى ان النحاتين يعدلون بشكل جذري إثـر الانتقال من نموذج الجبس الى العمل في الرخام. كان كلود فينيون يقول .

ـ الانتقال من مشروع النموذج الجبس قد يشوه عملا عظيمًا او يخلق كثيراً من شيء سيء . الجبس هو المخطوطة اما الرخام فهو الكتاب .

في عامين ونصف ، فرغ ستانبوك من انتاج تمثال وولد . الولد كان رائعة جمالية بينما التمثال كان محتقراً .

إن عائدات التمثال ورقاص الامير كانت كافية لتسديد ديون العائلة الفتية .

اعتاد ستانبوك الظهور بين النـاس في المسارح والمعـارض الايطالية وكان يتحدث بطلاقة عن الفن حتى بدا امام الجميع ، فناناً عظيمًا ، لكن بتأثير من حديثه وشروحاته وانتقاداته .

كثيـرون من العباقـرة يقضـون حيـاتهم في بـاريس وهم يتحدثون بعضهم الى بعض ويكتفون بنوع من مجد الصالونات . واذ عمل ستانبوك على تقليد هؤلاء الخصيان الـظرفاء أصيب بنفور من العمل كان يتزايد يوماً بعد يوم . كان يستشرف كل عوائق العمل عند التصميم على البدء به ، مما يستتبع خمولاً يثبط من عزيمته . كان الوحي ، جنون الجيل المثقف ، يهرب بسرعة خاطفة عند مرأى هذا العشيق المريض .

في النحت

النحت كالفن الدرامي ، اسهل الفنون واصعبها اثقل نموذجاً ، ينته عملك . غير ان نفح الروح فيه وخلق المثال عند تمثلنا لرجل او امرأة ، ليس ذلك الا خطيئة بروميثيوس نحصي هذا النجاح في سجل النحت ، كما نحصي الشعراء في الانسانية . ميكيلانج ، ميشال كولمبب ، جان كوجون ، فيدياس ، براكستيل ، بوليسكليت ، بوجي ، كانوفا ، البيردوورارهم أخوةميلتون ، وفيرجيل ، ودانتي ، وشكسبير ، وتاس ، وهوميروس ، وموليير . هذا العمل هومن العظمة بحيث ان تمثالاً واحداً يكفي لخلود إنسان ، كماأن فيغارو ، لوفيلاس ومانون ليسكو ، كانت شخصيات كافية لتخلد بومارشي وريشاردسون والأب بريفو .

السطحيون من الناس منهم في صفوف الفنانين يعتقدون ان النحت يتمثل بالعري وحده ، وان النحت مات مع اليونان ، وان التستر الحديث لم يزده الا استحالة .

الملفت هو ان القدماء صنعوا تماثيل رائعة متسترة بكاملها كتمثال بوليمين وجولي وغيرهما . . . هذا ولم تعثر على العشر مما خرج من بين ايديهم . ثم انه يتوجب على عاشقي الفن

الحقيقيين ان يزوروا فلورانسا ليروا بأم عينهم « المفكر » لميكيلانج وفي كاتدرائية مايانس « العذراء » لألبير الذي صنع بخشب الأبنوس امرأة تنبض بالحياة تحت اثوابها الثلاثة وضفيرتها الأكثر تموجا والأسهل انقيادا بحيث ان اي وصيفة لم يصدف لها ان سرحت مثلها يوماً ، فليركض الجهلة الى هناك وسيروا ان العبقرية في وسعها ان تشحن الثياب واللباس الواقي والفستان . بفكرة تضع فيها جسداً ، تماماً كالانسان يطبع شكله بطبعه وسلوكه .

النحت هو التحقيق المستمر للحدث الذي تسمى ، للمرة الوحيدة الموحدة ، في الرسم : رافايل ! حل هذه المسألة الرهيبة يكمن في العمل الثابت ، المدعوم ، لأن الصعاب المادية يجب ان تذلل برمتها ، وعلى اليد ان تروض وتكون حاضرة منصاعة ، حتى يتمكن النحات من مصارعة هذه الطبيعة الأخلاقية التي لا تمسك ، والتي عليه ان ينفح فيها النعمة وهو يجسدها في المادة .

فلو حصل لباغانيين ، الذي يروي قصة نفسه على أوتار كمانه ، ان ترك الدراسة لفترة ثلاثة أيام لكان أضاع ، حسب تعبيره ، سجل آلته ؛ وكان يشير الى الزواج القائم بين الخشب والقوس والأوتار ، وبينه ؛ أمّا إذا حلّت هذه العلاقة ، فيسقط فجأة الى كماني عادي .

العمل الثابت هو قانون الفن كما هو قانون الحياة ؛ فالفن

هو الخلق المثالي ، إضافة الى ان الفنانين العظام والشعراء المكتملين لا ينتظرون التوصيات ، لا ولا الزبائن بل يحلقون اليوم وغداً وكل يوم ، مما يؤهلهم أن يتسلحوا بالنشاط الحثيث والمعرفة الدائمة للصعاب ، تلك المعرفة التي تبقيهم في حالة تعايش مع ربة الوحي ومع قواها الخلاقة . لقد كان كانوفا يعيش في محترفه كما عاش فولتير في غرفته ؛ ولا بد ان يكون هوميروس وفيرياس قد عاشا بالطريقة ذاتها .

كان ونسيسلاس على الطريق القاحل الذي يسلكه هؤلاء الرجال العظام والذي يؤدي الى جبال المجد الشاهقة ، عندما حبسته ليز بت في سقيفته . لقد أعادت السعادة ، في ظلال أورتنس ، الشاعر الى الكسل ـ هذه الحالة العادية لجميع الفنانين ـ ذلك لأن كسلهم هو كسل مشغول . إنه لذة الباشاوات في السرايا : يداعبون أفكارهم وينتشون بمصادر الذكاء : إن فنانين كباراً أمثال ستانبوك ، التهمتهم التخيّلات والأحلام ولُقبوا ، عن حق ، بالحالمين . هؤلاء الذين يلتهمون الأفيون يسقطون كلهم في البؤس . ولكنهم إذا بقوا ضمن الظروف القاسية التي لا تلين ، فإنهم يصبحون رجالاً عظماء . أما أنصاف الفنانين فيتميزون بلطفهم ، فيحبهم الناس ويمطرونهم بالثناء ، والأطراء ، حيث يبدون متفوقين على الفنانين الحقيقيين ، الموصوفين بحدة الشخصية ، والهمجية ، والتمرد على قوانين العالم .

هاكم السبب :

الرجال العظام : تمتلكهم اعمالهم . وتجردهم من كل شيء ، وتفانيهم في العمل ، يجعلانهم يبدون انانيين في نظر الأغبياء ، ذلك لأنهم يريدونهم متمنطقين بالثياب ذاتها التي يلبسها المتأنقون ، متمّمين واجباتهم الاجتماعية ، إنهم يطلبون من أسود الأطلس أن تسرّح صوفها وتتعطّر تماماً ككلاب الماركيز الموبرة .

هؤلاء الرجال الذين لا مثيل لهم ، إلا القليل النادر ، ولا يلتقون امثالهم إلا لماماً ، يسقطون في حصريّة العزلة ، فيصبحون غامضين تجاه العامة المؤلفة ، كما نعلم ، من الحمقى والحسودين والجهلة والسطحيين .

هل ادركتم الآن دور المرأة حيال هؤلاء العظماء النادرين ؟ على المرأة ان تقوم بما قامت به ليز بت خلال السنوات الخمس فتبذل حباً أكثر ، حباً متواضعاً ، كتوماً ، متأهباً في كل وقت ، مبتسماً في كل وقت .

إن أورتنس التي صدمتها معاناة أمها وأيقظتها ، والتي ترزح تحت عبء وحاجات رهيبة ، لم تدرك إلا متأخرة هفواتها التي دفعها حبّها المفرط الى ارتكابها بغير إرادة منها ؛ غير أنها ، وهي مثيلة لأمها ، كان قلبها يتهشم لدى تحسسها أنها سبب لآلام ونسيسلاس ؛ إنها تحب كثيراً بحيث أنها تأبى ان تكون جلّاد عزيزها الشاعر ، وكانت تتوقع قرب وصول اللحظة التي ينصّبّ

فيها البؤس عليها وعلى ابنها وعلى زوجها .

٥٨

حيث نرى مقدرة هذا الهدّام الاجتماعي الكبير ، البؤس

قالت بت وهي ترقب الدموع تتدحرج في عيني ابنة العم الصغيرة .

ـ لا يجوز أن يدبَّ اليأس في روعك . إن كأساً أترعته دموعك لن يكفي ثمناً لصحن من الشوربا ! ماذا يلزمك .

ـ من خمسة الى ستة آلاف فرنك .

ـ لا أملك سوى ثلاثة آلاف فرنكٍ على الأكثر . وماذا يفعل ونسيسلاس في هذه اللحظة ؟

ـ أشاروا اليه بأن يقيم وليمة للدوق هيروفيل ، برفقة ستيدمان وبكلفة ستة آلاف فرنك ؛ بينما تعهّد السيد شانور بدفع أربعة آلاف فرنك متوجبة ، كدين شرف ، للسيدين ليون دو لورا وبريدو .

ـ كيف ؟ حصلتِ على ثمن تمثال النصب التذكاري العائد للماريشال كورني ولم تفِ كلّ ذلك !

ـ الواقع غير ذلك ، قالت اورتنس ، فمنذ ثلاث سنوات ونحن تنفق إثني عشر الفاً في العام بينما الدخل لا يتجاوز الألفي فرنك . لم يبق من نصب الماريشال بعد حسم النفقات ، سوى ستة عشر ألف فرنك . في الحقيقة لا أدري ما سيحلّ بنا إذا توقف ونسيسلاس عن العمل . آه ! لو استطعت أن أتعلّم صنع التماثيل لكنت برعت في معالجة الصلصال !

كانت عين أورتنس تقدح شرراً ويسيل في عروقها دم مشبحون بالحديد ، عنيف ، عاصف ؛

ـ آه ! يا ظبيتي الحلوة ! إن فتاة متعقّلة لا يجوز لها أن تتزوّج فناناً إلاّ بعد أن تكتمل ثروته وليس خلال بنائها وتجميعها .

في هذه اللحظة سُمع وقع خطى وأصوات لستيدمان ونسيسلاس اللذين يشيّعان شانور ؛ ثم يدخل ونسيسلاس مع ستيدمان .

كان ستيدمان ، وهو فنان دخل الى عالم الصحافيين والممثلات البارزات والغانيات الشهيرات من الباب العريض . شاباً أنيقاً ، وسيًا ، مما حمل فاليري على أن تشتهي حضوره في مجلسها . وهذا ما قام به كلود فينيون إذ قدّمه لها .

يشهد ستيدمان اليوم نهاية ارتباطاته بالسيدة الشهيرة شونتز ، التي تزوجت منذ أشهر في الريف . إن فاليري وليز بت اللتين علمتا بهذه القطيعة عن طريق كلود فينيون ، اعتبرتا أنه

من الحكمة اجتذاب صديق ونسيسلاس الى شارع فانو . وإذ أن ستيدمان كان يقوم قليلاً ، وخفية ، بزيارة عائلة ستانبوك ، وليز بت ليست على علم بحضوره الحالي بواسطة كلود فينيون ، لذلك فإنها كانت تراه للمرة الأولى . وإذ كانت تنظر الى هذا الفنان العظيم ، فاجأته وهو يصلي أورتنس ببعض نظراته ، مما جعلها تتوقع أن يشكل ذلك عزاء للكونتسا ستانبوك ، إذ ما أقدم يوماً ونسيسلاس على خيانتها .

إثر ذلك، كان يدور في خلد ستيدمان أنه لو لم يكن رفيقاً لونسيسلاس لكان في وسعه أن يتخذ من أورتنس معشوقة يتولّه بها؛ غير أن هذه الرغبة، المختفية في ثنايا الشرف، كانت تبعده عن هذا البيت. لاحظت ليزبت هذا الارتباك المعبّر الذي يضايق الرجال وهم في حضرة إمرأة حرموا على أنفسهم أن يقيموا معها علاقات غنج أو مغازلة.

- إنه شاب ممتاز، همست ليزبت في أذن أورتنس.

- تعتقدين؟ آه! لم ألاحظ ذلك مطلقاً.

- أيها الصديق الشجاع، ستيدمان ، همس ونسيسلاس في أذن رفيقه، نحن لا نتضايق البتة في ما بيننا، أما بعد فأننا سنتناول مناقشة بعض القضايا مع هذه العانس.

ألقى ستيدمان التحية على ابنتي العم ومضى.

- انتهى الأمر، قال ونسيسلاس بعد عودته من مرافقة ستيدمان، غير أن هذا العمل يستغرق ستة أشهر ويلزمنا ما

يكفي حتى نعيش طوال هذا الوقت.

ـ لدي ماساتي، صاحت الكونتسا ستانبوك الفتيّة، صيحة تجلّت عن اندفاع نبيل لانلقاه إلا عند النساء اللواتي يحببن.

اغرورقت عينا ونسيسلاس بالدموع.

ـ أوه! سأشتغل، أجاب وهو يجلس بالقرب من زوجته التي أخذها على ركبتيه. أريد أن أعمل في تجارة من أجل الارتزاق، أريد أن أضع سلّة زواج ومجموعات من البرونز. . .

ـ لكن، يا أبنائي الأعزاء، قالت ليزبت، تعلمون أنكم ورثتي، وتأكدوا أني سأترك لكم تمثالا صينياً جميلاً وخاصة إذا ساعدتموني على زواجي من الماريشال، وإذا نجحنا بالسرعة المطلوبة، فأني أتعهد أن تنزلوا في ضيافتي أنتم وأدلين. آه! يمكننا أن نعيش معاً بسعادة تامة. أما الآن. فاسمعوا مني ومن خبرتي العتيقة لا تلجأوا إلى الرهن أنه حتماً هلاك المدين. لقد رأيت بأم عيني المحتاجين وقد تخلّفوا، عند التجديد، عن دفع الفوائد المتوجبة نظراً لعدم ملاءتهم، فخسروا كل شيء. من جهتي يمكنني أن أصلكم بمن يقرضكم المال بخمسة بالمئة فقط ومقابل سند.

ـ آه! قد نُنقذ! قالت أورتنس.

ـ حسناً يا عزيزتي! فليرافقني ونسيسلاس إلى الشخص الذي سيرضخ لطلبي. إنها السيدة مارنيف التي تتأثر بالكلام الجميل لأنها دعيّة كآية حديثة نعمة، فتضطر إلى مدِّكم بما

تحتاجون إليه وتنقذ موقفكم. تعالي معي إلى هذا البيت يا عزيزتي أورتنس.

رمقت أورتنس ونسيسلاس بنظرة من حُكم عليهم بالموت، وهم يتقدمون إلى المقصلة.

ـ قام كلود فينيون بتقديم ستيدمان إلى ذاك المكان، أجاب ونسيسلاس. إنه بيت مؤنس.

أخفضت أورتنس رأسها وما شعرت به كان يمكن لكلمة واحدة أن تؤدي إلى كشفه: لم يكن ذلك ألماً بل كان مرضاً.

ـ لكن أيتها العزيزة أورتنس، عليك أن تتفهمي الحياة! صاحت ليزبت التي أدركت ما أفصحت عنه حركة أورتنس، وإن لم تفعلي فستواجهين مصير أمك، المبعدة في غرفة مهجورة، حيث تذرفين الدموع كما حلّ بكاليبسو عندما رحلت عنه أوتيس، في عمر لم يعد من وجود فيه لتيليماك!... أضافت وهي تعيد تهكّمًا للسيدة مارنيف، يجب أن ننظر للناس كآنية الاستعمال نلجأ إليها عند حاجتنا لها أو نهملها لعدم فائدتها، إستفيدوا، أيها الأعزاء، من السيدة مارنيف ثم تخلوا عنها. هل تخشين من أن يتحول ونسيسلاس الذي يهيم بك، إلى إمرأة تزيدك بأربع أو خمس سنوات، ذابلة كحزمة البرسيم، و...

ـ أفضل أن أرهن ماساتي، قالت أورتنس. أوه! لا تذهب أبداً هناك يا ونسيسلاس!... إنه الجحيم!

ـ أورتنس معها حق! قال ونسيسلاس وهو يعانق زوجته.

ـ شكراً يا صديقي، أجابت الزوجة الصبية وهي في منتهى السعادة. لاحظت يا ليزبت، أن زوجي ملاك: لا يماري، نسير معاً إلى أي مكان وعندما يتمكن من الانكباب على العمل ساكون بالطبع سعيدة جداً. لماذا نذهب إلى عشيقة أبي، بامرأة قضت على حياته وما زالت تثير كثيراً من المتاعب قد تؤدي بحياة أمنا العظيمة؟...

ـ عزيزتي، إن دمار أبيك لا يعود إلى ذلك، إنها تلك الغانية الصدّاحة التي هدمت مستقبله. ثم لا تنسي زواجك! وربيّ! إن السيدة مارنيف لَم تقم تجاهه إلا بما هو نافع! ولكن من الأفضل أن اصمت...

ـ إنك تدافعين عن كل الناس، أيتها العزيزة بت...

توجهت أورتنس إلى الحديقة لدى سماعها صراخ ابنها وظلّت ليزبت وحدها مع ونسيسلاس.

ـ زوجتك ملاك يا ونسيسلاس! قالت ابنة العم بت؛ أحببها جيداً، وتجنّب إيذاءها.

ـ بالطبع، إني أحبها كثيراً، حتى أني اخفي عليها الوضع الذي نحن فيه؛ لكن، لك يا ليزبت، يمكنني أن اتحدث عنه... إيه! إن إيداع ماسات زوجتي في الرهن، لا يقدّم شيئاً.

ـ ولهذا استقرض من السيدة مارنيف. اقنع أورتنس يا ونسيسلاس، بأن تدعُك تذهب إليها، وإلا فاذهب وحدك من

دون أن تعرف!

ـ هذا ما كنت أفكر فيه، أجاب ونسيسلاس، عندما كنت أرفض القدوم إلى منزلها حتى لا أجرح مشاعر أورتنس.

ـ اسمعني جيداً يا ونسيسلاس، إني أحبكما أنتما الاثنين مما يجعلني احذركما من أي خطر قد يواجهكما. إذا قدمت لزيارتها، إحبس قلبك بين يديك لأنها إمرأة أشبه بالجنّية، كل من يراها يميل إليها بجوارحه؛ إنها فاسدة وجذّابة!... تخلب الألباب كالتحفة الفنية استدن منها مالاً دون أن ترهن نفسك عندها! لن أكون مرتاحة إذا تعرّضت ابنة عمي للخيانة. ها هي! صاحت ليزبت، فلننقطع عن الكلام، سأسوّي مشكلتك.

ـ قبلي ليزبت يا ملاكي، قال ونسيسلاس لزوجته، ستنقذ موقفنا بأقراضنا مدّخراتها.

ثم أشار إلى ليزبت بحركة أدركت معناها.

قالت أورتنس:

ـ أرجو إذاً أن تباشر عملك يا ملاكي.

فأجابها الفنان منذ الغد.

قالت أورتنس وهي تبتسم له:

ـ إنه الغد الذي يقض أحلامنا.

ـ آه! يا عزيزتي الصغيرة، أسألك أن تقولي من فمك ما إذا كان يمر يوم دون عوائق أو حواجز أو مشاكل؟.

ـ نعم إنك على صواب أيتها المحبوبة.

ـ لقد خطرت ببالي بعض الصور، أجاب ستانبوك وهو يصفع جبينه. أوه! أريد أن أذهل كل خصومي. أريد أن أنفذ طقم طاولة طعام من الطراز الالماني العائد إلى القرن السادس عشر، إنه من النوع الحالم! سأعقف أوراقاً مليئة بالحشرات، وسأضجع فيها الأطفال، وسأدخل عليها الأساطير الجديدة، الأساطير الحقيقية، أجساد أحلامنا!... إني أمسك بها! أتصورها محفورة، خفيفة، متلبدة في آن معاً. خرج شانور مذهولاً جداً... كنت بحاجة إلى من يشجعني لأن آخر مقال عن نصب مونتكورني التذكاري قد أخمد نشاطي.

خلال الفترة القصيرة حيث اختلى ونسيسلاس وليزبت، اتفق الفنان مع العانس على أن يقوم في الغد بزيارة السيدة مارنيف، فإمّا أن توافق زوجته أو يذهب خفية.

٥٩

تأملات في «الشامات»

بعدما تبلغت فاليري في المساء ذاته بالنصر الذي حققته، الحت على البارون هيلو ليدعو ستيدمان وكلود فينيون وستانبوك على العشاء. ذلك أن فاليري أخذت تستبد بالبارون كما تفعل

النساء اللواتي يستبدن بالعجائز الذين يجولون المدينه ويتوسلون إلى أي كان يرونه ضرورياً لمصالح معشوقاتهن الماسيات، ولغرورهن كذلك..

في اليوم التالي تنكبت فاليري سلاحها وعالجت هندامها على احسن ما تبتكره الباريسيات عندما يردْن التمتع بأفضل حسناتهن، فتفحّصت نفسها على هذا الأساس كالرجل الذي يسير إلى المبارزة يراجع تجاربه المحنكة ومراوغاته وتنكراته. لا ثنية ولا تجعيدة، إنها تتمتع بأجمل بياضها وليونتها ونعومتها، إضافة إلى «الشامات» الاصطناعية المصنوعة من التافتا الأسود والتي تجذب الأبصار دون قصد منها أو شعور.

يظنون الآن أن «شامات» القرن الثامن عشر قد اندثرت. لكنهم يخطئون. النساء في هذه الأيام أكثر حذقاً من نساء الزمن الماضي، لا يهملن مشهداً دون أن يتفحصنه بالمنظار الصغير حتى ولو توسلن إلى ذلك الحيل الجريئة.

إحداهن تكتشف حلية الشعر المعقودة بالأشرطة، تتوسطها ماسة تستأثر بالالتفاتات طوال السهرة؛ وأخرى تعبث بشبكة الشعر أو تغرز خنجراً في شعرها لتنتقل بفكرها إلى ربطة ساقها، هذه تضع قفازات من المخمل الأسود وأخرى تبدو كأنها ملتحية. هذه المجهودات السامية، في التأنق أو الحب سرعان ما تصبح موضة تقلدها نسوة الطبقات السفلى من المجتمع، في الوقت الذي تشرع خالقات تلك الموضة في البحث عن سواها.

وضعت فاليري على وجهها، لهذه الأمسية التي صممت على الفوز خلالها، ثلاث «شامات». وسرّحت شعرها بنوع من السائل أبدل لونه لبضعة أيام من الأشقر إلى الرمادي. ولما كانت السيّدة ستانبوك متميزة بشقارها الحاد فأن فاليري تجنّبت مشابهتها بأي شيء. هذا اللون الجديد الذي اختارته منحها تغيّراً ملفتاً ومستغرباً حتى في نفسها، مما أربك أصدقاءها إلى حدّ أن مونتيس صارحها قائلاً:

ـ ما بك متغيّرة هذا المساء؟...

ثم دلّت في عنقها عقداً من المخمل الأسود القليل العرض أدى إلى إظهار بياض صدرها.

وغرست فاليري أجمل زر ورد في وسط قميصها بأعلى صدرها عند ألطف تجويف. كان ذلك قصداً لأخفاض أبصار الرجال الذين لم يتجاوزوا الثلاثين سنة.

ـ أنا جذابة إلى حد القضم! خاطبت نفسها وهي تكرِّر وقفاتها أمام المرآة، كراقصة تقوم بثني الركبتين لتنفذ رقصتها.

أما ليزبت فذهبت إلى السوق مطمئنة إلى أن العشاء سيكون واحداً من العشاءات المتقنة التي كانت ماثورين تجهزها لأسقفها عندما كان يستقبل إلى مائدته حبر الأبرشية المجاورة.

٦٠

دخول رائع

وصل كل من كلود فينيون وستيدمان والكونت ستانبوك في وقت واحد تقريباً حدود الساعة السادسة.

المرأة المبتذلة، أو العادية إذا أردت، كانت هرولت لسماع اسم الرجل المشتهى. لكن فاليري التي تنتظر في غرفتها منذ خمس ساعات، تركت مدعويها الثلاثة معاً، واثقة من أنها موضوع حوارهم، أو على الأقل موضوع أفكارهم الباطنية.

لقد أبرزت بنفسها، وهي تشرف على ترتيب صالونها، تلك الدمى الناعمة التي تنتجها باريس والتي لا يمكن أي مدينة أخرى أن تنتج مثيلاً لها. أما هذه الدمى فقد كشفت عن ملامح المرأة إذا جاز القول: تذكارات مزدانة بالعاج وموشّاة باللؤلؤ، وكؤوس مليئة بالخواتم الساحرة، وأعمال فنية بديعة صنعها كل من فلورون وشانور بذوقهما الرفيع، وأخيراً تماثيل صغيرة، وكراسات صور، وأغراض من كل صنف ونوع تقدّر بمبالغ جنونية أقدم الصانعون على إنجازها إثر سقوطهم في نشوة الهوى أو بعد آخر مقابلة توفيقية.

كانت فاليري تنعم حينذاك بالنشوة التي يسببها النجاح. فقد قطعت وعداً لكروفيل بأنها ستكون زوجة له حال وفاة مارنيف.

وكان العاشق كروفيل قد حوّل باسم فاليري فورتان دخلاً بقيمة عشرة آلاف فرنك، وهو مجموع أرباحه التي يحققها من أشغاله في السكك الحديدية منذ ثلاث سنوات، وهو كل ما درّه عليه رأسمال مؤلف من مئة ألف ريال كان قد أقرضه للبارونة هيلو. وهكذا حصلت فاليري على دخل بقيمة اثنين وثلاثين ألف فرنك.

قُبل قليل كان كروفيل قد أطلق وعداً أهم بكثير من هبة أرباحه. في منتهى الهيام الذي اغرقته فيه دوقته (خلع هذا اللقب على السيدة دو مارنيف لتكتمل تخيلاته) من الساعة الثانية إلى الرابعة، ظن أن عليه أن يشجع إخلاص فاليري الموعود بعرضه عليها قصراً صغيراً وفخمًا، كان قد أشرف على بنائه متعهد متهوّر، في شارع باربيت، وقد عزم أصحابه على بيعه. هذا البيت الساحر كان محجة فاليري التي كانت تؤمه في عربة.

ـ أي حياة شريفة تكون قادرة على تقديم كل هذا في وقت قصير وبهذه السهولة؟ قالت فاليري لليزبت وهي تنهي تزيّنها.

في هذا اليوم عزمت ليزبت على أن تتناول عشاءها عند فاليري حتى يتسنى لها أن تحدّث ستانبوك.

ثم قدمت السيدة مارنيف إلى الصالون، بلطف متواضع،

ووجهها يشع سعادة، وتتبعها بِث التي تلفّ جسدها بالأسود والأصفر، موظفة نفسها كمُطرقٍ حسب التعبير الحرفي.

- نهارك سعيد يا كلود، قالت وهي تمد يدها إلى الناقد القديم والشهير.

وكان كلود فينيون قد صار مثله مثل آخرين كثر، رجل سياسة، وهذا تعبير جديد تكوّن للدلالة على طموح يخطو أولى خطواته في بداية المرحلة الأولى من طريقة. إن الرجل السياسي في العام ١٨٤٠ يشبه بشكل من الأشكال رئيس الدير في القرن الثامن عشر. لا صالون يكتمل دون شخصيته السياسية.

- عزيزتي، إنه ابن عمي الصغير الكونت ستانبوك، قالت ليزبت وهي تقدم ونسيسلاس إلى فاليري التي بدت وكأنها لا تحفل به.

- لقد عرفت أنه سيدي الكونت، أجابت وهي تلقي بحركة من رأسها لطيفة، تحية للفنان. غالباً ما كنت أراك في شارع دواينة، وكان لي شرف حضور حفل زواجك. عزيزتي، قالت لليزبت، من الصعب نسيان ولدك السابق، وحتى لم لو يره المرء إلّا مرة واحدة. - السيد ستيدمان هو طيب جداً تابعت وهي تحيّي النحات، لأنه لبّى دعوتي مع أنها حصلت في فترة قصيرة جداً، لكن الضرورات لا أحكام لها! أعلم أنك صديق هذين السيدين - لا شيء، أبرد، وأشد تجهما من عشاء لا يعرف فيه المدعوون بعضهم بعضاً. لقد أغريتك بالقدوم من أجلهما،

لكن أتوقّع في مرّة قادمة أن تأتي من أجلي، أليس كذلك؟...
قل: نعم!...

ثم جالت بضع هنيهات مع ستيدمان وكأنها غير مشغولة إلاّ به. عندها أعلن على التوالي قدوم كروفيل والبارون هيلو ونائب يدعى بوفيزاج.

إن كروفيل، هذه الشخصية الريفية، هذا الواحد من الناس الذين خلقوا لتشكيل الجماعة، كان يقترع تحت راية جيرو، مستشار الدولة وفيكتوران هيلو هذان الرجلان السياسيان رغبا في تشكيل نواة للتقدميين في الكتيبة الكبرى للمحافظين. كان جيرو يتردّد أحياناً مساء على السيدة مارنيف التي كانت تتباهى بهيمنتها أيضاً على فيكتوران هيلو؛ غير أن المحامي الذي ينتسب إلى جماعة الطهريين ما زال يتمسك بحجج ليصدّ أباه ووالد زوجته. أن يظهر في منتدى إمرأة تسيل دموع أمه، فذلك ما يُعده جريمة. فيكتوران هيلو كان بالنسبة للطهريّين في السياسة كامرأة ورعة بالنسبة للتقيات.

أما بوفيزاج، ذلك النسّاج القديم، فأنه يسعى أن يكون باريسياً. هذا الرجل، أحد أقطاب المجلس النيابي، كان يظهر عند السيدة مارنيف حيث أعجب بكروفيل فارتضاه من فاليري كمثال وكمعلّم، فكان يطلب مشورته في كل شيء حتى أنه استدلّ على خيّاطه، وكان يقلّده ويحاول أن يأخذ وضعاً في الجلوس مشابها لوضعه، وبكلمة فإن كروفيل كان رجله الكبير.

إن فاليري التي تحيطها هذه الشخصيات، والتي تلازمها ليزبت ملازمة ظلّها لها، بدت لونسيسلاس وبشكل سافر كأمرأة متعالية، مما دفع كلود فينيون لينقل له إطراء السيدة مارنيف التي تعتبر أنه رجل جذاب.

- إنها السيدة دو مانتينون في ثياب نينون! قال الناقد السابق. أن تشعرها بالفرح فذلك من مقتضيات السهرة حيث المرح والإنشراح؛ لكن أن تحظى بحبها فذلك نصر يمكن أن يُشبع كبرياء رجل ويغني حياته به.

غير أن فاليري، في حضورها الصقيعي والجامد تجاه جارها السابق، أصابت عزّته في الصميم دون أن تدري، لأنها تجهل الطبع البولوني.

٦١

البولونيون عامة وستانبوك خاصة

يتميّز السلافيون بجانب من «الولدنة» كما هي الحال عند مختلف الشعوب ذات التوحش البدائي، والتي وجدت نفسها فجأة وسط الأمم المتحضرة دون أن تتفاعل مع هذه الحضارة كما يفرض الواقع. انتشر هذا العنصر كالفيضان وغطى مساحة

شاسعة من الكرة الأرضية. ونزل في مجاريها حيث الأجواء الفسيحةالتي يطيب له العيش فيها فلا يتزاحم الناس كما في أوروبا؛ غير أن التمدن يصبح مستحيلاً في غياب الاحتكاك المستمر للأفكار والمصالح إن أوكرانيا وروسيا وسهول الدانوب وأخيراً شعب السلاف تشكل كلها المفصل الواصل بين أوروبا وآسيا، بين الحضارة والبربرية.

والبولوني، وهو الفصيل الأغنى في الشعب السلافي، يحمل في طبعه التصرفات الصبيانية والتقلبات المزاجية للأمم التي لم يكتمل نضجها. إنه يحمل الشجاعة والفكر والقوة، إنما مصابة بالميوعة والرخاوة، مما يزيل عن هذه الشجاعة وهذا الفكر وهذه القوة المنهجية والتعقل، ذلك لأن البولوني يظهر تحرّكاً شبيهاً بحركة الريح التي تهيمن على السهل الفسيح المليء بالمستنقعات؛ وإذا كان له عنف الريح التي تعصر البيوت وتطير بها، أو قوة تلك الجرف الهوائية الرهيبة، فإنه، مثلها أيضاً، يضيع في أول مستنقع يلتقيه فينحلّ في الماء.

يتأثر الإنسان دائماً بالمحيط الذي يربى فيه. إن البولونيين الذين استمر صراعهم مع الأتراك، اكتسبوا منهم حسّ البذخ الشرقي. وغالباً ما يضحون بالمهم لديهم من أجل البريق. أنهم يتزينون كالنساء، ومع ذلك فالمناخ أعطاهم التنشئة العربية الصلبة.

والبولوني يسمو في عذابه، لذلك أرهق مضطهديه من فرط

ما ضربوه. وقد أعاد، بذلك، إلى الأذهان وفي القرن التاسع عشر، المشهد الذي قدّمه المسيحيون الأوائل، أدخلوا عُشْر المكْر الانكليزي في الطبع البولوني الصريح والمنفتح، فيسيطر النسر الأبيض، الكريم، على أي مكان يمكن أن يصل إليه النسر ذو الرأسين. قليلاً من الميكيافيلية كان أعاق بولونيا عن إنقاذ النمسا التي جزأتها، وعن الاستلاف من بروسيا، مرابيتها التي كانت تنصب لها الفخاخ، وعن انقسامها أثناء القسمة الأولى. من المؤكد أن جنيّة قد قدمت في حفلة عمادة بولونيا، وكانت قد أهملتها زميلاتها الجنيّات اللواتي خصصن لهذه الأمة المذهلة أرفع الصفات، لتقول: «احفظي كلّ الهبات التي وزّعتها لك أخواتي لكنك لن تدركي يوماً ماذا تريدين!». لو أن بولونيا حققت في صراعها مع روسيا انتصاراً، كتناحر البولونيون فيما بينهم اليوم كما في الأمس في مجالسهم التمثيلية حتى يمنع بعضهم بعضاً من أن ينصب ملكاً. في اليوم الذي ينضج وعي هذه الأمة المؤلّفة من النفوس الشجاعة وحسب، وتعثر على مثيل للويس الحادي عشر في احشائها، وترضى بديكتاتوريته وأسرته المالكة، تخلص دون ريب.

ما حصل لبولونيا في السياسة يحصل لأكثرية البولونيين في حياتهم الخاصة وبالضبط عندما تحلّ الكوارث. هكذا ونسيسلاس ستانبوك الذي يقدّس إمرأته منذ ثلاث سنوات وتعتبره إلها قد اغتاظ كثيراً لدى ملاحظته قلة اهتمام السيدة

مارنيف به معتبراً أن في ذلك مساساً بكرامته إن لم تعره بعض انتباهها.

وإذ وازن بين فاليري وزوجته رجّح كفة الأولى.

كانت أورتنس «جسمًا جميلًا»، كما عبّرت فاليري لليزبت. لكن السيدة مارنيف تحمل الروح في الشكل، واللذع في التبذل. إخلاص أورتنس يبدو لزوجها وكأنه واجب؛ إن القيمة الكبرى للحب المطلق لا تلبث أن تتلاشى، مثلما يحدث للمدين الذي لا يلبث أن يشعر أن القرض هو له! هذه الاستقامة السامية تصير، بشكل أو بآخر، الخبز اليومي للنفس، والخيانة تغري كقطعة من الحلوى

المرأة المستخفة، وخاصة المرأة الخطرة، تثير الفضول كالتوابل ترفع من زخم الشهيّة. هذا الاستخفاف، الذي سلكته فاليري بشكل مدروس، كان جديداً على ونسيسلاس بعد ثلاث سنوات من الملذات السهلة المتناول. أورتنس قامت بدور الزوجة وفاليري بدور العشيقة. كثير من الرجال يصبون إلى حيازة طبعتين للمؤلّف ذاته بالرغم من أن ذلك يشكل بيّنة ساطعة على النقص في الرجل الذي لا يدري كيف يتخذ من زوجته عشيقة. التنوع في هذا المنحى من الحياة ليس إلا علامة عجز. الثبات يبقى دائمًا عبقرية الحب ودليل قوة هائلة هي القوة التي تصنع الشاعر! يجب أن يرى الواحد كل النساء في امرأته، كما كان يفعل شعراء القرن السابع عشر!

ـ وبعد! قالت ليزبت لابن عمها الصغير في الوقت الذي رأته مأخوذاً، كيف وجدت فاليري؟

ـ فاتنة!

ـ ما أردت أن تسمعني، آه يا صغيري ونسيسلاس! لو بقينا معاً لكنت حبيب جنيّة البحر هذه، وكنت ستتزوجها بعد ترملها وتحصل على دخل مقدرٍ بأربعين ألف ليرة!

ـ صحيح!..

ـ نعم، أجابت ليزبت. هيّا، احترس من نفسك، لقد حذرتك جيّداً من الانزلاق في الخطر. لا تحرق نفسك بلهيب الشمعة! هات ذراعك.

ولا حديث كان أكثر تثبيطاً للهمم من هذا؛ أن تعرض هوة على بولوني فأنه للحال يرمي نفسه فيها. يتصف هذا الشعب بعبقرية الفروسية، يظن أن في امكانه أن يتحدّى كلّ الصعاب ويخرج منها منتصراً.

إن نقرة المهماز التي استحثت بها ليزبت غرور ابن عمّها زادها حدّة وعنفاً. مشهد غرفة الطعام حيث يشع طقم فضي رائع كان ستانبوك يتفحّصه بكل ما فيه من الدقة والتنوّع الذي جمع كلّ أصناف البذخ الباريسي. وقال في نفسه:

ـ كان الأفضل لي لو تزوّجت ساليمان.

٦٢

جدل حول تاريخ دليلة

خلال العشاء، كان هيلو مرتاحاً لحضور صهره وأكثر ارتياحاً ليقينه بأن الأمور مع فاليري ستسوى. فاليري التي اقنع نفسه بجعلها مخلصة له عن طريق وعدها بميراث ـ وهذا ما جعله يبدو غاية في اللطف. .

وأجاب ستيدمان على لطف البارون بمجموعة من النكات الباريسية، وبطرفه كفنان.

لم يحتمل ستانبوك أن يحجبه رفيقه فبسط معرفته، وكشف عن التماعات كان لها صداها فسر من نفسه. أما السيدة مارنيف فقد ابتسمت له مراراً متظاهرة بأنها تفهمه جيداً.

إن الطعام الشهي والخمور المسكرة أفضت بونسيسلاس إلى السقوط في ما يجب أن ندعوه: حمأة اللذة. وبعدما انتعش بجرعات من الخمر، تمدّد بعد العشاء على أريكة وهو فريسة سعادة مادية وروحية في آن، وقد دفعتها السيدة مارنيف إلى القمة عندما جلست قربه، خفيفة، معطرة، فاتنة حتى ليمكنها إهلاك الملائكة.

مالت نحو ونسيسلاس واقتربت من ملامسة أذنه لتحدثه بصوت مخفوض.

ـ لا يمكننا أن نثير في هذه الأمسية موضوع مشاغلنا، إلا إذا كنت ترغب أن تبقى بعد الجميع. سنرتب، أنت وليزبت، وأنا، الأمور كما تشتهي.

ـ آه! إنك ملاك يا سيدتي! قال ونسيسلاس مجيباً بالطريقة ذاتها. لقد ارتكبت حماقة لا تغتفر عندما لم أصغ إلى ليزبت...

ـ ماذا قالت لك؟...

ـ أدّعت، وهي في شارع دواينه، أنك مغرمة بي!...

نظرت السيدة مارنيف إلى ونسيسلاس وبدا عليها كأنها مرتبكة فنهضت بسرعة.

لم يحصل لامرأة فتية وجميلة ان ايقظت بسهولة، في نفس رجل، فكرة التمتع بنجاح سريع من غير أن تدفع ثمن هذا الأمر. إن حركة المرأة الفاضلة التي تكبت في أعماق قلبها هوى قديماً، لهي أبلغ ألف مرة من التصريح الأكثر هياماً.

عندها أثيرت رغبة ونسيسلاس بشكل حاد مما ضاعف من انتباهه لفاليري. امرأة مرموقة، امرأة مرغوبة! من هنا قوة الممثلات الرهيبة. إن السيدة مارنيف، اذ علمت إنها موضع درس، تصرفت كممثلة تلهب الأكف. كانت فاتنة وحازت النصر كاملاً.

ـ انّ مبالغات عمي أب زوجتي، لم تعد تذهلني، قال

ونسيسلاس لليزبت .

ـ لو تابعت كلامك على هذا النحو يا ونسيسلاس ، أجابت ابنة العم ، فأني سأندم طوال حياتي لأني أقرضتك مبلغ العشرة آلاف فرنك . أتود أن تكون مثل هؤلاء جميعاً ، قالت وهي تشير الى المدعوين ، عاشقين حتى الجنون لهذه المخلوقة ؟ لا تنس أنك ستكون غريماً لعمك . ثم فكر في أورتنس وفي ما ستسببه لها من أحزان .

ـ صحيح . أورتنس ملاك وسأكون أنا عندئذ وحشاً !

ـ يكفي العائلة وحش واحد ، قالت ليزبت معقبة على كلامه .

ـ على الفنانين ألا يتزوجوا أبداً ! صاح ستانبوك .

ـ آه ! هذا ما كنت أقوله لك في شارع دواينة . أولادك أنت هي مجموعاتك وتماثيلك وروائعك .

ـ ماذا تقولون أنتم هناك ؟ تدخلت فاليري لتنضم الى ليزبت . قدمي الشاي يا ابنة العم .

وهنا ويتبجح بولوني ، أراد ستانبوك أن يظهر الوفاء مع جنية الصالون هذه . فبعد نظرة ازدراء جال بها على سيدمان وكلود فينيون وكروفيل ، أخذ فاليري بيدها وأجبرها على الجلوس بالقرب منه على الأريكة .

ـ إنك سيّد كبير أيها الكونت ستانبوك! قالت وهي تحاول

أن تمانع ممانعة بسيطة. وراحت في ضحك وهي ترمي بنفسها قربه، ليس دون أن تريه لحظة زرّ الورد الصغير الذي يزيّن صدرها.

ـ هيهات، لو كنت سيّداً كبيراً لما قدمت إلى هنا، قال بلسان مستدينه

ـ ولدمسكين ! اتذكّر لياليك في شارع دواينه. لقد كنت أحمق قليلاً. تزوّجت كجائع يتلهف إلى الخبز. أنت لا تعرف باريس أبداً! هل تلاحظ أين أنت منها؟ لكنك وجهت أذناً صماء إلى تفاني بِث كما فعلت مع حبّ الباريسية، التي تعرف باريسها عن ظهر قلب.

ـ لا تزيدي عليّ، صاح ستانبوك، إني غبيّ.

ـ ستحصل على الآلاف العشرة من الفرنكات يا عزيزي ونسيسلاس، لكن بشرط، قالت وهي تلاعب جدائل شعرها الرائعة.

ـ أي شرط؟...

ـ لا أريد فائدة!

ـ سيدتي...

ـ أوه! لا تغضب، نعوّضها بمجموعة برونزية. لقد شرعت في قصة شمشون، اتممها! اصنع دليلة وهي تقصّ شعر هرقل اليهودي!.. لكنك انت الذي ستصبح، إذا أصغيت لي، فناناً كبيراً، أرجو أن تكون قد أدركت الموضوع. المقصود أن تعبّر

عن مقدرة المرأة. شمشون ليس شيئاً هنا، إنه جثة القوة. دليلة هي العاطفة الجامحة التي تهدم كل شيء. كهذه النسخة المطابقة... أليس هكذا تقولون؟ أضافت برقة عندما لاحظت أن كلود فينيون وستيدمان يقتربان منهما لدى سماعهما موضوعاً عن النحت، مثل نسخة هرقل خارّاً إلى رجلّي أو مالف، أجمل من الأسطورة اليونانية! هل اليونان هي التي استعارت من اليهودية أم اليهودية هي التي أخذت عن اليونان هذا الرمز؟

ـ آه! تطرحين، يا سيدتي، من هذه الزاوية سؤالاً خطيراً! إنه سؤال العهود التي فيها ألفت مختلف فصول التوراة. إن سبينوزا الكبير والخالد والذي عُدّ بغباوة قصوى بين الملحدين ـ وهو الذي برهن بالرياضيات على وجود الله ـ كان يزعم أن سفر التكوين والقسم السياسي، إذا جاز التعبير، من التوراة صيغا في عصر موسى. وبينّ النصوص المدسوسة ببراهين فقهية لغوية. لذلك تلقى ثلاث طعنات سكين لدى دخوله إلى الكنيس.

ـ ما كنت أعرف نفسي عالمة إلى هذا الحد، قالت فاليري التي تضايقت وقد انقطع حديثهما الثنائي هذا.

ـ النساء يدركن كل شيء بالفطرة. أجاب كلود فينيون.

ـ هل تعدني؟ قالت مخاطبة ستنبوك وهي تمسك بيده بعناية فائقة، كصبية عاشقة.

ـ إنك لسعيد، يا عزيزي، صاح ستيدمان، حتى تطلب منك السيدة غرضاً ما.

ـ ماذا؟ سأل كلود فينيون.

ـ مجموعة برونزية صغيرة، أجاب ستنبوك، دليلة وهي تقطع شعر شمشون.

ـ إن ذلك صعب بسبب المضجع. قال كلود فينيون.

ـ بالعكس، إنه يسير جداً، أجابت فاليري وهي تبتسم.

ـ آه! هل ترينا عملاً منحوتاً من أعمالك! قال ستيدمان.

ـ السيدة هي موضوع عمل النحت! أجاب كلود فينيون وهو يرمق فاليري بنظرة رقيقة.

ـ وبعد! أجابت فاليري هاكم كيف أتطلّع إلى تأليفها. استيقظ شمشون دون شعر، ككثير من المتغندرين من ذوي الذؤابات المزوّرة. يتكىء البطل على حافة السرير، والآن ليس لك إلاّ أن تتمثل الأساس المسترّ بالأقمشة والشراشف. قائم هناك مثل ماريوس على أطلال قرطاجة، مكتّف اليدين حليق الرأس. إنه نابوليون في منفاه، في جزيرة القديسة هيلانة، أليس كذلك؟ ودليلة جاثية على ركبتيها مثل «مادلين» كانوفا. عندما تحطّم الفتاة صديقها، تعبده. برأيي، أن اليهودية كانت تخشى شمشون، الرهيب القادر، غير أنها التزمت بحبها له إذ صار صبياً صغيراً. ثم أسفت دليلة على فعلتها ورغبت في إعادة الشعر إلى حبيبها، فهي لا تجرؤ على الالتفات إليه، وإذا نطلعت فأنها تبتسم لأنها تشعر بمغفرتها في وهن شمشون. هذه المجموعة مضافة إلى مجموعة جوديت تشكلان المرأة المقصودة

الفضيلة تطيح بالرأس غير أن الرذيلة تجزّه فقط. احذروا ناصياتكم، أيها السادة!

ثم تركت الفنانين المرتبكين، يصعدان، مع الناقد، جوقة إطراء لشخصها الكريم.
صاح ستيدمان:

ـ لا يمكن أن يكون هناك أحد أعذب منها!

وقال كلود فينيون:
ـ أوه! أزكى النساء وأكثرهن إثارة للرغبة. وما أندر أن تجمع امرأة بين الجمال والذكاء!

ـ إذا كنت أنت، الذي حصل على شرف التصرّف العميق بكاميلاموبان. تطلق مثل هذه الآراء، أجاب ستيدمان، فماذا أبقيت لنا؟.
ـ إذا كنت تريد أن تعطي دليلة، يا عزيزي الكونت، شكل فاليري، قال كروفيل الذي تخلّ لحظة عن اللعب والذي كان يصغي إلى كل ما يقال، فأني سأدفع لك ألف ريال مقابل نسخة من عملك. أوه! بالتأكيد، لعنك الله! ألف ريال، إني أتفلق!
ـ أنفلق! ماذا يعني ذلك؟ سأل بوفيزاج، كلودفينيون

ـ على السيدة أن تتكرّم وتجلس أمامي لانحت.... قال مخاطباً كروفيل ومشيراً إلى فاليري. أطلب منها ذلك.

٦٣

شاب، فنان وبولوني، ماذا تريد منه أن يفعل؟

في هذه اللحظة حملت فاليري إلى ستانبوك فنجاناً من الشاي. كان ذلك أكثر من تمييز، أنها خطوة. في هذا الشكل الذي تلجأ إليه المرأة لتقوم بعملها، لغة كاملة، النساء يدركنها جيّداً، يعبّرن بحركاتهنّ ومواقفهنّ ونظراتهن ولهجتهنّ ونبرتهنّ عن كوامنهنّ عندما ينجزن عملاً بهذا التهذيب المتّسم ظاهرياً بالبساطة.

فبينما سؤال: هل تشرب الشاي؟ - هل تريد الشاي؟ - فنجان شاي؟ - المصاغ ببرود، والأمر الصادر إلى الخادمة، وبين أن تقوم سيدة الدار بنفسها وتحمل الشاي إلى «الباشا»، وتقدمه له بهيئة خاضعة، وصوت رقيق، ونظرة ملؤها الوعد بالملذات... بين كل هذه التغيرات يستطيع عالم الفراسة أن يراقب كل العواطف النسائية، بدءاً بالقرف واللامبالاة وانتهاء بإعلان «فيدر» إلى «إيبوليت». في وسع النساء، هنا، وعلى هواهن، أن يكن محتقرات حتى الاهانة، أو وديعات حتى العبودية الشرقية.

ظهرت فاليري متجاوزة دورها كإمرأة فبدت كأفعى في ثياب أنثى بشرية، وأنهت عملها الشيطاني وهي تخطو نحو ستانبوك حاملة كوب الشاي بيدها.

ـ سأتناول أكواباً من الشاي قدر ما تقدّمين لي، وذلك حتى أتمتّع برؤية عرضها عليّ بهذه الطريقة، همس الفنان في أذن فاليري وهو يستقيم في محلّه ويمسّ بأنامله أنامل فاليري! . .

ـ ما حديثك عن الجلوس أمامك للنحت؟ سألته دون أن يبدو عليها أنها تلقت في صميم قلبها هذا الإنفجار المنتظر بفارغ صبر.

ـ يشتري الأب كروفيل النسخة الواحدة من مجموعتي بألف ريال.

ـ هو، يدفع ألف ريال؟

ـ نعم إذا اتخذناك نموذجاً لدليله، قال ستانبوك.

ـ لن يحصل ذلك، تابعت كلامها، فالمجموعة تقدّر إذّاك بأكثر من ثروته، إذ يفترض بدليله أن تكون مكشوفة الصدر قليلاً.

لكل امرأة وضع منتصر، وضع مدروس تجتذب فيه الاعجاب بشكل أكيد. ويلاحظ المرء في الصالونات من يمضين العمر وهن ينظرن إلى دانتيلا قمصانهن أو يرتبن حمالات فساتينهن أو يلعبّن بريق أحداقهن وهن يتأملن الأفاريز.

السيدة مارنيف ليست كالآخرين فهي لا تعبر عن انتصارها مواجهة. عادت بسرعة لتصل إلى طاولة الشاي وتلتقي بليزبت. إن الحركة الراقصة التي استدارت بها فاليري وهي تموج ثوبها والتي بها كانت أسرت هيلو، قد سحرت ستانبوك.

ـ انتقامك صار كاملاً، همست فاليـري في أذن ليزبت، ستذرف اورتنس الدموع وستلعن الساعة التي انتزعت بها منك ونسيسلاس.

ـ ما لم أصبح السيّدة الماريشالة، لا أكون قد أتيت عملاً، أجابت اللورينة؛ غير أن الجميع بدأوا يفكرون بذلك... زرت فيكتوران هذا الصباح، نسيت أن أخبرك ذلـك استردّ أولاد هيلو سندات السحب من البارون فوفيني وسيوقعون في الغد التزاماً باثنين وستين ألف فرنك بفائدة قدرها خمسة في المئة، يستحق في ثلاث سنين مع تأمين على بيتهم. إن أولاد هيلو سيستمرون في حالة من الضيق لثلاث سنوات، ومن الصعب عليهم أن يجدوا الآن مالاً مقابل هذه الملكية. لقد فهم فيكتوران أباه، وهو في حزن مخيف. وكروفيل قادر أن لا يعود يرى أبناءه من فرط ما سيغضب من هذا الأخلاص.

ـ البارون الآن دون مصادر ثروة؟ همست فاليري في أذن ليزبت وهي تبتسم لهيلو.

ـ لا أرى أنه يملك شيئاً، ولكن سيعود ويتقاضى راتبه في أيلول.

ـ يحمل بولصة تأمينه وقد جدّدها! هيّا، من المناسب أن يرقّي مارنيف إلى رئيس مكتب، فسأقضي عليه الليلة.

ـ يا ابن عمي الصغير، راحت ليزبت تقول لونسيسلاس، إنسحب من هنا، أرجوك. إنك مثير للسخرية، تنظر إلى فاليري بشكل يعرّضها للشبهات، وزوجها شديد الغيرة حتى الجنون. لا تتبع طريق حميك بل عد إلى بيتك وأنا على يقين من أن أورتنس هي في انتظارك . .

ـ أشارت إليّ السيدة مارنيف حتى أبقى الأخير هنا لنسوّي عملنا بيننا نحن الثلاثة، أجاب ونسيسلاس.

ـ لا، قالت ليزبت، سأمدك بالعشرة آلاف فرنك في ما بعد، لأن نظر زوجها لا يميل عنك، ولن يكون سهلاً لو بقيت. غداً في التاسعة. إحمل معك السند، في هذا الوقت يكون مارنيف في مكتبه وتكون فاليري مطمئنة ومستريحة البال. وقد طلبت منها أن تجلس قبالتك لتتخذها نموذجاً لمجموعة، أليس كذلك؟ . . .

مُرّ عليّ أولاً، آه، كنت أعرف ـ قالت ليزبت وهي تلحظ فجأة نظرة ستانبوك الى فاليري ـ أنك فاسق ناشىء. ولا شك أن فاليري جميلة جداً لكن حاول ألا تسيء، إلى أورتنس!

لا شيء يثير غضب المتزوجين أكثر من أن يصادفوا، في كل مناسبة، زوجاتهم بينهم وبين رغبتهم، ولو كانت عابرة

٦٤

العودة إلى المسكن

عاد ونسيسلاس إلى بيته عند الأولى صباحاً وأورتنس كانت بانتظاره منذ التاسعة والنصف.

من التاسعة والنصف حتى العاشرة، كانت تصغي إلى ضجيج العربات، وهي تحدّث نفسها عن ونسيسلاس الذي لم يسبق له، عندما كان يتغدّى بدونها عند شانور وفلوران، أن تأخّر إلى هذا الحدّ.

كانت تخيط بالقرب من سرير ابنها قصد التوفير، لذا شرعت بنفسها برفء بعض الثياب.

من العاشرة حتى العاشرة والنصف بدأ القلق يراودها فتساءلت:

ـ ولكن، هل ذهب كما أعلمني، عند شانور وفلوران لتناول الغداء؟ طلب وهو يرتدي ثيابه أجمل ربطة عنق على أفضل تأنق. لقد استغرق هندامه مقداراً من الوقت يكفي لامرأة تريد أن تظهر في أحلى حالاتها. إني مجنونة! فهو يحبني.

إنه قادم الآن.

أما العربة التي كانت تنتظرها فلم تتوقف بل تابعت سيرها.

ومن الحادية عشره حتى منتصف الليل، استسلمت أورتنس للمخاوف المفاجئة والصامتة التي أحدثتها وحشة حيّها.

ـ ربّما عاد مشياً علىقدميه وحصل له حادث! . . . قد يقتل الإنسان إذا اصطدم بطرف رصيف أو سقط في حفرة لم يعطها بالاً. الفنانون يتميزون بقلة التبصر!... قد يعترضه اللصوص!... أول مرة يتركني وحدي هنا لفترة ست ساعات ونصف. لماذا القلق؟ لا يعشق غيري.

على الرجال أن يكونوا أوفياء للنساء اللواتي يحببنهم، إن لم يكن لشيء فللمعجزات المستمرة التي يولّدها الحب الحقيقي للنساء في عالم سام يسمى «العالم الروحي».

المرأة التي تحب هي، بالنسبة للرجل المحبوب في مقام المنوّم الذي ينفح فيه المنوّم المغناطيسي، القدرة الحزينة، فتتوقف عن أن تكون مرآة العالم ومالكة وعيها توجّهه كامرأة إلى ما تلحظه وهي في حالة التنويم. الانفعال العاطفي يودي بالقوى العصبية للمرأة إلى هذه الحالة النهولية حيث الحدس الشعوري يعادل رؤيا العرّافين. تشعر المرأة بان أمرها انكشف، فلا تصغي إلى نفسها، بل تشك، من فرط حبها! وتنكر صراخ قوّتها، قوّة الساحرة.

ذروة الحب هذه، يجب أن تصبح له طقوس عبادة. عند النفوس السامية يصبح التأمل في هذه الظاهرة الربانية حاجزاً يفصلها عن الزنى. كيف لا تقدّم العبادة لفاتنة، ولمخلوقة روحانية تصل نفسها إلى هذا الحد من المشاعر؟...

عند الساعة الأولى صباحاً، بلغت أورتنس حدّاً من القلق دفعها لأن تنطلق نحو الباب إذ تعرّفت على ونسيسلاس من أسلوب طرقاته فحملته بذراعيها وشدّته إليها بحنان الأم.

ـ وأخيراً، ها أنت هنا!... يا صديقي، من الآن فصاعداً، سأرافقك إلى أي مكان تقصده، لأني لست على استعداد لتحمّل ما تحملته من توتّر وتأزم، مرة ثانية، نتيجة هذا الانتظار... رأيتك تصطدم بالرصيف ويتصدع رأسك! يجهز عليك اللصوص!... لا، مرة قادمة، أشعر بأني سأصاب بالجنون... لقد مرحت جيّداً.... من دوني؟ يا فاسد؟.

ـ ما العمل، يا ملاكي الصغير، كان هناك بيكسيو الذي أرشدنا إلى اشغال جديدة وليون «لورا الذي لا يجاريه أحد في الظرف، وكلودفينيون الذي وحده كتب مقالة يثني فيها على نصب الماريشال مونتكورني. وكان هناك...

ـ ألم يكن هناك نساء؟... سألت أورتنس باندفاع.

ـ السيدة غلوران المحترمة...

ـ قلت لي أن ذلك سيجري في «صخرة الكانكال»، إذاً كان العشاء عندهم؟

ـ نعم، عندهم، لقد أخطأت. . .

ـ ألم تأت في عربة؟

ـ لا!

ـ وأنت قادم سيراً من شارع ثورنيل؟

ـ اصطحبني كل من بيكسيو وستيدمان عبر الشوارع حتى المادلين كنّا نتبادل الأحاديث.

ـ كانت الشوارع جافة، كذلك ساحة الكونكورد وشارع البوركونيا، لذا فإنك لم تتلوّث بالطين، قالت أورتنس وهي تتفحص حذاءه المصبوغ.

كانت قد أمطرت. غير أن ونسيسلاس الذي سلك فقط شارع فانو حتى شارع سان دومينيك أبقى حذاءه نظيفاً.

ـ خذي، هاك خمسة آلاف فرنك اقرضني إياها شانو، بسخاء، قال ونسيسلاس ليقطع الطريق على هذه الأسئلة شبه الاستنطاقية.

كان قد وزّع المال إلى رزمتين: واحدة لأورتنس وأخرى له لأنه كان مديناً بخمسة آلاف فرنك تجهلها أورتنس. كان مديناً لمزوّر تصاميمه وعمّاله.

ـ ها أنت مرتاحة البال يا عزيزتي، قال وهو يعانق زوجته. سأنكبّ منذ الغد على عملي! أوه! في الغد سأرحل في الثامنة والنصف متوجّها إلى المشغل. لهذا سألجأ إلى السرير حالاً حتى

استيقظ باكراً، تسمحين لي يا عزيزتي أليس كذلك؟.

الشكوك التي ساورت قلب أورتنس تبدّدت: بطبيعة الحال كانت على مسافة ألف ميل من الحقيقة. السيدة مارنيف! لا تخطر ببالها. تخاف على ونسيسلاس من مجتمع الغانيات. إن أسماء، كبيكسيو وليون دو لورا، الفنانين المعروفين بحياتهما الماجنة، أوقعاها في الريبة والحذر. في الغد، رأت ونسيسلاس ينصرف في التاسعة فاطمأنت.

إنه الآن في عمله، حدّثت نفسها وهي ترتّب ثياب ولدها. أوه! لقد رأيته، إنه في الطريق! وإن لم نحصل على مجد ميكيلانج فسيكون لنا مجد بنفينيتو شيلّيني.

٦٥

أول طعنة خنجر

كانت أورتنس تفكر بغد سعيد وهي تنعم بأرجحة آمالها؛ تتحدّث مع طفلها الذي بلغ عشرين شهراً بلغة الأصوات، فترسم الإبتسامة على وجهه. وعند الحادية عشرة فتحت الطباخة، التي لم تلاحظ خروج ونسيسلاس، لستيدمان وصحبته إلى الداخل.

ـ عفواً سيدتي، قال الفنان. كيف! ذهب ونسيسلاس؟.

ـ إنه في مشغله.

ـ كنت قد تفاهمت معه على أشغال تهمنا.

ـ سأرسل في طلبه، قالت أورتنس وهي تشير لستيدمان بالجلوس.

اغتنمت المرأة هذه الفرصة السعيدة التي هبطت إليها من السماء فقصدت إبقاء ستيدمان لتطلّع منه على تفاصيل سهرة البارحة. انحنى ستيدمان شاكراً الكونتسة على دعوتها إياه للجلوس. دقت مدام ستانبوك جرساً فحضرت الطباخة فكلّفتها الذهاب إلى المشغل والاتيان بالسيد.

ـ تآنستم كفاية البارحة؟ قالت اورتنس، لأن ونسيسلاس لم يعد الا بعد الواحدة صباحاً.

ـ أي أنس؟... ما هكذا بالضبط، أجاب الفنان الذي كان يتوخى في هذه السهرة مراودة السيدة مارنيف. لا تحل السلوى والمرح في هذا العالم إلا حيث الافادة. السيدة مارنيف، هذه الصغيرة، تتمتع بالحياة الروحية الفائقة، غير أنها مغناجة.

ـ وكيف نظر اليها ونسيسلاس؟... سألت أورتنس المسكينة (وهي تحاول أن تكون رابطة الجأش ، لم يحدثني عن ذلك شيئاً.

ـ لن ابوح لك بأكثر من أني اظنها خطرة جداً أجاب

ستيدمان .
شحبت اورتنس وصارت كالنفساء.

ـ هكذا، حسناً.. . عند السيدة مارنيف... وليس... عند شانور كان غداؤكم. . . بالأمس... مع ونسيسلاس ويـ....

كان ستيدمان، وهو لم يعلم أي شقاء أحدثه في نفسها، تنبه الى أنه سبب لها شيئاً من ذلك. لم تأت الكونتسة على نهاية جملتها حتى أغمي عليها. دق الفنان الجرس، فحضرت الخادمة.

وعندما حاولت لويز حمل الكونتسة ستانبوك الى غرفتها، أصيبت بهزة عصبية بالغة الخطورة رافقتها اضطرابات مرعبة.

أما ستيدمان فلم يصدق أن حديثه أدى الى هذه النتيجة واعتبر نفسه كالكثيرين يبوحون دون قصد منهم بأسرار تقضي على الاسقالة التي رفعها كذب الزوج في داخله، مما جعله يعتقد أن الكونتسه تعاني من حالة مرضية، وأقل صدام يؤدي بها الى الخطر.

ومما زاد في سوء الوضع ان الطباخة وصلت لتعلن بصوت عالٍ غياب السيد عن مشغله.

سمعت الكونتسة هذا الجواب وهي في شدة تأزمها فتجددت حالتها العصبية .

ـ أحضري السيدة والدتها! . . . قالت لويز للطباخة؛ أسرعي!

ـ لو عرفت أين مكان ونسيسلاس لذهبت وأبلغته، قال ستيدمان وهو في حالة يائسة

ـ هو عند تلك المرأة!... صرخت أورتنس المسكينة. تأنق على غير ما يفرضه الذهاب الى المشغل.

أسرع ستيدمان صوب منزل السيدة مارنيف، اذ تعرف على حقيقة هذه الحصيلة هي الوجه الآخر للانفعالات العاطفية.

في هذه اللحظة كانت فاليري تجلس في وضعية دليلة.

كان ستيدمان يمتاز بالرقة والتهذيب فأعرض عن طلب السيدة مارنيف لكنه حزم أمره عندما وصل أمام المبنى فصعد بسرعة الى الطابق الثاني وهو يفكر: لو طلبت السيدة مارنيف، فسيقال لي أنها ليست هنا. ولو طلبت ستانبوك ببلاهة وفظاظة فسيتهكمون عليّ.. لا عليك يا ستانبوك، اكسر الجرة!

عند أول طرقة وصلت رين.

ـ أبلغي السيد الكونت ستانبوك حتى يأتي، ان زوجته تحتضر!...

لم تكن رين تقل رقة شعور عن ستيدمان فرمقته بذهول بليد.

ـ لكن، يا سيدي، لا أعلم... ماذا ذ.

ـ أعرف أن صديقي ستانبوك هنا، وزوجته تحتضر، والأمر يستحق ازعاج سيدتك.

ثم رحل ستيدمان. ـ أوه! انه هنا، قال في نفسه.

بعدها، رأى ستيدمان، الذي ظل بعض الوقت في شارع فانو، ونسيسلاس يخرج فأشار اليه كي يأتي سريعاً.

بعدما سرد له المأساة التي جرت في شارع سان دومينيك، انّب ستيدمان ستانبوك لأنه لم يبلغه بأن يحذر الكلام في غداء الأمس.

ـ فقدت صوابي، اجابه ونسيسلاس، لكني أغفر لك. نسيت تماماً موعدنا، هذا الصباح، كما ارتكبت خطأ بأني لم أعلمك بالغداء عند فلوران، أرأيت؟ ان فاليري هذه أصابتني بالجنون؛ لكنها، يا عزيزي، تستحق المجد، كما تستحق الشقاء... آه! انها... يا الهي! إنني في ارتباك رهيب! أرشدني. ما قولك؟ كيف اصحح مساري؟

ـ أن أرشدك، فذلك ما لا أعرف. أجاب ستيدمان. ان زوجتك تحبك، اليس كذلك لذا ستصدق كل شيء. قل لها انك جئت لزيارتي بينما أتيت لزيارتك، وهكذا تنقذ موقفك لهذا الصباح. الى اللقاء!.

في زاوية شارع هيليران برتان كانت ليزبت، التي ابلغتها رين بالأمر، تسرع اثر ستانبوك وتلحق به، فهي تخشى سذاجته البولونية. واذ رأت الا تتعرض للشبهات قالت بضع كلمات

لونسيسلاس الذي لم يستطع اخفاء فرحه فعانقها وسط الشارع لا شك انها مدت له خشبة خلاص ليجتاز بها هذه الهوة التي هزت حياته الزوجيه.

٦٦
الخصام الأول في الحياة الزوجية

لدى رؤية امها التي وصلت على عجلة ذرفت أورتنس سيلاً من الدموع، وتحسنت مظاهر الازمة العصبية بشكل بارز.

ـ خانني! يا أمي. إن ونسيسلاس، بعدما قطع لي وعد شرف بأن لن يطأ عتبة السيدة مارنيف، تناول الغداء عندها البارحة ولم يعد إلا عند الواحدة والربع صباحاً!... أريد أطلعك أنه لم نتخاصم في السهرة بل كان ذلك استفساراً وشرحاً. ابلغته أشياء مؤثرة: «كنت غيورة وحادثة خيانة واحدة تقضي عليّ؛ كنت مرتابة وكان عليه أن يقدر ضعفي لأن مصدره حبي له، يجري في عروقي قدراً من دم أبي يعادل قدراً منك؛ في اول لحظة خيانة سأصاب بالجنون وقد أنتقم لنفسي وغمس بكرامتنا كلنا، هو وابنه وأنا، حتى لا أبالي إذا ما قتلته وقتلت

نفسي بعده!» وغير هذا كثير... ذهب وهو الآن هناك! هذه المرأة صممت على تكدير حالنا كلّنا، بالأمس التزم كل من أخي وسيليستين بسحب إثنين وسبعين الف فرنك كسندات موقعة بسبب هذه التافهة... نعم، يا أمي، قد يلاحق ابي ويودع السجن. ألم تكتف هذه المرأة المقيتة من أبي ومن دموعك! لماذا تحرمني ونسيسلاس!... سأقصدها وأسدد لها طعنة خنجرٍ!

هذه المسارّة البشعة باحت بها أورتنس الغاضبة دون علم منها، أصابت السيدة هيلو بالصميم لكنها روضت ألمها بواسطة ما تبذله من جهد بطولي تكتنزه الامهات العظيمات ثم ضمت رأس ابنتها الى حضنها تمطره بالقبلات.

انتظري مجيء ونسيسلاس، يا ابنتي وكل شيء يتوضح. لا يجوز أن تعتبري ما حصل، شراً بهذا المقدار! تعرضت للخيانة، أنا أيضاً! يا عزيزتي أورتنس. ترينني جميلة، اني فاضلة ومع ذلك أهملت منذ ثلاث وعشرين سنة، من أجل جني كادين وجوزيفا ومارنيف ومثيلاتهن!... هل تعرفين ذلك؟

- أنت، يا أمي، انت!... تكابدين ذلك منذ عشرين...

توقفت أمام أفكارها الخاصة.

- تمثلي بي يا ابنتي. كوني لطيفة وطيبة فيطمئن بالك. يقول الرجل على فراش الموت: «لم تسبب لي زوجتي أدنى شقاء، ابداً!...» والله الذي يسمع هذه الزفرات الأخيرة يسجلها

لحسابنا. لو استسلمت الى الغضب مثلك فماذا كان سيحل بنا؟... ربما اغتاظ والدك وهجرني ولم يفدني خوفه من تعاستي فيتمسك بنا، ان خرابنا الذي تأجل حتى اليوم كان على الأرجح قبل عشر سنين ولكنا ظهرنا للناس بمظهر الزوج والمرأة المستقلين في حياتهما؛ انها الفضيحة المقيتة واضمحلال أكيد للعائلة. لا أنت ولا أخوك قدرتما على اصلاح الوضع. ضحيت بنفسي وبشجاعة فائقة، وحتى دون رابط والدك الأخير، مازال الناس يعتقدون بأني سعيدة. ان كذبي الشجاع لأرضاء الآخرين رعى هكتور حتى الآن ومازال قائماً، فقط عاطفة عجوز تقذف به الى البعيد، اني ألحظ ذلك بنفسي، أخشى جنونه الذي قد يمزق الستار الذي أقمته بيننا وبين العالم... لكني حافظت على هذا الحاجز لمدة ثلاث وعشرين سنة، كنت أذرف الدمع وراءه، لا أم ولا صديق ولا أي معين آخر سوى عون الدين، فوفّرت بذلك للعائلة ثلاثة وعشرين عاماً من الشرف.

كانت أورتنس تصغي الى أمها وعيناها بلا حراك. والصوت الهادىء والتنازل عن هذا الألم الفائق اضطراها الى كبت غضبها المتفجر من الجرح الأول في هذه المرأة الشابة، التي عاودتها الدموع بالغزارة التي بدأتها.

وفي غمرة من الحنان البنوي الذي سحقه سمو أمها، خرت الابنة على ركبتيها أمام أمها وتمسكت بطرف ثوبها وقبلته كما الكاثوليك الاتقياء يلثمون بقايا القديسين الشهداء.

ـ انهضي يا حبيبتي أورتنس، ان شهادة كهذه من ابنتي تزيل ما تراكم من ذكريات سيئة! تعالي أضمك الى قلبي المليء بالأحزان. ان يأس ابنتي المسكينة، التي كان فرحها فرحي، حطم ميسم القبر الذي لا يجوز لأحد ان يبعده عن فمي. أريد أن أحمل آلامي الى القبر ككفن اضافي. تكلمت لأخفف غضبك... الله يغفر لي! اوه! لو كانت حياتي كحياتك فماذا كنت ما فعلت!.... أظن أن الرجال والعالم والقدر والطبيعة والله يمدوننا بالحب مقابل عذابات شرسة. اني أفي عشر سنين من السعادة بأربع وعشرين سنة من اليأس والأحزان المتواصلة والعذابات المرة...

ـ نلت عشر سنين يا أمي بينما أنا وصلت الى ثلاث سنوات لا غير!... قالت المحبة الأنانية.

ـ لم تفقدي شيئاً يا عزيزتي، انتظري ونسيسلاس.

ـ أمي، انه كذب! خدعني... قال لي: «لن اذهب» وذهب. حدث ذلك أمام سرير ولده!...

ـ الرجال، من أجل متعتهم، يرتكبون، يا ملاكي، النذالات الفاحشة والحماقات والجرائم؛ هذا ما يظهر في طبعهم. نحن النساء، نذرنا للتضحية. كنت أعتقد أحياناً، أن آلامي توقفت لكنها تعود. ما كنت أنتظر أن تتضاعف مكابدتي في رؤية ابنتي غارقة في الحزن. الشجاعة والصمت!... أورتنس، أقسمي لي

بأنك لن تحدثي احداً غيري عن احزانك ولن تفتحي صدرك للآخرين. . . أوه! كوني فخورة وعزيزة الجانب كأمك!

في هـذا الوقت ارتعشت اورتنس اذ سمعت وقـع خـطى زوجها.

- يبدو، قال ونسيسلاس وهو يهم بالدخول، أن ستيدمان جاء لزيارتنا بينما كنت في زيارته.

- حقاً! . . . صاحت أورتنس المسكينة، بسخرية متوحشة لامرأة مهانة تتوسل الكلام لتسدده كالخنجر.

- نعم. تلاقينا منذ حين، أجاب ونسيسلاس وهو يتظاهر بالأستغراب.

- لكن، امس! . . . اجابت اورتنس

- مهلاً! كذبت، يا حبيبتي، وامك ستحكم في ذلك.

فرّجت هذه الصراحة قلب اورتنس. جميع النساء النبيلات حقا يفضلن الحقيقة على المراوغة. لا يطقن ان يشاهدن سقوط عشقهن، بل يشأن البقاء شامخات بسبب كرامتهن التي ارتضينها.

هذا الشعور نجده عند الروس تجاه قيصرهم :

- إصغي إليّ يا أمي . . . قال ونسيسلاس ، إني أحب كثيراً أورتنس اللطيفة والطيبة حتى أني اخفيت عنها مقدار الضيق

الذي نحن فيه . ماذا تقولين ! . . . انها ما زالت ترضع والهموم قد تؤذيها كثيراً. وتعلمين ما ينتظر المرأة من مخاطر في هذه الحالة . إن جمالها ونضارتها وصحتها تصبح جميعها في خطر . هل هذا خطأ ؟ . . . تعتقد بانِنا مدينون فقط بخمسة آلاف فرنك غير أنني مدين أيضاً بخمسة آلاف أخرى . . قبل أمس كنا في حالة يأس ! . . . لا أحد في العالم يُقرض الفنانين . لا ثقة في مواهبنا ولا في نزواتنا . طرقت جميع الأبواب دون طائل قدّمت لنا ليز بت مدّخراتها .

ـ فتاة مسكينة ، قالت أورتنس .

ـ فتاة مسكينة ، قالت البارونة .

ـ لكن ماذا عن الألفي فرنك لليز بت ؟ . . الكل لها ولا شيء لنا . ان نسيبتنا كما تعلمين يا أورتنس حدثتنا عن السيدة مارنيف ، بدافع من محبة الذات ، ويتوجب عليها الكثير للبارون ، ولن تحسب أي فائدة على المبلغ . . أرادت أورتنس ان ترهن ماساتها في مون دي بياتي اذ كنا حصلنا على بضعة آلاف من الفرنكات ونحن يلزمنا عشرة آلاف . هذه العشرة آلاف متوفرة هناك لسنة دون فائدة ! . . . حدّثت نفسي قائلاً : « لن تعلم اورتنس شيئاً عنها فلأستلمها » دعتني هذه المرأة الى الغداء أمس على ان تكون ليز بت أعلمتها بحاجتي الى المال . بين يأس اورتنس وهذا الغداء ما ترددت هذا كل ما جرى . كيف لأورتنس ، وهي في الرابعة والعشرين ، نضرة ، طاهرة

فاصله ، وهي التي وهبتني السعادة والمجد ولم أبتعد عنها منذ زواجنا ، ان يخطر ببالها أني أفضل عليها ، ماذا ؟ . . . إمرأة مخبّزة ، معفنة ، باهتة ، قال وهو يستخدم التعابير القاسية الخاصة بلغة المشاغل حتى يصدق في احتقاره لها وهو يزيد في المبالغات التي ترتاح لها النساء .

ـ آه ! لو كان والدك خاطبني هكذا . صاحت البارونة .

عندها ارتمت أورتنس بلطف على عنق زوجها .

ـ أجل ، هذا ما كنت فعلته ، قالت أدلين . ونسيسلاس ، يا صديقي ، إن زوجتك شارفت على الموت . وأنت ترى كم تحبك . إنها لك ، لا جدل في ذلك ! وتنهدت تنهيداً عميقاً ثم قالت في نفسها ـ بإمكانه ان يضحي بها حتى الاستشهاد او ان يؤمِّن لها السعادة . هذا ما فكرت به كما تفكر جميع الامهات إثر زواج بناتهن . ـ يبدو لي ، أضافت بصوت عال ، أنه مفروض عليَّ التألم حتى أرى اولادي يرفلون بالسعادة .

ـ كوني هادئة يا أمي ، قال ونسيسلاس وهو في منتهى السعادة ، إذ رأى الأزمة تمر بسلام . في شهرين سأعيد المال الى هذه المرأة الرهيبة . ما العمل ؟ أضاف وهو يكرر هذه الجملة ، ذات الطابع البولوني ، وباللطافة البولونية ثمة ظروف نقترض فيها من الشيطان بعد كل ما جرى ، المال هو مال العائلة . وعندما دُعيت هل كنت ، حصلت على هذا المال الذي كلفنا غالياً ، لو رددت على التهذيب بالوقاحة ؟

ـ أوه ! يا أمي ، أي ورطة اوقعنا بها أبي ! صاحت أورتنس .

وضعت البارونة إصبعها على شفاهها فتأسفت أورتنس على هذا التشكي الذي كان أول لوم يفلت بحق ابيها الذي احيط برعاية بطولية من الصمت العالي السمو .

ـ الى اللقاء يا ابنائي ، قالت السيدة هيلو ، عادت المياه الى مجاريها . لكن أوصيكم بالا تغضبوا .

٦٧

الشك يتعقب ضربة الخنجر الأولى

شيّع ونسيسلاس وزوجته البارونة وعادا الى غرفتهما وقالت أورتنس لزوجها : ـ أروِ لي سهرتك !

وراقبت وجه ونسيسلاس أثناء الرواية تقطعها الأسئلة على شفاه إمرأة في مثل حالتها. هذه القصة جعلت من أورتنس زوجة حالمة ، فكانت تلمح الدعابات الشيطانية التي تحلو للفنانين في هذا المجتمع الموبوء .

ـ كن صريحاً ! يا ونسيسلاس العزيز ! . . . كان هناك ستيدمان ، كلودفينيون ، فرنسي ومن غيرهم ؟ . . . بالنتيجة إنك مرحت ! . . .

ـ أنا ؟ . . . لم يخطر ببالي سوى العشرة آلاف فرنك وكنت افكر : « أورتنس ، عزيزتي ستمسي دون متاعب ! »

هذا الاستجواب أنهك الليفوني فاستنسب لحظة مرح ليقول لأورتنس :

ـ وأنت يا ملاكي ، ماذا كنت فعلت لو وجدت أن فنانك مجرم ؟

ـ أنا ، قالت بلهجة يخالطها الشك في التقرير ، كنت تقرّبت من ستيدمان دون أن احبه ، هذا واضح !

ـ أورتنس ! صاح ستانبوك وهو ينهض بسرعة خاطفة وبحركة مسرحية ، ما أحسب أن يكون لك متسع من الوقت ، لأني كنت أجهزت عليك .

قفزت أورتنس الى زوجها وعانقته حتى الخناق وغمرته بالملاطفة والمداعبة وقالت له : ـ آه ! تحبني ! ونسيسلاس ! تصرّف ، فأني لا أخشى شيئاً ! لكن إياك ومارنيف . لا تختلف أبداً الى مثل هذه الأجواء الموحلة . . .

ـ أقسم لك يا عزيزتي ، أني لن اعود الى ذلك المكان إلا لأسحب السند . . .

حردت ، لكن كما تحرد النساء المحبات اللواتي يوددن كسبا مقابل الحرد قام ونسيسلاس ، الذي أنهكته هذه الصبيحة، وترك ، زوجته في حردها وتوجه الى مشغله ليصنع تصميمًا لمجموعة شمشون ودليلها اللذين يحمل لهما رسمًا في جيبه .

أما اورتنس ، التي قلقت من حردها وظنّت أن ونسيسلاس غضب . قدمت الى المشغل في الـوقت الذي كـان ينهي فيه زوجهـا حفر الصلصـال بالغضب الـذي يدفـع بالفنـانين الى النزوات .

عند رؤية زوجته ، رمى بسرعة قماشة رطبة على المجموعة المصممة ثم اخذ أورتنس من ذراعها قائلا :

ـ آه! لم نغضب أليس كذلك يا حلوتي ؟

رأت أورتنس المجموعة والقماشة التي غطتها ولم تقل شيئاً ، ولكنها قبل أن تغادر المشغل عادت وتناولت القماشة ونظرت المخطط الأجمالي وسألت :

ـ ما هذا ؟

ـ مجموعة خطرت في خَيالي.

ـ ولماذا أخفيتها ؟

ـ أحببت أن أطلعك عليها بعد الفراغ منها .

ـ تبدو المرأة رائعة الجمال ! قالت أورتنس .

آلاف من الشكـوك تنبت في نفسها وتنمـو كـما في بـلاد الهنود ، تلك النباتات الكبيرة والملتفة بين ليلة وضحاها .

٦٨

لقية ولد

في نهاية نحو ثلاثة أسابيع ثارت السيدة مارنيف سخطاً على أورتنس . نساء هذا النوع له عزّته . رغبتهن بأن يُناخ لرجسهنّ ولا يغفرْن أبداً للعفة التي لا تخشى بأسهن أو تناضل معهنّ .

وونسيسلاس من جهته لم يقم بأيٍّ زيارةٍ الى شارع فانو ، حتى ولا تلك التي يستدعيها التهذيب بعد تمثّل المرأة لشخصية دليلة ، في وضعية أمامه .

وفي كل مرة كانت ليز بِتْ تزور فيها عائلة ستانبوك لم تكن تعثر على أحد في البيت . فالسيد والسيدة يمضيان أوقاتهما في المشغل .

طاردت ليز بت العاشقين الفتيين حتى عشهما في الكرو- كايّو فرأت ونسيسلاس يعمل بنشاط وعلمت عن طريق الطباخة أنّ السيدة لا تفارق السيد أبداً وأن ونسيسلاس يعاني إذاً من طغيان في الحب .

أما فاليري فتبنّت لحسابها غضب ليز بِتْ نحو أورتنس . يهتم النساء بالعاشقين حتى ينغصن عليهم السعادة كما يهتمّ الرجال بالنساء اللواتي يستقطبن عدداً من المغرورين . والافكار التي راودت السيدة مارنيف تتماشى تماماً مع الرجال ذوي الثراء الفاحش الذين هم من نوع عاهرات ـ رجال .

نزْوة فاليري استحالت الى ثورة غضب ، همّها الأوحد أن تحصل على مجموعتها ورأت ذات صباح أن تقصد المشغل لترى ونسيسلاس لكن حادثاً خطيراً فاجأها.

روت فاليري خبر هذه الواقعة الشخصية ، وهي تتناول الغداء مع ليز بِت والسيد مارنيف .

ـ قل يا مارنيف ! هل يسرّك أن تكون والداً للمرة الثانية ؟

ـ حقاً ما أسمع ، أنت حامل ؟ . . . أوه إسمحي لي أقبلك . . .

ـ نهض ودار حول الطاولة فقرّبت له زوجته جبينها حتى القبلة على شعرها .

ـ منذ هذه اللحظة، صرت رئيس مكتب وضابط في جوقة الشرف! آه هذا اذاً! عزيزتي، لا اريد أن يلحق الأذى بستانيسلاس! المسكين الصغيرا . . .

ـ المسكين الصغير؟ . . . صاحت ليزبت. لم تره منذ سبعة

أشهر، أمرّ الى المدرسة الداخلية كأم لأني الوحيدة التي تهتم به، في هذا البيت.

ـ انه ولد، وننفق في سبيله مئة ريال كل ثلاثة أشهر!...
قالت فاليري. للمناسبة، انه ولدك يا مارنيف! وعليك دفع معاشه من مرتباتك... أما الجديد فلن يعيد الينا ذكريات بائعي الشوربا، بل سينقذنا من بؤسنا...

ـ فاليري، أجاب مارنيف وهو يقلّد كروفيل في جلسته، أعتقد ان السيد البارون هيلو سيهتم بابنه ولن يحمل اعباءه لموظف فقير؛ أشعر كأني اصبحت لجوجاً معه. من الطبيعي ان تحصلي على ضماناتك يا سيدتي، لذا، اسعي ان تحصلي منه على رسائل يعبر فيها عن سعادته لأنه قد لا يهتم بما هو لازم كفاية من أجل تعييني...

ثم ذهب مارنيف الى الوزارة ، لكن صداقته الثمينة لمديره كانت تسمح له بالوصول الى مكتبه في الحادية عشرة ، ومع ذلك فلا ينهي إلا أعمالاً قليلة لعدم أهليته الوظيفية ونفوره من العمل .

ذات يوم كانت فاليري وليزبت وحيدتين فتبادلتا كالعرّافات النظر الى بعضهما البعض للحظات ثم غرقا معاً في قهقهات صارخة.

ـ ماذا يا فاليري، صحيح؟ هل ذلك الا فصلاً مضحكاً؟

ـ انها حقيقة مادّية! أجابت فـاليري. اورتنس تنكـد عليّ حياتي! وعن على خاطري ان اقذف هذا الولد كقنبلة في عائلة ونسيسلاس.

دخلت فاليري الى غرفتها ولحقت بها ليزبت فأطلعتها على الرسالة : ونسيسلاس، صديقي، مازلت اؤمن بحبك مع أني لم أرك منذ عشرين يوماً . هل هذا استخفاف ؟ ان دليلة لا تشعر بذلك. أو هل يكون ذلك نتيجة تعسف امرأة، قلت لي، انك لا تستطيع ان تحبها؟ ونسيسلاس! أنت فنان عظيم لا يسمح لنفسه بأن يذل. الاهتمام بالأسرة: مقبرة المجد... تفحص ذاتك، فهل مازلت شبيه ونسيسلاس شارع دواينه؟ اخفقت في نصب أبي، غير ان العشق فيك يعلو على الفن، انك اكثر سعادة مع الفتاة: انك والد يا معبودي يا ونسيسلاس. ان لم تأتِ لتطّلع على الحالة التي انا فيها فأنتظر أن تكون انساناً مقيتاً بنظر أصدقائك، غير أني، وان أدركت دلك. باقية على حبي المجنون لك، وهو الذي يمنعني بقوة عن لعنك. بامكانى ان اعلن دائمًا اني،

حبيبتك فاليري»

ـ ما قولك بمخططي في ارسال هذا الكتاب الى المشغل حين تكون اورتنس لوحدها؟ امس مساء علمت عن طريق ستيدمان أن ونسيسلاس التزم بمصاحبته في الحادية عشرة، يعمل عنـد

شانور؛ وهكذا تبقى اورتنس العاهرة لوحدها.

ـ بعد لعبة كهذه، أجابت ليزبت، لا يمكنني أن أبقي جهاراً على صداقتك، يجب ان أمنحك فرصة، يفرض الا أراك خلالها حتى ولا أحادثك.

ـ واضح، قالت فاليري؛ لكن...

ـ أوه، خففي عنك، أجابت ليزبت. سنتلاقى بعدما أحصل على لقب عقيلة الماريشال، الكل يريدون ذلك الآن، وحده البارون يجهل هذاالمشروع؛ وأنت تضعين له تصميمًا.

ـ ولكن، اجابت فاليري، من المحتمل ان اتصرف الآن، بلطف مع البارون.

ـ السيدة أوليفييه هي الوحيدة القادرة على مفاجأة اورتنس بالرسالة، قالت ليزبت، لكن قبل ذلك يجب ارسالها الى شارع سان دومينيك قبل ذهابها الى المشغل.

ـ أوه! ظريفتنا الصغيرة ستكون في بيتها، اجابت مارنيف وهي تستدعي رين بواسطة الجرس لترسل بطلب السيدة اوليفييه.

٦٩

والد ثانٍ في غرفة مارنيف

بعد عشر دقائق من ارسال هـذا الكتاب المشؤوم، دخـل البارون هيلو. أسرعت السيدة مارنيف وقفزت كالهرة الى عنق العجوز.

ـ هكتور! انت والد! همست في اذنه. هذا هو معنى المشاجرة ثم المصالحة... وعندما لاحظت فاليري شيئاً من الذهول، لم يستسغه البارون بالسرعة الكافية، فترت همتها قليلاً مما أوهن مستشار الدولة. ثم شرعت تنتزع البراهين القاطعة، الواحد تلو الآخر. ولما تسـرّب اليقين الذي أخذ بيده الخيلاء، الى عقل العجوز، حدثته عن الخوف الذي انتاب السيد مارنيف.

ـ يا عزيزي، أيها المتذمر الدائم، من الصعب عليك الا تعـينّ كاتبـك المسؤول، وكيلنـا، اذا شئت، رئيـس مكتب وضابطاً في جـوقة الشـرف، لأنك هـدمت حياتـه، انه يعبـد ستانيسلاس، هذا المسخ الصغير الذي ينتمي اليـه والذي لا يمكنني ان اهتم له. اعتقد انك تفضل، على الأقل، ان تهب

ستانيسلاس دخلاً من الف ومئتي فرنك على ان يعود لي حق الانتفاع منه.

- اذا عزمت على المداخيل فالافضل ان يكون لابني وليس للمسخ!

هذه العبارة المتهورة حيث ان كلمة «ابني» سرت كنهر واستحالت بعد ساعة من الحوار، الى وعد شكلي من ألف ومئتي فرنك للولد المقبل.

أثر هذا الوعد، بلسان وهيئة فاليري كما يؤثر الدف في جسم ويدي ولد: تدبر ذلك خلال عشرين يوماً.

٧٠

الفرق بين الأم والابنة

بينما كان البارون هيلو، الممتلىء كالمتزوج منذ سنة وينتظر وريثاً، يخرج من شارع فانو، كانت أوليفييه تغري أورتنس بانتزاع الرسالة التي يجب ان تسلّمها الى السيد الكونت، ويداها بريئتان.

دفعت المرأة الشابة قطعة العشرين فرنكاً مقابل تسلمها

الرسالة. المنتحر يدفع ثمن أفيونه ومسدسه وفحمه.

قرأت اورتنس الرسالة ثم اعادت قراءتها، وما كانت ترى سوى هذه الورقة البيضاء الملطخة بالخطوط السوداء، لا شيء في هذه الطبيعة غير هذه الورقة، كل ما حولها اصطبغ بالسواد. إن بهاء الحريق الذي يلتهم بناء سعادتها كان يضيء الورقة، لأن الظلام الدامس كان يحيط بالمكان. صراخ ابنها الذي كان يلعب، يرتطم بأذنها كأنه صاعد من قعر واد وهي في أعلى قمة. أن تهان وهي في الرابعة والعشرين، وفي أوج جمالها مكللة بالحب الطاهر المخلص، فهذا اكثر من طعنة خنجر انه الموت المحقق. الصدام الأول اتسم بالعصبية فقط، فانعصر جسدها تحت خناق الغيرة، غير ان اليقين قبض على النفس فاضمحل الجسد.

ظلت اورتنس عشر دقائق تحت هذا الكابوس. ظهر لها شبح امها وأثار فيها تحولاً، فهدأت وهمدت واستعادت تعقلها ثم دقت الجرس.

ـ فلتساعدك لويز يا عزيزتي، قالت أورتنس مخاطبة الطباخة. عليك وبأسرع ما يمكن ان تهيئي رزماً بكل ما يخصني وكل ما يعود الى ابني. أمهلك ساعة. عندما ينتهي كل شيء احضري عربة من الساحة واخطريني. لا تعليقات! سأترك البيت وأصطحب معي لويز وانت تلازمين السيد؛ اعتني به جيداً...

دخلت غرفتها وجلست الى الطاولة وكتبت الرسالة التالية:

«عزيزي الكونت،

«ان الرسالة الملحقة برسالتي ستشرح لك سبب القرار الذي اتخذته.

«عند قراءتك هذه الاسطر اكون تركت بيتك وانزويت حد امي مع ولدك.

«لا تتوقع أن أعود يوماً الى هذه الحظيرة. لا تثق بنزق الفتوة، وطيشه، وحماسة الحب المهان فسوف ننخدع لا محالة.

«فكرت ملياً، منذ خمسة عشر يوماً بالحياة والحب، بوحدتنا وواجباتنا المتبادلة عرفت في الحياة اخلاص أمي، باحت لي بآلامها! انها بطلة لكل الظروف والأيام منذ ثلاث وعشرين سنة، غير اني لا أشعر بالقوة لأحذو حذوها، ليس لأني أحببتك أقل مما أحبت أبي وتحبه، وانما لمبررات مستقاة من طباعي. أصبحت حياتنا جحيمًا، وقد أفقد صوابي اذا ما اسأت الى كرامتك او كرامتي او كرامة ولدنا. لا يمكنني أن أكون واحدة كالسيدة مارنيف، وفي هذه المهنة، امرأة من طينتي قد لا تتوقف أبداً. اني، ولسوء حظي، من عائلة هيلو لا من عائلة فيشر.

«وحيدة وبعيدة عن مشهد الفوضى عندك، أهتم بنفسي وأنشغل خاصة بوليدنا، حد أمي الشجاعة والطاهرة التي تؤثر حياتها في توترات قلبي المضطربة. هناك، يمكنني أن أكون أماً صالحة لأربي ولدنا وأعيش بينهما في كنفك تقضي الأم في المرأة

والمخاصمات الدائمة تفسد طباعي.

«أقبل الموت المفاجىء، لا ان اقضي حياتي مريضة خمساً وعشرين سنة كأمي. وإن كنت خنتني بعد ثلاثة أعوام من الحب المطلق والمستمر مع خليلة حميك، فأية عداوات لا توفرها لي مستقبلاً؟ آه! أيها السيد، بدأت، في وقت مبكر جداً عما بدأ أبي، سلوك الفسق والتبذير الذي يذل رب العائلة ويقلل من احترام الأبناء وفي النهاية، الخجل واليأس.

«لست قاسية القلب. المشاعر الصلبة لا تتوافق أبداً مع المخلوقات الضعيفة التي تعيش بذمة ربها. اذا فزت بالثروة والمجد عن طريق الأشغال المستقيمة، واذا تنكرت للعاهرات وللمسالك الخسيسة والموحلة، فانك واجد امرأة تستحقك.

«أتوسم فيك الكبر فلا تلجأ الى القانون. أظنك تحترم مشيئتي يا سيدي الكونت اذ تبقي عليّ عند أمي ولا تزورني مطلقاً. تركت لك كل المال الذي اقترضته من تلك المرأة الفاجرة. الوداع!

أورتنس هيلو»

كتبت اورتنس هذه الرسالة بعد عناء كانت خلاله تستسلم للبكاء ولعويل العاطفة المخنوقة. وكانت تتخلى عن القلم ثم تمسك به لتعبر ببساطة عما ينشده الحب غالباً في مثل هذه الرسائل الوصايا. كان القلب يزفر بالتعجب والشكوى

والدموع؛ غير أن العقل هو الذي كان يملي على القلم.

ثم أبلغت لويز السيدة الشابة أن كل شيء أصبح جاهزاً فجالت السيدة على مهل في الجنينة والغرفة والصالون، والقت النظرة الأخيرة على كل شيء فيها. بعدها زودت الطباخة بأهم التوصيات حتى تسهر على راحة السيد، واعدةً اياها بمكافأتها لو حافظت على شرفها.

أخيراً استقلت العربة قاصدة أمها والقلب منكسر، وهي تسكب الدمع حتى آلمت خادمتها، وراحت تنهال على ونسيسلاس الصغير بالقبلات وبفرح جامح مازال يقدر بالحب الموجه للأب.

سبق للبارونة ان علمت بواسطة ليزبت ان العم مسؤول الى حد بعيد عن غلطة صهره، فلم تفاجأ بوصول ابنتها ووافقتها على رأيها وقررت الاحتفاظ بها بجانبها.

ان أدلين التي خبرت ان اللطف والاخلاص لم يحدّا من مسلك هكتور الذي بدأ اعتبارها له يتناقص، رأت ان ابنتها على صواب في اختيارها طريقاً آخر.

تلقت الأم المسكينة في عشرين يوماً جرحين فاقت آلامها جميع العذابات الماضية. كان البارون وضع فيكتوران وزوجته في الضيق؛ ثم انه كان السبب، حسب ليزبت، في تعثر ونسيسلاس وافساد صهره.

مهابة رب هذه العائلة تساقطت بعد رعاية لفترة طويلة بالتضحيات الخرقاء. ودون أسف على المال، بدأ الشك والقلق من البارون يساور عائلة هيلو الفتية. هذا الشعور الذي أصبح ظاهراً، كان يحزن أدلين بعمق فتحدس بقرب انحلال العائلة.

٧١

الأب الثالث لغرفة مارنيف

اسكنت البارونة ابنتها في غرفة الطعام التي تحولت بسرعة الى غرفة نوم بفضل أموال الماريشال وتحولت الغرفة المقابلة، كما في كثير الأسر، الى غرفة الطعام.

عندما دخل ونسيسلاس الى البيت وفرغ من قراءة الرسالتين، أحس بالفرح المغمّس بالحزن.

لو كان محاطاً بحراسة ظاهرية من زوجته فإن نفسه تمّردت على هذا السجن الجديد سجن ليز بت. لم يمنعه الحب العارم منذ ثلاث سنين عن أن يفكّر خلال الخمسة عشر يوماً. هو أيضاً، ويرى في العائلة حملاً ثقيلاً. إضافة الى أن ستيدمان أثنى على العاطفة التي اكتشفها في فاليري، متوخياً من فكرة راودته، أن

يقدِّر كبرياء زوج اورتنس دون أن يسلو تعزية الضحية. بانت على ونسيسلاس ملامح الغبطة لتمكنه من العودة الى السيدة مارنيف. غير أنه تذكّر السعادة الكاملة والطاهرة التي تمتع بها وتذكّر اكتمال اورتنس المثالي وحكمتها وبراءتها وحبّها الهادىء فحزَّ في نفسه الأسف المضني.

عزم أن يسرع الى حماته ليحصل منها على المغفرة، لكنه تصرَّف مثل هيلو وكروفيل، وذهب ليقابل السيدة مارنيف التي حمل لها رسالة زوجته ليطلعها على الكارثة التي سببتها، وبمعنى آخر ليسقط هذه المصيبة بطلبه من عشيقته توفير المتع عند العودة

كان كروفيل عند فاليري. كان العمدة المنفوخ بالتكبر يزرع الصالون جيئة وذهاباً كإنسان أرعشته المشاعر العبثية. قعد في مكانه وكأنه يهم بالكلام، فلا يجرؤ. كانت جبلّته تتألّق، ويركض الى النافذة لينقر بأصابعه على الزجاج. كان يتطلّع الى فاليري بتأثر وحنان. ولحسن حظ كروفيل دخلت ليز بت.

ـأيتها النسيبة، همس في أذنها، هل تعلمين الخبر؟ إني والد يبدو أن حبي للمسكينة سيليستين خفّ. أوه! ماذا يعني أن يكون لي ولد من إمرأة أعبدها! إنه التحام ابوة القلب بأبوة الدم! أوه! فهمت، قولي ذلك لفاليري! سأجدّ من أجل هذا الولد، أريده غنياً! أعلمتني أنها تعتقد، نظراً لبعض التشخيصات، بأن المولود قد يكون صبياً! اذا صحّ ذلك، أريد ان يسمّى كروفيل: سأستشير كاتب العدل صديقي.

ـأعـرف تماماً كم تحبك، قـالت ليز بت، لكن بـاسم مستقبلك ومستقبلي، تروَّ، ولا تفرك يديك طوال الوقت.

ـبينما كانت ليز بت تجري حديثها الجانبي مع كروفيل، كانت فاليري تطلب الى ونسيسلاس استرداد رسالتها وأسرّت في أذنه غايات بدّدت حزنه.

ـها انت حرّ يا صديقي. هل يعرض على الفنانين الكبار أن يتزوجّوا؟ لا تجد نفسك الا بالنزق والحرية! إعلم أني أحبك كثيراً، يا شاعري الحبيب فلا شيء يؤسف له عند زوجتك. لكن مع كل هذا، وإذا أردت كمعظم الناس، أن تحتفظ بأدب التصرف، اهتم أنا بأعادة اورتنس الى البيت في وقت قصير. .

ـأوه! لو كان ذلك ممكناً؟

ـإني على يقين من ذلك، قالت فاليري الملسوعة. إن حمّاك المسكين انتهى على جميع الأصعدة ، وبرغبة من أنانيته يتظاهر بأنه محبوب، ويريد ان يقنع الآخرين بأن له معشوقة، ويعوّل كثيراً في تيهه عـلى هذه النـاحية، حتى بسـطت عليه سلطتي كاملة. ما زالت البارونة تحب كثيراً العجوز هكتور (يبدو لي احياناً أني اتكلم على الألياذة) والعجوزان قادران عـلى انتزاع المصالحة من أورتنس. الشرط الوحيد حتى لا تلقى الصواعق في بيتك، الاّ تطيل غيابـك حتى العشرين يـوماً دون ان تـزور عشيقتك. . قد أموت.عزيزي، يجب، إن كنت شهمًا، أن تلتزم

مراعاة جانب إمرأة تعرّضت للشبهات حتى الحدّ الذي صرت اليه وخاصة عندما تتراكم على هذه المرأة المشاغل الواجب اتخاذها للمحافظة على شهرتها... إبق للغداء، يا ملاكي... واعلم أني سأضطر الى مواجهتك بالبرودة ما دمت ترتكب هذه الغلطة الفادحة.

٧٢

الآباء الخمسة لكنيسة مارنيف

منذ إعلان وصول البارون مونتيس، نهضت فاليري الى ملاقاته فهمست له للحظات في أذنه واتفقت معه على التحفظات نفسها التي جرت مع ونسيسلاس، للحفاظ على وضعها، فالبرازيلي له وقفة ديبلوماسية وظفها للخبر العظيم الذي افعمه بالفرح، كان متأكداً من ابوته!...

ـبفضل هذه الستراتيجية المدعومة بأنانية الرجل العاشق، استقطبت فاليري على طاولتها أربعة رجال فرحين ونشيطين ومفتونين، مقتنعين بأنهم جميعهم محبوبين ثم ان السيد مارنيف سمّى لليزبت مازحاً آباء الكنيسة الخمسة وفهمت المقصود من ذلك.

ـالبارون هيلو هو الوحيد الذي أبدى جانباً من الشكوك، والسبب أنه عند مغادرته غرفته، توجّه الى مدير الموظفين وهو جنرال ورفيقه منذ ثلاثين سنة وكلّمه بموضوع تعيين مارنيف مكان كوكي الذي يرضى بتقديم استقالته.

ـصديقي العزيز، قال له، لا أرى من المناسب أن أطلب هذه الترقية الى الماريشال دون ان نكون على اتفاق وأنال رضاك في ذلك.

ـصديقي العزيز، أجاب مدير الموظفين، إسمح لي ان الفت نظرك انه فيما يعود اليك لا يجوز ان تلحّ على هذا التعيين. أوضحت لك رأيي. سيكون ذلك فضيحة في المكاتب حيث يلهج الناس كثيراً بك وبالسيدة مارنيف. فليكن هذا بيننا. لا أقصد أن أتعرض لمسألة حسّاسة ولن اكدّر حياتك مهما كان السبب سأقدم لك البراهين. إذا تمسكت بهذا التعيين دون رجعة، وأصررت على وظيفة السيد كوكي الذي يشكل بالواقع، خسارة لمكاتب الحرب (شغل ذلك منذ ١٨٠٩)، سأرحل لخمسة عشر يوماً الى الريف حتى أترك لك ميدان التصرف حرّاً وخاصة لدى الماريشال الذي يحبك كأبنه وهكذا لن أكون مؤيداً ولا معارضاً ولا اتصرف بما يخالف ضميري المهنّي.

ـأشكرك، أجاب البارون، سأفكر بما عرضته عليّ الآن.

ـإذا سمحت لنفسي بهذه الملاحظة، أيها الصديق العزيز،

فذلك يتوافق مع مصلحتك الشخصية اكثر مما يعود لعملي أو لأنانيتي. الماريشال هو السيد قبل غيره. ثم يا صديقي العزيز ستؤاخذ على أمور كثيرة وليس على أمر زاد أم نقُص! نحن لسنا في مأمن من النقد ولم نحتفظ ببكارتنا بالنسبة لهذا الموضوع. في ظل الاصلاح عُينّ أناس من أجل المرتبات لا من أجل الاهتمام في القيام بخدمة الوظيفة... نحن رفقاء قدامى....

ـنعم، أجاب البارون، ومن المستحسن، حتى لا نلّون صداقتنا القديمة والعزيزة أن...

ـهيّا، تناول مدير الموظفين الحديث، عندما رأى الارتباك بادياً على محيّا هيلو، سأرحل يا رفيقي.. لكن احذر! لك أعداء يطمعون بمعاملتك الممتازة، وأنت لست معتمداً في تثبيت سفينتك الا على مرساة واحدة. آه! لو كنت نائباً مثلي، لما خشيت شيئاً، لذا أدعوك الى الحيطة...

ـهذا الحوار، المغمور بالصداقة، أثار انطباعاً حاداً لدى مستشار الدولة.

ـوأخيراً يا روجيه، ماذا بعد؟ لا تخفي شيئاً عليّ!.

إن الذي دعاه هيلو روجيه، نظر الى هيلو وتناول يده وشدّها اليه.

ـنحن أصدقاء قدامى فلا ابخل بإبداء رأي. إذا رغبت

بالبقاء، عليك ان تصنع سرير راحتك بيدك. والآن. وأنت في هذه المكانة، بدلاً من أن تطلب الى الماريشال وظيفة السيد كوكي لمارنيف ألتمس منه ان يحتفظ لي بمجلس الدولة في وظيفته العادية أو أموت بهدوء، أو كحيوان القندس أترُك الادارة العامة للمصطادين.

-كيف؟ فالماريشال ينسى..

-يا صديقي دافع الماريشال عنك بقوة في مجلس الوزراء مما لا يحتمل أبداً أن تُقال، فالمسألة عُرضت ونوقشت!... لا أريد أن أضيف الى ذلك كما لا أريد تعليقاً منك... في هذه الحال بإمكانك ان تملي شروطك، أن تكون مستشار دولة وعمدة فرنسا، وإن كنت تنتظر اكثر من ذلك، وإن تمكنت من نفسك لا تعليق لي.... يجب أن أرحل...

-إنتظر سأرى الماريشال، أجاب هيلو وسأرسل أخي يطّلع على الأمر في المكان المناسب.

من هنا نفهم بأي مزاج عاد البارون الى السيدة هيلو حتى كاد ينسي انه والد لأن روجيه أظهر له عمق الرفقة وأصالتها عندما وضح له وضعه.

مع ذلك كله، كان هذا تأثير فاليري، فخلال مأدبة الغداء، عاد البارون الى سابق تآلفه وتمتّع بمقدار من البهجة يعادل مقدار ما عنده من هموم عليه أن يخنقها، غير أن هذا

البائس، لم يخطر بباله أنه، في هذه الأمسية، سيجد نفسه بين سعادته وبين الخطر الذي أشار اليه مدير الموظفين يعني ان يختار بين السيدة مارنيف ومكانته.

٧٣

استغلال للأب

في نحو الحادية عشرة، حيث بلغت السهرة ذروتها من الحيوية وكان الصالون مكتظاً بالناس، أخذت فاليري هكتور الى زاوية من أريكتها.

-صديقي العجوز، همست في أذنه، إن ابنتك غضبت بشدة لأن ونسيسلاس يتردّد الى هنا، وها انت تراه الآن مزروعاً بيننا. أي دماغ سيّىء تحمله أورتنس. اطلب الى ونسيسلاس أن يطلعك على الرسالة التي كتبتها له هذه الحمقاء. إن انفعال العاشقين، هذا الذي يقحمونني به كسبب له، قد يوقع بي شراً لا أتوقعه، هل هذه هي طريقة في الخصام بين النساء الفاضلات؟ إنه لمن العيب أن نحّمل ذلك، الضحية، ونقذف باللوم إمرأة لا ذنب ارتكبته سوى انها تملك بيتاً مرحاً. إذا كنت تحبني تبرِّىء ساحتي وتعيد العاشقين الى موطنهما. لست على

رغبة منذ الآن لاستقبال صهرك، فهو أنت الذي أتيت به وأنت تبعده! لو كان لك من السلطة في عائلتك فانه يبدو لي انك قادر على الأيعاز إلى زوجتك لتقوم برأب الصدع بلّغ هذه العجوز الصالحة ، أنه إذا اتهمت زوراً وخطأ بأني عكّرت صفو عائلة فتية وفكّكت وحدتها واستأثرت بالوالد والصهر معاً فأني استحق شهرة إرباكهما على طريقتي ها إن ليزبث تلهج بتركي!... تفضّل عليّ عائلتها، لا أريد ان اعاتبها على تصرفها. لن تبقى هنا، كما قالت لي، الا إذا تصافى العاشقان، كما ترى، فرغنا من كل شيء. فالأنفاق تضاعف ثلاث مرات هنا!...

ـأوه! أما بالنسبة الى هذا الموضوع، قال البارون إذ تفهم سورة ابنته، فسأهتم بمعالجته.

ـوغير ذلك؟ ومركز كوكي؟...

ـهذا الشأن، أجاب هكتور مخفضاً عينيه، صعب جدّاً، حتى لا أقول مستحيلاً!..

ـمستحيل، يا عزيزي هكتور، همست السيدة مارنيف في أذن البارون، أرى أنك لا تدري الى أي حدّ يتحمّل مارنيف، إني في سلطته، وهو سيّء السيرة وفظّ الخلق عند مصلحته ، كمعظم الرجال، ميّال للانتقام على شاكلة النفوس الضعيفة والعقول المريضة. في هذا الموقف الذي دفعتني اليه، اضطر أن أمتثل لمشيئته واتصالح معه لبضعة أيام يرى نفسه عندها أهلاً

لملازمة غرفتي قام هيلو بوثبة غريبة ومذهلة.

-يتركني هادئة شرط أن يعينّ رئيس مكتب. مخرج معيب لكنه منطقي.

-هل تحبينني يا فاليري؟ . . .

-يا عزيزي، إن سؤالاً كهذا وفي هذا الظرف الذي أمر فيه، تظلّم خادم.

-إسمعي! إذا سعيت لدى الماريشال بشأن مركز لمارنيف، فلن اكون عندها شيئاً.

-كنت اعتقد أنك والأمير صديقان حميمان، .

-دون شك، وهو أثبت لي ذلك، لكن يا بنيتي، فوق الماريشال، موظّف أعلى رتبة، ثم مجلس الوزراء على سبيل المثال. . مع بعض الوقت والمخاتلة، نبلغ مرامنا. حتى نفوز بمطلبنا يجب انتظار المناسبة التي يطلبون فيها مني اية خدمة ساعتئذ يمكنني ان اقول: كما تراني يا جميل أراك. . .

-لو قلت هذا لمارنيف، يا هكتوري المتعب، لورّطنا في مطّبات نحن بالغنى عنها. خذ الأمر على عاتقك وقل له بنفسك إن عليه أن ينتظر، لن أتحمل عبء ذلك، أوه! أعرف قدري، فهو يعرف كيف يقتصّ مني، فلن يغادر غرفتي. . . لا تنسى الألف ومئتي ليرة العائدة لدخل الصغير.

عندما أحس هيلو أن لذّته مهدّدة استدعى السيد مارنيف على حدة، ولأول مرة تخلّ عن لهجته المستعلية التي حافظ عليها حتى الآن، ويبدو أنه تخوف من مشهد هذا المحتضر في غرفة هذه المرأة الجميلة.

-يا عزيزي مارنيف، وضعك كان مدار بحث هذا اليوم! لكن لن تتبوأ مركز رئيس مكتب في الحال... يجب الانتظار بعض الوقت.

-يجب ان اكونه للحال، يا سيدي البارون ، أجاب مارنيف بوضوح.

-لكن، يا عزيزي...

-يجب أن أكونه يا سيدي البارون، كرّر مارنيف ببرودة وهو ينظر تباعاً الى البارون والى فاليري. أحرجت زوجتي ودفعتها الى مصالحتي، وأحيطها برعايتي ، فهي فاتنة يا صديقي العزيز، قالها بسخرية مخيفة. أنا السيد هنا اكثر منك في الوزارة.

شعر البارون في قرارته بنوع من الآلام التي تحدث في القلب صرير أسنان، مما جعل الدموع تنحبس في عينيه.

أثناء هذا المشهد القصير، كانت فاليري أبلغت هنري مونتس، إرادة مارنيف المزعومة فأبعدته لبعض الوقت.

من الأصدقاء الأربعة، استثنى كروفيل، وحده من هذا التدبير باعتباره مالكا لمحل تجاري صغير، وقد ظهر مغتبطاً الى حدٍّ الغطرسة بالرغم من التوبيخ الذي كانت توجهه فاليري عبر تجهّمات حاجبيها وإيماءاتها المعبّرة، لكنّ ابوته المشعّة غيرت كل تقاسيمه.

وعلى أثر عبارة تأنيب وجهتها فاليري في أذنه، أمسك يدها وأجاب:

ـفي الغد، يا دوقتي ستستلمين منزلك الصغيرا .. غداً صباحاً سيتم التلزيم النهائي.

ـوالمتاع؟ أجابت وهي تبتسم.

ـأملك الف سهم في فرساي، في الضفة اليسرى، اشتريت الواحد بمئة وخمسة وعشرين فرنكاً يساوي الآن ثلاث مئة بسبب دمج الطريقين حيث كنت مطّلعاً على سرّية ما يجري. ستتمتعين بأثاث ملوكي!... شرط ألّا تكوني إلّا لي، اليس كذلك؟...

ـنعم أيها العمدة الضخم، قالت مقلدة السيدة مورتويل البورجوازية وهي تبتسم، لكن من أجل المركزا احترم في السيدة كروفيل المنتظرة.

ـنسيبي العزيز، قالت ليزيت للبارون سأكون في الغد

باكراً عند مادلين وأنت تدرك أنني لياقة، لن أستطيع البقاء هنا. سأتوجّه عند اخيك الماريشال لأقوم بخدمة منزله.

-إني عائد الى البيت هذا المساء ، قال البارون.

إذاً فإني آتية لتناول الغداء، أجابت ليزبت وهي تبتسم.

٧٤

سعادة حزينة

أدركت مقدار أهمية حضورها في لقاء العائلة المتوقّع في الغد. فمنذ الصباح قصدت فيكتوران الذي اعلمته بانفصال أورتنس وونسيسلاس.

عندما دخل البارون الى البيت في نحو العاشرة والنصف مساء كانت ماريبيت ولويز، اللتان قضتا يوما متعباً، أقفلتا باب الشقة مما يعني ان هيلو لم يكن بحاجة الى دقّ الجرس.

راح الزوج المتناقض مع القيم الفاضلة الى غرفة زوجته فرآها من خلال الباب المشقوق جاثمة أمام المصلوب، غارقة في الصلاة وفي إحدى الوضعيات التعبيرية التي تخط طريق المجد

للرسامين او النحاتين الذين ينتشون بالسعادة عند تحقيق اعمالهم بعدما يعتروا على تلك الوضعيات.

إن أدلين، المأخوذة بالتعظيم كانت تبتهل بأعلى صوتها: «يا إلهي، اشملنا بنعمتك وأنر له طريق الخلاص!...»

كانت البارونة بذلك تصلي من أجل هكتور.

تجاه هذا المشهد المختلف كثيراً عن المشهد الذي كان تخلّ عنه وهو يسمع الجملة التي أملاها حادث هذا اليوم، افلت البارون، الذي احسّ بالحنان، زفرة مسموعة. اعتقدت البارونة ان صلاتها استجيبت فوثبت من مكانها وتمسّكت بهكتور بقوة أمدّتها بها العاطفة السعيدة.

كانت أدلين نزعت كل مصلحة لها كزوجة فالألم قضى حتى على الذكريات. لم يبق فيها إلا الأمومة وشرف العائلة والتعلق الأكثر طهراً لزوجة مسيحية بزوجها الضالّ، هذا الحنان المقدّس الذي فاق أيّ شيء في قلب المرأة.

- هكتور! عدت إلينا اخيراً؟ هل يأخذ الله بيد عائلتنا ويشفق علينا؟

- عزيزتي أدلين! أجاب البارون وهو يُدخل زوجته ويجلسها على اريكة حذّه، انت أقدس مخلوقة عرفتها، منذ زمن طويل وأنا في حالة، لا استحقك معها.

- عليك ان تقوم بعمل بسيط يا صديقي، قالت وهي تأخذ يد

هيلو وترتجف بشدة وكأنها اصيبت بصدمة عصبية ، قليل من العمل تعيد الأمور الى نصابها .

لم تجرؤ على مواصلة الكلام ، احست ان كل عبارة تشكل ملامة ، وهي لا رغبة عندها في تعكير بهجتها التي افاضها هذا اللقاء سيولاً على نفسها .

ـ اورتنس قادتنا الى هنا ، أجاب هيلو . قد تصيبنا هذه الأبنة الصغيرة بشرّ ، نظراً لسلوكها المتهوّر ، وهذا لم يحصل لنا نتيجة تعلقي المهووس بفاليري . سنتحادث في كل شيء غداً صباحاً . ان اورتنس تنام ، قالت لي ماربيت ، فلنتركها بسلام .

ـ نعم ، أجابت السيدة هيلو التي انتابتها فجأة حالة حزن عميقة .

فهمت ان البارون عاد الى عائلته مدفوعاً ليس برغبة عائلية صرفة بل برغبة خارجية .

ـ فلنتركها هادئة كذلك غداً ، قالت البارونة لأن الفتاة المسكينة تمرّ في حالة مؤلمة . إنها بكت طوال هذا اليوم .

٧٥

أي دمار تحدثه السيدات كمارنيف في قلب العائلات

في الغد عند التاسعة صباحاً، وعندما كان البارون ينتظر ابنته التي أرسل بطلبها، متمشياً في الصالون الكبير المهجور يبحث عن الحجج المناسبة لأقناع التصلّب الأشد صعوبة في الترويض، إنه عناد إمرأة قست لأنها أهينت، تماماً كالشباب المعصوم عن التأنيب والذي لم يتعرّف الى مداراة العالم المخجلة لأنه يجهل الأهواء والرغبات.

ـها أنا. يا أبي! قالت أورتنس بصوت يرتجف اذ أشحبتها الأحزان . أخذ هيلو الذي يجلس على كرسي ابنته بخصرها وشدّها لتجلس على ركبتيه.

ـنعم يا بنيّتي! قال وهو يقبّلها في جبينها، إذاً في العائلة مشاكل ونحن صُرعنا جميعاً لهذا ! . . لا أنتظر ذلك من فتاة ذات نشأة مميّزة. لا يجوز لأورتنس حبيبتي أن تتبنىّ لوحدها قراراً

حاسمًا كتركك البيت مثلاً او هجرك زوجك دون مشورة الأهل. لو أن عزيزتي أورتنس قدمت لزيارة امها الفاضلة والرائعة لما أثارت في نفسي الألم العميق الذي يحزّ قلبي!... لم تتعرفي بعد على العالم، إنه شرٌّ كلّه. هذا يتيح لنا ان نقول ان زوجك هو الذي طردك الى أهلك. إن الأولاد الذين نشأوا مثلك، في الحجر الأموي، يطول أمد عمرهم الطفولي اكثر من الآخرين ولا يكتشفون الحياة! إن العاطفة البسيطة والنضرة كالتي تحملينها لونسيسلاس لا اراها، لسوء الحظ، تساوي شيئاً أبعد من خطواتها الأولى التي تكتفي بها. قلبنا الصغير يرحل ويتبعه العقل. تُحرق باريس، فقط، للانتقام ودون التفكير بمحكمة الجنايات! عندما يقول لك والدك العجوز إنك لم تحافظي على اللياقات، فبامكانك ان تصدّقيه، ولن أحدّثك مرة ثانية عن الألم العميق الذي انتابني، إنه شديد المرارة، ذلك أنك ترمي بالتهمة، إمرأة لم يتعرّف قلبها إليك وعداوتها قد تصبح شيئاً مرعباً... هيهات! انت المزوّدة بالنيّة السليمة، أنت البريئة الطاهرة، لا يعلو الشك إليك: قد تقذفين بالأعمال الوسخة والافتراءات المزورة. فيا عزيزي الملاك الصغير، اخذت على محمل الجد مزاحاً وأنا أؤكد لك أنني استطيع ان أتكفل براءة زوجك. السيدة مارنيف...

الى هذا الحد والبارون، كفنان في الديبلوماسية، يعالج ببراعة فائقة إنذاراته التأنيبية فهو عمل بدراية فائقة، كما نلحظ

لأقحام هذا الاسم ولكن أورتنس، عند سماعها اياه اهتزت كشخص جُرح حتى الصميم.

ـإصغي إلي، ان لي خبرتي وراقبت كل شيء، تابع الأب ليمنع ابنته من الكلام. هذه السيدة تعامل زوجك ببرودة متناهية. نعم. كنت موضوع خداع وسأقدِّم لك البراهين. بالأمس كان ونسيسلاس على الغداء...

ـكان على الغداء هناك؟... سألت الزوجة الشابة وهي تنتصب على قدميها وترمق أباها برعب ارتسم على وجهها. بالأمس! بعد ان اطلع على رسالتي؟... أوه! يا إلهي!.. لماذا لم أدخل الى الدير بدلاً من الزواج! حياتي ليست ملكي! أضافت وهي تنتحب

بلغت هذه الدموع قلب السيدة هيلو فخرجت من غرفتها وأسرعت الى ابنتها وضمتها بين ذراعيها وأمطرتها بوابل من الأسئلة البليدة بسبب الألم، كانت الأسئلة الأولى التي ظهرت على الشفاه.

ـوالدموع أيضاً!... حدّث البارون نفسه ، كانت الأمور تسير على ما يرام! لكن الآن ، ما العمل مع نساء يبكين؟...

ـبنيّتي، قالت البارونة لأورتنس، أصغي إلى أبيك! إنه يحبنا،ترويّ...

ـما بك! أورتنس، يا بنيتي العزيزة، لا تبكي، ستصبحين بشعة، قال البـارون. هيّا ! بعضـاً من التعقل. عـودي الى أسرتك وأعدك ان ونسيسلاس لن يطأ هذا البيت. أطلب اليك هذه التضحية إذا اعتبرت تضحية تبرئة خطأ بسيط لزوج تحبّينه! .طلب إليك ذلك إكراماً لشعري الشائب وللحب الذي تكنينه لأمـك... أنت لا تحبين ان تمـلأي أيامي الأخيـرة بـالمـرارة والغم!...

ارتمت اورتنس كالمجنونة على رجلي ابيها بحركة يائسة حتى ان انفلت شعرها الذي أسيء ربطه ، ثم رفعت اليه يديها بشكل ارتسم فيه يأسها.

ـأبي، إنك تطلب حياتي! خذها إن أردت، لكن، على الأقل، خذها نقيّة وغير ملوثة، بالتأكيد وبكل سرور سأضعها بتصرفك. لا تطلب مني ان اموت ذليلة ومجرمة! لست شبيهة بأمي! لا يمكنني ان التهم المهانات! لو عدت الى الحياة الزوجية فقد يجوز ان أجهز خنقاً على ونسيسلاس في ثورة من الغيرة او ان أسيء أكثر. لا تسألني اموراً تجاوز طاقاتي. لا تبكني وانا على قيد الحياة! الحل الانسب عندي، ان اصاب بالجنون... أشعر بالجنون على بعد خطوتين مني! بالأمس! بالأمس! كان يتغدّى عند هذه المرأة بعـد أن أطّلع على رسـالتي!... هل الرجال الآخرين هم على هذه الشاكلة؟... أسلمـك حياتي شرط ألّا يكون الموت مخزياً!... غلطته؟... بسيطة!... أن

يكون له ابن من هذه المرأة!.

ـابن؟ قال هيلو بعد ان تراجع خطوتين الى الوراء. ماذا! بالتأكيد لا يعدو ذلك كونه مزاحاً.

في هـذه اللحظة دخـل فيكتوران والنسيبـة بت ووقفـا كالبليهين أمام هذا المشهد. الابنة جاثمة الى رجلي والدها البارونة التي خرست وتنازعها الشعورالأمـوي والشعور الـزوجي، بان الارتباك على وجهها الذي تبلل بالدموع.

ـليزيت، قال البارون وهو يأخذ هذه العانس بيدها ليرتبها أورتنس، بمستـطاعك أن تُقـدمي الى مساعـدتي. أديـر رأس أورتنس، فهي تعتقد أن السيدة مارنيف تحب ونسيسلاس بينما القصد كان الحصول على مجموعة من عمله.

ـدليلة، صرخت الزوجة الشابة، هي الشيء الوحيد الذي أنهاه في وقت قصير، منذ زواجنا. هذا الانسان لا يقدر أن يشتغل من أجلي أو من أجل ولده، فيما اشتغل لهذه التافهة بنشاط وحماس... أوه! إنهُ حياتي يا أبي، فكل كلمة تتفوّهون بها تحزّ في صدري كطعنة خنجر.

هزّت ليزيت كتفيها بحركة تثير الشفقة، متوجهة بذلك إلى البارونة وفيكتوران حيث أشارت الى البارون الذي يستطيع أن يراها.

ـإسمع أيها النسيب، قالت ليز بت، أنا لا اعرف ماذا

كانت السيدة مارنيف عندما رجوتني أن أسكن فوق بيتها وأستلم تدبيره، غير أننا في ثلاث سنين نطلع على أمور كثيرة. هذه المخلوقة صبيّة! وإفساد، صبية تصعب مقارنته الا مع زوجها البشع والمقيت. إنك المخدوع الأكبر بين هؤلاء الناس، سيقودونك الى أبعد مما تتصّور! هذا ما ألزمني لأكلمك بهذه الصراحة ذلك أنك الآن في قفر هوّة.

عندما سمعت البارونة وابنتها ليزيت تتحدث بهذه اللهجة، ألقتا عليها نظرة شبيهة بنظرات المتعبّدين يشكرون السيدة العذراء لأنها انقذت حياتهم.

ـأرادت هذه المرأة الرهيبة أن تعكّر حياة أسرة صهرك، أما الهدف، فلا أعرفه، لأن ذكائي محدود فلا يمكنه أن يتبين بوضوح في هذه الطبّات المعتمة، المضطربة الفاسدة، السافلة. إن سيدتك مارنيف لا تحب صهرك لكنها تريده صاغراً أمامها حبّاً بالانتقام. عاملت هذه البائسة كما تستحق، إنها غانية لا حشمة عندها. صارحتها بأني عازمة على التخلي عن بيتها وأني أريد ان أنقذ كرامتي من هذه الوحلة.... انا ابنة عائلة قبل اي شيء. علمت ان ابنة عمي الصغيرة. تركت ونسيسلاس فجئت! إن سيدتك فاليري التي تعتبرها قديسة هي سبب هذا الفراق القاسي، هل أستطيع ان ابقى عند مثل هذه المرأة؟قد تكون صغيرتنا العزيزة أورتنس، قالتها وهي تلمس ذراع البارون بأسلوب دالّ، ، موضوع خدعة رغبة هذا النوع من النساء

اللواتي يضحّين بعائلة كاملة لتحصل على جوهرة. لا أظن أن ونسيسلاس مجرم ولكني اعتقده ضعيفاً ولا أقول انه لا يستسلم الى الإغراءات المشذبة. اتخذت قراري. هذه المرأة هي النحس في حياتك، وستضعك على الحصير. لا أريد أن أكون مساهمة في تهديم عائلتي، أنا التي ما كنت منذ ثلاث سنين الا لأمنع هذا الخراب. منعت حدوثه. خُدِعت يا نسيبي. قل لي بصراحة وحزم بأنك لن تهتّم بتعبين هذا الابله السيد مارنيف وسترى ماذا يحصل! ستشذب لك اسواط لاسعة من أجل هذه الحالة.

أنهضت ليزبت ابنة عمها الصغيرة وعانقتها بعاطفة شديدة وهمست فى أذنها...

-عزيزتي أورتنس، لا عليك، قبّلت البارونة النسيبة بت بحماس إمرأة رأت نفسها انتقمت. العائلة بكاملها التزمت الصمت العميق حول هذا الأب المرهف الحس الذي لم يكتشف معنى هذا الصمت. ثم سرى الغضب في جبهته وعلى وجهه بسمات واضحة، تضخمت العروق وامتلأت العينان بالدم وامتقع لونه.

ارتمت أدلين بسرعة أمامه على ركبتيها وأمسكت يديه: -صديقي، صديقي، العفو!

-إني مذنب بحقّك، إني مقيت! قال البارون تاركاً لصرخة ضميره حرّية الأنسياب.

نحن جميعاً في سرٍّ أخطائنا. نفترض ، معظم الأحيان، في ضحايانا المشاعـر الغاضبـة التي يمليها عليهم حب الانتقـام، وبالرغم من نشاط النفاق والمراوغة فإن لساننا ووجهنا يكشف عنّا في أقلّ ارتباك غير متوقّع، كما يعترف المجـرم بين يـدي الجلّاد.

ـان اولادنا ينتهون الى أعدائنا، قال البارون محاولاً العودة الى مقصده.

ـأبي. . . قال فيكتوران. . .

ـتقاطع أباك!. . . أجاب البـارون بصوت صـاعق وهو يرمق ابنه.

ـتروّ يا أبي، قال فيكتوران بصوت حازم وواضح. أعرف جيداً واجب الاحترام نحوك ولست أفرّط به مطلقاً وستلقى فيّ دائمًا الإبن الأكثر خضوعاً والاشد طاعة.

كل من يحضر جلسات المجالس يطّلع على هذا النوع من عادات المناقشات البرلمانية. في هـذه العبارات المتـداخلة ، يستعينـون بها للتخفيف من مـوجات الغضب لـلأستفادة من الوقت.

ـنحن أبعـد مـا تتصـور من ان نكـون خصـومك، قـال فيكتوران، تجادلت مع حمي، السيد كروفيل، لأنه استرجـع الكمبيالات من فوفيني وقيمتها ستون الف فرنك، وبطبيعة الحال

فهذا المال هو مع السيدة مارنيف. أوه! لا. ألومك مطلقاً يا أبي، أخاف رداً على حركة من البارون، غير أني أريد فقط أن أضم صوتي الى صوت النسيبة ليز بت حتى تتنبّه يا أبي الى أن إخلاصي لك، لو كان دون وعي ودون حدود لكانت لسوء الحظ، تحدّدت مداخيلنا وتقلّصت.

ـالمال! قال العجوز الولهان وهو يتهادى على كرسيٍّ، مستقلاً بهذا التفكير. وهذا ولدي! سيعاد اليك مالك يا سيدي، قال وهو ينهض من مكانه ثم سار نحو الباب.

ـهكتور!

هذه الصرخة أعادت البارون الذي كشف لامرأته عن وجه فاض بالدموع ثم طوّقته بذراعيها في قوة من اليأس.

ـلا تتركنا على هذا الوجه، أنا لم أقل لك شيئاً!..

إثر هذه الفرحة السماوية تهالك الأولاد على ركبتي والدهم.

ـكلّنا نحبك يا أبي، قالت أورتنس.

أما ليز بت الجامدة كالنصب فكانت تراقب هذه المجموعة بابتسامة رائعة ارتسمت على شفتيها. في هذه اللحظة دخل الماريشال هيلو الى الغرفة المقابلة وسمع الجميع صوته. وتفهمت العائلة أهميّة ما يخبأ لها فتغيرّ بسرعة مظهر هذا المشهد.

نهض الولدان وحاول كل واحد ان يخفي مشاعره.

٧٦

موجز قصة المحظيات

دار خصام على الباب، بين ماربيت وجندي يظهر أنه على عجلة من أمره فدخلت الطاهية الى الصالون.

ـسيدي، إن محاسب تجهيزات الفوج يريد أن يتحادث معك في أمر ضروري.

ـفلينتظر.

ـسيدي، همست ماربيت في أذن سيّدها. قال لي لأبلغك أن الأمر يتعلق بحضرة خالك ارتعش البارون وقفز تفكيره الى إرسال النقود التي طلبها سراً منذ شهرين ليدفع سنداته، فترك عائلته وأسرع الى الغرفة المقابلة ليرى وجها ألزاسياً.

ـهل أنت السيد البارون هيلون؟

ـنعم...

ـبذاته؟

ـبذاته.

أثناء هذه المحاورة كان المحاسب يفتش بطانة قبعته وسحب رسالة فضّها البارون بسرعة وقرأ:

-«يا ابن اختي ، يستحيل عليّ أن أرسل لك المئة الف فرنك التي طلبتها فوضعي قلق إن لم تتخذ التدابير الفعالة لأنقاذي. يراقبنا وكيل للملك يتحدث بالأخلاقية ويرتكب حماقات بحق الإدارة. من المستحيل إسكات هـذا المدني، إني مهـدّد. أثق بحامل الرسالة. لقد أدى لنا الخدمات، حاول أن ترقيه. لا تتركني للغربان!».

وصلت هذه الرسالة فنزلت عليه كضربة صاعقة رأى فيها البارون ما نكأ التمزقات المعوية التي ما زالت ترهق بالمطالب حكومة الجزائر بمدنييها وعسكرييها، مما الزمه ليبحث حالاً عن ملطفات للجرح الذي ظهر.

ثم ابلغ الجندي ليعود في الغد بعد ان صرفه لا دون•وعود مغرية في الترقية ورجع الى الصالون ليقول لأخيه الماريشال:

-طاب يومك والى اللقاء يا أخي، الى اللقاء يا أولادي، الى اللقاء يا عزيزتي أدلين وماذا عن مصيرك يا ليزيت؟

-سأدير بيت الماريشال. عليَّ أن أنهي مهمتي عندما أؤدي لكم بشكل دائم الخدمات دون تفريق. الى هؤلاء وأولئك على السواء.

ـلا تغادري، فاليـري، دون أن أراك همس هيلو في أذن نسيبتنا. الى اللقاء يا أورتنس، يا صغيرتي المتمردة، حاولي ان تكـوني متعقلة، فاجـأتني أعمال خـطرة وسنعـود الى مسـألـة المصالحة. فكّري في ذلك ، يا عزيزتي، قال وهو يقبلها.

ـترك زوجته واولاده وبدا القلق عليه واضحاً، مّما ابقاهم أسرى التخوفات الحادة.

ـليزبت، قالت البارونة، يجب ان نعرف ما يمكن ان يحلّ بهكتور، لم أره يوماً هكذا. إبقي، بعد، يومين أو ثلاثة عند تلك المرأة فهو يقول لها كلّ شيء ونحن نفهم منك ما الذي قلبه بهذه السرعة. كوني مطمئنة، سنسوي زواجك من الماريشال لأنه أصبح ضرورة ماسّة.

ـلن أنسى ما حييت، الجرأة التي تصرفت بها هذه الصبيحة، قالت اورتنس وهي تقبّل ليزبت.

ـانتقمت لأمنا المسكينة، قال فيكتوران.

كان الماريشال يرقب بفضول تدفق المحبة والعطف على ليزبت التي عادت لتروي هذا المشهد لفاليري.

أتـاحت هذه التجـربة للنفوس البريئـة ان تكشفـ مختلف السيّئات التي تمارسها السيدة مارنيف ومثيلاتها، في العائلات وبأي وسائل يتوصلّن الى النسـاء الفاضـلات البعيدات عنهن ظاهرياً.

لكن إذا أردنا ان ننقل بالفكر هذه الاضطرابات الى الطبقة الرفيعة من المجتمع المقرّب من العرش، وعندما نرى كم المبالغ الطائلة تنفق على محظيات الملوك، ندرك مقدار التزامات الشعب نحو حكامه عندما يعطون المثل الصالح بالحفاظ على التقاليد والرباطات العائلية.

٧٧

جرأة احد الآباء الخمسة

كل وزارة في باريس، مدينة صغيرة أُبعدت النساء عنها. غير أن الثرثرات فيها كثيرة وكأن السكان القائمين فيها من النساء. بعد ثلاث سنين توضّح وضع السيد مارنيف وأصبح معروفاً حتى تساءل الناس من وراء المكاتب. هل سيصير السيد مارنيف خليفة للسيّد كوكي أم لا، ويتساءلون في المجلس منذ عهد قريب: هل سيتّم التعيين أو لا يمرّ؟

كانت أقل الحركات في إدارة الموظفين تراقب كل شيء في دائرة البارون هيلو. وضع مستشار الدولة في فريقه، ضحية دورة مارنيف الشغّيل القادر وسأله إذا كان يريد ان يقوم بعمل

مارنيف فيخلفه دون تردد وأفهمه ان مارنيف حيٌّ مائت. بعدها أخذ هذا الموظف ينظم الدسائس لمارنيف.

عندما عبر هيلو صالون الانتظار الغاصّ بالزائرين، لمح في احدى الزوايا وجه مارنيف المتقع وهو كان أول المدعوين الى المقابلات.

ـ ماذا تطلب مني يا عزيزي؟ قال البارون وهو يخفي اضطرابه.

ـ سيدي المدير، يهزأون مني في المكاتب، اذ تناهى الى علمنا ان مدير الموظفين رحل هذا الصباح ولاسباب صحية في عطلة، قد تدوم نحو الشهر. وجليٌّ ماذا يعني الانتظار لمدة شهر. إنك تسلمني لتهكم خصومي، يكفيني أن يطبِّل عليَّ في جهة واحدة فكيف من جهتين. يا سيدي المدير، الطبل قد ينشقُّ.

ـ عزيزي مارنيف. يجب ان تصبر كثيراً حتى نصل الى غايتنا. لا يمكنك أن تكون رئيس مكتب. إذا تمكنت أن تحصل على هذا المنصب، قبل شهرين من الآن، فما إلاّ بعد أن أمتنّ وضعي حتى استطيع أن اطلب ترفيع شائن مثلك.

ـ إذا فاتتني هذه الفرصة فلن أكون أبداً رئيس مكتب، قال السيد مارنيف ببرودة، رفعني ولن يؤخر ذلك أو يقدم.

ـ يعني، يجب ان أضحي من أجلك؟

ـ وإن لم تفعل فسأفقد أحلامي بك .

ـ تماديت أكثر من اللازم سيد مارنيف . . . قال البارون وهو يتزحزح في مكانه ويشير الى نائب الرئيس عند الباب :

ـ لي شرف تحيتك يا سيدي البارون ، أجاب مارنيف بتواضع .

ـ أية وقاحة فاسقة ! قال البارون في نفسه . ذلك يشبه الى حد بعيد الأنذار بالدفع في اربع وعشرين ساعة تحت طائلة نزع الملكية .

٧٨
إنذارات أخرى

بعد ساعتين ، وفيما انتهى البارون من استمالة كلودفينيون الذي يود إرساله الى وزارة العدل للحصول على معلومات عن السلطات القضائية للدائرة التي ينتمي اليها جوهان فيشر ، فتحت رين مكتب المدير وأودعته رسالة صغيرة طالبة الجواب عنها .

قال البارون في نفسه :

ـ إنها ترسل رين ! كم أنت مجنونة ، فاليري ، ستثيرين حولنا كلّنا الشبهات وتعرضين ترفيع هذا الكريه للأقاويل والتخمينات !

صرف السكرتير الخاص بالوزارة وقرأ :

آه ! يا صديقي أيّ حال أمرّ بها اليوم ، دفعت ثمن السعادة التي منحتني إياها طوال السنوات الثلاث . عاد من مكتبه في حالة غاضبة ترعش الأبدان كنت أعهده بشعاً جداً فرأيته وحشاً مفترساً . أسنانه الأربع الحقيقية كانت تهتز ، وهدّدني بملازمته المقيتة لي لو واظبت على استقبالك .

عزيزي ، ما العمل ؟ سيقفل بابنا بوجهك منذ الآن . ترى دموعي تسقط على الورقة وتبللها ! هل تقدر على قراءة الرسالة يا عزيزي هكتور؟ « آه : الا أراك أبداً ، أن أبعدك عني وفي ذاتي شيء من حياتك ، وفي ذهني أني مالكة قلبك ، فذلك الموت . فكر في هكتورنا الصغير! لا تتركني ، لكن لا تذلّ نفسك من أجل مارنيف ولا تهتمّ بتهديداته ! آه ! أحبك الآن اكثر من أي وقت مضى ! تذكّرت كل التضحيات التي بذلتها من أجل حبيبتك فاليري وهذه التضحيات ليست ولن تكون يوماً عقوقة ! أنت الآن زوجي وستكون الوحيد . لا تفكر مطلقاً بالدخل ، بالألف والمئتي فرنك التي اطلبها اليك من أجل هكتورنا الصغير الذي سيبصر النور في بضعة أشهر . . لا أريد ان احمّلك شيئاً . من الآن وصاعداً ستكون ثروتي هي ثروتك والى الأبد .

« آه ! لو كنت تحبني قدر ما أحبك ، يا عزيزي هكتور لكنت طلبت تقاعدك ثم يترك كل واحد منا عائلته وانزعاجاته ومحيطه حيث يعشعش الحقد ونرحل لنعيش مع ليز بت في بلد

جميل في بريتانيا أو حيث تشاء . هناك لا نلتقي بأحد فنتمتع بالسعادة بعيدين عن العالم . إن معاشك التقاعدي وهذا القليل الذي أملكه يكفياننا سترى حبيبتك فاليري مهتمة فقط بهكتور ولن تحتاج للغضب والصراخ كما في ذلك اليوم .

ـ لن يكون عندي غير ولد واحد ، سيكون ولدنا ، كن متأكداً من ذلك ، يا عجوزي المحبوب ، الدائم التشكي .

ـ لا ، لا يمكنك أن تتصور غضبي إذ يفترض بك ان تعلم كيف تصرّف معي وكيف أفرغ بذاءاته على فاليري ! إن كلماته تلوث الورقة ، غير أن إمرأة مثلي ، ابنة مونتكورني ، ما كان يجوز ان تتلقى أو تسمع في حياتها كلها كلمة واحدة منها . أوه ! وددت لو كنت حاضراً لتقتصَّ منه بالعاطفة الحمقاء الغائرة بي والتي كانت تشدني اليك . لو كان أبي لنال من هذا البائس ، أما أنا فلا قدرة لي اكثر مما تستطيعه امرأة مثلي : أن أحبك بجنون !

ـ بلى من العبث وأنا على حبي لك وفي حالة من السخط هذه ، ان اشيح عن لقائك . بلى ! أريد أن أراك سراً ، وكل يوم ! هكذا خلقنا نحن النساء : يكفي أن أتزوج مشاعرك . خدمة لي ، إذا كنت تحبني فلا تعينه رئيس مكتب فلينقصف عمره وهو نائب رئيس ! . . . أشعر في هذه اللحظة أني فصلت عن رأسي وما زلت أسمع شتائمه . إن بتّ التي عزمت على التخلي عنى ، أشفقت عليّ وستبقى لبضعة أيام .

ـ عزيزي الطاهر ، لا أعرف كيف أتصرّف لا أرى أمامي سوى الهرب . لكم استهواني الريف ومقاطعة بريتانيا واللانكيدوك وكل ما ترغب به على أن يتاح لي لأحبك بحريّة .

ـ أيها الحبيب ، إني عاتبة عليك ! ها أنت مجبر على العودة الى أدلين العجوز ، الى هذه المرمرة البكاءة ، اضطررت ان أقول لك ذلك لأن الوحش المفترس سيسهر عليّ ليل نهار ، ذكر الشرطة ! لا تأت ! انه قادر على أي شيء ، في الوقت الذي ينظر اليّ كأحدى أبشع مضارباته الخسيسة . أود لو أتمكن من ان اعيد اليك كل ما احتفظت به مما اغدقته علينا .

ـ آه ! يا هكتوري الطيب ، استطعت ان اتدلّل وأظهر لك بمظهر الرشيقة ، لكنك لم تتعرف بعد على حقيقة فاليري ، إنها تحبك حتى ارتجاج رأسك وتفضلك على الآخرين .

ـ لا يمكن لأحد ان يمنعك من زيارة النسيبة بت وسأتدبر معها الوسائل حتى نتحادث معاً .

ـ هكتوري اللطيف ، أكتبَ لي لو تكرمت ، كلمة صغيرة لأطمئنّ على الأقل الى حضورك الذي أشتاق اليه . . . (أوه : سأمّد لك يدي حتى أبقيك على أريكتنا) . رسالة منك تحدث كالطلسم ، أثراً في نفسي ، اكتب لي أي شيء يعبر عن ذاتك الرائعة ، سأعيد الرسالة اليك لأن الحذر واجب ولا أدري أين أخبئها فهو يفتش في كل شيء . ومهما يكن هدىء من روع حبيبتك فاليري ، زوجتك وأم ولدك .

ـ ترى الآن كيف اضطررت ان اكتب لك ، أنا التي كانت

تراك كل يوم . قلت لليز بت ! « لم أحسّ بسعادتي من قبل » الف قبلة يا عزيزي .

إعشق جيداً

حبيبتك فاليري »

- ودموع ! ... قال هيلو في نفسه وهو ينهي الرسالة ، إنها دموع تجعل قراءة اسمها متعذراً .

- كيف حالها سأل رين .

- السيدة في السرير وتعاني من تشنجات توتر أعصابها شدّ السيدة وعقفها كرباط حزمة حطب . هذا ما حلّ بها بعد كتابة الرسالة ! أوه ! لأنها استرسلت بالبكاء ... ثمة صوت على الدرج . وعلى ورقة رسمية . كتب البارون وهو في حالة مضطربة الرسالة التالية :

« إطمئني يا ملاكي فلن ينقصف عمره الا وهو في مركز نائب رئيس !

« فكرتك رائعة سنرحل لنعيش بعيداً عن باريس وسنكون سعداء مع صغيرنا هكتور ، سأحصل على تقاعدي وأحجز مكاناً مريحاً في أحد القطارات .

« آه ! يا صديقتي المحبوبة ، شعرت بتجدد شبابي في رسالتك ! أوه ! سأبدأ حياتي وسأجمع ، كما وستلاحظين ؟ ثروة لصغيرنا . عندما قرأت رسالتك التي تلهب الف مرة اكثر من رسائل هيلوييز احدثت بي أعجوبة : لم اصدق ان حبي لك كان

يمكن له ان يتضاعف ستقابليني عند ليز بت هذا المساء .

حبيبك الى الأبد

هكتور . . .

حملت رين الجواب وهو أول رسالة يكتبها البارون الى صديقته الحبيبة !

هـذه العواصف تـزيد في ثقـل المصائب التي تعصف في الأفق ، واذا بالبارون الـذي كان يعتقـد أنه مطمئن لتفادي الضربات الموجهة الى خاله جـوهان فيشر ، يجـد نفسه مهتمًا بالعجز المالي . من إحدى الخصائص المميزة للطبع اليونابرتي ، إيمانه بقوة السيف ويقينه بالتفوق العسكري على المدني . كان هيلو يهزأ بوكيل ملك الجزائر حيث تسيطر وزارة الحـربية . الانسان يبقى على ما كان عليه . كيف يمكن لضباط الحرس الامبـراطـوري أن ينسـوا أنهم رأوا عُمـدَة أحسن المـدن في الامبراطورية وولاة الامبراطورية الذين قدموا لاستعراض الحرس الأمبراطوري الذي ينشدون بمآثره عـلى تخوم المقـاطعات التي يجتازها ويكبرون فيه شرف السيادة .

٧٩

الباب في وجهه . .

عند الرابعة والنصف توجّه البارون مباشرة إلى السيّدة مارنيف وقلبه يخفق وهو يصعد الدرج كشاب فتيّ متسائلاً: «هل أراها، أم لا أراها؟» كيف يمكن أن يتذكّر مشهد الصباح حين عائلته الغارقة في الدموع كانت جاثمة على رجليه؟ ألا تثبت رسالة فاليري التي وضعها في محفظة رقيقة في صدره لتبقى دائمًا على قلبه، أنه المحبوب الأوفر حظاً حتى بين الفتيان؟

بعد أن دقّ الجرس سمع البارون المنكوب جرجرة خفّ مارنيف العليل وسعاله المقيت فتح مارنيف الباب واتخذ الوضعية ذاتها التي اصطنعها هيلو، ليدلّه إلى الدرج وبحركة مطابقة تماماً للحركة التي بها أشار هيلو إلى باب مكتبه، قال له:

ـ ناديت أكثر من اللازم يا سيّد هيلو!...

عزم البارون على الدخول فتناول مارنيف مسدساً من جيبه ولقّمه.

ـ سيّدي مستشار الدولة، عندما يكون شخص خسيساً

مثلي، وأنت تنظر إليّ كذلك، أفلا تنتظر حكمًا بالأشغال الشاقة إن لم أحصل على سائر المطالب التي تعوّض عن الكرامة الضائعة؟ تريد الحرب، ستكون شرسة ودون ميدان محدّد. لا نعد أبداً ولا تحاول أن تمرّ بنا: لقد أخطرت البوليس بموقفي تجاهك.

وإذا اغتنم ذهول هيلو، دفعه خارجاً وأقفل الباب في وجهه.

ـ أيُّ قذر هذا! قال هيلو في نفسه وهو يصعد إلى بيت ليزبت. آه . . الآن فهمت الرسالة. سنغادر باريس أنا وفاليري. إنها لي كلّ ما تبقى من أيامي، وهي التي ستغمض عينيّ إغماضتها الأخيرة.

لم تكن ليزبت في البيت. أبلغت السيدة أوليفييه، هيلو، أنها قصدت السيّدة البارونة متوخية وجود السيّد البارون هناك.

ـ مسكينة! ما كنت أعتقدها بهذه الرقة كما ظهرت فيها هذا الصباح، قال البارون في نفسه وتذكّر سلوك ليزبت وهو يجتاز طريق شارع فانو ليصل إلى شارع بلومي.

عند ملتقى شارع فانو وشارع بابيلون شاهد النعمى حيث يُقض على حفلة الزفاف بسيف القانون.

كانت فاليري على نافذتها، تلاحق هيلو بعينيها؛ وعندما رفع رأسه لوّحت بمنديلها، غير أن مارنيف السّافل صفع قبعتها وجنبها بعنف عن الشباك فترقرقت عينا المستشار بالدموع.

ـ أن أعشق هكذا وأرى إمرأة تعامل بالسوء وأنا بلغت السبعين؛ أمور تستحق التوقف عندها. هذا ما حدّث به نفسه.

جاءت ليزبت تبشرٌ العائلة بالنبأ الجديد. إن أدلين وأورتنس يعرفان أن البارون يهمّه ألاّ يتعرّض للشبهات والنقيصة أمام الإدارة إذا عينٌ مارنيف رئيس مركز، لأنٌ الزوج سيؤدي به إلى الصرف.

لهذا رتّبت أدلين السعيدة، العشاء بطريقة لفتت هيلو أكثر مما كان يجده عند فاليري وانخرطت المخلصة ليزبت في مساعدة ماربيت لتظفر بالمهمة الصعبة.

ظهرت ليزبت كالمعبودة: الأم والابنة تقبّلان يدها ثم أفهماها بفرح مؤثر، أن الماريشال رضي بها مدبٌرة لمنزله.

ـ ومن هذا المنطلق، قالت أدلين، تصبحين زوجة، يا عزيزتي، ولا عليك بعد ذلك سوى أن تقومي بخطوة واحدة.

ـ بنهاية الحديث، لم يقل «لا» عندما حدّثه فيكتوران عنك، أضافت الكونتسة ستانبوك.

استقبل البارون في عائلته بمظاهر من العاطفة اللطيفة المؤثرة حيث يفيض الحب بالحنان مما أجبره على اصطناع تبديد أحزانه. قدم الماريشال إلى العشاء. وبعد الطعام لزم هيلو البيت، ثم جاء فيكتوران وزوجته ولعب الجميع لعبة الويست.

ـ منذ زمن، قال الماريشال متعجباً، وأنت يا هكتور، لم تشاركنا بمثل هذه الأمسية!... هذه العبارة التي فاه بها عسكري

سابق وداعبت أخاه وعاتبته ضمنا، أحدثت انطباعاً عميقاً، تكشفت عندها الجروح المتنوّعة والمتلوّنة لقلب انعكست فيه الأحزان والآلام.

عند الثامنة أحب البارون بأن يرافق بنفسه ليزبت إلى مسكنها بعد أن تعهّد بالعودة.

ـ ماذا يا ليزبت! أساء معاملتها! قال هيلو وهما في الشارع. آه! لم أحبها يوماً كما أحبها الآن!.

ـ آه، لم أكن أظن يوماً أن فاليري تعشقك بهذا القدر! إنها خفيفة ومغناجة، تحب أن تسمع غزلاً وأن تمثل أمامها ملهاة الحب كما تقول؛ لكنك باقٍ، الوحيد.

ـ ماذا قالت لك عني؟.

ـ إنها كما تعلم تلاطف كروفيل ولا تعتقد أنها تريده يلاطفها، إذ هذا ما حفظها بمنأى من البؤس وسيحفظها لما تبقى من حياتها؛ إنها تزدريه وربما انتهى كل شيء. مع ذلك احتفظت بمفتاح إحدى الشقق.

ـ في شارع دوفان! صاح هيلو المغتبط. وليس لأكثر من ذلك أفسحت في المجال لكروفيل معها. تفقّدت الشقة وأعرف...

ـ هذا هو المفتاح، قالت ليزبت، إصنع واحداً مثله غداً، أو اثنين إذا قدرت.

ـ وبعد؟... قال هيلو بلهفة.

ـ إذاً! سآتي في الغد لتناول العشاء معكم حيث تعيد لي مفتاح فاليري (فالأب كروفيل قد يطلب المفتاح الذي سلّمه لها) وستلتقيان بعد غدٍ، وهناك تتفقان على ما تنويان عمله وتكونان في مأمن لأنَّ للشقة مخرجين. فإذا صدف ودخل كروفيل الذي يتمسك بتقاليد العرش، كما يقول، عبر الممشى، تخرج من الحانة والعكس بالعكس أيها العجوز الخسيس، تم ذلك بفضلي. فماذا فعلت من أجلي؟...

ـ كلّ ما تريدين!

ـ إذاً، لا تعارض زواجي من أخيك!

ـ أنتِ؟ الماريشال هيلو! أنت تلقّبين كونتسة فورزين! صاح هكتور المذهول.

ـ أدلين بارونة عن جدارة!... تابعت بتّ بلهجة قاسية ورائعة. إسمح أيها العاشق العجوز، تعلم أين وصلت مشاريعك! وعائلتك مهدّده بالجوع والمهانة.

ـ إنه خطأي! قال هيلو المصدوم.

ـ إذا مات أخوك فمن يعين زوجتك وابنتك؟ أرملة ماريشال فرنسا يمكنها أن تحصل على ستة آلاف فرنك كمعاش شهري أليس كذلك؟ إذاً لن أتزوّج إلا لأوفّر الخبز لابنتك وزوجتك، أيها العجوز الأحمق!

ـ ما كنت أتوقع هذه النتيجة. سأعظ أخي فنحن أمينون منك... قولي للملاكي أن حياتي مكرّسة لها!...

بعدما رأى ليزبت تدخل في شارع فانو عاد البارون إلى بيته ليلعب بالتويست.

أحسّت البارونة بمنتهى السعادة إذ بدا على زوجها، كأنه يعود إلى الحياة العائلية، ذلك أنه خلال خمسة عشر يوماً تقريباً كان يذهب إلى الوزارة في التاسعة صباحاً ويعود في السادسة لتناول العشاء، ويبقى في السهرة بين عائلته. وصحب مرتين أدلين وأورتنس إلى المسرح.

أقامت الأم وابنتها القداديس ورفعا الصلاة للرب ليحفظ لهما الأب والزوج الذي أعاده إليهما سالماً.

٨٠

يقظة

ذات مساء، عندما رأى فيكتوران أباه متوجِّهاً إلى سريره قال لأمّه:

ـ والآن، نحن سعداء! عاد أبي إلينا، فلا حاجة بنا لأن نأسف، زوجتي وأنا، على ممتلكاتنا ما دام ذلك مفيداً...

ـ بلغ أبوك السبعين، أجابت البارونة، وما زال يفكِّر بالسيِّدة مارنيف، تأكدت من ذلك؛ لكنه لن يفكِّر بها بعد

حين: هوى النساء ليس كاللعب أو كالمضاربة أو كالبخل التي لها كلّها حدّ تنتهي عنده.

إن أدلين الجميلة، هذه المرأة المتميّزة دائـمًا بفتنتها رغم الخمسين عاماً وبالرغم من همومها وأحزانها، أخطأت في تقديرها. إن هؤلاء الفاسقين الذين أمدّتهم الطبيعة بطاقة فذّة على الحبّ، تتخطّى الحدود المرسومة لـه، لا يحسبون، على الأرجح حساباً لأعمارهم.

خلال هذه الفترة العابقة بالفضيلة كان البارون زار ثلاث مرات شارع دوفان دون أن يشعر بثقل السبعين. العاطفة المنتعشة أعادت إليه شبابه وسلّم كرامته وعائلته لفاليري دون أن يبدر منه أيّ أسف.

لكنّ فاليري، كانت تبدّلت، ولم تحدّثه عن المال أو عن دخل ولدهما البالغ ألفاً ومئتي فرنك؛ بالعكس كانت تعرض عليه ذهباً وتحبه كإمرأة في السادسة والثلاثين مغرمة بطالب وسيم في كلّيّة الحقوق، فقير معدم، شاعري، عاشق.

كانت أدلين المسكينة تعتقد أنها استعادت عزيزها هكتور!

تحدّد اللقاء الرابع بين الحبيبين في اللحظة الأخيرة من اللقاء الثالث، تماماً كما سابقاً مع المسرح الإيطالي الذي كان يعلن في نهاية كل عرضٍ عن عرض الغد. وتحدّد الموعد في التاسعة صباحاً.

في اليوم الموعود لتحقيق هذه السعادة التي ضحّى هذا

العجوز الولهان بحياة عائلته رجاءً بها ، وعند الساعة الثامنة طلبت رين البارون .

خشي هيلو من كارثة فاسرع يتحدث مع رين التي لم تشأ أن تدخل الى الشقة بل سلّمت الوصيفة الى البارون الرسالة التالية :

« عزيزي العجوز المتذمر ، لا تأتِ الى شارع دوفان فرجلنا المزعج مريض ويجب أن أعتني به ، لكن تعال هذا المساء في التاسعة كروفيل في كوربيل عند السيد لوباس وأنا متأكدة أنه لن يصطحب امرأة الى بيته الصغير . اني أتدبر امري هنا حتى أتمتع بليلي ويمكنني أن أتأكد من عودتي قبل ان يستيقظ مارنيف . اجبني عن كل هذا ، قد لا تتيح لك زوجتك ، تلك المرثاة الطويلة ، الفرصة كما في السابق . قيل لي أنها ما زالت جميلة وبإمكانك خيانتي . انك فاسق كبير ! أحرق رسالتي لأني لا أثق بشيء » .

كتب هيلو الجواب المقتضب التالي :

« عشيقتي ، لم تعارض زوجتي في يوم من الأيام ، كما ذكرت لك ، ومنذ خمسة وعشرين سنة أية رغبة من رغباتي . أضحي بمئة أدلين في سبيلك ! سأحضر هذا المساء في التاسعة الى معبد كروفيل أنتظر معبودتي . وهل ينقصف عمر نائب الرئيس اليوم فلا نفترق أبداً ! انها أعز أمنياتي عزيزك هكتور . »

في المساء قال البارون لزوجته أنه يقصد الوزير في سان كالود لتسوية بعض الأشغال غير أنه ذهب الى شارع دوفان . كان ذلك في نهاية شهر حزيران .

قليلون من الرجال أحسوا في حياتهم بحقيقة الشعور الرهيب عند توجههم الى الموت ؛ الذين عادوا من المقصلة يعرفون ؛ غير أن بعض الحالمين شعروا بقوة بهذا النزع وهم في حلمهم . لقد اهتزوا لكل شيء وارتعشوا حتى من السكين الذي يلقى على الرقبة في اللحظة التي فيها تتدخل اليقظة مع النهار لأنقاذهم . . .

وبعد ! فالشعور الذي استسلم اليه مستشار الدولة ، الخامسة صباحاً ، في سرير كروفيل الضخم والمريح ، فاق كثيراً الشعور الذي ينتاب المرء عندما يكبل على الكرسي المشؤوم بحضور عشرة آلاف مشاهد يتطلعون اليه بعشرين ألف شعاع من اللهب .

كانت فاليري تتمدد بوضع مغرٍ ، ساحرة كما ساحرات النساء اللواتي يتمتعن بجمال وسطي فيبتكرن وضعاً في رقادهن يعوّض النقص في جمالهن أضعافاً . هذا هو الفن يفيض في الطبيعة ويحقق في النهاية لوحة فنية رائعة .

زاغت عينا البارون وهو في وضع أفقي على ثلاثة أقدام في أرض الغرفة . ان عينيه التائهتين كعيني أي انسان يستيقظ ويستعيد تفكيره ، وقعتا على الباب المزين بالزهور رسمها الفنان

جان الذي يزدري المجد . لم يـر البارون ، كـالمحكوم عليـه بالموت ، عشرين الف شعاع ، بل واحداً يتمتع بنظر أثقب من الآلاف العشرة في الساحة العامة .

هذا الشعور في غمرة من اللذة أقل بكثير من شعور الذين حكموا بالموت . ظل البـارون ممدداً أفقيـاً وغارقـاً في العرق البارد . أراد أن يشكك ، لكن هذه العين القاتلة كانت تهذي وكانت همهمة صوت تهمس خلف الباب .

أرجو ألا يكون سوى كروفيـل راغباً في ممـازحتي ! قال البارون في نفسه دون أن يرتاب من وجود شخص في المعبد .

انفتح الباب انها جلالة العدالة الفرنسية ظهرت في حلة مفوض الشرطة مصحوباً بقاضي صلح طويل القامة ، ودليلهما السيد مارنيف

٨١

إيقاع وسقاطة وسُقيّطة

إن مفوض الشرطة ، المغروس في حذاء وأذناه لاصقتـان بأشرطة معقدة ، ينتهي بجمجمة صفراء ضحلة الشعر تكشف عن داهية ، سليط اللسان ، ساخر ، وحياة باريس لا تعرف الأسرار عنده . عيناه المضاعفتان بنظارتين يثقبان الزجاج بنظرات حادة وهازئة .

أما قاضي الصلح فهو محام سابق ومتوله بالجنس اللطيف حتى أنه كان يغار من المتقاضين .

نرجو ان تعذر تشدد وزارتنا يا سيدي البارون ! قال المفوض استدعانا مشتكٍ وشهد سيدي قاضي الصلح دخول البيت . أعلم من أنت ومن هي الجاثمة .

فتحت فاليري عينين ذاهلتين وصرخت صرخة مدوية ابتكرتها الممثلات لأعلان الجنون في المسرح ، وفي السرير التفتت بارتباك الى نفسها كمجنونة في العصور الوسطى بقميصها الكبريتية ، على سرير من الأحمال .

ـ الموت ! . . . يا عزيزي هكتور ولا الشرطة الأصلاحية ! أوه ! لا ، أبداً !

ثم قفزت ومرت ، كغمامة بيضاء ، بين المشاهدين الثلاثة وراحت لتنزوي تحت مكتب صغير وهي تخفي رأسها بيديها .

ـ ضعت ! لقد مت ! . . . صرخت فاليري

ـ سيدي ، قال مارنيف لهيلو ، اذا فقدت السيدة مارنيف عقلها فاني سأعتبرك اكثر من فاجر ، ستكون قاتلاً .

ماذا يمكن لرجل أن يقول أو يفعل وهو فوجىء في سرير عشيقته مع امرأة ليست زوجته ؟

ـ سيدي قاضي الصلح ، سيدي مفوض الشرطة ، قال البارون بعزة نفس ، أطلب منكما أن تهتما بهذه المرأة التعيسة التي أصبح عقلها في خطر وبعدها تحرّران المحضر . الأبواب

مقفلة ، لاشك في ذلك فلا تخشيان فراري أو فرارها ، نظراً للحالة التي نحن فيها .

أذعن الموظفان لطلب مستشار الدولة .

ـ اقترب وتكلم معي أيها الخادم البائس ! . . . قال هيلو لمارنيف بصوت خافت وهو يأخذه بذراعه ويقربه اليه .

ـ لست أنا الذي تتوقع أن يكون القاتل ! بل أنت ! هل تنوي أن تكون رئيس مكتب وضابطاً في جوقة الشرف ؟

ـ بالضبط يا مديري ، أجاب مارنيف وهو يحني رأسه .

ـ ستحقق أحلامك ، هدىء زوجتك واصرف هذين السيدين .

ـ هكذا ! عقب مارنيف على دعوة هيلو . على هذين السيدين أن يرفعا محضراً بالجرم المشهود ، لأنه دون هذا التسجيل ، ركيزة شكواي ، ماذا يحل بي ؟ فالأدارة العلية متخمة بالغش والاختلاس . سرقت زوجتي مني ولم ترفعني الى رئيس مكتب . سيدي البارون ، أمهلك يومين للوفاء بوعدك . احذر ، هذه رسائل . . .

ـ رسائل ! . . . صرخ البارون مقاطعاً مارنيف .

ـ نعم ، رسائل تثبت أن الولد الذي تحمله زوجتي في أحشائها هو منك . . . . فهمت ؟ عليك أن تلحظ لابني دخلاً شرعياً ينالها هذا الدعي عند استحقاق الحصص ، لكن سأكون

متواضعاً وهذا لا يعنيني ، لست متمسكاً بالأبوة ! مئة درهم تكفيني . سأكون ، غداً صباحاً خليفة السيد كوكي ومدرجاً على لائحة الذين سيرقون الى رتبة ضابط بمناسبة أعياد تموز أو أرفع المحضر مع الشكوى الى المحكمة . اني الآن أمير ، الا ترى ذلك ؟

ـ يا الهي ! كم رائعة هذه المرأة ! قال القاضي لمفـوض الشرطة . أي خسارة ستمنى بها البشرية لو فقدت رشدها !

ـ لن تجن ، أجاب المفوض بحكمة .

الشرطة تمثل الشك المجسد .

ـ أوقع السيد البارون هيلو في فخ . أضاف مفوض الشرطة الذي يقف على مسافة من فاليري تكاد الا تسمعه .

رشت فاليري المفوض بسهام من نظراتها كادت تقتله لو كانت النظرات قادرة على ايصـال الغضب الذي تعبـر عنه . ابتسم المفوض الذي نصب شركه فوقعت هي أيضاً فيه .

دعا مارنيف زوجته لتدخل الغرفة وتلبس ثيابها بحشمة ، اذ اتفق على مختلف النقاط مع البارون الذي وضع عليه لباس النوم وعاد الى الغرفة الأولى .

ـ أيها السادة ، قال للموظفين ، لست بحاجة أن أطلب اليكما اخفاء ما يجري .

انحنى القاضيان اجلالاً وطرق مفوض الشرطة طرقتين على الباب فدخل سكرتيره وجلس الى مكتب صغير وشرع في كتابة

ما يمليه عليه المفوض الذي كان يخاطبه بصوت خافت .

استمرت فاليري بالبكاء بدموع حارة ، وعندما أنهت ترتيب نفسها دخل هيلو الى الغرفة وارتدى ثيابه . أثناء ذلك كان المحضر انتهى .

أراد مارنيف عند ذلك أن يأخذ زوجته غير أن هيلو الذي كان يعتقد أنه يراها لآخر مرة ، توسل بحركة منه السماح له بالتحدث اليها .

ـ سيدي ، بذلت الكثير في سبيل السيدة ، والآن لا تسمح لي بأن أودعها بحضور الجميع .

اقتربت فاليري وهمس هيلو في أذنها :

ـ لم يبق أمامنا سوى الهرب ؛ لكن كيف نتلاقى ؟ خدعنا . . .

ـ بواسطة رين ! أجابت فاليري . لكن يا صديقي العزيز ، بعد هذه الفضيحة يجب الا نتلاقى . انني أذللت . فمن الآن سيسمعونك عني الكثير من الأعمال المعيبة والشائنة وستقتنع بهم . . .

أنكر البارون بحركة منه أن يصدق .

ـ ستصدقهم وسأحمد السماء على ذلك لأنك لن تتأسف على شيء له علاقة بي .

ـ « لن ينطفىء وهو في رتبة نائب رئيس ! » قال مارنيف همساً في أذن مستشار الدولة عندما اقترب ليأخذ زوجته التي قال

لها بفظاظة :

ـ كفاية ، أيتها السيدة . ان كنت ضعيفاً أمامك فلا احتمل أن أبدو غبياً أمام الآخرين .

غادرت فاليري بيت كروفيل الصغير بعد أن رمقت البارون بآخر نظرة غنج حسب معها أنه معشوق . تقدم قاضي الصلح برقة وصافح السيدة مارنيف وهو يواكبها الى العربة .

٨٢

عمليّة جراحيّة

ظلّ البارون الذي يتوجب عليهْ توقيع المحضر، بليد الذهن، وحده مع مفوّض الشرطة. وبعد أن أنهى مستشار الدولة توقيعه، سلّط المفوض نظرة رقيقة من فوق نظارتيه وقال له:

ـإنك تحب كثيراً هذه السيدة الصغيرة يا سيدّي البارون!...

ـمن أجل تعاستي كما ترى...

ـوإذا كانت لا تحبك او تخدعك؟...

ـعرفت ذلك هنا في هذا المكان يا سيدي... تجادلنا في هذا الأمر انا والسيد كروفيل...

ـآه! إنك تعلم انك في بيت السيّد العمدة.

ـبالضبط.

ـإنك عاشق ولهان وما عليّ إلا ان أصمت، إني احترم العواطف الصامدة بقدر ما يجلّ الأطباء الأمراض المتأصلة...

بالمناسبة، رأيت السيد نوسانجيان. المصرفي وهو على حرارة شوق مماثلة.

ـإنه صديقي، أجاب البارون، كنت اتعشى غالباً مع الفاتنة أستير وهي تساوي المليونين اللذين أنفقهما عليها.

ـوأكثر، قال المفوّض. هذا النزق في رجل مالي عجوز كلّف الحياة لأربعة أشخاص. أوه! ما هذه العواطف ! إنها كالكوليرا. . .

ـما عندك تقوله لي؟ سأل مستشار الدولة الذي أساء فهم هذا الرأي المبطن.

ـلماذا أنزع منك أوهامك؟ قال مفوّض الشرطة معلقاً إنه لمن النادر ان يحتفظ بمثلها شخص في عمرك.

ـنجِّني منها! صاح مستشار الدولة.

ـلكن، يُلعن الطبيب المداوي لاحقاً. أجاب المفوّض وهو يبتسم.

ـأكون ممتناً لك يا سيدي المفوّض!. . .

ـإذاً فهذه الزوجة كانت على اتفاق مع زوجها.

ـأوه!. . .

ـهذا يا سيّدي يحصل مرتين من كل عشر، أوه! إننا نعرف ذلك.

-أيّ برهان تملكه على هذا التواطؤ؟.

-أوه! الزوج أولاً!... قال مفوض الشرطة بهدوء جرّاح اعتاد توسيع الجروح ما يجول في فكرة مكتوب على صفحة وجهه المسطح والشرس . لكن لا يجوز ان تتمسّك كثيراً بأحدى الرسائل التي حرّرتها هذه المرأة مشيرة بها الى الطفل...

-أعلّق أهمية كبرى على الرسالة التي أحملها دائماً معي، أجاب البارون هيلو وهو يفتش في جيبه ليجد المحفظة الصغيرة التي لا تفارقه.

-أترك المحفظة حيث هي، قال المفوّض الذي صعق وكأنه في مرافقة ، هاك الرسالة، عرفتُ الآن كل ما أريد معرفته يظهر ان السيدة مارنيف باحت بأسرارها في هذه الرسالة التي تحتفظ بها في محفظتك.

-هي وحدها في هذا العالم.

-هذا ما كنت افكر به... والآن هي البينة التي تطلبها عن تواطؤ هذه المرأة الصغيرة .

-لنرَ! قال البارون غير مقتنع.

-عندما وصلنا، يا سيدي البارون، أجاب المفوّض، دخل مارنيف البائس أولاً وأخذ هذه الرسالة التي كانت حتماً زوجته بسطتها في هذا المكان، قال وهو يشير الى المكتب الصغير، وهذا

واضح على أن الزوج والزوجة اتفقا على هذه الناحية بعد أن تتوصل الى الرسالة أثناء نومك لأن هذه الرسالة التي حررتها لك هذه السيدة تشكلّ مع الرسائل التي وجهتها اليها، الدليل الحاسم في الدعوى الإصلاحية.

أطلع المفوض، هيلو على الرسالة التي سلمتها رين الى البارون لدى مكتبه في الوزارة.

-إنها جزء من الملف، قال المفوّض، أعدها اليّ يا سيدي.

-أيه! سيدي، قال هيلو الذي انحلّ وجهه ، هذه المرأة تجسِّد الفسق مشروباً في كؤوس، انا واثق انها تحتضن ثلاثة عاشقين!

-واضح، قال مفوّض الشرطة. آه! لسن جميعاً على الرصيف. عندما يمارسن الهوى يا سيّدي البارون في غرف أو في الصالونات أو في قلب الأسرة فلا يتوقف ذلك على الفرنكات والسنتيمات. الآنسة أستير التي تحدثت عنها والتي تجرعت سمًا، ابتلعت الملايين. إذا اقتنعت بكلامي فستتوقف عن هذا المسلك يا سيدي البارون وهذا الفصل الأخير سيكلفك غالياً . القانون بجانب هذا الزوج النذل.. خلاصة القول : لولاي لكانت هذه المرأة الصغيرة تلطفتك للمرة الثانية!

-شكراً سيدي، قال مستشار الدولة محاولاً الاحتفاظ بمهابته.

-سيدي، سنقفل الشقة، انتهت المهزلة وعليك ان تعيد المفتاح الى سيدي العمدة.

٨٣

تأملات اخلاقية

عاد هيلو الى بيته في حالة من الوهن قريبة من الإغماء، تائهاً في الافكار السوداء. ايقظ زوجته النبيلة والقديسة والطاهـرة وفاجأها بقصة السنوات الثلاث وهو ينتحب كطفل حرموه من لعبه.

إن اعتراف هذا العجوز العامر بقلب فتي، وهذه الملحمة الرهيبة والمؤسفة اذ أدخلت الاشفاق الى قلب أدلين، أثارت فيها فرحاً داخلياً نشيطاً فشكرت السماء على هذه الصفعة الأخيرة لأنها رأت زوجها تركّز الى الأبد في دفء العائلة.

ـإن ليزبت كانت على صواب! قالت السيدة هيلو بصوت لطيف لا يداخله أدنى تلميحات في العتاب الذي لا فائدة منه. أبلغتنا ذلك منذ زمن.

ـنعم! آه لو اقتنعت بما قالت ، بدلاً من أن أستشيط غيظاً، في ذلك اليوم الذي رغبت فيه الى المسكينة أورتنس حتى تلزم أسرتها ولا تعرّض للشبهات سمعة هذه. . . أوه! عزيزتي أدلين،

يجب ان ننقذ ونسيسلاس! إنه غارق في هذه الوحلة حتى أذنيه!

ـصديقي المنكوب، هذه البورجوازية الصغيرة، لم تستطع أن تفوز بك كما الممثلات، قالت أدلين وهي تبتسم.

كانت البارونة تخشى تغيرات هكتور التي أصبحت مسلكاً فيه، لذا عندما تجده متألماً، بائساً، محدودباً تحت ثقل الهموم، تقابله بقلب مفتوح، شفوقة محبة، مستعدة للتضحية بدمها في سبيل إسعاد هيلو.

ـلا تفارقنا يا عزيزي هكتور. قل لي ماذا تفعل هؤلاء النسوة حتى يجذبنك على هذا النحو، سأحاول... لماذا لم تجعلني طوع رغباتك؟ هل إني متخلّفة في الذكاء؟ ما زال الناس يجدونني فاتنة ويفصحون عن إعجابهم بي وتقديرهم لي.

كثيراً من النساء المتزوجات والملتزمات بواجباتهن وأزواجهن يتساءلن لماذا هؤلاء الرجال الأقوياء والطيبّون والمشفقون على سيدات كالسيدة مارنيف لا يتخذون من نسائهم، وخاصة عندما يشبههن البارونة أدلين هيلو، كموضوع لنزقهم وأهوائهم. إن علم ذلك لفي أعمق أسرار التنظيم البشري.

ـإنَّ الحب، هذا الفجور الضخم للعقل، هذه المتعة القاسية والخشنة في النفوس الكبيرة، واللذة ، هذه السوقية المباعة، ليسا الا وجهين مختلفين لعملة واحدة. إن الزوجة التي تلبي هاتين

الرغبتين الواسطتين لطبيعتين، هي نادرة في جنسها، ندرة قائد عظيم أو كاتب عظيم او فنان عظيم او مخترع عظيم في أمة من الأمم. الرجل العالي المقام كالسافل ، وهيلو ككروفيل، يشعرون على قدم المساواة بالحاجة الى المثال والى المتعة، الكل يسيرون بطلب الخنثى المكتنفة بالأسرار، هذه الندرة، وفي معظم الأحيان تظهر كعمل من جزءين. هذا السعي ليس الا إفساداً يسببه المجتمع. من الواضح، أنه يفرض ان يُقبل بالزواج على أنه واجب، وهو الحياة بأشغالها وتضحياتها القاسية التي تصدر عن الفريقين. إن الفاجرين، هؤلاء الذين يّجرون وراء الكنوز ليسوا أقل إجراماً من المسيئين الآخرين الذين ينالون عقاباً أشد قساوة مما يناله أولئك. هذه الملاحظة ليست درساً أخلاقياً، لكنها تلقي الضوء على كثير من المصائب التي يلتبس فهمها . هذا المشهد يحمل معه دروسه الاخلاقية المتنوعة المرامي.

٨٤

كل شيء سيقع على وزارة الحربية

أسرع البارون الى الماريشال ، أمير ويسيمبورغ الذي يتمتع عنده بحماية كبيرة كانت ملجأه الأخير ولما كـان، منذ خمس وثلاثين سنة، تحت حماية المحارب القديم، فإنه كان يلج منزله ساعة يريد ومن الباب الذي يريد.

ـأيه! صباح الخير يا عزيزي هكتور، قال هذا الملازم الكبير والخيِّر. ما بك؟ تبدو مـرتبكاً. انتهت الـدورة وهذه واحـدة مضت، أتحدث الآن عن ذلك كما سابقاً عن معاركنا. يقيني على ما اعتقد أن الصحف تسمي هي أيضـاً الدورات، بـالمعارك البرلمانية.

ـأُصبنا بشرّ أيها الماريشال، لكنّ ذلك مرض العصر! قال هيلو. ما العمل؟ هذه تركيبة العالم. لكل زمن آفاته. المصيبة الكبرى لعام ١٨٤١ ، أن ليس للملكية وليس للوزراء حريّة في عملهم كما كان للأمبراطور.

سلّط الماريشال على هيلو نظرة كنظرات النسر، يُظهر فخرها

وصفاءها وحدّة بصرها، بالرغم من السنين، أن هذه النفس الكبيرة تبقى دائمًا صلبة وحازمة.

ـهل تطلب اليّ شيئاً ما؟ قال، وهو يستعيد وجهاً بشوشاً.

ـأجدني مضطراً لأطلب اليك تدخلك الشخصي بشأن ترقية أحد نوابي الى درجة رئيس مكتب وتعيينه ضابطاً في الجوقة...

ـما اسمه؟ قال الماريشال وهو يرمي البارون بنظرة كالبرق.

ـمارنيف!

ـزوجته رائعة، رأيتها بمناسبة زواج ابنتك... لو أن روجيه... لكن روجيه ليس هنا. هكتور، يا ابني المسألة تعني متعتك. لا افهم كيف ما زلت في هذا العطاء! آه! إنك تشرّف الحرس الامبراطوري! هذا يفسِّر سبب الأنتماء للإدارة، إن لك زصيدك!... أترك هنا هذه المسألة يا ولدي العزيز، إن مسألة لطيفة تستحق أن تأخذ مجراها الأداري.

ـلا يا ماريشال، إنها مسألة وسخة، فالأمر يعود الى الشرطة الاصلاحية، تريد أن تراني عندها؟

ـيا للشيطان! صاح الماريشال الذي ارتبك واضطرب. تابع.

ـلكنك تراني كالثعلب وقع في الشرك... إنك تحسن التصرف معي دائمًا، فأرجو ان تتكرّم وتنشلني من هذا الموقف المخجل الذي انحشرت فيه.

روى هيلو بما أمكن من الظرف والتفكه المغامرة ذات النهاية

التعيسة.

-هل تريد أيها الأمير، لأخي الذي تحبه كثيراً، قال وهو يُنهي حديثه، أن يقضي من الغمّ والكدر وتترك أحد مدرائك، مستشار الدولة يتمرّغ بالذل؟ صاحبنا مارنيف شخص بائس لا يستطيع أن يستمر اكثر من سنتين أو ثلاث ثم نصرفه من الخدمة.

- لا أفهم كيف تحدد سنتين أو ثلاث يا صديقي العزيز! .. قال الماريشال.

-لكن، أيها الأمير، الحرس الامبراطوري خالد.

-إني الآن الماريشال الوحيد من الدورة الأولى، قال الوزير. إسمع يا هكتور. إنك لا تعرف إلى أي درجة أتمسك بك! سترى ذلك بنفسك! إن اليوم الذي أترك فيه الوزارة، سنتركها معاً. آه! لست نائباً في البرلمان يا صديقي. كثيرون يتوقون الى وظيفتك ولولا وجودي لما احتفظت بها. كن على ثقة أني بذلت دفاعاً قوياً عنك لأفوز بك... حسنا! سألبي لك طلبيك الاثنين اذ من الصعب أن أراك، وانت في هذا العمر وفي هذا المركز الذي تشغله، جالساً في قفص الاتهام. لكنك في هذا تضحي بكثير من رصيدك. وإذا أثير لغط حول هذا التعيين فيكون مقصوداً بنا نحن الشر. إني أسخر منه لكنه سيكون شوكة تضاف تحت اقدامك. في الدورة المقبلة ستعفى وخلافتك معروضة كشرك على خمسة أو ستة أشخاص نافذين في الدولة ولم تستمرّ أنت في عملك الا بفضل لباقة ومرونة تفكيري. قلت انه

في اليوم الذي تحال فيه على التقاعد، ويشغر مكانك، سنرى خمسة غاضبين وواحداً منشرحاً ولكن ان يظلّ وضعك مترجرجاً خلال سنتين او ثلاث فالأصوات ضدّنا ستتضاعف. غرق المجلس في الضحك ولوحظ أن شيخ الشيوخ، كما يقال، صار قوي العزيمة في التكتيك البرلماني.. أقول لك ذلك بوضوح تام.. شبت الآن فهل تراك سعيداً لو وضعت نفسك في مثل هذه الورطة! أين الزمن الذي كان فيه الملازم كوتان محاطاً بالمحظيات!

دق الماريشال الجرس وأضاف يقول:

ـيجب ان يتمزّق هذا المحضر.

إنك تتصرف، يا سيدّي كوالد! ولا أجرؤ أن أحدثك عن قلقي.

ـاريد أن يلزم روجيه هذا المكان ، صاح الماريشال عندما رأى الحاجب ميتوفلي يدخل. سأطلبه بنفسي. أخرج يا ميتوفلي. وأنت يا رفيقي القديم إذهب ورتب أمر هذا التعيين حتى أصادق عليه. لكن هذا المتآمر لن يتمتع طويلاً بثمرة جرائمه لأنه سيراقب ويعاقب بالشدة عند أقل هفوة. الآن ، وأنت اجتزت هذه الورطة أيها العزيز هكتور، اوصيك بالاحتراس واليقظة. لا تنهك أصدقاءك. سيرسل لك هذا التعيين هذا الصباح وزلمتك سيكون ضابطاً!... كم تبلغ من العمر الآن؟

ـسابلغ السبعين في ثلاثة أشهر.

ـوما زلت جريئاً! قال الماريشال وهو يبتسم. إنك أنت الذي يستحق الترقية! لم نعد في عهد لويس الخامس عشر!

ـهذه هي نتيجة الرفقة التي تشد الى بعضهم البعض، القلة المجيدة الباقية من الكتيبة النابوليونية، والذين يعتبرون أنفسهم مطاردين فيضطرون الى الدفاع عن بعضهم البعض تجاه الجميع وضدّ الجميع

ـمعروف آخر كهذا، قال هيلو في نفسه وهو يجتاز الساحة، واكون فقدت عقلي. توجه الموظف الى البارون نوسنجان الذي لا يتوجب له بذمته غير مبلغ زهيد فنجح في استقراض مبلغ اربعين الف فرنك منه مقابل الالتزام براتبه لسنتين إضافيتين، لكن البارون اشترط أنه عندما يحال على التقاعد ، فالحصة النسبية المستحقة من راتبه ستخصص لإيفاء هذا المبلغ حتى إتمام رأس المال مع فوائده.

ـتم هذا العمل كسابقه باسم فوفيني الذي وقّع له البارون سندات بمبلغ إثني عشر الف فرنك.

ـفي الغد، أزيل كل شيء وقُضي على المحضر المشؤوم وعلى شكوى الزوج والرسائل.

كادت الترقيات المعيبة للسيد مارنيف الاّ تُلحظ في ضوضاء أعياد تموز فلم تظهر أية مقالة في الصحف بشأنها.

٨٥

كارثة أخرى

استقرت ليزبت التي بدت على خلاف مع السيدة مارنيف ، عند الماريشال هيلو .

بعد عشرة أيام من هذه الأحداث ، أذيعت المناداة الأولى لزواج العانس بالعجوز الشهير الذي لتنال رضاه روت له أدلين ، الكارثة المالية التي حلّت بهكتور ورجته بالا يحدّث البارون عن ذلك لأنه ، كما قالت ، يائس ومنهك ومرهق .

ـ مسكين . . . طَعُن في السن ! أضافت أدلين .

انتصرت ليزبت إذن ! وستتوصل الى هدفها من طموحها ، ومن المرتقب ان ترى خطتها تّمت وشفت غلّة حقدها . تمتعت قبل الأوان بنشوة التحكم بالعائلة التي اذلتها لمدة طويلة ، ووعدت نفسها أن تكون راعية من حضنها ، والملاك المنقذ الذي سيحيي العائلة المنكوبة ، وكانت تلقب نفسها بالسيدة الكونتيسة أو بسيدة الماريشال وهي تلقي التحية على صورتها في المرآة : بينما ستنهي أدلين وأورتنس أيامهما في الضيق متصارعتين مع البؤس ستجلس النسيبة بت في قصور التويليري تفاخر العالم بزهوها .

غير أن حادثاً رهيباً قلب العانس من القمة الاجتماعية حيث وضعت نفسها بفخر واعتزاز .

في اليوم ذاته أذيعت المناداة الأولى ، استلم البارون رسالة أخرى من افريقيا . حضر الزاسيّ آخر وسلم رسالة بعد أن تأكد أنه وضعها في يد البارون هيلو وبعد ان ترك له عنوان سكنه ، غادر الموظف الكبير الذي تركه مصعوقاً لدى قراءته الأسطر الأولى من الرسالة

« يا ابن اخي ستستلم هذه الرسالة ، حسب توقعي ، في السابع من آب . وإذ أفترض انك تستغرق أياماً ثلاثة لإرسال النجدة التي نطلبها والتي تتطلب خمسة عشر يوماً لتصلنا فنكون بلغنا اوائل ايلول .

« لو سارت أمور التنفيذ وفقاً لهذه المهل فسوف تنقذ كرامة وحياة من يخلص لك ، جوهان فيشر .

« هذا ما يطلبه الموظف الذي أمددتني به كمساعد ، لأني ، على الأرجح معرّض للحضور امام محكمة الجزاء او أمام مجلس الحربية إنك تدرك انه من غير المعقول ان يساق جوهان فيشر أمام أي محكمة ، إنه يتوّجه وحده أمام محكمة ربّه .

« يبدو لي ان موظفك صبيّ رديء قادر على تعريض سمعتك غير أنه ذكي داهية . يدّعي انه عليك الصراخ اكثر من الآخرين فترسل لنا مفتشاً ومفوّضاً خاصاً مكلفاً بالكشف عن المجرمين والبحث عن الظلامات وفرض العقوبات القاسية

اخيراً ، لكن من يتوسط قبل كل شيء بيننا وبين المحاكم عندما نقدِّم نزاعاً .

« إذا وصل مفوّضك هنا في أول أيلول حاملاً معه اوامرك ، وإذا أرسلت لنا مئتي الف فرنك لتجديد كميات البضاعة في المحلات مما نقدِّر الحصول عليه في المناطق البعيدة ، وعلى هذا الاساس ، يتطلعون الينا كمحاسبين نزهاء لم تُلطخ سمعتنا .

« يمكنك ان تأمن للجندي الذي يسلمك هذه الرسالة وتعطيه وكالة باسمي على احد المحال الجزائرية . إنه رجل عصامي ، قريب لنا ، لا يسعى الى معرفة ما يحمل. اتخذت التدابير لتأمين عودته وإذا لم تستطع ان تفعل شيئاً فأني اموت بطيبة خاطر من أجل الذي ندين له بسعادة ابنتنا أدلين » .

ملذات الهوى والقلق والكارثة التي ساهمت في إنهاء مهنته المشرّفة ، منعت البارون هيلو من التفكير بالمسكين جوهان فيشر الذي أعلمه في الرسالة الأولى بالخطر الجدي الذي أصبح الآن ملحاً .

غادر البارون غرفة الطعام وهو في اضطراب ظاهر ، فانهال على أريكة في الصالون . ضاع عما حوله وتاه في استرخاء أثاره سقوط عنيف . كان يحدِّق بثبات ورديّة سجادة دون أن يدرك أنه يمسك في يده رسالة جوهان المشؤومة .

سمعت أدلين من غرفتها ، سقوط زوجها على الأريكة كسقوط كتلة . هذه الصدفة المفردة جعلتها تعتقد أنه أصيب

بسكتة دماغية تطلعت في المرآة عبر الباب وهي فريسة خوف شديد يسّمرها مكانها جامدة اذ رأت زوجها في وضعية رجل مصروع .

قدمت البارونة على رؤوس قدميها ولم يسمع هكتور شيئاً فاقتربت ولاحظت الرسالة فأخذتها وقرأتها فاضطربت فرائصها وشعرت بثورة عصبية رهيبة حفظ الجسد منها أثراً أزلياً . بعد بضعة أيام أصبحت عرضة لرعشات مستمرة ، أما هذه اللحظة الأولى فمضت بسلام لأن الحاجة الى العمل أمدتها بهذه القوة التي لا تستقى الاّ من مصادر الانسان للقدرة الحياتية ذاتها .

ـ هكتور ! تعال الى غرفتي ، خاطبته بصوت يشبه التنّهد ، حتى لا تراك ابنتك على هذه الحال ! تعال يا صديقي ، تعال .

ـ أين أجد مئتي ألف فرنك ؟ يمكنني إيفاد كلودفينيون كمفوض انه شاب مفكّر وذكي . . . إنها مسألة يومين . . لكن كيف الحصول على مئتي الف فرنك ، ابني لا يملك هذا المبلغ ، بيته مثقل بتأمين الثلاث مئة الف فرنك . إن أخي لا يملك أكثر من ثلاثين الف فرنك كمدخّرات . سخر نوسنجان مني ! . . . فوفيني ؟ . . . أمدّني بعد جهد ومنه بعشرة آلاف فرنك لأكمل المبلغ المخصص لابن هذا الخسيس مارنيف . لا ، كل ذلك اصبح معروفاً ويجب ان أقصد الماريشال وأرتمي على رجليه لأعترف له بكل ما يجري ، وأحكم على ذاتي بالنذالة وأرضى برشقاته حتى أغرقَ بحشمة .

ـ هكتور ! هذا ليس نكبة فحسب ، بل سحق للكرامة ، قالت أدلين . عمي المسكين سينتحر . لا تقتل غيرنا والحق بجانبك ، لكن لا تكن قاتلاً مجرماً ! كن نشيطا ، سأجد مصدراً .

ـ لا ! قال البارون . لا أحد في الدولة يستطيع أن يؤمِّن مبلغ مئتي الف فرنك ، حتى ولو كان الأمر يتعلق بإنقاذ وزارة ! أوه ! أين أنت يا نابوليون ؟

ـ عمي ! الانسان المسكين ! هكتور ، لا يمكن أن نتركه ينتحر مهاناً وذليلاً !

ـ ثمة مصدر موثوق ، قال هكتور . لكن . . . غير مؤكد . . . نعم ، إن كروفيل على عداوة شديدة مع ابنته . . . آه ! إنه مكتنز بالمال ، وحده يقوى علي . . .

ـ لا عليك يا هكتور ، من الأفضل ان تهلك زوجتك من ان نتخلى عن عمنا فيهلك ، ويتحطّم شقيقك وينحط شرف العائلة ! قالت البارونة التي هزّها شعاع من الأمل . نعم ، أستطيع أن أنقذكم جميعاً . . . أوه ! يا الهي ! أية فكرة خسيسة هذه ! كيف تسلطّت عليّ ؟

صرّت يديها وخرّت على ركبتيها وصلّت . وعندما نهضت أبصرت انطباعاً مجنوناً من الفرح على وجه زوجها الذي عاودته الافكار الشيطانية فسقطت في حزن المخبولين .

ـ تحرّك يا صديقي ، أسرع الى الوزارة ، صاحت بعد ان

أفاقت من غفلتها ، إسعَ لارسال مفوّض ، يجب ان يتم ذلك . تدبّر أمر الماريشال ! ولدى رجوعك عند الخامسة ، قد تجد . . . نعم ! ستجد مئتي الف فرنك . الكل . عائلتك ، شرفك كرجل وكمستشار دولة وكإداري ، نزاهتك ،ولدك ، سينتشلون ، غير أنك ستفقد ادلين ولن تراها بعد ذلك . هكتور ، يا صديقي أضافت وهي جاثمة على ركبتيها تضغط على يده وتقبلها ، باركني ، قل لي كلمة الوداع !

ـ كان ذلك مؤثراً جداً حتى أنه أمسك بزوجته وأقامها وعانقها وقال لها : ـ لم أفهمك !

ـ لو فهمتني لمتّ خجلاً أو لما قدرت على إنهاء هذه التضحية الأخيرة

ثم ظهرت مارييت لتقول :

ـ المائدة في خدمة السيّدة .

قدمت أورتنس طالبة يوماً سعيداً لأبيها وأمها . يتوجب عليهما ان يذهبا الى الفطور بوجهين كاذبين .

ـ إذهب الى الفطور وحدك وسألحق بك ! .

جلست الى طاولتها وكتبت الرسالة التالية :

« عزيزي السيد كروفيل ، لي عندك خدمة أطلبها اليك ، إني بانتظارك هذا الصباح وأعتمد على لطفك الذي اعهده بك فلا تجعل خادمتك المخلصة تنتظر طويلاً .

أدلين هيلو.

ـ لويز ، قالت لخادمة ابنتها ، احملي هذه الرسالة الى الحاجب وبلّغيه لينقلها حالاً الى عنوانها ويطلب جواباً .

كان البارون يقرأ الجرائد ، فقدَّم صحيفة جمهورية لزوجته مشيراً لها الى مقالة قائلاً :

ـ حان الوقت ؟

هذه هي المقالة ، إنها من النصوص المرعبة التي تتلقفها الجرائد لتلوين كتاباتها السياسية :

« أحد مراسلينا كتب لنا من الجزائر أنه اطلّع على بعض المفاسد والتجاوزات داخل مصلحة المؤن في إقليم أوران حيث حقّقت العدالة الاختلاسات ظاهرة ، والمجرمون معروفون . إذا لم يتدارك هذا الأمر ونفرض العقوبات القاسية ، سيستمرّ الوضع ونفقد الكثير من الرجال نتيجة للاختلاسات والابتزازات التي تنعكس على غذائهم ضرراً اكثر منه حديد العرب ونار المناخ . إننا بانتظار معلومات جديدة قبل ان نتابع هذا الموضوع المؤسف .

« لا نعجب مطلقاً للخوف الذي يحدثه موقف الصحافة في الجزائر كما تقرر في وثيقة ١٨٣٠ »

ـ سأرتدي ثيابي وأتوجه الى الوزارة ، قال البارون وهو يغادر الطاولة ، الوقت ثمين جداً ، ففي كلِّ دقيقة تصارع حياة رجل الموت .

ـ أوه ! فقدت كل أمل يا أمي ، قالت أورتنس .

ودون ان تقوى على حبس دموعها ، نـاولت أمهّا مجلة للفنون الجميلة . اطلعت السيدة هيلو على رسم لمجموعة دليلاً من عمل الكونت ستانبوك كتب تحته : يخصُّ السيدة مارنيف . ومنذ الأسطر الأولى كانت المقالة الموقعة بالحرف ف ، تتم عن موهبة وكياسة كلودفينيون .

ـ صغيرتي المسكينة . . . قالت البارونة .

وإذ تخوفت أورتنس من لهجة أمهـا المتراخيـة تفحصتهـا بنـظراتها فـاكتشفت فيها ألماً يخجل أمـامه الألم الـذي تحمله وأسرعت الى معانقة أمها التي خاطبتها قائلة :

ـ ما بك يا أمي ؟ ماذا حصل ، وهل يمكن ان نكـون تعساء اكثر مما نحن عليه ؟

ـ يبدو لي يا بنيّتي ، أن أشجاني الرهيبة الماضية لا تقارن مع ما أكابده اليوم . حتى أصير بلا أحزان ؟

ـ في الجنة يا أمي ! قالت اورتنس بوقار .

ـ تعـالي يا مـلاكي اعينيني على ارتـداء ثيـابي . . . لا ، لا ، . . . لا أريدك ان تهتمي بذلك . إرسلي لويز .

٨٦

زينة أخرى

عندما دخلت أدلين الى غرفتها توجهت الى المرآة تتفقد نفسها . تأملّت جسدها بحزن وتفحصّ دقيق وهي تتساءل :

ـ أما زلت تراني جميلة؟... أما زلت موضوع رغبة؟... هل غزت التجاعيد صفحة جسدي؟...

رفعت شعرها الأشقر الفاتن لتكتشف فوديها! فبدا كل شيء نضراً كما عند صبية.

ذهبت أدلين أبعد من ذلك فاطّلعت على كتفيها واطمأنت ثم شمخت. إن جمال كتفين ساحرتين يندرج في المقام الأخير لدى امرأة عاشت حياتها في الطهارة.

اختارت أدلين بعناية أدوات تبرجها؛ غير ان المرأة التقية والعفيفة تتصرّف دائمًا بوحيٍ من العفة رغم ابتكاراتها القليلة في الدلال والغنج. ما الفائدة من جوارب حريرية، رمادية

وجديدة، ومن حذاء الساتان طالما تجهل تماماً فنّ عرض ساقها الجميل، في اللحظة الحاسمة، اذ تتجاوز فستانها المرفوع حتى النصف مما يفتح آفاقاً رحبة للرغبات!

ارتدت بتأنق أجمل فستان عندها، من الموسلين المبقّع بالأزهار المرسومة، والمفرغ على الصدر وذات الأكمام القصيرة، لكنها خافت من عريها فغطت ذراعيها الجميلتين بأكمام من الشاش الشفاف وحجبت صدرها وأكتافها بخمار مطرز.

بدت جدائلها الملولبة ذات أبعاد تعبيرية فأطفأت سحرها بقبعة فائقة الحسن؛ لكن هل عرفت، بالقبعة وبدونها، أن تتغانج بلولبات شعرها المذهبة لتعرض يديها المغزولتين اللتين تثيران الإعجاب؟...

هذا ما كان خضابها. إن إيمانها بفعلها المحرم واستعداداتها لخطأ متعمدٍ أحدثت فيها حرارة عنيفة أعادت اليها للحظة بريق الشباب. لمعت عيناها وشعت بشرتها وبدلاً من أن تجد في نفسها سحراً رأت ذاتها، بطريقة ما، إمرأة ماجنة فأرعبها الموقف.

كانت ليزبِتْ، بالحاح من أدلين، روت الظروف التي أحاطت بخيانة ونسيسلاس، فادركت البارونة عندها وهي في ذهول عظيم أنه في سهرة وفي لحظة، أصبحت السيدة مارنيف عشيقة الفنان المسحور.

ـ ماذا تفعل تلك النساء؟ سألت البارونة لليزبِتْ.

لا شيء يعادل فضول النساء الفاضلات إزاء هذا الموضوع، يطلبن وسائل الافتتان المؤدية للعار مع بقائهن طاهرات

يسحرن الألباب، هذه طبيعتهن، أجابت النسيبة بِتْ. كانت فاليري ذلك المساء، يا عزيزتي، في حالة تمكنها من أن تردي ملاكاً.

- أخبريني. كيف كانت تتصرف؟

- ليس في الأمر نظريات، الممارسة فقط هي الأساس، قالت ليزبِتْ بتهكم، عندما سمعت البارونة هذا الحوار كانت تود أن تسترشد بالنسيبة بِتْ غير أن الوقت داهمها.

المسكينة أدلين، لا تحسن ابتكار خصلة شعر تحركها عند ذقنها ولا تعليق زر ورد في أفضل مكان من لباس صدرها، ولا التفنن بحيل التزيين الهادفة الى ايقاظ رغبات الرجال الهامدة. اعتنت فقط بلباسها: ليست غانية محترفة.

المرأة مقبل شهي للرجل، قال موليير مازحاً، على لسان رينيه الكبير. هذه المقارنة تفترض في الحب نوعاً من العلم المطبخي. المرأة الفاضلة والكريمة تصبح كالوليمة المفضلة أو كالشواء في نار ملتهبة. أما العاهرة فعلى العكس من ذلك تصبح عمل الطباخ الشهير كاريم بتوابله وبهاراته وأبحاثه.

لا تستطيع البارونة ولا تعرف أن تستغل صدرها الأبيض في

طبق رائع من التخريم الزخرفي على غرار السيدة مارنيف. إنها تجهل سر بعض الوضعيات وتأثير بعض النظرات.

ترددت المرأة النبيلة اكثر من مئة مرة، فهي قد لا تعرف شيئاً تقدمه لعين فاسق خبير. أن تكون امرأة شريفة ومحتشمة أمام الناس، وغانية لأجل زوجها، فذلك يتطلب امرأة عبقرية فذة وهذا لا يتوفر منه الا القليل. هنا يكمن السر في الارتباط الطويل الذي لا يفسر، بالنساء اللواتي يفتقدن هاتين الملكتين المزدوجتين الساحرتين!... نتذكر المركيزة بيسكارا! هؤلاء النساء العظيمات والشهيرات ومثيلات ديان دي بواتييه، الفاضلات، وإذا شئنا نحصي منهن الكثيرات.

ان المشهد الذي بدأت به هذه الدراسة الجدية والمخيفة للتقاليد الباريسية ستظهر إذاً من جديد مع هذا الفارق البسيط الذي بدلت في أدواره المصائب التي تكهن بها قائد الميليشيا البورجوازية. كانت السيدة هيلو تنتظر كروفيل للمقاصد التي دفعته الى القدوم وهو يبتسم للباريسيين من أعلى مركبته، قبل ثلاث سنوات.

والغريب في الأمر ان البارونة كانت أمينة لذاتها ولحبها وهي في سبيل استسلامها لهذه الخيانة الفظة التي لا يبررها الحكماء مهما كانت أسبابها.

ـ ما العمل لأكون كالسيدة مارنيف! قالت في نفسها وهي تسمع رنة الجرس.

حبست هذه المخلوقة المسكينة. النبيلة، دموعها وأنعشت الحمية تقاسيم وجهها، فصممت أن تكون غانية حقاً.

ـ بحق الشيطان، ماذا تريد مني هذه الشجاعة، البارونة هيلو؟ كان كروفيل يحدث نفسه وهو يصعد الدرج الطويل. آه! ستحدثني عن خصومتي مع سيليستين وفيكتوران؛ لكن لن أنثني...

ـ عند دخوله الصالون حيث كان يتبع لويز، قال محدثاً ذاته اذ شاهد عري المكان (على طريقة كروفيل):

ـ ايتها المسكينة!... ها هي كاللوحات الجميلة يبعدها الى العلية انسان لا علم له بفن الرسم.

ان كروفيل الذي كان يرى الكونت بوبينو وزير الخارجية، يبتاع لوحات وتماثيل، أراد أن يذاع صيته بين الرساليين الباريسيين الذين يقصرون حبهم للفن على البحث عن قطع نقدية من عشرين فرنكاً بقيمة عشرين فلساً.

٨٧
عاهرة مهيبة

بسمت أدلين بلطف لكروفيل ودعته للجلوس الى كرسي أمامها.

ـ أنا رهن أوامرك، أيتها السيدة الجميلة، قال كروفيل.

أصبح السيد العمدة رجل سياسة فاتخذ للباسه القماش الأسود. بدا وجهه فوق ثيابه كالقمر فوق سحابة من الغيوم الدكناء. قميصه مزدانة بثلاث حبات من اللؤلؤ، الواحدة منها بخمس مئة فرنك، وتعطي فكرة عالية عن قدراته... الصدرية، والعمدة يقول:ـ يرون بي رياضي المنصة المقبل! يداه العريضتان الشعبيتان تحملان القفاز الأصفر منذ الصباح. وشكت جزمته المطلية بالفرنيق العربة الصغيرة السمراء للحصان الذي أقله.

بعد ثلاث سنوات كان الطموح عدل في موقف كروفيل، ولكنه كالرسامين العظام كان على الطرف الآخر من هذا الطموح.

عندما كان يخشى طبقة الأعيان، فيزور الأمير ويسمبورغ في مقر مقاطعته أو الكونت بوبيني، كان يحتفظ بقبعته في يده بشكل طليق. وكانت فاليري علمته ذلك، وكان يدخل ابهامه في فتحة صدرته بغنج وهو يتظارف برأسه وعينيه. انه مدين بهذه الوضعية الجديدة لفاليري المتهكمة التي نفحت فيه هذا المسلك المضحك بشكل فاضح، بحجة بعث روح الشباب في العمدة.

ـ رجوتك المجيء يا عزيزي كروفيل، قالت البارونة بصوت مرتجف، لغرضٍ ذي أهمية بالغة.

ـ حزرته يا سيدتي، قال كروفيل بلهجة رقيقة؛ أنك تطلبين المحال... أوه! أنا لست أبا بربرياً ولا أباً فظاً، حسب تعبير نابوليون. اسمعيني جيداً أيتها السيدة الجميلة. لو حل الخراب بأولادي بسببهم، لكنت أعنتهم؛ أن أكفل زوجك يا سيدتي؟... يعني أن نملأ البرميل بفراشات الليل! بيت مؤمن عليه بثلاث مئة الف فرنك من أجل أب لا رجاء في اصلاحه! لا يملكون شيئاً، انهم بؤساء! يلهون أبداً! لا دخل عندهم لتأمين معاشهم سوى ما يكسبه فيكتوران من القصر. فليلغ بكلامه، السيد ابنك!... آه! من المفترض بهذا الدكتور، ان يكون وزيراً! انه أملنا جميعاً. قاطر قوي تتجرح قوائمه بغلاظة. لو كان استدان للوصول الى مبتغاه أو اقترض ليقيم حفلاً للنواب حصولاً على المزيد من الأصوات ويضاعف تأثيره لقلت له: «هذه ثروتي فاقتطع منها يا صديقي!» لكن ان يسدد حماقات

أبيه، تلك الحماقات التي سبق وحذرتك منها! آه! أبعده ابوه خارج السلطة... أنا الذي سيصير وزيراً...

ـ هيهات! عزيزي كروفيل، الأمر لا يعني أولادنا المخلصين!... اذا قسا قلبك على فيكتوران وسيليستين فأنا سأحبهما كثيراً وربما قدرت على تطبيب المرارة التي عكسها في نفسيهما المشعتين غضبك الحاقد. انك تعاقب أولادك على احسان فعلوه!

ـ نعم، عن عمل خير أسيء صنعه! انه شبه جريمة! قال كروفيل اذ سُر كثيراً لهذه العبارة.

ـ عمل الخير، أيها العزيز كروفيل، لا يعني أخذ المال من ثروة تطفح به! انه تحمل الحرمان بسبب فضيلة الكرم والمعاناة المؤلمة من احسانه! انه توقع انكار المعروف! عمل الاحسان الذي لا ندفع من أجله شيئاً تتجاهله السماء...

ـ ليس محظوراً، يا سيدتي، على الطاهرين أن يدخلوا المستشفيات، انهم يعلمون أن السماء لهم. أما أنا فأنسان بشري، اخاف ربي لكني اخاف ايضاً جحيم البؤس. أن أكون دون فلس فهذا منتهى التعاسة في نظامنا الاجتماعي الحاضر. اني أعيش في عصري وأمجد المال!...

ـ أنت على صواب من الوجهة الدنيوية.

لكن أدلين مازالت على بعد أميال من السؤال وتشعر

كالقديس لوران، يتقلب على النار وهي تفكر بعمها، لأنها كانت تتصوره يطلق النار على نفسه!

أخفضت عينيها ثم رفعتهما الى كروفيل مليئتين باللطف الملائكي لا بالشبق المثير المستظرف في فاليري.

قبل ثلاث سنوات، كانت أدلين بهذه النظرة الفاتنة، تخلب كروفيل.

- أعرفك اكثر كرماً... قالت أدلين، تتحدث عن ثلاث مئة ألف فرنك كما يتحدث عنها الأسياد الكبار...

نظر كروفيل الى السيدة هيلو فوجدها كزنبقة في نهاية توهجها، وارتسمت في مخيلته أفكار مشوشة، لكنه كان يقدس هذه المخلوقة النقية فكبت شكوكه في الجهة الفاجرة من قلبه.

- سيدتي، مازلت أنا نفسي، لكن التاجر السابق، إن لم يكن سيدا كبيراً فيكونه بأسلوب ومنهج اقتصادي ويجب أن يحمل لكل شيء أفكاراً نظامية. يمكن أن افتح حساباً للطائشين أو اعتماداً وأضحي في هذا المضمار ببعض الأرباح، لكن أن يمس مالي!... فهذا جنون. سيحصل أولادي على ملكيتهم، ملكية أمهم وملكيتي، لكنهم لا أراهم يريدون أن ينزعج والدهم ويتقلص ويضمرا... حياتي أعيشها بفرح! أجري مع النهر بسرور. أقوم بجميع الواجبات التي يفرضها عليّ القانون أو العاطفة أو العائلة وأفي بالروحية ذاتها وبدقة، السندات

المستحقة. فليتصرف أولادي على طريقتي في تدبيري فأكون مرتاحاً؛ أما الآن، وشرط الا تصيب حماقاتي أحداً غير الأغبياء... (عفواً! أنت لا تعرفين هذا التعبير في البورصة) فلا حجة لهم في لومي اذ سيحصلون على ثروة محترمة بعد موتي. أولادك لا يتحدثون بالكثير في هذا الموضوع عن والدهم الذي يشقي ابنه وابنتي ويهدم حياتهما...

وبقدر ما كانت تسير أدلين في الحديث كانت تبتعد عن هدفها...

ـ ان لك مآخذ كثيرة على زوجي يا عزيزي كروفيل ومع ذلك فربما كنت أفضل أصدقائه لو كنت وجدت في زوجته انسانة ضعيفة...

قذفت كروفيل بنظرة محرقة، لكنها تصرفت إذّاك مثل دوبوا الذي ركل استاذه كثيراً، فتنكرت بشكل صارم مما أعاد الافكار الفاجرة الى مخيلة وكيل العطارة القديم فقال في سره:

ـ هل تراودها رغبة في الانتقام من هيلو؟... هل اكون عمدة أفضل من كوني في الحرس الوطني؟... النساء حقاً غريبات!

ثم جلس على طريقته الأخرى وهو يرمق البارونة بتأنق ظاهر.

ـ يقال، تابعت البارونة، انك تنتقم منه بسبب عفة امرأة

صدتك وكنت احببتها... حتى التفكير.. بشرائها، أضافت بصوت خافت.

- بسبب امرأة ملائكية، قال كروفيل وهو يبتسم للبارونة ابتسامة معبرة أخفضت عيني البارونة اللتين تبلّلت فيهما الرموش؛ ذلك أنك ذقت الأمرين في هذه السنوات الثلاث. اليس كذلك يا عزيزتي!

- لا تتحدث يا عزيزي كروفيل عن عذاباتي، انها فوق طاقة الاحتمال. آه! اذا كنت مازلت تحبني فتنتشلني من الدوامة التي أنا فيها! اني في الجحيم! ان قاتلي الملوك الذين يعذبون ويجرجرون وراء أحصنة أربعة، كانوا متفائلين لو قوبلت حياتهم بحياتي، لأنهم لا يفسخون سوى جسدهم بينما قلبي هو الذي يخضع لتنازع قوة الأحصنة الأربعة.

اخرج كروفيل يده من فجوة صدرته ووضع قبعته على المنضدة وبدل جلسته وابتسم! بدت هذه البسمة بلهاء فازدرتها البارونة وحسبتها مؤشر لطف.

- ترى أمامك زوجة، ليست يائسة فقط، بل كرامتها في نزاع مع الحياة، أيها الصديق، ولا قدرة لها على منع الجرائم.

واذ خشيت قدوم أورتنس، أقفلت الباب بالمزلاج وبالاندفاع نفسه خرت على قدمي كروفيل وخطفت يده وقبلتها وقالت:

- كن منقذي!

تـوقعت أدلين وجود بعض أنسجة كريمة في قلب هذا التاجر فاستكانت الى أمل، سطع فجـأة، بالحصـول على المئتي الف فرنك مذلة أو مهانة ثم تابعت وهي ترمقه بنظرات مجنونة:

ـ إفتدِ نفساً، أنت الذي يريد ان يشتري عفة امرأة!... ثق بطهارتي كزوجة، بشرفي الذي تعلم جيداً متانته! كن صديقي! أنقذ عائلة بكـاملها من الدمار والعـار واليأس، أوقفهـا عن الانزلاق في الوحل حيث الطين يمتزج بالدماء! أوه! لا تطلب مني تفاصيل!.. ردت على اشارة من كروفيل الذي أراد ان يأخذ الكلام، وخاصة لا تقل لي: «حذرتك سابقاً!» كالاصدقاء السعداء تجاه تعيس. لا جدال!... أطع التي كنت تحبها، أطع امرأة اعتبرت الانحناء الى قدميك ذروة النبل؛ لا تسألها شيئاً، فقط انتظر عرفانها بالجميل!... لا، لا تعطني شيئاً بل أقرضني بل أقرض التي تدعوها أدلين!...

وهنا سالت الدموع بوفرة وانتحبت أدلين بحيث أن قفازات كروفيل تبللت.

وعبارة:ـ يلزمني متنا الف فرنك!... كادت الا تفهم في هذا السيل من البكاء، تماماً كالحجارة مهما كبرت، تضيع في المساقط المائية الألبية المجروفة في ذوبان الثلوج انها قلة الخبرة لدى المرأة العفيفة! المسجون لا يطلب شيئاً، كما لاحظنا مع السيدة مارنيف، بدا وكأنه يقدم كل شيء. هذا النـوع من النساء لا يصير متطلباً الا في الوقت الذي يشعـرن فيه انهن

أصبحن قليلات التأثير أو عندما يتعلق الأمر باستغلال رجل كما يستغل مقلع حجارة عندما يندر وجود الجصّ.

عندما سمع كروفيل هذه العبارة: «مئتا الف فرنك!» فهم كل شيء.

بلطف أعان البارونة على النهوض، قائلاً لها هذه العبارة الوقحة:

- هيا، كوني هادئة ايتها الام الصغيرة؛ غير أن أدلين لم تسمعها وهي في ضياعها

انقلب وجه المشهد وأصبح كروفيل، كما اعتقد، سيد الموقف.

٨٨

كروفيل يحاضر

أثرت ضخامة المبلغ بشدة على كروفيل فتبرد شعوره العاطفي الحماسي عندما أبصر هذه المرأة الجميلة على قدميه.

ومهما كانت المرأة ملائكية وطاهرة تفقد جمالها عندما تبكي

بهذه الحرارة. ان مثيلات السيدة مارنيف، كما لاحظنا، يتباكين أحياناً ويسمحن فقط لدمعة واحدة تنحدر على خدهن؛ لكن أن يغرقن في الدموع ويتجمر الأنف، فهذا خطأ لا ينزلقن اليه مطلقاً.

ـ لنبحث بالأمر، يا بنيتي. بعض الهدوء! أجاب كروفيل وهو يمسك بيديه، يدي السيدة هيلو الجميلة، ويربت عليهما. لماذا تطلبين مني مئتي الف فرنك؟ ماذا تريدين أن تفعلي بها؟ ولمن ستعطينها؟

ـ لا تلح عليّ، ولا تطلب شرحاً، أعطني المبلغ!... وبهذا تنقذ حياة ثلاثة أشخاص وكرامة أولادك.

ـ وتعتقدين أيتها الأم العزيزة، قال كروفيل، أنك تجدين في باريس انساناً يسرع، لدى سماعه كلام امرأة قريبة من الجنون، ليبحث في الحال، في جارور أو في اي مكان، عن مئتي الف فرنك ترقد هناك، بلطف، تنتظر أن تتكرم وتقشطه؟ هكذا تفهمين الحياة والاشغال يا حلوتي؟... ناسك شديدو المرض، أرسلي لهم سر القربان المقدس؛ ففي باريس لا يستطيع أي شخص، إلا جلالة السيد «المصرف» ونوسنجان الشهير والبخلاء المتعبدين للذهب كما حالنا مع امرأة، أن ينجز مثل هذه الأعجوبة! مخصصات الملك مهما بلغت، هي ذاتها تؤجل مطلبك الى الغد. كل انسان يعتز بماله ويضارب به لتحسينه.

تخطئين يا ملاكي العزيز اذا كنت تعتقدين ان الملك لوي

فيليب الذي يحكم، لا يخطىء في هذه المسألة. يعرف مثلنا كلنا أن قطعة المئة فلس القديسة. الموقرة، المتينة، المحبوبة، اللطيفة، الجميلة، النبيلة، الفتية، القادرة تتقدم على الدستور! فيا ملاكي الساحر، المال يتطلب فوائد فهو دائمًا بانتظارها! قال راسين العظيم، انك تختطفين اله اليهود! اخيراً، المرموزة الخالدة لعجل الذهب! رجعنا الى العهود التوراتية! العجل الذهبي كان أول كتاب كبير معروف. انك تعيشين ببذخ في شارع بلومي! كان على المصريين قروض ضخمة للعبرانيين ولم يلحقوا بشعب الله هذا، بل لحقوا بأموالهم. تطلع الى البارونة مفكراً: «هل أنا مرح» وبعدها تابع:

ـ اتتجاهلين حب كل الناس لمتاعهم. عفواً. أصغي إليّ جيداً، تفهمي هذا التحليل. أنت تطلبين مئتي الف فرنك!... لا يمكن لاحد ان يتخلى عن هذا المبلغ دون تبديل في التوظيفات القائمة. فلنحسب!... نحصل على مئتي الف فرنك يجب التضحية بدخل يقارب السبعة آلاف فرنك! لن تحصلي على طلبك الا بعد يومين. هذه هي الطريقة الأسرع لاقناع أحدهم بالتخلي عن ثروة، لأن هذا المبلغ يشكل ثروة كثير من البشر! كذلك يجب أبلاغه أين هي طريق المبلغ وما هو سببه...

ـ الأمر يتعلق يا عزيزي كروفيل بحياة رجلين، أحدهما سيموت من الغم والآخر سينتحر! كذلك فالأمر يعنيني اذ سألقى الجنون! اما ترى معي أنه أصابني الى الآن مس منه؟

ـ لست على كثير من الجنون! أجاب وهو يأخذ السيدة هيلو بركبتيها، ان للأب كروفيل وزنه لأنك تفضلت وفكرت به يا ملاكي.

ـ يبدو أنه يجب أن اسمح له بأن يمسك ركبتي! كانت المرأة القديسة والنبيلة تحدث نفسها وهي تخفي وجهها بيديها. انك ستمدني بثروة! قالت والاحمرار يعلو خديها:

ـ آه! ايتها الأم العزيزة، ثلاث سنوات! أوه! أراك فاتنة اكثر من أي وقت مضى!... صاح وهو يمسك بذراع البارونة ويشده الى صدره. طبعاً تتذكرين يا بنيتي. ترين كم كنت على خطأ في تزمتك بالحشمة! فالثلاث مئة الف فرنك التي رفضتها بنبل دخلت في كيس نقود امرأة اخرى. أحببتك ومازلت حبك. لكن لنعد الى ثلاث سنوات. عندما كنت أقول لك: «ستكونين لي!» فماذا كانت خطتي؟ كنت ابتغي الانتقام من هذا السافل هيلو. ان زوجك، يا حلوتي، كان اتخذ له كعاشقة، جوهرة النساء، داهية صغيرة في الثالثة والعشرين من عمرها هي اليوم في السادسة والعشرين. وجدت اكثر طرافة وكمالاً واكثر من لويس الخامس عشر ومن الماريشال ريشيليو قوة، هذه المخلوقة الساحرة، التي لم تحب مطلقاً هيلو، والتي أصبحت منذ ثلاث سنين متيمة بخادمك...

اذ كان يقول ذلك كانت البارونة تفلت يديها من يدي. كروفيل الذي استعاد جلسته الأولى. أمسك بفتحات كمه ثم

طرق على جذعه بيديه كمن يصفق بجناحين معتقداً انه صار مرغوباً وفاتناً. وبدا وكأنه يعاتب قائلاً:- أنا هو الانسان الذي طردته من بيتك!

- كما ترين، يا بنيتي العزيزة، انتقمت لنفسي وزوجك يعلم ذلك! بيّنت له انه مخدوع وهذا ما ندعوه الغرور بالذات... السيدة مارنيف عشيقتي أنا وعندما ينقصف عمر مارنيف ستكون زوجتي.

رمقت السيدة هيلو كروفيل بنظرة ثاقبة كما من الضياع.

- هكتور يعرف هذا! اجابت البارونة.

- وعاد اليها! قال كروفيل معلقاً. تحملته لأن فاليري تريد أن تكون زوجة رئيس مكتب واستحلفتني بأن أرتب الأمور بشكل ينخدع فيها الى درجة لا يظهر عندها مطلقاً. والتزمت دوقتي العزيزة (وللمناسبة فأنها ولدت دوقة، كلام صدق أقوله لك!) بما قطعته لي. أعادت اليك يا سيدتي؛ كما قالت بطرافة، زوجك هكتور عفيفاً الى الأبد!... كان الدرس حسناً! تعلّم البارون دروساً قاسية؛ لن يحتفظ بالراقصات ولا بالنساء اللواتي يراهن الفضليات؛ شفي جذرياً لأنه انشطف ككأس بيرة. لو كنت أنصت الى كروفيل بدلاً من أن تذليه وتطرديه لكنت حصلت على اربع مئة الف فرنك لان انتقامي كلفني... هذا المبلغ لكن سأجد نقودي، كما أرجو ذلك، عند وفاة مارنيف... وظفت

مالي من أجل مستقبلي. هنا سر كرمي وتبذيري. قررت أن اكون سيداً كبيراً بثمن متواضع.

ـ انك تعطي حماة ابنتك التي تعرف!... صاحت السيدة هيلو.

٨٩

حيث العاهرة المزيفة تصبح قديسة

ـ لم تتعرفي على فاليري يا سيدتي، أجاب كروفيل بوقار واتخذ جلسته الأولى. إنها في الوقت ذاته امرأة رفيعة المنشأ. امرأة كما يطلب منها وامرأة تتمتع باعتبار عال. بالأمس، مثلاً تناول كاهن الرعية الغداء عندها. ونظراً لتقواها كان أفضل عرض للقربان المقدس في الكنيسة. أوه! انها ماهرة، لطيفة، حلوة الحديث، مثقفة، عندها كل شيء من اجلها. اما بالنسبة لي يا عزيزتي أدلين فاني مدين لهذه المرأة الفاتنة بكل شيء، هذبت عقلي وطهرت لغتي، كما تلاحظين، وقومت هفواتي وأوحت لي بالفكر والتعبير. لا أقول شيئاً غير موافق. حدثت لي تغيرات كبيرة، يفترض أن تكوني لاحظتها. وأخيراً، فأنها ايقظت طموحي. قد

اصير نائباً ولن أرتكب زلة لأني اطلب نصح مرشدتي لأقل مسألة. هؤلاء السياسيون الكباركنوما، وزيرنا الحالي الشهير، يلجأون الى عرافتهم لاستكشاف المستقبل. ان فاليري تستقبل ما يقارب العشرين نائباً واصبحت ذا مكانة والآن حيث ستنتقل الى منزل جميل خلاب مع عربة ستصير احدى الأميرات المعبودات في باريس. انها قاطرة فخورة بوصفها كامرأة بهذه الصفات! آه! كم شكرت لك غالباً قسوتك!...

ـ هذا قد يشكك بمقدرة الله، قالت أدلين التي جففت السخط دموعها. لكن ما على القدرة الألهية إن تبسط سيطرتها على ذلك الرأس.

ـ انك تجهلين الناس، يا سيدتي الجميلة، أجاب السياسي الكبير، كروفيل الذي أحس بمساس في كرامته. العالم، يا عزيزتي أدلين يسعى للتفوق! وهل يبحث عن فضائلك السامية التي تقدر تعرفتها بمئتي الف فرنك؟

هزت هذه العبارة مشاعر السيدة هيلو التي أخذتها رعشة عصبية.

أدركت ان العطار المعتزل كان ينتقم منها باحتقار كما انتقم من هيلو فأثار التقزز قلبها وانقبض وتشنجت حنجرتها فاوقفتها عن الكلام.

ـ المال!... دائماً المال!... نطقت أخيراً.

ـ أثرت مشاعري، أجاب كروفيل الذي تذكر بهذه الكلمات هذه المرأة وهي تنحني له، عندما رأيتك تبكين عند قدمي!... قد لاتقتنعين بما أقوله! حسناً! لو كنت احمل محفظتي لكانت بين يديك. أنت، يلزمك هذا المبلغ؟...

سمعت أدلين هذه الكلمات الضخمة عن المئتي الف فرنك، فنسيت اهانات السيد الكبير البخس الثمن أمام هذا النجاح المغري المليء بالخداع الذي أظهره كروفيل الراغب فقط في انتزاع أسرار أدلين ليسخر منها مع فاليري.

ـ آه! سأفعل أي شيء! صاحت الزوجة اليائسة. سيدي، سأبيع نفسي، وسأصبح اذا لزم الأمر مثل فاليري.

ـ يصعب عليك ذلك، أجاب كروفيل. ان فاليري هي أسمى هذا النوع. أيها الأم الصغيرة، ان خمساً وعشرين سنة من العفة كافية لترفض دائماً، كمرض عولج بطريقة سيئة. ان طهارتك عفنت هنا يا بنيتي العزيزة. لكن سترين الى أية درجة أحبك. سأحضر لك المبلغ.

تناولت أدلين يد كروفيل وسندتها الى قلبها دون أن تستطيع التلفظ بأي كلمة ودمعة فرح بللت حاجبيها.

ـ أوه! انتظري! ستكون ثمة صعوبة! اني أعيش حياتي، اني ولد صالح، دون أحكام واهمة وسأبسط امامك الأشياء بسذاجة. تريدين أن تكوني مثل فاليري، عال. هذا لا يكفي،

فالأمر يتطلب سخيفاً، مساهماً، شخصاً كهيلو. أعرف عطاراً معتزلاً، وهو ناسج ملابس ثقيل وضخم دون فكر، انا الذي صنعته ولا أعلم متى يستطيع ان يقابلني. صاحبي هذا، نائب في المجلس، فظ ومتكبر، منضبط تحت قساوة نوع من النساء المكورات الرأس في عذرية كاملة بالنسبة لملذات الحياة الباريسية، لكن بوفيزاج (اسمه بوفيزاج) ثري مليونير ويقدم مثلي، يا عزيزتي، ومنذ ثلاث سنوات، مئة الف ريال لتحبه امرأة من النساء المعروفات بكمالهن... أجل، قال وهو يعتقد انه فسر حركة لأدلين، انه يغار مني، لاحظت!... انه غيور من هنائي مع السيدة مارنيف، والغلام مستعد لبيع بعض أملاكه من اجل امتلاك احدى...

ـ كفى، سيد كروفيل! قالت السيدة هيلو دون ان تخفي تقززها تاركة لحيائها بأن يطفو على وجهها. عوقبت الآن بأكثر من خطيئتي. ان ضميري الذي قبضت عليه يد الحاجة الحديدية يهتف لي من هذه المهانة الأخيرة. ان هكذا تضحيات مستحيلة. فقدت الكبرياء وما عدت أغضب كما في السابق، ولن أقول لك: «أخرج!» بعدما تلقيت هذه الضربة المميتة. خسرت حقي في ذلك: اني الآن لك كما العاهرة... أجل، تابعت مجيبة على اشارة رافضة، لوثت حياتي، الطاهرة حتى الآن، بنوايا خسيسة، ولا عذر لي، أعرف ذلك!... استحق كل الشتائم التي تقذفني بها! فلتتحقق ارادة الله! اذا شاء موت كائنين يستحقان الذهاب

اليه، فليموتـا وأبكيهما وأصـلي من أجلهما! واذا شـاء اذلال عائلتنا، فلننحنِ تحت سيف الانتقام ولنقبله ما دمنا مسيحيين. اني أعرف كيف اكفر عن هذا العار الذي لحقني في هذه اللحظة والذي سيقض هدوء أيامي الأخيرة. ليست السيدة هيلو التي تخاطبك، بل التعيسة، الخاطئة المتواضعة، المسيحيـة التي لن تحمل في قلبها سوى الشعور بالندم والتي ستنصرف بكليتها الى الاحسان والصلاة. ما قدرت الا أن اكون آخر النساء وأولى التائبات بتأثير من قدرة إثمي. كنت أداة عودتي الى عقلي والى صوت الرب الذي يتكلم الآن بي، أشكرك!...

كانت أدلين ترتجف من هذه الحالة المضطربة التي لم تفارقها منذ فترة. إن صوتها المليء باللطف يتناقض مع حرارة حديث امرأة صممت على سلوك طريق الخطيئة لانقاذ عائلتها. تراجع الدم عن خديها وأصبحت بيضاء الوجه وعلا الجفاف عينيها.

- قمت بدوري حتى الآن بشكل سيىء، اليس كـذلك؟ تابعت وهي تلقي على كروفيل نظرة استلطاف يضطر الشهداء الى القائها على الطاغية الجائر. ان الحب الحقيقي، الحب المقدس والمخلص في المرأة يتميز بملذات تختلف عن التي تباع وتشترى في سوق البغاء!... ولكن لماذا كل هذا الحديث؟ قـالت وهي تستدير على ذاتها وتخطو خطوة في طريق الكمال. حديثي يتسم بالسخرية التي لا عهد لي بها! سامحني على ذلك. مع ذلك، يا سيدي، ما كنت أقصد ان تصيب كلماتي غير نفسي...

ان وقار الفضيلة وضياءها السماوي نفضا غبار الذنوب الظرفية في هذه المرأة، التي تشع بجمالها المميز فتعظم بنظر كروفيل.

تسامت أدلين في هذه اللحظة كتلك الوجوه الدينية المسندة الى الصليب والتي رسمها فنانو البندقية. كانت تعبر عن عظمة نكبتها وعظمة الكنيسة الكاثوليكية حيث التجأت كاليمامة الجريحة.

عندها سحر كروفيل وذهل.

- سيدتي، أنا في تصرفك دون شروط! قال وهو في حماس للسخاء. سنناقش الموضوع و... ماذا تطلبين؟... ليكن المستحيل!... سأفعله. سأودع مداخيل في المصرف وفي ساعتين ستحصلين على المبلغ...

- إلهي! أي أعجوبة هذه! قالت أدلين المنكودة وهي تنهار على ركبتيها تلفظت بعذوبة بصلاة نفذت الى أعماق كروفيل الذي رأته وهي تنهض بعد أن أنهت صلاتها، تترقرق الدموع في عينيه.

- كن صديقاً لي يا سيدي!... قالت له، ان روحك أفضل من سلوكك وحديثك، فالله أمدك بالنفس بينما افكارك وليدة انفعالاتك والعالم! أوه! سأحبك كما ينبغي! صاحت بحماس ملائكي يتناقض التعبير عنه، خاصة، مع دعاباته الخبيثة.

ـ لا ترتعشي هكذا، قال كروفيل.

ـ هل أرتجف؟ سألت البارونة ولم تلحظ الوهن الذي أصابها بسرعة

ـ طبعاً، هاك، لاحظي، قال كروفيل وهو يمسك بذراع أدلين ليطلعها على رجفانها العصبي. هيا يا سيدتي، تابع كروفيل باحترام، اطمئني، سأتوجه الى المصرف...

ـ عد بسرعة! وانتبه: قالت وهي تفضي بأسرارها، يجب ان نجنب الانتحار عمي المنكود، فيشر الذي ورطه زوجي بأمور مشبوهة، لأني أثق بك الآن وأبوح لك بكل شيء! آه! اذا لم ننجز المسألة في الوقت المناسب، فاني أعرف الماريشال: هو يتمتع بنفس مرهفة، وقد يموت في أيام معدودة.

ـ أسير اذاً، قال كروفيل وهو يقبل يد البارونة. لكن ماذا فعل هيلو المسكين؟

ـ اختلس الدولة.

ـ آه! يا الهي!... سأسرع، سيدتي. تفهمت وضعك، اني اعبدك نزل كروفيل على ركبته وقبّل ثوب السيدة هيلو واختفى وهو يقول:

ـ الى اللقاء.

٩٠

قيثارة أخرى

لسوء الطالع وحتى يقطع كروفيل شارع بلومي وصولاً الى بيته ليتزود ببعض السجلات، مر في شارع فانو فلم يستطع أن يقاوم رغبته في زيارة دوقته العزيزة.

وصل ووجهه ما يزال على اضطراب. دخل حجرة فاليري وكانت تصفف شعرها. تفحصت كروفيل في المرآة فصدمت كما يصدم مثل هذا النوع من النساء، دون أن تكشف اضطرابه الشديد الذي لا يد لها فيه.

ـ ما بك يا غزالي؟ أهكذا تلج غرفة دوقتك الصغيرة؟ أنا ما كنت دوقة من أجلك يا سيدي، بقدر ما أنا كلبتك الصغيرة أيها الوحش العجوز!

أجاب كروفيل بابتسامة حزينة وأشار الى رين.

ـ رين، يكفي يا ابنتي لهذا اليوم، سأنهي هندمة شعري بنفسي! أعطني عباءتي ذات القماش الصيني لأن سيدي يبدو لي متصيناً في حـلاه . . .

التفتت رين، الفتاة التي وجهها مخرم كالمرغاة والتي كانت تبدو وكأنها خلقت خصيصاً لفاليري، وتبادلت ابتسامة مع معلمتها وهي تحمل لها العباءة.

نزعت فاليري مشطها وكانت عندها بالقميص ثم لبست فوقها عباءتها فبانت كأفعى تحت باقات العشب.

ـ أليست السيدة ضالعة بالأمر؟

ـ وهذا السؤال! هيا، قل يا هري السمين، وهل انخفض الحد الايسر؟

ـ لا

ـ هل أخضع القصر للمزاد العلني؟

ـ لا

ـ ألا تصدق انك والد كروفيل الصغير؟

ـ حماقة! علق الرجل الواثق من أنه محبوب.

ـ الواقع، لست في هذا الصدد، قالت السيدة مارنيف. عندما يتوجب علي ان انزع هموم صديق كما سدادات قناني الشمبانيا أبقي على كل شيء. في مكانه... ارحل، انك تش...

ـ لا، قال كروفيل، يلزمني مئتا الف فرنك في ظرف ساعتين...

ـ أوه! وهل ستجدها؟ خذ، لم أمس الخمسين الف فرنك من

محضر هيلو، ويمكنني أن أطلب خمسين ألف فرنك الى هنري!

ـ هنري! دائماً هنري!... صاح كروفيل

ـ اتعتقد أيها المكيافيلي الغليظ المتستر بالعشب أني سأصرف هنري! وهل لفرنسا أن تجرد أسطولها من السلاح؟... هنري! بل انه الخنجر في غمده، معلق بمسمار. يسدي لي هذا الغلام خدمة في تعقبك لمعرفة ما اذا كنت تحبني. وأنت لا تحبني هذا الصباح.

ـ لا، احبك، فاليري! أحبك كما أحب مليوناً!.

ـ غير كاف!... أجابت وهي تثب على ركبتي كروفيل وينساب ذراعاها حول رقبته كما حول معلاق. أريد أن أحب كعشرة ملايين، ككل ذهب الارض واكثر ! يستمر هنري اكثر من خمس دقائق دون ان يبوح بأحمال قلبه! الن ما بك يا عزيزي السمين؟ فلنفرج عن دواخلنا... ولنصرح بكل شيء وبحماس. !

ثم جالت بشعرها برفق على وجهه وهي تبرم أنفه.

ـ هل يمكن أن يكون لك أنف كهذا وتحبس سراً على فا.. لي... ري!.. في مقطع «فا»، كان الأنف يتجه الى اليمين وفي مقطع «لي» الى اليسار وفي «ري» يعود الى مكانه.

ـ حسناً! كنت في لقاء...

توقف كروفيل والتفت الى السيدة مارنيف.

ـ فاليري، يا حلوتي، أتعدينني بسعادتك... أقصد سعادتنا، انك لن تسربي كلمة واحدة مما سأخبرك به؟...

ـ هذا واضح أيها العمدة! ها اني أرفع يدي!... ورجلي!

ثم اتخذت وضعاً في مجلسها، متوخية حسب تعبير رابليه، تعرية كروفيل من دماغه حتى أعقابه، بقدر ما تظهر طريفة وسامية في عريها البارز من خلال الباتسته القماش الرقيق.

ـ كنت في لقاء مع يأس الفضيلة!...

ـ وهل لليأس فضيلة؟ قالت وهي ترفع رأسها وتتكتف على الطريقة النابوليونية.

ـ السيدة هيلو المسكينة، بحاجة الى مئتي الف فرنك والا فالماريشال والأب فيشر يفقدان عقلهما، واذ أعتبرك تتحملين جزءاً ولو يسيراً في التسبب بذلك يا عزيزتي الدوقة، عزمت على تلافي الضرر. أوه! انها امرأة قديسة، اعرفها، اطلعتني على كل شيء.

ـ لدى سماع كلمة هيلو والمئتي الف فرنك، لمعت نظرات فاليري، كشهب مدفع في دخانه، بين جفنيها الطويلين.

ـ ماذا فعلت بك تلك العجوز حتى استدرت عطفك! هل كشفت لك، ماذا؟... دينها!...

ـ لا تسخري منها، يا حبيبتي، انها، بالفعل، قديسة امرأة

نبيلة تقية، تستحق الاحترام!...

- يعني، أنا لا استحق الاحترام؟ قالت فاليري وهي تحدِّج كروفيل بوجه عبوس.

- لا اعني ذلك، أجاب كروفيل اذ أدرك كم يمس ثناء الفضيلة شعور السيدة مارنيف.

- أنا ايضاً تقية وورعة، قالت فاليري وهي تتوجه لتجلس على أريكة، ولكن لا اتخذ من تديني مهنة، اذهب الى الكنيسة في الخفاء.

ظلت فاليري صامتة ولم تعر انتباهاً.

اقترب كروفيل الذي قلق كثيراً، ليقعد أمام الأريكة التي غاصت فيها فاليري فوجدها هائمة في الأفكار التي ايقظها بهذه البلاهة.

- فاليري، ملاكي الصغير؟...

صمت عميق، ودمعة مريبة أزيلت خلسة.

- كلمة واحدة يا صغيرتي...

- سيدي!

- بماذا تفكرين يا حبيبتي؟

- آه! سيدي كروفيل، عدت بذاكرتي الى يوم مناولتي الأولى! كنت جميلة! طاهرة! قديسة!... عفيفة!.. آه! لو

كان جاء أحدهم ليقول لأمي: «ستصير ابنتك مومساً وتخدع زوجها. وسيداهمها يوماً مفوض الشرطة في بيت صغير وتبيع نفسها الى شخص يدعى كروفيل لتخون آخر يدعى هيلو، عجوزان شرسان...» يا للعار! لكانت سقطت أرضاً وفارقت الحياة قبل انهاء العبارة لأنها كانت تحبني كثيراً، تلك المرأة المسكينة!

- اهدأي!

- أنت لاتشعر بالحب يحظى به رجل حتى يفرض صمتاً للعودة الى الضمير الماثلة أمامه الآثام التي تنخر قلب زانية. أنا غاضبة لأن رين ليست هنا لتخبرك كيف وجدتني هذا الصباح وعيناي تستحمان بالدموع وأنا أصلي لربي. أنت تعرف جيداً يا سيد كروفيل، أني لم اهزأ يوماً بالدين. هل سمعتني أتلفظ بكلمة إزاء هذا الموضوع؟...

وافق كروفيل: بحركة منه، على كلام فاليري.

- اكون في موقف الدفاع اذا جرى الحديث عنه أمامي... أمازح في كل شيء: في الملوك والسياسة والمالية وكل ما هو مقدس بين الناس، في القضاة والزواج والحب والصبايا والعجائز!... لكن الكنيسة... لكن الله!... أوه! هنا، أتوقف! أعي جيداً: أتصرف بطريقة سيئة اذا أضحي بمستقبلي في سبيلك... وانت لا تشكك بمدى حبي لك!

شبك كروفيل يديه.

- آه! يجب أن تنفذ الى قلبي وتقيس مدى قناعاتي لتطلع على كل ما أضحي به من أجلك!... أشعر بنفسي كأني من طينة مدلين. تلاحظ بأي وقار أحيط الكهنة! بامكانك ان تحصي التقدمات التي أهبها للكنيسة! ربتني امي على الايمان الكاثوليكي، اني أفهم الله! يتحدث برهبة عظيمة عنا نحن التائبات.

مسحت فاليري دمعتين انحدرتا على خديها.

خاف كروفيل فنهضت السيدة مارنيف بعصبية.

- اهدأي!... تخيفينني!

خرت السيدة مارنيف على ركبتها وقالت شابكة يديها:

- يا الهي! لست رديئة. تنازل من عليائك والتقط نعجتك الضالة، وسطها حتى الموت لتنتشلها من الأيدي التي جرتها الى الفساد والزني، ستجثم بفرح على اكتافك! وتعود بسعادة الى الحظيرة!

نهضت ورمقت كروفيل الذي خاف من عيني فاليري البيضاويين.

وبعد، هل تعرف يا كروفيل اني أخاف من وقت لآخر؟... عدالة الله تسري على العالم الأرضي كما على العالم الآخر. أي

خير يمكنني أن أنتظره من الله؟ ان انتقامه يتسلط على المجرمة بمختلف أشكاله فيصب كل مياسم البؤس. كل المصائب التي لا يدرك كنهها البلهاء تحل بنا لتكفر عن خطايانا. هذا ما أوصتني به أمي على سرير الموت وهي تحدثني عن شيخوختها. أما اذا فقدتك!... أضافت وهي تشد كروفيل اليها لتعانقه بقوة همجية، آه! فاني لا محالة مائتة!

تركت السيدة مارنيف كروفيل ثم ركعت من جديد أمام أريكتها وشبكت يديها (أي خشوع ساحرا!) وتلت بعذوبة لا تصدق، الصلاة التالية:

ـ وأنت، أيتها القديسة فاليري، يا شفيعتي الصالحة، لماذا لا تزورين معظم الأحيان وسادة التي سلمت نفسها اليك؟ أوه! تعالي هذا المساء كما جئت هذا الصباح لترشديني بأفكارك السديدة فأتخلى عن درب السيئات وأتنكر كمادلين للفرح الخادع ولمباهج الدنيا الكاذبة، حتى وللذي أحبه حتى العبادة!

ـ يا هرتي الصغيرة! قال كروفيل.

ـ انتهينا من هرتي الصغيرة يا سيدي! عادت الى فخارها كالمرأة الفاضلة وعيناها غارقتان بالدموع وبدت شهمة، باردة، غير مكترثة.

ـ اتركني، قالت وهي تدفع كروفيل. ما واجبي؟... أن اكون لزوجي. انه يحتضر، فماذا أفعل؟ أخونه على حافة القبر.

يعتقد ان ابنك هو ابنه... يجب ان أصارحه بالحقيقة وأكسب غفرانه قبل أن أطلب المغفرة من الله. فلنفترق!... الوداع يا كروفيل!... قالت وهي واقفة تمد لكروفيل يداً مجلدة. الوداع يا صديقي، لن نلتقي الا في عالم أفضل... انك مدين لي ببعض المتع الآثمة، لكن الآن أريد... نعم سأعيد الي اعتبارك.

بكى كروفيل بدموع حارة.

- أيها الأبلة الضخم! صاحت وهي تفجر ضحكة شيطانية، هذه طريقة تسلكها النساء التقيات ليصلن الى ابتزاز مئتي الف فرنك! وانت الذي يتحدث عن الماريشال دي ريشيليو اللوفيلاسي الأصل، تنخدع بهذا التمثيل! كما يقول ستانبوك. لو أردت، أنا، لانتزعت منك، أيها الغبي، هذا المبلغ!... احتفظ بنقودك! اذا كنت تملك فائضاً فهذا الفائض يعود لي! اذا أعطيت فلسين لهذه المرأة الموقرة التي تبدو تقية بسبب سنينها السبع والخمسين، فلن نتلاقى بعد اليوم وتتخذها لك عشيقة، ستعود الّي في الغد وأنت ممزق بملاطفاتها المخدشة تتملأ بدموعها وتباكيها الذي يستبدل محاباتها بسيل من النحيب.

- واقع الحال، قال كروفيل، أن المئتي الف فرنك هي نقود.

- شهية النساء التقيات طلوب!.. آه! يبيعون مواعظهن بأفضل مما نبيع الأندر والأثبت في الأرض: اللذة... أما هن

فيختلقن الروايات! لا... آه! أعرفهن رأيت نظيرهن عند أمي! يقتنعن بأن كل شيء مأذون به من أجل الكنيسة، من أجل... مالك، الم تخجل، بعد، يا غزالي! أنت الذي يقتر في العطاء... لم تعطني في كل أعطياتك مئتي الف فرنك، وهذا لي!

- بلى! أجاب كروفيل، وحده القصر الصغير يكلف هذا المبلغ...

- وهل تملك اذاً اربع مئة الف فرنك؟ قالت وهي تحلم.

- لا

- اذاً تريد يا سيدي ان تقترض لهذه العجوز المقيتة مئتي الف فرنك على حساب قصري؟ انها جريمة تمس شرف من تحب!...

- لكن اسمعي!

- لو تعطي هذا المال الى أي حيوان ذات ابتكارات انسانية، تتحول الى انسان ذي مستقبل، قالت بانفعال، وسأكون الأولى تنصحك في ذلك لأن فيك من البراءة ما يستحق كتابة مجلدات سياسية ضخمة تؤدي بك الى الشهرة، أسلوبك الانشائي غير مرض لتدبيج الكتيبات؛ يمكنك أن تتصرف كمعظم الذين في حالتك ويزينون أسمهم بالمجد عندما يترأسون عملاً اجتماعياً او اخلاقياً او وطنياً أو عاماً. قضوا على الاحسان فيك فأصبح

منحرف النشاط... ان معاملة صغار المحكوم عليهم سابقاً بطريقة أفضل من التي يعامل بها مساكين الشياطين الشرفاء، بليت. أريدك تبتكر للمئتي الف فرنك، عملاً اكثر مشقة أو هدفاً ذا فائدة حقيقية. وقد تصبح محط حديث الناس كما صاحب الرداء الأزرق (الفقير الذي اغتنى وأحسن على الفقراء في عهد الاصلاح فادهش الصحافة وكان يرتدي رداء أزرق) وسأكون فخورة بك! لكن أن ترمي بمئتي الف فرنك في جرن الماء المقدس وتقرضها على تقية هجرها زوجها لعلةٍ، هيا! يمكن ايجاد العلة في أي وقت (اتتركوني، انا؟)، انها لغباوه لا تنبت، في هذا العصر، الا في جمجمة عطارٍ عجوز...! لن تجرؤ، بعد يومين، على النظر الى المرآة! انصرف، وضع مالك في صندوق السندات، أسرع فلن استقبلك دون ايصال بالمبلغ. هيا! بسرعة ودن ابطاء!

دفعت كروفيل بكتفيه خارج غرفتها وهي تشهد البخل على وجهه.

بعد أن أقفل باب الشقة قالت:

ـ ليزبتْ تضخم انتقامها!... للأسف ان تكون عند الماريشال العجوز فلا نتفكه بما حصل! آه! وهذه العجوز تريد أن تنْزع الخبز من فمي!... أريد أن اخضعها لك بنفسي!

٩١

لفتة الماريشال هيلو

واذ اضطر الماريشال هيلو الى اتخاذ مسكن ينسجم بالدرجة الأولى والكرامة العسكرية، قطن في قصر رائع على شارع مونبارناس حيث ثمة بيتان أو ثلاثة بيوت للأمراء.

ومع أنه استأجر القصر بكامله لكنه لم يشغل منه سوى الطابق الأرضي.

وعندما باشرت ليزبِتْ بادارة البيت أرادت ان تجري اجارة ثانية للطابق الأول الذي، في رأيها، يغطي بدل الايجار بكامله فيسكن الكونت بالمجان، لكن الجندي القديم رفض هذا المشروع. منذ أشهر والماريشال منشغل بأفكار سوداء. اكتشف ارتباك زوجة أخيه وتلمس المصائب والويلات دون أن ينفذ الى السبب. تحول هذا العجوز الذي يتحلى بالصفاء المريح الى صامت، وكان يتصور ان بيته سيصير يوماً ملجأ للبارونة هيلو وابنتها فاحتفظ لهما بالطابق الأول. الكل يعرف ضآلة ثروة الكونت فورزيم، حتى أن وزير الحربية، الأمير ويسمبورغ الح على رفيقه القديم حتى قبل بتعويض السكن.

استخدم هيلو هذا التعويض لفرش الطابق الأرضي حيث كان كل شيء متناسباً لأنه لم يشأ، حسب تعبيره، ان يحمل عصا الماريشال ليقف على رجليه.

كان القصر في ظل الأمبراطورية يملكه أحد الشيوخ. قاعات الاستقبال منسقة بقدر كبير من الأناقة، الغالب فيها الأبيض المذهب في حفر دقيق وهي سلمت من أي اعتداء. أضاف الماريشال اليها أثاثاً جميلاً قديماً مماثلاً. احتفظ في المرآب بعربة ورسمت على الأخشاب قضبان متصالبة. كان يستأجر أحصنة عندما كان يتوجب عليه القيام بتنقل، الى الوزراء أو القصر أو الى احتفال أو أي عيد من الأعياد.

ولما كان في خدمته، منذ ثلاثين سنة، جندي قديم بلغ الستين وشقيقته تعمل طاهية أصبح بأمكانه أن يوفر بضعة عشر الف فرنك يضمها الى ثروته المتواضعة المخصصة لأورتنس.

كان العجوز يتمشى كل يوم من شارع مونبارناس الى شارع بلومي عبر الجادة، وكلما التقى به أحد المصابين لا ينسى مطلقاً أن يتأهب ويؤدي له التحية فيرد الماريشال على الجندي القديم بابتسامة هادئة.

ـ من هذا الذي تصطف لأجله؟ سأل يوماً عامل شاب أحد قواد المصابين، القدامى.

ـ سأقول لك، أيها المراهق، أجاب الضابط.

ـ جلس المراهق كرجل منقاد لسماع ثرثار، فقال المحارب المصاب:

ـ عام ١٨٠٩ كنا ندافع عن جناح الجيش الكبير الذي يقوده الامبراطور الزاحف الى النمسا. وصلنا الى جسر منيع تحميه ثلاث بطاريات مدافع محصنة في صخرة وثلاثة معاقل مرصوفة فوق بعضها البعض. كنا بأمره الماريشال ماسينا، وهو كان حينذاك قائد رماة الرمانات في الحرس وكنت أرافقه... كانت مجموعاتنا تشغل جانباً من النهر، والمتاريس في الجانب الآخر. هاجمنا الجسر ثلاث مرات وهُددنا في المرات الثلاث. «فلنرسل بطلب هيلو! قال الماريشال، فهو وحده مع رجاله قادرون على قضم هذا الجزء» وصلنا، غير أن الجنرال الأخير المنسحب من وجه الجسر أوقف هيلو تحت النار المصطلية ليشرح له طريقة الهجوم فعرقل المسير. «لست بحاجة الى نصائح بل الى طريق لأمر». قال الجنرال بهدوء وهو يقطع الجسر على رأس فرقته. ولكن ماذا! موجة من ثلاثين طلقة وجهت الينا.

ـ آه! ما هذا القائد المسكين! صاح العامل، هذا ما أوصلك الى هذه العكازات!

ـ لو كنت سمعت تلك العبارة الهادئة التي نطق بها كما سمعتها يا صغيري لكنت أديت له التحية وأنت منحنٍ حتى التراب! ليس معروفاً عن جسر أركول سوى انه الأجمل. وصلنا

عدواً الى قلب البطاريات. «المجد للذين بصحبتي»! قال الضابط وهو يرفع قبعته. ذهل القيصريون من هذه الضربة الصاعقة. بعدها منح الأمبراطور هذا العجوز الذي تراه لقب الكونت شَرّفنا كلنا به، وكان الجميع على صواب سديد اذ رفعوه الى رتبة ماريشال.

- عاش الماريشال! قال العامل.

- أوه! هيا، بأمكانك أن تصرخ فالماريشال أصم من دوي المدافع.

- هذه الحكاية تظهر مدى الأحترام الذي يكنه المصابون للماريشال هيلو الذي اكتسب عطف الجمهور في حارته نظراً لأرائه الثابتة في الجمهورية.

مشهد مؤسف. ذلك الشجن الذي اخترق هذه النفس الهادئة، الطاهرة النبيلة. فالبارونة لا تستطيع الا أن تماري وتخفي الحقيقة المقيتة تجاه أخ زوجها.

في تلك الصبيحة المشؤومة تلقى الماريشال، الذي ينام ليس على طريقة العجزة تماماً، من ليزبت اعترافات عن وضع شقيقه مع وعد بالزواج منه مقابل افشاء الأسرار. أي انسان يدرك فرح العانس التي تمكنت من انتزاع الأسرار التي أرادت منذ دخولها الى المسكن، توظيفها في سبيل مستقبلها لأنها بذلك تمتن زواجها.

ـ لا أمل بشفاء شقيقك: صرخت ليزبت في أذن الماريشال السليمة. ان صوت اللورينة القوي والواضح سمح لها بمتابعة المحادثة مع العجوز. كانت تنهك رئتيها لتبرهن لزوجها المرتقب بأنه لن يكون معها أصم أبداً.

ـ كان له ثلاث عاشقات، قال العجوز، بحضور أدلين. أدلين الطيبة!

ـ اذا شئت أن تقتنع مني، صرخت ليزبت، تغتنم فرصة تأثيرك على الأمير ويسمبورغ لتنال لابنة عمي مكانة مرموقة؛ فهي بحاجة لها لأن راتب البارون مرتهن لثلاث سنوات.

ـ سأقصد الوزارة لأكلم الماريشال وأطلع منه على رأيه بشقيقي وأطلب رعايته النشيطة لزوجة أخي فيؤمن لها مركزاً جديراً بها.

ـ ان نساء باريس الخيرات، ألفن جمعيات بر واحسان تنسيقاً مع رئيس الاساقفة؛ انهن بحاجة الى مراقبات ذات كفاءات عالية للتعرف على الحاجات الحقيقية. مثل هذه الوظيفة تناسب عزيزتي أدلين وترتاح لها.

ـ أرسلي من يطلب الأحصنة! قال الماريشال، سأبدل ثيابي. سأقصد مدينة تولي اذا لزم الأمر!

ـ كم يحبها! قالت اللورينة، سألتقيها دائماً وفي أي مكان.

بدأت ليزبت تتصرف على هواها في البيت بعيداً عن عيون الماريشال.

طبعت بالخوف ثلاثة خدم وقامت بدور مدبرة منزل ووظفت نشاطها كعانس في الاهتمام بكل شيء فتفحصت ونقبت في كل شاردة وواردة من أجل ارضاء عزيزها الماريشـال

إن ليزبت المتحمسة كزوجها المرتقب للافكار الجمهورية كانت تبـدي ارتياحـاً ملموسـاً للماريشـال خاصـة بوجهـات نظرهـا الديموقراطية. كـانت تغدق عليـه بالثنـاء بحذق ذكي. مضى اسبوعان. أحس الماريشال فيهما أن حالته تحسنت وزادت العناية به كما الأم بوليدها فأدرك في النهاية أن ليزبت تفي بجزء من حلمه.

ـ عزيزي الماريشال! صرخت وهي تصحبه الى محطة الدرج، ارفع الزجاج ولا تعرض نفسك للمجاري الهوائية، نفذ ذلك من أجلي! . . .

لم يلق الماريشال، هذا العجوز المتصابي، غنجاً في حياته كما حظي من ليزبت، فرحل وهو يبتسم لها بالرغم من انقباض نفسه.

٩٢

ملامة الأمير

ـ في هذه اللحظة غادر البارون مكاتب وزارة الحربية قاصداً مكتب الماريشال، أمير ويسمبورغ الذي أرسل بطلبه.

ومع أن استدعاء وزير لأحد مدرائه العامين لا يشكل امراً غريباً، فان وجدان هيلو كان عليلاً حتى أنه كان يحس بالبرودة وبشيء من سوء الطالع في وجه ميتوفلي.

ـ كيف حال الأمير يا ميتوفلي؟ سأله وهو يقفل مكتبه ويلحق بالحاجب الذي يتقدمه .

ـ ربما حمل لك عتاباً يا سيدي البارون، أجاب الحاجب وفي صوته ونظرته ووجهه رياح عاصفة.

امتقع لون هيلو ولزم الصمت. اجتاز الغرفة المقابلة وقاعات الاستقبال حتى بلغ باب المكتب واختلاجات قلبه تشتد كلما قرب اللقاء.

ان الماريشال الذي بلغ السبعين من العمر وأتى الشيب على

آخر شعرة في رأسه ودبغ وجهه كالذين هم في سنه، اشتهر بجبهة فسيحة تذكر بميدان القتال.

تحت هذه القبة الرمادية المحملة بالثلج، كانت تلتمع عينان زرقاوان معتمتان بنتؤ بارز لحاجبين مقوسين، ممشوحتان غالباً بالأسى، مليئتان بالتأسف والأفكار المريرة.

خصم برنادوت هذا، كان يود أن يتبوأ عرشاً. لكن عينيه اصبحتا شعاعين رائعين، عندما تدفق فيهما شعور عظيم. كان صوته الأجش يقذف بالتماعات ثاقبة. عند الغضب، عاد الأمير جندياً، فتكلم بلغة الملازم كوتان ولم يراع جانبه بشيء. أبصر هيلو أفري هذا الأسد العجوز، وشعره مشعث كالعفرة، واقفاً على المدخنة وحاجباه معقودان وظهره مقوس، وعيناه يظهر فيهما الطيش والضياع.

ـ في الخدمة أيها الأمير! قال هيلو بلطف وتأنق.

حدق الماريشال بالمدير دون أن ينطق بكلمة طوال الفترة التي فيها استغرقها انتقاله من عتبة الباب حتى بضع خطوات منه.

هذه النظرة الثقيلة كالرصاص انصبت عليه كالتفاتة الله فلم يحتملها هيلو وأخفض عينيه بارتباك واضطراب.

ـ انه يعرف كل شيء، قال محدثاً نفسه.

ـ ألم يقل لك ضميرك شيئاً؟ سأله الماريشال بصوته الأصم والخطير.

ـ بلى: كشف لي، أيها الأمير، أني على خطأ عندما قمت، دون علمك بغزوات في الجزائر، ان رجلاً بلغ من العمر ما بلغت وما اكتسبته من لباقة وذوق في حياتي، وبعد خمس وأربعين سنة في الخدمة، هل يمكنه أن يعيش دون ثروة. انك تعرف المبادىء التي على أساسها يتم انتخاب اربع مئة نائب في فرنسا. هؤلاء السادة يشتهون كل المراكز وهم قلموا معاش الوزراء. وهـذا كـاف!... اذهب اليهم والتمس منهم مـالاً لخـادم قديم!... ماذا يمكن ان ننتظر من أناس يدفعون قدراً سيئاً كما الحال في هيئة القضاء؟ ويعطون ثلاثين فلساً في اليوم الى عمال المرفأ في تولون، مع الاستحالة المادية للعيش بأقل من أربعين فلساً للعائلة الواحدة؟ ولا يفكرون بفظاعة معاشات المستخدمين بستمئة فرنـك أو بألف أو بـألف ومئتين فـرنك في بـاريس، فيترصدون مراكزنا ليسلموها لهم عندما تصل الرواتب أربعين الف فرنك؟ وأخيراً يرفضون الملكية للتاج النازلة له من التاج المطاح به عام ١٨٣٠ كما رفضوا قنية من مخلفات لويس السادس عشر.. اذا كنت لا تملك ثروة يتركونك بسلام، مثل أخي أيها الأمير مع راتبك الجاف دون أن يتذكروا انك بمعونتي أنقذت الجيش الكبير في سهول بولونيا المليئة بالمستنقعات.

ـ اختلست الدولة ووضعت نفسك في حالة المثول أمام محكمة الجنايات، قال الماريشال، كالمسؤول عن صندوق الخزينة وتنظر الى هذا الأمر بهذه الخفة.

ـ انه لفارق كبير يا سيدي! صاح البارون هيلو. هل مددت يدي الى صندوق كنت مؤتمناً عليه؟

ـ عندما ترتكب مثل هذه الحماقات، قال الماريشال، تكون مجرماً مزدوجاً، نظراً لمركزك متصرفاً برعونة في الاشياء. عرضت للشبهات، ادارتنا السامية التي تعتبر حتى اليوم أنقى الادارات في أوروبا!... كل ذلك يا سيدي من أجل مئتي الف فرنك أو من أجل سبيكة!... قال الماريشال بصوت مرعب أنت مستشار دولة وتعرف أنه يحكم بالموت على الجندي العادي الذي يبيع بعض أشياء الفرقة. اسمع ما قاله لي الكولونيل بوران من فرقة الرماة الثانية. في سافيرن، هام أحد رجاله بـألزاسيـة صغيرة أحبت أن يهديها شالاً فألحت الوقحة ما استطاعت حتى تجرأ هذا الرامي الشيطان المسكين. وكان موعوداً بالترقية بعد عشرين عاماً من الخدمة، فباع بعض أشياء فرقته ليبتاع لها شالاً. هل تعلم ماذا فعل هذا الرامي يا بارون أفري؟ اكل زجاج الشباك بعد أن سحقه، ومات من المرض بعد أحدى عشرة ساعة في المستشفى... حاول أن تموت بالسكتة الدماغية حتى نتمكن من انقاذ شرفك.

حدّج البارون ذاك المحارب القديم بنظر زائغ؛ غير أن الماريشال الذي لحظ ان تعابيره تنم عن تخاذل منه، وعلا وجهه احمرار والتمعت عيناه.

ـ أتتخلى عني؟... قال هيلو وهو يتمتم.

٩٣

جدل قصير جداً بين الماريشال هيلو، كونت دي فورزيم وصاحب المقام السيد الماريشال كوتان، أمير ويسمبورغ دوق اورفانو، وزير الحربية

في هذه اللحظة كان الماريشال هيلو علم ان شقيقه والوزير وحيدان فسمح لنفسه بالدخول واتجه كالصم مباشرة صوب الأمير.

ـ أوه! صرخ بطل معركة بولونيا، عرفت، ماذا جئت تفعل أيها الرفيق القديم!... لكن لا فائدة ترجى...

ـ لا فائدة؟... أجاب الماريشال هيلو الذي لم يسمع غير هذه الكلمة.

ـ أجل ، جئت لتحدثني بشأن اخيك ، فهل تعلم من هو اخوك؟...

ـ أخي؟... سأل الأصم.

ـ ومن اذن! صرخ الماريشال، انه خ.... ف... لا يستحق أن تكون أخاه!...

أما غيظ الماريشال فكان عظيمًا اذ أن عينيه البارقتين كعيني نابوليون كانتا تحطمان الارادات والعقول.

ـ كذبت في ذلك يا كوتان! نبه الماريشال هيلو الذي امتقع لونه. ارم بعصاك كما أرمي بعصاي!... اني رهن أوامرك.

قام الأمير وتوجه في خط مستقيم الى رفيقه القديم وحدق به وهمس في أذنه وهو يضغط على يده:

ـ هل انت رجل حقاً؟

ـ سترى...

ـ كن صلباً وحافظ على حزمك. فالأمر يقضي بان تتحمل اكبر مصيبة قد تنتظرك.

عاد الأمير إلى مكانه وتناول عن طاولته ملفاً وأودعه يدي الماريشال وهو يصرخ:

ـ إقرأ!

قرأ الكونت فورزيم في الملف الرسالة التالية.

إلى سعادة رئيس المجلس

(سرّي) الجزائر في....

«عزيزي الأمير، أمامنا مسألة مخجلة، كما سترى في المرافعة

التي أرسلها لك. «باختصار، أرسل البارون هيلو أفـري إلى مقاطعة أو. . . أحد أعمامه للسمسرة بالحبوب والعلف وشاركه مع مؤتمن مخزن. اعترف هذا المؤتمن بامور كثيرة متوخّياً كسب الشهرة ثم تمكّن من الهرب. سار وكيل الملك في القضية بقساوة ولم يلحظ سوى مرؤوسين في العملية؛ غير أن جوهان فيشر، عم مديرك العام، حين وجد نفسه أصبح على عتبة المثول أمام المحكمة الجزائية، نحر نفسه بمسمار وهو في السجن.

«كان من الممكن أن ينتهي كل شيء هنا لو لم يحذّر كتابة هذا الإنسان الشهم والنبيل، الذي خـدعه بشكـل فاضـح، شريكه وابن أخته، البارون هيلو، سقطت هذه الرسالـة بين يدي النيابة العامة مما أذهل وكيل الملك الذي جاء ليقف على رأيي. إنها صدمة رهيبة أن يوقف ويُتّهم مستشار دولة ومدير عام أُثر عنه أعمال كريمة وخدمات عظيمة لأنه أنقذنا جميعنا بعد البيريزينا عندما أعاد تنظيم الإدارة، وكلّفت أنا بإيصال السلاح.

«هل يفرض أن نتابع القضية في المحكمة؟ أم هل يفرض والمجرم الرئيسي البارز مات، أن يُسدل الستار على هذه الدعوى ونحكم على مؤتمن المخزن غيابياً؟

«اقتنع النائب العام بأن تنقل إليك الأوراق، وبما أن البارون أفري يقيم في باريس فتصبح الدعوى من اختصاص محكمتك الملكية . إننا أفتينا بهذه الطريقة وإن كانت معوجّة حتى نتخلص لبعض الوقت من الصعوبة التي تحيط بها.

«المطلوب منك يا عزيزي الماريشال، أن تتّخذ قراراً بسرعة. يتحدّث الناس كثيراً عن هذه القضية المؤسفة التي تسيء إلينا بقدر ما ستحدثه من ضرر فيما لو انكشف تواطؤ المجرم الأكبر الذي ما زال مجهولاً سواء بالنسبة لوكيل الملك أملقاضي التحقيق أم للنائب العام أم بالنسبة لي».

وهنا سقطت هذه الورقة من يد الماريشال هيلو فالتفت إلى أخيه ورأى من غير المفيد أن يراجع الملف ثم قلّب أوراقه بحثاً عن رسالة جوهان فيشر وناوله إياها بعدما قرأها بنظرة سريعة.

من سجن «أو».

«عندما تقرأ يا ابن أختي هذه الرسالة أكون انتقلت إلى العالم الآخر.

«كن مطمئناً فلن يفوزوا ببيّنات ضدك.

«أنا أكون مُتُّ، وصاحبك اليسوعي فارٌ، فتتوقف الدعوى.

«وجه عزيزتنا أدلين، السعيدة برعايتك، لَطّف من خشونة إقدامي على الموت.

«لن تكون بحاجة لارسال مئتي ألف فرنك. الوداع.

«ستصلك هذه الرسالة بواسطة معتقل أعتقد أنه بإمكاني أن أعتمد عليه.

«جوهان فيشر».

ـ أستميح عفوكم، توجّه الماريشال هيلو الذي مُسّت عزّته، بالكلام إلى أمير ويسمبورغ.

ـ هيّا، كلّمني دائمًا بالمخاطب المفرد يا هيلو! علّق الوزير وهو يشد على يد صديقه العجوز. ـ لم يقتل الرامي سوى نفسه، تابع وهو يحدّج هيلو أفري بنظره.

ـ كم أخذت؟ قال بقسوة الكونت فورزيم لأخيه.

ـ مئتي ألف فرنك.

ـ صديقي العزيز، قال الكونت موجّهاً حديثه للوزير، سأضع بين يديك هذا المبلغ في مهلة ثمانٍ وأربعين ساعة. لن يكون مسموحاً أبداً بأن يُقال عن رجل يحمل إسم هيلو بأنه الحق ضرراً، ولو بفلس واحد، بالشأن العام.

ـ أي صبينَةٍ هذه! قال الماريشال. أعرف أين المئتا ألف فرنك وسأعمل على إعادتها. استعفِ واطلبْ اعتزالك! تابع وهو يرمي بورقة بقياس تيلير إلى المكان حيث كان يجلس مستشار الدولة الذي ارتخت عزائمه. لحقنا العار نحن جميعاً من هذه الدعوى؛ واستحصلت من مجلس الوزراء على حريّة التصرّف التي أنشط بسند منها. وإذ ترضى بالحياة في ذلّ ودون تقديري، حياة الخسة والنذالة فستعزل كما تستحق. فقط تناسى كلّ شيء.

دق الماريشال الجرس.

ـ الموظف مارنيف هنا؟
ـ نعم سيدي، قال الحاجب.
ـ فليدخل.
ـ هو أنت، صاح الوزير عندما رأى مارنيف، وزوجتك حطمتما عن قصد البارون أفري الذي تراه ماثلاً أمامك.

ـ سيّدي الوزير، أطلب مغفرتك، نحن معدمون جداً، لا أملك سوى راتبي لأعيش وعندي ولدان صغيرهما المحتمل وضعه في عائلتي هو للسيّد البارون.
ـ أي نذل هذا! قال الأمير وهو يُطلع الماريشال هيلو على مارنيف. مختصر الحديث أنك ترجع المئتي ألف فرنك أو تذهب إلى الجزائر.
ـ لكن يا سيدي الوزير، لا تعرف زوجتي. التهمت كلّ شيء. كان سيّدي البارون يدعو كل يوم ستة أشخاص للغداء... أنفق عندي خمسين ألف فرنك في السنة.
ـ إنصرفْ، قال الوزير بصوت رهيب كالصوت المدوي في المعارك المحتدمة، ستستلم قراراً بنقلك في ساعتين.... هيّا.
ـ أفضّل الاستقالة، قال مارنيف بوقاحة، يكفيني ما أنا عليه من قهر، لن أكون مرتاحاً!
وانصرف
ـ أي سفيه حقير! قال الأمير.
خلال هذا المشهد ظلّ الماريشال واقفاً، دون حراك مصفّراً

كالجثة، يرقب أخاه خلسة ثم اقترب من الأمير وأخذه بيده وأعاد القول:

ـ سيتعوّض الضرر المادي في أربع وعشرين ساعة؛ أما الشرف!... الوداع يا ماريشال: إنه الضربة القاضية... سيقتلني، همس في أذنه.

ـ يا للشيطان! لماذا جئت في هذا الصباح؟ قال الأمير منفعلاً.

ـ أتيت من أجل زوجته، أجاب الكونت وهو يشير إلى هكتور؛ لا خبز عندها! وخاصة الآن.

ـ معه تقاعده!

ـ إنه مرتهن!

ـ على هذا، يفترض أن يكون أبليس تلبّس جسمه! قال الأمير وهو يهزّ أكتافه. أي شراب قدّمته لك هؤلاء النسوة حتى ذهبن بعقلك؟ سأل هيلو أفري. كيف يمكنك أن تتوخّى، أنت الذي يعلم بأية دقة متناهية تسجّل الإدارة الفرنسية كل شيء وتحرّر كلّ محضر وتستهلك رزمات من الورق لتثبت دخول أو خروج بضع سنتيمات، أنت الذي ينتقد وجوب مئات التواقيع لأمور تافهة، كإطلاق سراح جندي أو شراء محسّات، كيف يمكنك أن تتوخّى طمس سرقة لمدة طويلة؟ والجرائد! والغيارى! والذين يريدون الإختلاس! هؤلاء النسوة يجرّدنك إذاً من الحس المرهف؟ أو أنك خلقت على غير ما نحن عليه؟ كان يجب أن

تتخليّ عن الإدارة منذ اللحظة التي فقدت فيها رجولتك، لكن هذا مزاجك! ولو كنت الحقت هذه الجريمة بكثير من الحماقات والسخافات لكنت انتهيت... لا أريد أن أصارحك إلى أين...

- هل تعدني بأن تهتم بها يا كوتّان؟ طلب اليه الكونت فورزيم الذي لم يسمع شيئاً والذي لم يفكر بغير زوجة أخيه.

- إطمئن! قال الوزير.

- شكراً، إلى اللقاء! - تعال، أيها السيد، قال موجّهاً كلامه إلى اخيه.

نظر الأمير بهدوء ظاهري، الأخوين المتباينين بالموقف والبنية والطباع، الجبان والجشاع، الشهواني والعصامي، الشهم والمختلس ثم حدّث نفسه:

- هذا النذل لن يموت! بينما المسكين هيلو النزيه، يحمل الموت في حقيبته!

جلس في مقعده وتابع قراءة البرقيات الواردة من أفريقيا بطريقة ترسم برودة مزاج الكابتن وفي الوقت ذاته شفقته العميقة التي أثارها مشهد ميادين القتال! ذلك أنه ليس في العالم أكثر إنسانية من العسكريين الذين يتظاهرون بالشدّة من جراء عادات الحرب التي نفحت فيهم هذا الصقيع الدائم واللازم على الأخص في ساحات المعارك.

٩٤

نظرة الصحف

في الغد كانت الجرائد تنشر في زوايا مختلفة هذه المقالات المتنوعة:

«السيد البارون هيلو أفري طلب إحالته على التقاعد. إن الخلل والفوضى في دائرة المحاسبة في الجزائر تميزا بوفاة وهرب موظفين، وكان لهما تأثير واضح على القرار الذي اتخذه هذا الموظف الكبير الذي علم بالأخطاء التي ارتكبها موظفون وضع مع الأسف ثقته بهم فشعر وهو في مكتب الوزير بالذات، بشكل يصيبه.

«أمضى السيد هيلو أفري، شقيق الماريشال، خمساً وأربعين سنة في الخدمة. جميع من عرفوا السيد هيلو الذي تتساوى صفاته الخاصة بمواهبه الإدارية، أسفوا لهذا القرار الذي لم يعدل عن الرجوع عنه رغم المطالبة بذلك. لا أحد ينسى تفاني الرئيس المنظم للحرس الأمبراطوري في فارصوفيا ولا النشاط الرائع الذي بذله في تنظيم مختلف قطاعات الجيش الذي أنشأه نابوليون عام ١٨١٥ دون استعداد.

«أحد أمجاد العصر الأمبراطوري يتخلّ عن المسرح. فمنذ ١٨٣٠ والسيد البارون هيلو مستمر دون انقطاع بدوره الرائد في المجلس الإستشاري للدولة وفي وزارة الحربية».

«الجزائر. انتهت قضية العلف والتموين، التي أشارت إليها بعض الصحف بمقاطع ساخرة، بموت المجرم الأساسي. انتحر السيد جوهان فيشر في سجنه وفرّ شريكه المتآمر لكنه سيحاكم غيابيّاً.

«فيشر ممّون سابق للجيوش، كان رجلاً شريفاً، محترماً جداً، لم يحتمل فكرة سقوطه في مكيدة السيد شاردان أمين المخزن الفارّ».

وفي وقائع باريس يقرأون ما يلي:

«قرّر السيد الماريشال وزير الحربية، إنشاء مكتب للتموين في أفريقيا ليتجنّب أي فوضى في المستقبل. وعُينّ لرئاسة المكتب السيد مارنيف ليكون مسؤولاً عن هذه المؤسسة».

«حرّكت وظيفة البارون هيلو التي شُغِرَت مطامح الكثيرين، يقال أن الكونت مارسيال دي لاروش هوكون. النائب، وشقيق زوجة الكونت راستينياك وُعد بهذه الإدارة. والسيد ماسول، مدير الطلبات، سيعينّ مستشار دولة بينما كلود فينيون سيتولى منصب مدير الطلبات».

الأخطر بين مختلف أنواع الصحف لجرائد المعارضة،

الصحيفة الرسمية. فمهما كان من أمر تحايل الصحفيين، يقعون أحياناً في المطبات المقصودة أو غير المقصودة التي تحفرها في الصحافة مهارة البعض منهم، الذين مروا ككلود فينيون في المراكز العليا من السلطة. الجريدة لا يقنعها إلا الصحافي.

وفي هذه المناسبة يجب أن نزعم ونحن نتنكّر بما قاله فولتير:

ليس الحدث الباريسي ما يفكّر به شعب مزهوٌّ بنفسه.

٩٥

تأنيب الأخ

اصطحب الماريشال هيلو أخاه الذي جلس على المقعد الأمامي تاركاً المقعد الخلفي لأخيه الأكبر إجلالاً.

لم يتبادل الأخوان كلمة واحدة. كان هكتور خائر القوى بينما ظل الماريشال متيقظاً كرجل يستجمع قواه ويعصبها ليدعم ثقلاً ساحقاً.

عند دخوله قصره ودون أن يفوه بكلمة، أشار إلى أخيه بحركة آمرة، ليدخل إلى مكتبه.

كان الكونت حصل من الأمبراطور نابوليون كتقدير منه، على مسدّسين رائعين من مشغل فرساي، تناول العلبة التي طبعت عليها هذه الكتابة: تقدمة من الأمبراطور نابوليون للقائد هيلو، ثم أطلع أخاه عليها وقال له:

ـ ها هو طبيبك.

ليزبت التي كانت تشهد ما يجري من الباب المشقوق، هرعت إلى العربة فأمرتها بالاتجاه فوراً إلى شارع بلومي.

وخلال عشرين دقيقة تقريباً أحضرت البارونة التي علمت بتهديد الماريشال لأخيه.

رنّ الكونت الجرس دون أن يلتفت إلى أخيه، ليطلب القيّم على منزله، الجندي القديم الذي ما زال يخدمه منذ ثلاثين سنة وقال له:

ـ ئتِني بكاتب العدل يا بوبيا، وبالكونت ستانبوك وابنة أخي أورتنس، وسمسار الأوراق المالية في خزينة الدولة. الساعة الآن العاشرة والنصف، يجب أن يحضر كل هؤلاء ظهراً. استخدم ما شئت من العربات... وأسرع أكثر من هذا قال التعبير الأخير وهو مصطلح جمهوريّ يردده غالباً.

ـ في خدمتك أيها الماريشال، قال بوبيا وهو يضع ظهر يده على جبهته.

ودون أن يهتم بأخيه، عاد العجوز إلى مكتبه ثم تناول مفتاحاً مخبّاً في أحد الجوارير وفتح علبة من الدهنج الملصق على الفولاذ وهي هدية من الأمبراطور الكسندر.

وبأمر من الأمبراطور نابوليون، كان الماريشال قدم إلى الأمبراطور الروسي ليعيد له أغراضاً خامةخاصته استولوا عليها في معركة دريسد، مقابل الحصول على فاندام.

كافأ القيصر الجنرال هيلو بسخاء عندما قدّم له هذه العلبة وأبلغه بأنه يتمنّى يوماً القيام بالواجب ذاته تجاه امبراطور الفرنسيين؛ واحتفظ بالفاندام.

الأسلحة الأمبراطورية الروسية الملقاة على غطاء العلبة كانت من الذهب، إضافة إلى طلائها الذي كان بكامله من هذا المعدن. أحصى الماريشال سندات المصرف والذهب الذي تحتويه فوجد أنه يملك مئة وإثنين وخمسين ألف فرنك فتنفّس الصعداء. في هذه اللحظة دخلت السيّدة هيلو وهي في حالة تثير شفقة قضاة السياسة.

ارتمت على هكتور وهي تنظر تناوباً كالمجنونة علبة المسدسات والماريشال.

ـ لماذا تقف ضدّ أخيك؟ ماذا فعل لك زوجي؟ قالت بصوت مرتج سمعه الماريشال.

ـ اذلّنا جميعاً! أجاب العسكري الجمهوريّ القديم الذي فتح بهذا المجهود، أحد جروحه. اختلس الدولـة! لوّث سمعتي، جعلني أتمنى الموت، قتلني... لا عزم عندي سوى إتمام عملية الرد!... أنخت رأسي أمام ممثل الجمهورية أمام الإنسان الذي أجلّه والذي اتهمته زوراً بالكذب، أمام أمير ويسمبورغ!... أليس هذا شيئاً خطيراً؟ هذا هو حسابه مع الوطن!

ومسح دمعة احتقنت في عينه ثم تابع:

ـ والآن ماذا بالنسبة إلى عائلته؟ انتزع الخبز الذي صنته لكم، إنه ثمرة ثلاثين سنة من التوفير، إنه الثروة التي جمعها جندي قديم من الحرمان وشظف العيش! انظري ما خصصته لكم! قال وهو يطلعها على الأوراق النقدية. قتل خاله فيشر، ابن الألزاس البار، الذي لم يحتمل مثله فكرة تلويث سمعته. وأخيراً حباه الله بحُلْم ساحر، ملاكاً من بين جميع النساء! إنها لسعادة خيالية حصل عليها بزواجه من أدلين! ومع ذلك خانها وأوسعها غماً وآلاما مبرحة وهجرها ليلجأ إلى العاهرات والمومسات والممثلات أمثال كادين وجوزيفا ومارنيف... هذا هو الإنسان الذي اتخذته إبناً وكبرياء... إنصرف أيها التعيس، فإذا كنت ترضى بالحياة الخسيسة التي بنيتها لنفسك، أخرج!.. لا! لا احتمل أن ألعن أخاً أحببته ملء جوارحي، أشعر بمزيد من الضعف أمامه كما حالك تماماً يا أدلين؛ فليغرب. عن

وجهي. أمنعه من حضور جنازتي. إن لم يشعر بوخز الضمير فليكن فيه حياء من الجريمة.

امتقع لون الماريشال وارتمى على مقعد مكتبه منهمكاً من هذا الكلام الرسمي. وربما لأول مرة في حياته انحدرت دمعتان من عينيه وخدّدتا وجنتيه.

ـ عمي المسكين فيشر! صاحت ليزبت واضعة محرمة على عينيها.

ـ أخي! قالت أدلين وهي تهمّ بالركوع أمام الماريشال، إبقَ على قيد الحياة من أجلي! أعنيّ في عملي الذي سأشرع به لمصالحة هكتور مع الحياة حتى يكفّر عن خطاياه!...

ـ هذا! قال الماريشال، لم ينته بعد من جرائمه!. إن رجلاً يتنكّر لامرأة كأدلين ويطفىء في نفسه مشاعر الجمهوريّ الحقيقي ومحبة الوطن والعائلة التي جهدت نفسي لترسيخها في ذهنه، ليس إلا خنزيراً ضارياً... سوقيه من هنا إن كنتِ ما زلت تحبّينه لأني أحسُّ في داخلي بصوت يناديني لأحشو مسدّساتي وأفرغها في دماغه! عندما أقتله، أنقذكم جميعاً وأنقذه من ذاته.

استقام الماريشال العجوز بحركة مريبة دفعت أدلين إلى الصراخ:

ـ هكتور تعال!

ـ تمسكت بزوجها وقادته ثم غادرت المنزل مصطحبة البارون

المهزوم مما أجبرها على وضعه في عربة لتنقله إلى شارع بلومي حيث انتهى إلى السرير.

أمضى هذا الرجل عدّة أيام متفسّخاً يرفض أقلّ طعام ودون أن يتلفظ بكلمة واحدة. غير أن أدلين استطاعت بكثرة دموعها، أن تقنعه بابتلاع شيء من الحساء. كانت تحضنه برعايتها، جالسة على وسادته دون أن يهزّها أي شعور من المشاعر التي تزدحم في قلبها سوى الشفقة النابعة من الأعماق.

٩٦

دفن رائع

بعد الظهر بنصف ساعة، دخلت ليزبت مكتب عزيزها الماريشال الذي لم تفارقه إذ كانت تتوجّس شراً في التحوّلات التي كانت تنتابه، ومعها الكاتب العدل والكونت ستانبوك.

- سيّدي الكونت ، قال الماريشال، أرجوك بأن توقّع الأجازة الضرورية لابنة أخي، زوجتك، كي تتمكن من بيع وتسجيل الدخل الذي لا تملك منه حتى الآن سوى حق الرقبة وأنت يا يا آنسة فيشر توافقين على هذا البيع بتخليك عن حق الإنتفاع.

ـ نعم يا عزيزي الكونت، أجابت ليزبت دون تردّد.

ـ حسناً يا عزيزتي، قال الجندي القديم. أتمنى أن أعيش حياة أطول حتى أجازيك. إني لا أرتاب بك، أنت جمهوريّة حقيقيّة وفتاة من الشعب.

ثم أخذ يد العانس وطبع عليها قبلة وقال موجّهاً كلامه للكاتب العدل:

ـ سيّدي هانّيكان، صغ العقد اللازم بشكل تفويض وأمهلك ساعتين من الآن حتى أتمكن من بيع الدخل في البورصة اليوم. إن ابنة أخي الكونتسّا تحمل العنوان وهي آتية وستوقّع العقد مع الآنسة عندما تأتيناً به. سيرافقك سيدي الكونت ليصادق على ما يلزم.

على إشارة من ليزبت حيّا الفنان الماريشال باحترام وخرج.

في الغد وعند العاشرة صباحاً أُعلِم الأمير ويسمبورغ بمقدم الكونت فورزيم الذي دعاه بالدخول حالاً.

ـ وأخيراً يا عزيزي هيلو، قال الماريشال كوتّان وهو يطلع صديقه القديم على الجرائد، استطعنا أن ننقذ ماء الوجه كما ترى... إقرأ.

ـ وضع الماريشال هيلو الجرائد على مكتب رفيقه القديم وقدّم إليه مئتي ألف فرنك.

ـ ها هو المبلغ الذي أخذه أخي من الدولة.

ـ أي جنون هذا! صاح الوزير. يستحيل علينا، أضاف وهو يأخذ البوق الذي عرضه عليه الماريشال ليكلّمه في أذنه ، أن نقوم بإجراءات الإعادة وسنضطر عندها على الإعتراف بابتزاز أخيك لمال الدولة ونحن عملنا ما يلزم لإخفاء القضيّة...

ـ تصرّف بها كما تريد؛ لكن لا أريد أن تحوي ثروة عائلة هيلو فلساً واحد مختلساً من دنانير الدولة.

ـ سأنتظر أوامر الملك في هذا الموضوع. يجب ألا نتحدث عنه، أجاب الوزير إذ فهم استحالة إقناع سموّ العجوز العنيد.

ـ الوداع يا كوتان، قال العجوز وهو يأخذ يد الأمير ويسمبورغ، أشعر بالصقيع في نفسي. وبعد أن خطا خطوة واحدة التفت فرأى الأمير منفعلاً جداً، فتح ذراعيه ليشدّه إليه بهما وعانق الأمير الماريشال.

ـ يبدو لي أني أودّع في شخصك كافة قطع الجيش.

ـ الوداع إذاً أيها الرفيق الطيب القديم! قال الوزير.

ـ أجل، الوداع لأني ذاهب إلى حيث هم جنودنا الذين بكيناهم..

في هذه اللحظة دخل كلود فينيون. عندها تبادل هذان العجوزان، أنقاض الجيش النابوليوني، التحية بشدّ محاولين ستر أي أثر للإنفعال.

ـ من المنتظر، سيدي الأمير أن تكون مرتاحاً للجرائد؟ قال رئيس الطلبات السابق. عالجت الأمر بطريقة جعلت معها صحف المعارضة تعتقد أنها تنشر أسرارنا. . . .

ـ للأسف، لا نفع في ذلك، أجاب الوزير الذي يجول نظره في الماريشال وهو يغادر الصالون. كنت ألفظ الوداع الأخير الذي أصابني بسوء. لم يبق للماريشال هيلو في الحياة أكثر من ثلاثة أيام. تفحصته جيداً بالأمس. إنه نزاهة إلهية، إنه جندي تهابه قنابل المدفع لعظمة بأسه وشجاعته. . . على هذه الأريكة، تلقى الضربة القاتلة، ومن يدي وبسبب ورقة! . . . أطلب لي العربة. إني ذاهب إلى نويي، قال وهو يضغط على المئتي ألف فرنك في حقيبته الوزارية.

بعد أيام ثلاثة، وبالرغم من العناية التي بذلتها ليزبت توفيّ الماريشال هيلو.

هؤلاء الرجال مثلٌ لشرف قراراتهم التي يحتضنونها.

كان الماريشال بنظر الجمهوريين المثال فساروا كلهم في موكب جنازته التي لحقتها الحشود الهائلة. الجيش كان هناك، الإدارة، البلاط الملكي، الشعب، العالم بأسره قدم يعبّر عن تقديره ويعرب عن ثنائه لهذا الشرف العظيم وهذه الإستقامة الطاهرة وهذا المجد النقي.

اتّسمت مراسيم جنازته باللطف والذوق الرفيع والمحبّة التي

جميعها تنقلنا إلى ذكريات واهتمامات ومجد طبقة النبلاء الفرنسية.

وراء نعش الماريشال كان يسير الماركيز القديم مونتوران أخ الماركيز الذي كان خصماً منكوداً للماريشال هيلو في تمرد الثوار الملكيين المسلح عام ١٧٩٩. وعند النزع الأخير وتحت وابل القنابل، عَهِد الماركيز بمصالح أخيه الشاب إلى عسكريّ الجمهورية. (يراجع الناعقون) وافق هيلو بطيبة خاطر على وصيّة النبيل الشفوية ونجح في الحفاظ على ممتلكات الشاب الذي كان مهاجراً.

وهكذا كانت طبقة النبلاء في الجنازة لتفي حق هذا الجنديّ الذي كان اقنع السيدة قبل تسع سنوات.

هذه الوفاة التي حصلت قبل أربعة أيام من إعلان زواجه أحدثت في نفس ليزبت ضربة صاعقة حرقت الحصاد المخزّن في الأهراءات.

لكنّ اللورينة نجحت نجاحاً باهراً كما يحصل معها غالباً. مات الماريشال بفعل الضربات التي وجهتها مع السيدة مارنيف إلى هذه العائلة. كان حقدها الذي بدا أن نجاحاتها اشبعته، يتنامى بفضل الآمال الخادعة.

عادت ليزبت إلى السيدة مارنيف تنتحب بخوف، ذلك أنها صارت دون مسكن لأن الماريشال علّق مدّة الإيجار بحياته.

لكن كروفيل، بقصد مؤاساة صديقة فاليري، أخذ مدّخراتها وضاعفها ووضع هذا المبلغ بخمسة بالمئة على أن تمتلك ليزبت حق الانتفاع بينما تمتلك سيليستين حق الرقبة.

بفضل هذا التدبير احتفظت ليزبت بألفي فرنك كدخل مستمر لمدى الحياة.

عند بيان الجردة عثروا على كلمة موجهة من الماريشال إلى زوجة أخيه وابنته أورتنس ولابن أخيه فيكتوران يعهد إليهم بأن يدفع ثلاثتهم ألفاً ومئتي فرنك كدخل لمدى الحياة للتي كادت أن تصبح زوجته، الآنسة ليزبت فيشر.

٩٧

رحيل الأب المبذر

أدلين التي رأت البارون بين الموت والحياة، نجحت في إخفاء وفاة الماريشال لبضعة أيام، لكن ليزبت جاءت لزيارته في ثوب الحداد فانكشفت له الحقيقة المرّة بعد أحد عشر يوماً من مراسم الجنازة.

هذه الصدمة الرهيبة، أعادت إلى المريض القوة فنهض ليجد

كلّ أفراد عائلته مجتمعين في الصالون غاطسين بالأسود فانعقد لسانه لمشهدهم.

خلال خمسة عشر يوماً ظهر هيلو هزيلاً وبدا لعائلته كخيال شبح وقال بصوت خافت وهو يجلس على مقعده متطلّعاً بهذا الجمع الذي غاب عنه كروفيل وستنبوك:

ـ يجب أن نتخذ قراراً.

ـ غير أن أورتنس التي اهتمت بمقدم أبيها أبدت ملاحظة وقالت:

ـ لا يمكننا أن نبقى هنا فبدل الإيجار مرتفع جداً...

ـ أما في ما يعود إلى السكن، قال فيكتوران قاطعاً هذا الصمت المضني، فإني أقدّم لأمي...

رفع البارون رأسه المحنيّ الى السجادة حيث كان يتأمل ازهارها دون أن يراها، عند سماعه هذه الكلمات التي بدت وكأنها تقصد إبعاده، ليرمي المحامي بنظرة متوسّلة.

احتجب فيكتوران عن الكلام، فحقوق الأب مقدّسة دائماً حتى ولو كان فاجراً ومجرّداً من الكرامة.

ـ لأمك ـ أجاب البارون. إنك على صواب يا بنيّ!

ـ المسكن القائم فوق مسكننا في البناء الذي نقطنه، أكملت سيليستين منهيّة عبارة زوجها.

ـ هل أزعجكم يا أبنائي؟... قال البارون بلطف الذين ادانوا أنفسهم. أوه! لا تقلقوا للمستقبل فلن تجدوا ما تشتكون منه في أبيكم ولن تروه إلا في الوقت الذي لن تحمّروا منه خجلاً.

اقترب من أورتنس وقبلها في جبينها وفتح ذراعه لابنه الذي ارتمى بينهما يائساً لأنه أبصر نوايا أبيه ثم أشار إلى ليزبت فقدمت وقبّلها في محيّاها.

بعد ذلك انسحب إلى غرفته فتبعته أدلين التي عصرها الغمّ ونحرها القلق.

ـ كان أخي على صواب يا أدلين، قال لها وهو يأخذها بيدها. لا أستحق حياة العائلة. لم أجرؤ على مديح أولادي الطيّبين لمسلكهم الفذ بغير ما فعلت إلا في قلبي، أبلغيهم بأني لم أقدر إلّا على تقبيلهم فإطراء رجل مقيت أو أب أصبح قاتلاً بدل أن يكون درع مجد عائلته قد يصير إلى أمر مشؤوم؛ لكن لن أنساهم.سأباركهم جميعاً في كل لحظة من لحظاتهم وأنا بعيد عنهم. أما أنت فالله وحده، الكلي القدرة، يمكنه أن يجازيك بما تستحقين!.. أطلب إليك المغفرة، قال وهو يجثو على ركبتيه أمام زوجته ويأخذ، يديها ويبلّلهما بالدموع.

ـ هكتور! هكتور! آثامك كبيرة لكن رحمة الله لا تُحَدّ ويمكنك أن تصلح كلّ شيء لو بقيت معي... بدّل حياتك بالمشاعر

المسيحيّة يا صديقي . . إني زوجتك ولست ديّانك. أنا أشياؤك، إصنع مني ما تريد وقُدْني حيث تتوجّه فإني أتمتع بالقوة لمؤاساتك، وإعادة حياتك إلى وضع تصبح محتملة بقوّة الحب والإحترام والعناية!. . . ركّز ولدانا أوضاعهما ولا حاجة لهما بنا. دعني أسعى لأكون تسلية لك وعوناً على مرحك. إسمح لي أن أشاطرك آلام منفاك ونكبتك أطيّبها. ومهما كانت النتيجة فسأفيدك دائمًا في شيء ما أقله أن أوفّر عليك نفقة خادمة. . .

- هل تسامحينني يا عزيزتي الحبيبة أدلين؟

- بالطبع؛ لكن إنهض يا صديقي؟

- والآن، ومع هذا الغفران بإمكاني أن أحيا! أجاب وهو ينهض عدت إلى غرفتي حتى لا يشهد أولادي سقوط أبيهم. آه! ماذا يعني أن يشاهدوا كل يوم أبا مجرماً، إن ذلك لحالة رهيبة تنتقص من السلطة الأبوية وتسير بالعائلة إلى الإنحلال. لا أستطيع إذاً أن أبقى بينكم. سأترككم لأوفّر عليكم مشهد أب مقيت دون كرامة. لا تعترضي هروبي يا أدلين وإلا أرجّح أن تكون أنت من يحشو المسدّس الذي به سأقلع دماغي. . . لا تلحقي بي إلى عزلتي لأنك ستحرمينني من القوة الوحيدة المتبقيّة عندي، قوة الندم والاستجابة لتبكيت الضمير.

فرضت قدرة هكتور الصمت على أدلين المستميتة.

كانت هذه المرأة التي حافظت على عظمتها بين هول

النكبات، تستمد همتها من اتحادها الحميم بزوجها لأنها كانت تشعر أنه لها لوحدها فتدرك سموّ رسالتها في مؤاساته وإعادته إلى حياة العائلة ومصالحته مع نفسه.

ـ أتريدني يا هكتور أن أهلك، ضحيّة اليأس والإضطراب والقلق!... قالت عندما شعرت بأن كيان قوتها بدأ يتزعزع.

ـ سأعود إليك يا ملاكي، خصوصاً من أجلي، سأعود، إن لم أكن غنياً فعلى الأقل ميسوراً. إسمعيني جيداً يا أدلين، لا أقدر أن أظل هنا لأسباب عديدة، أولها أن راتبي يبلغ ستة آلاف فرنك ومرتهن لأربع سنوات، يعني أنني لا أملك شيئاً. هذا ليس كل شيء! سأكون في أيام معدودة عرضة لحبس المدين بسبب السندات التي وقعتها لفوفيني..... لهذا يجب أن أتوارى حتى يتسنىّ لابني الذي سأترك له توجيهات دقيقة ليسوّي هذه السندات. إن اختفائي سيسهل كثيراً هذه العملية. وعندما يتحرر راتبي التقاعدي وتُسدّد ديون فوفيني سأعود اليكم.. قد تفشين سرّ مكان نفيي، كوني حازمة ولا تبكي يا أدلين... فالمسألة لن تدوم أكثر من شهر واحد...

ـ إلى أين ستتوجه ؟ وماذا تفعل؟ ماذا يحلّ بك؟ من سيعتني بك أنت الذي لم يعد شاباً؟ دعني أتوارى وإياك ونهاجر.

ـ إذاً سنرى! أجاب البارون.

دق البارون الجرس وطلب إلى مارييت أن تحزم أغـراضه

وتضعها سراً وسريعاً في الحقائب.

ثم توسّل إلى زوجته بعد أن عانقها بحرارة وحنان لم تعهدهما من قبل، لتدعه وحده للحظة ليسجّل التعليمات التي يحتاجها فيكتوران قاطعاً لها وعداً بأنه لن يغادر المنزل إلاّ ليلاً ومعها.

ومنذ اللحظة التي دخلت فيها البارونة إلى الصالـون قطع العجوز اللبق حجرة التزيين ودخل الغرفة المجاورة وخرج بعد أن وضع لماربيت قصاصة ورق كتب عليها:

«توجهي بحقائبي إلى سكة حديد كورباي، معنونـة باسم السيد هيلو إلى كورباي»

استقلّ البارون عربة كـانت تجوب بـاريس عندمـا وصلت ماربيت لتطلع البارونة على القصاصة وتعلمها برحيل سيدها.

انطلقت أدلين إلى غرفتها وهي ترتجف بشدة لم يسبق لها أن مرّت بها يوماً؛ فتبعها أولادها الـذين ارتعبوا عنـدما سمعـوا صراخها الحادّ. أغمي على البارونة مما اضطرهم إلى نقلها إلى سريرها لأنها أصيبت بحمّى عصبية أبقتها بين الحياة والموت لمدة شهر كامل.

ـ أين رحل؟ كان ذلك الكلام الوحيد الذي يحصلون عليه منها. تحريات فيكتوران بشأنه لم تجد نفعاً. لماذا؟ ها هو السبب.

٩٨

حيث ظهرت جوزيفا

قصد البارون ساحة القصر الملكي. وهناك استعاد هذا الإنسان عقله لينجز مشروعاً كان صمّمه في الأيام التي كان فيها منسحقاً من الهمّ والآلام وقطع القصر الملكي ليستقلّ عربة فخمة في شارع جوكيلي.

وبناء على الأوامر المعطاة دخل سائق العربة إلى شارع الفيل أيفيك حتى قصر جوزيفا حيث فتحت الأبواب على صوت السائق ورؤ ية هذه العربة الرائعة.

قدمت جوزيفا بفضول منها ثم أعلمها خادمها أن عجوزاً كسيحاًعاجزاً عن ترك عربته يرجوها لتنزل لبرهة.

ـ هذا أنا يا جوزيفا!...

لم تعرف المغنية الشهيرة هيلو الا من صوته.

ـ هذا أنت! لا أصدّق، أيها العزيز القديم.. في الحقيقة انت تشبه قطع نقود العشرين فرنكاً التي يغسلها يهود ألمانيا ويرفضها الصيارفة.

ـ هيهات! نعم، أجاب هيلو، إني أخرج من قبضة الموت! وأنت! أنت تظلين جميلة. لكن هل ستكونين فتاة طيِّبة؟

ـ هذا يتوقف على قناعات، كل شيء نسبي.

ـ إصغي إلي. هل بمقدورك أن تسكنيني في غرفة خدم تحت السقوف لبضعة أيام؟ إني لا أملك فلساً، دون أمل يرتجى، دون خبز، دون معاش، دون زوجة، دون أولاد، دون مأوى، دون كرامة، دون شجاعة دون صديق، والأنكى من كل هذا أني تحت وطأة سندات موقّعة.

ـ كم أنت مسكين يا عزيزي! ما أجمل هذهالدونات .وهل إنك أيضاً دون سروال؟

تضحكين ، أنا هائم ! صاح البارون . مع ذلك اعتمد عليك كما كورفيل على نينون .

ـ قيل لي أن امرأة قد زجّتك في هذا المأزق، المازحات ينجحن أكثر منا في نتف ريش الديك الرومي!... أوه! إنك تبدو كهيكل عظمي هجرته الغربان... ويظهر النور من خلاله!..

ـ ليس الوقت للمزاح يا جوزيفا!

ـ أدخل يا عزيزي! إني لوحدي وحاشيتي هنا لا تعرفك. اصرف العربة. هل وفّيت أجرها؟

ـ نعم، أجاب البارون وهو يهبط الدرج متكئاً على ذراع جوزيفا.

ـ أنت الآن أبي، إذا شئت، قالت المغنّية التي أخذتها موجة من الشفقة. ثم أجلست هيلو في الصالون الفخم حيث رأته آخر مرة.

ـ هل صحيح يا عزيزي ما يقال عنك أنك قتلت أخاك وخالك وحطّمت عائلتك وأرهقت منزل أولادك بالرهونات واختلست أموال الحكومة في أفريقيا مع الأميرة؟

أحنى البارون رأسه والأسى يموّج تجاعيد وجهه.

ـ حسناً ! إني أعشق هذا! صاحت جوزيفا التي نهضت والحماس يملأ دخيلتها. هذا حريق عام! هذا فظيع! إن كنتُ حقيرة فقلبي باقٍ على عاطفته. إني أحب عاشقاً ولهاً كما أنت تجاه النساء، أكثر من هؤلاء الصيارفة الباردين الذين لا روح فيهم، ويقال أنهم فضلاء، لكنهم يطيحون بآلاف العائلات بأساليبهم التي تقودهم إلى الثراء بينما تقود السذج إلى الهلاك! أما أنت فلم تهلك إلا نفسك وبأساليبك، مع ذلك فلك عذرك الجسدي والأخلاقي...

ثم جلست بطريقة مأساوية وقالت:

«هذه هي فينوس تعلّقت كلها بضحيتها».

ـ هذا كل شيء! أضافت وهي تستدير على رجل واحدة.

وجد هيلو نفسه بُرِّىء من العار الذي يبسم له في وسط بذخه المجنون.

عظمة الجرائم بدت هنا كما بالنسبة للمحلّفين كسبب تخفيفي

- وهل تلك المرأة جميلة على الأقل؟ سألته المغنيّة وهي تحاول كخطوة أولى أن تلهيه عن ألمه الذي يدمي الفؤاد ويحزّ النفس

- في الواقع، تشبهك إلى حدٍّ بعيد! أجاب البارون برقةٍ ولطف.

- ومهرّجة ماهرة؟ حسبما قيل لي. ماذا فعلت بك إذاً؟ هل كانت أكثر مني طرافة؟

- فلندعها، قال هيلو.

- يقال إنها توجت بالزهر، العزيز كروفيل والصغير ستانبوك والبرازيلي الساحر.

- هذا ممكن جداً.

- تسكن قصراً يناهز هذا القصر جمالاً وقدّمه لها كروفيل. تقوم هذه الفاسقة بدور القاضي الذي يقضي على الناس الذين أكون شرعت بهم! لهذا يا عزيزي تراني فضوليّة جداً في الاطلاع على أحوالها، التقيت بها وهي في عربة في البوا، ولكن عن بعد... قال لي كارابين أنها سارقة مدرّبة! تحاول أن تبتلع كروفيل لكن لن تتوصل إلا إلى قضمه، فكروفيل جرذ لطيف يجيب دائمًا بنعم، ولا يعمل إلا بما يمليه عليه رأسه. إنه رجل

متباه ومتولّه لكن نقوده باردة كالصقيع. لا نحصل من هؤلاء الصبية إلّا على مبلغ يتراوح بين الألف والثلاثة آلاف ويتراجعون أمام النفقات الضخمة كالحمر أمام الساقية. لكنك يا عزيزي، رجل العواطف الجيّاشة، تبيع وطنك في سبيل رغباتك! مع ذلك فإني مستعدة لعمل أيٍّ شيء من أجلك، أنت أبي، وأنت الذي أطلقني! أقدّس ذلك ماذا يترتّب علي؟ هل تكفيك مئة ألف؟ سيسعى البعض، في تأمينها لك، للقضاء على طبعك ومزاجك. إن الحصول على خبيصة الكلاب ومسكنها أمر سهل جداً ستحصل على أغطيتك مرتبة هنا كل يوم كما يمكنك أن تختار أجمل غرفة في الطابق الثاني إضافة إلى مئة ريال تصلك كل شهر.

تأثر البارون بهذا الاستقبال واستعاد آخر دفقة من النبالة.

ـ لا يا عزيزتي، لا، أنا لم آتِ إلى هنا لأجد من يتعهدني.

ـ هذا نصر يُعتزّ به!

ـ هذا ما أتمناه يا ابنتي. الدوق هيروفيل يملك أراضٍ شاسعة في نورماندیا وأريد أن أكون مديره تحت اسم تـول. بي من الكفاءة والكرامة ما يجعلني أقدم على هذا التفكير. قد نفكر في الاعتداء على الدولة لكنّ ذلك غير جائز على صناديق الأفراد...

ـ ها! ها! من شرب البحر لن يغصّ بالساقية!

النتيجة أني لا أطلب سوى أن أقضي ثلاث سنوات مجهولاً...

ـ هذا العمل لا يستغرق سوى لحظة، ما عليَّ إلاّ أن أكلّمه هذا المساء بعد العشاء، فالدوق يتزوج بي لو رغبت بذلك. إني أتصرف بثروته لكني أطمح بالأكثر!... باحترامه! إنه دوق من الطبقة العليا ونبيل مميّز وعظيم مثل لويس الرابع عشر ونابوليون معاً وإن كان قزماً تصرّفت حتى الآن كما شونتز مع روشفيد... توصّل بنصائحي ليربح مليونين. أصغِ إليّ أيها العزيز، الغريب الأطوار!... إني أفهمك فـأنت تعشق النساء وستعـدو وراء النورمنديات الصغيرات الفاتنات مما سيدفع بالصبية أو بالآباء إلى تحطيم عظامك فيضطر الدوق عندها إلى إقالتك. أتظنني أني أدرك مغزى نظرتك إليّ وأن روح الشباب، كما قال فينيلون، لم تمت فيك حتى الآن! هذه الإدارة لا تناسبك. لا يمكنك أن تنسلخ يا عزيزي عنّا أو عن باريس كما يحلو لـك! ستنفجر ضجراً وأنت في إيروفيل!

ـ ماذا سيحلّ بي؟ فأنا لا أريد أن أبقى معك إلاّ الوقت اللازم لاتخاذ القرار.

ـ لنرَ، هل تقبل وظيفة أفكر بها؟ إذاً، أصغِ إليّ أيها القائد العجوز!...

٩٩

مِشبَك

ـ إنك بحاجة للنساء، وهذا ما يرمِّم نفسك بالعزاء. اصغ إليّ جيداً. في أسفل الكورتيل، شارع سان موردي تامبـل، أعرف عائلة فقيرة تملك جوهرة: إنها فتاة صغيرة تفوقني جمالاً في السادسة عشر من عمري!. . عيناها تلتهبان! تعمل ست عشرة ساعة في تطريز القماش الثمين لتجّار الحرير فتربح ستة عشر فلساً في اليـوم أي فلسـاً واحـداً في السـاعـة، إنـه البؤس بذاته!... وهذه كالايرلنديين تأكـل، البطاطـا، مقلية بشحم الجرذان، والخبز خمس مرات في الأسبوع وتشرب ماء الأورك من أنابيب المدينة لأن ماء السين مرتفع الثمن ولا يمكنها أن تشارك بمؤسسة على نفقتها لأنها لا تملك ستة أو سبعة آلاف فرنك. وهي مستعدة لتخاطر بأي شيء لتحصل على سبعة أو ثمانية آلاف فرنك. إن عائلتك وزوجتك تضايقك أليس كذلك؟... لا يمكن للإنسان أن يرى نفسه معدوماً في الوقت الذي كان إلهاً. إن أباً دون كرامة ودون مال لا يمكنه أن يكون قديساً ملفوفاً بالقش ومنعزلاً داخل حاجز زجاجي»....

لم يستطع البارون أن يتمالك نفسه فابتسم لهذه الدعابات المخزية.

ـ وبعد! الجوهرة الصغيرة ستزورني في الغد لتحمل لي لباس الراحة المطرّز، قضوا به ستة أشهر، لا أظن أحداً يملك مثل قماشته! الجوهرة تحبني لأني أقدّم لها قطع الحلوى وفساتيني العتيقة. وارسل طلبيات من الخبز والحطب واللحم للعائلة التي تضحي بالكثير من أجل أي طلب أتلفظ به. أسعى لتقديم شيء من الخير ولو ضئيلاً! آه! لم أنس ما عانيت عندما كنت جائعة! أفرغت الجوهرة في قلبي دقائق أسرارها. تتمتع هذه الفتاة الصغيرة بقماشة ممثلة مسرح الفكاهة المتشعبة. تحلم الجوهرة في ارتداء الفساتين الجميلة مثلي وعلى الأخص في التنزه بالعربة. سأقول لها: «أتقبلين يا صغيرتي بسيد... توقفت لتسأله: ـ كم لك من العمر؟... اثنتان وسبعون؟

ـ لم يعد لي عمر...

ـ «أتريد أن أحدّثها عن سيِّد في الاثنتين والسبعين، نظيف، لا يدخّن، سليم الجسم وما زال بهمة الشباب؟ ستتزوجين منه وكأنه في الثالثة عشرة، سيعاملك بلطف ويعطيك سبعة آلاف فرنك لتكون في حسابك ويؤثث لك مسكناً من الأكاجو، وإن كنت رصينة سيرافقك أحياناً إلى المسرح. سيعطيك مئة فرنك في الشهر لتتصرفين بها بنفسك وخمسين فرنكاً للانفاق!» أعرف الجوهرة جيّداً، إنها أنا عندما كنت في الرابعة عشرة! كم قفزت

فرحاً عندما بادرني كروفيل المقيت بهذه الاقتراحات الشنيعة! وهكذا يا عزيزي، ستتوارى هنا لثلاث سنوات. إنه عمل حكيم وشريف سيستمر حتى ثلاث و أربع سنوات على الأكثر.

لم يتردّد هيلو. اتخذ قراره بالرفض، لكن عندما أراد أن يوجّه الشكر إلى هذه المغنيّة الرقيقة والممتازة التي تفعل الخير على طريقتها، كان يتأرجح بين العار والفضيلة.

ـ هذا إذاً! ما بالك بارداً كبلاطة في كانون! بعملك هذا تُسعد عائلة مؤلفة من جدّ يخبُّ وأمّ ترهق نفسها بالعمل وشقيقتين أحداهما بشعة جداً يحصلان معاً اثنين وثلاثين فلساً بعد إنهاك عيونها. عملٌ كهذا يعوّض البؤس الذي كنت سبباً له في عائلتك وتُكفِّر عن آثامك وأنت تلهو كما جنة في مابيل.

تظاهر هيلو وكأنه يهتم بالمال ليضع حداً لهذا الأغراء، فتابعت كلامها قائلة:

ـ كن مطمئناً للسُبُل والوسائل، إن دوقي سيقرضك عشرة آلاف فرنك: سبعة آلاف لمؤسسة تطريز باسم بيجو وثلاثة آلاف لتأثيث المنزل إضافة إلى ستمئة وخمسين فرنكاً تجدها هنا على سند، وعندما تحرّر راتبك تعيد إلى الدوق آلافه السبعة عشر. في هذه الفترة تعيش مرفهاً ومتخفياً في حجر لا تعثر الشرطة عليك فيه! اتلبس رداء ضخمًا من فراء القندس وتتظاهر بأنك ملاّك من ميسوري المحلّة. تنتحل اسم تول، إذا كانت هذه رغبتك.

سأسلِّمك لبيجو وكأنك أحد أعمامي المفلسين القادمين من ألمانيا حيث ستعامل مدلّعاً كإله. هذا ما عندي يا أبي!... من يعلم؟ قد لا تأسف لشيء؟ وإذا ما ضجرت صدفة، احتفظ بأحد معاطفك، وتعال إلي وادعُني إلى الغداء وقضاء الأمسية.

ـ أفعل ذلك، أنا الذي عاهدت نفسي لأكون فاضلاً، متزناً!... المهمّ أن تقرضيني عشرين ألف فرنك وأرحل إلى أميركا لأجمع ثروة هناك على غرار صديقي أكليمون الذي أهلكه نوسنجان...

ـ أنت! صاحت جوزيفا، أترك هذه التقاليد للعطارين والمجندين البسطاء والمواطنين الفرنسيين الذين يتحلّون بالفضائل للحفاظ على كرامتهم! أنت ولدت لتكون شيئاً آخر غير المغفلين، أنت فيك رجل يماثل ما فيّ من امرأة: إنك ماجن عبقري!

ـ الليل باعث النصائح، سنتحدّث عن كلّ ذلك في الغد.

ـ ستتناول غداءك مع الدوق. إن الصديق هيروفيل يستقبلك بلطف وكأنك أنقذت الدولة! وفي الغد تتّخذ قرارك. هيا يا صديقي كن مرحاً! الحياة ليست إلا رداءً: عندما يتسخ تفرشيه! وعندما يتثقب نرفأه، ونبقيه علينا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، فلسفة العار هذه ومرحها بدّدا آلام هيلو المبرحة.

غداً ظهراً وبعد غداء شهي، شاهد هيلو أحد أرقى أفضل

إنتاج لا يقدر غير باريس على صناعته بفضل التسرّي المتواصل للبؤس مع الرفاهية والرغبة المكبوتة مع التجربة المولِّدة التي تجعل من هذه المدينة وريثة نينوى وبابل وروما الأمبراطورية.

الآنسة أولمب بيجو فتاة صغيرة بلغت ستة عشر ربيعاً أطلّت بوجهها الرائع الذي بحث عنه رافايل لعذاراه وبعينين مسحهما الشغل المتواصل ببراءة محزنة؛ بعينين سوداوين حالمتين مسلحتين برموش طويلة جفّت حيويتها بنار الليل المجهد، عينين عتّمهما التعب. لونها بُرسيلانيْ ذرّ عليه المرض من أنفاسه، فمها كرمّانة مشقوقة وصدرها الممتلىء يضج بالحياة، يداها نحيفتان وأسنانها، من أميز أنواع العاج وشعرها فحميّ كثيف. كل هذا يغطيه نسيج هنديّ، المتر منه بخمس وستين سنتيمًا، مزدان بياقة مطرزة، قائم على حذاء من الجلد خال من المسامير ومزيّن بكفوف بتسع وعشرين فلساً.

تزينت هذه الفتاة التي لا تعرف مقامها الصحيح، بأبهى حللها حتى تأتي لزيارة السيدة الكبيرة.

أحسّ البارون الذي انساق بيد الشهوة الطمّاعة، بأن حياته تفر من عينيه فنسي كل شيء أمام هذه المخلوقة الفائقة الجمال فتهيأ كالصياد عندما يلحظ طريدته.

همست جوزيفا في أذنه قائلة:

- وهي مضمونة أنها بتول وشريفة. هذه هي باريس! هكذا كُنْت!

ـ سمعت هذا، أجاب العجوز وهو ينهض ويفرك يديه.

عندما رحلت أولمب بيجو رمت جوزيفا البارون بنظرة خبيثة متشيطنة.

ـ إذا أردت أن تزيل الغمّ عنك يا أبي كن قاسياً كالنائب العام على قوسه. أمسِكْ زمامها وكن بارتـولو! إحـذر المهابـة وايبوليت ونستور وفيكتور وكلّ الأسماء المنتهية بأور!... السيدة! عندما تغطي جسدهـا وتملأ معـدتها فتـرفع رأسهـا وتسوقـك كروسيّ... أنا ذاهبة لأرتّب لك رياشاً. الدوق يتدبّر الأمور بشكل جيد، سيقرضك عشرة آلاف فرنك، يودع منها ثمانية عند الكاتب العدل الذي سيؤدي لك في نهاية كل فصل ست مئة فرنك لأني أخاف عليك. هل تجدني لطيفة؟

ـ رائعة!

بعد عشرة أيام على مغادرته عائلته، حيث غرقت بالدموع والتفت حول سرير أدلين المشرفة على الموت والتي كانت تقول بصوت خافت: «ماذا يفعل؟» سكن هكتور باسم تول في شارع سان مور مع أولمب، يدير مؤسسة تطريز باسم تول وبيجو.

١٠٠

وصيّة الماريشال

تزوّد فيكتوران هيلو من النكبة الفظيعة التي حلّت بعائلته بـالطريقـة التي تؤدي إلى كمـال الإنسـان أو نقيصته. لكن فيكتوران أصبح كاملاً. في عواصف الحياة نتقلّد ربان السفينة الذي يخفّف من أحمالها الثقيلة عندما تهددها الزوابع.

فقد المحامي كبرياءه الداخلي وتماسكه الظاهري وعجرفته الخطابية وادعاءاته السياسية. أصبح كرجل ما كانت عليه أمه كامرأة، فقرّر الإبقاء على سيليستين التي، من المؤكد، لا تحقق أحلامه، واعتبر ـ محقاً ـ أن الشريعة المشتركة تلزم الفرد بالإكتفاء من كل شيء بما يتيسّر.

تعهّد بأنه سيقوم بنفسه بإتمام واجباته محاذراً سلوك أبيه الرهيب تنامت مشاعره ونشطت وهو على وسادة أمه يوم عادت وتنشقت نسيم الحياة.

أول شعور بالسعادة لم يكن لوحده. إن كلود فينيون الذي يطلع كل يوم عن طريق الأمير ويسمبورغ على نشرة صحة

السيدة هيلو، رجا النائب المنتخب مرافقته لدى الوزير.

ـ سعادته يرغب إليك مقابلته ليحدّثك عن أموركم العائلية.

فكتوران هيلو والوزير يعرف واحدهما الآخر منذ مدة طويلة؛ واستقبله الماريشال بالخير واليمن والحفاوة المميّزة.

ـ يا صديقي، قال المحارب القديم، أقسمت، في هذا المكتب، لعمك الماريشال بأن أهتم بأمك، هذه القديسة التي توشك أن تستعيد صحتها، كما قيل لي، وها حان الوقت لتضميد جراحكم. أحمل معي هنا مئتي ألف فرنك وهي لكم وأريد أن أسلّمها لكم.

أجاب المحامي بحركة جديرة بعمه الماريشال.

ـ إطمئن، قال الأمير وهو يبتسم. إنها وصيّة ائتمان. لن أكون دائمًا هنا، فأيامي معدودة، خذ إذن هذا المبلغ وضمّني إلى عائلتكم. يمكنك أن تتصرّف بهذا المال لتسدّد الرهونات التي تثقل كاهل بيتكم. المئتا ألف فرنك تخصّ أمك وأختك. أخشى لو سلّمت هذا المبلغ إلى السيّدة هيلو أن يدفعها أخلاصها لزوجها إلى تبديده بينما قصد من وقفه لهما أن يكون هذا المبلغ خبز السيدة هيلو وخبز ابنتها الكونتسا ستانبوك. إنك رجل حكيم، الإبن البار لأمك النبيلة، وابن الأخ الحقيقي لصديقي الماريشال، نحن نقدرك جداً هنا يا صديقي العزيز الآن كما في السابق. أطلب إليك أن تكون الملاك القيّم على عائلتك، وتقبل بوصية عمك ووصيتي.

ـ سيدي، قال هيلو وهو يضع يده في يد الوزير ويشدّ عليها، إن الرجال أمثالك يدركون أن الشكر بالكلام لا يعني شيئاً، الأيام ستثبت لك عرفاننا بالجميل.
ـ على ماذا أنت عازم! قال الجندي القديم.

ـ وما العمل؟
ـ إقبل باقتراحاتي، قال الوزير. نريد أن نعيّنك محامي شؤون الحرب التي يزدحم بها قسم الهندسة نظراً للنزاعات التي نشأت بسبب تحصينات باريس، ومحامياً استشارياً في دائرة الشرطة ومستشاراً لدائرة مخصصات رئيس الدولة. هذه الوظائف الثلاث تؤمن لك ثمانية عشر ألف فرنك لكنها لن تؤثر في استقلاليتك. تقترع في المجلس وفق ضميرك وآرائك السياسية... تصرّف بحرية تامة، هيا! سنكون محرجين جداً لو انتفت المعارضة الوطنية! المهم، أن عبارة من عمك كتبها قبل ساعات من وفاته رسمت لي تصرّفي تجاه أمك التي يحبها الماريشال كثيراً!... إن السيدات بوبينو، دي راستينياك، دي نافارين، ديسبار دي كرانليو، دي كاريكليانو، دي لونونكور ودي لاباتي خصّصن لأمك العزيزة مركز مراقبة أعمال البرّ، إن سيّدات المجتمع هؤلاء اللواتي كرّسن حياتهن لأعمال الخير لا يمكنهنّ أن يحطن بكل شيء، لذا فإنهن بحاجة ماسّة إلى سيّدة مستقيمة تنوب عنهن بعزم ونشاط وتزور التعساء وتتأكد من أن الصدقة لم تكن في غير طريقها، وتتثبت من أن الإعانات سلّمت

إلى أصحابها الحقيقيين وتقتحم منازل الفقراء الخجولين وغير ذلك. عمل أمِّك هذا، هو مهمة ملاك، وعلاقتها محصورة فقط مع الكهنة وسيِّدات البرّ والأحسان، مقابل ذلك ستحصل على ستة آلاف فرنك في السنة إضافة إلى أن تنقلاتها تكون مدفوعة بكاملها. ها إنك ترى أيها الشاب كيف أن ذلك الإنسان الطاهر، النبيل الفاضل ما زال وهو في أعماق قبره يرعى عائلته. إن أسماء كما اسم عمك هي درع حصين ضدّ الشر ويجب أن تبقى في هذه المجتمعات الدقيقة التنظيم. سر على خطى عمك، ثبّت نفسك فيها لأنك، كما أعرف، على هديها تعمل.

ـ لا أستغرب أيها الأمير إن وجدت في صديق عمي، هذه الحفاوة النادرة. سأسعى لأستجيب لكلّ أمانيك.

ـ أسرع لتخفف من ضيق عائلتك!... آه! قل لي، تابع الأمير وهو يتبادل مع فيكتوران السلام بقبضة اليد، هل اختفى أبوك؟

ـ للأسف! نعم.

ـ لا بأس. استعاد هذا البائس عقله الذي ما كان يوماً قليلاً عنده.

ـ ثمة سندات مدين بها وأني أخشى مفاعيلها.

ـ آه! ستتسلّم أتعابك عن ستة أشهر لوظائفك الثلاث. هذه

الدفعة المعجّلة ستساهم دون ريب في سحب هذه السندات من يد المرابي. سأقابل نوسانجان وربما أتوصّل إلى تحرير راتب أبيك دون أن تدفع أي فلس لا أنت ولا وزارتي. إن عضو مجلس فرنسا لم يقتل المصرفي، فنوسانجان لا يرتوي ويطلب امتيازاً، لا أعرف حتى الآن بماذا... لدى عودته إلى شارع بلومي استطاع فيكتوران أن ينجز مشروعه فيصطحب أمه وأخته إلى منزله.

١٠١
تبدلات كبيرة

ويمتلك المحامي الشاب وهو الشهير أحد أجمل الأبنية في باريس، اشتراه عام ١٨٣٤ استعداداً للزواج، وهو في جادة بين شارع السلام وشارع لويس الكبير.

أقام أحد المضاربين في الشارع قرب الجادة بناءين وسطهما بين حديقتين وساحات. جناح رائع من بقايا روائع قصر فورناي العظيم.

نقل الإبن هيلو الواثق بمهر الآنسة كروفيل، إلى ملكيته بالمزاد العلني هذه العقارات الرائعة بمبلغ مليون، دفع منه خمس مئة

ألف فرنك. سكن المحامي في الطابق الأرضي من الجناح حاسباً تسديد الثمن من الإيجارات؛ لكن إذا كانت المضاربات بالبيوت في باريس أكيدة فإنها بطيئة ومتقلّبة لأنها مرتبطة بظروف غير متوقعة.

لاحظ هذه الظاهرة الباريسيون المتسكعون؛ فالجادة القائمة بين شارع لويس الكبير وشارع السلام ازدهرت متأخرة؛ رتبت ونظمت وزينت بعد كثير من العناء إذ أن التجارة لم تمتدّ إليها إلا عام ١٨٤٠ حيث ظهرت بواجهاتها وذهب صيارفتها وسحرها وموضتها وجنون بذخ حاناتها ومحالّها.

بالرغم من مبلغ المئتي ألف فرنك التي قدّمها كروفيل إلى ابنته في الوقت الذي كان يعتزّ بهذا الزواج، ولم يكن البارون خطف منه جوزيفا، وبالرغم من مبلغ المئتي الف فرنك الذي سدّده فيكتوران في سبع سنوات فالدين الذي يثقل العقار ارتفع إلى خمس مئة ألف فرنك بسبب تفاني الابن في سبيل الأب وإخلاصه له.

لحسن الحظ، ارتفعت قيمة المبنيين بسبب الارتفاع المستمرّ في الإيجارات وجمال الموقع. حققت المضاربة أهدافها بعد انتظار ثماني سنوات كان المحامي أثناءها منهكاً في ايفاء الفوائد والمبالغ التي لا طائل منها والمترتبة على المبلغ المتوجب.

كان التجار أنفسهم يقترحون بدلات إيجار رابحة للحوانيت

شرط أن يمدّد التمتع بالإيجارات إلى ثماني عشرة سنة. زادت أسعار الشقق إثر تغيير مركز الأعمال الذي تركّز حينذاك بين البورصة ومادلين التي أصبحت بعد الآن مركز السلطة السياسية ومالية باريس.

إن المبلغ الذي سلّمه الوزير إلى فكتوران مضافاً إلى السنة المدفوعة مسبقاً وإلى الزودات التي انصاع لها المستأجرون ستقلّص الدين إلى مئتي ألف فرنك. ومن المقدر أن يحصل على مئة ألف فرنك في سنة من غلة إيجار البناءين بكاملهما.

سنتان مضتا كان هيلو الإبن يعيش أثناءها بأتعابه التي ضاعفتها مراكز الماريشال، وأصبح معها في مركز يحسد عليه. كان ذلك المنّ الهابط من السماء.

أمكن لفيكتوران أن يتخلى لأمّه عن الطابق الأول في الجناح ولأخته عن الثاني حيث تمتّعت ليزبت بغرفتين منه.

كان البيت المثلث الذي كانت تديره النسيبة بت يتحمّل أعباءه ويقدّم مساحة فسيحة كما يليق بالمحامي الشهير. نجوم قصر العدل توارت بسرعة، وبان هيلو الموهوب حكمة واستقامة قاسية. كان القضاة والمستشارون يصغون إليه بشغف. كان يدرس أعماله ولا يقول شيئاً دون أن يتمكّن من إثباته، يهتم كثيراً بمرافعاته في كل القضايا حتى سمت به مهنة المحاماة.

كانت البارونة تمقت السكن في شارع بلومي فانتقلت إلى

شارع لويس الكبير. شنغلت أدلين بفضل اهتمام ابنها، شقة رائعة تأمنت فيها كل وسائل العيش المادية لأن ليزبت ارتضت القيام بالأعباء الاقتصادية التي كانت تنجزها عند السيدة مارنيف إذ رأت في ذلك وسيلة لتنفث انتقامها الخابث، على الكائنات الثلاثة النبلاء هؤلاء، موضوع حقدها المتأجج بانقلاب كل أمانيها.

وكانت تتردّد مرة كل شهر إلى فاليري لتطلّع على أحوالها. وكانت أورتنس ترسلها أحياناً حتى تتسقط أخبار ونسيسلاس وكذلك وسيليستين القلقة من العلاقة المعلنة والمعروفة لأبيها مع امرأة كانت سبب تعاسة وتحطيم حماتها وأخت زوجها.

وكما يمكن أن نتوقع، أفادت ليزبت من هذا الفضول لتلتقي بفاليري قدر ما تشاء.

مضى عشرون شهراً توطّدت خلالها صحة البارونة دون أن ينقطع مع ذلك رجفانها العصبي، فأعلمت بوظائفها التي تشكّل تسلية سامية لنفسها المتألمة، وغذاء لملكات نفسها الإلهية.

رأت في وظيفتها وسيلة للعثور على زوجها بفضل الصدف التي تقودها إلى مختلف أحياء باريس.

في هذا الوقت تسدّدت سندات فوفيني وتحرّر الراتب البالغ ستة آلاف فرنك والمرتهن لحساب البارون هيلو. كان فيكتوران مسؤولاً عن كلّ مصاريف أمه ومصاريف أورتنس إضافة إلى

عشرة آلاف فرنك كفائدة رأس المال الذي سلّمه له الماريشال وكان مؤتمناً عليه.

بلغت معاشات أدلين ستة آلاف فرنك إضافة إلى ستة آلاف أخرى هي معاش البارون، أعطت جميعها دخلاً من إثني عشر ألف فرنك في السنة خالصة المصاريف للأم والابنة.

شارفت السعادة حدود قلب الأم المسكينة، لأن القلق الدائم على مصير البارون لزمها ولم يفارقها، وكانت تتمنىّ أن تتمتع مع زوجها بالثروة التي بدأت تبسم للعائلة، . ثم أنها لا تغفل عن ابنتها المهجورة وعن الصدمات التي تحملها «ببراءة» ليزابِتْ الذي نشط فيها طبعها الشيطاني إلى أبعد مداه.

الحادثة التي حصلت في بداية آذار ١٨٤٣ستفسّر النتائج التي حصلت بسبب الحقد الكامن والمستتر في ليزبت والذي تبعثه وتغذيه السيدة مارنيف.

ثم أن حادثين كبيرين حصلا عند السيدة مارنيف: الأول أنها وضعت ولداً غير قابل للحياة غير أن نعشه كان يدرّ عليها دخلاً بألفي فرنك. أما بالنسبة للسيد مارنيف وقبل أحد عشر شهراً، حملت ليزبت إلى العائلة بعد عودتها من زيارة استكشاف لقصر مارنيف الرواية التالية:

ـ طلبت المقيتة فاليري هذا الصباح الطبيب بيانشون لتتأكد مما إذا كان حكمهم بنهاية حياة زوجها ثابتاً وصحيحاً. وصرّح هذا

الطبيب بأن هذا الرجل القذر سيدخل جهنم التي تنتظره. رافق الأب كروفيل والسيدة مارنيف الطبيب الذي أبوك يا عزيزتي سيلستين أهداه، خمس قطع ذهبية لهذا الخبر المفرح. وعندما عاد إلى الصالون أخذ يثب وينطُ كراقص «الباليه» ثم عانق هذه المرأة وصرخ: «وأخيراً ستكونين السيدة كروفيل!...» وبعد أن تركتنا السيدة لوحدنا لترجع إلى مكانها قرب وسادة زوجها الذي يحشرج، قال لي أبوك المحترم: «مع فاليري الزوجة سأصبح والي فرنسا! أشتري أرضاً أترصدها منذ زمن، إنها أرض برسل التي تود السيدة سوريزي أن تبيعها. عندها ألقب بكروفيل دي برسل وأصير نائباً وعضواً في المجلس العام للسان والواز. سألد ابناً! وسأحصل على ما أبتغي. ـ وابنتك؟، أجابني: ـ ياه! إنها فتاة تحوّلت إلى حدّ مفرط فتاة من عائلة هيلو وتعرفين شعور فاليري المخيف تجاه هؤلاء الناس... لم يرغب صهري يوماً بأن يأتي إلى هنا ولماذا يقتدي بالمنثور والسبارطي والطهري والخيرّ؟ حتى الآن، أعتبر أني صفّيت حساباتي مع ابنتي: تسلّمت كلّ ثروة أمها إضافة إلى مئتي ألف فرنك! ألا أستحقّ أن أكون سيّد نفسي فأفعل ما يحلو لي؟ على كل حال سأقيم صهري وابنتي بعد زواجي فكما يتصرّفون أتصرّف، فإذا عاملا خالتهما بالحسنى، سيكون لي عندها موقف! إني رجل بيتي!». بعد هذه الحماقات، أتكأ مثل نابوليون على العامود!.

بعد انتهاء الأشهر العشرة المنصوص عليها في سنّة نابوليون

بأيام معدودة كان كروفيل اشترى أرض برسل.

وفي الصباح أرسل فيكتوران وسيليستين ليزبت إلى السيّدة مارنيف لتحمل أخباراً عن زواج هذه الأرملة الفاتنة بعمدة باريس الذي أصبح عضواً في المجلس العام للسان والواز.

١٠٢

سيف داموكليس

كانت سيليستين وأورتنس توثقت عرى العاطفة بينهما بسبب سكناهما تحت سقف واحد، يقضيان وقتهما معاً تقريباً.

والبارونة المساقة بشعور من النزاهة يدفعها إلى المغالاة في واجبات وظيفتها، كانت تكرّس نفسها لأعمال الخير التي تتوسط بها فتخرج كل يوم من الحادية عشرة حتى الخامسة.

والقريبتان اللتان جمعتهما العناية بطفليهما اللذين يهتمان بهما شراكة كانا يظلان معاً في البيت ويشتغلان، فسمت أفكارهما في تدبير أمور المنزل وفي غير ذلك إذ ظهر للناس تآلفهما المؤثر: أحداهما كانت سعيدة والأخرى كئيبة.

إن الأخت المحظوظة، الجميلة، الممتلئة بالحياة الطافحة، الحيويّة، الضاحكة والظريفة، كانت تبدو كأنها تتنكّر بمظهرها لواقعها الحقيقي، وكذلك الأخت الكئيبة الناعمة والهادئة المتزنة كالفكر، التي تغرق عادة بالتأمل والتحليل، وتـذكّر بـالمتاعب الراكدة في أعماق النفس. قد يكون هذا التناقض ساهم في صداقتهما الوثيقة. هاتان المرأتان تبادلتا ما ينقصهما في بعضهما البعض.

عندما كانتا جالستين في كوخ صغير وسط حديقة وفّرها معول المضارب، بنزوة من البنّاء الذي كان يعتقد أنه يحتفظ لنفسه بهذه المساحة المربعة، كانتا تتمتعان بالنبت الأول لزهر الليلك الذي يطلق عيد الربيع الذي لا يُستطاب قدومه إلا في باريس، حيث يعيش الباريسيون خلال ستة أشهر دون نبات، فقط بين جرف الحصى حيث يموج الأوقيانوس الإنساني.

ذات يوم وبعد أن لاحظت أورتنس أن زوجة أخيها تذمّرت لدى معرفتها بوجود زوجها، ذات يـوم جميل، في المجلس، بادرتها قائلة:

- أراك يا سيليستين لا تقدرين سعادتك حق قدرها. ان فكتوران ملاك ومع ذلك تـزعجينـه أحياناً.

- إن الرجال يا عزيزتي، يرغبون في أن يزعجهم أحد! بعض من الأقلاق يكشف عاطفتهم؛ فلو كانت أمك، لا أقول

لجوجاً بل ما هو حول ذلك ، لما تحملتم كل هذه المآسي المؤسفة .

ـ لم تعد ليزبت ! من الأفضل أن أنشد أغنية مارلبورو ! أجابت أورتنس ، تباطأت في احضار أخبار عن ونسيسلاس . . . آه ! مم يعيش ؟ لم يعمل شيئاً منذ سنتين .

ـ قال لي فيكتوران انه رآه منذ أيام مع تلك السيدة اللعينة ويعتقد أنها تبغيه في الميوعه والكسل . . . آه ! إذا كنت تشائين ، أيتها الأخت العزيزة فما زال بمقدورك أن تسترجعي زوجك .

رفضت أورتنس بحركة من رأسها .

ـ صدقيني ان موقفك لن يطاق حينئذ . قالت سيليستين وهي تكمل حديثها . في الخطوة الأولى أثار كل من الغضب واليأس والسخط ، القوى الكافية فيك . ان المصائب المباغتة التي أثقلت عائلتنا : الوفاتان ، التحطيم ونكبة البارون هيلو ، كأنها شغلت عقلك وقلبك ؛ لكنك الآن تعيشين في الأطمئنان والهدوء فلا يمكنك أن تحتملي بسهولة فراغ حياتك ، وبما أنك لا تودين الخروج من زقاق الكرامة ، فمن الأيسر أن تتصالحي مع ونسيسلاس . إن فكتوران الذي يحبك كثيراً هو بجانب هذا الرأي . ثمة أمر أقوى من مشاعرنا ؛ إنه الطبيعة ! .

ـ إنه انسان وقح ! صاحت أورتنس المغترة بنفسها . يجب

تلك المرأة لأنها تقيته . . . يبدو أنها وفت كل ديونه ؟ أمن المعقول ؟ . . . يا ألهي . أفكر ليل نهار بحالة هذا الرجل ! انه أبو ولدي ويهوي في طريق المذلة . . .

ـ أنظري أمك يا عزيزتي . . . أجابت سيليستين .

تنتمي سيليستين الى نوع من النساء يردد للفور وللمرة المئة تحليله البدائي أذا ما جوبه بالأسباب الدامغة القادرة على اقناع قرويي الريف .

ان طابع وجهها المفلطح قليلاً ، البارد والشائع ، وشعرها الكستنائي الفاتح المصفف والمنظم بقاصات متصلبة ، ولون بشرتها ، كل ذلك يشير الى أنها امرأة متعقلة ، دون سحر ، لكنها ليست ضعيفة .

ثم أضافت سيليستين قائلة :

ـ تود البارونة من صميم قلبها أن تكون قريبة من زوجها الذليل لتعزيه وتواريه في قلبها لتبعده عن الأنظار . رتبت في الأعلى غرفة السيد هيلو الذي تنتظره بين ليلة وضحاها لتساكنه

أجابت اورتنس :

ـ أوه ! إن أمي امرأة سماوية وهي كذلك من عشرين سنة ؛ لكني لا أحتمل خلقها . . . ماذا أفعل ؟ أحياناً أثور ضد نفسي . آه ! طبعاً لا تدركين يا سيليستين ماذا يعني التحالف مع العار !

ـ وأبي ! . . . أجابت سيليستين بهدوء . إنه على الطريق

ذاتها التي أهلكت أباك ! أبي يصغر البارون بعشر سنين ، صحيح أنه كان تاجراً ، لكن كيف سينتهي به كل ذلك ؟ جعلت السيدة مارنيف من أبي كلباً ، تتصرف بثروته وأفكاره ولا أحد قادر على تنويره . وأخيراً ترين كيف رجفت عندما بلغني أن المناداة بزواجه تمت ! يبذل زوجي جهداً ، ويرى في ذلك واجباً ، لينتقم للمجتمع والعائلة ويطلب حساباً من هذه المرأة على كل جرائمها . آه ! يا عزيزتي أورتنس أن روح فيكتوران النبيلة والقلوب التي كقلوبنا لا تدرك الا متأخرة هذا العالم وأساليبه ! هذا سر يا أختي العزيزة أودعك إياه لأنه يهمك لكن لا أريد أن يخرج من فمك كلام أو حركة تلتقطها ليزبت أو أمك أو أي كان ، اذ . . .

ـ هاهي ليزبت ! قالت أورتنس . حسناً ! كيف تجري الأمور في جحيم شارع باربي ايتها النسيبة .

ـ سيئة

ـ يا أولادي . ان زوجك يا عزيزتي أورتنس متوله حتى السكر بهذه المرأة التي استنتجت منها أنها تحس نحوه بعاطفة مجنونة . أما ابوك ايتها العزيزة سيليستين فمعمي على قلبه . وهذا ليس شيئاً ، هذا لاحظته في الخمسة عشر يوماً ، وأنا في الحقيقة سعيدة لاني لم اعرف ما الرجل . . . انه حيوان حقاً ! بعد خمسة ايام من الآن ستخسرين انت وفكتوران ثروة أبيك !

ـ تمت المناداة ؟ قالت سيليستين

ـ نعم ، أجابت ليزبت . والآن كنت بصدد الدفاع عن

قضيتك . قلت لهذا المسخ الذي يسير على خطى سلفه أنه اذا رغب في اخراجكما من الضيق المحدق بكما ويحرر بينكما ، ستكونان شاكرين عمله ومقدرين التفاتته وتقبلان بزوجته .

ارتعبت اورتنس لدى سماعها هذا الكلام

ـ فيكتوران يحذر من ذلك . . . أجابت سيليستين ببرودة

ـ أتعلمان بما أجابني العمدة ؟ : « أريد أن أتركهما في العوز ، فالأحصنة لا تروض الا بالجوع وقلة النوم والسكر ! » كان البارون هيلو أفضل من السيد كروفيل . هيئا منذ الآن يا أولادي ندب الأرث ودفنه . أية ثروة يملك أبوك ! دفع ثلاثة ملايين ثمن أرض برسل وبقي له دخل من ثلاثين ألف فرنك ! أوه ! لم يخف عليّ سراً ! صرح بأنه سيشتري قصر نافارين في شارع باك . والسيدة مارنيف تملك هي الأخرى دخلاً باربعين الفاً من الفرنكات . ـ آه ! ها ملاكنا الحارس ، هاهي أمك ! . . صاحت وهي تتنصت الى دوران دواليب عربة .

عندما ترجلت البارونة واجتازت مدخل الدرج وجاءت لتنضم الى شمل العائلة .

في الخامسة والخمسين كانت البارونة تعاني الآلام الجمة وتختلج دون انقطاع وكأنها مصابة برعدة الحمى . وكانت أدلين شحب وجهها وكثرت ثناياه وتحتفظ بقامة رشيقة وخطوط انسيابية ونبل طبيعي .

يقول من يراها : ـ من المفروض أنها كانت جميلة جداً ! غير

أن الغم المنصب عليها وهي في سعيها لتجامل قدر زوجها ، كان يلتهمها هو وعجزها على عدم تمكنها من مشاركته في هذه الواحة الباريسية وفي العزلة والصمت ، الترف الذي بدأت العائلة تتمتع به . كانت البارونة تهدي الجميع حلاوة جلال الأنقاض وهي في جوها المكتئب هذا .

لدى كل اشعاع أمل متلاش ، وإثر كل بحث عقيم ، كانت أدلين تسقط في الاكتئاب المسودّ الذي يحل اليأس في قلوب أولادها .

غادرت البارونة بيتها وهي على ايمان برجائها أن أحداً ينتظرها بفارغ الصبر .

زعم أمين صندوق عام ، خادم هيلو الذي يدين له هذا الموظف بثروته الأدارية ، أنه لمح البارون في مقصورة المسرح مع امرأة مذهلة الجمال . قصدت أدلين البارون فورنيه . فقام يؤكد أنه رأى رئيسه السابق ويدعي أن طريقة تصرفه مع هذه المرأة خلال العرض كانت توحي بزواج سري ، بأبلاغ السيدة هيلو أن زوجها كان خرج باكراً قبل نهاية المسرحية ليتجنب لقائي .

ثم أضاف يقول : ـ بدا كرجل في عائلة وهيئته تنذر بعسر مالي خفي .

ـ وبعد ؟ قال النساء الثلاثة للبارون .

ـ إذا فالسيد هيلو هو في باريس وهذا ما يؤملني بشعاع سعادة أعرف أنه قريب منا .

ـ لا يبدو أنه غير ما بنفسه ! قالت ليزبت بعد أن أنهت ادلين خبر لقائها مع البارون فورنيه . لكن من أين سيحصل على المال ؟ أراهن أنه يطلبه الى محظياته السابقات كالآنسة جني كادين أو جوزيفا .

في هذه اللحظات تضاعفت عصبية البارونة ومسحت دموعها التي غطت عينيها اللتين رفعتهما بأسى الى السماء وقالت :

ـ لا أعتقد أن ضابطاً كبيراً من جوقة الشرف يهبط الى هذا الدرك .

ـ أجابت ليزبت : ـ أسأل ماذا لا يفعل من أجل متعته ؟ اختلس الدولة ويختلس الأفراد وقد يقتل في سبيل ملذاته .

ـ أوه ! يا ليزبت ! صاحت البارونة ، احتفظي لنفسك بهذه الأفكار .

١٠٣

صديق البارون هيلو

في هذه اللحظة وصلت لويز وانضمت الى الجمع المؤلف من العائلة وكان التحق به الطفلان هيلو والطفل ونسيسلاس ليبحثا في جيوب جدتهما عن قطع الحلوى .

ـ ماذا يا لويز ؟ . . . سألت احداهن .
ـ رجل يسأل عن الآنسة فيشر .
ـ ما شكله ؟ قالت ليزبت .
ـ آنستي ، إنه في ثوب رث مزروع بالزغب كمنجد فرش . أنفه محمر وتفوح منه رائحة الخمر والكحول . انه من هؤلاء العمال الذين يشتغلون نصف الأسبوع على الأكثر .

كان لهذا الوصف المجمل والمكثف صدى في نفس ليزبت ، دفعها الى الهبوط بسرعة الى ساحة البيت في شارع لويس الكبير حيث التقت بالرجل وهو يدخن غليونه الذي ينذر اسوداده بفنان مدمن على التحشيش .

ـ لماذا تأتي الى هنا أيها الأب شاردان ؟ الاتفاق أن تكون في أول يوم سبت من كل شهر على باب قصر مارنيف في شارع باربي دي جو ، وصلت للحال بعد أن أمضيت خمس ساعات دون أن أرى لك وجهاً ! . . .

ـ كنت هناك أيتها الآنسة الجليلة والمحبة ! أجاب المنجد ، لكن دجاجة شرف كانت حاضرة في مقهى العلماء في شارع القلب الطائر وكل واحد يهتم بأشواقه . كنت أنا كالبليار . لولا البليار لكنت الآن آكل في آنية الفضة ؛ أريد أن تفهمي ذلك جيداً ! قال وهو يبحث عن ورقة في جيب بنطلونه الممزق ، البليار يجلب الكأس الصغير والخوخة للعرق . . . انه لشيء مهلك ، كسائر الأشياء الجميلة . اني أعرف المحطة لكن العجوز

الآن في حالة من الضيق جعلتني أدخل الى الأرض المحرمة . لو كان عرفنا كلبوة الأسد لكنا رقدنا فوقها ! ليس الله لكل الناس ، انه يميز وهذا من حقه . هذا هو خط نسيبك المحترم وصديقي الحميم . . . هنا ، فيه رأيه السياسي .

حاول الأب شاردان أن يرسم في الهواء خطوطاً مكسرة بسبابة يده اليمنى

دون أن تهتم بشيء ، قرأت ليزبت هذين السطرين :

« نسيبتي العزيزة ، كوني عوني ! أمديني اليوم بثلاث مئة فرنك .

هكتور »

ـ ولماذا كل هذا المال ؟

ـ المال ! قال الأب شاردان وهو مستمر في رسم الخطوط المتعرجة . ثم أن ولدي عاد من الجزائر عن طريق اسبانيا وبايون و . . . لم ينل شيئاً ، عكس ما اعتاد عليه ، ان ولدي طوع خاطرك . ماذا تريدين ؟ انه جائع لكنه سيفي ما نقرضه اياه ، يريد أن يعمل « لا أعرف كيف أعبر » ؛ أفكاره ضخمة وقد تقوده الى البعيد . . .

ـ الى الشرطة الاصلاحية ! أجابت ليزبت . إنه قاتل عمي ولن أنساه .

ـ هو ليس يؤذي أحداً . أيتها الأنسة المحترمة

ـ امسك ، هاك ثلاث مئة فرنك ، قالت ليزبت وهي تسحب خمس عشرة قطعة ذهب من محفظتها . رح ولا ترني وجهك ثانية في هذا المكان . . .

رافقت ليزبت الأب ، حارس مخزن التموين في أوران ، حتى الباب ونبهت البواب الى العجوز السكير .

ـ في كل مرة يأتي هذا الرجل الى هنا أو اذا وصل صدفة فلا تدعه يدخل وتبلغه أني لست هنا . واذا حاول أن يستعلم عن وجود السيد هيلو الأبن أو السيدة البارونة هيلو ، فتجيبه بأنك لا تعرف شيئاً عن هؤلاء الأشخاص .

ـ سمعاً وطاعة يا آنستي .

ـ إن عملاً أخرق أو غير مقصود يطيح بعملك ، همست العانس في أذن البواب .

ـ يا ابن العم ، قالت للمحامي العائد الى البيت ، انك مهدد بنكبة كبيرة

ـ أية واحدة ؟

ـ سيكون لزوجتك بعد بضعة أيام من الآن خالة وستكون السيدة مارنيف .

ـ هذا ما كنا نتوقعه ! أجاب فكتوران .

منذ ستة أشهر وليزبت تدفع معاشاً خفيفاً لحاضنها ، البارون هيلو ، الذي التجأ الى حضن الآخرين وصار برعايتها . انها تعلم مكان تخفيه وتتلذذ بدموع أدلين حيث كانت تقول لها

عندما تراها فرحة وعامرة بالأمل :

ـ انتظرى لتقرأي يوماً اسم المسكين ابن عمي في زاوية المحاكمات في الجرائد.

في هذا كما في غيره من السوابق كانت تنفث اكثر فأكثر حقد نقمتها . أيقظت احتراس فيكتوران الذي قرر بأن يحسم الأمر بسيف داموكليس الذي تستعين به ليزبت وتشهره باستمرار ، ويضع حدّاً للرجس النسائي الـذي تنوء تحت كـابوسـه أمه وعائلته .

كان الأمير ويسمبورغ المطلع على سيرة السيدة مارنيف ، يدعم مشروع المحامي الخفي فوعده كما لو كان رئيس مجلس ، بتدخل للشرطة بعيد عن الأنظار لايقاظ كروفيل من غفلته وانقاذ ثروة بكاملها من براثن عاهرة نجسة لن يغفر لها ذنوبها موت الماريشال هيلو ولا الخراب التام لمستشار الدولة .

١٠٤

العار والفضيلة

هذه العبارة: «يطلب المال إلى محظياته السابقات!» التي تلفّظت بها ليزبت، شغلت البارونة طوال الليل ورمتها في خانة المرضى الذين فقدوا الأمل فاستسلموا للمشعوذين وأصبحت كالذين بلغوا المرحلة الدانئيّة الأخيرة من اليأس أو كالغرقى يتمسكون بالأخشاب الطافية ويتخذونها كحبال المراكب. عندها انتهت إلى الإيمان بالسفالة التي يكفي الشك بها حتى يحقّرها ويذلّها. من هنا كان قرارها باللجوء إلى إحدى النساء الفاجرات لأغاثتها.

في صباح الغد، ودون أن تستشير أولادها أو تُعلم أحداً بقرارها قصدت الآنسة جوزيفا ميراه، الموهبة الأولى في الأكاديمية الملكية للموسيقى، لتحظى عندها بالأمل، الذي لمع كالوهج الزائل أو لتفقد هذا الأمل دون رجعة.

عند الظهر سلّمت الوصيفة المغنّية الذائعة الصيت بطاقة من البارونة هيلو وأبلغتها أن هذه السيّدة تنتظرها في الباب، بعد أن استفسرت إذا كان بإمكان الآنسة استقبالها.

ـ وهل رُتِّبت الشقة؟

ـ نعم آنستي.

ـ وهل استبدلت الأزهار؟

ـ نعم آنستي.

ـ أبلغي جان حتى يلقي نظرة عليها ولا يسمح لأحد أن يعرّج إليها قبل أن تدخل السيّدة إليها مع تقديم أسمى الاحترامات. إذهبي ثم عودي إليّ لتنظمي ملبسي لأني أريد أن أكون جميلة حتى إثارة الجنون...

ثم ذهبت لترى نفسها في مرآتها المتحركة.

فلأتبهرج! قالت لنفسها. يجب على العار أن يقف على سلاحه بوجه الفضيلة! أيتها المرأة المسكينة! ماذا تريدين مني؟... إن رؤيتي «ضحية مهابة تنبجس من البؤس»، تهز كياني.

أتت على نهاية إنشاد هذا اللحن الشائع عندما دخلت وصيفتها.

ـ سيّدتي، قالت الوصيفة، أصيبت السيدة بنوبة عصبية...

ـ قدّموا لها زهر الليمون وروحاً وتريدة!..

ـ هذا ما فعلناه يا آنستي لكنها رفضت كل هذا وهي تقول أن ذلك وهن بسيط في الأعصاب المتعبة...

ـ أين أدخلتموها؟ . . .

ـ قاعة الاستقبال الكبيرة.

ـ أسرعي يا ابنتي! ناوليني أجمل أحذيتي ومبذلي المزدان بأزهار بيجو، وجميع أنواع المطرّزات. صفّفوا لي تسريحة تأسر امرأة. . . هذه المرأة تقوم بدور مناقض لدوري! ولتبلّغ هذه السيّدة.ه. (إنها سيّدة عظيمة يا ابنتي! إنها الفضلى، إنها التي لا يمكن أن تصلي يوماً إلى مرتبتها: إنها المرأة التي تخلّص بصلاتها، الأنفس من المطهر). لتبلّغ أني في السرير وغنّيت أمس وأني ناهضة فوراً.

لم تشعر البارونة التي دخلت إلى الصالون الكبير بالوقت الذي مضى مع أنها انتظرت فيه نصف ساعة سمينة.

جُدِّد هذا الصالون منذ إقامة جوزيفا في هذا القصر الصغير وكان قماشه من النسيج الحريريّ الملوّن بالفضّة والذهب.

إن البذخ الذي يبسطه الأسياد الكبار في بيوتهم الصغيرة مع أشيائه الرائعة التي تشهد بجنونهم الذي يبرّىء اسمهم، كان ينطّ إلى المخيلة سريعاً مع الكمال الحاصل بالوسائل الحديثة في الغرف الأربع المفتوحة حيث الحرارة المعتدلة كانت تستقرّ في حدّها المطلوب بفضل مسخّن ذي أفواه مخفيّة.

كانت البارونة المبهورة تتفحّص الأشياء الفنّية بذهول عميق.

وعثرت على تفسير للثروات التي ذابت في القدر الذي يسعِّر ناره الملتهمة .إنهما الغرور والمتعة.

منذ ست وعشرين سنة وهذه المرأة تعيش وسط الأشياء الباردة العتيقة الباقية من عهد البذخ الأمبراطوري وعيناها ترقبان السجاد الذي انطفأت أزهاره والأواني البرونزية التي بهت لونها وقتم، والنسيج الحريري الذي ذبلت خيوطه كقلبها وتيقنت من قدرة إغراء الفحش والعار دون اعتبار للنتائج. لا يمكن للإنسان إزاءها، أن يملك نفسه عن اشتهاء هذه الأشياء الرائعة وهذه المبدعات المثيرة للتأمّل، ساهم فيها كل الفنانين الذين صنعوا باريس الحاليّة وأثرها الفنيّ الأوروبي.

هنا، أي شيء يدهش بكماله الفريد المتميّز به لوحده. فالنماذج أبيدت والأشكال والتماثيل الصغيرة والمنحوتات كانت كلّها مبتكرة وطريفة. هنا يأخذ تعبير البذخ أبعاده المستحدثة. أن يمتلك أحدنا أشياء لم يجعلها مبتذلة، ألفا بورجوازيّ ثري يعتقدون أنهم مميّزون بترفهم عندما يعرضون مقتنياتهم التي تعج بها المخازن. هذا هو طابع البذخ الحقيقي، بذخ الأسياد الجدد والكبار، نجوم سماء باريس العابرة.

وعندما تفحّصت الحدائق الصغيرة المليئة بأغراس الزهور الغريبة والنادرة، المغروسة في أوان من البرونز المرصّع المقلوب في شكل خاص، تجمّدت البارونة ذاهلة من هذه الثروة التي يحويها هذا المسكن.

بالطبع كان لهذا الشعور أثره في نفس الشخص الذي كان يسيل التبذير من حوله سيلاناً. ظنّت أدلين أن جوزيفا ميراه ، التي رسمها جوزيف بريدو بريشته، تتألق في الصالون الصغير المجاور وهي مغنيّة فذّة كما ليبران، فانتظرت أن ترى لبوءة حقيقية.

تأسّفت لمجيئها لكنها كانت مساقة بشعور قويّ طبيعي وبإخلاص غير قادر على حساب دقيق للعواقب فاستجمعت شجاعتها لتجابه هذا اللقاء. ثم أنها ستلبّي نهم فضولها الذي يلكمها لتطلّع على السحر الذي يستأثر به هؤلاء النسوة فيستخرجن كميات ذهب كبيرة من مناجم أرض باريس الجدباء.

تلفّتت البارونة حولها وفي نفسها لتطمئن على أنها لم تلطّخ هذا الرياش الفخم، لكنها ترتدي بتأنق، هي الأخرى، ثوبها المخملي بقميصه المطرّز الذي تنبسط عليه ياقة صغيرة بتطريز رائع، ويعلو قامتها قبعة مخملية من اللون ذاته كانت تلائم اللباس عامّة.

وعندما أدركت أنها ما زالت قادرة على فرض احترامها كأميرة، وهي كذلك بالرغم من تحطيمها، رأت أنّ نبل المصائب يعادل نبل المواهب.

وبعد أن سمعت الأبواب تفتح وتغلق، أبصرت اخيراً جوزيفا.

كانت المغنيّة تشبه إلى حدٍ بعيد جوديت دالوريس المطبوعة في أذهان الذين رأوها في قصر بيتي قريباً من باب الصالون الكبير: الوقفة الشامخة ذاتها، الوجه المتسامي نفسه وشعر أسود مجدول دون تكلّف ومبذل أصفر مطرّز بألف زهرة، مطابق الشبه للديباج الذي كانت تتدثر به المجرمة الخالدة التي خلقها ابن أخ برونزينو.

ـ سيّدتي البارونة، لا شكّ أنك تلاحظين ارتباكي بسبب العزة التي أسبغها عليّ مجيئك إلى هنا، قالت المغنية التي عاهدت نفسها بأن تقوم بدور السيّدة الجليلة.

قدّمت بنفسها للبارونة أريكة، زنداها كفكّي الفرس وجلست على كرسيّ قابل للثني. تعرّفت إلى جمال هذه المرأة الزائل وتملكتها شفقة مخلصة عندما رأتها تصاب باضطراب عصبي وتتشنج لأقل ردّة فعل.

بنظرة واحدة قرأت جوزيفا هذه الحياة القديسة التي كان رسمها لها كروفيل وهيلو فتراجعت عن فكرة مجابهة هذه المرأة كما تواضعت أمام هذه العظمة التي أدركتها فأعجبت هذه الفنانة الرفيعة بالتي كانت تسخر منها الغانيات.

ـ آنستي أتيت إلى هنا مُساقة باليأس الذي يُلجأ إلى كل الوسائل.

رمقت البارونة الفنانة بنظرة بعد أن أفهمتها بحركة منها أنها

مسّت بكرامة التي كانت تنتظر منها الكثير. أطفأت هذه النظرة المليئة بالتوسّل لهب عيني جوزيفا التي ابتسمت بنهاية الأمر.

دارت بين هاتين المرأتين لعبة خرساء رهيبة البلاغة .

ـ مضت سنتان ونصف على مغادرة هيلو للعائلة وأجهل مكانه وإن كنت أعلم أنـه يقطن بـاريس ، أجابت البـارونة بصوت مضطرب . إن حلمًا أوحى لي بفكرة ، قد تكون عبثية . أنك ملتزمة الاهتمام بالسيد هيلو . لو تمكنت من أن تصليني بالسيد هيلو يا آنستي فسأصلي لك كل يوم ما حييت على هذه الأرض .

سالت دمعتان كبيرتان من عيني المغنية وبشّرتا بالجواب .

وبتعبير مليء بالخشوع ، قالت جوزيفا :

ـ سيدتي ، أسأت اليك دون ان اعرفك ؛ إنما الآن وبعدما رأيتك ، سعدْت لأني تواجهت مع اكبر صورة للفضيلة على الأرض ، صدّقيني بأني أشعر بعظم إثمي وأحسّ بندم عميق يمكنك أن تعتمدي عليّ في تفويضك كل شيء .

أمسكت يد البارونة ، التي لم تعترض ، وقبّلتها بإجـلال عظيم وانحنت حتى لامست ركبتاها الأرض ثم نهضت عزيزة الجانب وكأنها تؤدي دور ماتيلد على المسرح ودقت الجرس لتقول لخادمها :

ـ هيا ، استقل الحصان وانحره إذا لزم ذلك ، وابحث عن الصغيرة بيجو في شارع القديس مور دي تامبل واحضرها لي .

دعها تأخذ عربة وادفع للسائق حتى يصل بسرعة . لا تضع أي دقيقة والا طردتك .

بعدها عادت الى البارونة لتقول لها بصوت يملأه الأحترام :

ـ سيدتي ، أرجو أن تسامحيني . في الوقت الذي أمنت به على رعايةالدوق هيروفيل . تخليت لك عن البارون خاصة بعد أن علمت بأنه يدفع عائلته الى المساقط من أجلي . ماذا كان يمكنني أن أزيد على ذلك ؟ تبدو الحماية ضرورية في مهنة المسرح . على الأقل في بداياتها . إيراداتنا لا تغطي نصف نفقاتنا لذا نتخذ أزواجاً مؤقتين . لم أتمسك بالسيد هيلو الذي أودعني لرجل غني بل لحيوان مغرور . كان من الممكن جداً أن يتزوجني كروفيل . . .

ـ قال لي ذلك ، أجابت البارونة مقاطعة المغنّية .

ـ تلحظين ذلك إذن يا سيدتي ! أصبحت الآن امرأة شريفة وأساكن زوجاً شرعياً .

ـ لك أعذارك يا آنستي فالله سيقدّرها . أما أنا ، فجئت لا لأوجّه لك تأنيباً ، بل العكس ، لأقترض منك عرفاناً وتقديراً .

ـ سيدتي ، شارفت السنة الثالثة وأنا أتدبر معاش السيد البارون . .

ـ أنت ! صاحت البارونة اذ غرقت عيناها بالدموع . آه ! ماذا أستطيع لأجلك ؟ ليس بمقدوري الا أن أصلي . . .

ـ أنا ! والسيد الدوق هيروفيل ، ذلك القلب النبيل

والانساني الحقيقي . . . ثم روت جوزيفا زواج تول وتدبير منزله .

ـ وعلى هذا ، يا آنستي ، لم يعد زوجي ، وهذا بفضلك ، بحاجة لشيء .

هذا ما اجتهدنا في الوصول اليه يا سيدتي .

ـ اين هو الآن ؟

أبلغني السيد الدوق أن البارون ، المعروف عند الكاتب العدل باسم تول ، استنفد مبلغ الثمانية آلاف التي يجب ان يفيها على أقساط متساوية كل ثلاثة أشهر . لا أنا ولا السيد هيروفيل سمع شيئاً عن البارون . حياتنا ، نحن الآخرين مشغولة ومزدحمة ما يجعلني عاجزة عن متابعة تول . صدفة ، ومنذ ستة أشهر لم تأت بيجو ، مطرّزة ثيابي ، سرّ . . . كيف أقول ؟

ـ سريته ، قالت السيدة هيلو .

ـ سريته الى هنا ، تابعت جوزيفا . الطلاق سهل جداً مع الآنسة اولمب بيجو ، وهو في دائرتنا شائع .

١٠٥

تصفيـة منزل تـول وبيجو

نهضت جـوزيفـا وجمعت الأزهـار النـادرة من الأحـواض ونسّقت باقة زهر رائعة ومنمقّة ، للبارونة التي انشغل انتظارها انشغالاً كاملاً .

كانت البارونة تأمل كهؤلاء البورجوازيين السـذج الذين ينظرون إلى الاتباع كمفترسين همهم الأكـل والشراب والمشي والكلام بطريقة مختلفة جداً عن باقي الرجال، بـأن ترى في جوزيفا الفاتنة، وفي المغنّية، الباغية الظريفة والعاشقة، لكنها وجدت إمرأة هادئة ورصينة. في موهبتها نبل وفي تمثيلها بساطة ترتفع بها مساء إلى مرتبة الملكات، والملفت للنظر بعد هذا كلّه أنها فتاة تعرف كيف تحيّي، بنظراتها وموقفها وتصرفاتها، الفضيلة في هـذه المرأة الخلوق وفي الأم المتـألمة التي تفتقت جـروحها وأزهرت كما يُزهرون المادونة في إيطاليا.

ـ سيّدتي، قال الخادم العائد بعد نصف ساعة من انطلاقه، أم بيجو هي في الطريق اليك ولا يجوز أن تعوّلي على أولمب

الصغيرة. مطرزة السيّدة دخلت إلى صف البورجوازيين، إنها تزوجت!. . .

ـ بالخيال والرسوم المائية؟ سألت جوزيفا.

ـ لا يا سيّدتي، تزوّجت فعلاً، وهي تدير مؤسسة ضخمة وزوجها صاحب أكبر مخزن للملبوسات الداخلية، أنفق عليه الملايين في شارع الطليان، تخلّت عن مؤسسة التطريز لأخواتها وأمها وهي الآن سيّدة كرونوفيل ذلك التاجر الكبير. . .

ـ شبيه بكروفيل!

ـ أجل سيّدتي، قال الخادم. التزم بموجب عقد للآنسة بيجو بدخل قيمته ثلاثون ألفاً. أختها الكبرى ستتزوج، كما يقال، بأحد الجزارين الأغنياء.

ـ يبدو أن مشكلتك لا تسير على ما يرام، قالت المغنّية للبارونة .أتوقّع ألاّ يكون السيد البارون في المكان الذى أودعته فيه.

بعد عشر دقائق أعلن وصول السيدة بيجو. بنباهة وحذر من جوزيفا، أدخلت هذه الأخيرة البارونة إلى الصالون الصغير وأقفلت البوابة وقالت لها :

ـ قد تخجلينها فلا تفوهي بشيء إن علمت أنك مهتمة بأسرارها، دعيني انتزع اعترافها! اختبئي هنا تسمعي كلّ شيء. هذا المشهد يحتلّ حيّزه غالباً في الحياة أكثر منه على الخشبة.

ثم عادت لتستقبل إمرأة عجوزاً مدثّرة بقماش الثرْثر شبيهة بحاجبة متأنقة وقالت لها:

ـ حسناً، أنتم الآن سعداء؟ حظيت ابنتك بما تتمنى!

ـ أوه! إنها سعيدة... تعطينا ابنتي مئة فرنك في الشهر، تتنزّه في عربة وتأكل خارج البيت وتدفع مالاً إنها مليونيرة. تمكّنت أولمب أن تخرجني من شقائي. هل العمل لواحدة من عمري عمل جيّد؟

ـ لا يجوز لها أن تكون جاحدة لأنها مدينة لك بجمالها، أجابت جوزيفا، لكن لماذا لم تأت لزيارتي؟ أنا التي انتشلتها من عذابها عندما زوّجتها خالي...

ـ أجل سيّدتي، الأب تول!... لكنه طاعن في السن ومحطم.

ـ ماذا فعلتم به إذاً؟ هل هو عندكم؟... لم تكن أبداً على صواب في انفصالها لأنه صاحب ثروة ضخمة...

ـ آه! الله أعلم... هذا ما يقولونه لها عندما تسيء التصرف مع العجوز المسكين الذي يتمثل فيه اللطف بذاته! آه! كانت تتعبهلكن أولمب يا سيّدتي، عادت إلى رشدها وتابت!

ـ وكيف!

ـ تعرّفت وهي في خدمتك يا سيّدتي، على مصفّق مأجور ابن

أخ منجِّد عجوز بضاحية سان مارسوه فتن هذا التنبل مثله مثل معظم الشبان الوسيمين، بنساء جادة الهيكل فكان يعمل كقوّاد للغرف وينظِّم أمور دخول الممثلات كما يدّعي. يتناول فطوره صباحاً ويتغذّى قبل المسرح ليحمل رأسه وأخيراً هو مغرم منذ ولادته بالبليار والمشروب. ـ «هذه ليست حالة!» هذا ما قلته لأولمب لألفتها إلى وضعه الزريّ.

ـ إنها حالة تعيسة، قالت جوزيفا.

ـ ثم أن أولمب فقدت عقلها أخيراً بسبب هذا الغلام الذي يا سيدتي، لا رفقة صالحة له، والبرهان على ذلك أنه أوقف في خمارة حيث كان اللصوص، وتشفع به السيد برولار رئيس المصفِّقين وهو يحمل أقراطاً من الذهب ويعيش من لا شيء وعلى نفقة النساء اللواتي يهمن بالوسيمين من الرجال.

أنه استهلك كل المال الذي كان يهبه السيد تول لصغيرتي وساءت أحوال المؤسسة وصبّت عائدات التطريز في قناة البليار. وكان لهذا الغلام، يا سيدتي أختا جميلة تقوم بذات الدور كأخيها. واحدة لا تشكل أمراً هاماً في حيٍّ الطلّاب.

ـ واحدة ماجنة من الكوخ، قالت جوزيفا.

ـ أجل سيّدتي، إذا أيدامور يدعى ايدامور، هذا هو اسمه القتالّي، فهو يدعى شاردان، واحتمل ايدامور بأن خالك يخزّن مالاً أكثر بكثير مما يعلن وأوجد وسيلة ليرسل، دون أن ترتاب

ابنتي بالأمر، أختها أيلو دي (خلع عليها اسمًا مسرحيًا) لعندنا كعاملة، الله الله! بعثرت كل شيء ودفعت إلى العجوز كل هؤلاء الصبايا الفقيرات اللواتي كنّ محصنات وهن في كنفك... فعلت أموراً كثيرة حتى أنها استأثرت لنفسها بالأب تول واختطفته معها إلى مكان نجهله ووضعتنا في مأزق محرج وتحت عبء السندات. حتى اليوم لم نتمكن من الدفع؛ غير أن ابنتي كانت على يقظة من الاستحقاقات... عندما تأكّد إيدامور من الحصول على العجوز الذي يعاشر أخته تخلّ عن ابنتي وهو الآن مع شابّة من الأوائل في الرياضة البهلوانية... من هنا تدركين زواج ابنتي...

ـ لكن هل تعرفين أين سكن المنجّد؟... سألت جوزيفا

ـ الأب العجوز شاردان؟ وهل هذا يبقى على حاله!... إنه يسكر من الساعة السادسة صباحاً ولا ينجد سوى فراش واحد في الشهر لأنه يقضي نهاره في الخمارات المشبوهة، ويلاحق العاهرات...

ـ كيف يلاحقهن وهو ديك شامخ؟.

ـ لم تفهمي يا سيّدتي؛ إنها دجاجة البليار حيث يربح كل يوم من ثلاث إلى أربع دجاجات ويعبء المشروب...

ـ مشروب البيض! قالت جوزيفا. إيدامور يعمل في الجادة ولو توجّهت بالسؤال إلى صديقي برولار أجده.

ـ لا أعرف يا سيّدتي خاصة إذ ما أكلمك به حصل منذ ستة أشهر وإيدامور هو من الذين يجب أن يدخلوا إلى الإصلاحيّة ومن هناك إلى مولان ثم.. يا سيدة! ـ

ـ إلى سجن الأشغال الشاقة! قالت جوزيفا.

ـ آه! السيدة تعلم كل شيء، قالت الأم بيجو وهي تبتسم. لو أن ابنتي لم تتعرف على هذا المخلوق لكانت صارت إلى... لكنّ طالعها حسن كما ذكرت لأن السيد كرونوفيل هام بها فتزوجها...

ـ وكيف تم هذا الزواج؟...

ـ باليأس الذي سقطت فيه أولمب يا سيّدتي. فعندما رأت نفسها مهجورة من أجل الفتاة الأولى التي كانت تصبّ لها الحساء على الخبز، وخسرت الأب تول الذي يعبدها صمّمت بأن تتصدّى للرجال. في ذلك الحين كان السيّد كرونوفيل يتردّد كثيراً إلى ورشتنا ليشتري فصلياً متّي شالٍ صيني مطرّز، فرغب في مؤاساتها؛ لكنه لم يشأ حسب زعمه أن يقبل بأحدٍ غير الولاية والكنيسة. «أريد أن أكون شريفة!... كانت تردد ذلك دائمًا، أو أهلك!» وحافظت على عهدها. وافق السيد كرونوفيل على الزواج منها شرط أن تتنكّر لنا وقبلنا نحن بذلك...

ـ مقابل أي مبلغ؟ قالت جوزيفا الحادّة البصيرة.

ـ أجل يا سيدتي بستة آلاف فرنك، ودخل لأبي الذي عجز عن الشغل...

ـ كم رجوت ابنتك لتعيد الأب تول إليّ سعيداً. فرمته في الوحل! هذا ليس من الأخلاق في شيء. لن أهتمّ بأحد أبداً! هذه نتيجة التضحية في سبيل البر!... عمل البر ليس صالحاً إلا بقدر ما يؤمن عمل مضاربة، كان على أولمب أن تخطرني بهذا التآمر! لو توصّلت إلى معرفة مكان وجود الأب تول في خمسة عشر يوماً من الآن فسأعطيك ألف فرنك...

ـ هذا صعب جداً يا سيدتي الخيّرة. في الألف فرنك قطع نقدية كثيرة من فئة المئة فلس. سأحاول أن أبذل جهدي لأنال مالك.

ـ إلى اللقاء يا سيدة بيجو.

١٠٦

الملاك وإبليس يصطادان معاً

عندما عادت إلى الصالون الصغير ألفت المغنية، السيدة هيلو، وأغمي عليها تماماً؛ ورغم فقدان حواسّها كانت ترتعش

بفعل نوبتها العصبية كما تختلج أجزاء الأفعى التي قطعت.

غير أن الأملاح السريعة المفعول والماء البارد والوسائل العادية التي بذلت بسخاء أعادت البارونة إلى الحياة أو... إلى تحسّس آلامها.

ـ آه يا آنسة! إلى أيِّ درك سقط!... قالت عندما تعرّفت على المغنّية ورأتها وحيدة معها.

ـ تشجّعي يا سيّدتي، أجابت جوزيفا التي جلست على وسادة عند قدمي البارونة لتقبّل يديها، سنعثر عليه، ولو كان في الوحل فبالطبع سيفشل. أصدقيني القول بأن الأشخاص من ذوي الأرومة الجيّدة لا خوف عليهم سوى اتساخ ثيابهم... إسمحي لي أن أصلح أخطائي نحوك، لأني أرى مقدار تعلّقك بزوجك رغم سلوكه خاصة وأنك أتيت إلى هذا المكان!... أيتها السيّدة! إنه رجل مسكين! يعشق النساء ـ أليس كذلك! حسناً لو كنت مثلنا تتمتعين بشيء من الحنكة لكنت منعته من الغرق في عشقه، ولكنت ما نعرف أن تكونه: كلُّ النساء لرجل. على الحكم أن ينشىء مدرسة لتدريب النساء الشريفات على الرياضة، غير أن الحكومات ليست إلا نساء مغاليات بالحشمة ويديرها الرجال الذين نديرهم! أرثي لهذه الشعوب!... المهمّ أن يفعلوا من أجلكم لا أن يضحكوا لكم... بعد كل ذلك أطلب منك أن تكوني هادئة مطمئنة يا

سيّدتي وتعودي إلى بيتــك ولا تكوني مرتبكة. سأعيد لك هكتور كما كان في الثلاثين.

ـ أوه! لنزُرْ يا آنستي السيّدة كرونوفيل! يُفـرض أن تعلم شيئاً، وقد أرى السيّد هيلو اليوم فأتمكّن من انتشاله بسرعة من البؤس والفضيحة.

ـ سيدّتي، إني أشهد لك مسبقاً بعرفاني العميق الذي أحتفظ به لك نتيجة الاحترام الذي أبديته لي عندما لم تعتبري وجودك بحضرة المغنية جـوزيفا، عشيقـة الدوق هيـروفيل حـدّ أجمل وأقدس صورة للفضيلة. أقدّرك كثيراً لرؤيتك بـالقرب مني. ليس ذلك إذلال مهرّجة بل هو احترام أقدمه لك. تلومينني يا سيّدتي لأني لم أتبع خطاك بالرغم من الأشواك التي تدمي يديك وقدميك! لكن ما العمل؟ أنتسب للفن كما تنتسبين للفضيلة.

ـ كم أنت فتاة طيّبة! قالت البارونة المتأثرة وسط آلامها، بشعور اللطف الشغوف، سـأصليّ من أجلك، لأنـك ضحيّة المجتمع الذي يتشوّق للمسرح. عندما تحين الشيخوخة، توبي وتخلّصي من خطاياك بمعاقبة نفسك تبرأي إذ تكـرّم الله وسمع صلوات . . .

ـ شهيدة يا سيدتي، قالت جوزيفا التي قبّلت بإجلال فستان البـــارونــة . . .

لكن أدلين أخذت المغنيّة بيدها وجذبتها نحوها وقبّلتها في جبينها.

تورّدت وجنتا جوزيفا من الفرح ورافقت أدلين الى عربتها وهي تظهر لها المشاعر الأكثر تعبيراً عن حسود تجاه سيّده.

-يبدو أنها من نساء البّر، قال الخادم للوصيفة، ذلك أنها لا تتصرف هكذا مع أيّ شخص حتى مع أعزّ صديقاتها السيدة جني كادين!

-إنتظري بضعة أيام وسترينه يا سيدتي أو اتنكّر لإله أجدادي وبالنسبة ليهودية، يعني ذلك الوعد بالنجاح.

١٠٧
إبليس آخر

في الوقت الذي كانت تدخل البارونة عند جوزيفا، كان فيكتوران يستقبل في مكتبه مسنّة في الخامسة والسبعين من عمرها تقريباً أبلغت المحامي الشهير قبل ان تقابله إسم رئيس شرطة الأمن الرهيب.

أعلن الخادم: -السيدة ررسانت إستيف.

-تبنّيت أحد أسماء الحرب، قالت وهي تستريح.

عند مشاهدة هذه المرأة المقيتة تملكّت فيكتوران رعشة داخلية رغم مظهر ثرائها كانت تلقي الرعب بإشارات الخبث الباردة التي تنبسط على وجهها المفلطح والأبيض والمعضّل ذي الصفحة المليئة بالتجاعيد.

إن ظهور (مارات) بإمرأة في هذا العمر وباسم سانت استيف يعطي صورة حيّة عن الرعب. كان شوق النّمرُ للدم يطل من عينين صغيرتين صافيتين مزروعتين في وجه تلك العجوز المشؤومة. إن أنفها الأفطس بمنخاريه المضخمين بفجوات بيضاوية الشكل ينفث نار جهنم، ويبعث الى الذكرى منقار أسوأ الطيور الكاسرة عبقرية الاحتيال تجثم على جبينها الواطىء والوحشي شعرات لحيتها الطويلة التي نبتت دون نظام في معظم تجاويف وجهها تبشر بصلابة مشاريعها ورجولتها .

من رأى هذه المرأة ظن أن معظم الرسّامين أخفقوا في التعبير عن وجه ميفستوفيليس . . .

ـسيدّي العزيز، قالت بلهجة متعطّفة، لا اهتم بشيء، منذ زمن طويل. ما أود القيام به لأجلك أعتبره وكأنه لابن أخي الحبيب الذي أميل اليه اكثر من ولدي. . . إن حاكم الشرطة الذي أسرّ له رئيس المجلس كلمتين في أذنه من أجلك فيما يتشاور مع السيد شابوزرت، رأي أنه لا يجوز للشرطة ان تتدخل في مسألة من هذا النوع، أطلقت يد ابن أخي في هذا ،

لكنه لن ينفذ الى الصميم الاّ للمشورة ولا يجوز ان يتعرّض للشبهات...

ـأنت عمة...

ـعرفت وإني فخورة به، أجابت وهي تقاطع المحامي، لأنه تلميذي وهو انتقل بسرعة الى رتبة معلّم... درسنا قضيتك وقدّرناها! هل انت مستعدّ للتخلي عن ثلاثين ألف فرنك إذا أرحناك من كل هذا ؟ سأسوّي الأمرا ولا تدفع الا بعد إنهاء الموضوع...

ـتعرفين الأشخاص؟

ـلا يا سيدي، أنتظر تعليماتك. أُبلغنا عن عجوز غبي عالق بين يدي أرملة تبلغ تسعة وعشرين من العمر، أتقنت جيداً مهنة الابتزاز فتوصّلت الى تحصيل دخل بأربعين الف فرنك من ربي عائلتين. والآن هي على شفا ابتلاع دخل باربعة وثمانين الف فرنك بزواجها من ساذج في الواحدة والستين. ستحطّم عائلة كريمة بكاملها وتهب هذه الثروة الضخمة الى ابن احد عاشقيها بعد ان تتخلّص بسرعة من زوجها العجوز.. هذه هي المشكلة.

ـبالضبط! قال فيكتوران . إنه حمي، السيد كروفيل...

ـعطّار قديم والآن عمدة، إني في دائرته ومعروفة باسم الأم المرضعة.

ـوالشخص الآخر هو السيدة مارنيف.

ـلا أعرفها ، قالت سانت استيف. ولكن في ثلاثة ايام سأتوصل حتى إلى إحصاء قمصانها.

ـأيمكنك ان تمنعي هذا الزواج؟...

ـالى أية مرحلة وصل؟

ـفي المناداة الثانية.

ـيجب خطف المرأة. نحن يوم الأحد ولم يبق سوى ثلاثة أيام لأنهما سيتزوجان الأربعاء وهذا مستحيل! غير أنه بالمستطاع قتلها من أجلك...

ـنطّ فيكتوران هيلو بجمع جسده، كرجل مستقيم، عند سماعه الكلمات الستّ التي تلفظّت بها ببرودة خرساء.

ـالقتل!... وكيف؟

ـمضت أربعون سنة يا سيّدي ونحن بدلاء عن القدر، أجابت باعتزاز مدهش، ونفعل في باريس كلّ ما يطيب لنا. اكثر من عائلة في ضاحية سان-جرمان باحت لي بأسرارها كم زواج عقَدت وأوقفت وكم وصيّة أتلفت وكم كرامة انقذت!

ـأحبس هنا، قالت وهي تشير الى رأسها، جملة من الأسرار تساوي دخلًا بستة وثلاثين الف فرنك، وأنت ستصير واحداً من

حملاني! إمرأة مثلي تصير على ما عليه لو تحدَّثت عن وسائلها ! فقط أعمل! وكل ما يحصل هو من صنع القدر ولن يغيرك أدنى اهتزاز لضميرك. سترى نفسك كالذين يشفون بالروبصة ويعتقدون بعد شهر ان الطبيعة هي التي سوّت كلّ شيء.

رشح فيكتوران بالعرق البارد وما كان لمنظر الجلّاد ان يثيره بقدر ما أثارته هذه الأخت الحكيمة والمدّعية الآتية من سجن الأشغال الشاقة خاصة عندما نظر الى فستانها الخمري فخالها مجلببة بالدماء.

ـسيّدتي، لا أوافق على معونة تجربتك ونشاطك اذا كان من اللازم ان يكلّف النجاح حياة إنسان أو إذا تبعه أدنى عمل اجرامي.

ـإنك ولد كبير يا سيدي! تريد أن تظل نزيها تجاه ناظريك متمنياً أشدَّ التمني بأن يقضي عدوّك نحبه.

لكن فيكتوران انكر عليها ذلك.

ـأجل، تودّ راغباً ان تتخلّ السيّدة مارنيف عن طريدتها الرازحة بين فكيّها وكيف تتصرّف لتنتشل من النمر قطعة لحم؟ هل بملامسة اليد لظهره ومداعبته ومناداته: كم انت جميل يا هري الصغير!... لست عقلانياً . تريد ربح معركة ولا تريد جرحى! إذاً ، سأرتّب لك هدية لهذه البراءة التي تعزِّز من صمود عاطفتك. إني أرى دائمًا في الاستقامة قماشاً ذا رياء! في ثلاثة أشهر سيأتي كاهن مسكين ليطلب اليك أربعين الف فرنك

لعمل صالح، دير مهدم في المشرق أو في الصحراء! إذا كنت مرتاحاً لمصيرك أعطه الاربعين الف فرنك وستدفعها الى الخزينة! لن يكون ذلك مهمًا بالمقارنة بما ستحصده.

وقفت على قدمين عريضتين يكاد لا يضمهما الحذاء المصنوع من الساتان يفيض اللحم عند حدوده. ابتسمت وهي تودِّعه وانسحبت.

ـلأبليس أخت، قال فيكتوران وهو ينهض.

شيّع هذه المجهولة الرهيبة التي استحضرتها كهوف الجاسوسية كما من الطابق الثالث السفلي لـلأوبرا حَيث ينتصب وحش مفترس عندما تضرب الجنية عصاها .

بعد أنانهى عمله في قصرالعدل قصدالسيد شابوزوترئيس أحد أهم دوائر إدارات الشرطة ليستعلم عن هذه المجهولة .

١٠٨

الشرطة

عندما رأى فيكتوران السيد شابوزوت في مكتبه شكره على مساعدته.

ـأرسلت إليّ عجوزاً يمكن اللجوء اليها لتمثيل باريس في وجهها الإجرامي.

وضع السيد شابوزوت نظارتيه على الأوراق والتفت بذهول الى المحامي.

ـلا أجيز لنفسي بأن توجه لي كلاماً من هذا النوع أيّاً كنت، ودون سابق إنذار أو استهلال.

ـهذا إذا السيد المدير...

ـلا اعتقد، قال شابوزوت. في آخر مرة عندما تناول الأمير ويسمبورغ الغداء عند وزير الداخلية التقى السيد المدير وحدّثه عن الحالة المحزنة التي تعانون منها وطلب منه إذا كان بإمكانه ان يتدخل بمحبة لنجدتكم. اهتم السيد المدير اهتماماً شديداً بالمشكلة التي عرضها سُمُوُّه بشأن قضيّة العائلة وتلطّف باستشارتي في هذا الموضوع منذ تولّى السيّد المدير زمام هذه الادارة التي تؤدي خدمات جلىّ امتنع في أول عمل له عن التدخل في العائلة من الوجهة المبدئية والأخلاقية كان على صواب لكنه من الوجهة الواقعية كان على خطأ. في الخمسة والأربعين عاماً قضيتها في الخدمة قامت الشرطة بخدمات عظيمة للعائلات بين ١٧٩٩ و ١٨١٥. وبدءاً من ١٨٢٠ عدّلت الصحافة والحكومة الدستورية تعديلاً جذرياً شروط وجودنا وكان رأيي أنه لا يجوز أن نهتمّ بأمور كهذه ووافق السيّد المدير بلطف

على الملاحظات التي ابديتها. تلقى رئيس الشرطة بحضوري امراً بعدم التورط ، وإذا عن طريق الصدفة واجهت أحداً من قبله فسأوجِّه له تأنيباً. إنها حالة تسبب الأقاليْ قيل: الشرطة تفعل ذلك! غير ان سيّدي الماريشال ومجلس الوزراء يجهلون طبيعة الشرطة. الشرطة وحدها تعرف ذاتها. إن الملوك ونابوليون ولويس الثامن عشر يعرفون أعمال شرطتهم ، لكن بالنسبة لشرطتنا فلا أعرف سوى فوشي والسيد لونوار والسيّد دي سارتين وبعض المدراء المفكرين، الذين ارتابوا في أمرها... والآن تغيرّ كل شيء تقلصّت صلاحياتنا وجُرِّدنا من السلاح! رأيت النكبات الخاصة تنبت وتستشري وكان بإمكاني منعها بسهولة!... سيلومنا الذين فوّضونا عندما يتعرضون مثلكم لبعض التهلكات الأخلاقية التي يجب إزالتها كما تزال الأوحال! في السياسة تكون الشرطة مستعدة لتنبّه عن كل شيء يمسّ بالسلامة العامة، لكن العائلة تبقى مقدّسة. أفعل أي شيء لأكشف وأمنع اعتداء على حياة الملك! حيطان المباني أحيلها شفافة، لكن ان أنشب مخالبي في أمور العائلات ومصالحها الخاصة، فهذا ما لا أرضى به ما دمت في هذا المكتب ذلك أني أخشى...

ـ ماذا؟

ـ الصحافة ونائب كتلة اليسار!

وبعد استراحة قال هيلو: ماذا عليّ أن أفعل؟

ـ تستدعي العائلة، أجاب رئيس القسم، وتنصرف على هدي ما قلناه، لكن أن نخف لمساعدتك أو أن نستخدم الشرطة كآلة للتحكم بالعواطف والمصالح الخاصة فهذا من المستحيلات... هنا سر التعذيب الذي تشبث به القضاة واعتبروه غير شرعي وموجه ضد رئيسنا الحالي للأمن العام. ان بيبيلوبان يقوم بالتحريات والعمل البوليسي لحساب الأفراد، غير أن ذلك يخفي خطراً اجتماعياً ضخماً! كان هذا الرجل طريفاً بالوسائل التي يلجأ اليها وعلى هذا يمكن اعتباره مخففاً للكوارث...

ـ ولكن ماذا عن رجل في وضعي؟ قال هيلو.

ـ أوه! انك تطلب مني استشارة، أنت الذي يبيع منها الكثير! يا سيدي العزيز، هل تسخر مني.

ودع هيلو رئيس القسم وأدار ظهره ومضى دون أن يلحظ هزة الكتفين التي بدرت من الموظف عندما نهض ليرافقه الى الباب.

ـ وهو يريد أن يكون رجل دولة!... حدث السيد شابوزوت نفسه وهو يلقي نظرة على تقاريره.

١٠٩

تبديل اسم الأب تول بالأب توريك

عاد فيكتوران الى البيت كاتماً ارتباكه دون أن يجرؤ مشاركته لأحد. في العشاء زفت البارونة بفرح الى أولادها، بشرى امكانية عودة ابيهم خلال شهر ومشاطرتهم يسرهم لينهي بسلام حياته في ربوع العائلة.

ـ آه! بمحبة أهب دخلي البالغ ثلاثة آلاف وست مئة فرنك لأرى البارون بيننا! صاحت ليزبت. لكن لا يجوز يا عزيزتي أدلين، ان تعولي كثيراً على مثل هذه المباهج قبل حصولها!... أتوسل اليك.

ـ ليزبت على صواب، قالت سيليستين. أمي، حبيبتي، انتظري الحدث. روت البارونة المغمورة بالمحبة، العامرة بالرجاء، زيارتها الى جوزيفا حيث اطلعت على السعادة التي تشمل بحنوها هؤلاء الفتيات التعيسات وتحدثت عن شاردان المنجد والد حارس مخزن أوران مدلية بالبراهين لتثبت لهم أنها لا تستسلم الى أمل مزيف.

في السابعة من صباح اليوم التالي، كانت ليزبت في عربة على رصيف تورنيل حيث توقفت في زاوية شارع بواسي وقالت للسائق:

ـ اذهب الى شارع برناردان، الرقم السابع، يطالعك بيت برواق ودون حارس. تصعد الى الطابق الرابع وتطرق الباب الأيسر عليه الكتابة التالية: «الآنسة شاردان رفاءة التخريمات والكشمير.» يفتحون لك. تسأل عن الفارس. يجيبونك: «خرج» تقول: «اعرف، لكن أحضروه لأن مربية أولاده بانتظاره في العربة على الرصيف وتريد مقابلته...»

بعد عشرين دقيقة ظهر عجوز أشيب في الثمانين من عمره، محمر الأنف في وجه شاحب ومجعد كوجه امرأة مسنة، يسير بخطى متثاقلة، يجر قدميه في بابوج وظهره مقوس، يرتدي سترة طويلة من فرو الألبكة الذي لم تمسه يد منسق وأجاز لأكمام صدرته أن تتدلى حتى مقابض يديه. بدا ممتقع الوجه ونظر العربة فعرف ليزبت وتقدم الى الباب.

ـ آه يا ابن خالي العزيز في أي حال انت!

ـ استأثرت ايلودي بكل شيء! عائلة شاردان هذه ليست الا من السوقة النتنة.

ـ تريد أن تعود الينا؟

ـ لا، لا! أريد ان أسافر الى اميركا.

ـ أدلين تتعقب آثارك.

ـ آه! لو كان بالمستطاع تسديد ديوني، أجاب البارون غيرهياب، لأن سامانون يلاحقني.

ـ لم ندفع بعد متأخراتك وابنك مازال ينوء تحت عبء مئة الف فرنك...

ـ يا له من صبي مسكين!

ـ وراتب تقاعدك لن يتحرر الا بعد سبعة الى ثمانية أشهر... اذا أردت الانتظار فمعي ألفا فرنك!

مد البارون يده بحركة متكالبة ظمئة.

ـ هاتي يا ليزبت! والله يجزيك! هات! أعرف أين أذهب!

ـ شرط أن تبوح لي أيها المفترس!

ـ أجل. استطيع أن أنتظر هذه الأشهر الثمانية ذلك أني اكتشفت ملاكاً صغيراً، مخلوقة طيبة، بريئة ولم تبلغ، بعد، العمر الذي يغويها ويفسدها.

ـ أذكرك بمحكمة الجزاء، قالت ليزبت التي تأمل أن ترى فيها هيلو يوماً.

ـ أيه! في شارع شارون! انها محلة يجري فيها كل شيء دون فضيحة. اذهبي، لن يعثر عليّ أحد أبداً. أتخفى يا ليزبت باسم

توريك ويظنون أني نجار أثاث قديم والصغيرة تحبني ولن أهمل نفسي وأهبها للآخرين لينهشوها.

ـ لا، هذا واضح! قالت ليزبت وهي تحدق بسترته. ماذا لو أوصلتك الى هناك يا ابن الخال؟...

ـ صعد هيلو إلى العربة وهجر الآنسة ايلودي دون أن يودعها كمن يرمي رواية انتهى من مطالعتها.

بعد نصف ساعة كان البارون خلالها يحصر حديثه بالصغيرة أتالا جوديسي، أنزلته ابنة عمته حين كادت عواطفه الرهيبة تقوض العجزة تتفتق. ثم تركته بعد أن أمدته بألفي فرنك، في شارع شارون في ضاحية سانتانطوان أمام باب بيت بواجهة مشبوهة ومنذرة.

ـ الى اللقاء يا ابن الخال، لقبك الآن الأب توريك اليس كذلك؟ لا ترسل لي سوى وسطاء تختارهم من أمكنة مختلفة.

ـ اتفقنا. أوه! اني سعيد جداً قال البارون الذي أضاء وجهه فرح سعادة جديدة مقبلة.

ـ لن يعثروا عليه في هذا المكان. قالت ليزبت في نفسها وهي توقف العربة في شارع بومارشي من حيث انتقلت بعربة عامة الى شارع لويس الكبير.

١١٠

مشهد في عائلة

في الغد أعلن عن وصول كروفيل في الوقت الذي كانت العائلة مجتمعة في الصالون بعد الغداء.

أسرعت سيليستين وارتمت على عنق أبيها وتصرفت وكأنه كان البارحة في زيارتهم مع أنه لم يدخل بيتهم منذ سنتين.

ـ صباح الخير يا عمي! قال فيكتوران وهو يمد له يده.

ـ صباح الخير يا أولادي! قال كروفيل العظيم. سيدتي البارونة أقدم لك أسمى احترامي. يا الله! كم كبر هؤلاء الأطفال! هذا ينذرنا ويقول لنا:ـ أيها الجد نريد مكاننا تحت الشمس! سيدتي الكونتسا، تبدين دائمًا رائعة الجمال! أضاف وهو ينظر الى اورتنس.ـ وها أنت آخر قطعة من الكنز ايتها النسيبة بت، العذراء الحكيمة. انكم في أحسن حال هنا... قال هذا وهو يوزع هذه العبارات لكل واحد مرفقاً إياها بضحكات واسعة كانت تحرك بصعوبة الكتل الحمراء في وجهه العريض.

ثم تطلع بازدراء الى صالون ابنته.

ـ عزيزتي سيليستين أهبك كل أثاثي في شارع سوساي، انه يليق جداً بهذا المكان. صالونك بحاجة للاستبدال... آه... ها هو صغير ونسيسلاس الطريف! وبعد! هل نحن حكماء يا أولادي الأعزاء؟ يجب أن نتزود بالأعراف والتقاليد.

ـ للذين لا يتحلون بها، قالت ليزبت.

ـ عزيزتي ليزبت، هذا التهكم لا يعنيني. أولادي الأحباء، أنا على وشك أن أضع حداً لهذه الحالة الشاذة التي أحياها منذ زمن طويل وبصفتي رب عائلة صالح جئت أعلمكم بسذاجة بقرب زواجي.

رد عليه فيكتوران قائلاً:

ـ لك الحق بأن تتزوج. وفيما يعود لي، أذكرك بالكلام الذي قطعته لي عند موافقتك على طلبي العزيزة سيليستين.

ـ أي كلام؟ سأل كروفيل.

أجاب المحامي.

ـ بانك لن تتزوج وان كنت اعترف بأنك تستطيع أن تطلب الَّي بألا أذكرك بهذا العهد الذي التزمت به بمحض ارادتك رغم معارضتي، مع اني في ذاك الحين لفت نظرك الى أنه لا يجوز أن ترتبط بوعد كهذا.

قال كروفيل اذ علا الخجل وجهه.

ـ أجل، أتذكر يا صديقي العزيز. لكن واقع الحال يا أولادي الاحباء يفرض بأن تسمعوني جيداً؛ اذا أردتم أن تعيشوا بسلام مع السيدة كروفيل فلن تندموا... لطافتك يا فكتوران تمس مشاعري... لن تخسروا شيئاً لو أحسنتم معاملتي... هيا يا عفريت واستقبل حماتك بحرارة، ولا تنسوا أن تحضروا حفلة زفافي.

ـ لم تبلغنا يا والدي من تكون خطيبتك؟ قالت سيليستين.

ـ هذا هو سر المسرحية المضحكة، أجاب كروفيل... لم نتلطى وراء أصبعنا؟ليز بِتْ باحت لكم بكل شيء...

ـ عندها تدخلت اللورنية لتقول: سيدي العزيز كروفيل، ثمة اسماء لا يجوز أن تتلفظ بها هنا...

ـ حسناً! انها السيدة مارنيف!

ـ سيدي كروفيل، أجاب المحامي بحدة، لن أحضر أنا ولا زوجتي هذا الزواج ولا يعود الأمر الى دوافع مصلحية ذلك اني حدثتك الآن باخلاص. سررت كثيراً بمعرفتي انك واجد سعادتك في هذا القران؛ لكنني تأثرت باعتبارات تمس شرف العائلة وتثير حساسيتها وأنت تدرك ذلك جيداً دون أن أتمكن من الادلاء بها خوفاً من أن تنكأ جروحاً مازالت. تنزف...

أومأت البارونة الى الكونتسه وأخذت ولدها بين ذراعيها وقالت له:

- هيا الى الاستحمام يا ونسيسلاس!- الى اللقاء يا سيد كروفيل.

حيت البارونة كروفيل بصمت. لكن كروفيل لم يتماسك عن الابتسام عندما لاحظ دهشة الولد الذي رأى نفسه مهدداً بحمام مفاجىء.

حين اختلى المحامي بالسيد كروفيل مع ليزبت وزوجته صاح بوجهه قائلاً:

- انك تقترن بامرأة مكلفة بسلب مغانم أبي وقادته بخطوات وئيدة الى حيث هو؛ انها امرأة تساكن صهري بعد أن حطمت حمّي فسببت لأختي المتاعب المهلكة... وتعتقد أن يرانا الناس مقرين حماقتك بحضورنا؟ أرثي لحالتك باخلاص ياسيدي العزيز كروفيل! انك خال من الشعور بالعائلة ولا تدرك تضامن الشرف الذي يجمع مختلف أعضائها. لا نحاكم العواطف (ولسوء الحظ عرفت ذلك جيداً) فالناس العاشقون صم وعميان. ابنتك سيليستين تشعر قوياً بواجباتها حتى أنها لن تسكت دون أن توجه لك كلمة تأنيب واحدة.

- جميل! قال كروفيل محاولاً وضع حد لهذا التوبيخ.

ـ لن تكـون سيليستـين زوجتي فيـما اذا وجهت لـك أي ملاحظة. اما أنا فأسعى الى أن أوقفك قبل أن تسقط في الهاوية وخاصة بعدما برهنت لك عن ترفعي عن أي غرض. أصبح من المؤكد أني لا أبالي بثروتك بل يهمني مصيرك... ويمكنني أن أضيف، لأكشف لك مشاعري، ان ما بدر مني، كان ليضعك خـطوة خطوة في أجـواء زواجك المقبـل وأن وضعي المالي لا يستدعي أية رغبة بالثروة.

ـ بفضلي: صاح كروفيل الذي علا وجهه لون بنفسجي.

ـ بفضل ثروة سيليستين، أجاب المحامي؛ وان كنت تأسف لأنك وهبت ابنتك، على سبيل المهر مبالغ لا تعادل نصف ما تركت والدتها، فنحن على استعداد لأعادتها...

ـ هل تعلم يا صهري، قال كروفيل وهو يجلس في مقعده، انني عندما أمنح اسمي للسيدة مارنيف فلن تتمكن عندها من الظهور للناس الا بمظهر السيدة كروفيل؟

ـ قد يكون هذا لطفـاً وكياسـة وكرمـاً صادراً عن القلب وتخيلات نابعة من العاطفة، لكن لم اسمع باسم، ولم أطلع على قوانين أو القاب قادرة على تغطية سرقة ثلاث مئة الف فرنك انتزعت بخسة من أبي!... اصارحك وجهـاً لوجـه يا حمي العزيز ان هذه الزوجة المقبلة ليست جديرة بك وهي تخدعك وتهيم بصهري ستانبوك الذي سددت عنه ديونه...

ـ أنا الذي دفعها.

ـ حسناً، أجاب المحامي، أنا جد مرتاح للكونت ستانبوك الذي يمكنه أن يفي ما عليه ذات يوم، لكن ما أعنيه أنه معشوق، ومعشوق جداً وغالباً ما يكون معشوقاً...

ـ معشوق!... قال كروفيل الذي أنذر وجهه بارتباك عام. انه جبان وسخ، قزم، مبتذل هذا الذي يفتري على سمعة امرأة!... عندما يدعي امرؤ اموراً كهذه عليه، يا سيدي، ان يثبتها.

ـ سأقدم لك البراهين...

ـ أنتظرها

ـ بعد غد يا عزيزي السيد كروفيل سأعلمك باليوم والساعة واللحظة، حين يكون بمقدوري أن اكشف الفجور الرهيب عند زوجتك المقبلة...

ـ عظيم جداً، سأكون سعيداً، قال كروفيل الذي استعاد هدوءه. الى اللقاء يا أولادي، الى اللقاء ليزبت...

ـ الحقي به يا ليزبت، همست سيليستين في أذنها.

ـ وبعد! فها طريقك من هنا تتوجه بها؟ صرخت النسيبة بت.

ـ آه! صار صهري قوياً. دربته الحياة. المهارة العدلية في المحاكم والمهارة السياسية في المجلس جعلته مقداماً. آه! آه!

يعرف أن موعد زواجي يوم الأربعاء المقبل والأحد يقترح عليّ ما يريد ابلاغي اياه في ثلاثة أيام أي انه الموعد الذي يثبت فيه لي ان زوجتي ليست جديرة بي... ليس ذلك عملاً أرعن... اني عائد لأوقع العقد. هيا، تعالي معي يا ليزبت تعالي!.. لن يعرفوا شيئاً عن الموضوع! لدي الرغبة في ترك دخل من أربعين الف فرنك لسيليستين، غير أن هيلو كان يقصد افقاد قلبي الحب الى الأبد.

- امهلني عشر دقائق، أيها الأب كروفيل وانتظرني في عربتك على الباب حتى أجد عذراً لخروجي.

- موافق!...

- أصدقائي، قالت ليزبت التي وجدت العائلة في الصالون، اني ذاهبة مع كروفيل وسيوقع العقد هذا المساء وبامكاني أن أطلعكم على أحكامه. على الأرجح أن تكون الزيارة الأخيرة لهذه المرأة. ابوكم غاضب وقد يوقعكم بالحقارة والمهانة...

أجاب المحامي:

- عزته تأبى عليه ذلك. اني أفهمه. اراد ان يمتلك أرض برسل ليحتفظ بها. لن يكون عنده أولاد غير سيليستين التي ستنال نصف تركته فالقانون يمنع عليه هبة ثروته كلها... هذه أمور لا قيمة لها عندي فالشرف هو ما يعنيني... هيا ايتها النسيبة، قال وهو يضغط على يد ليزبت، انتبهي جيداً لمضمون العقد...

١١١

مشهد آخر للعائلة

بعد عشرين دقيقة دخل كل من ليزبت وكروفيل الى القصر في شارع باربي حيث كانت السيدة مارنيف تنتظر بتلهف رقيق، نتيجة المخطط الذي دبرته.

أولعت فاليري، على التمادي، بونسيسلاس وعشقه المفرط الذي شد، لأول مرة، على خناق النساء. علق هـذا الفنان الفاشل بين يدي السيدة مارنيف وشغل في قلبها مركز العاشق المثالي فصار بالنسبة لها كما كانت بالنسبة للبارون هيلو.

كانت فاليري تمسك ستانبوك ورأسها يرتاح على كتفه.

ان الأحاديث المتقطعة التي دخلوا فيها منذ رحيل كروفيل لا تقل شأناً عن الأعمال الأدبية الطويلة التي كتب في صفحاتها الأولى: تمنع اعادة الأنتاج. أما الشعر الذي كان ينساب طبيعياً على الشفاه وبين القلوب أثار في نفس الفنان أسفاً عبـر عنه بشيء من المرارة.

ـ آه! أية نكبة حلت بي عندما تزوجت. كان يحسن بي الانتظار كما قالت ليزبت، مما يسمح لي الآن بالزواج منك.

ـ يجب أن يكون المرء بولونيا حتى يتمنى أن يتخذ من خليلته المخلصة زوجاً! صاحت فاليري. ويستبدل الواجب بالحب والمتعة بالضجر!

ـ أعرفك متقلبة القرار والمزاج! ألم أسمعك تتبادلين الحديث مع ليزبت عن البرازيلي البارون مونتيس؟

ـ أتريد أن تخلصني منه؟ قالت فاليري.

ـ هذه هي الطريقة الفضلى لأمنعك من رؤيته.

ـ اعلم يا عزيزي بأني سايرته لأتخذه زوجاً لي وصارحتك بكل شيء!... ان الوعود التي قطعتها لهذا البرازيلي... (أوه! بالطبع قبل أن اعرفك، أجابت على حركة من ونسيسلاس)، والتي يتسلح بها ليربكني تضطرني أن أتزوج سراً، لأنه اذا علم بزواجي من كروفيل فهو مستعد لقتلي...

أجاب ستانبوك وهو يقوم بإيماءة ازدراء تذكر بأنه لا يجوز أن يكون لهذا الخطر معنى عند امرأة يعشقها بولوني.

ـ آ... ان هذا التخوف... من الملاحظ أنه فيما يعود للشجاعة، لا نلمس أقل تبجح عند البولونيين ما داموا حقاً شجعان مقدامين.

ـ وهذا السافل كروفيل الذي يرغب باقامة احتفال ويريد أن يستسلم لنزوات بذخه بمناسبة زواجي فيحشرني في مـأزق لا أعرف كيف الخلاص منه.

هل بأمكان فاليري أن تعترف للذي تعبده بأن البارون هنري مونتيس حصل منذ طرد البارون هيلو على امتياز بزيارتها، ساعة يشاء في الليل، وانـه رغم نباهته فانها تقـدر ان تخلق سبباً للخصام يقتنع البرازيلي معه بأنه مخطىء في كل الأمور؟

انها تعرف جيداً طبع البارون الشرس الذي يلتقي الى حد بعيد مع طبع ليزبت مما يمنعها من إقلاق البرازيلي حتى بالتفكير.

عند سماعه جري العربة ترك ستانبـوك فاليـري التي كان شدها اليه بكل قامتها وتناول جريدة وغرق بكليته في قراءتها. كانت فاليري تطرز بانتباه شديد، خفاً لزوجها العتيد.

ـ كم يفترون عليها! قالت ليزبت في أذن كروفيل على عتبة الباب وهي تلفت نظرة الى هذا المشهد. . . تأمل تسريحتها! هل هي مبعثرة؟ لو صدقت فيكتوران لربما كنت فاجـأت عاشقين في العش.

ـ عزيزتي ليزبت، أجاب كروفيل وهو ثابت في مكانه، أترين أنـه حتى تحولي أسبـازي الى لـوكـريسـا، يكفي أن تنفحيها بالعاطفة! . . .

أجابت ليزبت

- الم أقل لك دائمًا أن النساء يعشقن الفاجرين الكبار مثلك.

- وإلا تكون كافرة بالنعمة. فكم من المال أنفقت هنا! وحدنا أنا وكراندو نعرف ذلك!

وأشار الى الدرج.

حاول كراندو في بناء هذا القصر وتنسيقه اذ ينظر اليه كروفيل كقصره، أن ينافس كلوريتي المهندس المعماري العصري الذي عهد اليه الدوق هيروفيل بمنزل جوزيفا.

غير أن كروفيل العاجز عن اكتناه الفنون أراد كمعظم البورجوازيين أن ينفق مبلغاً محدداً سلفاً. ولما كان كراندو ملزماً بحدود وقياسات، تعذر عليه أن يحقق حلمه كمعماري.

والتباين القائم بين قصر جوزيفا وقصر شارع باربي ليس الا تبايناً بين هويّة الأشياء وخشونتها. ما يمكن أن يثير اعجاباً عند جوزيفا لا تمكن مشاهدته في أي مكان آخر؛ وما يلمع عند كروفيل يمكن الحصول عليه في أي مكان. هذان المستويان من البذخ ينفصلان عن بعضهما البعض بكمية المال. مرآة فريدة من نوعها، تساوي ستة آلاف فرنك بينما مرآة يبتكرها صانع يستغلها، تساوي خمسمئة فرنك. وثريا أصلية سن الكرات يرتفع ثمنها في السوق الى ثلاثة آلاف فرنك؛ بينما الثريا المقولبة يمكن الحصول عليها عند الصناع بألف أو الف ومئتي فرنك، الأول هو في علم الآثار بمستوى لوحة رافايل في الرسم بينما الثاني ليس

الا نسخة عن الأول. فما تقديرك لنسخة عن أعمال رافايل؟

قصر كروفيل ليس اذا سوى أنموذج رائع عن بذخ المغرورين، أما قصر جوزيفا فهو أجمل خلق بُني لسكنى فنان.

ـ تخاصمنا، قال كروفيل وهو يتجه نحو زوجته المقبلة.

دقت السيدة مارنيف الجرس فحضر خادمها وقالت له:

ـ اذهب وابحث عن السيد برتيي ولا تعدِ دونه.

ثم تابعت وهي تضم السيد كروفيل.

ـ لو نجحت يا عزيزي لكان ذلك سبباً في تأخير سعادتنا ولكنا أقمنا حفلة مذهلة، لكن لما كانت عائلة بكاملها تعترض على الزواج، فاللياقة تقضي بأن يتم دون بهرجة، خاصة اذا كانت العروس أرملة.

أجاب كروفيل الذي كان يرى القرن الثامن عشر منتهياً:

ـ بالعكس، أريد أن أعلن على الملأ ما أريد فعله واقتدي ببذخ لويس الرابع عشر. أوصيت على عربتين جديدتين أولى للسيد وأخرى للسيدة، الأثنتان جميلتان يضفي عليهما مقعد رائع، أبهة وسحراً تختلج لمرآهما مثيلات السيدة هيلو.

ـ أتريد الا تكون حملي؟ لا، لا، ستفعل بمشيئتي يا غزالي. سنوقع هذا المساء على عقدنا. ثم نتزوج رسمياً الأربعاء كما في

السر حسب تعبير أمي المسكينة. سنذهب الى الكنيسة مشياً على الأقدام وباللباس البسيط ونطلب قداساً هادئاً. يحضر معنا كشهود الخال ستيدمان وستانبوك وفينيون وماسول. كلهم مثقفون ويلتقون في دار العمدة معظم الأوقات ويضحون من أجلنا بسماع قداس. يزوجنا زميلك استثناء في التاسعة صباحاً ويبدأ القداس في العاشرة ونعود الى هنا للغداء في الحادية عشر والنصف. وعدت المدعوين بأننا لن نترك الطاولة الا مساء. . . سيكون معنا بيكسيو ورفيقك القديم بيروتيري دوتيلي ولوستو وفورنيه وليون دي لورا، وفرنو زهرة المثقفين وهؤلاء لا يعلمون بزواجنا، سنخدعهم ونسكرهم وليزبت تكون بينهم. وأود أن تتعلم الزواج فبيكسيو يزمع على مراودتها ليفقدها. . . البكارة.

خلال ساعتين والسيدة مارنيف تفيض بالحماقات التي أثارت في كروفيل هذا التفكير القانوني.

ـ كيف يمكن لأمرأة مغمورة بالفرح أن تكون ساقطة بَطِرة؟ أجل! لكنها منقلبة. . . هيا أذن!

ـ ماذا قال لك أولادك عني؟ بالطبع، كثير من الكلام المرعب. سألت فاليري كروفيل الذي كانت تجلسه حدها على أريكة مزدوجة المقعد.

ـ يزعمون أنك تحبين ونسيسلاس حتى الأجرام. أنت! انك الفضيلة بعينها!

ـ اعتقد، وعن اقتناع أني أحبه، انه العزيز ونسيسلاس! صاحت فاليري وهي تدعو الفنان وتمسكه برأسه وتقبله في جبينه. يا للصبي المسكين! دون مأوى ودون ثروة! ترذله ظرافة بلون الجزر! ما رأيك يا كروفيل؟ ونسيسلاس هو شاعري وأحبه في وضح النهار كما لو كان ولدي!. لا يرى هؤلاء النسوة المسلحات بالفضيلة سوى الشر في كل مكان وفي كل شيء ولا يستطعن أن يترافقن مع رجل دون الاساءة اليه. إني كالأولاد المدللين لا رد لطلبهم، فالملبس لا يثير بي أي عاطفة. أيتها النسوة المسكينات، اني أرثي لكن!... ومن يفسدني بهذا الشكل؟

ـ فيكتوران، أجاب كروفيل.

ـ اذن! لماذا لم تغلق منقار تلك الببغاء القضائية بالمئتي الف فرنك العائدة للأم؟

ـ آه! هربت البارونة، قالت ليزبت.

أجابت السيدة مارنيف وهي تقطب حاجبيها:

ـ فليحترسوا يا ليزبت. فاما أن يستقبلوني عندهم ويزوروني كلهم في بيتي وهذا عمل ممتاز! وإما أن أسكنهم (وقولي لهم نقلا عني) في مكان أدنى مما هو عليه البارون... أريد أن اصير شريرة في النهاية! أعتقد حقيقة أن الشر ليس الا الباطل مضافاً اليه الخير مقطعاً...

١١٢

أثر الابتزاز

في الساعة الثالثة قرأ السيد برتيي، خلف كاردو، عقد الزواج، بعد نقاش بينه وبين كروفيل اذ أن بعض البنود ترتبط بالقرار الذي سيتخذه كل من السيد هيلو الشاب وزوجته.

يعترف كروفيل لزوجته المقبلة بثروة مركبة: دخل بأربعين ألف فرنك من سندات أشير اليها؛ القصر وكل محتوياته؛ ومال نقدي بثلاثة ملايين. اضافة الى ذلك يقدم لها كل الهبات التي يجيزها القانون؛ أعفاها من بيان بالموجودات، وفي حال الوفاة ولم يترك الزوجان عقباً يهب أحدهما الآخر جميع مقتنياته المنقولة منها وغير المنقولة.

قلص هذا العقد ثروة كروفيل الى مليوني فرنك، ولو أنجب اولاداً من زوجته الجديدة فستتقلص حصة سيليستين الى خمسمئة الف فرنك بسبب حق الانتفاع القائم على ثروته والذي تتمتع به فاليري. وهذا هو القسم التاسع تقريباً، من ثروته الحالية.

عادت ليزبت لتتناول العشاء في شارع لويس الكبير واليأس

يمسح وجهها. شرحت وناقشت العقد لكنها رأت أن سيليستين كفيكتوران لا تهتم لهذا النبأ الصاعق.

ـ أغضبتم أباكم يا أولادي! والسيدة مارنيف أقسمت على أن تستقبلوا زوجة السيد كروفيل ثم تزوروها في بيتها.

ـ أبداً! قال هيلو

ـ أبداً! قالت سيليستين

ـ أبداً! صرخت اورتنس

تملكت ليزبت رغبة في التغلب على موقف عائلة هيلو الرائع.

ـ يظهر أنها تمتلك سلاحاً ضدكم!... لم أعرف ما هو قصدها لكن سأكون على بينة من ذلك... تحدثت هامشياً وبغموض عن مئتي الف فرنك تعني أدلين.

تزحزحت البارونة هيلو بلطف على أريكتها وبدت عليها اضطرابات مزعجة.

ـ هيا يا أولادي!... صرخت البارونة. استقبلوا هذه المرأة! السيد كروفيل رجل فاسق! يستحق العذاب الأخير... أطيعوا هذه المرأة... انها وحش مفترس! وتعرف كل شيء.

بعد هذه العبارات الممزوجة بالدموع والنحيب، استعادت السيدة هيلو القوة لتصعد الى مسكنها متكئة على ذراع ابنتها وذراع سيليستين.

ـ ماذا يعني كل هذا؟ صاحت ليزبت التي بقيت وحدها مع فيكتوران.

لم يسمع المحامي الذي تجمد على قدميه، ليزبت، لأنه أخذ بذهول بالغ التأثر.

ـ ما بك يا فيكتوران؟

أجاب المحامي الذي أصبح وجهه كالنار الحارقة.

ـ اني خائف! الويل لمن يمس أمي، أزلت من رأسي الوساوس! لو استطيع لأسحق هذه المرأة كما تسحق الأفعى... آه! انها تهاجم حياة أمي وشرفها.

ـ لا تكرر ذلك يا عزيزي فيكتوران؛ قالت بأنها ستسكنكم كلكم أيضاً في مكان أدنى مما هو عليه أبوكم... لامت كروفيل بشدة لأنه لم يسكتك بهذا السر الذي بدا انه أخاف كثيراً أدلين.

أرسلوا بطلب الطبيب لأن حالة البارونة تزيد سوءاً.

وصف الطبيب جرعات من الأفيون وغرقت أدلين في نوم عميق بعد الجرعة الأولى، لكن العائلة بكاملها كانت ضحية الرعب الشديد.

في الغد توجه المحامي باكراً الى قصر العدل بعدما قصد دائرة الشرطة حيث توسل الى السيد فوتران رئيس الأمن ليرسل له السيد سانتيستاف.

ـ مُنِعنا يا سيدي من التدخل في شؤونك لكن السيدة سانتيستاف تعمل كتاجرة وهي بتصرفك.

لدى عودته الى منزله علم المحامي المسكين أن في الأمر خشية على عقل أمه. فالأطباء، بيانشون ولارابين والأستاذ أنكار الذين اجتمعوا للتشاور، خلصوا الى أنه يجب استعمال الوسائل الفعالة لأعادة الدم الذي يتحقن في رأسها الى دورته العادية.

وفي الوقت الذي كان فيه فيكتوران يصغي الى الطبيب بيانشون الذي يفصل له الأسباب التي تحمله على التفاؤل باجتياز هذه الأزمة على الرغم من تشاؤم زملائه، أطل الخادم ليعلن للمحامي وصول زبونته، السيدة سانت استيف.

ترك فيكتوران بيانشون وسط الحديث وكر على الدرج بسرعة جنونية

ـ وهل في هذا البيت جنون معدٍ؟ قال بيانشون وهو يلتفت نحو لارابيت. انصرف الأطباء بعد أن أوكلوا الى طبيب متمرن مهمة السهر على السيدة هيلو.

ـ حياة تقوى بكاملها!... هذه كانت العبارة الوحيدة التي نطقت بها المريضة منذ الكارثة.

لم تفارق ليزبت وسادة أدلين، كانت تقدم لها كل عناية ونالت اعجاب المرأتين الشابتين.

ـ ماذا أيتها العزيزة السيدة سانت استيف! قال المحامي وهو يقود العجوز المخيفة الى مكتبه ويغلق الأبواب بعناية، أين وصلنا بالموضوع؟

ـ حسناً! أيها الصديق العزيز، أجابت وهي ترمق فيكتوران بعين باردة ساخرة، وهل انهيت تأملاتك البسيطة؟...

ـ وهل تصرفت؟

ـ وهل أنت مستعد للتخلي عن خمسين الف فرنك؟...

ـ أجل، ويجب أن نبدأ خطواتنا. أتعلمين أنه بجملة وحيدة دفعت حياة أمي للخطر؟ على هذا أطلب الشروع بالتنفيذ!

ـ بدأنا!

ـ وبعد؟... قال فيكتوران المرتبك جداً...

ـ وبعد! هل تؤجل المصاريف؟

ـ بالعكس.

ـ بلغت المصاريف حتى الآن ثلاثة وعشرين ألف فرنك.

نظر هيلو الأبن الى سانت استيف بغباوة.

ـ آه! وهل تصير مغفلاً، انت الذي يشكل ضوءاً من أضواء قصر العدل؟ هذا المبلغ سيخصص لضمير وصيفة وللوحة رافاييل، ليس ذلك مرتفع الثمن...

ظل هيلو في بلادته، جاحظ العينين.

ـ حسناً! تابعت سانت استيف، اشترينا الآنسة رين توازار التي لا تخفي السيدة مارنيف عنها سراً. . .

ـ فهمت. . .

ـ لكن اذا كنت تقتر فلا تخفِ ذلك عني! . . .

ـ سأسلفك المبلغ أمانة، هيا، قالت لي أمي أن هؤلاء الناس يستحقون العذابات العظيمة. . .

ـ نحن لا نعذب، قالت العجوز.

ـ النتيجة هي في الجواب، اليس كذلك؟

ـ دعني أعمل فانتقامك ينطبخ على نار خفيفة.

التفتت الى ساعة الحائط وكانت تشير الى السادسة.

ـ انتقامك يلبس ثيابه وأفران صخرة الكانكال أشعلت وأحصنة العربات تتحرك وقضباني الحديدية تسخن. آه! أعرف السيد مارنيف عن ظهر قلب. كل شيء جاهز. في مصيدة الفئران قد تحصل بعض الأخطاء وسأبلغك في الغد ما اذا كانت الفأرة ستتسمم. أظن ذلك! الى اللقاء يا بني.

ـ الى اللقاء يا سيدتي.

ـ اتتكلم الانكليزية

ـ نعم

ـ وهل حضرت تمثيلية ماكبث بالأنكليزية؟

ـ نعم

ـ اذاً! ستصير ملكاً يا بني! يعني أنك سترث! قالت هذه المشعوذة الشنيعة التي أوجدها شكسبير والتي يبدو أنها تعرفه.

ثم تركت هيلو على عتبة مكتبه وهو في حالة من الخبل.

ـ لا يغرب عن بالك أن هذه القضية المستعجلة هي للغد! قالت بلطف المرافعة المحنكة.

رأت شخصين آتيين فأرادت أن يعرفاها باسم الكونتسة بامبيش.

ـ أي رشاقة! حدث هيلو نفسه وهو يودع زبونته المزعومة.

١١٣

كومبابوس

كان البارون مونتيس دي مونتيجانوس أسداً لكنه أسد غامض.

إن عابدي الدرجة ورواد سباق الخيل والباغيات في باريس معجبون بالصدرات الفائقة الوصف لهذا الأجنبي، وبجزمته المصبوغة بالفرنيش الذي لا عيب فيه، وبعصيه التي لا مثيل لها وبشعره الذي يحسد عليه وبعربته التي يجرها سود غارقون بالعبودية وتدجنوا كما يجب.

ثروته معروفة، كان له اعتماد بسبع مئة الف فرنك عند المصرفي الشهير دي تيبه؛ لكنه كان يظهر دائمًا لوحده. عندما يحضر العروض الأولى في المسارح كان يجلس على كرسي خاص في صدر الصالة. لا يتردد الى أي صالون. لم يعط يوماً ذراعه الى ماجنة! لا يمكن أن نقرن اسمه باسم امرأة جميلة معروفة. حتى يستهلك الوقت كان يتسلى بلعبة الويست في نادي الجوكي.

عاداته كانت محطة للأفتراءات، والذي كان يبدو غريباً جداً، شخصه: لقب بكومبابوس!

مساء يوم كان بيكسيو، ليون دي لورا، لوستو، فلورين، الآنسة هيلو بيزبريزتو وناتان يتناولون جميعهم العشاء على مائدة الذائعة الشهرة، كارابين مع جمهرة من الأسود واللبوءات، فاخترعوا هذا التفسير المثير للضحك.

ان ماسول بصفته مستشار الدولة وكلود فينيون بصفته أستاذ اليونانية، رويا للماجنات الجاهلات النكتة المتداولة، المحمولة في مؤلف رولان «التاريخ القديم» والمتعلقة بكومبابوس ذلك

الأبيلار المتطوع والمكلف بحماية زوجة ملك اشور وفارس وباكتريان وبلاد مابين النهرين وغيرها من مناطق الجغرافيا الخاصة بالأستاذ القديم في المناطق المؤلفة من المروج والمراعي، الذي أتم وهو في انفيل، خالق الشرق القديم.

هذا اللقب أثار الضحك بين المدعوين عند كارابين لمدة ربع ساعة واصبح موضوعاً للدعابات الخفيفة في مؤلف قد لا تمنحه الأكاديمية جائزة مونتيون لكننا نجد بينها الأسم الذي علق في الشعر الغزير للبارون الوسيم الذي أطلقت عليه جوزيفا أسم « البرازيلي الرائع كما لو قلنا: «كاتوكسانتا رائع»!...

كانت كارابين ألمع الماجنات وانتزعت صولجان الدائرة الثالثة عشرة بجمالها الرقيق والتماعاتها البراقة من يدي الآنسة توركي المعروفة باسم مالاكا. أما كارابين، الآنسة سيرافين سيني (وهذا اسمها الحقيقي) فكانت بالنسبة للمصرفي دي تيلي ما كانت جوزيفا ميراح بالنسبة للدوق هيروفيل.

وفي صباح ذات اليوم نفسه حيث كانت سانت استيف تتكهن بالنجاح لفيكتوران كانت كارابين تقول لتيلي:

ـ لو تلطفت فدعوتني الى العشاء في صخرة الكانكال واصطحبت ملك كومبابوس، نريد أن نعرف أخيراً من هي عشيقته... أراهن بـ... أريد أن أغنم...

ـ انه دائماً في قصر الأمراء، سأمر به، نحن نتسلى. اجمعي

كل غلماننا: الغلام بيكسيو، الغلام لورا.

عند السابعة والنصف وفي أجمل قاعة في مؤسسة حيث تتعشى أوروبا بكاملها كان طقم الفضة يشع على طاولة رائعة الجمال حضر خصيصاً للخيلاء ليسدد رصيده بالسندات المصرفية. سيل من الأضواء يفيض كالشلالات على صفحات الأشياء المرصعة. الخدم انتقاهم المسؤول وأوكل اليهم مهمة الديبلوماسيين في العمل.

وصل الى المكان خمسة أشخاص وانتظروا تسعة آخرين.

أول الواصلين كان بيكسيو، ملح كل غذاء عقلي، مازال صامداً حتى عام ١٨٤٣ مع مجموعة من الدعابات المتجددة دائمًا. انها ظاهرة نادرة في باريس ندرة الفضيلة.

ثم ليون دي لورا اكبر رسامي المناظر والرسوم البحرية على الأطلاق. وكانت رسومه البحرية تحتفظ على شواطئها بميزة عدم تأخرها عن انطلاقاته الأولى.

لا يمكن للغانيات ان يستغنين عن ملح هذين الملكين. لا عشاء ولا غداء ولا حفلة دونهما.

ان سيرافين سيني، المعروفة بكارابين وبصفتها خليلة وبرتبة المضيفة، قدمت بين الأوليات وكانت تتألق تحت الأشعة بأكتافها التي لا منافس لها في باريس ورقبة مشغولة على المخرطة دون

ثنية! وجهها كيّس ونبيه، وفستانها من الساتان المقصب، أزرق على أزرق، مزدان بالتخاريج الانكليزية بقدر كاف يغذي ضيعة كاملة لشهر.

وصلت الجميلة جني كادين التي تفرغت من شغلها في مسرحها لهذه الليلة وهي معروفة جداً والكلام عليها لا يجدي وتزينها يشير الى ثراء اسطوري.

ان الحفلات تكون للسيدات بمثابة ميدان عرض للتبرج حيث كل واحدة منهن ترجو ان تحظى بجائزة صاحبها المليونير لتقول لمنافساتها:

ـ هذه هي الجائزة التي استحقها!

امرأة ثالثة، لا شك أنها في انطلاقتها الأولى في مهنتها، كانت ترمق وهي في خجل، بذخ هاتين الثرثارتين المتمكنتين والثريتين. كانت تمتاز ببساطة اللباس. ترتدي ثوباً من الكشمير الأبيض المزين بالقيطان المزركش بالأزرق ورأسها مغطى بزهور، صممه ونفذ تسريحته مزين، على طريقة ميرلان، ويده الخرقاء منحت دون معرفة منها، حلاوة ولطف البلاهة لشعر أشقر فتان. مازالت متأففة في ثوبها وغارقة في حيائها لا تخرج عن ايمانها أنها في أول انطلاقتها.

كانت وصلت من فالونيا لتسكب في باريس نضارة ميؤوسة وطهارة تثير غضب الرغبة في المائت وجمالاً جديراً بأي جمال

قدمته نورمنديا لمختلف مسارح العاصمة. ان خطوط هذا الوجه السليم من كل شائبة كانت تشرق بطهارة الملائكة المثالية. بياضها اللبني كان يعكس الضوء جيداً حتى انك تخاله آتياً من مرآة. ظهرت الألوان على وجنتيها وكأنها خططت بريشة رسام. كانت تدعى سيداليز.

كانت هذه، كما سنرى بيدقاً ضرورياً في اللعبة التي تديرها المدام نوريسون ضد السيدة مارنيف.

ـ لم أر أحداً يصحبك يا عزيزتي قالت جني كادين التي قدمت لها كارابين هذه الرائعة البالغة من العمر ست عشرة سنة والآتية برفقتها.

ـ كم تساوي؟ سألت جني كادين كارابين همساً.

ـ تركة.

ـ ماذا تريدين أن تفعلي بها؟

ـ ماذا، السيدة كومبابوس!...

ـ ماذا ستجنين في عملك هذا؟...

ـ احزري!

ـ فضية رائعة؟

ـ املك منها ثلاثاً!

ـ قطع من الألماس؟

ـ ابيع الألماس. . .

ـ قرد أخضر!

ـ لا، لوحة لرفاييل!

ـ أي مكر يجول في خاطرك؟

ـ ان جوزيفا تحز دماغي بلوحاتها، أجابت كارابين، لذا أريد ان أحصل على أجمل منها.

دي تيلي يقود بطل العشاء، البرازيلي، والدوق هيروفيل يتبعهما مع جوزيفا.

كانت المغنية ترتدي ثوباً بسيطاً من المخمل، ويتوهج حول عنقها عقد بمئة وعشرين الف فرنك، من اللؤلؤ الذي لا يكاد يظهر على بشرتها البيضاء كزهرة الكاميليا.

دست في ضفائرها كاميليا حمراء واحدة ذات تأثير مذهل وأخذت تلهو بتنضير أحد عشر سواراً من اللؤلؤ على كل ذراع من ذراعيها.

ثم اقتربت وصافحت بشدة جني كادين التي قالت لها:

ـ اذن أقرضيني قفازيك. . .

نزعت جوزيفا دمالجها وقدمتها لصديقتها على صحن.

ـ أي مسلك هذا! قالت كارابين، يجب أن تكون دوقة!

سطوت على البحر يا سيدي الدوق حتى تزين الفتاة؟ أضافت وهي تلتفت نحو الدوق الصغير هيروفيل.

أخذت الممثلة سواراً واحداً وأعادت العشرين الآخرين الى ذراعي المغنية الجميلين وطبعت عليهما قبلة.

وأخيراً اكتمل المدعوون بحضور لوستو، المتطفل على الأدب، البالفيرين ومالاكا، ماسول وفوفيني، تيودور كابيار أحد أصحاب اهم الجرائد السياسية.

بتهذيبه المعهود وكالسيد الكبير، حيى الدوق هيروفيل الكونت بالفيرين تحية خاصة، فاذا هذا الأخير الذي لم يشك بتقدير واخلاص هيروفيل، يقول للجميع: «اننا من عائلة واحدة ومن جنس واحد فنحن متساوون!» ابتكرت هذه التحية الارستقراطية لزرع اليأس في مفكري البورجوازية الكبيرة.

أخذت كارابين كومبابوس عن شمالها والدوق هيروفيل عن يمينها بينما جانبت سيداليز البرازيلي وجلس بيكسيو بجانب النورماندية واختار مالاكا مكانه بالقرب من الدوق.

١١٤

عشاء الماجنات

عند السابعة كان الجميع يغيرون على المحار وفي الثامنة وبين تقديم صنفين من الطعام كانوا يتذوقون الشراب المسكر البارد. الجميع يعرفون قائمة هذه الموائد.

في التاسعة كانوا يهذون كمن يهذي بعد اثنتين واربعين قنينة من مختلف انواع الخمور توزعت على اربعة عشر شخصاً ثم تلا دلك تحلية شهر نيسان المنفرة. هذا الجو المسكر وضع النورماندية في حالة من النشوة جعلتها تدندن اغنية من اغاني الميلاد. حافظ الجميع على رباطة جأشهم واتزانهم عدا تلك الفتاة المسكينة، فالشاربون والنساء كانوا من النخبة الباريسية الجالسة على العشاء. كانت العقول تبتسم وتضحك والأعين البارقة مخزّنة بالذكاء والشفاه سلكت طريقها الى النقد اللاذع والملح والبوح بالأسرار المطمورة في الأعماق.

دارت الأحاديث حتى الآن في دائرة مفرغة حول السباقات والأحصنة واجراءات البورصة والقصص الشائنة المتداولة،

وكادت تتحول الى همسات قلبية جزأت الجمهور الى أزواج قربتها خفقات القلوب.

في هذه اللحظة بدأ الكلام يتسرب الى ميدان الحب حينما راحت كارابين توزع غمزاتها بين ليون دي لورا وبيكسيو بينما راح دي تيلي وبالفارين يتبادلان نظرات الحب.

عندها قالت جوزيفا.

ـ الأطباء المتمكنون لا يتحدثون أبداً عن الطب والنبلاء الأصيلون لا يذكرون أجدادهم والنوابغ لا يتبجحون بأعمالهم فلماذا نتكلم على ما نحن فيه؟... تعهدت بأن أعطي لنفسي بعض الراحة في الأوبرا وآتي الى هنا لأفرج عن متاعبي. أطلب اليكم الا تستسلموا يا أصدقائي الأعزاء.

أجاب مالاكا.

ـ يتحدثون معك عن الحب الحقيقي يا عزيزتي، عن الحب الذي نغرق فيه والذي يبعدنا عن والدينا وينفرنا من زوجاتنا وأولادنا ويودي بنا الى سجن كليشي...

ـ تابعوا اذن! أجابت المغنية. لا أعرف!

«لا اعرف!...» هذا التعبير المنتقل من لغة المراهقين في باريس الى حديث الغانية استحال في أعين النساء وحركاتهن الى قصيدة على شفاههن.

ـ اذاً لا أحبك ابداً يا جوزيفا؟ قال الدوق بصوت خافت.

همست المغنية في أذن الدوق وقالت له.

ـ يمكنك أن تحبني حقيقة لكن أنا لا أحبك ذلك الحب الذي تتحدثون عنه والذي يقيم من الرجل المحبوب البداية والنهاية ويسود العالم بأسره في غيابه. انك مفيد لي واني استملحك واستلطفك لكنك لست شرطاً لازماً لي لابد منه فلو تخليت عني غداً فسأعرف كيف استجلب ثلاثة بدل واحد. . .

ـ وهل للحب مكان في باريس؟ قال ليون دي لورا، لا يجد أحد متسعاً من الوقت ليجمع ثروة فكيف به يستسلم للحب الحقيقي كما يستحوذ الماء على السكر؟ على المرء أن يكون ثرياً جداً حتى يخوض غمار العشق؛ فالحب يقضي على رجل قد يكون شبيهاً بعزيزنا البارون البرازيلي الذي هو معنا. صرحت منذ زمن بأن «المتطرفين يصمتون!» العاشق الحق يشبه خصياً لأنه لا يتفرد مطلقاً بامرأة من هذا العالم! انه غامض وشبيه بالمسيحي الحقيقي المتوحد في عزلة تامة! ما رأيكم الآن بهذا البرازيلي الشجاع؟. . .

الطاولة بأكملها تفحصت هنري مونتيس دي مونتيجانوس الذي ارتبك وخجل عندما رأى نفسه محط أنظار الجميع.

ـ انه يرعى منذ ساعة هنا ولا يعرف أنه مرجح كي يصير ثوراً وبالقرب منه جارة من أجمل. . . لا أقول من أجمل النساء، بل من اكثر نساء باريس نضارة.

ـ كل شيء هنا نضر وطازج، حتى السمك. هذا ما يعرف عن البيت، قالت كارابين.

التفت البارون مونتيس دي مونتيجانوس الى رسام الطبيعة بتودد وقال له:

ـ ممتاز! نخبك!

ثم حيا ليون دي لورا بأشارة من رأسه وأحنى كأسه المليء بخمر بورتو وشرب بمهارة.

ـ انك عاشق اذاً؟ قالت كارابين لجارها مؤولة الأنخاب.

أعاد البارون البرازيلي ملء كأسه وحيّى كارابين وشرب النخب.

ـ بصحة السيدة، قالت عندها الغانية بلهجة المداعبة التي أثارت القهقهة عند الرسام وتيلي وبيكسيو.

غير أن البرازيلي ظل رصيناً كتمثال من البرونز، مما أثار الغضب في نفس كارابين، فهي تعلم علم اليقين أن مونتيس يحب السيدة مارنيف، لكنها ما كانت تتوقع هذا الوفاء الأعمى وهذا الصمت المكابر في رجل واثق بنفسه.

نبدي رأينا، معظم الأحيان، في امرأة انطلاقاً من موقف عشيقها كما نبدي رأينا في العاشق استناداً الى وقار عشيقته.

كان البرازيلي فخوراً بحبه لفاليري وحبها له وبسمته تعرض

على العارفين المحنكين مسحة من السخرية، ولكن كان متعالياً اذ رأى الخمور لم تمس لونه وعينيه اللتين تلمعان كانتا تحتفظان بأسراره الدفينة.

ثم حدثت كارابين نفسها قائلة: - أي امرأة هذه! كيف ختمت هذا القلب!

- انه صخرة!، قال بيكسيو بصوت خافت وهو لا يرى في ذلك الا حملاً ولا يرتاب بالأهمية التي تعلقها كارابين على تقويض هذه القلعة.

أثناء هذه الأحاديث التي كانت تبدو في الظاهر تافهة، كانت المناقشات عن الحب تستمر على يسار كارابين بين الدوق هيروفيل ولوستو وجوزيفا وجني كادين وماسول.

واحياناً كان يسير البحث باتجاه معرفة ما اذا كانت هذه الظواهر النادرة ناتجة عن الوله أو العناد أو الحب.

انزعجت جوزيفا كثيراً من هذه الأقاويل والفرضيات فأحبت انْ تغيرّ الحديث.

- انكم تتحدثون عن شيء تجهلونه تماماً! هل بينكم من احب امرأة غير جديرة به حتى انها التهمت ثروته وثروة أولاده فباع مستقبله وثلم صيته وتعرض لعقوبة الأشغال الشاقة لأنه أختلس اموال الدولة، وقتل خالاً وأخاً واستسلم لمن عصب

عينيه وبصيرته فلم يفكر بما يخطط له ومنع عن رؤية الهاوية التي سيرمى بها كمداعبة أخيرة! دي تيلي رجل فاقد العاطفة، ليون دي لورا متعقل وبيكسيو يهزأ من نفسه لو أحب شخصاً آخر غير ذاته، ماسول يحمل حقيبة وزارية مكان قلبه، لوستو لا يحمل تحت ثديه الأيسر سوى عضوٍ ذي وظيفة جسدية مما أفسح له ظرفاً للتفلت من السيدة ديٍ لابودري، سيدي الدوق له من الثراء ما يجعل من المتعذر اظهار حبه عن طريق خرابه، اما فوثيني فلا أحسب له حساباً لأني ألغي المقتطعين من النوع البشري. على هذا، تكونون على مسافة من الحب وكذلك أنا وجني وكارابين... فيما يخصني لم أر سوى مرة واحدة هذه الظاهرة التي أنا بصدد الحديث عنها. انه، قالت موجهة كلامها لجني كادين، المسكين البارون هيلو الذي أعلن عنه ككلب ضائع ذلك أني أريد أعثر عليه.

حدثت كارابين نفسها وهي تُحلِقِ بجوزيفا بطريقة ما:

ـ هذا إذن تملك السيدة نوريسون لوحتين لرافايل وجوزيفا تسير في الطريق الذي أسلكه؟

ـ يا للمسكين! قال فوفيني، كان عظيًا ورائعاً. أي أناقة وأي طلعة! كان يشبه فرنسوا الأول! أي بركان! أي مهارة ونبوغ استخدم في سبيل ايجاد المال! في المكان الذي يحتمي فيه يبحث عن النقود، ويجب عليه أن يحصل عليه من الجدران المصنوعة

من العظم الذي نراه في ضواحي باريس بالقرب من التصوينات حيث يكون، على الأرجح متخفياً. . .

ـ وكل هذا، قال بيكسيو من أجل السيدة الصغيرة مارنيف! يا لها من ماكرة! أضاف دي تيلي :ـ وتريد أن تتزوج من صديقي كروفيل.

ـ وهي مغرمة حتى الجنون بصديقي ستانبوك! قال ليون دي لورا

كانت هذه العبارات الثلاث، ثلاث طلقات مسدس أصابت صدر مونتيس في الصميم فامتقع لونه وكابد الصدمة حتى لاقى مشقة في النهوض.

ـ يا لكم من أوباش: لا يجوز لكم أن تخلطوا بين اسم امرأة شريفة وأسماء نسائكم الضالات: ولا يجوز لكم خاصة أن تتخذوا منها موضوعاً للهزء والسخرية.

قاطع الجميع مونتيس بهتافاتهم وتصفيقاتهم وانطلقت اشارة من بيكسيو وليون دي لورا وفوفيني ودي تيلي وماسول فكان هرج ومرج.

ـ ليعش الامبراطور! قال بيكسيو

ـ فلنتوجه! صاح فوفيني.

ـ التنصر لميدور، والحياة للبرازيل! صرخ لوستو.

ـ آه! أيها البارون النحاسي اللون، هل تحب عزيزتنا فاليري؟ قال ليون دي لورا، ألم تتقزز بعد!

ـ ما قاله لا يعبر عن ديمقراطية لكنه قول رائع!... عقب ماسول.

ـ لكن يا زبوني العزيز، عهدت الي بمالك، وأنا مصرفي كله في خدمتك، وأخشى أن تسبب لي براءتك المتاعب.

عندها سأل البرازيلي دي تيلي:ـ آه! أفدني القول إيها الرجل الرصين.

ـ الشكر لنا جميعاً قال بيكسيو وهو يودعهم.

ـ قل لي أي شيء أتفاءل به!... أضاف مونتيس دون أن يعير اهتماماً لكلام بيكسيو.

ـ هكذا اذن! أجاب دي تيلي، أتشرف باعلامك أني مدعو الى حفلة زفاف كروفيل.

ـ آه! ان كومبابوس يتولى الدفاع عن السيدة مارنيف! قالت جوزيفا وهي تنهض بأبهة. وبوجه متجهم، توجهت ناحية مونتيس ونفقته في رأسه نقفة تحبب ورمقته للحظة حيث ظهرت على وجهه ملامح تعجب ساخرة، وهزت رأسها.

ـ ان هيلو يقدم أول مثل للحب رغم كل ما جرى ، وهذا هو الثاني ؛ قالت : لكن يجب ألا يحترس ، فهو من المناطق المدارية !

عندما صفعت جوزيفا برفق جبين البرازيلي ، هوى مونتيس على كرسيه ثم توجه بنظره الى تيلي وقال :

ـ اذا كنتم تعتبرونني تسلية لمداعباتكم الباريسية أو اذا كنتم تريدون ان تنتزعوا مني سري . . .

وغلف الطاولة كلها ، بحزام من النار غمر سائر المدعوين بنظرة التهبت معها الشمس البرازيلية ثم تابع كلامه مترجياً كالأولاد :

ـ أتوسل اليكم ان تصارحوني ، لكن لا تفتروا على امرأة أحبها . . .

ـ هذا إذاً ! همست كارابين في أذنه ، لكن لو خدعتك فاليري على غير ما تستحق وخانتك ولعبت بأهوائك وبسطت لك البراهين ، خلال ساعة ، وفي بيتي ، فماذا كنت تفعل ؟

ـ لا أستطيع أن أقول لك هنا أمام هذا الجمع الغفير . . . قال البارون البرازيلي .

ـ سمعت كارابين « الجمع الحقير » !

ـ هاي اسكت ! أجابته مازحة ، لا يجوز أن تسمح لنفسك وتهزأ من أفضل الرجال ثقافة في باريس ، على كل تعال لزيارتي ونتحدث . . .

أحس مونتيس وكأنه يغور في الفناء . . .

ـ براهين ! . . . قال وهو يتمتع ، تصوري ! . . .

ـ ستتبين الكثير منها ، أجابت كارابين ، لكني أرى الشك سيذهب برأسك وسيجتاح عقلك ويشل قواه .

ـ وهل هذا الانسان عنيد الى هذا الحد ، ما هم مادامت السوءة ستنقلب عليه كالمرحوم ملك هولندا . والآن ألستم أنتم ؛ يا لوستو وبيكسيو وماسول وكلكم ، مدعوين بعد غد الى الغداء عند السيدة مارنيف ؟ سأل ليون دي لورا .

ـ يا ، أجاب تيلي . لي شرف أن أعيد على مسمعك أيها البارون أنه اذ كنت راغباً بالزواج من السيدة مارنيف فيجب أن تعلم انك سترفض كمشروع قرار بورقة اقتراع باسم السيد كروفيل . يا صديقي ، ان رفيق العمر كروفيل يملك دخلاً بثمانين الف ليرة ويبدو انك لا تجاريه في هذه الملكية والا لكنت ، حسب ظني ، المفضل عندها . . .

بدا مونتيس الذي كان يصغي ، تائهاً في شطط ، ومبتسماً ابتسامة بسيطة ، وكأنه يثير الرعب في قلوب الجميع .

اقترب خادم المقهى ليهمس في أذن كارابين بأن أحدى قريباتها تنتظرها في الصالون وتود أن تتكلم معها . نهضت الغانية وخرجت لتلتقي السيدة نوريسون مسدلة حجابها بتخريجاته السوداء فتبادرها قائلة :

ـ والآن ينبغي أن أرحل الى البيت يا ابنتي ؟ وهل وصل الى ثورة الغضب ؟

ـ اجل يا أمي العزيزة ، لُقم المسدس جيداً وأخشى أن ينطلق ، أجابت كارابين .

١١٥
حيثما نرى السيدة نوريسون في العمل

بعد ساعة دخل مونتيس وسيداليز وكارابين دار كارابين الصغير، الكائن في شارع السان جورج، عائدين من الروشي دي كانكال.

رأت الماجنة، السيدة نوريسون جالسة على اريكة قرب النار:

ـ عجباً! هذه عمتي الجليلة.

ـ نعم، يا ابنتي، جئت انا بنفسي احصل ايرادي الزهيد. أنت سلوتني، مع ان لك قلباً كبيراً، ويتوجب علي في الغد سندات للدفع. باثعة الهوى دائمة الانزعاج. ماذا تجرين وراءك؟ تبدو على هذا السيد سمات الضيق والغم.

نهضت السيدة نوريسون الدميمة والعجوز الهرمة، التي مسخت في هذه اللحظة مسخاً كاملاً، لتقبل كارابين، احدى الماجنات اللواتي يزيد عددهن عن المئة، واللواتي اطلقتهن في مهنة السوء الرهيبة.

ـ هذا نموذج عن اوتيلو، لا ينخدع ولي شرف تقديمه اليك: السيد البارون مونتيس دي مونتيجانوس.

ـ آه! عرفت السيد لأني سمعت عنه الكثير. يدعونك كونبابوس لأنك لا تحب سوى امرأة واحدة، غريب أن يحصل

هذا في باريس كأن لا وجود للنساء فيها . اما بعد ! هل المقصود من هذا الموضوع السيدة مارنيف التي اختارها كروفيل ؟ . . . هيا ، سيدي ، اشكر القدر بدلاً من قذفه بالاتهامات . . . انها واحدة تافهة واعرف تصرفاتها عن كثب .

ـ آه ، ياه ! قالت كاراباين للسيدة نوريسون التي دست في يدها ورقة وهي تقبلها ، انت لا تعرفين البرازيليين ، هذه رؤوس تصر على الأذية حتى الاعماق . . . كلما تضاعفت غيرتهم ، احبوا ان يكونوا اكثر غيرة . ان السيد يتحدث عن مجزرة ، لكنه لن يقتل ، لأنه عاشق ! واخيراً أتيت بالسيد البارون الى هنا لاقدم له البراهين التي تثبت نكبته التي حصلت عليها بواسطة هذا الصغير ، ستانبوك . كان مونتيس ثملاً ويصغي كأن الامر لا يعنيه .

راحت كاراباين تخلع معطفها الفرو ثم قرأت نهخة عن الرسالة التالية :

« حبيبي ، سيتوجه هذه الليلة للعشاء عند بومبينو ويأتي ليأخذني من الأوبرا عند الحادية عشرة . سأرحل عند الخامسة والنصف وأظن اني سأجدك في فردوسنا حيث تؤمن العشاء من الميزون دور . ارتد ملابسك بحيث يمكنك ايصالي الى الأوبرا . اربع ساعات نقضيها معاً . الأفضل ان تعيد لي هذه الكلمة الصغيرة ، ليس لأن فاليري لا تثق بك ، ساعطيك حياتي وثروتي وشرفي غير اني أخاف مهازل القدر »

ـ تفضل ايها البارون ، هذه رسالة غرامية مرسلة في الصباح الى الكـونت دي ستينبوك ، اقـرأ العنوان ! واحرق الأصل حالاً .

قلب مونتيس الورقة وتعرف عـلى الخط فصعق من هذه الحقيقة متضايقاً جداً .

ـ آه ! لمصلحة من تمزقين قلبي ؟ دفعت غالياً للحصول على هذه الرسالة مدة من الزمن كي تستنسخيها؟ قال وهـو يرمق كارابين .

ـ ايها الأحمق الكبير ! قالت كارابـين باشـارة من السيدة نوريسون ، الا ترى هذه المسكينة سيداليـز . . . تلك الطفلة البالغة ستة عشرة عاماً والتي تحبك منذ ثلاثة أشهر حابسة نفسها عن الأكل والشرب ، غارقة في الغم لأنها لم تحصل بعد منك على أقل شارد من نظراتك .

وضعت سيداليز محرمة على عينيها وبدا عليها انها تبكي .

ـ انها غاضبة ، رغم مظهر البراءة البادي عليها ، انها تشهد الـرجل المتيمـة به علق بـاذيال امـرأة شريـرة ، ثم اضـافت كارابين : وستقتل فاليري .

ـ اوه ! قال البرازيلي ، هذا الأمر يعنيني .

ـ ان تقتلِ . . . أنت ! يا صغيري ، قالت نوريسون ، هذا لا يخصك ابداً هنا .

ـ اوه ! استدرك مونتيس ، لست من هذا البلد . انا أعيش

علـى سفينة حيث اسخـر من قوانينكم ، امـا اذا قـدمت لي البينات . . .

ـ هكذا ! فالرسالة اذن لا قيمة لها ؟

ـ لا ، قال البرازيلي . لا اؤمن بالمخطوط أريد أن أرى .

ـ اوه ! ترى ! قالت كارابين التي فهمت تماماً اشارة أخرى من عمتها المزيفة ، سنعمل حتى ترى يا عزيزي النمر ، شرط ان . . .

ـ اي شرط ؟

ـ انظر الى سيداليز .

باشارة من السيدة نوريسون ، تطلعت سيداليز بحنان الى البرازيلي .

ـ هل من الممكن ان تحبها وتؤمن مصيرها ؟ سألت كارابين . امرأة بهذا الجمال تساوي قصراً كاملاً ! ستنقلب الى وحشٍ مفترس لو تركتها وشأنها وستترتب عليها ديون . ماذا يتوجب عليك ؟ قالت كارابين وهي تقرص ذراع سيداليز .

ـ تساوي ما تسـاوي ، قالت نـوريسون ، وجـوُد تاجـر يكفي .

ـ اسمعوا ! صاح مونتيس اذ لمح اخيراً هذه التحفة الانثوية العجيبة ، دعوني أرى فاليري .

ـ والكونت ستينبوك ، طبعاً ! قالت السيدة نوريسون .

مضت عشر دقائق والعجوز تراقب البرازيلي ، رأت فيه الآلة الجاهزة لتنفيذ جريمة القتل والتي تحتاج اليها خاصةً وانها كشفت فيه سذاجته وعمى قلبه حتى انه لا يأخذ حذره من الذين يسوقونه ، فتدخلت أخيراً .

ـ سيداليز ! عزيزي البرازيلي ، هي ابنة اخي ، والشأن يعنيني نوعاً . كل ما حدث كان وليد عشر دقائق ، لأن واحدةً من صديقاتي هي التي تؤجر الكونت ستينبوك الغرفة المفروشة حيث تتناول فاليري في هذه اللحظة قهوتها ، واي قهوة غير أنها تدعو تلك قهوتها. اتفقنا إذاً أيها البرازيلي! إني احبّ البرازيل، فهي بلاد حارة. ماذا سيكون مصير ابنة أخي؟

ـ عزيزتي النعامة! قال مونتيس الذي لطمته قبعة السيدة نوريسون، قاطعتني. إذا يسّرت لي رؤية... رؤية فاليري وهذا الفنان معاً...

ـ بما أنك تنوي أن تكون معها، قالت كارابين، فليكن..

ـ حسناً! آخذ هذه النورماندية وأسير بها إلى...

ـ إلى أين؟ سألت كارابين.

ـ إلى البرازيل! أجاب البارون، سأجعل منها زوجة لي. ترك لي عمي عشرة فراسخ مربعة من الأرض التي لا يجري عليها بيع، لهذا السبب ما زلت احتفظ إلى الآن بملكية هذا المسكن ، عندي فيه مئة زنجي، لا أحد غير الزنوج والزنجيات وصغارهم الذين اشتراهم عمي.

ـ ابن أخ صاحب زنوج!... قالت كارابين، بوجه متجهم، أمر متوقع سيداليز، ابنتي، هل أنت زنجوية؟.

ـ آه! لنكفَّ عن المزاح، يا كارابين، قالت نوريسون. يا للشيطان! أنا والسيد في مهمة أنا والسيد.

ـ لو اتخذت فرنسية مرة أخرى لأستأثرت بها لوحدي، عقَّب البرازيلي. أحذِّركم من هذا، يا آنسة، أنا ملك، لكن لست ملكاً دستورياً، أنا قيصر، اشتريت جميع عمالي، ولا أحد يخرج من مملكتي التي تبعد مئة فرسخ عن أيِّ مسكن، هي مسورة بالأدغال، من جهة الداخل ومفصولة عن الشاطىء بصحراء شاسعة كبلادكم فرنسا.

ـ أفضل تخشيبة هنا! قالت كارابين.

ـ هذا ما كنتُ أفكر به، أجاب البرازيلي، لأني بعت الأراضي وكل ما كنت أملكه في ريو دو جينيرو لاستعادة السيدة مارنيف.

ـ لا أسفار مجانية. قالت السيدة نوريسون، من حقك أن تحب، خاصة وأنك جميل جداً... أوه! أنه وسيم، قالت موجهة كلامها لكارابين.

ـ وسيم جداً، أجابت الغانية.

أخذت سيداليز يد البرازيلي الذي تخلَّص منها بما أمكن من البراعة واللباقة

ـ كنت عدت لاخطف السيدة مارنيف! تابع البرازيلي

معاوداً ادعاءاتـه، ولا تعرفـين لماذا قضيت ثـلاث سنوات في العودة؟.

ـ لا، أيّها الوحش، قالت كارابين.

ـ حسناً! قالت لي مراراً أنها تريد أن تعيش معي، وحيدة، في مكان مقفر.

ـ لم يعد متوحشاً، قالت كارابين وهي تقهقه. إنه من قبيلة الجوباريينن المتحضرين.

وكررت على مسمعي هذا القول كثيراً، تابع البرازيلي، غير عابىء بتهكمات الماجنة، فقمت بتنسيق مسكن فخم في وسط هذه الملكية الواسعة. عدت إلى فرنسا لأبحث عن فاليـري، وليلة لقائها. . .

ـ وهو لقاء محتشم، قالت كارابين، أحتفظ بالكلمة!

ـ أبلغتني لأنتظر موت هذا المسكين مـارنيف، ووافقت، وسامحتها لقبولها الولاء لميلو. لا أعلم ما إذا كان هذا الشيطان حصل على مبتغاه، لكن منذ تلك اللحظة أشبعت هذه المرأة كل نزواتي وكل متطلباتي وغير ذلك لم تفتح لي مجال لحظة ارتاب منها فيها.

ـ هذا! كثير جداً! قالت كارابين للسيدة نوريسون.

هزت السيدة نوريسون رأسها مشيرة بالموافقة.

ـ ثقتي بهذه المرأة، قال مونتيس الذي سالت دموعه، تعادل حبي لها. كدت أصفع الآن كل الناس ونحن على الطاولة.

ـ لاحظت ذلك جيّداً! قالت كارابين.

ـ إذا خَدعت أو إذا تزوجت أو إذا كانت في هذه اللحظة بين أحضان ستانبوك، فإنها تستحق ألف ميتة وساسحقها كما الذبابة.

ـ والشرطة، يا صغيري... قالت السيدة نوريسون وهي تضحك ضحكة عجوز محنكة.

ـ ومفوّض الشرطة والقضاة ومحكمة الجنايات والزلازل! قالت كارابين.

ـ أنت مغرور! يا عزيزي، أجابت السيّدة نوريسون التي كانت تريد معرفة مشاريع البرازيلي الثأرية.

ـ سأقتلها! الح البرازيلي ببرودة. آه! دعوتني الوحش!... وهل تعتقدين أني سأقتدي بتفاهة مواطنيك الذين يشترون السمّ من الصيادلة؟ فكرت ملياً بالثأر أثناء الوقت الذي استغرقته للوصول إلى منزلك، لكن شرط أن تكوني على حق في ادّعاءاتك ضد فاليري. واحد من زنوجي يحمل معه أضمن السموم الحيوانية، مرض مخيف أنجع من سم نباتي، لا شفاء منه إلاّ في البرازيل، سأعطيه لسيداليزالتي تنقله إليّ من جديد، ثم، عندما يصبح الداء في شرايين كروفيل وامرأته، سأكون أبعد من جزر الآسور مع ابنة أخيك التي سأشفيها ثم اتّخذها زوجة. نحن المتوحشين لنا أساليبنا! سيداليز، قال وهو يلتفت إلى النورماندية، هي الوحش الذي احتاجه، كم تريدين؟.

ـ مئة ألف فرنك! قالت سيداليز.

ـ تتكلم قليلاً، جيداً، قالت كارابين، للسيدة نوريسون، بصوت خافت.

ـ صرت مجنوناً! صرخ البرازيلي بصوت متقهقر وهو يهوي على أريكة. سأنفجر! لكن أريد أن أرى، مستحيل! رسالة مصوَّرة!... من يقول لي أنه ليس عملاً مزوراً؟ البارون هيلو يحب فاليري، قال وهو يتذكر حديث جوزيفا!... لكن إثبات عدم حبه لها، هو بقاؤها على قيد الحياة!... لن أدعها تحيا مع أحد إذا لم تكن بكاملها لي!...

بدا مونتيس للرائي والسامع مرعباً! كان يزأر ويتلوّى وكل ما كان يلمسه يتفتت وخشب الباليساندر يتحطم كالزجاج.

ـ ما هذا التخطيم! قالت كارابين وهي تلتفت إلى نوريسون. عزيزي تابعت، وهي تربّت على كتف البرازيلي، إن رولان ينظم أفضل القصائد عندما يكون ثائراً، لكن في الشقة، ولا يكون ذلك سوى نثر جميل...

ـ يا بني! قالت نوريسون وهي تنهض وتتوجه للوقوف مقابل البرازيلي المنهار، إني من مذهبك. عندما نحب بطريقة ما نتمسّك بالموت وتسدّدنا الحياة حباً. من يرحل يقتلع كل شيء، أليس كذلك أنه انهيار عام. تقديري واحترامي وموافقتي، خاصة لأسلوبك الذي سيجعلني زنجوية. لكنك عاشق وستتراجع!...

ـ أنا! . . . إذا كان في ذلك إهانة، فإني . . .

ـ أنك تثرثر كثيراً، في نهاية الأمر! أجابت نوريسون وهي تستعيد نفسها، أن الرجل الذي يريد الثأر والذي يسمي نفسه وحشي الأساليب يتصرف بشكلٍ مختلف. حتى نريك المرأة المقصودة في فردوسها، عليك أن تصطحب سيداليز وتتظاهر بالدخول إلى هناك نتيجة خطأ بريء دون أن يُلمَسَ أن في الأمر فضيحة! إذا كنت تريد الثأر يجب أن نسكر وتتظاهر باليأس وتتعثر بخليلتك، أمفهوم؟ قالت السيدة نوريسون وهي ترى البرازيلي ذاهلاً من هذه الآلية الدقيقة.

ـ لنذهب! أيتها النعامة، لنذهب. . . فهمت.

ـ إلى اللقاء، يا غزالتي، قالت السيدة نوريسون لكارابين ثم أشارت إلى سيداليز لتنزل مع مونتيس، وبقيت وحدها مع كارابين.

ـ الآن، يا نويعمتي، ما عدت أخشى إلاّ شيئاً واحداً، أن يخنقها، عندها أقع في مأزق حرج، لا يلزمنا سوى أعمال هادئة. أوه! اعتقد أنك ربحت رائعة من روائع رافاييل، لكن يقال أنها لمينيار. كوني هادئة، إنها أكثر جمالاً، قيل لي إن لوحات رافاييل كانت كلها قاتمة، بينما هذه ناعمة كلوحات جيرودي.

ـ لا أهتم إلا بالفوز على جوزيفا! صرخت كارابين، وسيان عندي في ذلك، أكانت لمينيار أو لرافاييل. لا، هذه السارقة كانت تملك اللآلىء.

١١٦

بيت صغير عام ١٨٤٠

سيداليز، مونتيس والسيدة نوريسون ركبوا عربة خيل كانت متوقفة أمام باب كارابين. دلّت نوريسون الحوذي على بيت في تجمع للايطاليين، حيث سيصلون بعد بضع دقائق، لأن، المسافة من شارع السان جورج تستغرق من سبع دقائق إلى ثمانٍ لكن السيدة نوريسون، أمرت بسلوك شارع لوبيلوتيه، والسير ببطء لاستعراض العربات المتوقفة.

- أيها البرازيلي! قالت نوريسون تطلّع جيداً حتى تتعرف على حاشية ملاكك وعربته أشار البارون بإصبعه إلى عربة فاليري لحظة مرور عربة الخيل أمامها.

قالت لهؤلاء الأشخاص ليأتوا في العاشرة واستقلت عربة إلى البيت حيث هي مع الكونت ستانبوك. تناولت العشاء هناك وستعود خلال نصف ساعة إلى الأوبرا. نسقت عملاً جيداً! قالت السيدة نوريسون. هذا يثبت لك كيف نالت منك طوال هذا الوقت.

لم يجب البرازيلي بل استحال إلى نمر استعاد برودة أعصابه

التي أثارت الإعجاب خلال العشاء. في الواقع كان هادئاً كما المفلس غداة تقديم الميزانية.

أمام مدخل البيت المشؤوم، وقفت عربة بحصانين، من تلك المسمّاة الشركة العامة نسبة لاسم المؤسسة.

- إبق في مقصورتك، قالت السيدة نوريسون لمونتيس. لا تدخل المكان هنا كما تلج المقهى، سيأتون لاصطحابك.

إن جنة السيدة مارنيف ودي ونسيسلاس لا تشبه أبداً بيت كروفيل الصغير الذي باعه كروفيل للكونت ماكسيم دي تراي؛ لأنه أصبح برأيه دون جدوى. هذه الجنة، جنة الكثير من الناس، هي كناية عن غرفة في الدور الرابع، تطل على السلم في بيت بمحاذاة تجمّع الإيطاليين. ولكل مسكن وعلى صحن الدرج ثمة غرفة مستعملة كمطبخ. وإذ أصبح المنزل نوعاً من الفنادق المؤجرة للحبّ السري بأسعار باهظة، فالمؤجرة الرئيسة، السيدة نوريسون الحقيقية، بائعة الهوى في شارع نوف ـ سان ـ مارك، كانت قدرت بحق القيمة الضخمة لهذه المطابخ، عندما حولتها إلى غرف للطعام.

كل واحدة من هذه الحجر، محصنة بجدارين ضخمين متاخمين ومطلّة على الشارع ومعزولة بشكل كامل بواسطة أبواب صفّاقة صفيقة لها إقفال مزدوج على صحن الدرج كان يمكن البوح بأسرار مهمة على العشاء دون التعرض لخطر استراق السمع، ولأجل مزيد من الأمان، كانت النوافذ مزودة بشبابيك

من الخارج ويصفوق من الداخل.

كانت الغرف تكلّف بسبب هذه الميزة الخاصة ثلاثمئة فرنك شهرياً. أن هذا المسكن العامر بالجنات والأسرار، كان مؤجراً بأربعة وعشرين ألف فرنك للسيدة نوريسون الأولى التي كان يدر عليها عشرين ألفاً في السنة سيئة كانت أم موفقة وكان يدفع أجر مدبّرتها (السيدة نوريسون الثانية) مع أنها لم تكن تدير البيت أبداً بنفسها.

كانت الجنة المؤجرة للكونت ستانبوك مفروشة بالسجاد العجمي، فلا تشعر الأقدام، التي تطأ السجّاد الأحمر اللامع ذات المربعات، بالصقيع أو بقساوة اللمس. الأثاث من كرسيين جميلين وسرير بمخدع واحد، نصفه مخبأ بطاولة عليها بقايا عشاء، حيث قنّينتان ذات سدادات طويلة وقنينة من نبيذ الشمبانيا مطفأة في ثلجها، تغرس الأوتاد في حقول باخوس التي زرعتها فينوس.

كانت فاليري أرسلت مقعداً ذات ذراعين بالإضافة إلى كرسيّ للتدفئة ومنضدة جميلة من خشب الورد مع مرآتها ذات إطار بومبادوري الطابع، ومصباح في السقف يعكس نوراً خفيفاً تضاف إليه أنوار شموع الطاولة والشموع التي تزين المدفأة.

هذا الرسم الاجمالي يصوِّر الحب السري في أبسط نسبه التي تطبع باريس عام ١٨٤٠، هيهات! وأسفاه، أية مسافة تفصلنا عن الحب الحر المجسد بشِباك فولكان، منذ ثلاثة آلاف سنة.

في تلك اللحظة التي كان فيها البارون وسيداليز يرقيان الدرج، كانت فاليري الواقفة أمام المدفأة حيث تشتعل حطبة، تتشبث بجسد ونسيسلاس..

إنها اللحظة حيث المرأة المعتدلة في سمنتها ونحولها، كما هي حال الرقيقة والأنيقة فاليري، تعرض مفاتنها الفائقة الطبيعة. البشرة الوردية، ذات المسحة الرطبة، تثير نظرة العيون الغارقة في النعاس. أنسيابات جسدها المستور قليلاً، تنم عنها الطيات البارزة للتنورة الداخلية وقماش المشد، مما جعل المرأة عديمة المقاومة، كمن يجد على الرحيل. أن الوجه السعيد الباسم في المرآة، والقدم التي لا صبر عندها، واليد التي تمتد لتصلح بعثرة عقص الشعر المسرّح برداءة، والعيون حيث يفيض الشكران، إضافة إلى القناعة التي تشبه غروب الشمس وتضيء بالأصفر دقائق المحيّا، يجعل منها أيّ شيء في هذه الساعة مظهراً للذكرى!...

بطبيعة الحال كل من يلقي نظرة على أخطائه الأولى، يمكنه أن يفهم عبثيات هيلو وكروفيل دون أن يعذرهما.

النساء يعرفن جيداً مقدرتهن في هذه اللحظات، فيجدن الوقت مناسباً ليحصلن على ما يمكن تسميته بمكسب اللقاء.

١١٧

المشهد الاخير من المهزلة النسائية الراقية

ـ وهكذا . . . مضت سنتان ، وانت لا تعرف بعد كيف تسربل امرأة ، يا بولونياً مفرطاً في بولونيته . انها الساعة العاشرة يا عزيزي ونسيس . . . لاس ! قالت فاليري وهي تضحك .

في هذه اللحظة أسقطت بلباقة ، خادمة رذيلة ، بنصلة سكين ، مزلاج الباب الصفاق الذي كان يوفر الطمأنينة لآدم وحواء .

فتحت الباب فجأة ، لأن مستأجري هذه الجنات لا وقت لديهم الا القليل القليل ، واكتشفت واحدة من اللوحات الشيقة التي تعرض غالباً في الصالونات .

ـ هنا ، سيدتي ! قالت الفتاة .

ودخلت سيداليز يتبعها البارون مونتيس .

ـ ولكن في المكان بشر ! . . . عفوك سيدتي قالت النورماندية الحانقة

ـ كيف ! هذه فاليري ! صاح مونتيس الذي اقفل الباب

بعنف .

ان السيدة مارنيف التي أصبحت طريدة رعشة حادة لا يمكن اخفاؤها ، سقطت على مقعد قرب المدفأة .

دمعتان تدحرجتا من عينيها وجفتا سريعاً . نظرت الى مونتيس ، فلمحت النورماندية وراحت في ضحكة مصطنعة . ان كرامة المرأة المهانة أزالت الخطأ الحاصل في تبرجها الناقص فاقتربت من البرازيلي ونظرت اليه بفخر ، وكانت عيناها تلمعان كالسلاح .

ـ هكذا اذاً تضاعف وفاؤك قالت وهي آتية لتجلس قبالة البرازيلي ومشيرة الى سيداليز ، كيف ؟ انت الذي أغراني بوعود لو سمعها ملحد لعاد عن الحاده ، انت الذي من اجله فعلت الكثير وارتكبت الجرائم . انك على صواب يا سيدي ، انا لست بشيء امام فتاة بهذه السن وعلى هذا القدر من الجمال . أعلم ما ستقوله لي ، تابعت وهي تشير الى ونسيسلاس الذي كان ارتباكه الدليل الساطع لدحض أي زعم . هذا يعنيني لوحدي ، لو قدرت على حبك بعد هذه الخيانة المهينة ، اذ تجسست علي ، واشتريت كل درجة من هذا السلم ، وسيدة هذا البيت والخادمة وربما رين . . . أوه ! كم يسرني هذا ! لو عندي ، بعد ، بقية من الشعور لرجل نذل لكنت قدمت له مبررات من شأنها ان تضاعف الحب ! . . . لكن سأتركك يا سيدي ، مع شكوكك التي ستتحول الى ندم . . . ونسيسلاس ، فستاني من فضلك .

اخذت فستانها ، وارتدته ثم عادت وأنهت بهدوءٍ ارتداء ملابسها دون ان تعير البرازيلي انتباهاً وكأنها وحيدة تماماً .

ـ ونسيسلاس ! هل أنت جاهز ؟ تقدمني .

كانت بطرف عينها تتفحص مونتيس في المرآة ، فاعتقدت انها ستجد في شحوبه علامات الوهن التي تدفع بالرجال الاقوياء للاستسلام الى هوى المرأة ، لذلك اخذته بيده وهي تقترب منه حتى الالتصاق ليتمكن من تنشق تلك العطور المحببة التي ينتشي بها المحبون ؛ واذ أحست باختلاجاته ، رمقته بنظرة عتب .

ـ اسمح لك بنقل انجازك الى السيد كروفيل ، فلن يصدقك ابداً ، ولي الحق بالزواج منه ، سيكون زوجي بعد غد ! . . . وسيكون سعيداً جداً معي ! الى اللقاء ! حاول ان تنساني .

ـ آه ! فاليري ! صاح هنري مونتيس وهو يعصرها بين ذراعيه ، مستحيل ، تعالي معي الى البرازيل !

تطلعت فاليري الى البارون ثم التقت بخادمها .

ـ لو احببتني يا هنري ، باستمرار لصرت زوجتك ؟ في سنتين ، غير ان محياك ينم الآن عن تكتم شديد .

ـأقسم لك أنهم أسكروني وأن بعض الأصدقاء المزيفين رموا بهذه المرأة بين يدي وكل ما ترينه من صنع الصدفة.

ـوهل بإمكاني أن أعفو عنك؟ قالت وهي تبتسم.

ـوهل ستتزوجين في يوم من الأيام؟ سأل البارون وهو يعاني من ألم

ـدخل من ثمانين الف فرنك! قالت بحماس وسيط التفكّه، وكروفيل يحبّني حتى الموت!

ـآه! أفهمك جيداً ، قال البرازيلي:

ـحسناً! سنتفق في بضعة أيام.

ونزلت مزهوّة بانتصارها، تاركة البارون متسمّراً في مكانه لحظة.

ـلا وساوس عندي. كيف! هذه المرأة تنوي استخدام حبّها للتخلص من هذا الأحمق كما فعلت عندما حطمت مارنيف!... قدري أن أكون أداة الغضب الإلهي...

١١٨

الثأر يقع على فاليري

بعد يومين ، بعض مدعوي دي تيلي الذين أغضبوا السيدة مارنيف غضباً شديداً حضروا إلى مائدتها بعد ساعة من ظهورها بمظهر جديد اذ استبدلت اسمها لمجد عمدة باريس.

هذه الخيانة اللغوية واحدة من الاستخفافات المألوفة جدّاً في الحياة الباريسية.

كانت فاليري سعيدة برؤية البارون البرازيلي في الكنيسة، دعاه كروفيل بعدما صار زوجاً حقيقياً مستوفي الشروط.

لم يدهش أحداً وجود مونتيس على الفطور. اعتاد هؤلاء الناس المثقفون على سفالات العواطف وصفقات الملذّات.

ـبدا الحزن واضحاً في أعماق استانبوك الذي بدأ يحتقر تلك التي حسبها ملاكاً، يتسامى في حقل الذوق، أما البولوني فكأنه كان يقول إن كل شيء انتهى بينه وبين فاليري.

وليزبت جاءت لتقبّل عزيزتها السيدة كروفيل معتذرة عن تمكنها من المشاركة في الفطور بسبب حالة أدلين السيئة.

-إطمئني، قالت لفاليري وهي تغادرها سيستقبلونك عندهم وستستقبلينهم عندك. عندما سمعت البارونة: مئتا ألف فرنك، أغمى عليها وشارفت على الموت. أوه إنك تمسكينهم جميعاً بهذه الحكاية، على أن ترويها لي!...

بعد شهر من زواجها، كانت فاليري في خصامها العاشر مع ستانبوك الذي طلب منها شروحات عن هنري مونتيس وذكّرها بأقواله اثناء مشهد الفردوس. وإذ لم يكن راضياً عن إذلال فاليري بعبارات الاحتقار، عزم على مراقبتها بشكل ما كان يسمح لها بأية لحظة تتنفس فيها الحرية، إضافة إلى أنها كانت تعاني من انسحاق، مصدره غيرة ونسيسلاس وملاطفة كروفيل.

إن فاليري بعدت عنها ليزبت التي كانت تستعين بإرشاداتها الصائبة، تصرّفت بشكل أنّبت فيه بقسوة ونسيسلاس، على المال الذي أعارته إياه.

استفاقت كرامة ستانبوك فلم يأو أبداً الى قصر كروفيل. أما فاليري فبلغت هدفها إذ كانت ترمي إلى إبعاد ونسيسلاس ليتسنىّ لها استعادة حريتها.

انتظرت فاليري قيام كروفيل برحلة متوجبة عليه للكونت بيينو ليشاوره بموضوع ترشيح السيدة كروفيل، لتحدد موعداً للبارون ، تودّه يوماً كاملاً حتى تعرض التبريرات التي يفرض أن تضاعف من حب البرازيلي.

صباح ذلك اليوم بدا لرين أن ضخامة المبلغ الذي قبضته، ورّطتها بجريمة، فسعت لتحذّر سيدتها التي من الطبيعي أن تهتم بها اكثر من المجهولين، غير أنهم كانوا هدّدوها بالجنون والسجن في سالبيترييار لدى إفشائهما السر فوقفت خجولة مرتبكة وقالت:

ـالسيدة في منتهى السعادة الآن، لكن لماذا ظلّت على اهتمامها بهذا البرازيلي؟ إني ارتاب منه.

ـهذه هي الحقيقة يا رين! سأقوم بطرده.

ـآه يا سيدتي! إني مرتاحة لهذا القرار، هذا البرازيلي يخيفني وأخاله قادراً على كل شيء.

ـوهل أنت مجنونة! يجب أن نخاف عليه عندما يكون حدّي.

في هذا الوقت دخلت ليزبت وبادرتها فاليري:

ـعزيزتي الرقيقة! لم نتقابل منذ زمن طويل! إني يائسة جداً لأن كروفيل يرهقني ويسئمني، وتخلّ عنيّ ونسيسلاس لأننا تخاصمنا.

ـأعرف ذلك ، ومن أجله جئت: التقاه فيكتوران عند الخامسة مساء في اللحظة التي كان يدخل الى مطعم حقير في شارع فالوا ومالأه حالاً وأوصله الى شارع لوي لوكران... عندما رأت أورتنس ونسيسلاس هزيلاً بائساً رث الملبس، مدّت له يدها للمصافحة: أرأيت كيف تخونني؟

ـالسيّد هنري يا سيدتي! همس الخادم في أذن فاليري.

ـدعيني يا ليزبت، سأشرح لك كل شيء غداً!...

ولكن فاليري لن يمكنها ان تشرح لأحد شيئاً بعد الآن.

١١٩

الأخ الذي يجمع الصدقات

عند أواخر أيار كان معاش البارون هيلو تحرّر بفضل المدفوعات التي قام بها فيكتوران تباعاً للبارون دي نوسانجان. والكل يعلم ان الرواتب نصف السنوية لا تسدد الا بابراز شهادة سكن وبما أن إقامة البارون هيلو مجهولة، فالمعاشات المعترض عليها لمصلحة فوفيني بقيت مكدّسة في الخزينة.

وقّع فوفيني فك الرهن ورفع يده. بعد الآن أصبح من الضروري حضور صاحب الحق لقبض المؤخر.

والبارونة بفضل عناية الدكتور بيانشون استعادت صحتها ومقدرتها.

ساهمت جوزيفا الطيبة برسالة كان خطها أفشى سراً اشتراك

الدوق هيروفيل في تحريرها ، في شفاء أدلين الكامل.

وهذ ما جاء في رسالة المغنية المحترمة، بعد أربعين يوماً من التحريات النشيطة:

«سيدتي البارونة.

«إن سيدي هيلو يعيش منذ شهر آب في شارع برناردان مع ايلودي شاردان، عاملة الرتي التي كان خطفها من الآنسة بيجو، لكنه رحل تاركاً هناك كل ما يملك ودون أن يتلفظ بكلمة. فلم نتمكّن من أن نعلم وجهته. لم أيأس، كلّفت رجلاً لاحقه وهو يعتقد أنه التقاه في جادة بوردون.

«اليهودية المسكينة ما زالت على الوعد الذي قطعته على الدين المسيحي. فليصلِّ الملاك من أجل الشيطان! هذا ما يجب أن يحدث أحياناً في السماء.

«للكِ، أعمق الاحترام الدائم، من خادمتك المتواضعة.

جوزيفا ميراه»

سمح المحامي هيلو أفري لنفسه بالعودة إلى أشغاله السياسية والقضائية، عندما لم يسمع أي كلام على السيِّدة نوريسون الرهيبة ورأى حماه تزوّج وابن حماه عاد إلى عائلته، ولم يشعر بأي كدر من حماته الجديدة، وأن صحة أمه تتحسن باستمرار. إنها الحياة الباريسية تتبدّل وتسير سريعة حيث الساعات تُحسبُ أياماً.

ذات يوم كلّفه مجلس النواب بوضع تقرير فاضطر عند انتهاء الدورة إلى تمضية ليلة كاملة في العمل.

عندما عاد إلى مكتبه في التاسعة، انتظر خادمه ليحمل له القناديل المكمّمة وفكّر بأبيه. لام نفسه لأنه ترك مسألة البحث للمغنيّة وحدها تهتم بها، عندها رأى عبر النافذة وعلى ضياء الغسق، رأس رجل جليل، ذي جمجمة صفراء مغطاة بالشعر الأبيض.

ـ ما قولك يا سيّدي العزيز بأن تسمح لناسك مسكين يدخل إليك من الصحراء ومكلّف بجمع التبرعات لترميم مأوى مقدّس.

إن هذه الرؤيا وهذا الصوت اللذان ذكرا المحامي فجأة نبوءة نوريسون الرهيبة، هزّا مشاعره فارتعش..

ـ أدخلوا هذا العجوز:

ـ سينشر الطاعون في مكتب سيدي، أجاب الخادم، إنه يرتدي ثوباً بنياً لم يبدِّله منذ رحيله عن سوريا ولا قميص على جسده...

ـ أدخلوا هذا العجوز، قال المحامي للمرة الثانية.

دخل العجوز وتفحّص فيكتوران بعين موجسة هذا الناسك المزعوم الواصل من الحج، فرأى نموذجاً بديعاً لأولئك الرهبان يرتدون الثياب الرثّة كثياب الصعاليك وصنادل من خرق الجلود. الراهب نفسه خرقة بشرية. كان المحامي على حق عندما تحصّن بالحذر فوبّخ نفسه لأنه آمن بشعوذات السيّدة

نوريسون.

ـ ماذا تطلب مني؟.

ـ ما تعتقده متوجباً عليك.

تناول فيكتوران مئة فلس من كومة النقود وقدّمها لهذا الطارىء.

على حساب خمسين ألف فرنك، هذا قليل، قال المتسوِّل الآتي من الصحراء.

هذه الجملة بدّدت كل وساوس فيكتوران.

ـ وهل وفت السماء بوعودها؟ قال المحامي وهو يقطِّب حاجبيه.

ـ الشك إهانة يا بني! عقَّب الناسك، أمّا إذا كنت لا تنوي أن تدفع إلاّ بعد اتمام مراسم الجنازة، فهذا من حقك وسأعود بعد ثمانية أيام.

ـ مراسم الجنازة! صاح المحامي وهو ينتصب واقفاً.

ـ نحن في الطريق، قال العجوز وهو ينسحب، والموتى يسيرون بسرعة إلى باريس! عندما أراد هيلو (الذي حنا رأسه)، أن يجيب، كان العجوز الرشيق اختفى.

ـ لم أفهم كلمة، قال هيلو الابن في نفسه... ولكن خلال ثمانية أيام سأطلب إليه أبي إن لم نكن عثرنا عليه. من أين تختار السيِّدة نوريسون (هكذا تدعى) عمّالها هؤلاء.

١٢٠
اقتراحات طبيب

في اليوم التالي، سمح الدكتور بيانشون للبارونة بالنزول إلى الحديقة، بعد أن عاين ليزبت، التي كانت مجبرة، منذ شهر، بالتزام غرفتها لمرض خفيف في شُعب رئتيها.

والدكتور العالم الذي لم يتجرأ على البوح بما يفكِّر به عن مرض ليزبت، قبل أن يلحظ العوارض الحاسمة، رافق البارونة إلى الحديقة ليدرس، بعد شهرين من العزلة، مفعول الهواء الطلق على التوتر العصبي الذي كان يهتم بمعالجته. أن شفاء مرض العصاب هذا كان يدغدغ نبوغ بيانشون.

وعندما لاحظت البارونة وأولادها أن هذا الطبيب العظيم والشهير يمنحهم شيئاً من وقته، راحوا يتحدّثون معه ويتحاورون.

ـ يبدو أن حياتك مليئة بالعمل حتى الحزن، قالت البارونة، أعرف ما يعنيه قضاء أيام في معاينة البؤس والآلام الجسدية.

ـ سيِّدتي، أجاب الطبيب، أنا لا أجهل الأحوال التي تدعوك أعمال الرحمة إلى التأمل فيها، لكن ستعتادين عليها مع الزمن كما يحصل معنا جميعاً. هذه هي السنّة الاجتماعية. لولا ترويض مفهوم الدولة لقلب الإنسان لكان وجود المرشد والقاضي والمحامي من المستحيلات. هل نحيا دون إتمام هذه الظاهرة؟ ألا يتعرّض الجندي، في زمن الحرب لمناظر أكثر شراسة مما في حياتنا العادية؟ كل المحاربين الذين خاضوا غمار النار، طيّبون. أما نحن فنشعر بالسعادة عندما نحصل على نتيجة مُرضية بعد المعالجة وأنت تتمتّعين بالراحة النفسية عندما تنجدين عائلة من المجاعة والفساد والبؤس وتؤهلينها للعمل والحياة الإجتماعية؛ إذ كيف يتعزى القاضي ومفوّض الشرطة والمحامي، هؤلاء الذين يقضون حياتهم في البحث عن تعقيدات الرغبات الشريرة التي تظهر كالوحش الاجتماعي المفترس، الذي نشعر بالأسى إن لم يلق الفوز ودون أن تزوره التوبة في يوم من الأيام؟ نصف المجتمع يقضي حياته بمراقبة النصف الآخر. لي، منذ زمن بعيد، صديق محام، اعتزل الآن المهنة وكان يقول لي أنه منذ خمسة عشر عاماً كان كتاب العدل والمحامون يحذرون زبائنهم وأخصام زبائنهم. ألم يتعرّض السيد ابنك، وهو محام، للشبهات من بعض الذين كان يتولىّ الدفاع عنهم؟.

ـ أوه! معظم الأحيان! قال فيكتوران وهو يبتسم.

ـ ما مصدر هذا الشر المتأصّل؟ سألت البارونة.

ـ نقص في التديّن، أجاب الطبيب، واجتياح المادة التي ليست إلّا الأنانية المتجسدة، لم يكن المال في ما مضى كلّ شيء كانوا يتبنّون قيمًا عليا تفوقه: كان النبل وكانت المهارة وكانت الخدمات المؤداة للدولة؛ غير أن القانون أقام اليوم، من المال معياراً عاماً واتّخذه أساساً للأهلية السياسيّة! بعض القضاة لا يمكن انتخابهم، فجان جاك روسّو لن يكون ممكناً انتخابه! إن المواريث التي لا تنفكّ تتوزّع توجب على كل واحد التفكير بنفسه وهو في عمر العشرين. لذلك فبين الحاجة لجمع الثروة وإفساد النظام، لا وجود للحواجز لأن فرنسا تخلو من الشعور الديني رغم الجهود المشكورة التي يبذلها البعض لإصلاح الكثلكة. هذا ما يعتقده الذين يراقبون، مثلي، دواخلَ المجتمع ودقائقه.

ـ يبدو أن تمتعك بالحياة ضئيل، قالت أورتنس.

ـ الطبيب الحقيقي يشغف بالعلم ويتمسّك بهذا الشعور تمسّكه بيقينه بفائدته الاجتماعية. هاكم أنا، تشاهدونني غارقاً في نوعٍ من اللذة العلمية، بينما آخرون من السذّج لا يرون بي إلا رجلاً بلا قلب.

سأعلن غداً في أكاديمية الطب عن اكتشاف. أراقب في هذا الوقت مرضاً غامضاً، هو مميت حتى الآن ولا حيلة لنا إزاءه في المناخات المعتدلة، لأن شفاءه ممكن في الهند. كان سائداً في

العصور الوسطى. معركة ممتعة، معركة امرأة وزوجها! أليسوا أقرباءٍ لكم، فسيّدتي ابنة السيد كروفيل، قال موجهاً حديثه إلى سيليستين.

ـ ماذا! وهل مريضك أبي؟ أيسكن في شارع باربيت دي جوي؟.

ـ إنه هو، أجاب بيانشون.

ـ وهل المرض مميتٌ؟ قال فيكتوران مضطرباً....

ـ إني ذاهبة عند أبي! صرخت سيليستين وهي تتأهّب.

ـ أمنعك من هذا بوحي من واجبي الطبي، يا سيدتي، أجاب بيانشون بهدوء. إن المرض معد.

ـ وهل أنت جادٌّ يا سيدي، أجابت المرأة الشابة؟ أتعتقد أن واجبات الأبنة ليست أرفع من واجبات الطبيب؟

ـ سيدتي، الطبيب يعرف كيف يتجنب العدوى، وتفانيك العاطفي في الإخلاص يثبت لي أنك لن تستطيعي الحذر.

وقفت سيليستين وعادت إلى بيتها، حيث ارتدت ملابسها للرحيل.

١٢١

يد الله ويد البرازيلي

ـ سيّدي، قال فيكتوران لبيانشون، هل تأمل في إنقاذ السيد والسيدة كروفيل؟.

ـ أرجو ذلك ولست متأكداً والحدث لا تفسير له عندي... هذا المرض خاص بالزنوج والشعوب الأميركية التي يختلف تركيب جلدها عن جلد البيض؛ ولا يمكنني إظهار أي رابطة بين السود والنحاسيين والخلاسيين وبين السيد والسيدة كروفيل. وإذ يبدو لنا هذا المرض ممتعاً جداً، فهو رهيب بالنسبة للعالم كلّه. هذه المخلوقة المنكودة الحظ، التي، كما يقال، كانت جميلة، ونالها العقاب نتيجة إثمها، لأنها اليوم غارقة في قبح مخجل!... أسنانها تتساقط وشعرها كذلك، إنها شبيهة بالبْرص، وترتعب من نفسها، يداها تخيفان الناظر إليهما ورِمتا واكتستا ببثور خضراء وأظافرها المنسلخة انزرعت في قروحها التي كانت تنهشها بها وأخيراً فإن أطرافها تقوّضت في القيح الذي يتأكلها.

ـ ما سبب كل هذه العوارض؟ سأل المحامي.

ـ أوه! قال بيانشون، السبب في إفساد سريع للدم الذي يتفكّك بسرعة رهيبة، آمل أن أسيطر على الدم. أجريت عليه التحليل وسأعود إلى البيت لأتبينّ نتيجة عمل صديقي البروفسور دوفال، الكيميائي الشهير، لأباشر في استخدام واحدة من المحاولات اليائسة التي نجازف بها أحياناً لتحدّي الموت.

ـ يد الله هناك! قالت البارونة بصوت بالغ التأثر. بالرغم ممّا سببته لي هذه المرأة من آلام دعتني في بعض لحظات الجنون لأطلب العدالة الإلهية لتقتصّ منها، فأني أتمنى، يا إلهي! بأن تنجح يا سيدي الطبيب.

أحسّ هيلو الإبن بدوخة وكان ينقّل طرفه بين أمه وأخته والطبيب وهو يرتجف خوفاً من اكتشاف ما يجول في فكره، واعتقد نفسه سفّاحاً. أما أورتنس فوجدت الله عادلاً جداً.

عادت سيليستين لتطلب إلى زوجها مرافقتها.

ـ إذا كنت صمّمت يا سيدتي وأنت يا سيدي فإني أوصيكما بأن تبقيا على خطوة من سرير المريضين، هذا كل ما يجب الانتباه إليه. لا تحاولا، لا أنت ولا إمرأتك تقبيل المحتضر! يجب عليك يا سيد هيلو مرافقة إمرأتك كي تمنعها من مخالفة هذه التعليمات.

توجهت أدلين وأورتنس اللتان بقيتا وحدهما لملازمة ليزبت. إن غضب أورتنس على فاليري كان عنيفاً جداً، حتى أنها لم تكن قادرة على كبت الانفجار.

ـ ابنة عمي! أمي وأنا انتقمنا!... ستندم هـذه المخلوقة السامّة، إنها في حالة من الانحلال.

ـ أورتنس، قالت البارونة، لستِ مسيحية في هذه اللحظات يجب أن تصليّ لله كي يتكرّم ويلهم هذه البائسة على التوبة.

ـ مـاذا تقولـين؟ صاحت بتّ وهي تنهض من كـرسيّهـا، تتحدّثين عن فاليري.

ـ أجل، أجابت أدلين، حُكم عليها بالموت بمرض رهيب، يكفي وصفه لإثارة القشعريرة.

اصطكت أسنان النسيبة بِتْ وأخذتها دفقات من العرق البارد وتعرّضت لصدمة هائلة كشفت عن عمق صداقتها لفاليري.

ـ سأقوم بزيارتها.

ـ لكن الطبيب منعك من الخروج !

ـ سأذهب مهما كانت النتائج! ما حال هذا المسكين كروفيل. أنه يحب إمرأته....

ـ يموت أيضاً، استدركت الكونتيسة ستانبوك، آه! كل أعدائنا سقطوا بين يدي الشيطان.

ـ بين يدي الله!.... يا بنيتي....

ـ ارتـدت ليزبت مـلابسها، ووضعت كشميرها الأصفـر الشهير، ومعطفهـا المخملي الأسـود وانتعلت حذاءهـا العالي،

وتمرّدت على تحذيرات أدلين وأورتنس وذهبت وكأنها مدفوعة بقوة مستبدّة.

١٢٢
كلمة فاليري الأخيرة

عندما وصلت ليزبت إلى شارع باربيت بعد لحظات من دخول السيّد والسيدة هيلو، وجدت سبعة أطبّاء كان بيانشون انتدبهم لمراقبة الحالة الفريدة ثم انضمّ إليهم لاحقاً. كان هؤلاء الأطباء يتجادلون حول المرض وهم واقفون في الصالون. من وقت لآخر كانوا يدخلون بالتناوب، تارة إلى غرفة فاليري وطوراً إلى غرفة كروفيل لإجراء المعاينة ويعود كل واحد بحجة مستندة على هذه المعاينة السريعة.

رأيان خطيران كانا يتقاسمان أمراء العلم هؤلاء.

أحدهم تفرّد برأيه وكان يصرّ على عملية تسمّم ويتحدث عن ثأر خاص وينكر وجود المرض الذي يحكى عنه في العصور الوسطى. أما الفريق الآخر، فريق بيانشون فكان يرى أن هذا المرض ناتج عن فساد الدم ومصدره حالة مرضية مجهولة. كان بيانشون يحمل في حقيبته نتيجة تحليل الدم الذي أجراه البروفسور دوفال.

كانت الوسائل العلاجية، رغم نتائجها التجريبية والميؤوسة، ترتبط بحلّ هذه المسألة الطبيّة ارتباطاً كاملاً.

تحجّرت ليزبت على ثلاث خطوات من السرير حيث تحتضر فـاليري بحضرة كاهن من أتبـاع القديس تـومـا الأكـويني، الشاخص قبالة وسادة صديقتها وراهبة من أخوية الرحمة تقدم لها الرعاية والعناية.

عثر الدين على نفس لينقذها من كومـة العفن، الذي لم يحتفظ من حواس المخلوقة الخمس إلّا بالرؤ ية. راهبة الرحمة التي ارتضت وحدها رعاية فاليري، كانت تقف على مسافة منها.

وهكذا حضرت الكنيسة الكاثـوليكية، هـذا الجسم الإلهي، الذي ينشط دائمًا بوحي من التضحية بكل شيء بجودتها الروحية والجسدية، لتشهد المنازعة الفاسقة والفاسدة مغدقةً عليها بحلمها المديد، كنوز رحمتها التي لا تنضب.

رفض الخدّام الملتاعون دخول غرفة السيد أو السيدة؛ إنهم لا يفكّرون إلّا بأنفسهم بعد أن رأوا أسيادهم أصيبوا حقاً بالمرض العضال: الالتهاب كان حاداً جداً، وعلى رغم النوافذ المفتوحة والعطور الزكية، لم يتمكن أي شخص من المكوث وقتاً طويلاً في غرفة فاليري، فقط الدين وحده كان يسهر فيها.

كيف لا؟ تتساءل امرأة، تتمتع بعقلٍ راقٍ مثل فاليري، عن المصلحة التي تشدُّ ممثلاً الكنيسة على البقاء فيها؟ لذا سمعت

المحتضرة نداء الكاهن، مسّت التوبة هذه النفس المنحرفة مساً مساوياً للأذية التي خلّفها المرض الجشع. في هذه الحال، أبدت فاليري الرقيقة مقاومة أقل بكثير من كروفيل إزاء هذا المرض. لذا كان من الطبيعي أن يعاجلها الموت أولاً، لأنها كانت الأولى أصيبت بالمرض.

ـ لو لم أكن مريضة،لكنت أتيت للعناية بك، قالت أخيراً ليزبت بعد أن تبادلت نظرة مع صديقتها المنهارة. مضى عليّ خمسة عشر أو عشرون يوماً وأنا ملازمة غرفتي، لكن عندما أعلمني الطبيب بحالتك جئت مسرعة.

ـ مسكينة أنت يا ليزبت، ما زلت تحبينني! أرى ذلك. اسمعي! لم يبق لي سوى يوم أو يومين أفكر فيهما، ولا يمكنني أن أقول أعيش فيهما. فكما ترين لا جسم لي بل أنا الآن كومة من الوحل... لا يجوز لي أن أنظر إلى المرآة... لا أملك غير ما استحق. آه! أودّ أن أصلح الذنوب التي ارتكبتها حتى استحق الشكران.

ـ أوه! قالت ليزبت، كلامك هذا يعني أنك مائتة حقيقة!
هنا تدخّل الكاهن وقال:

ـ لا تمنعي هذه المرأة عن التوبة، دعيها في أفكارها المسيحية.

ـ لم يبق شيء! قالت ليزبت المرتاعة، لا أستطيع التعرف على

عينيها، ولا على فمها، لم يبق أثر واحدٌ منها! فقدت رشدها! أوه إن ذلك لمخيف.

ـ لا تعرفين، أجابت فاليري، ما الموت وماذا يعني أن تكوني مجبرة على التفكير باليوم الأخير وماذا يمكن أن تجدي في النعش: ديدان في الجسد، وهل للنفس نصيبها منها؟... آه يا ليزبت! أشعر أن ثمة حياة أخرى!... أمر بكليتي بحالة من الذعر تمنع عني الاحساس بأوجاع جسدي المتفكك!... إنها أنا التي كانت تقول وهي تهزأ من كروفيل وتسخر من قديسة، أن انتقام الربّ سيتجلّ بكل أشكال الويلات... تلاحظين كم كنت نبيّه!... لا تستخفي بالأشياء المقدسة يا ليز بت، إن كنت تحبينني، اقتدي بي وتوبي.

ـ أنا! قالت اللورينة، شهدت الانتقام في أيّ مكان من الطبيعة. فالحشرات تهلك بهدف تلبية حاجة الانتقام تلافيا لمهاجمتها! وهؤلاء السادة، قالت وهي تشير إلى الكاهن، ألا يقولون لنا أن الله ينتقم وأن انتقامه يدوم إلى الأبد!..

رمق الكاهن ليز بت بنظرة ملؤها النعومة وقال لها ـ أنت ملحدة يا سيدتي.

ـ ألا ترى حالتي التي أتخبّط بها؟. قالت له فاليري.

ـ ومن أين أتتك هذه الغرغارينا؟ سألت العانس التي استمرّت على شكوكها القروّية.

ـ أوه! استلمت رسالة من هنري جعلتني لا أشك أبداً بمصيري... قتلني أنه الموت يدهمني في الوقت الذي كنت أود أن أعيش فيه بكرامة. إنه موت الرعب... ليز بت، لا تفكّري بالانتقام! كوني طيّبة مع هذه العائلة التي أوصيت لها بكل ما يسمح لي القانون بالتصرف به! انصرفي يا عزيزتي، وإن كنت الكائن الوحيد الذي لم يبتعد عنيّ نتيجة الرعب، أرجوك انصرفي ودعيني... لم يبق لي غير بعض الوقت للمثول بين يدي الله.

ـ إنها تتصدّى للمعركة، حدّثت ليز بت نفسها وهي على عتبة الغرفة.

إن أعنف شعور نعرفه حتى ولو كان صداقة امرأة لأمرأة، ليس له الثبات البطولي الذي للكنيسة. غادرت ليزبت الغرفة مخنوقة بغبار العفن الضارّ.

رأت الأطباء يكملون جدالهم؛ وفي الأخير انتصر رأي بيانشون واقتصر النقاش على طريقة مباشرة التجربة.

ـ سيكون أروع تشريح حتى اليوم، قال احد المعارضين، وبين ايدينا موضوعات لاجراء المقارنات.

رافقت ليزيت، بيانشون، الذي اقترب من سرير المريضة، دون ان يبدو عليه اكتراث للروائح الكريهة التي تنبعث من هناك. وقال لفاليري:

ـسيدتي، سنجري عليك تجربة طبّية قوية يمكن ان تنقذ حياتك.

ـواذا انقذت ، هل سأعود الى جمالي السابق؟

ـربما! قال الطبيب العالم.

ـهذه «الربما» معروفة! قالت فاليري. سأكون كؤلئك النسوة اللواتي سقطن في النار! دعـوني للكنيسة! لا يمكنني الان ان أُرضي سوى الله! سأحاول ان اتصالح معه، فيكون لي هذا آخر دلال.

ـ انها آخر كلمة لفاليري، هل سألتقيها ! قالت ليز بِتْ وهي تجهش بالبكاء.

١٢٣

كلمات كروفيل الأخيرة

رأت اللورينية ان من واجبها المرور على غرفة كروفيل، حيث فيكتـوران وامرأتـه على ثـلاث خـطوات من سـريـر المصـاب بالطاعون.

ـليز بتْ! انهم يخفون عني الوضع الذي تُمر به زوجتي، انك آتية من زيارتها ، كيف هي؟

ـتحسنت وتعتقد انها ستنجو! أجابت ليز بت مجيزة لنفسها هذه الأكذوبة لتهدئة كروفيل.

ـآه! حسناً، كنت اخشى ان اكون سبب مرضها...

ـلن يمرَّ وكيلٍ متجول للعطورات دون عقاب. ان ضميري يؤنبني! ماذا يحلّ بي لو فقدتها؟ اني اعبد هذه المرأة.

حاول كروفيل ان يستقيم في مكانه وهو يقعد على قفاه.

ـاوه! عندما تتحسن حالتك وتشفى ! قالت سيليستين سأكون على استعداد يا ابي لاستقبال خالتي، انه نذر اتعهد به...

ـمسكينة انت يا عزيزتي سيليستين، اقتربي وقبليني!...

انطلقت سيليستين نحو أبيها فأمسك بها فيكتوران وهو يقول بهدوء:

ـأتجهل يا سيّدي ان مرضك معد...

ـهَذا صحيح، أجاب كروفيل، الأطباء يصفقون لأنهم وجدوا بي، لا أعرف أيّ طاعون يعود للعصور الوسطى وكانوا اعتبروه مفقوداً وهم الآن يطبلون له في كلياتهم... إن ذلك من الطرافة بمكان!

ـأبي، قالت سيليستين، كن شجاعاً وستتفوّق على هذا المرض.

ـإهدأوا يا أبنائي، فالموت يفكر مرتين قبل ان يصعق عمدة باريس! قال ببرودة ساخرة. وإذا كان قدر دائرتي ان تنّكب في غياب الرجل الذي شرّفها مرتين بانتخابه لها... (هه: تلاحظون أني أعبّر بسهولة!) سأعرف كيف أوضّب أمتعتي. إني وكيل متجّول سابق واعتدت الرحيل. آه يا أبنائي! ما زلت اتمتع بمعنويات عالية.

ـ أبي ، عدني بأنك ستوافق على زيارة رجال الدين لك هنا .

ـأبداً أجاب كروفيل، ماذا تريدين رضعت حليب الثورة، ليست لي عقلية البارون أولباخ ، لكن بي قوة نفسه. إني أكثر من أي وقت، الوصي على العرش والفارس الرمادي والأب ديبوا والماريشالريشيليو. إن زوجتي المسكينة التي فقدت رشدها أرسلت لي رجل جبّة، أنا المعجب ببرانجه ، صديق ليز يت وسليل فولتير وروسو.. قال لي الطبيب، وهو يجسّ نبضي ليعرف ما إذا كان المرض يقهرني: «هل التقيت سيدي الكاهن؟...» عندها فعلت كما فعل مونتيسكيو العظيم. أجل ، التفتّ الى الطبيب على هذا الشكل، قال وهو يجلس في وضعية خاصة باسطاً يده بقوة ورهبة، وقلت:

..... وهذا العبد قدم.

وعرض خدمته ولم يحصل حتى على نعم.

ـإن كلمة«خدمته» لثورية جميلة تثبت ان السيد الرئيس مونتيسكيواحتفظ عند احتضاره بكامل اناقة نبوغه، ذلك لأنهم

ارسلوا اليه يسوعيا!... احب هذا المقطع ... آه ! المقطع! وأيضاً ثورية جديدة.

كان هيلو الابن يتأمل حماه باكتئاب، وهو يتساءل اذا كانت الحماقة والتبجح لا يملكان قوة تعادل قوة العظمة الحقيقية للذات . ان الاسباب التي تحرك دوافع قوى النفس تبدو غريبة تماماً عن النتائج . وهل القوة التي يبذلها مجرم توازن القوة التي افتخر بها سامبسينتز وهو في طريقه الى الإعدام؟.

في نهاية الأسبوع، ووري جثمان السيدة كروفيل، بعد آلام لا مثيل لها، وبعد يومين لِحَقَ كروفيل بامرأته، وابطلت مفاعيل عقد الزواج، وورث كروفيل من فاليري.

في اليوم التالي للدفن، التقى بالراهب المحامي العجوز، واستقبله دون ان يفوه بكلمة، بسط الراهب يده وصافحه بهدوء، وبالهدوء نفسه ناوله الأستاذ فيكتوران هيلو ثمانين ورقة نقدية من فئة الألف فرنك، أُخذَت من المبلغ الذي وجد في خزانة اوراق كروفيل.

ورثت السيدة هيلو الشابة أرض بريسل، ودخلا بثلاثين الف فرنك. اما السيدة كروفيل فوهبت البارون هيّلو ثلاثمئة الف فرنك وستانيلاس المصاب بسلّ المراهقة سيحصل عند البلوغ قصر كروفيل ودخلاً بمبلغ اربعة وعشرين الف فرنك.

١٢٤

وجه من اوجه المضاربة

بين العديد من الجمعيات النبيلة المؤسسة على الرحمة الكاثوليكية في باريس، ثمة واحدة ، اسستها السيدة دي لاشانتوري، غايتها تزويج ابناء الشعب الذين اتحدوا عن حسن نية، على السنة الدينية والمدنية.

ان المشترعين الذي يتمسكون كثيراً بمفاعيل التسجيل، وكذلك البورجوازية المسيطرة، التي تتمسك باتعاب كتّاب العدل، يجهلون ان ثلاثة ارباع ابناء الشعب لا يمكنهم ان يدفعوا خمسة عشر فرنكاً لعقد زواجهم.

إن غرفة كتّاب العدل تحت غرفة محاميّ باريس، إن محاميّ باريس يؤلفون شركة افترائية تباشر مجاناً متابعة دعاوي المعوزين بينما كتّاب العدل لم يقرروا بعد إجراء عقود الزواج مجاناً للناس المساكين.

بالنسبة للرسوم ، يجب تحريك الآلة الحكومية بأجمعها للتخفيف من قساوتها إزاء هذا الموضوع فالتوثيق أصم وأبكم.

والكنيسة من جهتها تحط حقوقاً لها على عقود الزواج. ففي فرنسا تبدو الكنيسة مهتمة بالنواحي المالية الى اقصى حدّ، تقوم في بيت الرب بأعمال تجارية على مختلف المستويات وتثير غضب البعيدين عنها مع انها لا تستطيع ان تنسى غضب المخلّص الذي طرد التجار من الهيكل. لو تخلت الكنيسة وإن بصعوبة عن حقوقها التي تشكل اساس مصادر مداخيلها لوقعت في خطأ هو حتما خطأ الدولة.

إن اجتماع هذه الظروف، في وقت يزيد فيه الاهتمام بالزنوج وبصغار المحكومين في الشرطة الاصلاحية مما يقطع الإهتمام بالناس الشرفاء الذين يعانون الشقاء، يبقي على الكثير من العائلات الشريفة في علاقات التسري بسبب عدم توفر ثلاثين فرنكاً وهو السعر الذي يمكن دائرة العدل ودائرة التسجيل والعمدة والكنيسة من جمع باريسيين إثنين. إن جمعية السيدة لاشانتوري التي أنشئت لتعيد العائلات المسكينة الى الدين والقانون، تلاحق الآن هؤلاء الأزواج الذين من السهل ان تعثر عليهم عن طريق تقديم العون المادي كونهم معدمين قبل أن تتحقق من حالتهم الخارجة على القانون.

عندما استعادت السيدة البارونة هيلو عافيتها، عادت الى اهتماماتها. كان ذلك لما حضرت السيدة دي لاشانتوري الجليلة لترجو أدلين حتى تُلحق موضوع قانونية الزيجات الطبيعية بأعمالها الخيّرة التي تتوسط بها.

إحدى أولى محاولات البارونة في هذا المضمار حصلت في الحي المنكود المسمى سابقاً «بولونيا الصغيرة» والذي يحيط به شارع دي روشيه وشارع دي لابوبينير وشارع ميروميسنيل. لوصف هذا الحي، يكفي القول بأن مالكي بعض الأبنية التي يسكنها صناعيون دون مصانع، وبائعو الحدائد الخطرون، ومعدمون انصرفوا الى مهن خطرة؛ لا يجرأون على المطالبة ببدلات إيجاراتهم ولا يجدون حجّاباً يتولون امر اخلاء المستأجرين المعسّرين.

في هذا الوقت كانت المضاربة في البورصة تصبو الى تغيير وجه هذه الزاوية من باريس وانشاء الأبنية في مساحات البور التي تفصل شارع امستردام عن شارع فوبور دي رول ستعدّل دون ريب في السكان ذلك، لأن آلة ذلك الطين في باريس اكثر تمدناً مما نتصور!

عند بناء بيوت جميلة وأنيقة بحراسة حجّاب ومحاطة بالأرصفة والحوانيت نرى المضاربة تقضي بارتفاع الايجارات، الناس المتشردين والعائلات المعدمة التي لا تملك منقولات والمستأجرين السيئين، هكذا تنجو الأحياء من هؤلاء السكان الفاسقين وهذه المواخير حيث لا تتدخل الشرطة إلاّ عندما تدعوها العدالة.

في حزيران ١٨٤٤ كان مظهر ساحة دي لا بورد وجوارها ما يزال غير مأمون، وكان الشرطي الأنيق يجتاز شارع لابيبنير

إلى هذه الشوارع المخيفة، ويعجب من الآرستقراطية ملتفة حول غجريةٍ تافهة.

في هذه الأحياء حيث ينبت العوز الأعمى والبؤس المخيف يزدهر الكتّاب الشعبيون الذين يتلاقون في باريس حيث تشاهد هاتان الكلمات «شاعر العامة» بخط عريض على ورق أبيض معلق على زجاج الطبقات الأرضيـة الموحلة. يمكننـا أن نفكّر بجرأة أن الحيَّ يخفي كثيراً من الجهلة الآتين من البؤس ويستر النقائص والأجرام، الجهل هو أبو كلّ الجرائم والجريمة هي قبل كل شيء نقص في الادراك.

١٢٥
حيث لا نتساءل لماذا جميع صانعي المواقد في باريس هم من الطليان

أثناء مرض البارونة، كان الحيُّ الذي ترعاه بعنايتها قد ظفر بكاتب شعبي نشأ تحت الشمس الساطعة وحمل اسمًا من النقائض المألوفة لدى الفرنسيين. كان هذا الكاتب المشتبه بأنه ألماني، يدعى فيدير، ويعيش كزوج مع فتاة يغار عليها كثيراً، حتى لا يسمح لها بأن تذهب إلاّ إلى صناع مواقد شرفاء في شارع سان ـ لازار، طليان كسائر صناع المواقد، الموجودين في باريس منذ سنين طويلة.

أنقذت البارونة هيلو عمّال المواقد هؤلاء، من إفلاس محتوم كان يجرهم إلى البؤس، وكانت البارونة تعمل لحساب السيدة دولا شانتوري. خلال بضعة أشهر حلّ الرخاء محلّ البؤس، وتسرُّب التدين إلى قلوب كانت أبداً تلعن العناية الإلهية بمقدرة خاصّة بعمال المواقد الطليان.

كانت أولى زيارات البارونة لهذه العائلة وكانت سعيدة

للمشهد الذي صادفته، في عمق البيت حيث يسكن هؤلاء الناس الشجعان في شارع سان لازار، قرب شارع روشيه. كانت العائلة تشغل مسكناً فوق المشغل والمحلات المجهزة الآن جيداً، حيث تجمهر المتدربون والعمّال وكلهم إيطاليون من وادي دومودوسولا، وأمّن لها العمل، الوفر الكثير. استقبلت البارونة كما لو أن السيدة العذراء ظهرت. بعد ربع ساعة من التدقيق والفحص، اضطرت فيها لانتظار زوجها لتعرف كيف تسير الأمور، قامت أدلين بعمل جاسوسي، إذ كانت تتحرى عن البائسين الذين من الممكن أن تكون عائلة صانع المواقد تعرفت عليهم.

ـ آه يا سيدتي الطيبة! أنت التي تنقذ الهالكين من الجحيم، قالت الإيطالية، أن فتاة تقيم بالقرب من هنا، يجب انتشالها من الهلاك الأبدي.

ـ تعرفينها جيداً؟ سألت البارونة.

ـ هي حفيدة ربِّ عملٍ قديم لزوجي، أتت إلى فرنسا أثر الثورة، سنة ١٧٩٨ اسمها جوديسي، كان الأب جوديسي أيام الأمبراطور نابوليون، واحداً من أوائل صناع المواقد في باريس، مات سنة ١٨١٩ تاركاً لابنه ثروة محترمة، لكن جوديسي الابن انفق كل شيء مع النساء الفاجرات، وانتهى بالزواج من اشدهنّ احتيالاً، وولدت له الفتاة الصغيرة المسكينة التي خرجت إلى الحياة ولّما تبلغ الخامسة عشرة.

ـ ماذا حلَّ بها؟ قالت البارونة التي تأثرت بهذا الشبه في طباع جوديسي وطباع زوجها.

ـ عندها! يا سيدتي، تركت هذه الصغيرة المدعوة أتالا أباها وأمها وأتت لتعيش هنا. معنا مع الماني عجوز في الثمانين، يدعي فيدير، ويقوم بجميع أعمال الناس الذين يجهلون القراءة والكتابة، لو أن هذا العجوز الفاسق الذي يقال أنه اشترى الصغيرة من أمها بألف وخمس مئة فرنك، كان على الأقل تزوج، لكانت الفتاة المسكينة، هذا الملاك الصغير، تحررت من الشر والبؤس اللذين سيفسدانها، خاصّة وأنه لم يبق لهذا العجوز القليل من الوقت ليموت، محتملين أنه يتمتع بدخل من بضعة آلاف من الفرنكات.

ـ اشكرك لأنك ارشدتني إلى عمل عظيم أقوم به، قالت أدلين، لكن يجب التصرف بحذر. من يكون هذا العجوز؟.

ـ أوه ، يا سيدتي ! انه رجل شجاع ، ويوفر السعادة للصغيرة ، ويتمتع بالعقل السليم ، لأنه ترك حي الجوريسيين كما اعتقد ، لينقذوا هذه الفتاة من أمها ، كانت الأم تغار من ابنتها ، وعلى الأرجح إنها كانت تحلم بإستغلال هذا الجمال ؟! . . . تذكرتنا اتالا ونصحت سيدها بالاستقرار قرب بيتنا ؛ وعندما علم الرجل مَنْ نحن ، سمح لها بأن تتردّد إلينا ؛ ولكن أن تزوجيها يا سيدتي ، فهذا عمل يليق بك. . . حين

تتزوج ، تصبح الصغيرة حرّة ، وبهذه الوسيلة تفلت من أمها ، التي تترصدها وتريد ، كي تستفيد منها ، ان تراها على المسرح أو تنجح في المهنة الرهيبة التي كانت اطلقتها فيها .

ـ ولماذا لم يتزوجها العجوز؟

ـ ليس ضرورياً، قالت الإيطالية، فعلى الرغم من أن فيدير ليس رجلاً شريراً، اعتقد بأنه محتال، يريد أن يكون سيِّد الصغيرة، بينما لو تزوَّج، يا سيدتي! ويخشى وهو العجوز المسكين، من الحالة التي يقع تحتها العجزة وهم في مثل هذا الموقف.

ـ هل يمكنك أن ترسلي بطلب الفتاة؟ قالت البارونة، ساراها هنا، وسأعرف ما إذا كانت ثمة وسيلة...

١٢٦

أتالا الجديدة لا تقل وحشية عن تلك وليست كاثوليكية

بإشارة من زوجة صانع المواقد توجهت للحال ابنتها الكبرى إلى تلك الفتاة وعادت بعد عشر دقائق ممسكة بيد صبيّة بلغت الخامسة عشرة والنصف على جمال إيطالي صافٍ.

كانت الآنسة جوديسي تحمل من دم أبيها بشرة تميل الى الصفار نهاراً وإلى البياض الناصع مساء تحت الأضواء. عيناها كبيرتان، بلمعة شرقية ورموش منتظمة ومحنية تشبه الريش الصغير الأسود وشعر أسود كالآبنوس وهذه الجلالة المولودة في لومبارديا التي يحسبونها أجنبية عندما تتمشى يوم الأحد في ميلان ترسّخ في الأذهان أن بنات حراس المباني سينلْن نصيباً من دور الملكات.

إن اتالا التي أبلغتها ابنة صانع المواقد بزيارة السيدة الكبيرة التي كانت سمعت بها، وارتدت فستاناً جميلاً من الحرير وانتعلت مداساً ولفت جسدها بدثار أنيق، وغطت رأسها بطاقية. زادت

أضعافاً من هيبته. جلست هذه الصغيرة مجلس فضولية ساذجة، ترقب البارونة بطرف عينها وتُذهل كثيراً من توترها العصبي.

تنهدت البارونة عميقاً عندما رأت هذه التحفة الأنثوية في أول حال العهر وأقسمت أن تعيدها إلى الفضيلة.

ـ ما اسمك يا ابنتي؟

ـ أتالا يا سيدتي.

ـ تعرفين القراءة والكتابة؟...

ـ لا يا سيدتي؛ لكن هذا لا يؤثر في شيء لأن سيدي يتقن ذلك...

ـ وهل اصطحبك أهلك الى الكنيسة؟ هل قمت بمناولتك الأولى؟ وهل تعرفين التعاليم الدينية ؟

ـ سيدتي، كان والدي يود أن يدفعني الى أمور تشبه ما تقولينه، لكن أمي كانت تعارضه في كل ذلك...

ـ أمك!... صاحت البارونة انها حقاً شريرة.

ـ كانت تضربني دائمًا لا أعلم لماذا، لكن كنت موضوع شجار مستمر بين أبي وأمي...

ـ ألم يحدثوك أبداً عن الله؟...

عندها جحظت عينا الصبية وقالت بلطف وسذاجة:

ـ آه! كان أبي وأمي يقولان غالباً: ما لنا ولله، فليرحل عنا الله! مصيبتنا بالله!...

ـ أما رأيت في حياتك الكنيسة؟ ألم تفكري يوماً بالدخول اليها؟

ـ كنائس؟... آه! نوتردام، البانتيون، رأيتها عن بعد، عندما كان أبي يصحبني معه الى باريس، غير أن هذا ما كان ليحصل دائماً. لا وجود لهذه الكنائس في الضاحية.

ـ في أي ضاحية كنت؟

ـ في الضاحية...

ـ أي ضاحية؟

ـ في شارع دي شارون، يا سيدتي...

إن سكان ضاحية سان انطوان لا يطلقون على هذا الحي الشهير سوى اسم «الضاجية»، إنها، بالنسبة لهم، الضاحية صاحبة السمو والسيادة، والصُناع ذاتهم يفهمون بهذه الكلمة ضاحية سان أنطوان دون غيرها.

ـ الم يكلمك أحد على ما هو خير وما هو شر؟

ـ كانت أمي تضربني عندما لا أنفذ ما يخطر ببالها...

ـ لكن ألا تعلمين أنك ترتكبين عملاً سيئاً بمغادرتك لابيك

وأمك لتعيشي مع عجوز؟

رمقت أتالا جوديسي، البارونة بنظرة متعجرفة ولم تجب؛ فقالت البارونة في نفسها:

ـ إنها فتاة متوحشة تماماً...

ـ أوه! يا سيدتي، ثمة الكثير مثلها في الضاحية، قالت زوجة صانع المواقد.

ـ لكنها تجهل كل شيء حتى الشر، يا الهي! لماذا لم تجيبيني؟... سألت البارونة وهي تحاول أن تمسك بيد أتالا.

غضبت أتالا وتراجعت خطوة وقالت:

ـ انك عجوز مجنونة. والداي ما زالا دون طعام منذ أسبوع! أمي ترغب في دفعي الى الرذيلة لأن أبي انهال عليها ضرباً ووصمها بالسارقة. عندها تدخّل السيد فيدير وسدد كل ديون أبي وأمي وأمدهم بالمال... أوه! ملء كيس كامل!... وصحبني معه بحيث أن أبي اجهش بالبكاء... لكن كان عليه أن يتركنا!... هل ترين في ذلك شراً؟.

١٢٧

إكمال السابق

وهل تحبين السيد فيدير؟

ـ أحبه؟... اعتقد يا سيدتي! فهو يروي لي، كل مساء، القصص الجميلة!... وهبني فساتين حلوة وثياباً وشالاً. وها إني الأن مكسوة كالأميرة وتخليت عن القباقيب! وأخيراً لم أشعر بالجوع منذ شهرين، لا اغتذي الآن بالبطاطا! يحمل لي الملبس وملبس اللوز! اوه! كم طيبة قطع الشوكولا المطلية بالسكر أفعل ما يريد من أجل كيس من الشوكولا! ثم أن أبي الضخم فيدير لطيف ويعاملني بالحسنى مما يجعلني أتخيل كيف كان يتوجب على أمي أن تكون... يود أن يستخدم واحدة لتعتني بي لأنه لا يجوز أن أوسخ يدي في المطبخ. منذ شهر وهو يحصل على كمية لا بأس بها من المال فينقدني ثلاثة فرنكات منها كل مساء... وأضعها في قجة! طلبه الوحيد، ألا أخرج إلا إلى هنا... هذا هو حب رجل؛ وليصنع مني ما يريد... يناديني: «عزيزتي»، بينما أمي لا تناديني الا بالحيوان الصغير! أو بالسارقة أو بالقذرة! وبغيرها من الألقاب سهوت عنها!.

ـ لماذا إذاً يا بنيتي لا تتخذين من الأب فيدير زوجاً لك؟...

ـ ولكن هذا ما حصل يا سيدتي! قالت الصبية .وهي تنظر الى البارونة نظرة فخار، دون خجل وبجبين صافٍ وعينين هادئتين. قال لي أني زوجته الصغيرة، لكن أن أكون زوجة رجلٍ فهذا مسئم!... لكن هل أرفض ملبس اللوزا...

ـ يا الهي! قالت البارونة سراً وبصوت خافت، أي وحش هذا الذي هتك عِرْض هذه المخلوقة الفائقة البراءة؟ ألا تؤدي اعادة هذه الفتاة الى الطريق السوي، الى تعويض كثير من الأخطاء! أنا أعلم ماذا فعلت! قالت في نفسها وهي تفكر بما حدث لها مع كروفيل. أما هي فانها تجهل كل شيء!

ـ هل تعرفين السيد سامانون؟... سألت أتالا الصغيرة بغنج.

ـ لا، يا صغيرتي؛ لماذا تسأليني هذا السؤال؟

ـ حقاً؟ قالت المخلوقة البريئة.

ـ لا تخشي شيئاً من السيدة يا أتالا.... قالت زوجة صانع المواقد، انها ملاك!

ـ ذلك لأن عزيزي الضخم يخاف من أن يعثر عليه سامانون فيختبىء من طريقه... وأنا أريد مخلصةً أن يكون حراً...

ـ ولماذا؟...

ـ ايتها السيدة! قد يقودني الى بوبينو! وربما الى المجهول!

ـ أي مخلوقة ساحرة هذه! قالت البارونة وهي تعانق هذه الفتاة الصغيرة.

ـ هل أنت ثرية؟... سألت أتالا التي كانت تداعب أردان البارونة.

ـ نعم ولا، أجابت البارونة. عنية عندما أعمل من أجل الفتيات الصالحات مثلك فيتوجهن الى الكاهن ليتعلمن واجباتهن المسيحية ويسرن في الطريق الصالح.

ـ في أي طريق؟. أسير جيداً على قدمي.

ـ طريق الفضيلة!

نظرت أتالا الى البارونة نظرة هزء ومخاتلة فقالت لها البارونة وهي تشير الى زوجة صانع المواقد:

ـ انظري السيدة، أصبحت سعيدة منذ دخولها حضن الكنيسة!... أما أنت فتزوجت كما تتزاوج الحيوانات.

ـ أنا؟ لكن اذا كنت تريدين أن تمنحيني ما يمنحني الأب فيدير فسأكون مسرورة جداً بالا أتزوج. إنه شخص مزعج! وهل تعلمين ما هو؟..

ـ عندما نتحد مع رجل كما حالتك، فالفضيلة تقضي بأن نكون له أوفياء.

ـ حتى الوفاة؟.. قالت أتالا برقة ولطف، ما أراني مالكة له طويلاً. لو كنت تدرين كيف يسعل الأب فيدير ويزفر! بوه! بوه! سعلت مقلدة العجوز.

ـ الفضيلة والأخلاق يطلبان منك بأن تقوم الكنيسة التي تمثل الله، ودائرة العمدة التي تمثل القانون، بتكريس زواجك. هي السيدة وتزوجت حسب الشريعة...

ـ وهل هذا سيكون أكثر تسلية؟

ـ سترفلين أكثر بالسعادة لانه لن يستطيع أحد توجيه أي تأنيب على هذا الزواج، وهكذا ترضين الله! سلي السيدة إذا كانت عند عقد قرآنها قبلت سر الزواج؟

ـ تطلعت أتالا صوب زوجة صانع المواقد وسألت.

ـ أي زيادة أصابت اكثر مني؟ اني اجمل منها.

ـ أجل، لكني امرأة شريفة ويمكن أن توصمي بأسماء فاسقة.

ـ كيف تريدين أن يحميك الله وانت تدوسين بقدميك الشرائع الألهية والبشرية؟ هل تعلمين أن الله يحتفظ بجنة احتياطية للذين يمتثلون لوصايا كنيسته؟

ـ وماذا في الجنة؟ مناظر؟ قالت أتالا.

ـ أوه! الجنه! انها كافة المتع التي يمكن أن تتخيليها. انها

مليئة بالملائكة ذات الأجنحة البيضاء. نرى فيها الله بمجده العظيم ونشترك بقدرته ونحيا فيها سعداء الى الأبد!...

كانت أتالا تصغي الى البارونة كما الى الموسيقى؛ ولكن عندما رأتها أدلين بعيدة عن ادراك ما تعظها به وجدت من الضروري أن تسلك طريقاً آخر بتوجهها الى العجوز.

- عودي الى مأواك يا عزيزتي وأنا سأتحدث مع السيد فيدير. وهل هو فرنسي؟...

- انه ألزاسي يا سيدتي؛ لكن سيصبح غنياً، هيا! اذا تكرمت ودفعت ما يتوجب عليه لهذا الفاجر سامانون، فهو على استعداد ليعيد لك مالك، لأنه سيحصل في بضعة أشهر على دخل ستة آلاف فرنك، كما يقول، وسنرحل الى الريف، بعيداً جداً، في جبال الفوج...

كلمة فوج قذفت بالبارونة الى أحلام سحيقة فرأت قريتها!

١٢٨

عرفان جميل

تحيات صانع المواقد أفاقت، البارونة من أحلامها المزعجة وتقدم اليها ليعرض لها البراهين التي تثبت نجاحه.

ـ في نحو سنة، سأتمكن يا سيدتي من إعادة المبالغ التي أقرضتنيها فهي أموال الرب! انها أموال الفقراء والمعدمين! عندما أجمع ثروة سيكون بمستطاعك أن تغرفي يوماً من نقودي حتى أسدد بواسطة يديك للآخرين الأعانات التي بذلتها من أجلنا.

ـ في هذه الحال، قالت البارونة، لن أطالبك بالمال بل سأطلب منك اعانتك في الأعمال الصالحة. التقيت منذ لحظات، الصغيرة جوديسي التي تعيش مع عجوز وقصدي أن أزوجها على الدين والشريعة.

ـ آه! الأب فيديرا إنه رجل كريم وشجاع وذو بصيرة. جمع حواليه الأصدقاء في الحي منذ شهرين لمجيئه الى هنا. يعيد الي ذكرياتي صافية. انه كولونيل شجاع واعتقد أنه خدم الأمبراطور جيداً... آه! إنه يحب نابوليون كثيراً وهو من حملة الأوسمة

لكنه لم يعلقها أبداً. ينتظر حتى يسوي أموره فهو مدين! واعتقد انه يتخفى لأنه الآن تحت رحمة مباشري المحاكم...

ـ أبلغه بأني سأسدد ديونه لـورغب في الزواج من الصغيرة...

ـ آه! حسناً! سيتم ذلك في الحال. أمستعدة سيدتي، هيا... إنه على خطوتين من هنا في ممر الشمس!

انطلقت البارونة وصانع المواقد متجهين الى ممر الشمس.

ـ من هنا يا سيدتي، قال صانع المواقد وهو يشير الى شارع البيبينير.

يقع ممر الشمس في أول شارع البيبينير ويطل على شارع روشي.

وسط هذا الممر المليء بالأبداعات الحديثة والذي حوانيته لم تتجاوز السعر المعقول، لاحظت البارونة فوق حاجز زجاجي مبطن بالتفتا الخضراء على علو لا يسمح للمارة بالقاء نظرات تطفل: كاتب شعبي، وعلى الباب:

مكتب اعمال
هنا تحرر العرائض والطلبات
وتنقح المذكرات، الخ
رصانة وسرعة

داخله يشبه مكاتب الترانزيت حيث تنتظر عربات باريس

العامة ليبدل المسافرون خطوطهم. ويقود درج داخلي الى شقة منخفضة مضاءة برواق متصل بالحانة. شاهدت البارونة مكتباً من الخشب الأبيض المسود وقطعاً من الكرتون وأريكة حقيرة مبتاعة في بيع تصفية. وفي مكان آخر رأت عمرة وكمامة من التفتا الخضراء ذات سلك شبهان أصفر بنيان إما باحتياطات متخذة للتخفي وإما لضعف في العيون التي خف عملها عند عجوز.

ـ إنه فوق، قال صانع المواقد، سأصعد وأبلغه حتى يهبط إلينا.

أخفضت البارونة حجابها وجلست. رجت خطوة متثاقلة الدرج الخشبي الصغير ولم تقدر أدلين أن تحبس صرخة مدوية عندما رأت زوجها البارون هيلو في سترة رمادية وبنتال رمادي من القماش الناعم القطني وبابوج.

ـ ماذا تريدين يا سيدتي؟ قال هيلو بلطف وتأنق.

نهضت أدلين وقبضت على هيلو وقالت له بصوت كسره انفعالها:ـ وأخيراً وجدتك!...

ـ أدلين!... صاح البارون وذهل وأقفل باب الحانة. جوزيف! صرخ على صانع المواقد، انصرف عبر الممشى.

ـ صديقي، قالت اذ نسيت كل شيء في غمرة فرحها،

يمكنك أن تعود الى عائلتك، نحن أغنياء! عند ابنك دخل بستين الف فرنك! حرر معلشك ولك بذمة الدولة خمسة عشر الف فرنك تحصل عليها بمجرد إثبات وجودك! ماتت فاليري وأوصت لك بثلاث مئة الف فرنك. نسي الناس اسمك، هيا! بامكانك أن تعود الى المجتمع وستجد بين يدي ابنك ثروة. عد وستكتمل سعادتنا. ثلاث سنوات مضت وأنا أبحث عنك آملة أن التقيك وأنت في شقة تليق بك. أوه! أخرج من هنا، أخرج من هذا الوضع المقيت.

- أتمنى من كل قلبي، قال البارون المندهش؛ لكن هل يمكنني أن أصطحب الصغيرة؟

- هكتور، تخل عنها! إفعل ذلك من أجل أدلين التي لم تطلب اليك يوماً أقل تضحية! أعدك بأني سأخص هذه الفتاة بمهر وسأزوجها وسأدفعها الى تثقيف ذاتها. وليعلن بأن احدى اللواتي طبعنك بالسعادة يجب أن تكون سعيدة فلا تسقط في الرذيلة أو في الفجور!

- هذا أنت إذاً، أجاب البارون وهو يبتسم. من يريد أن يزوجني؟... انتظريني لحظة هنا، أريد أن أبدل ثيابي فوق، حيث احتفظ في حقيبة أمتعتي بثياب لائقة...

عندما بقيت أدلين لوحدها وتفحصت بنظراتها هذه الحانة المقيتة انهمرت دموعها وقالت في نفسها:

ـ إنه يعيش هنا ونحن في سعة من الرخاء!... ايها الرجل المسكين، هل نلت عقابك، أنت الذي كان نموذجاً للأناقة ذاتها!

١٢٩

آخر كلمة لأتالا

اقترب صانع المواقد ليودع عاملة الخير التي طلبت اليه استقدام عربة؛ وعند العودة رجته أن يأخذ معه الصغيرة أتالا جوديسي الى بيته فوراً، ثم أضافت:

ـ تبلغها بأنها اذا رغبت بأن تكون تحت اشراف السيد كاهن المادلين سأهبها كمهر، يوم تتقدم للمناولة الأولى ثلاثين الف فرنك وزوجاً صالحاً يكون أحد الفتيان الشجعان!

ـ ابني الأكبر يا سيدتي! بلغ الثانية والعشرين وهو يعبد هذه الصبية!

في هذا الوقت نزل البارون وكانت عيناه مبللتين وهمس في أذن زوجته قائلاً:

ـ انك تسلخيني عن مخلوقة اقتربت من الحب الذي تكنينه

لي! غرقت هذه الصغيرة .بالدموع ولا أقدر أن أهجرها على هذا الشكل.

ـ اطمئن يا هكتورا ستعيش في كنف عائلة شريفة واني اتعهد سلوكها.

ـ آه! يمكنني أن أتبعك الآن، قال البارون وهو يرافق زوجته الى العربة بأسلوب متحضر اذ استعاد هكتور لقب البارون أرفي، ارتدى بنطلوناً وسترة طويلة من القماش الأزرق وصدرة بيضاء وياقة سوداء وقفازين.

عندما استقرت البارونة داخل العربة، تسللت اليها أتالا كالأفعى وقالت:

ـ آه! سيدتي، دعيني أرافقكما وأذهب معكما... أتعهد بأن أكون لطيفة، ومطيعة وأفعل ما تطلبين، لكن لا تفصليني عن الأب فيدير، عن الشخص المحسن الذي قدم لي أشياء كثيرة مفيدة. سأقتل نفسي!...

ـ هيا، أتالا، قال البارون، هذه السيدة زوجتي ويجب أن نفترق...

ـ هي؟! أما اخترت عجوزاً اكثر منها! أجابت البريئة، انها ترتجف كورقة.

أوه! أي رأس هذا!

ثم شرعت تقلد بسخرية توترات البارونة العصبية.

وصل صانع المواقد الذي ركض اثر الصغيرة جوديسي الى باب العربة، فقالت له البارونة.

ـ احملها!

أخذ صانع المواقد أتالا بذراعيه وساقها الى بيته بالقوة.

ـ أشكرك على هذه التضحية يا صديقي! قالت أدلين التي أمسكت بيد البارون وضغطت عليها بفرح ونشوة. يبدو أنك تغيرت! قد تتألم لهذا! أي مفاجأة ستكون لابنتك وابنك!

تحدثت أدلين كما عاشقان تلاقيا بعد غياب طويل، عن أشياء كثيرة دفعة واحدة.

١٣٠
عودة الأب المبذر

في عشر دقائق وصل البارون والبارونة الى شارع لوي لوغران حيث وجدت أدلين الرسالة التالية:

«سيدتي البارونة،

«استقر السيد البارون أرفي شهراً في شارع شارون باسم توريك وهو جناس تصحيفي لهكتور ويسكن الآن في ممر الشمس باسم فيدير. يلقب بالألزاسي ويقوم بأعمال كتابية ويعيش مع فتاة تدعى أتالا جوديسي. خذي الاحتياطات اللازمة سيدتي، لأن البعض يبحثون عن البارون بنشاط حثيث ولا أعرف سبب ذلك.

«ان الهازلة تقف عند كلامها، وكالعادة يا سيدتي البارونة، سأكون على الدوام خادمتك المطيعة

ج. م.»

عودة البارون أثارت أحمالاً من الفرح جعلته يقتنع بالحياة العائلية. نسي الصغيرة أتالا جوديسي بفضل دفق المشاعر والعواطف التي أعانته في توليد شعور قادر على تمييز الطفولة. اهتزت سعادة العائلة بالتبدل المفاجىء في حياة البارون. وبعد أن هجر أولاده وهو في أتم العافية رجع وظهرت عليه شيخوخة المئة سنة، مسحوق القوى، مقوس الظهر متراخي الجسم.

العشاء الفاخر الذي حضرته سيليستين يذكر بموائد مغنّية العجوز الذي ذهل بأبهة وجلال عائلته.

ـ تحتفلون بعودة الأب المبذر! همس في أذن أدلين.

ـ هس س. س!... زال كل شيء.

ـوليزبت؟ سأل البارون الذي لم ير العانس.

ـ هيهات! أجابت أورتنس، تلزم السرير ولا تغادره، وسنكون كئيبين لفقدانها بعد حين. تود أن تراك بعد العشاء.

في الصباح التالي وعند مشرق الشمس جاء الحاجب ليبلغ هيلو الأبن، أن جنود الحرس البلدي يحيطون بأملاكه ورجال القضاء يبحثون عن البارون هيلو. عرض حارس المحكمة التجارية الذي يتبع الحاجب أحكاماً على المحامي وسأله اذا كان يريد أن يسدد دين أبيه. المسألة تتعلق بعشرة آلاف فرنك من السندات الموقعة لصالح المرابي المدعو سامانون والذي كان أدان البارون أرفي ما يقارب الأثنين أو الثلاثة آلاف فرنك. رجا الأبن هيلو حارس المحكمة التجارية ليبعد رجاله ويدفع.

وهل يلزم كل ذلك؟ قال في نفسه وهو قلق.

١٣١
إطراء النسيان

زادت تعاسة ليزبت عندما لاحظت السعادة تتألق في العائلة ولم تستطع أن تتحمل هذا الحدث المفرح. ساءت حالتها كثيراً حتى أن بيانشون قطع أمله بها ورجح وفاتها خلال اسبوع بعد أن اقتنعت بما صارت اليه بعد صراع طويل طبعته بالأنتصارات العديدة. أخفت سر حقدها وسط نزاع السل الرئوي المقيت. مع ذلك أحست برضًى متسامٍ عندما رأت أدلين واورتنس وهيلو وفيكتوران وستانبوك وسيليستين وأولادهم غارقين حول سريرها بالدموع يتحسرون عليها وكأنها ملاك العائلة.

خضع البارون هيلو لنظام أكل أساسي لم يعرفه منذ ثلاث سنوات تقريباً، فاستعاد قوته وكاد يحصل على طلعته التي تمتع بها. هذا التجدد في شخصية البارون أعاد البهجة الى أدلين التي خفت حدة تشنجاتها العصبية.

ـ وأخيراً صارت سعيدة! قالت ليزبت في نفسها عشية وفاتها عندما رأت طريقة إجلال البارون لزوجته التي عرف بآلامها من أورتنس وفيكتوران.

عجل هذا الشعور بنهاية النسيبة بِتْ التي حُملت الى مثواها الأخير في موكب ضم عائلة ذرفت أسخي دموعها.

أحس البارون والبارونة أنهما أصبحا في عمر الاستقرار المطلق فأخليا الشقق الفخمة الكائنة في الطابق الأول للكونت والكونتسة ستانبوك واستقرا في الطابق الثاني.

حصل البارون، بسعيٍ من ابنه، على مركز في سكة الحديد، مع بداية ١٨٤٥ بمرتبات من ستة آلاف فرنك التي اذا أضيفت الى الستة آلاف فرنك كمعاشٍ تقاعدي والى الثروة التي منحته إياها السيدة كروفيل تشكل دخلاً من أربعةوعشرين الف فرنك.

بعد شجار أورتنس مع زوجها ومخاصمته لثلاث سنوات كانت فصلت ممتلكاتها عن ممتلكاته ولم يتردد حينها فيكتوران في ايداع المصرف، باسم أخته الأمانة البالغة مئتي الف فرنك، التي وفرت لها معاشاً بأثني عشر الف فرنك. والآن، استفاق وسيسلاس وهو زوج لامرأة ثرية التزم بها ولم يبرحها أو يفكر بخيانتها، بيد أنه تلكأ وأضاع وقته دون أن يستطيع ويقرر المباشرة بأي عمل مهما كان صغيراً. عاد الى بدايته كفنان معلق على الفن فلاقى نجاحاً باهراً في الصالونات وكان كثيرون من الهواة يطلبون استشارته ونصحه؛ وأخيراً استقر ناقداً كسائر العجزة الذين يكذبون في بداية أعمالهم.

كل واحدة من هذه العائلات كانت تتمتع بثروة خاصة على الرغم من عيشهم في أسرة واحدة.

تنورت ذهنية البـارونة عبـر الويـلات الكثيرة فتـركت أمر الاهتمام بإدارة الأعمال لابنها وحجمت دور البارون وجعلت نشاطه يتحدد بمرتباته متأملة من قلة المدخول اقامة الحواجز امامه عله لن يعود الى سقطاته السابقة. لكن، بتأثير من سعادة غريبة ما كانت الأم أو الأبن ليحسبا لها حساباً، بدا أن البارون تخلى عن الجنس اللطيف. إن هدوءه وسلاسته باتا على كاهل الطبيعة وبددا الشكوك فعمدت العائلة للاطمئنان وتمتع جميع أفـرادها بالمحبة العائدة وبمزايا البارون أرفي السامية. اهتم كثيراً بزوجته وأولاده فكان يصحبهم إلى المسرح أو الى أي مكان يظهر فيه، وكان يضفي اللطف والكرامة بين جلساء صالون ابنه. وخلاصة الكلام فإن هذا الأب المبذر التائب نفح في عائلته أسمى مشاعر الرضى والارتياح. كان عجوزاً سلساً، هدته أيامه لكنه صمد في عقله ولم يحتفظ من النقائص الا بما كان صالحاً لتأسيس فضيلة اجتماعية. وتوصلوا بشكل طبيعي الى الأمان الكامـل وكانت البارونة والأولاد يطرون كثيراً على رب العائلة متناسين وفـاة شخصين: الخال والعم! لا تسير الحياة دون نسيان كبيرا

١٣٢
حل فظيع واقعي وحقيقي

أجبرت السيدة فيكتوران- وهي تدير الأمور المنزلية بمهارة فائقة بفضل الدروس التي تلقتها من ليزبت- على استقدام طاهٍ أصبح وجوده ضرورة لطلب فتاة تخدم في المطبخ. فتيات المطبخ في أيامنا هذه مخلوقات طموحة، يقضين وقتهن في مباغتة أسرار الطهاة، ويصبحن طاهيات منذ يتوصلن الى معرفة تحريك الحساء. لهذا يبدل الناس خادمات المطبخ.

في أوائل كانون الأول ١٨٤٥ استعانت سيليستين بخادمة للمطبخ، نورمندية سمينة من ايزيني، قصيرة القامة محمرة الذراعين، لها وجه شائع باهت كأي قطعة عادية في الاستعمال المنزلي، وقررت بعد عناء التخلي عن قلنسوتها القطنية المألوفة والتي يعتمر بها فتيات نورمانديا المنخفضة. اكتسبت هذه الفتاة بدانة منذ الرضاعة وكانت تبدو وكأنها مستعدة دائمًا لتفجر ثيابها القطنية التي تلفها على وسطها. من يرها يعتقد أن وجهها المحمر قد من حجر نظراً لتدويراته الصفراء القاسية. ومن الطبيعي

والحال هذه الا يعير أحد بالاً لهذه الفتاة المسماة اغات، منذ دخولها البيت. إنها في الحقيقة الفتاة المحنكة التي يرسلها الريف كل يوم الى باريس. حاولت أغات إغواء الطاهي دون جدوى لأنها كانت غليظة في كلامها فهي ربيبة سائقي العجلات وخريجة فندق في الضاحية، وعوض أن تتمكن من اقناع رئيس المطبخ فتحصَل منه على ماترغب في الاطلاع عليه من خفايا فن الطبخ، اصبحت محط احتقاره. تودد الطاهي الى لويز وصيفة الكونتسة ستانبوك. واذا لاحظت النورمندية رداءة معاملتها تذمرت من حياتها وسوء مصيرها.

كانت تطرد معظم الأوقات الى الخارج تحت أي حجة، عندما ينهي الرئيس طبخاً أو ينجز حساءً. وأخيراً قالت:

ـ لا حظ لي، سأنتقل الى بيت آخر.

مع ذلك بقيت رغم انها طلبت الخروج مرتين.

ذات ليلة، استيقظت أدلين على ضجيج غريب ولم تجد هكتور في السرير الذي ينام فيه بالقرب من سريرها وكان الأثنان يرقدان في سريرين توأمين مما يتفق مع العجز. انتظرت ساعة دون أن يعود البارون. تملكها الخوف وتوجست أن يكون في الأمر مصيبة مأساوية أو سكتة دماغية، صعدت أولاً الى الطابق العلوي المؤلف من السقائف حيث ينام الخدم، واتجهت كالمسحورة نحو غرفة أغات بدافع من الضوء القوي الذي يخرج

من الباب المفتوح قليلاً كما بدافع من الهمس الذي يتردد بين صوتين.

وقفت وجلة خائفة عندما تعرفت على صوت البارون الذي سحرته مفاتن أغات، فتوصل اليها بعد مقاومة محسوبة لهـذه الأمرأة الشرسة القذرة مما دفعه الى النطق بهذه العبارة الشنيعة:

ـ إن زوجتي لن تعيش طـويلاً، فـاذا رضيت يمكنـك أن تصبحي بارونة.

انطلقت من فم أدلين صرخة وسقط الشمعدان من يدهـا وهربت.

بعد ثلاثة أيام كانت البارونة في احتضارها الأخير وحـولها عائلتها تحيط بها وتسوسها وهي غارقة في الدموع.

وقبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بلحظات، شدت البارونة يد زوجها وهمست في أذنه:ـ لم يبق أمامي الا حياتي أهبها لك: في برهة تصير حراً وتتمكن من استبدالي ببارونة هيلو ثانية.

ورأى من شهد ذلك، ما هو نادر جداً: دموعاً ترشح من عيني مائتة.

انتصرت شراسة الفسق على صبر ملاكٍ انطلقت منه وهو على باب الأبدية، كلمة التأنيب الوحيدة التي تجاسر على اسمـاعه إياها طوال حياته.

غادر البارون هيلو باريس بعد ثلاثة أيام من دفن زوجته. وبعد أحد عشر شهراً علم فيكتوران بزواج ابيـه من الآنسة أغات بيكوتار الذي تم الاحتفال به في ايزيني في أول شباط ١٨٤٦.

ـ أجدادنا يمكنهم أن يعرقلوا زواج أولادهم، بيد أن الأولاد لا يستطيعون منع حماقات الأجداد الطفولية. هكذا قال الاستاذ هيلو الى الاستاذ بوبينو، الابن الثاني لوزير الخارجية السابق، الذي كان يتحدث معه عن هذا الزواج.

المَلَف

سيرة بلزاك

إن حياة بلزاك مثقلة بالأحداث المختلفة ، وكلها تبدو بيّنة التعقيد ، إلى حد يكون معه السرد التاريخي الخالص للوقائع مزيجاً غريباً .

فنحن ، في المجال التاريخي ، اكتفينا بأن ميّزنا ، بطريقة أقل ما يمكن أن تكون كيفيّة ، مراحل خمساً كبيرة في حياة بلزاك : من الأصول حتى ١٨١٤ ، ١٨١٥ - ١٨٢٨ ، ١٨٢٨ - ١٨٣٣ ، ١٨٣٣ - ١٨٤٠ ، ١٨٤١ - ١٨٥٠ .

فصّلنا ، داخل المراحل الرئيسية ، حين هناك مجال ، ترتيب الوقائع حسب طبيعتها : الآثار ، النشاطات الأخرى المتصلة بالأدب ، الحياة العاطفية ، الرحلات ، الخ . (إنما مستعيدين ، داخل كل مقطع ، النسق التاريخي لتسلسلها) .

العائلة ، الطفولة ، من الأصول حتى ١٨١٤ :

في « رويرغ » ، وفي تموز ١٧٤٦ ، وُلد برنار فرنسوا بلسّا ، الذي سوف يصير والد الروائي ويموت في ١٨٢٩ ، من سلالة قروية . في ١٧٧٦ نلقى الاسم مسجلاً « بلزاك » .

كانون الثاني ١٧٩٧ : يتزوّج برنار- فرنسوا ، في الخمسين ، وكان مديراً للاعاشة في قسم « تور » العسكري ، من لور سلمبييه الكائنة في الثامنة عشرة ، وعاشت حتى ١٨٥٤ .

٢٠ نوار ١٧٩٩ : مولد اونوريه بلزاك (بدون دي) في « تور » . وكان ولد صبي أول في مثل هذا اليوم قبل سنة ، لكنه لم يعش .

بعد أونوريه ، وُلد ثلاثة آخرون : ١ - لور (١٨٠٠ - ١٨٧١) ،

تزوّجت في ١٨٢٠ من أوجين سورفيل ، مهندس جسور وطرقات ، وقد بقيت وصيفة مفضّلة لأخيها الروائي ، ٢ ـ لورنس (١٨٠٢ ـ ١٨٢٥) ، أصبحت ، سنة ١٨٢١ ، السيّدة دي مونتزيفل : وفي عمادها ، ظهرت ، لأول مرة ، « دي » قبل اسم العائلة : بلزاك ، ٣ ـ هنري (١٨٠٧ ـ ١٨٥٨) ، وهو ابن زنا من جان دي مارغون ، (١٧٨٠ ـ ١٨٥٨) سيد قصر ياشيه .

انطبعت طفولة هونوريه ومراهقته بإيثار الأم لهنري ، الكان محمياً من المواهب والشخصيّة ، فقضى حياة بائسة ، والاقامات الكثيبة التي قضاها في جزر المحيط الهندي قبل موته في مايوتّ تختلف ، كلياً ، عن المغامرات الروائيّة لقاطعي البحار البلزاكيّين . ولقد احتفظ بلزاك بعلاقات مع مارغونّ وغالباً ما أقام في ساشيه ، حيث تبدو ، حتى اليوم ، غرفته وطاولة عمله .

وضع أونوريه ، منذ مولده ، في الحضانة عند زوجة جندي في « سان ـ سير ـ سور ـ لوار » ، ضاحية « تور » اليوم . من ١٨٠٤ إلى ١٨٠٧ جُعل في مدرسة خارجيّة في « تور » ، ومن ١٨٠٧ إلى ١٨١٣ هو تلميذ داخليّ في معهد دي فندوم . ثم ، خلال أكثر من سنة في ١٨١٣ ـ ١٨١٤ ، ظل في عائلته ، مرتاحاً ، لاصابته بتلبكات وبنوع من البلادة بسبب إكثاره من المطالعة . ويعاود دروسه ، خلال أشهر في ١٨١٤ ، في معهد « تور » ، كتلميذ خارجيّ .

وعيّن والده ، الكان حينها مدير مَضْيَفة « تور » العامة ، مدير إعاشة في مشروع باريسيّ لقرطاسية الجيش . فانتقلت العائلة كلها من « تور » إلى « باريس » ، في تشرين الثاني ١٨١٤ .

تدرّجاته ، ١٨١٥ ـ ١٨٢٨ :

١٨١٥ ـ ١٨١٩ : تابع أونوريه دروسه في باريس . باشر دراسة الحقوق ، حضر محاضرات في (السوربون) وفي (الموزيوم) . عمل ككاتب

محام في مكتب المحامي غيّونيه - مرفيل ثم في مكتب كاتب العدل باسّيه . هذان التدرجان طبعاه عميقاً .

بعد تقاعد الوالد ، قلّت موارد العائلة ، فغادرت باريس وقطنت ، صيف ١٨١٩ ، في « فيلباري » . ذلك الصيف أعدم ، على المقصلة ، في « ألبي » أخ لبرنار - فرنسوا أكبر ، بجريمة قتل فتاة مزرعة ، لربما لا علاقة له بها . في هذه الأثناء ، كانوا يعدون أونوريه ليصير كاتب عدل ، استطاع أن يرفض ذلك ، ويسكن باريس وحيداً ، في سقيفة ، ليؤكّد موهبته في مجال الآداب . في أيلول ١٨٢٠ ، حصل ، « بخبطة حظ » ، على إعفاء من الخدمة العسكرية .

منذ ١٨١٧ كان كتب ملاحظات حول الفلسفة والدين ، أتبعها في ١٨١٨ بملاحظات حول خلود النفس ، هي أولى الاشارات لذهنه الواضح للتأمل الفلسفي ، وقد احتفظ به طويلاً : الآن هو يتعدّى لتراجيديا ، كرومول ، خمسة فصول شعرية ، انهاها في ربيع ١٨٢٠ . وإذ أخضعت المسرحية لنقّاد متتابعين ، رؤي أنها غير ناجحة ، ولقد رأى أندريو ، وهو كاتب محبوب وأستاذ في (معهد فرنسا) وأكاديمي ، إذ استشارته العائلة ، أن بلزاك يمكنه أن يحاول في أي مجال آخر ، خارج نطاق الأدب . أكمل بلزاك في المجال الفلسفي بـ (فالتورن) ١٨٢٠ ، و (ستيني) ١٨٢١ ، تبعهما في ١٨٢٣ (مبحث في الصلاة) و (فالتورن) ثانٍ .

من ١٨٢٢ إلى ١٨٢٧ ودائماً بأسماء مستعارة ، مع آخرين أو لوحده ، يطبع مجموعة لا بأس بها من منتوجات روائية « رائحة الاستهلاك » تراءى له أن يعنونها « مسائل صغيرة في الأدب التجاري » ، أو حتى « قذارات أدبيّة » . انقسم البلزاكيّون حول موضوعها ، بعضهم وجد فيها مخطّطات لموضوعات وعلامات تبشّر بموهبة روائية ، وشك الآخرون في أن يكون بلزاك وضع فيها شيئاً حقيقياً منه ، إذ هو مغرم في إرضاء جمهوره .

تبدأ ، في ١٨٢٢ ، علاقته الطويلة (غير الملتزمة ، من جهته بأنطوانيت

دي برني ، التي التقاها في فيلياريزي قبل عام . هي من مواليد ١٧٧٧ ، إذن فعمرها ضعفا عمره وهي أكبر من أمّه بسنة ونصف ، مزدوج حبّه لهذه التي ، من جديد ، عمّدها لور وديلكتا ، حيث وجد تعويضاً لطفولته المحرومة .

انها ابنة موسيقي من البلاط وإحدى وصيفات ماري ـ أنطوانيت ، وبما أنها امرأة مجربة ، فقد لقّنت عاشقها الشاب ، ليس فقط أسرار الحياة المدنية في ظل النظام القديم ، ولكن أيضاً الوضع النسوي واللذة الحسيّة . بقيت له العون والدليل الأكثر ثقة . توفيت في ١٨٣٦ .

في ١٨٢٥ دخل بلزاك في علاقة مع دوقة أبرانتيس (١٧٨٤ ـ ١٨٣٨) ، تكبره هذه العشيقة الجديدة ، التي تضاف إلى السابقة ولا تحلّ محلّها ، بخمسة عشر عاماً . ولقد أكملت له الثقافة الكانت قدّمتها له السيّدة دي برني ، فكانت ضليعة بتاريخ الثورة والامبراطورية ، وقدّمته إلى الأصدقاء المتعدّدين الذين تحتفظ بهم ، له هو نفسه ، فيما بعد ، يصير مستشارها وربما مشاركها حين كتبت مذكّراتها .

خلال آخر هذه الفترة ، ينطلق في أعمال تغني ، بطريقة لا شبيه لها ، اختبار من سيكون كاتب المهزلة البشرية ، لكنه ، في الانتظار ، يتعرّض لفشل كثير مؤلم .

عمل ناشراً في ١٨٢٥ ، وطابعاً في ١٨٢٦ ، وصاحب مسبك في ١٨٢٧ ـ ودائماً شراكة ، وأساس مساهماته من عائلته ومن السيدة دي برني . نشر ، في ١٨٢٥ و١٨٢٦ ، بين ما نشره طبعات مندمجة من موليير ولافونتين لأجلها كتب ملاحق . تعذّلت ، في ١٨٢٦ ، شركة السباكة ، انسحب منها لصالح ألكسندر دي برني ، ابن صديقته : صار هذا المشروع واحداً من أجمل التحقيقات الفرنسيّة في هذا المجال . صفّيت المطبعة بعد أشهر من ذلك ، في آب ، تركت لبلزاك ستين ألف فرنك ديناً (خمسون منها لعائلته) .

رحلات كثيرة وإقامات في الريف ، منها في منطقة « إيل ـ أدام » ونورماندي ، وبخاصة في تورّين ، أرض مولده وأرضه المفضّلة .

البدايات ، ١٨٢٨ - ١٨٣٣ :

ذهب بلزاك يقيم ، منتصف أيلول ١٨٢٨ ، لستة أسابيع في فوجير ، لأجل كتاب يحضّره عن ثورة الملكيين . الثائر الملكي الأخير (أو بريتانيا) في ١٨٠٠ ، وقد صار عنوانه النهائي الثوار الملكيون (الناعقون) ، ظهر في ١٨٢٩ . انها الرواية الأولى التي يضطلع ، صراحة ، بمسؤوليتها إذ يوقّعه باسمه الصريح .

ولقد نشر في كانون الأول ١٨٢٩ ، باسم مستعار : « فيزيولوجية الزواج » ، بحيث (أو كما قال فيما بعد « دراسة تحليليّة ») كان وضع تصميمه ثم تخلّى عنه سنوات عدّة .

١٨٣٠ : مشاهد من الحياة الخاصة في جزءين : ست قصص أو قصص قصيرة . صار هذا العدد خمس عشرة قصة في طبعة جديدة بالعنوان نفسه بأجزاء أربعة (١٨٣٢) .

١٨٣٠ : « الجلد المسحور » ، استعيدت هذه الرواية ، في السنة ذاتها ! لتؤلّف ، مع اثنتي عشرة قصة مختلفة ، أجزاء ثلاثة من « روايات وقصص فلسفيّة » ، تتصدر المجموعة مقدّمة من فيلاريت شازل ، موحاة ، ولا شك ، من بلزاك .

١٨٣٢ : « قصص فلسفية جديدة » زادت هذه السلسلة بأربعة قصص (بينها كتابة أولى لـ « لويس لامبير ») . يجب الاشارة هنا أن النعت « فلسفيّة » له معنى قوي غامض ، احتياطي ، في ذهن الكاتب .

القصص الهزلية . على غرار « مئة قصة جديدة » (كان عنده ذوق قوي للأدب القديم المسمّى غاليّ) ، أراد يكتب مئة موزّعة في عشرة كتب . المجموعة العشرية الأولى ظهرت في ١٨٣٢ ، الثانية في ١٨٣٣ ، لم تُنشر الثالثة إلا في ١٨٣٧ ، وتوقف عند هذا الحد مشروعه .

أيلول ١٨٣٣ : « طبيب الريف » . خلال هذه الفترة ، أعطى بلزاك

نصوصاً كثيرة مختلفة لدوريات عديدة . تابع هذا النوع من المراسلة طوال حياته كلها ، إنما بمعدّل أقلّ .

ظلت لور دي برني المحبّة ، وصارت لور أربانتيس صديقة .

هوى عابر مع أوليمب بيليسييه .

بعد علاقة تراسلية ، أول الأمر ، مع دوقة كاستري في ١٨٣١ ، أقام قربها في « إكس - لي - بان » وفي « جنيف » ، خلال أيلول وتشرين الأول ١٨٣٢ ، راحت تتسلّى بأن تستسلم بحرارة لتغزّلاته ، إنما لا تمكنه من نفسها ، وإذ خُذل منها ، انتقم بدوقة دي لانجيه .

تلقى ، في بداية ١٨٣٢ ، من أوديسا رسالة موقّعة « الغريبة » ، وأجاب عبر إعلان صغير مدرج في جريدة : إنها بداية علاقاته بالسيّدة هانسكا (١٨٠٥ - ١٨٨٢) ، زوجته المستقبليّة ، وقد التقاها ، لأول مرة ، في نيوشاتل أواخر أيلول ١٨٣٣ .

حوالى الفترة هذه ، نفسها ، كانت له عشيقة سرية ، ماريّا دي فرمناي .

رحلات كثيرة جداً . سوى التي ذكرنا آنفاً (فوجير ، إكس ، جنيف ، نيوشاتل) ، تجب الاشارة إلى إقامات له عديدة قرب « تور » أو « نيمور » ، مع السيّد دي برني ، في « ساشيه » ، في « أنغوليم » عند أصدقائه كارّو ، الخ .

لم يمنع عمله المضني ، من أن يكون مشهوراً كلياً في الأوساط الأدبية وبين الناس . قضى حياة تفاخرية باهظة .

سياسياً ، أعلن نفسه ملكيّاً ، فكر بترشيح نفسه للانتخابات التشريعية في سنة ١٨٣١ ، وسنة ١٨٣٢ في انتخاب فرعي .

الانطلاقة ، ١٨٣٣ - ١٨٤٠ :

في هذه الفترة لم يكن بلزاك يكتفي بتأمين توسيع مؤلفاته : صار يهتم بتخصيص تنظيم متكامل لها . و « مشاهد من الحياة الخاصة » و « روايات وقصص فلسفية » تشهد عنده لهذه النزعة . بات يتقدم ، الآن ، في الطريق التي قادته إلى تصوّره العام و « المهزلة الانسانية » .

في تشرين الأول ١٨٣٣ وقّع عقداً لنشر سلسلة عنوانها « دراسات لعادات القرن التاسع عشر » ، ينبغي أن تضم إعادة لطبعات كما كتباً جديدة . مقسومة إلى ثلاث حلقات ، ضمّت هذه السلسلة أربعة أجزاء من « مشاهد من الحياة الخاصة » ، أربعة من « مشاهد من الحياة الريفية » ، وأربعة من « مشاهد من الحياة الباريسيّة » . ظهرت هذه الأجزاء الاثنتي عشرة من كانون الأوّل ١٨٣٣ حتى شباط ١٨٣٧ . تصدّرت الجزء الأول مقدمة مهمّة لفليكس داڤان ، حاملاً لواء بلزاك أو حتى مسخراً منه . للتبويب قيمة أدبية ورمزية معاً : يرتكز هو ، في الآن ذاته ، على إطار العمل وعلى معنى الموضوع .

وبالمقابل ، ظهر ، بين ١٨٣٤ و ١٨٤٠ ، عشرون جزءاً من « دراسات فلسفية » ، مع مقدّمة جديدة من فليكس دافان .

أهم كتبه في المكتبات هذه الفترة هي : أوجيني غرانده ، نهاية ١٨٣٣ ، البحث عن المطلق ، ١٨٣٤ ، الأب غوريو ، زهرة الجلبان (صار العنوان : عقد الزواج) ، سيرافيتا ، ١٨٣٥ ، قصة الثلاثة عشر ، ١٨٣٣ - ١٨٣٥ ، زنبقة الوادي ، ١٨٣٦ ، العانس ، أوهام ضائعة (بداية) ، سيزار بيروتو ، ١٨٣٧ ، المرأة المتفوّقة (صار عنوانها الموظفون) ، العائلة نوسينجن ، (بداية جلال العاهرات وتعاستهن) ، ١٨٣٨ ، غرفة الأثريات ، ابنة ما لحوّاء ، بياتريكس ، ١٨٣٩ ، أميرة باريسية (صار العنوان فيما بعد « أسرار الأميرة كادينيان ») ، بياريت ، بيار غراسّو ، ١٨٤٠ .

على هامش هذا النشاط المهم ، بدأ بلزاك . في نهاية ١٨٣٥ ، بمشاركة فعّالة في جريدة « لاكرونيك دي باري » وهي سياسيّة وأدبيّة ، نشر فيها عدداً لا بأس به من النصوص إلى أن ، بعد أشهر سنة ، تفككت الشركة بعد عجز لا يمكن تعويضه . وبدافع الحشرية أعاد طبع جزء من روايات شبابه ، محتفظاً باسم مستعار لا يستغلّ أحداً : هي الأعمال الكاملة لأوراس دي سان - أوبان ، في ستة عشر جزءاً ، ١٨٣٦ - ١٨٤٠ .

انتسب في ١٨٣٩ ، إلى جمعية شابة هي شركة رجال الأدب ، رئسها في ١٨٣٩ ، وقام بحملات متنوعة لحماية المُلكية الأدبية وحقوق المؤلفين .

ترشح للأكاديمية الفرنسية في ١٨٣٩ ، انسحب لهوغو الذي لم يفز .

أسّس في ١٨٤٠ « المجلة الباريسية » - شهرية ويكتبها بكاملها ، احتجبت بعد ثالث أعدادها ، حيث نشر مقاله الطويل المشهور حول « شارترية بارم » .

عاد إلى المسرح ، انشغاله القديم والدائم منذ كرومويل عشرينه : فترفض (لارينيسّانس) « مدرسة العلاقات » ، مسرحية قرأها عند كوستين بحضور ستندال وتيوفيل غوتييه . في ١٨٤٠ أجازت الرقابة مسرحية « فوتران » ، لكنها مُنعت منذ اليوم الثاني لتقديمها للمرة الأولى .

يقيم في جنيف إلى جوار السيّدة هانسكا من ٢٤ كانون الأول ١٨٣٣ إلى ٨ شباط ١٨٣٤ ، عاد فالتقاها في فيينّا (النمسا) في نوار - حزيران ١٨٣٥ ، ومن حينها بدأ انفصال دام ثمانية أعوام .

في ٤ حزيران ١٨٣٤ ولدت ماري دي فرسناي ، مفترضة ابنته ، ولقد نظر إليها كذلك ، عاشت حتى ١٩٣٠ .

انقطعت السيّدة دي برني عن رؤيته منذ نهاية ١٨٣٥ ، بسبب مرضها انطلاقاً من ١٨٣٤ ولكونها مثقلة بتعاسات عائليّة ، توفيت بعد ثمانية أشهر من ذلك .

في ١٨٣٦ ، مولد ليونيل - ريشار لويل ، مفترضاً ابن بلزاك والكونتيسة

غيدوبوني ـ فيسكونتي ، ويفوّضه الكونت نفسه في ١٨٣٧ لينهي له في البندقية قضية إرث . وفي العام ذاته التجأ بلزاك عند الكونتيسة ملاحقاً بسبب ديون : دفعت عنه ، وأنقذته ، هكذا ، من السجن .

تموز ـ آب ١٨٣٦ : ترافقه السيدة ماربوتي ، متنكرة بثياب رجل ، إلى توران وسويسرا .

رحلات كثيرة

استقبله مترنيخ ، أثناء رحلته النمساوية في ١٨٣٥ ، ويزور ساحة معركة (واغرام) قصد كتابة رواية لم يكتبها . في ١٨٣٦ ، وهو مقيم في « تورين » رأى نفسه يستقبله تالّيران ودوقة دينو . في السنة التالية تستضيفه جورج صاند في نوهان . توحي إليه موضوع بياتريكس .

علم ، أثناء رحلته الايطالية في ١٨٣٧ ، في جنوى ، أنه بالمستطاع استثمار خبث معادن مناجم الرصاص المحتوي الفضة القديمة ، في سردينيا ، وبرغ ، في ١٨٣٨ ، وهو يمر بكورسكا ، يزور المكان ـ ليلاحظ أن الفكرة جيّدة لكنّ شركة من مرسيليا سبقته ، عودة إلى جنوى ، توران ، ميلانو حيث يتأخّر .

يسجّل ، في ١٨٣٤ ، غداء يجمع بلزاك ، فيدكوك ، ويجلاّدين سانسون الأب والابن .

١٨٣٥ : يتخاصم مع الحرس الوطني رافضاً ، بحزم ، تأمين أدواره في الحراسة ، فيختبيء منهم ، كما من دائنيه ، في شايّو باسم « السيّدة دوران الأرملة » ، في ١٨٣٦ يعتقله الحرس الوطني لأسبوع في سجن مسمّى «أوتيل دي أرّيكو» ، سجن جديد ، للسّبب نفسه ، في ١٨٣٩ .

١٨٣٧ : اشترى قرب باريس ، في شيفر ، في المكان المسمى « لي جاردي » ، العناصر الأولى المنها يريد بناء مسكن . ويدعي بعضهم أنه حلم ، حتى ، بتحصيل ثروة لكونه أراد يؤقلم هناك زراعة الأناناس . كلّفته كثيراً مشاريعه الضخمة هذه ولم تجلب له سوى الخيبات . تصفية باهظة

وطويلة ، وعند موت بلزاك ، لم تكن ، بعد ، انتهت ، كلياً .

في تشرين الأول ١٨٤٠ ، إذ غادر « لي جاردي » ، استقرّ في باسّي في شارع ريونار الحالي ، حيث بيته عاد مجدّداً اليوم : « بيت بلزاك » .

تتمة ونهاية ، ١٨٤١ ـ ١٨٥٠ :

الحدث الفارق الذي يفتتح هذه المرحلة هو مولد « المهزلة الانسانية » المعتبرة ككلّ عضويّ . هذا العمل هو العقد الموقّع في ٢ تشرين الأول ١٨٤١ مع جماعة ناشرين لطبع مؤلفات بلزاك الكاملة ، تحت هذا العنوان . واحتفظ لنفسه بحق « تنسيق وتوزيع المواد ، ترقيم وترتيب الأجزاء » .

لقد رأينا الروائي ، منذ بداياته الحقيقية أو يكاد ، يُظهر اهتماماً بالفئة والتصنيف . تشهد على هذا رسالة إلى السيّدة هانسكا في ٢٦ تشرين الأول ١٨٣٤ . رسالة في كانون الأول ١٨٣٩ أو كانون الثاني ١٨٤٠ موجهة إلى ناشر مجهول ، وقد بقيت بدون تتمة ، تسجّل ، لأول مرة ، « العنوان العام » مع تصميم موسّع إلى حد ما . سيتحقّق ، هذه المرة ، المشروع الكبير (مع مراعاة بعض التغييرات اللاحقة في تفصيل التصميم ، وكذلك مع مراعاة مؤلّفات كثيرة معلن عنها لم تُكتَب) .

المجموعة التي صار اسمها « المهزلة الانسانية » ، ضامّة إعادة طبعات ومؤلفات جديدة ، ظهرت بين ١٨٤٢ و ١٨٤٨ في سبعة عشر جزءاً ، أكملت سنة ١٨٥٥ بجزء ثامن عشر ، تبعه ، كذلك ، في السنة نفسها ، جزء تاسع عشر (مسرح) ، وجزء عشرون (قصص هزليّة) . ثلاثة أقسام : دراسات في العادات ، دراسات فلسفيّة ، دراسات تحليليّة ـ يقسم القسم الأول ذاته إلى مشاهد من الحياة الخاصة ، مشاهد من حياة ، مشاهد من الحياة الباريسية ، مشاهد من الحياة السياسية ، مشاهد من الحياة العسكريّة ومشاهد من الحياة الريفية .

التمهيد نص مذهبي رئيسي . كان طلب ، بدون جدوى ، قبل أن

يقرِّر كتابته بنفسه ، إلى نوديه ، إلى جورج صاند كذلك ، أو هو مضطر لاعادة مقدمات دافان لدراسات في العادات ودراسات فلسفيّة قديمة .

طبعات أولى في المكتبة : خوري القرية ، ١٨٤١ ، مذكرات زوجين شابين ، أو رسول ميرويه ، ألبير سافاروس ، المرأة الثلاثينيّة (بشكلها النهائي وعنوانها بعد كثير تبديلات) ، الأخوان (صار العنوان معكرة المياه) ، ١٨٤٢ ، قضية معتمة ، إلهة المقاطعة ، أوهام ضائعة (بالكامل) ، ١٨٤٣ ، أو نورين ، مينيون المتواضع ، ١٨٤٤ ، تعاسات الحياة الزوجية البسيطة ، ١٨٤٦ ، التجسد الأخير لفوتران (منهياً جلال العاهرات وتعاستهن) ، ١٨٤٧ ، الأهل الفقراء (النسيب بون والنسيبة بت) ١٨٤٧ ـ ١٨٤٨ .

روايات صدرت بعد وفاته . نائب أرسيس والبورجوازيّون الصغار ، بقيا غير منجزين ، وقد أنجزهما ، بوقاحة مذهلة ، شارل رابو بالاتفاق مع الأرملة ، وصدرا في ١٨٥٤ و١٨٥٦ . وعملت الأرملة بنفسها ، بحس أرفع بكثير ، على أنها « القرويّون » التي نشرتها في ١٨٥٥ .

مسرح . تقديم وفشل « موارد كينولا » ١٨٤٢ ، « باميلا جيرو » ، ١٨٤٣ . نجاح محدود لـ « المتشائمة » ، مسرحيّة كتبت في تاريخ غير ملائم (٢٥ نوّار ١٨٤٨) ، بعد ذلك بثلاثة أشهر ، تحصل الكوميدي فرانسيز على « ماركاديه » أو « المتفاخر » لكن المسرحية لم تقدّم .

صار فارساً في جيش الشرف منذ نيسان ١٨٤٥ ، وترشّح أيضاً إلى الأكاديمية الفرنسيّة ، فحصل في ١١ كانون الثاني ١٨٤٩ ، على أربعة أصوات بينها صوتا هيغو ولامارتين (فُضّل عليه الدوق دي نواي) ، وفي التصويتات الثلاثة ، في ١٨ كانون الأوّل ، حصل على صوتين (فينيي وهيغو) ، صوت واحد (هيغو) ولا شيء ، فانتخب الكونت دي سان ـ بريست .

خلال هذه الفترة كلها ، مغامراته ورحلاته تحمل اسماً واحداً : السيّدة هانسكا . مات الزوج ـ أخيراً ! ـ في ١٠ تشرين الثاني ١٨٤١ في أوكرانيا ، لكن بلزاك لم يعلم بالأمر إلا في ٥ كانون الثاني عن هذا الحدث الكان ، مع

ذلك، ينتظره بفارغ الصبر . ومع هذا ، فقد جعلته صديقته ، وقد صارت حرة في الزواج منه ، ينتظر حوالى العشر سنوات ، اما لفقدانها المبادرة ، اما لأن النظام القيصري ، فعلاً ، يستعدّ لمصادرة أملاكها الكانت كثيرة فيما لو هي تزوّجت من أجنبيّ .

في ١٨٤٣ ، بعد انفصال ثمانية أعوام ، ينتقل بلزاك لرؤ يتها لشهرين في سان بطرسبورغ ، عاد عبر برلين ، فرينانيا ، فبلجيكا . في ١٨٤٥ رحلات مشتركة إلى المانيا ، فرنسا ، هولنده ، بلجيكا ، إيطاليا . في ١٨٤٦ ، يلتقيان في روما ويسافران إلى إيطاليا ، سويسرا ، المانيا .

تحبل السيّدة هانسكا ، يفرح بلزاك حتى الأعماق ، وفضلاً عن ذلك ، يرى في هذا الحدث مناسبة للاسراع في الزواج ، ييأس حين هي تضع في تشرين الثاني ١٨٤٦ ولداً ميتاً .

في ١٨٤٧ تقضي بضعة أشهر في باريس ، فيما بعد ، يخط ، هو نفسه ، وصية في صالحها . في الخريف يذهب للقياها في أوكرانيا ، حيث يقيم حوالى خمسة أشهر . يعود إلى باريس ، يحضر ثورة شباط ١٨٤٨ ، يفكّر بالترشح إلى الانتخابات التشريعية ، يعود مجدّداً ، منذ أواخر أيلول إلى أوكرانيا ، حيث يقيم حتى نهاية نيسان ١٨٥٠ .

هناك تزوّج السيدة هانسكا ، في ١٤ آذار ١٨٥٠ .

معاً عادا إلى باريس حوالى ٢٠ نوار ، وفي ٤ حزيران يوقّعان وثيقة متبادلة بكل أملاكهما في حال الوفاة . وقبل عدة سنوات كانت صحة بلزاك ما فتئت تتدهور .

في أول حزيران ١٨٥٠ ، آخر رسالة (في علمنا) كتبها بلزاك بخط يده . في ١٨ آب ينال سر مسحة المرضى ، وإذ جاء هيغو لزيارته وجده غائباً عن الوعي : مات في الحادية عشرة والنصف ليلاً في حالة جسدية يرثى لها . دُفن في (بير- لاشيز) بعد ثلاثة أيام ، حمل بساط الرحمة هيغو وديماس ، ولكن كذلك المشؤوم سانت - بوف ، الذي لم يفهم شيئاً من موهبته ، وأخيراً

وزير الداخلية ، أمام قبره ، خطاب رائع من هيغو : لم يشك لا هيغو ولا بودلير بعبقريّة بلزاك .

بعد أن وجدت زوجة بلزاك بعض تعزية عند ترمّلها ، ماتت مفلسة سنة ١٨٨٢ .



تعليق

كتب بلزاك رواية «النسيبة بِتْ» بين صيف ١٨٤٦ ومطلع كانون الأول ١٨٤٦. وكان طوال أشهر مأخوذاً بعملية زواجه من السيدة هانسكا، وبمشاكله المالية باستقراره في منزله/ شارع فورتونيه. فلم يعد يكتب حرفاً. ولكنه، مدفوعاً بالحاجة، وبرغبته في «قلب الآلهة المزيفين عن عروشهم عاد الى الكتابة. فكر أولاً بقصة من جزءين: الأهل الفقراء. وتخلى عن الجزء الأول (النسيب بون) لينكب على الآخر (النسيبة بِتْ) الذي استهلك منه وقتاً كبيراً. وراح ينشر الرواية متسلسلة في جريدة «الدستوري» (لو كونستيتوسيونيل) منذ تشرين الأول ١٨٤٦، وبدأ بلزاك يعاني من الصعوبات في استكمال المادة الى الجريدة. ولم ينهها الا بعدما أنهكته. وقبل أن يكتب فيها الاسطر الأخيرة، علم أن الطفل الذي تحمله السيدة هانسكا في أحشائها، لن يعيش. لم يتسن له أن يكون والداً. لكنه كان والد رواية.

عام ١٨٤٧، ظهرت الطبعة الأولى (في ستة أجزاء لدى شلندوفسكي). وعام ١٨٤٨، ظهرت «النسيبة بت» في المجلد السابع عشر من «الكوميديا البشرية»، وهو الأخير الصادر على حياة بلزاك، دون أن يضلنا ما اذا كان نقحه كما فعل في الستة

عشر مجلداً السابقة، في سبيل صدور الطبعة الثانية. كل ما وصلنا، أن نسخة تم ارسالها الى بلزاك في روسيا عام ١٨٤٩، لكن النسخة ضاعت. من هنا أن تلك الطبعة الأولى هي الوحيدة التي لم يعد يلحقها أي تعديل، خلا التي ظهرت لدى فورن وفيها مقطعان محذوفان من الطبعة الأولى، اذ فيهما كلام متناقض للمؤلف، في أمور فلسفية وسياسية وثمة مقطع آخر حذفه فورن من طبعة شلندوفسكي، وكان بلزاك أورده، في الجريدة (عند نشره الرواية متسلسلة) بشكل حوار مباشر مع قرائه، فلم يعد له مسوغ، لدى الصدور في كتاب، موجه الى أجيال، لا الى قراء جريدة. . .

فهرس

المقدمة بقلم بيار بربريس ٧

النسيبة بِتْ

١ - ما أغرب مطارح الهوى! ٣٥
٢ - من حميّ إلى حماة ٤١
٣ - جوزيفا ٤٩
٤ - تحنان مفاجىء عند العطار ٥٤
٥ - كيف يمكن تزويج الفتيات الجميلات اللواتي هنّ بلا ثروة ٥٨
٦ - (الكابتين يخسر المعركة) ٦٣
٧ - ما أجملها حياة لامرأة ٦٧
٨ - أورتنس ٧٣
٩ - طبع فتاة عانس ٧٧
١٠ - عاشق بِتْ ٨٨
١١ - بيت عانس وصبية ٩٥
١٢ - السيد البارون هكتور هيلو أفري ١٠١
١٣ - اللوفر ١١٢
١٤ - (حيث نرى النساء الجميلات...) ١١٦
١٥ - بيت مارنيف ١١٨

١٦ ـ سقيفة الفنانين ١٢٤
١٧ ـ قصة منفي ١٣٣
١٨ ـ حادثة جرت مع عنكبوت ١٣٨
١٩ ـ كيف يتم الفراق في الدائرة الثالثة عشرة ١٤٩
٢٠ ـ تخسر واحدة، تلقى واحدة ١٥٥
٢١ ـ رواية الفتاة ١٦١
٢٢ ـ اتركوا للفتيات حرية التصرف ١٦٦
٢٣ ـ لقــاء ١٧٢
٢٤ ـ حيث الصدفة ١٧٩
٢٥ ـ مخطط مارنيف ١٨٨
٢٦ ـ فضول رهيب ١٩٢
٢٧ ـ مسارات قصوى ٢٠١
٢٨ ـ تحول بِتْ ٢٠٦
٢٩ ـ في حياة السيد كروفيل وآرائه ٢١٣
٣٠ ـ تابع ما قبله ٢١٨
٣١ ـ آخر محاولة لكاليان مع آربيل ٢٢٨
٣٢ ـ الثأر الذي لم يتم ٢٣٤
٣٣ ـ كيف يتم الكثير من عقود الزواج ٢٤١
٣٤ ـ نموذج متعصب ٢٤٧
٣٥ ـ تتلاقى نهايات القصص العادية ٢٥٥
٣٦ ـ العروســان ٢٦١

٣٧ ـ خواطر أخلاقية في اللاأخلاقية ٢٦٧
٣٨ ـ حيث نرى تأثير آراء كروفيل ٢٧٠
٣٩ ـ الوسيم هيلو وقد تحطم ٢٧٧
٤٠ ـ أحد جروح باريس السبعة ٢٨٢
٤١ ـ آمال ابنة العم بِتْ ٢٨٨
٤٢ ـ إلى أي حد يقلص المتهتكون نساءهم الشرعيات .. ٢٩٤
٤٣ ـ العائلة المكدرة ٢٩٩
٤٤ ـ العشـــاء ٣٠٤
٤٥ ـ عائد ذو دخل ٣١٠
٤٦ ـ في أي عمر يشعر الرجال الموسرون بالغيرة ٣١٥
٤٧ ـ المشهد الأول لملهاة نسائية رفيعة ٣٢٤
٤٨ ـ مشهد جدير بالعرض ٣٢٩
٤٩ ـ المشهد الثاني لملهاة نسائية رفيعة ٣٣٦
٥٠ ـ كروفيل ينتقم لنفسه ٣٤٤
٥١ ـ منزل السيد كروفيل ٣٤٨
٥٢ ـ رفيقان من أخوية الرفاق الكبرى ٣٥٣
٥٣ ـ سكيران حقيقيان ساخطان ٣٥٨
٥٤ ـ نظرة أخرى في أسرة شرعية ٣٦٣
٥٥ ـ الأشياء التي تصنع كبار الفنانين ٣٦٧
٥٦ ـ تأثير شهر العسل في الفنون ٣٧١
٥٧ ـ في النحـت ٣٧٥

٥٨ ـ حيث نرى مقدرة هذا الهدّام الاجتماعي الكبير، البؤس ٣٧٩
٥٩ - تأملات في «الشامات» ٣٨٦
٦٠ - دخول رائع ٣٨٩
٦١ - البولونيون عامة وستانبوك خاصة ٣٩٣
٦٢ - جدل حول تاريخ دليلة........ ٣٩٨
٦٣ - شاب، فنان وبولوني، ماذا تريد منه أن يفعل؟ ... ٤٠٥
٦٤ - العودة إلى المسكن ٤٠٩
٦٥ - أول طعنة خنجر........ ٤١٣
٦٦ - الخصام الأول في الحياة الزوجية ٤١٨
٦٧ - الشك يتعقب ضربة الخنجر الأولى........ ٤٢٥
٦٨ - لقية ولد........ ٤٢٨
٦٩ - والد ثانٍ في غرفة مارنيف ٤٣٣
٧٠ - الفرق بين الأم والأبنة ٤٣٤
٧١ - الأب الثالث لغرفة مارنيف ٤٣٩
٧٢ - الآباء الخمسة لكنيسة مارنيف........ ٤٤٢
٧٣ - استغلال للأب........ ٤٤٦
٧٤ - سعادة حزينة ٤٥١
٧٥ - أي دمار تحدثه السيدات كمارنيف في قلب العائلات ٤٥٤
٧٦ - موجز قصة المحظيات........ ٤٦٣
٧٧ - جرأة أحد الآباء الخمسة ٤٦٦
٧٨ - إنذارات أخرى ٤٦٨

٧٩ - (الباب في وجهه...) ٤٧٤
٨٠ - يقظة ٤٧٩
٨١ - إيقاع وسقاطة وسُقَيطة ٤٨٣
٨٢ - عملية جراحيّة ٤٨٩
٨٣ - تأملات أخلاقية ٤٩٣
٨٤ - كل شيء سيقع على وزارة الحربية ٤٩٦
٨٥ - كارثة أخرى ٥٠١
٨٦ - زينة أخرى ٥٠٩
٨٧ - عاهرة مهيبة ٥١٤
٨٨ - كروفيل يحاضر ٥٢١
٨٩ - حيث العاهرة المزيفة تستحيل قديسة ٥٢٦
٩٠ - قيثارة أخرى ٥٣٣
٩١ - لفتة الماريشال هيلو ٥٤٤
٩٢ - ملامة الأمير ٥٥٠
٩٣ - (جدل قصير جداً..) ٥٥٤
٩٤ - نظرة الصحف ٥٦٢
٩٥ - تأنيب الأخ ٥٦٤
٩٦ - دفن رائع ٥٦٩
٩٧ - رحيل الأب المبذر ٥٧٤
٩٨ - حيث ظهرت جوزيفا ٥٨٠
٩٩ - مِشبَك ٥٨٦

١٠٠ وصيّة الماريشال ٥٩٢
١٠١ تبدلات كبيرة ٥٩٦
١٠٢ سيف داموكليس ٦٠٢
١٠٣ صديق البارون هيلو ٦٠٩
١٠٤ العار والفضيلة ٦١٤
١٠٥ تصفية منزل تول وبيجو ٦٢٣
١٠٦ الملاك وإبليس يصطادان معاً ٦٢٩
١٠٧ إبليس آخر ٦٣٢
١٠٨ الشرطة ٦٣٧
١٠٩ تبديل اسم الأب تول بالأب توريك ٦٤١
١١٠ مشهد في عائلة ٦٤٥
١١١ مشهد آخر للعائلة ٦٥٢
١١٢ أثر الابتزاز ٦٥٩
١١٣ كومبابوس ٦٦٥
١١٤ عشاء الماجنات ٦٧٣
١١٥ حيثما نرى السيدة نوريسون في العمل ٦٨٣
١١٦ بيت صغير عام ١٨٤٠ . . . . ٦٩٣
١١٧ المشهد الأخير من المهزلة النسائية الراقية ٦٩٧
١١٨ الثأر يقع على فاليري ٧٠١
١١٩ الأخ الذي يجمع الصدقات ٧٠٤
١٢٠ اقتراحات طبيب ٧٠٨

١٢١ ـ يد الله ويد البرازيلي ٧١٢
١٢٢ ـ كلمة فاليري الأخيرة ٧١٥
١٢٣ ـ كلمات كروفيل الأخيرة ٧٢٠
١٢٤ ـ وجه من أوجه المضاربة ٧٢٤
١٢٥ ـ حيث لا نتساءل لماذا جميع صانعي المواقد في باريس هم من الطليان ٧٢٨
١٢٦ ـ أتالا الجديدة لا تقل وحشية عن تلك وليست كاثوليكية ٧٣٢
١٢٧ ـ إكمال السابق ٧٣٦
١٢٨ ـ عرفان جميل ٧٤١
١٢٩ ـ آخر كلمة لأتالا ٧٤٥
١٣٠ ـ عودة الأب المبذر ٧٤٧
١٣١ ـ إطراء النسيان ٧٥٠
١٣٢ ـ حل فظيع واقعي وحقيقي ٧٥٣

الملف

سيرة بلزاك ٧٥٩
تعليق ٧٧٣



بلزاك محمولاً على الأكتاف

Honoré de Balzac

La cousine Bette

